شرحُ سُنَنِ التِّرْمِذِيّ

كِتَابُ الجَنَائِزِ

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

رقم الدَّرس ٤٠٧

الأربعاء ١٣-١-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يَقولُ الْمُصَنِّفُ الإمامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[كِتَابُ[1] الْجَنَائِزِ عَنْ رَسُولِ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-**]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ]**.

[بَابُ: مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ الْمَرِيضِ].

قَالَ الإمامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا هَنَّادُ حَدَّثنا أبو معاويةَ عن الأعمشِ عن إبراهيمَ عن الأسودِ عن عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **((لا يُصِيْبُ الْمُؤمِنَ شَوكَةٌ فَمَا فَوقَهَا إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيْئَةً))**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ، وأبي عُبَيدةَ بنِ الْجَرَّاحِ، وأبي هُريرَةَ، وأبي أُمَامةَ، وأبي سعيدٍ، وأنسٍ، وعبدالله بنِ عمرٍو، وأسدِ بنِ كُرْزَ، وجابرٍ، وعبدالرحمن بنِ أزهرَ، وأبي مُوسى -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ جَمِيْعًا-

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ عائشةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ، الْحمدُ للهِ ربِّ العالَميْنَ، والصَّلاةُ وَالسَّلامُ الأَتَمَّانِ الأكملانِ على خَيْرِ خلقِ اللهِ أجْمعيْنَ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ سارَ على سبيلِهِ ونَهجِهِ، واسَتَنَّ بسنتِهِ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

فقد شَرَعَ الإمامُ الْحافظُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ في بيانِ أبوابِ الْجنائزِ عنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وهذا الكتابُ من كُتُبِ العباداتِ ذَكَرَهُ الإمامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- عَقِيْبَ (كتابِ الْحَجِّ).

ومِنْ أهلِ الْعِلْمِ مَنْ يذكرُهُ في (كتابِ الصَّلاة).

وقدْ قدَّمْنَا مناسبةَ: تأخيْرِ أبوابِ العباداتِ إلى مَا بعدَ كتابِ الْحَجِّ كمَا صَنَعَهُ بعضُ أئمةِ الْحديثِ كتأخيْرِ كتابِ الصَّومِ، ومثلُهُ كِتَابُ الْجَنَائِزِ.

(١)- في المخطوطة: (أبواب).

وعلى كُلِّ حالٍ، يُمْكِنُ أَنْ يُلتمَسَ للإمامِ التِّرْمِذِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ هذا التَّأخيرَ مِنْ فقهِهِ.

ووجهُهُ: أنَّ الْعَبْدَ تَتَعَلَّقُ بِهِ: **أحكامٌ شَرْعِيَّةٌ** حَالَ حياتِهِ، **وأحكامٌ شَرْعِيَّةٌ** بعدَ وفاتِهِ.

فَجَعَلَ كِتَابَ الْجَنَائِزِ، وأبوابَ الْجَنَائِزِ مُتَعَلِّقَةً بِمَا بعدَ الْمَوتِ، ومِنْ هُنَا جَعَلَ أبوابَ العباداتِ الْمُتقدِّمةَ مَسرُودَةً على الوجهِ الْمُعتبَرِ عندَ أهلِ الْعِلْمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وأَخَّرَ أبوابَ الْجَنَائِزِ؛ لأنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِمَا بعدَ الْحَيَاةِ، أي أنَّها مُتَعَلِّقَةٌ بأحكامِ الْمَوتِ، فهَذِهِ الْمُناسبةُ عُذْرٌ لتأخيرِ أبوابِ الْجَنَائِزِ وَهِيَ ظاهرةٌ واضحةٌ.

وقَولُهُ -رَحِمَهُ اللهُ-: ((**أَبْوَابُ**)) يُنَبِّهُ على أنَّهُ أشبهُ بالكتابِ، وقدْ بَيَّنَّا لِمَاذَا يذكُرُ الْعُلَمَاءُ الكتابَ ويذكُرُونَ الأبوابَ على حَسَبِ كثرةِ الأحاديثِ الوَارِدَةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-وقلَّتِهَا، وفي كُتُبِ الفِقْهِ على حَسَبِ كثرةِ الْمسائِلِ والأحكامِ الْمُتَعلِّقَةِ بالأبوابِ والكُتُبِ.

يَقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-: ((**أَبْوَابُ الْجَنَائِزِ**)) الْجَنَائِزُ: جَمْعُ (**جِنَازَة**) و(**جَنَازَة**)، بالفَتحِ والكَسْرِ

وأصلُهَا: مِنَ الْجَنْزِ، **وأصلُهُ:** السَّتْرُ في لُغَةِ العَرَبِ.

والْمَيِّتُ يُستَر مَحمُولاً، ويُستَر مَدفُونًا، قَالَ تعالى: **{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}**، فجَعَلَ مِنَ السَّنَنِ أَنَّ الْمَيِّتَ يُقبَرُ، أَي يُوارَى الثَّرَى ويُغيَّبُ، حَتَّى ولَوْ كَانَ كَافِرًا؛ لِحُرمَةِ الْجَسَدِ؛ لأنَّ النَّبِيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-أَمَرَ بِمُوَارَاةِ جُثَثِ كُفَّارِ قُرَيشٍ يومَ بَدْرٍ في القَلِيْبِ، وهذا يَدُلُّ على حُرمَةِ جُثَّةِ الآدَمِيِّ مِنْ حيثُ الأصلِ، كَمَا نَبَّهَ عليهِ الأئمةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّ للجَسَدِ حُرمَةٌ، قَالَ تعالى: **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}**، فهذا مِنْ تكريمِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لِبَنِي آدَمَ أَنَّهُ يُقبَرُ بعدَ موتِهِ، ولا يُترَكُ في العَرَاءِ تَنْهَشُهُ السِّبَاعُ، وتَأكُلُهُ جَوَارِحُ الطَّيْرِ، وإِنَّمَا مِنْ كَرَمِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- على بَنِي آدَمَ عُمومًا مِنْ أَنَّهُ تَفَضَّلَ عليهِم بِسَتْرِ أجسادِهِم إذا مَاتُوا، فيُوارَونَ الثَّرى، كَمَا ذَكَرَ اللهُ في قِصَّةِ قَابِيْلَ وَهَابِيْلَ، وَلِذَلِكَ بَعَثَ اللهُ غُرابًا يَبْحَثُ في الأَرضِ لِيُرِيَ قَابِيلَ كيفَ يُوارِي جُثَّةَ أَخيهِ: **{قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ}**.

وقَالَ بعضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- بَعَثَ الغُرَابَ لِيُعَلِّمَهُ أَنَّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- في الآدَمِيِّ إذا مَاتَ أَنَّهُ يُوَارَى.

فالْمَقصُودُ: أَنَّ الْجَنْزَ هُوَ السَّتْرُ، وَلِذَلِكَ قِيْلَ لَهَا: (جَنَازَة)؛ لأنَّهَا تَؤُولُ إلى أَنْ تُوَارَى وتُحمَلَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُوَارَى.

وتُوارَى في الثَّرَى، لَيْسَ كَمَا يَقولُونَ: (**إِنَّهُ الْمَصِيْرُ الأَبَدِيُّ، أَوِ الدَّارُ الأَبَدِيَّةُ**)، بِلْ إِنَّهُ يُوَارَى جَسَدُ الإنسانِ لِحياةٍ بَرْزَخِيَّةٍ: فَإِمَّا رَوضَةٌ مِنْ رِياضِ الْجَنَّةِ، وَإِمَّا حُفرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ.

نسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ أَنْ يُعيذَنَا مِنْ ذَلِكَ، وأَنْ يَجْعَلَ قُبُورَنَا وقُبُورَ الْمُسْلِمِيْنَ رَوضَةً مِنْ رِياضِ الْجَنَّاتِ.

يُقَالَ: (**جَنَازَة**) بالفتحِ، و(**جِنَازَة**) بالكَسْرِ.

قَالَ بعضُ الأئمةِ: الأفصحُ بالكَسرِ (**جِنَازَة**)، **وقَالَ بعضُ الْعُلَمَاءِ**: إنَّهَا بالفتحِ للمَيِّتِ، وبالكسرِ للنَّعشِ الَّذِي يُحْمَلُ فيهِ، **وقَيْلَ** بالعكسِ.

فهَذِهِ كُلُّهَا أوجهٌ عندَ أهلِ الْعِلْمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وقَولُهُ -رَحِمَهُ اللهُ-: ((**أَبْوَابُ الْجَنَائِزِ**)) أَي في هذا الْموضعِ سأذكُرُ لَكَ جُمْلَةً مِنَ الأحاديثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-والَّتِي تَتَعَلَّقُ بأحكامِ الْجَنَائِزِ، أَي أحكامُ الْمَوتَى.

ومِنْ عَادَةِ أهلِ الْعِلْمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- مِنَ الْفُقَهَاءِ والْمُحَدِّثِيْنَ -نَسْأَلُ اللهُ أَنْ يَجْزِيَهُم عَنِ الإسلامِ والْمُسْلِمِيْنَ وعَنْ كتابِهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-خَيْرَ الْجَزَاءِ وأَوْفَاهُ وأَعْظَمَهُ وَأَسْنَاه-، ومِنْ عَادَتِهِم أَنَّهُم يُمَهِّدُونَ لأحكامِ الْجَنَائِزِ بِبَيَانِ مَا يُحتَاجُ إليهِ:

فيذكُرُونَ: مَا يَنْبَغِي لِلمَريضِ مِنَ الصَّبْرِ واحتِسَابِ الأَجْرِ، وتَهيئَةِ النَّفسِ لِلقَاءِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِحُسْنِ الظَّنِّ بِالْمَوْلَى -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، كَمَا قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**لا يَمُوْتَنَّ أَحَدُكُم إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** -عَزَّ وَجَلَّ-)).

ثُمَّ يذكُرُونَ: ما يَنْبَغِي على أهلِهِ ومَنْ حَولَهُ خَاصَّةً الْفُقَهَاءَ، كَمَا نَصُّوا على أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلمَريضِ أَنْ يَلِيَهُ أَرفَقُ النَّاسِ بِهِ وَأَحَبُّ النَّاسِ إليهِ؛ حَتَّى يكُونَ ذَلِكَ أَدعَى لِقضاءِ حوائجِهِ وراحتِهِ، خاصَّةً في مِثلِ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ الَّتِي تُعظُمُ فيهَا حاجتُهُ إلى الرِّفقِ واللِّيْنِ.

ويذكُرُونَ في أحاديثِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: مَا وَرَدَ مِنْ أحاديثِ الصَّبْرِ على البَلاءِ، واحتِسَابِ الأَجْرِ عندَ فاطِرِ الأرضِ والسَّمَاءِ، ومَا يَنْبَغِي مِنَ الاستِعدَادِ لِلقَاءِ.

ثُمَّ يذكُرُونَ: أحوالَ الْمَوتِ، ومَا يكُونُ مِنَ البَشَائِرِ مِنْ عَاجِلِ البُشْرَى لِلمُؤمِنِ، مِنْ موتِهِ بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ، وموتِهِ على حُسْنِ خَاتِمَةٍ بذِكْرِ اللهِ، وقَولِ: لا إلهَ إلا اللهُ، كَمَا قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَن كانَ آخِرَ كَلامِه: لا إلَهَ إلا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**)).

وكذَلِكَ حُسنُ الْخَاتِمَةِ في الزَّمَانِ، كموتِهِ يَومَ الْجُمعَةِ، ونَحوِ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ، أو موتِهِ في شَهَادَةٍ في سَبِيْلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مُقبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ، مُحتَسِبًا لِلأَجْرِ، مُقَاتِلاً لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، ولِتَكُونَ كَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا هِيَ السَّفْلَى، كَمَا سَنَّ اللهُ وَشَرَعَ في كتابِهِ وهَدْيِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ثُمَّ يذكُرُونَ: مَا يَنْبَغِي على أهلِهِ مِنْ تَغمِيضِ عَيْنَيْهِ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ**))، فأَمَرَ بإِغمَاضِ عَيْنِ الْمَيِّتِ، فَسُنَّ إِغمَاضُ عَيْنِ الْمَيِّتِ، ونَحوِ ذَلِكَ مِنَ الأحكام المُتَعَلِّقَةِ بِحَالِ الْمُحْتَضِرِ، وحَالَ مَنْ قُبِضَتْ رُوحُهُ، وتَسْجِيَتُهُ، ونَحوِ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ مِنَ السُّنَنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ثُمَّ يذكُرُونَ: الْهَدْيَ والسُّنَّةَ فِي تَغسِيلِ الْمَيِّتِ، وتَكفِينِهِ، وحَمْلِهِ، والصَّلاةِ عليهِ، وإِدخَالِهِ الْقَبْرَ وإِضجَاعِهِ فِي الْقَبْرِ ومُوَارَاتِهِ، وَمَا يَنْبَغِي بِعدَ ذَلِكَ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُ والاستغفارِ لَهُ، ونَحوِ ذَلِكَ مِنَ السُّنَنِ.

فهذا الكتابُ كتابٌ جَامِعٌ لِكَثِيْرٍ مِنَ الْمسائِلِ والأحكامِ.

وقدْ كَانَ هَديُهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِأَبِي وَأُمِّي- أَكمَلَ الْهَدْيِ فِي أحكامِ الْمَوتَى، وجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعةُ على أَتَمِّ الوُجُوهِ وأَكمَلِهَا، وأَجَلِّهَا وأَحسَنِهَا، فـ: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}**.

ونسألُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يَرزُقَنَا الْعِلْمَ بِذَلِكَ، والْفِقْهَ فيهِ على الوَجهِ الَّذِي يُرضِيهِ، وأَنْ يَرزُقَنَا العَمَلَ والدَّعوَةَ إلى ذَلِكَ مُخلِصِيْنَ لِوَجهِهِ، مُبتَغِيْنَ لِمَرضَاتِهِ، إِنَّهُ سَمِيْعٌ مُجِيْبٌ.

ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- حديثَ أُمِّ الْمُؤمِنِيْنَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-فقَالَ: -رَحِمَهُ اللهُ- في تَرجَمَتِهِ: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ الْمَرِيضِ]**.

يَقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ الْمرِيضِ] الثَّوَابُ:** هُوَ الْجَزَاءُ الْحَسَنُ.

والْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْجَزَاءُ الْحَسَنُ، وقدْ يُثَابُ الإنسانُ وقدْ يُجَازَى على الإِسَاءَةِ، يُجَازَى الإنسانُ على إِسَاءَتِهِ وإِحسانِهِ.

والثَّوَابُ مِنَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لِلمَرِيضِ وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-أَنَّ الْمَرِيضَ يُكتَبُ لَهُ مَا يَكوُنُ فِي مَرَضِهِ مِنْ أَلَمٍ ومِنْ عَذَابٍ ومِنْ تَعَبٍ، ومَا يَلحَقُهُ مِنْ أَذَى العِلَّةِ والْمَرَضِ الَّذِي أَلَمَّ بِهِ.

وقَدَّم الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- **هذا الباب:** لأَنَّ الْمَوتَ يَسبِقُهُ الْمَرَضُ غالبًا، وهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ: **(مَرَضَ الْمَوتِ)** وهُوَ الْمَرَضُ الْمَخُوفُ الَّذِي يَغلُبُ على الظَّنِّ أَنَّ الإنسانَ لا يَسلَمُ مِنْهُ وهَذَا النَّوعُ مِنَ الأمراضِ لَهُ أحكامٌ شَرْعِيَّةٌ، وتَتَعَلَّقُ بِهِ مسائِلُ شَرْعِيَّةٌ بالنِّسبَةِ لِلمَرِيضِ.

والْمُحَدِّثُونَ يذكُرُونَ أحاديثَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-الوَارِدَةَ فِي الْمَرَضِ والصَّبْرِ عليهِ.

وقَولُهُ: [ثَوَابِ الْمَرِيضِ] إذا كان مُسلِمًا؛ لأَنَّ الْمُسلِمَ إذا مَرِضَ رُفِعَتْ دَرَجَتُهُ كَمَا أَخْبَرَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-في الْحديثِ، وكُفِّرَتْ خَطِيْئَتُهُ.

وأَمَّا الكَافِرُ: فَإِنَّ الْمَرَضَ نِقْمَةٌ عليهِ ووَبَالٌ عليهِ.

ومِنْ هُنَا يَحتَسِبُ الْمَرِيضُ الْمُؤمِنُ الثَّوابَ عندَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

ومَا وَرَدَ عِنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-في ثَوَابِ الْمَرِيضِ الْمَقصُودُ بِهِ: تَثْبِيْتُ القَلْبِ؛ لأَنَّ القَلْبَ إذا اطْمَأَنَّ بِوَعدِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وأَحْسَنَ الظَّنَّ بِاللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فَازَ بِالْحُسْنَيَيْنِ:

الْحُسْنَى الأُولَى: أَنَّ اللهَ يَرفَعُ دَرَجَتَهُ، ويُعظِمُ أَجْرَهُ في البَلاءِ، فيَنَالُ أَفْضَلَ مَا يَنَالُهُ الْمَرِيضُ في مَرَضِهِ.

والْحُسْنَى الثَّانِيةُ: أَنَّهُ يَسلَمُ مِنْ كَيْدِ الشَّيطَانِ وتَوْهِيْنِهِ.

وَلِذَلِكَ مَنْ سلَّمَهُ اللهُ مِنْ عَدُوِّهِ إبليسَ، وتَوَجَّهَ بقَلبِهِ إلى اللهِ صَابِرًا مُحتَسِبًا في أَيِّ بَلاءٍ يَنْزِلُ بِهِ فإِنَّ هذا البَلاءَ سيَعُودُ عليهِ بَخَيْرَي الدُّنيَا والآخِرَةِ.

وأحاديثُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-تُؤَكِّدُ مَا جَاءَ في كتابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فهِيَ تُثَبِّتُ القُلُوبَ، وتُوجِبُ طُمَأْنِينَتَهَا، بأَنَّ هذا البَلاءَ، ومَا يُصِيبُ الْعَبْدَ مِنَ الْمشقةِ والعَنَاءِ، إذا نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- كُلُّ هذا أَجرُهُ عندَ اللهِ عظيمٌ، وثوابُهُ عندَ اللهِ كريمٌ، فيُصبِحُ العَذَابُ رَحْمَةً لِلعَبْدِ، وتَجِدُ الإنسانَ في شِدَّةِ الْمَرَضِ، وشِدَّةِ أَلَمِهِ، يَتَلَذَّذُ بِمَا يَجِدُ مِنْ حَلاوَةِ الإِيْمَانِ في قَلبِهِ، ويَقِينِهِ بِرَبِّهِ، حَتَّى كَانَ بعضُ السَّلفِ إذا نَزَلَ بِهِ البَلاءُ، وأَدْمَنَ سُؤَالَ اللهِ، والتَّوَجُّهَ إلى اللهِ، عَاشَ لَذَّةً يَتَأَلَّمُ عندَ زَوَالِ البَلاءِ مِنْ فَقْدِهَا، وهَذِهِ منزلةٌ عظيمةٌ لا تَكُونُ إلا لأَولِيَاءِ اللهِ الَّذِينَ اطْمَأَنَّتْ قلوبُهُم بِاللهِ، وعَرَفُوا اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فتَعَبَّدُوا وتَقَرَّبُوا للهِ سبحانه بِالصَّبْرِ على بَلائِهِ، والرِّضَا بِقضائِهِ، ففَتَحَ اللهُ عليهِم أبوابَ رَحْمَتِهِ، فَاللهُ لا يَخذُلُ وَلِيَّهِ، واللهُ -جَلَّ جَلالُهُ- يُثَبِّتُ أولياءَهُ، ولا أَوفَى مِنَ اللهِ لِعَبدِهِ، وَلا أَوفَى مِنْ اللهِ ولا أَكرَمُ مِنْهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

ولكنْ يَنْبَغِي لِلمُسلِمِ أَنْ يَتَعَاطَى الأسبابَ الَّتِي تُقَوِّي يَقِيْنَهُ بِاللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فيَشْرَحُ بِهَا صَدْرَهُ، ويَطْمَئِنُّ بِهَا قَلْبُهُ، وَلِذَلِكَ جَاءَتِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-بِالبِشَارَةِ، هَذِهِ البِشَارَةُ تَحتَاجُ مِنَ الْمُؤمِنِ حَتَّى يَجِدَ خَيْرَهَا وبركتَهَا، وحُسنَ عاقِبَتِهَا، تَحتَاجُ مِنْهُ أَنْ يَستَشعِرَهَا، وأَنْ يَكُونَ حَاضِرَ القَلْبِ.

ومِمَّا يُعِيْنُ على الاستِشعَارِ: أَنْ يَعلَمَ الْعَبْدُ عِلْمَ اليَقِيْنِ أَنَّهُ يُعَامِلُ مَلِكَ الْمُلُوكِ، وَأَنَّهُ يُعَامِلُ جَبَّارَ السَّمَاوَاتِ والأرضِ، وأَنَّه يُعَامِلُ إِلَهَ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِينَ، وأَنَّهُ يُعَامِلُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ، وأَنَّهُ مَهْمَا نَزَلَ بِهِ مِنَ

البَلاءِ إذا استَشعَرَ أَسْمَاءَ اللهِ وصِفَاتَهُ الْحُسْنَى، واستَحضَرَ معانيَهَا الكريْمَةَ الْجليلةَ الشَّريفةَ العظيمةَ فإنَّهُ سيَعُودُ بِخَيْرَي الدُّنيَا والآخِرَةِ، ومِنْ عَرَفَ اللهَ بأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ همٍّ فَرَجًا، ومِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخرَجًا، ومِنْ كُلِّ بَلاءٍ عافيةً، وَثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ إذا زُلْزِلَتِ الأقدامُ، وشَرَحَ صَدرَهُ، واطْمَأَنَّ قلبُهُ إذا رَجَفَتِ القُلُوبُ.

فالْعَبْدُ الْمُؤمِنُ الصَّالِحُ إذا استَشعَرَ أَنَّ القَضِيةَ والْمسألةَ مُعَامَلَةٌ مِعَ اللهِ، وأَنَّهُ لَنْ يَكُونَ في هذا الكَونِ شَيءٌ إلا بأَمْرِ اللهِ، وأَنَّهُ مَا مِنْ مثقَالِ ذَرَّةٍ إلا وَهِيَ في عِلْمِ اللهِ، وأَنَّهُ لا يُصِيبُهُ قليلٌ ولا كثيْرٌ إلا بِعِلْمِ اللهِ الْجليلِ،وأَنَّ اللهَ قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ،ونَسَخَ الآجَالَ، وكَتَبَ الأَعمَارَ: **{وَكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}**.

إذا استَشعَرَ هَذِهِ الْمعانِي عندَهَا يَعلَمُ معنَى الأحاديثِ الوَارِدَةِ في السُّنَّةِ، ويَعلَمُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ الْمُبَارَكَاتِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الرُّوحُ الأَمِيْنُ على قَلْبِ أَشْرَفِ الأَنبياءِ والْمُرسَلِيْنَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ-.

أَنْ تَعلَمَ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ، وأَنَّ اللهَ كَتَبَ مَا هُوَ كَائِنٌ ومَا يَكُونُ إلى قِيامِ السَّاعةِ. في الْحديثِ الصَّحيحِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَوَّلُ مَا خَلَقَ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ، قَالَ** -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **فَجَرَى الْقَلمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا يَكُونُ إِلَى قِيامِ السَّاعَةِ**))، **{إِنَّا كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كُلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}**.

الْمَرَضُ والسَّقَمُ والعِلَّةُ تَقْرَعُ بَابَ الْعَبْدِ فتُؤذِنَهُ بِأَمْرِ اللهِ، فإذا استَشعَرَ أَنَّهُ إذا نَزَلَ بِهِ الدَّاءُ، أَو حَلَّ بِهِ البَلاءُ، أَنَّهُ بِأَمْرِ اللهِ، قَالَ بِلِسَانِ حَالِهِ ومقَالِهِ: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، آمَنَّا وَأَسْلَمْنَا وَاسْتَسْلَمْنَا واللهُ رَبُّنَا، ولا نَظُنُّ بِرَبِّنَا إلا خَيْرًا).

وَلِذَلِكَ كَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ حِينَمَا أَصَابَهُ الطَّاعُونُ قَالَ: (اللَّهُمَّ، اجْعَلْ لآلِ مُعَاذٍ أَفْضَلَ مَا يَكُونُ وَأَعْظَمَ مَا يَكُونُ مِنَ هَذَا البَلاءِ)، وهذا مِنَ الثِّقَةِ وقَوَّةِ اليَقِيْنِ بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، ولا يَكُونُ ذَلِكَ إلا مِنَ القُلُوبِ الْمُؤمِنَةِ الْمُوقِنَةِ.

فإذا قَرَعَ البلاءُ بَابَ الْعَبْدِ تَوَجَّهَ الْعَبْدُ إلى رَبِّهِ، تَوَجَّهَ إليهِ بقَلْبِهِ وقَالَبِهِ، فَلا يَجْزَعُ، وَلا يَسْخَطُ، ولا يَقولُ إلا مَا يُرضِي اللهَ: ((**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إلا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**))، قَالَهَا -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وهُوَ يُحِسُّ بِأَلَمِ الفِرَاقِ لِفَلَذَةِ الْكَبِدِ والابْنِ، وقَدْ أَسْكَنَ اللهُ الرَّحْمَةَ في قَلْبِهِ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إلا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا،

بِمُجَرَّدِ أَنْ يُقَالَ للإنسانِ: (مَعَكَ مَرَضُ كَذَا، أَوْ مَعَكَ الدَّاءُ، أَوْ مَعَكَ البَلاءُ)، يَقُولُ: (**الْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ**) .

لَنْ تَجِدَ أُمَّةً على وَجْهِ الأرضِ أَثْبَتَ قلبًا وجَنَانًا، وأَكْثَرَ تَوفِيقًا وتَسدِيدًا فِيمَا تَقُولُ، مِنْ أُمَّةٍ آمَنَتْ بِاللهِ عندَ نُزُولِ البَلاءِ، لَنْ تَجِدَ أَصْدَقَ مِنْ أَلْسِنَةِ الْمُؤمِنِيْنَ عندَ نُزُولِ البَلاءِ، ولَنْ تَجِدَ أَكْثَرَ ثَبَاتًا مِنْ قُلُوبِ الْمُوقِنِيْنَ إذا نَزَلَتْ بِهُمُ الضَّرَاءُ: **{فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}**.

ولكنْ على كُلِّ مُوفَقٍ أَنْ يَعلَمَ أَنَّ البَلاءَ في بِدَايَتِهِ مُؤْلِمٌ، ومُزعِجٌ ومُقلِقٌ، وَلِذَلِكَ قَدْ يُبْتَلَى الإنسانُ في نفسِهِ فيَصْبِرُ، لكنْ يُسلِّطُ اللهُ عليهِ زَوجَةً تَقُولُ أُمُورًا تُزَلْزِلُ بِهَا القُلُوبُ، أَوْ بِنْتًا تَقُولُ كَلِمَةً تُزَعْزِعُ وتُؤْلِمُ، أَو ابْنًا يَقُولُ كَلِمَةً، أو قَرِيبًا، أو حَبِيبًا، ولكنَّهُ لا يَلتَفِتُ إلى شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ، يُسلِّمُ تَسلِيمًا ويَتَوَجَّهُ إلى اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– تَوَجُّهًا صَادِقًا عَزِيزًا كَرِيمًا، ولَنْ يَخِيْبَ مِنَ اللهِ، فكُلِّ مَا حَولَكَ مِنَ القَرِيبِ والْحَبِيبِ إذا نَزَلَ البَلاءُ، فوَضَعْتَ السُّنَّةَ أَمَامَ عَيْنَيكَ، وهَدْيَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ–بَيْنَ يَدَيكَ، وأَصْبَحْتَ تَتَّبِعُ: كيفَ كَانَ يَقُولُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–؟ ومَا الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نَقُولَهُ؟ ومَاذا نَقُولُ؟ ومَاذا نَفعَلُ؟ عندَهَا لا تُبَالِي أَقْبَلَتِ الدُّنيَا أو أَدْبَرَتْ.

وَلِذَلِكَ لَمَّا نَزَلَ الْمَوتُ بِعُمَرَ بْنِ عبدِ العَزِيزِ –رَحِمَهُ اللهُ– الْخَليفةِ الرَّاشِدِ –رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ– قَالَ كَلِمَتَهُ فِي قِصَّتِهِ الْمَشهُورَةِ، إلى أَنْ قَالَ: (فَإِنْ كَانَ أَمْرُ اللهِ، فَوَ اللهِ مَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيْصٍ) أَي أَنَّه إذا كَانَ اللهُ اخْتَارَ أَنْ أَلْقَاهُ، فَأَنَا لَسْتُ بِنَادِمٍ على فِرَاقِكُم، ومِنَ الَّذِي يَندَمُ وهُوَ سيَلقَى مَلِكَ الْمُلُوكِ الَّذِي يَقُولُ –وهُوَ أَصدَقُ القَائِلِيْنَ–: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرْ الْمُؤمِنينَ}**؟!

مَنْ يَقرَأُ الكتابَ والسُّنَّةَ لِكَي يَعمَلَ بِهَا في البَلاءِ والشِّدَّةِ، والضَّرَاءِ فهذا هُوَ الْمُوفَّقُ، هَذِهِ السُّنَنُ الَّتِي سنَقرَأُهَا، والأحاديثُ الَّتِي نُبَيِّنُهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– مَا جَاءَتْ إلا لِقَومٍ يَعقِلُونَ، لِقَومٍ يَعمَلُونَ، لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ، مَا جَاءَتْ لِكَي يَتَرَنَّمُ بِهَا الإنسانُ، فإذا نَزَلَ بِهِ البَلاءُ خَارَتْ قُوَاهُ، وسَاءَتْ كَلِمَاتُهُ، وتَضَجَّرَ وتَمْلَمَلَ مِنَ القضاءِ والقَدْرِ، وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي لِلمُسلِمِ أَنْ يَستَشعِرَ هذا الْمعنَى. هَذِهِ السُّنَنُ إذا سَمِعْتَهَا وتَعَلَّمْتَهَا فَهِيَ إِمَّا حُجَّةٌ لَكَ، أَوْ حُجَّةٌ عَلَيكَ، فَاللَّهُمَّ، اجْعَلْهَا حُجَّةً لَنَا، ولا تَجْعَلْهَا حُجَّةً عَلَينَا.

بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ–عظيمَ منزلةِ الْمُؤمِنِ عندَ اللهِ، الْمُؤمِنُ الَّذِي وَحَّدَ اللهَ، الْمُؤمِنُ

الَّذِي إذا سَأَلَ سَأَلَ اللهَ، وإذا استَعَانَ استَعَانَ باللهِ، وإذا استَغَاثَ استَغَاثَ باللهِ، وإذا خَافَ خَافَ مِنَ اللهِ الْمُؤمِنُ الَّذِي حَقَّقَ الإِيْمَانَ، وحَقَّقَ التَّوحِيدَ والإِيقَانَ، هذا الْمُؤمِنُ حَالُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ.

يَقُولُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا يُصِيْبُ الْمُؤمِنَ شَوكَةٌ فَمَا فَوقَهَا**)) الشَّوكَةُ: معروفةٌ، يُشَاكُ بِهَا الإنسانُ في قَدَمِهِ، أو في أَيِ موضعٍ مِنْ جَسَدِهِ على حَسَبِ الْحَالِ الَّذِي أَصَابَتْهُ بِهِ.

يَقُولُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**فَمَا فَوقَهَا**)) لِلعُلَمَاءِ وَجْهَانِ:

إِمَّا أَنْ يُرَادَ ((**مَا فَوقَهَا**)) أَي أَصْغَرَ مِنْهَا في الْحَجْمِ والقَدْرِ.

وإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ ((**مَا فَوقَهَا**)) أَي أَكْبَرَ مِنْهَا، كَأَنْ يُصِيبَهُ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الشَّوكَةِ، كَالْمِسمَارِ في زَمَانِنَا، وهُوَ مِنَ القَدِيْمِ موجودٌ، قِيْلَ في قَولِهِ تعالى: **{وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}** إِنَّهَا الْمَسَامِيْرُ، فَالْمِسمَارَ أَشَدُّ مِنَ الشَّوكَةِ.

وأَصَحُّ الْوَجْهَيْنِ -وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ- أَنَّ قولَهُ: ((**مَا فَوقَهَا**)) أَي أَقَلَّ مِنَ الشَّوكَةِ.

وصُحِّحَ هذا الوَجْهُ؛ لأَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّنْبِيْهِ بَالأَدْنَى عَلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ، فإذا كَانَ لا يَفُوتُ الإنسانَ مَا هُوَ أَقَلُّ مِنَ الشَّوكَةِ، فَمَا بَالُكَ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الشَّوكَةِ.

والشَّوكَةُ ضَرْبُ مَثَلٍ، لَيسَ الْمُرادُ بِهِ التَّقدِيرُ والتَّحدِيدُ، بِحيثُ أَنَّهَا تَكُونُ فَيصَلاً في الأَجْرِ، إِنَّمَا يَكُونُ الأَجْرُ حَتَّى عَلَى مَا هُوَ أَقَلُّ مِنَ الشَّوكَةِ، وإذا تُؤمِّلَ هذا، أو اُعتُبِرَ هذا، وهُوَ أَنَّ العِبْرَةَ بالبَلاءِ ولَوْ كَانَ قليلاً يَسِيْرًا، فمَعنَى ذَلِكَ أَنَّ الأَجْرَ مَكتُوبٌ لِلعَبْدِ في أَي بَلاءٍ يُصِيبُهُ، ولَوْ كَانَ يَسيْرًا حَقِيْرًا لا يَعْبَأُ بِهِ، ولا يُبَالِي بِهِ، لكنَّهُ عندَ اللهِ مَكتُوبٌ، وأَجْرُهُ إذا صَبَرَ واحتَسَبَهُ عندَ اللهِ كَامِلاً.

وقَولُه: ((**الْمُؤمِنَ**)) هذا يَدُلُّ على أَنَّ الْمُؤمِنَ تُكتَبُ لَهُ البَلايَا والْمَصَائِبُ، والشَّدَائِدُ والْمَتَاعِبُ، ولَيْسَتِ القَضِيَّةُ أَنَّهَا خَاصَّةٌ بِبَلايَا الْجَسَدِ؛ لأَنَّ الشَّوكَةَ تَأْتِي بِبَلايَا الْجَسَدِ الْحِسِّيِّ، فَلَيسَ الْمَقصُودُ تَخصيصَ الْحُكمِ بَالبَلاءِ الْحِسِّيِّ بَلْ يَشمَلُ ذَلِكَ البَلاءَ الْحِسِّيَّ والْمَعْنَوِيَّ وَلِذَلِكَ قَالَ:((**مَا يُصِيْبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ وَلا غَمٍّ، وَلا نَصَبٍ، وَلا وَصَبٍ إِلا آجَرَهُ اللهُ**)) فهذا يَدُلُّ على أَنَّهُ يَشمَلُ: الأَلَمَ الْحِسِّيَّ، والأَلَمَ الْمَعْنَوِيَّ.

وهذا كُلُّه يَدُلُّ دِلالَةً واضحةً على فضلِ الإِيْمانِ والتَّوحيدِ، وأَنَّ صاحِبَهُ في عُلُوِّ دَرَجَةٍ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، الإِيْمَانُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلِذَلِكَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وكَمُلَ إِيْمَانُهُ عَظُمَ جَزَاؤُهُ عندَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فهذا شرطُهُ: وُجُودُ الإِيْمَانِ: ((**لا يُصِيْبُ الْمُؤمِنَ**)) هذا خَاصٌّ بِالْمُؤمِنِ الْمُوَحِّدِ.

وأَمَّا الكَافِرَ: فإِنَّ بَلاءَهُ وعَنَاءَهُ وَشَقَاءَهُ شَرٌّ عَلَى شَرٍّ: **{إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}**.

((**إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً**)): رَفْعُ الدَّرَجَةِ، الدَّرَجَاتُ وَرَدَ في بعضِ الآثَارِ تَفْسَيْرُ الدَّرَجَةِ أَنَّ بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأرضِ.

والدَّرَجَاتُ: **تُطْلَقُ** بِمَعْنَى الْحَسَنَاتِ، **وتُطْلَقُ** بِمَعْنَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ، **وتُطْلَقُ** بِالْمَنَازِلِ عُمُومًا، منزلةِ الْعَبْدِ عُمُومًا.

وفي الصَّحيحِ مِنْ حديثِ أبي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في صحيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقَرِّبُ وُضَوْءَهُ، فَيَتَوضَّأَ فَيُسْبِغُ الْوُضوءَ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى الْمَسْجِدِ، لا يُخْرُجُهُ إِلا الصَّلاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ**)).

فالدَّرَجَاتُ عندَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- **تَأْتِي بِمَعانٍ مُتَعَدِّدَةٍ**:

مِنْهَا مَا يَكُونُ جَزَاءً، وَهِيَ الدَّرَجَاتُ بِالْحَسَنَاتِ.

وقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهَا مَا بِيْنَ أَهلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْمَنَازِلِ الَّتِي يُرفَعُونَ بِهَا، **فقَالَ بعضَ الْعُلَمَاءِ**: إِنَّ هذا التَّفسِيْرَ للدَّرَجَةِ أَنَّ بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأرضِ، هُوَ فِي الدَّرَجَاتِ الَّتِي يُقصَدُ بِهَا الرِّفعَةُ، وَلِذَلِكَ العِبَادُ -أَعنِي الْمُؤمِنِيْنَ- تُرفَعُ دَرَجَاتُهُم في الْجَنَّةِ على حَسَبِ مَا يَكُونُ مِنْ أعمالِهِم.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ رَفَعَ اللهُ دَرَجَتَهُ بِالسَّرَاءِ، **ومِنْهُم** مَنْ رَفَعَ اللهُ دَرَجَتَهُ بِالضَّرَاءِ، **ومِنْهُم** مَنْ رَفَعَ اللهُ دَرَجَتَهُ بِالسَّرَاءِ والضَّرَاءِ.

فمِنَ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ اللهُ بَلاءَهُ بِالسَّرَاءِ، فأَعطَاهُ الأموالَ، فأنفقَهَا على الضُّعفاءِ والبُؤَسَاءِ، فكَفْكَفَ اللهُ بِهِ دُمُوعَ اليَتَامَى، وجَبَرَ بِهِ الأَرَامِلَ والثُّكَالَى، وأَحْسَنَ بِهِ وأَصْلَحَ، فيَرفَعُ اللهُ بِهِ دَرَجَتَهُ، كَمَا قَالَ في الْحديثِ الصَّحيحِ: ((**قَالَ الْفُقَرَاءُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ**)).

وقد تُرفَعُ دَرَجَةُ الْعَبْدِ بِفَضلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ثُمَّ بالضَّرَاءِ، لِمَا يَكُونُ مِنَ الضَّرَاءِ الَّتِي يَصْبِرُ عَلَيهَا، ويَحتَسِبُ الأَجْرَ فيهَا.

والضَّرَاءُ أَنْوَاعٌ: **منها** ضَرَّاءُ في دينِهِ، **مِثْلُ**: مَا يَكُونُ مِنَ الزَّلْزَلَةِ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيطَانِ، وإِعرَاضِهِ عَنْ هَذِهِ الوَسْوَسَةِ، ومُجَاهَدَتِهِ للشَّيطَانِ في قلبِهِ، في فتنةِ الشَّهواتِ والشُّبُهَاتِ، وصَبْرِهِ على ذَلِكَ، مُحتَسِبًا الأَجْرَ عندَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فيأتيهِ الشَّيطَانُ بالفتنةِ في سَمْعِهِ، وفي بَصَرِهِ، وفي قَلْبِهِ، فيُعرِضُ عنهَا،

مُحتَسِبًا الأَجْرَ عندَ اللهِ، رَاجِيًا الثَّوَابَ عندَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فتَعلُو دَرَجَتُهُ، وتُرفَعُ على قَدْرِ هَذِهِ الفِتَنِ والْمِحَنِ الَّتِي يَصْبِرُ عنهَا في دينِهِ.

وقَدْ يُبْتَلَى في دينِهِ مِنْ شياطِيْنِ الإنسِ، فيُخَذَّلُ ويُسبُّ ويُشتمُ ويُهانُ ويُذَّلُ ويُساءُ الظَّنُّ بِهِ، وإذا شَفَعَ لَمْ يُشفَّعْ، ويَنتَقِصُهُ النَّاسُ، ويُؤذُونَهُ ويَحتَقِرُونَهُ، ويَرَى بِأُمِّ عَينَيهِ مَا يُدمِي القَلْبَ في كرامتِهِ ومكانتِهِ ومنزلتِهِ، فيُذَلُّ في طاعةِ اللهِ في مَقَامِ عِزٍّ، ويُهَانُ في طاعةِ اللهِ في منزلِ كرامةٍ، فيَصْبِرُ ويَحتَسِبُ ويُؤمِنُ، وتَشتَدُّ عليهِ الدُّنيَا وأذيةُ أهلِ الفِتَنِ والْمِحَنِ مِنَ التَّشكيكِ والشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ، فَلا يَزدَادُ إلا صَلابَةً وقُوَّةً باللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وتَوَكُّلاً على اللهِ، ويَستَشعِرُ أنَّهُ إذا بَعُدَ زَمَانُهُ عَنْ زَمَانِ الصَّالِحِيْنَ وكَثُرَ الأشرارُ، أَنَّ دَرَجَتَهُ عندَ اللهِ عظيمةٌ، ومنزلتَهُ عندَ اللهِ كريمَةٌ، وأَنَّ اللهَ يَسمَعُهُ، وأَنَّ اللهَ يَرَاهُ، وأنَّهُ يُحِبُّ منهُ أَنْ يَكُونَ مُتَوَجِّهًا إليهِ، مُتَوَكِّلاً عليهِ، يعبدُهُ ويَصطَبِرُ لعباداتِهِ وطاعتِهِ، فعندَهَا تُرفَعُ دَرَجَتُهُ، فتُرفَعُ دَرَجَتُهُ بِهَذِهِ الفِتَنِ والْمِحَنِ في دينِهِ، وتُرفَعُ دَرَجَتُهُ في فِتَنِ الدُّنيَا ونَحوِهَا.

فالْمَقصُودُ: أنَّ رِفْعَةَ الدَّرَجَاتِ: تَكُونُ بِالسَّرَاءِ، وتَكُونُ بِالضَّرَاءِ.

والضَّرَاءُ تَكُونُ: في الدِّينِ، وفي الدُّنيَا.

في الدُّنيَا: بفَقْدِ الأبناءِ والبناتِ، والإخوانِ والأخواتِ، والآباءِ والأمهاتِ، والأحبابِ والأصحابِ.

وقَدْ يفقِدُهُم في وظيفتِهِ، فيُنقَلُ مِنْ عملِهِ، وتَبعُدُ مدينتُهُ، ويَبعُدُ عملُهُ، ويَلقَى الْمشقةَ والعناءَ، هَذِهِ فِتَنٌ في الدُّنيَا: **{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ}**، فهذا بَلاءٌ تُرفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتُ، ولكنَّهُ بِالضَّرَاءِ، **فهَذِهِ الضَّرَاءُ في الدُّنيَا**.

وقَدْ تَكُونُ الضَّرَاءُ في الدُّنيَا: حَتَّى في شَسْعِ نَعْلِ الْعَبْدِ، فإنَّهُ لَوْ مَشَى وانقَطَعَ حِذَاؤُهُ كَتَبَ اللهُ أَجْرَهُ إنِ احتَسَبَ وَرَجَا الثَّوَابَ عندَ اللهِ، أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، كَمَا قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ**)) تَعَجَّبَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بِرِفْعَةِ الدَّرَجَاتِ، وتَكفِيْرِ السَّيئاتِ، ومُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ لِلمُؤمِنِيْنَ والْمُؤمِنَاتِ، ((**إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ**))، ((**إِنَّ**)): بِصيغةِ التَّوكيدِ، ((**إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**)).

وإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ في جَسَدِهِ، فيذهبُ بصرُهُ، ويضعُفُ بصرُهُ، فيَقولُ: (الْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ أَعِنِّي، اللَّهُمَّ صَبِّرْنِي) تَخُورُ قُوَاهُ، يضعفُ بدنُهُ، أو يُبتَلَى بَالضَّرَاءِ في أحبابِهِ وأصحابِهِ، فيَتَوَلَّى عَنْهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إليهِ، ويَخذُلُهُ النَّاسُ، ويبعدُونَ عَنْهُ؛ لأَنَّهُ افتَقَرَ، أو تَغَيَّرَتْ أحوالُهُ، فَلا يَزَالُ مُؤمِنًا صَابِراً، فتُرفَعُ

دَرَجَتُهُ، تُرفَعُ الدَّرَجَاتُ بِهَذِهِ الْمَصَائِبِ، والْمَصَاعِبِ، والْمَتَاعِبِ، والشَّدَائِدِ، وبِالْمَكَائِدِ وبِالأَذَيَّةِ، والإِضْرَارِ.

وتُرفَعُ الدَّرَجَاتُ بِحُسْنِ العَمَلِ، بِشُكْرِ النِّعَمِ في السَّرَاءِ، السَّرَاءُ: كُلُّ مَا يَسُرُّ الإنسانَ، فإذا أَعطَاهُ اللهُ مالاً أَنفَقَهُ في طاعةِ اللهِ، إذا أَعطَاهُ اللهُ عِلْمًا عَلَّمَهُ أَبنَاءَهُ وبناتِهِ، فَمَا يَتَعَلَّمُ شيئًا مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولا يَخرُجُ مِنْ حَلَقَةِ عِلْمٍ إلا ويَنْشُرُ مَا تَعَلَّمَهُ بالعَمَلِ، والدَّعوةِ إليهِ، فهذا يَرفَعُ اللهُ بِهِ دَرَجَتَهُ، وَلِذَلِكَ رَفَعَ اللهُ الدَّرَجَةَ بالإِيْمَانِ والْعِلْمِ: **{يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}**، فهذا مِنْ رِفْعَةِ الدَّرَجَةِ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في هذا الْحديثِ.

ثُمَّ تَتَفَاوَتُ هَذِهِ الدَّرَجَاتُ بِتَفَاوُتِ النَّاسِ، قَدْ يَكُونُ البَلاءُ وَاحِدًا، والشَّوكَةُ الَّتِي يُشَاكُ بِهَا الاثنَانِ وَاحِدَةً، ولكنَّ الأَجْرَ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأرضِ:

يُشَاكُ الإنسانُ وهُوَ كَبِيْرُ السِّنِّ، ضعيفٌ، **يُشَاكُ** الإنسانُ ومَعَهُ مَرَضٌ تَتَضَاعَفُ بِهِ هَذِهِ الشَّوكَةُ وأَلَمُهَا وأَذَاهَا، **ويُشَاكُ** الإنسانُ وهُوَ شَبْعَانُ رَيَّانُ في قوتِهِ وفي جَلَدِهِ وفي صحتِهِ وفي عافيتِهِ.

كُلٌّ لَهُ دَرَجَتُهُ: **{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا}**، فهذا مِنْ عَدْلِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-عَنْ ذَلِكَ بقَولِهِ: ((**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ**)) فبين أنَّ الَّذِي يُعطِي الدِّرهَمَ ولَيسَ عندَهُ دِرهمٌ غَيْرُهُ، فيخرُجُ مِنْ مالِهِ للهِ، لَيسَ كمَنْ أخرَجَ مئةَ درهمٍ مَنْ عَرَضِ مالِهِ.

فهَكَذَا مِنْ تُصِيبُهُ الشَّوكَةُ وهُوَ في وَضْعٍ يَعظُمُ بِهِ أَلَمُهُ، لَوْ أَصَابَتْهُ شَوكَةٌ، فَضَحِكَ عليهِ مَنْ حولَهُ هذا أَجْرُهُ أعظمُ إنْ صَبَرَ، ولَوْ أَصَابَتْهُ شَوكَةٌ وهُوَ في موقفٍ يَستَهزِئُ بِهِ مُستَهزِئٌ مِنْ أعدائِهِ، فَأَجْرُهُ أعظمُ مِمَّا لَوْ أَصَابَتْهُ في غَيْرِ ذَلِكَ، لا يُضِيعُ اللهُ لِلعبدِ ذَرَّةً: **{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}**،فاللهُ سبحانه يَرفَعُ الدَّرَجَةَ على حَسَبِ مَا يُصِيبُ الإنسانَ مِنْ بلائِهِ، قَلَّ البَلاءُ أو كَثُرَ.

((**وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيْئَةً**)): تَفَضَّلَ اللهُ وتَكَرَّمَ على عبادِهِ بِتَكفِيْرِ السَّيئاتِ، وغُفرَانِ الذُّنُوبِ والْخَطِيْئَاتِ، وإلا لَوْ تُرِكَتِ الْخَطَايَا الَّتِي يُصِيبُهَا الْعَبْدُ لأَهْلَكَتْهُ، ولَحَالَتْ بَيْنَهُ وبَيْنَ الْخَيْرِ وأَرْدَتْهُ

السَّيئةُ: مَا سُمِّيَتْ سيئةً إلا لأَنَّهَا تُسِيءُ إلى صاحبِهَا في الدُّنيَا والآخِرَةِ، ولكنْ مِنْ كَرَمِ اللهِ أَنَّهُ جَعَلَ أَسبابًا يُطهِّرُ بِهَا عبدَهُ ووليَهُ، فلا يَزَالُ بِهَذِهِ الأسبابِ تُكَفَّرُ خطيئتُهُ حَتَّى يَمشِي على وَجْهِ الأرضِ ولَيسَ عليهِ ذَنْبٌ ولا خَطِيئَةٌ، ومِنْ هذا مَغفِرَةُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لِلعبدِ بسببِ مَا يُصِيبُهُ.

وهُنَا الفائدةُ: أَنَّ اللهَ جَمَعَ مَا بَيْنَ الأَجْرِ، وغُفْرَانِ الذَّنْبِ، وهذا مِنْ أَعظمِ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَزَاءِ؛ لأَنَّهُ تَارَةً يَكُونُ الْجَزَاءُ بِالثَّوَابِ بِالْحَسَنَةِ، أَنَّهُ يَفعَلُ فيُعطَى الْحَسَنَةُ، لكنْ أَنْ يُعطَى الْحَسَنَةُ، وتُكَفَّرُ عَنْهُ السَّيئةُ، فهذا مِنْ أعظمِ مَا يَكُونُ.

وعند الْعُلَمَاءِ إذا وَرَدَ مِثْلُ هذا في العَمَلِ، أو في القَولِ، أو في الاعتقَادِ، دَلَّ على الفَضْلِ، أَنَّ لَهُ مَزِيَّةً وفَضْلاً، وأَنْ يَجمَعَ لِلعبدِ مَا بَيْنَ ثَوَابِ العَمَلِ، ومَا بَيْنَ تَكفِيْرِ الذَّنْبِ، كَمَا في الْحَجِّ، فَإِنَّ مَنْ حَجَّ حَجًّا مَبْرُورًا، كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْحَجِّ، وأُعطِيَ فَوقَ ذَلِكَ غُفرَانُ الذَّنْبِ، وكذَلِكَ أَيضًا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهلِ الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**)) هذا غُفرَانُ ذَنْبٍ، وهُوَ أَعلَى مَرَاتِبِ غُفرَانِ الذَّنْبِ:

أَنْ يَكُونَ بِغُفرَانِ مَا تَقَدَّمَ ومَا تَأَخَّرَ.

ثُمَّ يليهِ: غُفرَانُ مَا تَقَدَّم مِنَ الذَّنْبِ.

فإذا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُثِيْبَ الْعَبْدَ: **قَدْ يُثِيبُهُ** بِالْحَسَنَةِ على فِعْلِ العَمَلِ، ورِفْعَةِ الدَّرَجَةِ، **وقَدْ يُثِيبُهُ** سبحانه **بِالْجَمْعِ بَيْنَ الأَمْرَينِ:** بَيْنَ الثَّوَابِ، ومَغْفِرَةِ الذَّنْبَ، وأَنْ يَحولَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أسبابِ العِقَابِ.

((**وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيْئَةً**)): **والْخَطِيئَةُ:** مِنَ الْخَطَأِ، لَيسَ هُنَاكَ أعظمُ خَطَأً مِنْ خَطَأِ الإنسانِ فيمَا بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، إِنَّ اللهَ أَحيَاهُ، وكانَ ولَمْ يَزَلْ بدُونِ حياةِ اللهِ مَيِّتًا، وأَعطَاهُ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ والعَقْلَ، وجَعَلَهُ سِمْيعًا بَصِيْرًا عَاقِلاً، ثُمَّ يَعصِي اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، فهذا مِنَ الْخَطَأِ.

وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْخَطِيئَةُ خَطِيئَةً؛ لأَنَّهُ خَطَأٌ مِنَ الْعَبْدِ في جَنْبِ رَبِّهِ أَنْ يَعصِيَهُ، وأَنْ لا يُطِيعَ أَمْرَهُ، وأَنْ لا يَجْتَنِبَ نَهيَهُ، هذا طُرِيقُ الْخَطَأِ، وطَرِيقُ الْخَلَلِ.

وَهِيَ خَطِيئَةٌ سَوَاءً كَانَتْ: مِنَ الأقوالِ، أوِ الأعمالِ، أوْ تَعَلَّقَتْ بأعمالِ القُلُوبِ، كالْحَسَدِ والبَغْضَاءِ ونَحوِهَا -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-.

قَالَ الإمامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا سفيانُ بنُ وكيعٌ حَدَّثنا أبي، عن أُسامةَ بنِ زيدٍ عن مُحَمَّدِ بنِ عمرِو بنِ عطاءٍ، عن عطاءِ بنِ يسارٍ، عن أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيْبُ الْمُؤْمِنَ، مِنْ نَصَبٍ، وَلا حَزَنٍ، ولا وَصَبٍ، حَتَّى الْهَمُّ يَهُمُّهُ إلاَّ يُكَفِّرُ اللهُ بِهِ عَنْهُ سِيِّئَاتِهِ**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حديثٌ حسنٌ في هذا البابِ.

الشَّرْح:

قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيْبُ الْمُؤْمِنَ، مِنْ نَصَبٍ**))، ((**مَا مِنْ شَيْءٍ**))، ((**شَيْءٍ**)): نَكِرَةٌ تُفِيدُ العُمُومَ.

((**يُصِيْبُ الْمُؤْمِنَ، مِنْ نَصَبٍ**)): أيًّا كَانَ هذا الشيءُ، والنَّصَبُ: التَّعَبُ.

وهذا الْحديثُ حديثٌ عظيمٌ، وفيهِ بِشَارَةٌ كَرِيْمَةٌ مِنَ اللهِ لعبادِهِ الْمُؤمِنِيْنَ، أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مَعَهُم، وأَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ مُستودَعٌ لِلخَيْرَاتِ والبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ لِمَنْ صَبَرَ واحتَسَبَ.

هذا الْحديثُ أَخْرَجَ اللهُ بِهِ الْمُؤمِنَ مِنْ ضِيقِ الدُّنيا إلى سَعَةِ الآخِرَةِ.

هذا الْحديثُ شَرَحَ اللهُ بِهِ الصدور، واطْمَأَنَّتْ بِهِ القُلُوبُ، وهُوَ فَرحَةٌ للمُؤمِنَ إذا حَزُنَ، وقُوَّةٌ لَهُ إذا ضَعُفَ، وثَبَاتٌ لَهُ إذا تَزَلْزَلَ، ومَا أَحوجَ الْمُؤمِنُ إلى رَبِّهِ، ومَا أحوجَهُ إلى هَذِهِ السُّنَنُ العَطِرَةُ النَّضِرَةُ الَّتِي يَشرُحُ اللهُ بِهَا صدرَهُ، فيَحتَسِبُ بِهَا عندَ اللهِ أَجْرَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: (**وَجَدْنَا أَلَذَّ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ**).

فهَذِهِ السُّنَّةُ تَصَبِّرُ، النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-أَرَادَ بِهَذَا الْحديثِ الصَّبْرَ واحتِسَابَ الأَجْرِ، فَلَيسَ هُنَاكَ مَقَامٌ في البَلاءِ أعظمُ مِنْ مَقَامِ الصَّبْرِ.

وذَكَرَ اللهُ الصَّبْرَ في أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِيْنَ مَوضِعًا في كتابِهِ.

وكَانَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَصِيحُ ويَقولُ: (**أَلا إِنَّ مَنْزِلَةَ الصَّبْرِ مِنَ الإِيْمَانِ كَمَنْزِلَةِ الرُّوْحِ مِنَ الْجَسَدِ، أَلا لا إِيْمَانَ لِمَنْ لا صَبْرَ لَهُ**).

فالصَّبْرُ على البَلاءِ نِعمَةٌ عظيمةٌ، ولكنَّ هذا الصَّبْرَ يَحتَاجُ إلى زَادٍ مِنَ الإِيْمَانِ، وهُوَ مَا وَرَدَ مِنَ البَشَائِرِ في الكتابِ والسُّنَّةِ.

أعظمُ النَّاسِ صَبْرًا في الدُّنيَا مَنْ آمَنَ بِهَذِهِ النُّصُوصِ في الكتابِ والسُّنَّةِ، وصدَّقَهَا، واستَشعَرَهَا، وتَعَلَّمَهَا، وعَرَفَ كيفَ يَعِظُ النَّاسَ بِهَا؛ حَتَّى يُثَبِّتُ اللهُ بِهِ الْمُؤمِنَ، فيَكتُبُ لَهُ أَجْرَهُ.

إنَّ الْعَبْدَ يُصِيبُهُ البَلاءُ، فيَقَعُ طَرِيْحًا على فراشِهِ، رُبَّمَا مَشلُولاً، رُبَّمَا يَكُونُ مَشلُولاً وَلا أَسْعَدَ مِنْهُ قَدْ تَجِدُهُ مَشلُولاً ولا أَسْعَدَ مِنْهُ، وتَجِدُهُ لا يَتحرَّكُ مِنْ فراشِهِ، ولَيسَ هُنَاكَ أَحَدٌ أَقْوَى مِنْهُ إِيْمَانًا ولا ثَبَاتًا، وهذا كُلُّهُ بِفَضْلِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، مِنْ كَرَمِهِ وجُودِهِ على أهلِ البَلاءِ.

فالبَلاءُ كُلُّ البَلاءِ الْجَهْلُ باللهِ، والبُعدُ عَنِ اللهِ، والكُفْرُ باللهِ، هذا هُوَ البَلاءُ حقيقةً، أَمَّا مِنْ عَرَفَ اللهَ فَأَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلِذَلِكَ لا تَسمَعُ مِنَ الْمُؤمِنِ الصَّادِقِ في هَذِهِ الدُّنيَا إلا مَا يُرضِي اللهَ، وَلِذَلِكَ قَالَ: **((وَلا نَقُولُ إلا مَا يُرضِي اللهَ))**.

النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-بَيَّنَ هذا العُمُومَ أَنَّهُ لا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ شَيْءٍ، **((مِنْ نَصَبٍ))** النَّصَبُ هُوَ التَّعَبُ

((مِنْ نَصَبٍ)): النَّصَبُ في طَلَبِ الرِّزْقِ، يذهبُ الإنسانُ يبحَثُ عَنْ رزقِهِ وقوتِهِ وقوتِ أولادِهِ فيتعَبُ ويَضْنَى، ويَجِدُ الْمشقةَ والعناءَ، وهُوَ يَعمَلُ مِنْ صباحِ يومِهِ إلى مسائِهِ، يَكدَحُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَجِدَ مَالاً حَلالاً يُطعِمُهُ لنفسِهِ وولدِهِ، هذا النَّصَبُ والتَّعَبُ مَكتُوبٌ أَجْرُهُ، لا يُضِيعُ اللهُ لِعَبدِهِ إذا أَحْسَنَ أَجْرَهُ: **{إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً}**.

فالنَّصَبُ إذا كَانَ أَفْضَلَ مَا يَكُونُ إذا كَانَ في طاعةِ اللهِ، وَلِذَلِكَ كَمْ تَقْرَأُ مِنَ قَصَصِ السَّلفِ الصَّالِحِ وأئمةِ الْهُدَى ودَوَاوِينِ الْعِلْمِ والعَمَلِ تَجِدُ لَهُم مِنَ الصَّبْرِ مَا تَتَعَجَّبُ، حَتَّى إِنَّهُ لولا أَنَّ هَذِهِ الأخبارَ جَاءَتْ بِنَقْلِ الثِّقَاتِ لَقُلْنَا: إِنَّهَا مُبَالَغٌ فِيهَا، ولكنَّهَا واللهِ لِمَنْ عَرَفَ أَولِيَاءَ اللهِ الصَّادِقِيْنَ الَّذِين صَدَقُوا مَعَ اللهِ لا يَستَكْثِرُ ذَلِكَ فيهِم.

النَّصَبُ: هُوَ التَّعَبُ، لا يُصِيبُكَ تَعَبٌ، وأَفْضَلُ مَا يَكُونُ التَّعَبُ، وأعظمُ مَا يَكُونُ أَجْرًا عندَ اللهِ إذا كَانَ في طاعةٍ.

((وَلا حَزَنٍ)): الْحُزْنُ: ضِدُّ السُّرُورِ، **والْحُزْنُ يَكُونُ بأسبابٍ**: مِنْهَا مَا يَكُونُ دِينِيًّا، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ دُنيَوِيًّا.

فيَحزَنُ الإنسانُ، وغالبًا مَا يَحزَنُ، الْحُزْنُ يَكُونُ لشيءٍ مَضَى، فيَحزَنُ لِمَا أَصَابَهُ، وَلِذَلِكَ الْحُزْنُ لا يَكُونُ إلا بسببِ النَّقصِ في النَّفسِ، أو الْمالِ، أو الولدِ، أو الإخوانِ، أو الأصحابِ، فيَحزَنُ الإنسانُ عندَ فِرَاقِ النِّعَمِ.

والْحُزْنُ وَقْعُهُ عظيمٌ على النُّفُوسِ، ولكنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لطيفٌ بعبادِهِ، ومِنْ كَرَمِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّهُ مَا أَنزَلَ على مؤمنٍ بلاءً، فاحتَسَبَ وأَيْقَنَ إلا أَفْرَغَ عليهِ مِنْ الصَّبْرِ والثَّبَاتِ، رُبَّمَا يُفرِغُ عليهِ أضعافَ مَا أَنزَلَ عليهِ مِنَ البَلاءِ، وهذا يَختَلِفُ بِحَسَبِ قُوَّةِ الإِيْمانَ والتَّوحيدِ.

الْحُزْنُ يكونُ لِفَرَاقِ الأشياءِ، وإذا فَارَقَ الإنسانُ العَزِيزَ.

قَدْ يُفَارِقُ: الْمالَ والدُّنيَا، فيَكُونُ تَاجِرًا بِخَيْرٍ ونِعمَةٍ، ثُمَّ تَنكَسِرُ تِجَارَتُهُ، فيَلبسُ لِبَاسَ الفَقْرِ بعدَ أنْ لَبِسَ لِبَاسَ الغِنِيَ، ويَلبَسُ عندَ النَّاسِ حَالَ الذِّلَةِ بعدَ أَنْ كَانَ في عِزَّةٍ، فيَتَذَوَّقُ الْمَرَارَةَ، فهذا حُزْنٌ على فِرَاقِ الدُّنيَا والْمَالِ، **وقَدْ يَحزَنُ** لِفِرَاقَ مَنْصِبٍ أو مَكَانٍ أو جَاهٍ، **وقَدْ يَحزَنُ** لِفِرَاقِ القَرَابَةِ، كالآباءِ والأمهاتِ والإخوانِ والأخواتِ وفلذاتِ الكبدِ، فهذا حزنُهُ عظيمٌ، فكُلَّمَا اقتَرَبَ الشيءُ مِنَ الإنسانِ كَانَ فراقُهُ أصعبَ، ولكنَّ أَجْرَهُ عندَ اللهِ أعظمُ.

وهذا الْحُزْنُ يُبَدِّدُهُ اللهُ عَنِ الْعَبْدِ ويُذهبُهُ عَنْهُ إذا تَعَاطَى أَسبابَ الثَّبَاتِ:

أَوَّلُهَا وأعظمُهَا: الشَّكوى إلى اللهِ: **{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}**. فالقُلُوبُ تُغَيِّبُ مَحبةَ أحبابِهَا، وقَدْ يَكُونُ الإنسانُ عَزِيزًا عليكَ، وتُحِسُّ بقيمتِهِ ومكانتِهِ عندَ فقدِهِ، فيَتَأَلَّمُ الإنسانُ، ويَعظُمُ وُقْعُ الشيءِ على قلبِهِ، فيَعظُمُ حُزْنُهُ بِعِظَمِ الْمُصَابِ، ولِشِدَّةِ وَقْعِهِ قَدْ يَكُونُ قَرِيبًا، وقَدْ يَكُونُ حَبِيبًا:

اِثْنَانِ لَوْ بَكَتِ الدِّمَاءَ عَلَيْهِمَا عَيْنَاكَ حَتَّى يُؤْذَنَا بِذَهَـــابِ

لَمْ يَبْلُغَا الْمِعْشَارَ مِنْ حَقِّيهِمَا: فَقْدُ الشَّبَابِ، وَفُرْقَةُ الأَحْبَابِ

قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيكَ ثُمَّ تُفَارِقُهُ، إذا اشتَكَيْتَ إلى اللهِ بَدَّدَ اللهُ حُزْنَكَ، وَلِذَلِكَ قصَّ اللهُ قِصَّةَ يَعْقُوبَ -عَلَيهِ السَّلامُ- وهُوَ في شِدَّةِ البَلاءِ حَتَّى ذَهَبَتْ عَينَاهُ مِنَ البُكاءِ: **{وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}**، وأعظمُ مَا يَكُونُ الْحُزْنُ إذا كَظَمَهُ الإنسانُ، فإذا كَظَمَهُ وتَوَجَّهَ إلى اللهِ صَادِقًا مُوقِنًا، فإنَّ اللهَ يُثَبِّتُهُ ولا يَخذُلُهُ، أَنْ تَشتَكِي إلى اللهِ، أَيُّ مُصيبةٍ تَنْزِلُ بالإنسانِ يَقُولُ: (اللَهُمَّ، إِنِّي أَشْكُو إِلَيكَ مَا أَصَابَنِي)، **{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}** مَا أَحَدٌ يَعلَمُ مكانةَ ابني عندِي إلا اللهَ، ولا أَحَدَ يَعلَمُ مَا أَجِدُهُ مِنَ الأَلَمِ والشَّجَى والْحُزْنِ إلا اللهَ، فاشتَكَى إلى اللهِ فَثَبَّتَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، وأَحْسَنَ لَهُ العاقبةَ والْجزاءَ.

الأمرُ الثَّانِي: أَنْ يَعلَمَ أَنَّهُ مَا مِنْ شيءٍ فِي هَذِهِ الدُّنيَا أَفْرَحَهُ، ومَا مِنْ شيءٍ فِي هَذِهِ الدُّنيَا سَرَّهُ إِلا وهُوَ مِنَ اللهِ، **فمثلاً**: هُوَ يُحِسُّ أَنَّ ابنَهُ هذا كَانَ سُرُورًا لَهُ، وكَانَ أُنسًا له، وكَانَ، وكَانَ... مَنِ الَّذِي جَعَلَهُ كذَلِكَ؟ اللهُ.

من الَّذِي سَاقَهُ إليهِ؟ ومَنِ الَّذِي جَعَلَهُ قُرَّةً لِعَينيهِ؟ اللهُ.

فإذا عَلِمَ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَعطَاهُ، وأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَخَذَهُ، أَمَرَ وَكَتَبَ وَقَدَّرَ سبحانه بِأَخْذِهِ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِاللهِ؛ لأَنَّكَ إذا استَشعَرْتَ أَنَّ الأبَ والأمَّ والابنَ والبنتَ والأخَ والأختَ والعزيزَ لديكَ هِبَةٌ مِنَ اللهِ، وأَنَّ اللهَ رَحِمَكَ بِهِ، فَإِنَّكَ إذا استَشعَرْتَ أَنَّهُ أَخَذَهُ عنكَ، وأَنَّهُ سيُخلِفُ عليكَ خَيْرًا مِنْهُ لَنْ تَجِدَ لِلحُزْنِ فِي قلبِكَ مَكانًا، وهذا لا يَكُونُ إلا بتوفيقِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وهُوَ فِي معنَى استشعارِ القضاءِ والقَدَرِ، تَستَشعِرُ أَنَّ هذا كُلَّهُ بِقَدَرِ اللهِ.

إنَّ الْعَبْدَ إذا استَشعَرَ أَنَّ سُرُورَ الدُّنيَا كُلُّهُ مِنَ اللهِ لَنْ يَحْزَنَ.

وإذا استَشعَرَ أَنَّ سُرُورَ الدُّنيَا بسببِ هَذِهِ الزَّوجَةِ الَّتِي فَارَقَهَا.

وأَنَّ سُرُورَ الدُّنيَا بسببِ هذا الولدِ الَّذِي عَمِلَ لَهُ، وعَمِلَ لَهُ.

وأَنَّ سُرُورَ الدُّنيَا بسببِ هذا الْمديرِ الَّذِي نُقِلَ عَنْهُ.

وأَنَّ سُرُورَ الدُّنياَ بسببِ هذا الصَّاحبِ.

أَسْنَدَ هذا الفَضْلَ لِغَيْرِ اللهِ، فيَخْذُلُهُ اللهُ.

اجْعَلْ عقيدةً عندَكَ، واستِشعَارًا عندَكَ لا يَنقُصُ ولا يَزُولُ ولا يَتَحَوَّلُ إِلا بزيادةٍ، وهُوَ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي تَفَضَّلَ عليكَ، وهُوَ الَّذِي أَحْسَنَ إليكَ بِهَذِهِ النِّعمَةِ، إذا استَشعَرْتَ هذا على الْحقيقةِ، فَإِنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لَنْ يَخذُلَكَ، وسيُعَوِّضُكَ اللهُ مِنْ حيثُ تَحتسبُ، ومِنْ حيثُ لا تَحتسبُ.

يتجرَّعُ الْمُؤمِنُ الصَّادقُ مَرَارَةَ الفِرَاقِ لِمَنْ يُعِزُّهُ ويُحِبُّهُ، فإذا تَذَكَّرَ أَنَّ الأيامَ الَّتِي خَلَتْ، والْمَسَرَّاتَ الَّتِي انقَضَتْ، الفَضْلُ فيهَا للهِ، وقَالَ بِلِسَانِ الْحالِ والْمَقَالِ: (آمَنْتُ بِاللهِ)، فَتَحَ اللهُ عليهِ أبوابَ الرَّحْمَةِ، وثَبَّتَهُ، وجَعَلَ هذا الفِرَاقَ لا يُساوِي شيئًا، يَقولُ: مَنْ أَبِي؟ ومَنْ أُمِّي؟ ومَنْ ابْنِي؟ ومَنْ أَخِي؟ ومَنْ أُختِي؟ الفَضْلُ كُلُّهُ للهِ.

وهذا هُوَ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ كَلِمَةُ الصَّابِرِينَ الَّتِي أَفْرَغَ اللهُ بِهَا الصَّلَوَاتِ والرَّحْمَةَ على الْمَنكُوبِيْنَ والْمُصَابِيْنَ: **{إِنَّا لِلَّهِ}**، مَا معنَى: **{إِنَّا لِلَّهِ}**؟ أَنْ تَستَشعِرَ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَعطَاكَ هذا الابنَ، وأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَعطَاكَ البنتَ، وأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَعطَاكَ الأبَ والأُمَّ، وأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي عَطَفَ قلبَهُ عليكَ، وهُوَ الَّذِي

يَسَّرَ بِرَّ ابنِكَ لَكَ، وأَنَّ اللهَ، وأَنَّ اللهَ... فتقولُ: **{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}** كَلِمَةٌ ثقيلةٌ عظيمةٌ، خفيفةٌ على اللِّسانِ، ثقيلةٌ في الْمِيزَانِ، عظيمةٌ في قُلُوبِ أهلِ الْبِرِّ والإيقانِ، جَعَلَنَا اللهُ وإيَّاكُم مِنْهُم، **فهذا مِمَّا يُذهِبُ الْحُزْنَ**.

وكذَلِكَ مِمَّا يُذهِبُ الْحُزْنَ: استِشعَارُ السُّنَنِ الإلَهِيَّةِ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مِنْ بعدِ الْحُزْنِ مَسَرَّةً، كَمَا جَعَلَ مِنْ بعدِ اللَّيلِ ضِيَاءً:

أَلا إِنَّ الدَّهْرَ يُسْرٌ بَعْدَ عُسْرٍ وَمِنْ بَعْدَ الدُّجَى صُبْحٌ وَنُوْرُ

فَـــلَوْلا الدَّاءُ لَمْ يُحْمَدْ شِفَاءٌ وَلَـــوْلا الْهَمُّ مَا حُمِدَ السُّرُورُ

اللهُ يَعقَبُ الْمَصَائِبَ بِالْخَيْرِ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الإِفْكِ: **{لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ}**.

قَدْ يَسلُبُ اللهُ الْعَبْدَ نِعمَةً لِكَي يُبدِلَهُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا، فحُسْنُ الظَّنِّ واستِشعَارِ السُّنَنِ الإلَهِيَّةِ بِحُسنِ الْخَلَفِ مِنَ اللهِ، يُثَبِّتُ اللهُ بِهِ عندَ الْمَصَائِبِ.

الْحُزْنُ وَقْعُهُ عظيمٌ، ولكنْ إذا أَخَذَ الْعَبْدُ بِهَذِهِ الأسبابِ:

ومِنْ أعظمِهَا: قِرَاءَةُ القِرآنِ، والنَّظَرُ في سِيْرَةِ أنبياءِ اللهِ، مَا مِنْ مصيبةٍ تُصِيبُ الإنسانَ إلا أَوْجَدَ اللهُ سَلْوَتَهَا في قَصَصِ الأنبياءِ، وجَرِّبْ هذا فستَجِدُهُ واضِحًا جِلِّيًا، وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ تعالى: **{وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}** أَيُ مصيبةٍ تَتَوَقَّعُهَا إلا وَتَجِدُ لَهَا شَاهِدًا مِنْ قَصَصِ الأنبياءِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِم-، فَالْحُزْنُ وَقْعُهُ عظيمٌ، ولكنَّ اللهَ يُبَدِّدُهُ ويذهِبُهُ بِتوفيقِهِ ورَحْمَتِهِ، وتَتَبُّعِ هَدْيِ الكتابِ والسُّنَّةِ.

((**وَلا وَصَبٍ**)): الْوَصَبُ يُصِيبُ الإنسانَ بأسبابٍ، وقَدْ يَجِدُ الإنسانُ هذا الوَصَبَ والتَّعَبَ والعناءَ والْمشقةَ مِنْ كَدْحٍ لِمَصَالِحِهِ أو مَصَالِحِ غَيْرِهِ، وَكُلُّ هذا يَكتُبُ اللهُ أَجْرَهُ، وَكُلُّ هذا يَكتُبُ اللهُ ثَوَابَهُ، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ الْعَبْدَ في خَيْرٍ.

وَلِذَلِكَ قَدْ يَكُونُ الإنسانُ مَهمومًا مَغمومًا في نَصَبٍ وتَعَبٍ ووَصَبٍ في طلبِ الرِّزقِ، فيَجْعَلُهُ اللهُ بِهذا التَّعبِ والنَّصَبِ والوَصَبِ يَمشِي على الأرضِ بِلا ذَنْبٍ، قَدْ تَجلِسُ في عَمَلِكَ، فتَجِدُ مِنْ الضِّيقِ والتَّعَبِ والعناءِ والْمشقةِ، تَنصَحُ فتُخَوَّنُ، وتُؤذَى وتُحتَقَرُ، وتَصدُقُ فتُكَذَّبُ، فإذا بِهَذِهِ البَلايَا كُلِّها يَرفَعُ اللهُ بِهَا دَرَجَتَكَ، ويَحُطُّ اللهُ بِهَا خَطِيئَتَكَ، هذا خَيْرٌ عظيمٌ.

ولكنَّ الإنسانَ لا يَنَالُ هَذِهِ الْمَنزِلَةَ إلا إذا استَشعَرَ هَذِهِ النُّصُوصَ الوَارِدَةَ في الكتابِ والسُّنَّةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

((**حَتَّى الْهَمُّ يَهُمُّهُ**)): **الْهَمُّ**: يَكُونُ لِمَا يَأْتِي، **والْغَمُّ**: يَكُونُ مِمَّا مَضَى، يَغتَمُّ الإنسانُ مِمَّا أَصَابَهُ، ويَهتَمُّ لِمَا هُوَ مُقبِلٌ عليهِ، يَهتَمُّ لعيشةِ أولادِهِ، يَخافُ عليهُمُ الفَقْرَ، يَخافُ عليهُمُ الضَّيعَةَ، يَهتَمُّ لأمرٍ يُرِيدُ أَنْ يُحَصِّلَهُ، تِجَارَةٌ يُرِيدُ أَنْ يَسعَى لِتَحصِيلِهَا، مَنْصِبٌ يُرِيدُهُ، غَايةٌ مِنْ غاياتِ الدِّينِ أو الدُّنيَا، فيَهتَمُّ يُصِيْبُهُ الْهَمُّ.

والْهَمُّ: بلاءٌ وعناءٌ وقلقٌ، وهو يَتَعَلَّقُ بالآلامِ الْمَعنَوِيَّةِ.

الَّذِي مَضَى كَثِيْرًا مِنْهُ حِسِّيٌّ، وكَمَا ذَكَرْنَا في الشَّوكَةِ حِسِّيَّةٌ تُصِيبُ الْجَسَدَ.

ولكنَّ الْحُزْنَ والْهَمَّ والغَمَّ هَذِهِ كُلُّهَا مَعنَوِيَّةٌ، تَكُونُ في القُلُوبِ، يَهتَمُ الإنسانُ مِنْ شيءٍ في مستقبلِهِ، أو مستقبلِ أولادِهِ.

وقَدِ استَعَاذَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-مِنَ الْهَمِّ، فقَالَ: ((**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ والْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ**))، فسألَ اللهَ أَنْ يُعِيذَهُ مِنَ الْهَمِّ.

ومِنْ أعظمِ الْهَمِّ: هَمُّ الدَّيْنِ الَّذِي هُوَ بَلاءٌ على الْعَبْدِ، وعناءٌ عليهِ، وَلِذَلِكَ ثَبَتَ في حديثِ أبي أُمَامَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-علَّمَهُ دُعاءَ قضاءِ الدَّيْنِ وهُوَ قَولُهُ: ((**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ...**)) إلى آخِرِ الدُّعاءِ الْمَاثُورِ.

الْمَقصُودُ: أَنَّ الْهَمَّ يَكُونُ لِمَا يُستَقبَلُ، فَبَيَّنَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أَنَّ الإنسانَ إذا اهتَمَّ حَتَّى لَوِ اهتَمَّ يُرِيدُ أَنْ يَشتَرِي سيارةً، أو يَتزوَّجَ امرأةً، أو يُحَصِّلَ وظيفةً فيَمكُثُ أُسبوعًا يُوعَدُ بِهَا، أو شَهْرًا، أو سَنَةً، هذا الْهَمُّ كُلُّه مَكتُوبٌ أَجْرُهُ، مَكتُوبٌ ثَوَابُهُ، صَدَقَ اللهُ، وصَدَقَ رسولُهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- اللَّهُمَّ، ارزُقْنَا التَّصديقَ والتَّسليمَ، أَخْبَرَنَا أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤمِنَ في منزلةٍ ومكانةٍ عظيمةٍ شريفةٍ لا يَنقُصُهُ إلا شِكْرُ اللهِ -جَلَّ جَلالُهُ-: ((**مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ رُوحِ عَبْدِي الْمُؤمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**)) اللَّهُمَّ لا إِلَهَ إلا أَنتَ، مَا أَعظَمَكَ وأَكرَمَكَ، أَشهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ، لا أَكرَمَ مِنَ اللهِ.

تَبَدَّدَتْ هُمُومُ الدُّنيَا إذا ذَكَرْتَ: مِنْ هُوَ اللهُ؟

تَبَدَّدَتْ عَنْكَ هُمُومُ الدُّنيَا، وتَذهَبُ عَنْكَ أحزَانُهَا وأشجانُهَا إذا عَرَفْتَ: مِنْ هُوَ مَلِكُ الْمُلُوكِ الَّذِي يُرِيدُ بِكَ الْخَيْرَ؟

كُلُّ هذا حَتَّى الْهَمَّ والغَمَّ والنَّصَبَ والوَصَبَ والشَّوكَةَ كُلَّها مكتوبةٌ في مِيزانِ حسناتِكِ، مَا الَّذِي يَنقُصُكَ غَيْرُ الإِيْمَانِ والتَّوحيدِ والإخلاصِ، فتسأَلُ اللهَ، وتَتَوَكَّلُ على اللهِ، وتَثِقُ باللهِ، وتُفَوِّضُ أَمْرَكَ إلى اللهِ: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}** سُبْحَانَهُ وبِحَمْدِهِ.

((إِلاَّ يُكَفِّرُ اللهُ بِهِ عَنْهُ سِيِّئَاتِهِ))، **((بِهِ))**: الباءُ سَبِبيةٌ، أي بِسببِهِ.

وإذا كَانَتْ سببيةً فمعناهُ أنَّ التَّكفِيْرَ مُرتبطٌ بِهذا البَلاءِ: إنْ كَانَ عظيمًا كَانَ الْهَمُّ كَبِيْرًا، فالتَّكفِيْرُ كَبِيْرٌ، وإذا كَانَ الْحُزْنُ عظيمًا، فالتَّكفِيْرُ عظيمٌ.

وَلِذَلِكَ يَستَبشِرُ الْمُؤمِنُ؛ لأَنَّهُ لا يَستطِيعُ أَنْ يُقَدِّمَ أو يُؤَخِّرَ مِنْ قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، هذا أَمْرُ اللهِ، فَتَنزِلُ الْمُصيبةُ على الْمُؤمِنِ، وتَنزِلُ على الكَافِرِ، فإذا نَزَلَتْ على الْمُؤمِنِ عَلِمَ أَنَّهُ سيُثَابُ، وتُكَفَّرُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، وأَنَّهَا إذا عَظُمَتْ فِالْجَزاءُ أعظمُ، وأَنَّ الْمُغفِرَةَ للذُّنُوبِ والرِّفعةَ للدَّرَجَاتِ أكبْرُ، فيَستَبشِرُ، ويَثِقُ بِمَا عندَ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، جَعَلَنَا اللهُ وإيّاكُم مِنَ الْمُوقِنِيْنَ.

وأَمَّا الكَافِرُ: فإنَّهَا ضِيْقٌ لَهُ في الدُّنيَا قَبْلَ الآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ لَيسَ الْخوفُ على الْمُؤمِنِ؛ لأَنَّهُ وَاثِقٌ بِرَبِّهِ.

أَمَّا البَلاءُ والشَّقَاءُ فعلى هؤلاءِ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِاللهِ ولا بِاليومِ الآخِرِ: **{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ}**، تُصِيبُهُ الْمُصيبَةُ فَلا يَدرِي مِنْ أَيْنَ أَصَابَتْهُ، ولا يَدرِي أَيْنَ يَذهَبُ حَيْرَان، لكنَّ الْمُؤمِنَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ للهِ، فيَتَلَذَّذُ بِمُنَاجَاةِ اللهِ، ويَتَلَذَّذُ بِالثِّقَةِ بِاللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

يَقولُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيْبُ الْمُؤْمِنَ، مِنْ نَصَبٍ، وَلا حَزَنٍ، ولا وَصَبٍ، حَتَّى الْهَمُّ يَهُمُّهُ إِلاَّ يُكَفِّرُ اللهُ بِهِ عَنْهُ سِيِّئَاتِهِ))**، **((يُكَفِّرُ))**: الْكَفْرُ: هُوَ السَّتْرُ والتَّغطيةُ، كَمَا قَالَ القَائِلُ:

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرٌ فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

أي سَتَرَهَا.

وسُمِّيَتِ الْمَغفِرَةُ كَفَّارَةً؛ لأَنَّ الشَّيءَ إذا كُفِرَ وسُتِرَ كَأَنَّهُ غَيْرُ مَوجودٍ، وَلِذَلِكَ تُسَمَّى مَغفِرَةً، وتُسَمَّى كَفَّارَةً، كَمَا قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ))**.

فالتَّكفِيْرُ كَمَا قَالَ تعالى: **{لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا}** فالْكَفْرُ: هُوَ السَّتْرُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الزَّارِعُ كَافِرًا؛ لأَنَّهُ يَكْفُرُ الْبِذْرَ بِمعنَى أَنَّهُ يَستُرُهُ.

فاللهُ إذا غَفَرَ الذَّنبَ سَتَرَهُ، ويَفْعَلُ الْعَبْدُ الذَّنبَ فَلا يَعلَمُ بِهِ إلا اللهَ -جَلَّ جَلالُهُ-، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، وَلِذَلِكَ إذا كُفِّرَ عَنْهُ الْعَبْدُ وسُتِرَ ذَنْبُهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ، فَلا يُؤَاخِذُهُ اللهُ بِهِ، ولا يُحَاسِبُهُ عليهِ.

قَالَ –رَحِمَهُ اللهُ–: قَالَ: وسَمِعْتُ الْجارودَ يَقولُ: سَمِعْتُ وكيعًا يَقولُ: إنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ في الْهَمِّ أَنَّهُ يَكُونُ كَفَّارَةً إلاَّ فِي الْحديثِ.

وَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الْحديثَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ–.

الشَّرْح:

(**لَمْ يَسْمَعْ في الْهَمِّ أَنَّهُ يَكُونُ كَفَّارَةً إلاَّ فِي الْحديثِ**)، هَكَذَا كَانَ أئمةُ السَّلَفِ، لا يُدخِلُونَ في نفوسِهِم عِلْمًا إلا وهُوَ مُوَثَّقٌ: **{وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}**، أَنْ تعيشَ في هَذِهِ الدُّنيَا فَلا تَعتَقِدُ أَمْرًا، ولا تَجْزِمُ بِهِ مَا لَمْ يَكُنْ عندَكَ دَليلٌ وحُجَّةٌ مِنَ اللهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–: إمَّا بكتابِهِ، أو سُنَّةِ رَسُولِهِ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–، خاصَّةً في الأحكامِ الشَّرْعِيَّةِ، مَا كَانَ أئمةُ السَّلَفِ يُلقِي الوَاحِدُ مِنْهُم بِأُذَنَيْهِ لِمَنْ لا يَستَحِقُّ، الْعَبْدُ الْمُوَفَّقُ الْمُسَدَّدُ الْمَعصُومُ بعصمةِ اللهِ، مِنْ دلائلِ العِصَمَةِ في الفِتَنِ بتوفيقِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– أَنَّ الْعَبْدَ تَجِدُهُ لا يَأْذَنُ لِعِلْمٍ أَنْ يَقَرَّ في صدرِهِ إلا إذا كَانَ موثَّقًا مِنْ أهلِهِ.

أَمَّا إذا وَجَدْتَهُ يُصغِي، انْظُرْ حَتَّى الْهَمَّ لَمْ يَكُنْ يَعتَقِدُونَ شيئًا حَتَّى في الْهُمُومِ إلا بدليلٍ، حَتَّى الْهُمُومَ كيفَ يَعتَقِدُ فيهَا بدليلٍ، مَا يَقبَلُونَ الأخبارَ هَذِهِ الْمُرجِفَةَ أو كَذَا، أَبَدًا، يَأْخُذُونَ الشَّيءَ مُوَثَّقًا مِمَّنْ؟ مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّهُ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ، الوَحيُ عِلْمٌ، أَغْنَانَا اللهُ بِعِلْمِ الوَحيِ عَنْ كُلِّ شيءٍ، وَلِذَلِكَ لَنْ تَجِدَ أُمَّةً تَفَضَّلَ اللهُ عليهَا، وأكرَمَهَا وأجَلَّهَا، ورَفَعَ قَدْرَهَا بِهَذا الْعِلْمِ مِثْلَ هَذِهِ الأُمَّةِ، عَلَّمَهَا اللهُ، واصطَفَاهَا واجتَبَاهَا بِهَذَا الْعِلْمِ، وفَضَّلَهَا على خَلْقِهِ بِتَفضيلِهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– ومَا بَقِيَ لِلمُسلمِ إلا أَنْ يَسِيْرَ على هذا النَّهْجِ الَّذِي كَانَ عليهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، لا يَقَرُّ في صدرِكَ حَتَّى الْهَمَّ أَنَّهُ يُكَفِّرُ لا يَقولُونَ على اللهِ بِدُونِ عِلْمٍ.

أَمَّا اليومُ يَأْتِي يَقولُ لَكَ: (صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ–أَلْفَ مَرَّةٍ يَحْصُلْ لَكَ كَذَا وَكَذَا، ويَكُونُ لَكَ كَذَا وكَذَا، قُلْ: لا إِلَهَ إلا اللهَ في الْمساءِ كَذَا وَكَذَا، وفي الصَّباحِ كَذَا وَكَذَا)، بِدُونَ مَا وَرَدَ في السُّنَنِ، (إذا قُلْتَهَا أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَدَاوَمْتَ على ذَلِكَ أُسبوعًا يَحصُلْ لَكَ، ويَحصُلْ لَكَ) هذا مَا يَمشِي، مَا يَمشِي عندَ السَّلَفِ، شيءٌ يَتَّصِلُ بِالدِّينِ نُقَيِّدُهُ بدليلِ الكتابِ والسُّنَّةِ.

فقَالَ: ((إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ فِي الْهَمِّ أَنَّهُ يَكُونُ كَفَّارَةً)) اللهُ أَكْبَرُ! حَتَّى فِي الْحُكمِ على الْهَمِّ كَانُوا لا يَحكُمُونَ على الأشياءِ إِلا بدليلٍ، هذا واللهِ الْعِلْمُ، وهؤلاءِ هُمُ الْعُلَمَاءُ، الْعِلْمُ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الكَلامِ، ولا بِتَنمِيقِ العِبَاراتِ، ولا بِتَزوِيقِهَا، ولا بِالْخُوضِ فِي كُلِّ شيءٍ.

وَلِذَلِكَ مَا كَانَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ولا كَانَ وَرَثَتُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِيْنَ مُتَكَلِّفِيْنَ، التَّكَلُّفُ والتَّنطُّعُ والْخَوضُ فِي علمِ الغَيبِ، والأشياءِ الَّتِي لا يَعلَمُهَا إِلا اللهُ، مَا كَانَ يَفعَلُونَهُ، فَكَانَ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- مُتَقَيِّدِيْنَ بِهذا الأصلِ العظيمِ الَّذِي هُوَ نَجَاةُ الْعَبْدِ، أَنْ لا يَتَكَلَّمَ الإنسانُ إلا بِهَدْيٍ ودليلٍ وحُجَّةٍ.

((لَمْ يَسْمَعْ فِي الْهَمِّ أَنَّهُ يَكُونُ كَفَّارَةً))؛ لأَنَّ تَكفِيْرَ الذُّنُوبِ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ، لا يَجُوزُ لأَحَدٍ يَعتَقِدُهُ إلا بدليلٍ، الْمُكَفِّرَاتُ للذُّنُوبِ لا بُدَّ من اتِّبَاعِ النَّصِّ فيهَا، ولا يَجُوزُ لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ العَمَلَ أَوِ القَولَ الفُلانِي يُكَفِّرُ إلا إذا قَالَ اللهُ: إِنَّهُ يُكَفِّرُ، فِي كتابِهِ، أو أَخْبَرَنَا فيمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، هذا واللهِ الْعِلْمُ.

وَوَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ إمامُ السُّنَّةِ والْعِلْمِ والعَمَلِ -رَحِمَهُ اللهُ- الْمُحَدِّثُ العَالِمُ، كَانَ إِمَامًا فِي الزُّهدِ والوَرَعِ -رَحِمَهُ اللهُ-، وكَانَ آيةً فِي الْحِفْظِ يَقولُ: (مَا خَطَطْتُ سَوداءَ فِي بَيْضَاءَ، وَلا سَأَلْتُ أَحَدًا أَنْ يُعِيدَ عَلَيَّ حَدِيْثَهُ مَرَّتَيْنِ)، وكَانَ رَجُلاً سَمِيْنًا، فَقَالُوا لَهُ: (كيفَ أَنْتَ سَمِيْنٌ، وأَنْتَ زَاهِدٌ؟ قَالَ: مِنْ فَرَحِي بِالإسلامِ)، لَمَّا فَرِحْتُ بِالإسلامِ سَمِنْتُ، كَانُوا أئمةِ عِلْمٍ وعَمَلٍ.

رَزَقَنَا اللهُ حُسْنَ الاهتِدَاءِ والاقتِدَاءِ بِهِم، وَجَمَعَنَا بِهِم فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عَنْدَ مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ.

اللَّهُمَّ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمًا يُرضِيكَ عَنَّا، وَعَمَلاً خَالِصًا لِوَجْهِكَ، مَقبُولاً عِنْدَكَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحمَدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّم وبارك على عبده ونبيّه محمد وعلى آله وصحبه أجمعيـــن.

رقم الدَّرس ٤٠٨

الأربعاء ٢٠-١-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

قَالَ الإمامُ أبو عيسى الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي عِيَادَةِ الْمَرِيضِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا حميدُ بنُ مسعدةَ حَدَّثنا يزيدُ بنُ زريعٍ حَدَّثنا خالدٌ الحذَّاءُ، عن أبي قلابةَ، عن أبي أسماءَ الرَّحبيِّ، عن ثوبانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن عَليٍّ، وأبي موسى، والبرَّاءِ، وأبي هُريرَةَ، وأنسٍ، وجابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا-.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: حديثُ ثوبانَ حديثٌ حسنٌ.

الشَّرْح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستن بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ:

فيقول المصنف -رَحِمَهُ اللهُ- : **[بَابُ مَا جَاءَ فِي عِيَادَةِ الْمَرِيضِ]** هذا البابُ يشتملُ على بيانِ هدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنتِهِ في التَّرغيبِ في عيادةِ الْمَرِيضِ وزيارتِهِ.

وهذا البابُ يعتَنِي بِهِ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- في كتابِ الْجَنَائِزِ، **والْمُنَاسبةُ فيه:** واضحةٌ ظاهرةٌ؛ لأنَّ الْمُرادُ أَنَّ الْمسلمَ إذا نزلَ بِهِ أمْرُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وأصابَهُ مَا كَتَبَ اللهُ عليهِ مَن الْمَرَضِ والسَّقم الذي في الغالبِ إذا كانَ مَرَضًا مَخُوفًا أنْ ينتهِي بِهِ أجلُهُ، فإنَّهُ منِ الْمُناسبِ بيانِ هدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في زيارةِ مَنْ كانَ هذا حالُهُ.

وقد ذكرَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- والأئمةُ منْ أهلِ الفقهِ جُملةً منِ الْمسائلِ والأحكامِ الْمُتعلقةِ بعيادةِ الْمرضى في كتابِ الْجَنَائِزِ، وإلا قدْ يفردُهَا بعضُ أئمةِ الْحديثِ بأبوابٍ خاصةٍ في غيْرِ هذا الْموضعِ، لكنَّ الْمصنفَ -رَحِمَهُ اللهُ- ترجمَ بِهذهِ التَّرجَمةِ.

وعيادةُ الْمَرِيضِ تنقسمُ إلى قسميْنِ:

العيادةُ منْ حيثُ الأصلِ العامِ: وهيَ عيادةُ كلِّ منْ أصابَهُ الْمرضُ والسَّقمُ.

والقسمُ الثاني: عيادةُ مَنْ هوَ أشدُّ وآكدُ، وهو الْمَرِيضُ مَرَضَ الْموتِ.

والْمصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- عمَّمَ في هذهِ التَّرجَمةِ، فإذا كانَ الْمرادُ العمومَ فالْمُرادُ بقولِهِ: **[عِيَادَةُ الْمَرِيضِ]** أي جنسِ الْمَرِيضِ، أي سواءً: كانَ مرضُهُ مَخوفًا، وهوَ مَرَضُ الْموتِ، أو كانَ مرضُهُ غَيْرَ مَخوفٍ، كالأمراضِ العاديةِ، كأنْ يصيبَهُ زكامٌ أو نَحوُ ذلكَ، فيعودُهُ أخوهُ، فهذهِ منَ الأمراضِ غَيْرِ الْمخوفةِ.

وعلى كُلِّ حالٍ، عيادةُ الْمَرِيضِ التي ترجمَ لَهَا -رَحِمَهُ اللهُ- يريدُ بِها الإشارةَ إلى فضلِ زيارةِ الْمَرِيضِ حالَ مرضِهِ، وقدِ اتَّفقَ العلماءُ والأئمةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أَنَّ منْ حَقِّ الْمُسلمِ على أخيهِ الْمسلمِ أنَّه إذا مَرِضَ عَادَهُ، وهذا من حقوقِ أخوةِ الإسلامِ.

والفضلُ في هذه العيادةِ يعودُ على: الشَّخصِ الْمَرِيضِ، والشَّخصِ الذي يزورُهُ، فيقومُ بِحقِّهِ.

وقد جعلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- في عيادةِ الْمرضى خيْرَ الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ، ولذلك سنَّهَا رسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قَوْلاً، وَعَمَلاً، وإِقْرَارًا**:

فجاءتِ الأحاديثُ الصَّحيحةُ عنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّهُ كانَ يعودُ الْمرضى، وكانَ هديهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في ذلكَ أكملِ الْهدي.

وكذلكِ أيضًا صحَّ عنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّهُ رغَّبَ في عيادةِ الْمرضى، بلْ بيَّنَ مَا ينبغي أنْ يكونَ عليهِ الْمسلمُ من إفساحِ الأجلِ لأخيهِ الْمسلمِ، كأنْ يقولَ لهُ: (بإذنِ اللهِ تَبْرأُ، وَيَمُدُّ اللهُ في عمرِكَ، ويَحصلُ منكَ الْخيْرُ)، وهذا كمَا قالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيضِ فَنَفِّسُوا لَهُ فِي أَجَلِهِ**))، وهذا كلُّهُ منْ رحْمةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بأوليائِهِ الْمؤمنيْنَ الْمُسلميْنَ، حيثُ جعلَ لَهم هذهِ السُّنَنَ في مثلِ هذهِ الظُّروفِ العصيبةِ الصَّعبةِ.

فالْخيْرُ يعودُ على مَنْ يعودُ، وعلى مَنْ يُعَاد، وهوَ الشَّخصُ الْمَرِيضُ، وعلى أهلِهِ.

وبعيادةِ الْمرضى ينتفعُ الْمسلمُ في دينِهِ؛ لأنَّ هذهِ العيادةَ يرفعُ اللهُ بِها درجةَ العبدِ، ويُعظِمُ بِها أجرَه، كمَا سيأتي -إِنْ شَاءَ اللهُ- منِ الأحاديثِ عنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **ومنهَا**:

قولُهُ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-: ((**مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَعُودَ**) **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا**))، وهذا يدلُّ على عظيمِ الأجرِ والْمثوبةِ.

وفي الْحديثِ القدسيِّ أَنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ((**مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِيْنِ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِى فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ**

لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ)).

فهذا كلُّهُ منَ الفضـــائلِ التي أَعدَّهُ اللهُ للمؤمنِ حيْنَ يزورُ أخاهُ الْمؤمنَ في مثلِ هذهِ الأحوالِ.

ثُمَّ إنَّ الْمؤمنَ يعتبِرُ، فإنَّ اللهَ يكسرُ قلوبَ الْجابرةِ، ويزيلُ عنِ الإنسانِ الغرورَ، غرورَهُ بالدُّنيا، وغرورَهُ بِمتاعِهَا الزَّائلِ الْحائلِ، فإنَّ العبدَ رُبَّمَا أصابتْهُ الغفلةُ، فغفلَ عنْ ذكرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِمَا في هذهِ الدنيا من فتنةِ المالِ والأهلِ والولدِ، وغيرِهَا منْ الفتنِ، فيقسو القلبُ، ويغفل عن الرَّبِّ، وإذا عادَ الْمَرِيضَ انتبهَ منْ غفلتِهِ، واستيقظَ منْ منامِهِ، وتذكرَ نعمةَ اللهِ عليهِ، وجميلَ منتِهِ لديهِ، إذا عادَ الْمَرِيض تذكرَ أنَّ العافيةَ منَ اللهِ، وأنَّها نعمةٌ منَ اللهِ، وأنَّه لا حولَ له ولا قوةَ إلا باللهِ، وأنَّ اللهَ قادرٌ في طرفةِ عينٍ أن يسلبَهُ القوةَ، وأن يسلبَهُ الْحولَ، وأنَّ اللهَ قادرٌ أنْ يزيلَ عنهُ عافيتَهُ ومنْ هنا ينكسرُ قلبُهُ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ، فيعرفُ مقدارَ النعمةِ، ويَخافُ منْ حلولِ النقمةِ، يَخافُ منْ زوالِ النِّعَم، وحلولِ النِّقَمِ، وحلولِ البلايا والسَّقمِ والألَمِ، فلذلكَ يزولُ الغرورُ.

وكانَ العلماءُ والنُّصَحَاءُ وأئمةُ الْهدى إذا أُشتُكِي لَهم منْ قسوةِ القلبِ، أَمَرُوا الإنسانَ الذي أُبتُلي بذلكَ أنْ يعودَ الْمرضى، وأنْ يشيعَ الْموتَى، وأنْ يدفنَ؛ حتَّى يرى بأمِّ عينيهِ تلكَ العِبَرَ التي تَهُزُّ القلوبَ، وتذكِّرُ باللهِ علامِ الغيوبِ.

فعيادةُ الْمرضى فيها خَيْرٌ كثيْرٌ لِمَنْ يعودُ، وكمْ منْ عبدٍ قَسَا قلبُهُ، ولَهَا عنْ ربِّه، فأُصيبَ في قريبٍ لديهِ، أو عزيزٍ لديهِ، كانَ في أوجِ القوةِ، فكسرَ اللهُ قوتَهُ، وكانَ في أوجِ العافيةِ، فأزالَ اللهُ عنهُ عافيتَهُ، فلمَّا رأى حالَهُ اِعْتَبَرَ وادَّكَرَ، وأنابَ إلى اللهِ -جَلَّ جَلالُهُ-.

ولذلكِ تَجدُ منْ يَجعلُ لهُ كلَّ بيْنَ فترةٍ وفترةٍ وقتًا يزورُ فيه الْمرضى ويعودُهُم، أو يشيعُ الْموتَى، أو يزورُ قبورَهُم، فإنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ينفعُهُ بذلكِ نفعًا عظيمًا.

وهذا أمرٌ كانَ عليه الأئمةِ، وكانَ عليه الصالِحُون، وكانَ عليه الأخيارُ، ويتأكدُ ذلكَ إذا كانَ عزيزًا على الإنسانِ، أو لهُ حقٌّ على الإنسانِ لعزةِ الدِّينِ التي هيَ أعظمُ عِزةٍ، فمنْ أعزَّ باللهِ أعزَّهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، ومثلُ الوالدينِ، ومثلُ القرابةِ، ومَنْ لهُ حقٌّ فعيادتُهُ آكدُ.

وعلى الْمسلمِ ألا ينشغلَ بِهذهِ الدُّنيا، -فَنَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيةَ- أَنَّ البعضَ يفرِّطُ في هذا الأمرِ العظيمِ، بل إنَّهُ قدْ يَخافُ منْ عيادةِ الْمرضى، وقدْ يكرَهُ عيادةَ الْمرضى، ويتوجَّسُ منهَا، وهوَ لا يعلمُ أنَّ اللهَ مَا سنَّ في كتابِهِ، ولا شَرَعَ في كتابِهِ، ولا سنَّ بِهدي نبيِّهِ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ولا شَرَعَ بِهدي نبيِّهِ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- إلا مَا فيهِ خيْرُ الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ، لا ينبغي لْمؤمنٍ يؤمنُ باللهِ

واليومِ الآخرِ أنْ يفكرَ طرفةَ عيْنَ أنَّ شيئًا شَرَعَهُ اللهُ -جَلَّ وَعَلا- أَنْ يكونَ فيهِ شرًّا عليهِ، أبدًا، بلْ لا يكونُ فيهِ إلا الْخَيْرُ والبركةُ والنعمةُ.

ولذلكَ البعضُ يَخافُ منْ عيادةِ الْمرضى، ويَخافُ منْ تشييعِ الْجنائزِ، ولكنَّهُ لو وَثِقَ باللهِ رَبِّهِ، واتَّبَعَ هديَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنتِهِ، حيثُ أَمَرَ الصحابةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- كمَا في حديثِ البَراءِ في الصحيحِ أنَّه أَمَرَهُم بعيادةِ الْمرضى، وتشييعِ الْجنائزِ، هذا إذا اتَّبَعه وَجَدَ فيهِ الْخَيْرَ الكثيْرَ.

فالْمقصودُ: أنَّ البعضَ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيةَ-، وهذا من تسلُّطِ الشَّيطانِ عليهِ، فإنَّهُ رُبَّمَا غَفَلَ عنْ حقوقِ إخوانِهِ الْمسلميْنِ.

وقدْ يبلغُ بالبعضِ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيةَ- أنْ يضيعَ حقَّ ذي الْحقِّ، وهمْ أقربُ الناسِ إليهِ، فتجدهُ يَمرضُ أخوه فلا يعودُهُ إلا قليلاً، ولا يزورُهُ إلا قليلاً.

بلْ قدْ يبلغُ ببعضِهِم أنَّه يكونُ في الْمنصبِ، ويكونُ في النعمةِ، فإذا أُبتُلي قريبُهُ ظنَّ أنَّ هذا الْمنصبَ، وأنَّ علوَّ مرتبتِهِ، وأنَّ وظيفتَهُ تَحولُ بينَهُ وبيْنَ قرابتِهِ في أحلكِ الظروفِ، فتجدُهُ يعتذرُ بأنَّه مشغولٌ، إمَّا بوظيفتِهِ وأعمالِهِ، معَ أنَّه يُمكنُهُ أنْ يزورَ، ويُمكنُهُ أنْ يعودَ.

بلْ قدْ يصلُ الْحالُ ببعضِهِم -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- أنْ يفعلَ ذلكَ معَ والديهِ، فإذا مرضتْ أُمُّهُ قالَ: احْمِلُوهَا إلى الْمستشفى، وظنَّ أنَّ الأمرَ يقفُ عندَ دفعِ فاتورةِ الْمستشفياتِ دونَ أنْ يكونَ قريبًا منْ قَدَمِ الآباءِ والأمهاتِ، وقدْ قالَ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-: ((**الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ**)).

فعيادةُ الْمرضى حقٌّ للمسلمِ على أخيهِ الْمسلمِ، فإذا كانَ الْحقُّ عليهِ عظيمًا كقريبِهِ، ووالديهِ، وأهلِ الْحقِّ، كأهلِ العلمِ ونَحوِهم، فإنَّهُ يتأكدُ، فلا يَجوزُ أنْ يفرِّطَ فيهَا.

وإذا نظرَ إلى هذهِ النُّصوصِ، والأبوابِ التي عقدَهَا العلماءُ والأئمةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- في فضلِ عيادةِ الْمرضى، **فإنَّ هذا فائدتُهُ أَمْرَانِ**:

الأمرُ الأولُ: أنَّ هذا يدعوهُ ويَحثُّهُ على فعلِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بفعلِهِ منْ عيادةِ الْمرضى؛ لأنَّ الْمسلمَ إذا نظرَ إلى هذهِ الأحاديثِ الصَّحيحةِ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في فضلِ عيادةِ الْمَرِيضِ هوَّنَ اللهُ بِها مشقةَ العيادةِ.

الأمرُ الثَّاني: أنَّ هذا لا يكونُ إلا بالاستشعارِ، بِمعنَى أنَّ الإنسانَ يستشعرُ عظيمَ ما أعدَّ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- في هذهِ العيادةِ، فلا يزورُ مُحاباةً، ولا مُجاملةً، ولا مُصانعةً، ولا تكلُّفًا، ولكنْ يزورُ احتسابًا للأجرِ عندَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؛ لأنَّ العيادةَ منِ العاداتِ، والعاداتُ قد تَصْرِفُ عنِ

العباداتِ، فقدْ يعودُ الإنسانُ مَنْ هو جارُهُ، ولكنْ منْ بابِ العادةِ، لا منْ بابِ العبادةِ.

فهذهِ النصوصُ: تَحثُّ الإنسانَ على العملِ.

وثانيًا: تدعوهُ إلى أنْ يستشعرَ الْمعاملةَ معَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فنسألُ اللهَ العظيمَ ربِّ العرشِ الكريمِ أنْ يرزقَنا التمسكَ بالسنةِ، وأنْ يعينَنَا على أداءِ الْحقوقِ، وأن يغفرَ لنَا ما ضيَّعنَا وفرطنَا في ذلكِ.

يقولُ المصنف-رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ] الَّذِي يَظْهَرُ** أنَّه: **[بَابُ فَضْلِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ]** أي سأذكرُ لكَ في هذا الْموضعِ مَا وَرَدَ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في فضلِ عيادةِ الْمَرِيضِ، أي زيارةِ الْمَرِيضِ.

[والْمَرِيضِ]: (أَلْ) في (**الْمَرِيضِ**) للجنسِ، ومنْ هنَا قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ عيادةَ الْمَرِيضِ تشملُ كلَّ مريضٍ، حتَّى ولو شاكتَهُ الشوكةُ فزرتَهُ منْ أجلِ أنْ تَحتسبَ الأجرَ عندَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فإنَّكَ في عيادةِ الْمَرِيضِ، ثُمَّ إذا كانتْ حاجتُهُ أشدَّ كانَ الأجرُ أعظمَ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: عن ثوبانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ: **((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ))**.

الشَّرْح:

((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ))، **((إِنَّ))**: بصيغةِ التوكيدِ؛ لأنَّهُ أمرٌ غيبيٌّ أطلعَ اللهُ نبيَّهُ على هذا الأمرِ الذي لا يُمكنُ للعقولِ أنْ تدركَهُ.

أَنَّ مَنْ **((عَادَ))**: أي خرجَ من بيتِهِ وفي نيتِهِ أنْ يعودَ أخاهُ الْمسلمَ.

وقولُهُ: ((أَخَاهُ الْمُسْلِمَ)) فيهِ منطوقٌ، وفيهِ مفهومٌ:

منطوقُهُ: ما ذكرناهُ منْ مشروعيةِ عيادةِ الْمسلمِ لأخيهِ الْمسلمِ، وهذا حقٌّ منْ حقوقِ الْمسلمِ على أخيهِ الْمسلمِ.

ومفهومُهُ: أنَّ الْمسلمَ لا يعودُ الكافرَ، لكنْ دلتِ السنةُ على أنَّ الْمؤمنَ يَجوزُ لهُ أنْ يعودَ الكافرَ منْ أجلِ أنْ يدعوَهُ للإسلامِ، ومنْ أجلِ أنْ يرغبَهُ في الإسلامِ، كما فعلَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وثبتَ عنهُ ذلكَ، فقدْ عادَ اليهوديَّ، وكانَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يعودُ الْمشركيْنَ، حَتَّى ولو كانُوا منْ غيْرِ

القرابةِ منْ أجلِ أنْ يذكرَهُم باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وبالإسلامِ، كمَا في الصَّحيحِ منْ حديثِ أبي طالبٍ حينماَ حضرَهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وعندَهُ الأشياخُ فقالَ: ((**أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**))، فهذا منِ العيادةِ بقصدِ دعوتِهِ للإسلامِ، وهذا هوَ الْمشروعُ أنَّ الْمسلمَ يعودُ غيْرَ الْمسلمِ **منْ أجلِ دعوتِهِ للإسلامِ، أو تأليفِهِ للإسلام**:

الدَّعوةُ: أنْ تباشرَهُ، وتقولَ لهُ: أَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِمْ وَانْجُ مِنَ النَّارِ، وتبيّنُ لهُ الْحقَّ والْهدى.

وتأليفُهُ: أنْ تفعلَ هذا الأمرَ بِحيثُ يغلبُ على ظنكِ أنَّهُ سيكونُ لهُ وَقْعٌ في نفسِ هذا الكافرِ، بَحيثُ يهيئُكَ لدعوتِهِ.

فالأولُ: تفضي بهِ إلى الغايةِ مباشرةً بالدَّعوةِ، **والثاني**: تُهيئُ بهِ الأسبابَ لدعوتِهِ، كمَا لو أهديتَهُ، أو دعوتَهُ إلى طعامِكِ، أو أَجَبْتَ طعامَهُ منْ بابِ التهيئةِ للدَّعوةِ، وهذا كُلُّهُ مشروعٌ، ويثابُ الْمسلمُ عليهِ.

((**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**))، ((**إِذَا عَادَ**)) هذا عامٌّ، سواءً عادَهُ وهوَ في القريةِ، أو عادَهُ في قريةٍ ثانيةٍ، أو مدينةٍ ثانيةٍ، قَرُبَ الْمكانُ أو بَعُدَ، ولذلكَ يُكتبُ لهُ هذا الفضلُ على حسبِ مَا يكونُ منهُ منَ التعبِ والنصبِ، فإذا كانتِ العيادةُ أقلَّ مشقةً كانَ أجرُها أقلَّ منِ العيادةِ التي هيَ أكثرُ مشقةً، كمَا قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الصحيح: ((**ثَوَابُكِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ**))، فلو أنَّه علمَ أنَّ أخًا لهُ أُصيبَ بِمرضٍ، فسافرَ لهُ منْ أجلِ أنْ يعودَهُ ويزورَهُ، فإنَّهُ في خُرْفَةِ الجنَّةِ حتى يعودَ منْ سفرِهِ، وإذا خرجَ لهُ في مدينتِهِ فكذلكَ.

((**لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**)): هذا جوابُ الشرطِ أنْ تَحصلَ العيادةُ، فقولُهُ: ((**إِذَا عَادَ**)) بِمجردِ أنْ يبتدئَ العيادةَ، بِمعنى بِمجردِ أنْ يَخرجَ من بيتِهِ، وليسَ الْمرادُ ((**إِذَا عَادَ**)) أثناءَ العيادةِ فقطْ.

قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّهُ بِمجردِ خروجِهِ، وهذا مبنيٌّ على أنَّ صيغةَ: (إِذَا فَعَلَ) الْمرادُ بِها ابتداءُ الفعلِ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: ((**إِذَا عَادَ**)) الْمرادُ بهِ إثناءَ الزيارةِ، وأنَّ العيادةَ تبدأُ بِجلوسِهِ معَهُ.

<u>ويقوّي الوجهَ الأولَ</u> قولُهُ: ((**حَتَّى يَعُودَ**)).

وقولُهُ: ((**حَتَّى يَعُودَ**)) مقابلٌ لقولِهِ: ((**إِذَا عَادَ**)) فهذا يدلُّ على أنَّ قولَهُ: ((**حَتَّى يَعُودَ**)) أي حتى يرجعَ، وإذا كانَ الأجرُ والفضلُ وهوَ العيادةُ حاصلٌ في الرجوعِ؛ فهوَ لأنَّهُ إذا كُتبَ الأجرُ في الرجوعِ، فهوَ منْ بابِ أولى في الذهابِ؛ لأنَّ الذهابَ أقوى من الرجوعِ، والنصوصُ دالةٌ، حتى أنَّ في النصوصِ ما يدلُّ على أنَّ الرجوعَ لا يكتبُ في بعضِ العباداتِ إلا بالنيةِ، كَمَا في حديثِ الرجلِ

الذي كانتْ لا تَخطئُهُ الصلاةُ، فالأصلُ الذهابُ، وأنَّه يُكتبُ الأجرَ في الذهابِ، فلمَّا نبَّهَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على أنَّ هذا الفضلَ للعبدِ حتى يرجعَ كانَ فيهِ دليلٌ على أنَّهُ يُكتبُ لهُ الأجرُ بِمجردِ خروجِهِ من بيتِهِ، **بشرطِ**: أنْ تكونَ نيتَهُ العيادةَ.

((**لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**)): الْخَرْفُ: هوَ الْجَنَى، خَرْفُ البستانِ أنْ يَجْنِي ثَمَرَتَهُ.

و((**خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**)) الجَنَّةُ: مأخوذةٌ منْ: (جَنَّ الشيءُ) إذا استترَ، وسُمِّيَ البستانُ جَنَّةً؛ لأنَّهُ يَجُنُّ مَنْ فيهِ، بِمعنَى يسترُهُ، فإذا دخلَ البستانَ سترَهُ الشَّجرُ، وسترَهُ مَا في البستانِ، فوُصِفَ البستانُ بكونِهِ جَنَّةً، ووَصَفَ اللهُ الْجَنَّةَ بذلكَ، وسُمِّيتِ الْجَنَّةُ جَنَّةً؛ لكثرةِ ما فيهَا منِ الْحدائقِ: **{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً}**، ولذلكَ سُمِّيتْ بالْجَنَّةِ.

وقولُهُ: ((**فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**)) فسَّرَهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- حينمَا قيلَ: ((**وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا**))، وجَنَى الشَّيءِ: ثَمَرَتُهُ ومَا يَجنيهِ منهُ، بِمعنَى مَا يُحصلُهُ ومَا يَجدُهُ.

ولَمَّا كانتِ البساتِيْنُ والأشجارُ والْمزروعاتُ لَهَا ثَمَرَةٌ وُصِفَ مَنْ يأخذُهَا عندَ الْمحاصيلِ وعندَ الْجذاذِ والْحصادِ بكونِهِ (جَانِيًا) يُقالُ: (جَنَى ثَمَرَةَ بستانِهِ) إذا قطفَهَا وأَخَذَهَا.

وقولُهُ: ((**جَنَاهَا**)) دلالةٌ عظيمةٌ على أنَّه قدْ حازَ الفضلَ العظيمَ، فإنَّ اللهَ جعلَ بلوغَ الْجَنَّةِ غايةَ الْمؤمنيْنَ، ودخولَهُم فيهَا بفضلِ اللهِ ربِّ العالْميْنَ، وجعلَ الأعمالَ سببًا في دخولِ الْجَنَّةِ، كمَا بينتْ نصوصُ الكتابِ والسنةِ الصَّحيحةِ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكلُّ هذا بفضلِ اللهِ، كمَا قالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لَنْ يَدْخَلَ أحدُكُم الجنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلا أَنْتَ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَلا أَنَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**)).

فالْمقصودُ: أنَّ قولَهُ: ((**فَهُوَ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**)) أي كأنَّهُ يَجنِي منْ هذا العملِ الصَّالِحِ عظيمَ الثَّوابِ منِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وفي هذا دليلٌ على فضلِ عيادةِ الْمَرِيضِ،أنَّ مَنْ يعودُ الْمَرِيضَ في خُرْفَةِ الْجَنَّةِ. تأملْ -رَحِمَكَ اللهُ- إذا كانَ الذي يعودُ الْمَرِيضَ في خُرْفَةِ الْجَنَّةِ، فمَا بالُكَ بالْمَرِيضِ؟! فواللهِ لقدْ وَقَعَ هذا في نفسِي منذُ أنْ قَرَأْتُ هذا الْحديثَ، فوجدتُ أنَّه مَا مِنْ مريضٍ تذكِّرُهُ بِهذا الْحديثِ إلا اعتبَرَ، إذا كانَ الذي يعودُهُ في خُرْفَةِ الْجَنَّةِ فمَا بالُكَ بالشَّخصِ نفسِهِ؟! وهذا يدلُّ على أنَّ الدنيا مهمَا ضاقتْ على الْمؤمنِ، ومهمَا رأى فيهَا مِنَ النكدِ والتعبِ والوصبِ والنصبِ أنَّ عليهِ أنْ يتعزَّى بعظيمِ فضلِ اللهِ عليهِ، فإنَّ اللهَ يرحَمُهُ، واللهُ سيعوضُهُ مِنْ هذا العناءِ والشقاءِ والتعبِ والنصبِ مَا لَمْ يَخطرْ لَهُ على بالٍ مِنْ فضلِهِ وكرمِهِ ومَنِّهِ:

لَنَا مَلِيكٌ مُحْسِنٌ إلينَا مَنْ نحنُ لَولا فَضْلُهُ عَلينَا

فالْحمدُ للهِ على فضلِهِ، الْمَرِيضُ الذي يُعَادُ جعلَهُ اللهُ خَيْرًا على مَنْ يعودُهُ، وجعلَ الْخَيْرَ لِهذا الْمَرِيضِ الذي يُعَادُ، ولذلكَ كمْ مِنْ مريضٍ إذا أصابَهُ الْمرضُ وَجَدَ خاصةً إذا أكثرَ مِنْ ذكرِ اللهِ، واستشعرَ عظيمَ الثوابِ مِنَ اللهِ تَجدُ عندَهُ مِنَ الطمأنينةِ وانشراحِ الصدرِ، حَتَّى كانَ بعضُ أئمةِ السلفِ يقولُونَ: إنَّهم يَجدونَ في البلاءِ مِنَ الراحةِ مَا يتأسَّفُونَ على فراقِهِ بعدَ زوالِ البلاءِ، ولولا أنَّ اللهَ نَهَى عنْ تَمَنِّي الإنسانِ للبلاءِ؛ لأنَّ البلاءَ قدْ لا يطيقُهُ الإنسانُ، كمَا ثَبَتَ في السنةِ عَنْ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ، ولذلكَ كُرِه للمسلمِ أنْ يتمَنَّى لقاءَ العدوِّ ونَحوِ ذلكَ مِنَ الأمورِ التي يتمَنَّى فيهَا البلاءَ، ولولا ذلكَ قالُوا: لتمنينَا أنْ نعودَ إلى ما كنَّا فيهِ مِنَ البلاءِ.

وهذا فضلٌ مِنَ اللهِ عظيمٌ، وهذا الفرقُ بَيْنَ الْمؤمنِ والكافرِ، والبَرِ والفاجرِ، منْ دلائلِ الإيْمانِ والتوحيدِ أنَّكَ تَجدُ أثرَ التوحيدِ، وأثرَ الطاعةِ بفضلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- في مثلِ هذهِ الْمواقفِ التي تُزلزَلُ فيها الأقدامُ، وتلجلجُ فيها الألسنةُ -وَنَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلامَةَ- تظلمُ فيهَا القلوبُ، ويتخبطُ فيهَا الشيطانُ أولياءَهُ -نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلامَةَ-، لكنَّ الْمؤمنَ مطمئنُ القلبِ، راضيًا ومُحسنَ الظنِّ باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-. فبيَّنَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فضلَ عيادةِ الْمَرِيضِ، وأَخَذَ مِنْ هذا بعضُ العلماءِ أنَّ الإنسانَ إذا عادَ الْمَرِيض، الناسُ في عيادة الْمَرِيضِ على مراتبَ: أعلاهَا وأفضلُهَا أنَّكَ إذا زرتَهُ أصبتَ السنةَ وهدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في زيارتِكَ، فهذا أفضلُ مَا يكونُ.

وأولُ ما يبدأُ الإنسانُ في اتِّباع هدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: تصبيْرُ الْمصابِ، ولذلكَ كانَ يقولُ: ((**لا بَأْسَ، طَهُورٌ إنْ شَاءَ اللهُ**))، وكانَ يسلي -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- الْمصابَ ويواسيهِ، وكانتْ كلماتُهُ -بَأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ- شفاءً للقلوبِ، ودواءَ لَهَا، أنْ يُذكِّرَ العبدَ بربِّهِ، تذكرُ الْمَرِيضَ باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وبعظيمِ مَا عندَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وتذكِّرُهُ بالأصلِ الأصيلِ في الإيْمانِ، وهو الإيْمانُ بالقدرِ خيْرِهِ وشرِّهِ، حلوِهِ ومُرِّهِ، وأنَّه مِنَ اللهِ، وأنَّ اللهَ قَدَّرَ عليهِ هذهِ الْمقاديرَ، وأنَّ اللهَ يكتبُ للمسلمِ مَا فيهِ الْخَيْرَ، وتذكرُ لَهُ النصوصَ في الكتابِ والسنةِ التي تثبتُهُ، كقولِهِ فيمَا مضى في الْحديثِ الصَّحيحِ:((**مَا يُصِيْبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ**))،ونَحوِ ذلكَ مِنَ الأحاديثِ.

الأمرُ الثاني: أنْ تدعوَهُ إلى الصبْرِ.

أولاً: أنْ تبيِّنَ لَهُ أنَّ هذا مِنَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

الأمرُ الثاني: أنْ تَحسِّنَ ظنَّهُ باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، خاصةً إذا كانَ الْمرضُ مَخوفًا، ومرضُ الْموتِ؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ فيمَا صحَّ عنهُ: ((**لا يَمُوتنَّ أَحَدُكُم إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** -عَزَّ وَجَلَّ-)).

والأمرُ الثالثُ: أنْ تأخذَ بالسنةِ، فإذا أمكنكَ أن ترقيهِ، كمَا وَرَدَ عنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ رُبَّمَا عَادَ الْمَرِيضَ فَرَقَاهُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وهذا داخلٌ في الأصلِ العامِ الذي نَبَّهَ عليهِ حينمَا سُئِل -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عَنْ ذَلِكَ فقالَ:((**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ**)) فهذا مِنَ الإحسانِ بالْمسلمِ، ومنْ تفريجِ كربِهِ، ولعلَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أنْ يوفقَكَ لاتِّبَاعِ السنةِ فترقيهِ بِمَا وَرَدَ عَنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كمَا في حديثِ عائشةَ: ((**أَذْهِبِ الْبَأْسَ، رَبَّ النَّاسِ**))، وكمَا في حديثِ الصحيحِ: ((**أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَنْ يَشْفِيَكَ، سبعًا**))، ونَحوِ ذلكَ مِمَّا وَرَدَ وثَبَتَ، فلعلَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أنْ يوفقَكَ فتصيبُ بابًا في السماءِ مفتوحًا، فيُكتَبُ لكَ أجرَ إزالةِ هذا البلاءِ عَنْ أخيكَ الْمسلمِ، فتؤجرُ على ذلكِ، ثُمَّ إنَّهُ رُبَّمَا يتعلَّمُ منكَ الغيْرُ، خاصةً إذا كنتَ مِنْ طلبةِ العلمِ ومِمَّنْ يُقتدَى بِهم كأئمةِ الْمساجدِ وبعضِ طلبة العلمِ، فهؤلاءِ حريٌّ بِهم إذا عادُوا الْمرضى أنْ يتكلمُوا بالسننِ وبالآثارِ، ولا عليهِم مِنَ الناسِ، يذكرُوا بِهدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنتِهِ حَتَّى يُحيِيوا هذهِ السننَ، ويكونُ لَهم أجرُهَا وأجرُ مَنْ عملَ بِها إلى يومِ القيامةِ.

والأمرُ الرَّابعُ: أنْ تعتبِرَ في خاصةِ نفسِكَ، وتستفيدَ كمَا ذكرنَا مِنْ هذهِ النقمِ والبلايا التي تَحلُّ بغيْرِكَ، فالسعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيْرِهِ، وأسعدُ الناسِ مَنْ رزقَهُ اللهُ قلبًا يتعظُ بِهِ مِنَ الْمصائبِ التي تنزلُ بغيْرِهِ، ويعلمُ أنَّه لا حولَ لهُ ولا قوةَ إلا باللهِ العظيمِ، فيتعظُ ويعتَبِرُ.

الأمرُ الْخامسُ: أنَّهُ ينظرُ إلى الأصلحِ للمريضِ، فإذا وجدَ أنَّ الأصلحَ أنْ يطيلَ الْجلوسَ عندَهُ، وأنَّ الْمَرِيضَ أَنِسَ بهِ فلا يقطعْهُ منْ خيْرِهِ، وإذا وجدَ أنَّ ذلكَ فيهِ ثقلاً على الْمَرِيضِ وأهلِ الْمَرِيضِ فإنَّهُ حينئذٍ يُخففُ مِنْ عيادتِهِ، ويُخففُ مِنْ زيارتِهِ.

وعلى كلِّ حالٍ، لاشك أنَّ عيادةَ الْمرضى ينالُ بِها الإنسانُ هذا الفضلَ العظيمَ على أعلى الْمراتبِ باتِّبَاعِ السنةِ وهدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فإذا وُفِّقَ وكانَ متحريًا لَهَا، مُخلصًا لوجهِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فلا شكَّ أنَّهُ بِخيْرِ الْمنازلِ عندَ اللهِ بِهذا الفضلِ الذي دلَّ عليهِ هذا الْحديثُ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وروى أبو غفارٍ وعاصمٌ الأحولُ هذا الْحديثَ، عن أبي قلابةَ، عن أبي الأشعثِ عن أسْماءَ، عن ثوبانَ، عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَحوهُ. **قَالَ: وسَمعتُ مُحَمَّداً يقولُ:** من روى هذا الْحديثَ عن أبي الأشعثِ، عن أبي أسْماءَ فهو أصحُّ، **قَالَ مُحَمَّدٌ:** وأحاديثُ أبي قلابةَ إنَّما هي عن أبي أسْماءَ إلاَّ هذا الْحديثَ، وهو عندي عن أبي الأشعثِ عن أبي أسْماءَ.

الشَّرْح:

هذهِ أوجهُ الاختلافِ في سندِ هذا الْحديثِ، و-إنْ شاءَ اللهُ- كمَا وعدنَا أنَّهُ سيكونُ الْحديثُ عليهَا بعدَ تَمامِ الكتابِ معَ (**كتابِ العِللِ**).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ الوزيرِ الواسطيُّ حَدَّثنا يزيدُ بنُ هارونَ، عن عاصمٍ الأحولِ عن أبي قلابةَ، عن أبي الأشعثِ، عن أبي أسْماءَ، عن ثوبانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَحوهُ، وزادَ فيهِ: ((**قِيْلَ: مَا خُرْفةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا**)).

الشَّرْح:

هذا منْ تفسيْرِ السنةِ بالسنةِ، فبعضُ الرواياتِ تُجمِلُ، وبعضُ الرواياتِ تُبيِّنُ، وبعضُ الألفاظِ تأتي مُجملةً، وبعضُ الألفاظِ تأتي مفصلةً، ففسَّرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خرفةَ الْجَنَّةِ بأنَّهُ جَنَاهَا.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا أحْمَدُ بنُ عبدَةَ الضَّبِّيُّ حَدَّثنا حَمَّادُ بنُ زيدٍ، عن أيُّوبَ، عن أبي قلابةَ عن أبي أسْماءَ، عن ثوبانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَحو حديثِ خالدٍ، ولم يذكرْ فيهِ: (عن أبي الأشعثِ).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: ورواه بعضهُم هذا الْحديثِ عن حَمَّادِ بنِ زيدٍ، ولَم يرفعْهُ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أحْمَدُ بنُ منيعٍ حَدَّثنا الْحسنُ بنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثنا إسرائيلُ، عن ثويرٍ (وهو ابن أبي فاختة)، عن أبِيهِ قالَ: أخذَ عَليٌّ بيدي، فقالَ: انطلقْ بنا إلى الْحسينِ نعودهُ فوجَدنَا عندهُ أبا موسى، فقالَ عَليٌّ -عَلَيهِ السَّلامُ-: أعايداً جئتَ يا أبا موسى أمْ زائراً؟ فقالَ: لا بَلْ عَايِداً.

الشَّرْح:

عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، هو يَجوزُ أنْ يُقالَ: (**عَلِيٌّ -عَلَيْهِ السَّلامُ-**)، لكنَّ بعضَ الطوائفِ يغلُونَ فيهِ فيقولُون: (**عَلَيْهِ السَّلامُ**) مِنْ دُونِ بقيةِ الصَّحابةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-، وبعضُ النُّساخِ في الكتبِ أدخَلَ بعضَ هذهِ الأشياءِ، لا يُمَيِّزُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عنْ بقيةِ الصَّحابةِ بِهذا اللفظِ، وإنَّمَا يُقالُ لَهُ مَا يُقالُ لغيْرِهِ مِنْ أصحابِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، هذا أمرٌ مهمٌ جدًّا.

فقالَ عَلي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أعايداً جئتَ يا أبا موسى أمْ زائراً؟ فقالَ: لا، بلْ عَايدًا، فقالَ عَليٌّ: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقولُ: ((**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِي، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيْفٌ مِنَ الْجَنَّةِ**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى الترمذي -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حدِيثٌ حسنٌ غَريبٌ.

وقد رُوِيَ عن عَليٍّ هذا الحديثُ من غيرِ وجهٍ، منهُم من وقفهُ ولَمْ يرفعْهُ .

وأبو فاختةَ اسْمه سعيدُ بنُ عِلاقةَ.

الشَّرْح:

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: ((**عَنْ ثويرٍ (وَهُوَ ابْنُ أَبِي فَاخِتَةَ)، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَخَذَ عَليٌّ بِيَدِي، فَقَالَ: انْطَلَقْ بِنَا إِلَى الْحُسَيْنِ نَعُودُهُ**)): هذهِ اللفظةُ تدلُّ على أنَّه ينبغي لأصحابِ الفضلِ أنْ يذكّرُوا مَنْ معَهُم بالْخَيْرِ، فإذا علمْتَ أنَّ هناكَ مريضًا، ولَمْ يعلمْ أخوك، أو علمَ، تدعوهُ إلى زيارتِهِ، فتقولُ لَهُ: انطلقْ بِنَا نَزُورُ فلانًا، أو نعودُ فلانًا.

ومنَ الأفضلِ أنْ تنبهَهُ في البدايةِ؛ حَتَّى يَحتسبَ وينويَ؛ لأنَّهُ لو أَخَذَهُ، ثُمَّ ما علمَ بالعيادةِ إلا بعدَ أنْ وصلَ إلى بيتِهِ اختلفَ الْحالُ، أمَّا لو كانَ من البدايةِ يقولُ لهُ: إنَّا نريدُ أنْ نعودَ فلانًا، أو نزورَ الْمقابرَ، أو هَلُمَّ نزورُ القبورَ، ونَحوِ ذلكَ مِمَّا يذكرُ بهِ الْمسلمُ أخاهُ الْمسلمَ.

وهذا منْ أجلِ نعمِ اللهِ على العبدِ أنْ يرزَقهُ اللهُ صديقًا أو صاحبًا يعينُهُ على طاعةِ اللهِ ومَحبةِ اللهِ، هكذا كانَ السلفُ يدعو بعضُهم بعضًا إلى زيارةِ العلماءِ والأئمةِ منهُم، ولذلكَ كانَ صغارُ الصحابةِ وكبارُ التابعيْنَ يأخذُ بعضُهم بيدِ بعضٍ إلى كبارِ الصحابةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- من أجلِ أنْ يسألَوهُم ويذاكرُوهُم، ومنْ أجلِ أنْ يشهدُوا مَجالسَهُم التي كانتْ معمورةً بالْخَيْرِ والذكرِ، فهذا منْ أفضلِ مَا يكونُ أنْ يرزقَ اللهُ العبدَ مَنْ يعينُهُ على ذكرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، مَنْ يقولُ لهُ: هَلُمَّ إلى الْخَيْرِ.

فدعا عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إلى عيادةِ الْحسنِ ابنِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وهذا منَ الدعوةِ إلى الْخَيْرِ.

((**فَوَجَدْنَا عِنْدَهُ أَبَا مُوْسَى**)): فوجَدنَا عندهُ أبا موسى الأشعريُّ الصحابيُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وهنَا خطأ، ((**عَلِيٌّ -عَلَيْهِ السَّلامُ-**))، ((**فَوَجَدْنَا عِنْدَهُ أَبَا مُوْسَى**)) هكذا مُجردةً حافيةً، مَا معناهَا؟

ولذلكَ بعضُ النُّساخِ كما يقولُ بعضُ العلماءِ: دخلُوا على أهلِ السنةِ بِمثلِ هذهِ الأمورِ، لا يُخَصُّ، وإلا يَجوزُ أنْ تقولَ: (عَلِيٌّ -عَلَيْهِ السَّلامُ-، أبو بكرٍ -عَلَيْهِ السَّلامُ-)، لكَ أنْ تسلِّمَ ولذلكَ تقولُ في الصلاةِ: ((**السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ**)) يشرعُ أنْ تسلمَ على أخيكَ الْمسلمِ عمومًا، وأنْ تسلمَ على الصحابةِ خصوصًا، وعلى الأنبياءِ، لكنْ مثلُ مَا ذكرنَا أنَّ هذِه اللفظةَ اصطلحَ على أنَّ الصلاةَ والسَّلامَ للأنبياءِ، والترضي للصحابةِ، والترحمِ لِمَنْ بعدَهم، وإلا فيجوزُ أنْ تترضى عن الأئمةِ الأربعةِ، فتقولُ: (الإمامُ مالكٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، الإمامُ الشافعيُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، الإمامُ أبو حنيفةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الإمامُ أحْمدُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-) لا بأسَ في هذا، لكنْ مثلُ مَا ذكرنَا أنْ لا يُمَيَّزَ بِمَا يُظَنُّ أنَّهُ يقصدُ بهِ تفضيلَهُ على بقيةِ الصحابةِ، كأبي بكرٍ وعمرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فلا شكَّ أنَّ عليًا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَجوزُ التسليمُ عليهِ، ولا بأسَ بذلكَ، ولا حرجَ، وإنَّما الْمرادُ لا يُغْلَى في بعضِ الصحابةِ دونَ بعضٍ.

((**فَقَالَ عَلِيٌّ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: **أَعَايِدًا جِئْتَ يَا أَبَا مُوْسَى أَمْ زَائِرًا؟**)) سؤالٌ منهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لأبي موسى، والأصلُ يقتضي أنَّ العباداتِ والأمورَ التي فيهَا طاعةٌ أنَّها تُخفى، لكنْ يَجوزُ إظهارُهَا وبيانُهَا والحديثُ عنهَا إذا كانَ إظهارُهَا وبيانُهَا لغرضٍ شرعيٍّ، وهنا سألَ عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أبا موسى عنْ نيتِهِ: هلْ نيتِهِ الزيارةُ أم العيادةُ؟

كلاً منَ الزيارةِ والعيادةِ: تكونُ **عادةً**، وتكونُ **عبادةً**.

الزيارةُ للمسلمِ تكونُ عادةً، مثلُ: أنْ يزورَ التاجرُ التاجرَ منْ أجلِ مصلحةِ التجارةِ، هذهِ عادةٌ.

وتكونُ عبادةً، مثلُ: أنْ تزورَ أخًا لكَ في اللهِ منْ أجلِ أنْ تسمعَ شيئًا يذكِّرُكَ باللهِ، أو تسمعَهُ شيئًا يذكرُهُ باللهِ، أو تستعِيْنَ بِهذهِ الزيارةِ على ما يثبِّتُكَ على طاعةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- منْ وجوهِ الْخَيْرِ على اختلافِ أنواعِهَا، وهذهِ كمَا ثبتَ في الأحاديثِ الصحيحةِ، كمَا في: ((**قِصَّة الرجلِ الذي خرجَ منْ قريتِهِ لزيارةِ أخيهِ، فأرسلَ اللهُ لهُ مَلَكًا على مَدْرَجَتِهِ، على طريقِهِ، فقالَ لهُ: إلى أينَ أنتَ ذاهبٌ؟ قالَ: إلى قريةِ كذا، قالَ: ومالكَ فيهَا؟ قالَ: لي فيهَا أخٌ أريدُ أنْ أزورَهُ، قالَ لهُ: هلْ لَكَ عليهِ منْ نعمةٍ تَرُبُّهَا إليهِ؟**)) هذهِ زيارةُ العادةِ، ((**قَالَ: لا، إلا أَنَّهُ أَخِي في اللهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أزورَهُ**))، هذهِ زيارةُ العبادةِ.

فالزيارةُ: تكونُ **عادةً**، وتكونُ **عبادةً**، وهنا إذا مرضَ الإنسانُ وزارَهُ الغيْرُ:

إمَّا أنْ يزورَهُ عادةً، يزورُهُ عادةً بِمعنَى أنَّهُ لَمْ يسمعْ أنَّهُ مريضٌ، فخرجَ لأجلِ أنْ يَجلسَ معَهُ ويستأنسَ بهِ

دونَ غرضٍ شرعيٍّ، فهذهِ عادةٌ، **وقدْ** يزورُهُ عبادةً.

وقولُ أبي موسى في سؤالِ عليٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في هذا الْحديثِ الذي ذكرَ فيهِ الْمرفوعِ إلى النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في خاتِمَتِهِ منْ أجلِ أنْ يتأكدَ وجودُ الشرطِ الذي بينَهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لِحصولِ فضلِ عيادةِ الْمَرِيضِ.

((**فَقَالَ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: **لا، بَلْ عَائِدًا**))، ((**لا**)): أي لَمْ آتِ زَائِرًا، وإنَّمَا جِئْتَ عائدًا، ولا يُمكنُ أنْ يأتِيَ عائدًا إلا إذا سَمِعَ أنَّ الْحسنَ مريضٌ، وأحبُّ أنْ يعودَهُ، وفي هذا دليلٌ على فضلِ أبي موسى الأشعريِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وحرصَ الصحابةُ على السنةِ؛ لأنَّ عيادةَ الْمَرِيضِ مِنَ السنةِ.

وثالثًا: أنَّهُ لَمْ يَمنعْهُم، فأبو موسى بالنسبةِ للحسنِ، الْحسنُ مِنْ صغارِ الصحابةِ، وأبو موسى أسنُّ منهُ، ومَعَ هذا زَارَ الْحسنَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وهذا هَوُ حالُ أصحابِ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهم يقومونَ بالْحقِّ منَ الصغيْرِ للكبيْرِ، ومنَ الكبيْرِ للصغيْرِ، فضربُوا بذلكَ أفضلَ وأروعَ الْمثلِ للأمةِ، وهُم قدوةٌ هذهِ الأمةِ في ذلكَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- وجعلَ أعاليَ الفردوسِ مسكنَهم مثواهم، وجزاهم عنَّا وعنْ سنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خيْرَ الْجزاءِ- فبيَّنَ أنَّهُ جَاءَ عائدًا.

وفيهِ دليلٌ على مشروعيةِ التحدثِ بالطاعةِ، وبنيةِ الْخيْرِ إذا أُمِنَتِ الفتنةُ، أو وُجِدَ الغرضُ الشرعيُّ لأنَّهُ علمَ أنَّ عليًا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يريدُ أنْ يبيّنَ لهُ سنةً أو هديًا، ولذلكَ أظهرَ لهُ عنْ مكنونِ قلبِهِ منْ قَصَدَ الطاعةَ والعبادةَ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بالعيادةِ.

((**فقالَ عَليٌّ: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يقولُ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إلاَّ صَلَّى عَلَيهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِي**))الغدوةُ: وهيَ في أولُ النهارِ، والرواحُ في آخرِ النهارِ، والفيصلُ بينهمَا وسطُ النهارِ، فإذا انتصفَ النهارُ منْ طلوعِ الشمسِ إلى نصفِ النهارِ هذا كلُّهُ يُقالُ لهُ:(غُدُوّ)،ومنْ منتصفِ النهارِ إلى غروبِ الشمسِ يُقالُ لهُ: (العَشِيّ)،ويُقالُ لهُ: (الرَّوَاح)، وهذا منْ بابِ الْمقابلةِ:(غُدْوَة، وعَشِيّة)،والْحديثُ يبيّنُ سواءً وقعَ منهُ في أولِ النهارِ أو آخرِ النهارِ.

((**إلاَّ صَلَّى عَلَيهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِي**))، ((**صَلَّى**)): بِمعنَى دَعَا، واللهُ فضَّلَ الْمؤمنيْنَ وأكرمَهم بكرامتِهِ، فجعلَ الْملائكةَ تصلّي عليهم: **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}**، فالْملائكةُ يصلّونَ على الْمؤمنيْنَ، فيسألُون اللهَ لَهم الْمغفرةَ والرحْمةَ: **{فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ}**، حَتَّى إنَّ حَملةَ العرشِ يستغفرُونَ لِمَنْ في الأرضِ منَ الْمؤمنيْنَ، وهذا فضلٌ عظيمٌ يدلُّ على فضلِ الإيْمانِ والتوحيدِ؛ لأنَّ اللهَ جعلَ حَملةَ عرشِهِ يستغفرُونَ لأهلِ

التوحيدِ والإيْمانِ؛ تشريفًا لَهم وتكريمًا.

وتصلّي الْملائكةُ على العبدِ بَمعنَى أنْ تدعوَ لهُ، وقدْ جاءتِ السنةُ ببيانِ بعضِ صيغِ الصلاةِ، قالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كمَا في الصحيحِ منْ حديثِ أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ، مَا دَامَ فِي مُصَلاهُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**)) فبيَّنَ نوعًا منْ أنواعِ صلاةِ الْملائكةِ على العبدِ أنَّهَا تصلّي عليهِ وتدعو لهُ.

((**حَتَّى يُمْسِي، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيْفٌ مِنَ الْجَنَّةِ**)): هنا الْحديثُ فيهِ جاءَ بالغدوةِ والعَشِي، العَشِي يطلقُ منْ منتصفِ النهارِ كمَا ذكرنَا، **لكنَّهُ هُنَا في الْحديثِ الْمُرَادُ بِهِ**: مِنْ غروبِ الشمسِ إلى طلوعِهَا، أي أنَّهُ إذا صلَّى منْ طلوعِ الشمسِ إلى غروبِهَا في النهارِ، إذا عادَ في النهارِ صلَّتْ عليهِ، وإذا عادَ في الليلِ صلَّتْ عليهِ حَتَّى يصبحَ، إذا عادَ منْ بعدِ غروبِ الشمسِ صلَّتْ عليهِ إلى طلوعِهَا، وإن عادَ بعدَ طلوعِهَا صلَّتْ عليهِ إلى غروبِهَا، وهذا منْ بابِ الْمقابلةِ.

والفضائلُ: تارةً تأتي **مطلقةً**، وتارةً تأتي **مقيدةً**.

والتقييدُ يكونُ بالزمانِ، مثلُ: قولِهِ هُنَا: ((**غُدْوَةً، صَلَّتْ عَلَيهِ حَتَّى يُمْسِي**))، فهذا من التقيدِ بالزمانِ.

وقدْ تقيدُ بالفعلِ نفسِهِ: ((**مَا دَامَ فِي مُصَلاهُ**)) فهذا التقييدُ بلزومِ الْمكانِ.

وبناءً على ذلكَ مَا جاءَ مقيدًا منَ الصلواتِ والدعواتِ يتقيدُ، ومَا جاءَ مطلقًا يبقى على إطلاقِهِ.

((**وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ**)): أي أنَّ هذهِ العيادةَ توجبُ لهُ عندَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وتثبتُ لهُ الْخريفَ ثوابًا منَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إنْ أخلصَ وتقبلَ اللهُ عملَهُ، أي جعلَ لهُ بِها خريفًا، كما تقدمَ في الْحديثِ السابقِ عنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وهذهِ الْجزئيةُ منَ الْحديثِ شهدَ لَها الْحديثُ الصحيحُ، وإلا فالْحديثُ في سندِهِ مقالٌ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى الترمذي -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّمَنِّي لِلمَوتِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ- : حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ جعفرٍ حَدَّثنا شعبةُ، عن أبي إسحاقَ عن حارثةَ بنِ مُضرِّبٍ قالَ: دخلتُ على خبَّابٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وقد اكتوى في بطنهِ، فقالَ: ما أعلمُ أحدًا من أصحابِ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَقِي من البلاءِ ما لقيتُ، لقد كنتُ وما أجدُ درهمًا على عهدِ رسولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وفي ناحيةٍ من بيتي أربعونَ ألفًا، ولولا أنَّ رسولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نهَانا، أو نهَى أنْ نتَمنىَّ الموتُ لتمنّيتُ.

وقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن أنسٍ، وأبي هُريرَةَ، وجابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جَمِيعًا-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حديث خباب حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

يقولُ المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّمَنِّي لِلمَوتِ]** أي في هذا الْموضعِ سأذكرُ لكَ مَا وَرَدَ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من سنتِهِ وهديهِ **[مِنَ النَّهْيِ عَنْ تَمَنِّي]** أي طلبَ الْموتِ أي أنْ يَموتَ الإنسانُ.

وهذا البابُ مناسبتُهُ لبابِ الْجنائزِ: ظاهرةٌ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا نزلَ بهِ الْمرضُ، وأصيبَ في جسدِهِ فإنَّهُ رُبَّمَا تضيقُ عليه نفسُهُ، وقد يتسلطُ عليهِ الشيطانُ فيَتَمَنَّى الْموتَ، ويَتَمَنَّى أنْ يهلكَ، وهذا يسمعُهُ الإنسانُ خاصةً من الجُهَّالِ والعوامِ، يسمعُهُ كثِيْرًا، فجاءتِ السنةُ عنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالنهي عنْ تَمَنِّي الْموتِ، ولذلكَ اعتنَى الأئمةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- ببيانِ هذهِ السنةِ، والتحذيرِ منْ الأمرِ الْمخالفِ لِهدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وهذا الأمرُ الذي لا ينبغي للمؤمنِ الْموحِّدِ أنْ يأتيَهُ؛ لأنَّهُ يُخالفُ التسليمَ والرضا بالقضاءِ والقدرِ الْمسلمُ ينبغي عليهِ أنْ يكونَ قويًّا في إسلامِهِ والتزامِهِ، واستسلامِهِ لأمرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وانقيادِهُ لهُ وينبغي أن يكون قويًّا في إيْمانِهِ وإذعانِهِ؛ لأنَّهُ يعلمُ أنَّ قوةَ الإيْمانِ أحبُّ إلى اللهِ منْ ضعفِهِ، كمَا قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيْفِ**)) والْمرادُ بالقوةِ هنا قوةُ الإيْمانِ، وليسَ الْمرادُ بِها مَا يظنُّهُ البعضُ مِنَ الرياضةِ وبناءِ الأجسامِ، هذا خطأٌ، وليسَ

بصحيحٍ الْمُرادُ هنا قوةُ الإيْمانِ ولو كانَ مشلولاً، فإنَّهُ الْمرادُ بقولِهِ: ((**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيْفِ**)) .

أمَّا أنْ يكونَ ضخمَ الْجسمِ، معتنيًا ببناءِ جسمِهِ، مضيعًا لروحِهِ، ولرُبَّما يكونُ منافقًا وكافرًا كمَا قالَ تعالى فيمنْ سَمَّى وهُم الْمنافقونَ: **{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ}**.

الْمرادُ بناءُ الأرواحِ بقوةِ الروحِ، فالْمؤمنُ القويُّ إذا نزلَ بهِ البلاءُ يتقوى إيْمانُهُ.

ومنْ دلائلِ حبِّ اللهِ للعبدِ أنَّه إذا نزلَ بهِ البلاءُ، وأردتَ أنْ ترى عينكَ الْمؤمنَ الصادقَ في إيْمانِهِ فانظرْ إليهِ في البلاءِ، فإنَّه يزيدُهُ قوةً ويقينًا باللهِ أشدَّ مِمَّا لو لَمْ يصبْ، كمَا حكى اللهُ عنْ سلفِ هذهِ الأمةِ منَ الصحابةِ: **{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً}**.

فإذا تَمَنَّى الْموتَ فإنَّ هذا منَ الضعفِ والْخورِ، ولذلكَ نُهِي عنْ تَمَنِّي الْموتِ والاستعجالِ لأمرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، لا ينبغي للمسلمِ أنْ يستعجلَ أمرَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، عليهِ أنْ يرضى، فإنَّ مدَّ اللهُ في عمرِهِ حَمِدَ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، واستعانَ بِمَا أعطاهُ منْ طولِ العمرِ في طاعتِهِ، وإنْ كتبَ اللهُ لهُ أنْ يصابُ بِمرضٍ يُعجَّلُ بهِ أجلِهِ، يرضى ويسلمُ، لا يقولُ: أريدُ أنْ يطولَ عمرِي، فلماذا أموتُ؟

أريدُ أنْ أبقى لأولادِي وذريَتِي، أو لأهلِي ولْمالِي، فهذا لا يَجوزُ أنَّ الإنسانَ يعترضُ على قضاءِ اللهِ وقدرِهِ، يأتيهِ الطبيبُ ويقولُ: هذا الْمرضُ غالبًا لا يعيشُ -بالسَّنَنِ والاستقراءِ والتتبعِ- صاحبُهُ إلا شهرًا أو شهرينِ، فيقولُ: أريدُ أنْ أبقى لعيالِي، ما أريدُ أنْ أموتَ، هذا لا يقولُهُ الْمؤمنُ، الْمؤمنُ يقولُ: (الْحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ، ونعوذُ باللهِ منْ حالِ أهلِ النارِ، أسألُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أنْ يَختارَ مَا فيهِ الْخيْرِ، والْحمدُ للهِ الذي أمدَّ في أعمارِنَا، وأعطانَا منْ هذا الْخيْرِ، نسألُهُ أنْ يتجاوزَ عنَّا)، ويقولُ خَيْرًا يرضي اللهَ عنهُ؛ لأنَّ هذهِ الأمورَ ليستْ فيها حيلةٌ، لا يستطيعُ الإنسانُ أن يقدِّمَ ما أخرَّهُ اللهُ، بلْ لا يستطيعُ الْخلقُ كلُّهم أنْ يقدمُوا ما أخرَّهُ اللهُ، وأنْ يؤخرُوا ما قدمَهُ اللهُ، نزلَ الْموتُ بالْملوكِ والْجبابرةِ والعظماءِ، فكانُوا أذلَّ مَا يكونُون أمامَ عظمةِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: **{وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}**، لا يستطيعُ ولو كانَ أصلحَ عبدٍ أنْ يقدمَ مَا أخرَّهُ اللهُ، أو يؤخرَّ ما قدمَهُ اللهُ، ولذلكَ ضربَ اللهُ الْمثلَ بأحبابِهِ وأوليائِهِ، وهُم أنبياؤُهُ، فكانَ الواحدُ منهُم يدخلُ على ابنِهِ وفلذةِ كبدِهِ ونفسُهُ تقعقعُ وهوَ يريدُ الْموتَ، إبراهيمُ ابنُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فإنَّ النبيَّ -عَلَيْهِ

الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- رأى الْموتَ في ابنِهِ، فمَا استطاعَ أنْ يؤخرَ أَمْرَ اللهِ ثانيةً ولا أقلَّ منْ ذلكَ، ولَمْ يقلْ إلا خيْرًا: ((**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إِلا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**)) مصابٌ وبلاءٌ، فجاءَ على أكملِ الْهدي، هديهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على أكملِ الْهدي، لَمْ يعلمِ الأمةَ إلا كل خيْرٍ، فنهاهَا عنِ التجردِ عنِ الإيْمانِ والتسليمِ، وردَّ الأمرَ إلى اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-،-صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ-، وبيَّن أنَّ الْمؤمنَ في هذهِ الْحالةِ مَا يقولُ إلا ما يرضي اللهَ -جَلَّ جَلالُهُ-.

فالْمقصودُ: أنَّ تَمَنِّي الْموتِ فيهِ تسخطٌ على القضاءِ والقدرِ، وجزعٌ لا يليقُ بالْمسلمِ، ولذلكَ نَهَى النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُم الْمَوتَ لِضرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ وَلا بُدَّ قَائِلاً فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَأَمِتْنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي**))، هذهِ هيَ السنةُ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

أمَّا أنْ يعترضَ الإنسانُ، ويقولَ: ربِّ افعلْ بِي وخُذْنِي.

الْمرأةُ تَجزعُ منْ أولادِهَا، ثُمَّ تنادي ربَّها أنَّ ربَّها يهلكُهَا، أنَّ ربَّها يُميتَهَا، كيفَ يكونُ وقعُ هذا على أبنائِهَا؟! لأنَّ هذا تسخطٌ على القضاءِ والقدرِ.

والأبُ إذا نزلتْ به الديونُ، وأحاطتْهُ بهِ الْهمومُ أَخَذَ يصيحُ، وأخذَ يتذمرُ ويتسخطُ، فهذا كلُّهُ منْ كيدِ الشيطانِ، ولكنْ ينبغي للمسلمِ أنْ يتبعَ السنةَ، وأنْ يتحرى هدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ومنْ رَآهُ يقولُ ذلكَ يأمرُهُ بالْمعروفِ، وينهاهُ عن الْمنكرِ، ويذكِّره أنَّ هذهِ الأمورَ لا يَملكُ الإنسانُ فيهَا إلا التسليمِ والرضا، وأنَّه إذا سلمَ ورضيَ بِما كتبَ اللهُ عليهِ جَمَعَ اللهُ لهُ بَيْنَ الْحُسنَيَيْنِ: الأجرُ، وحُسنُ العاقبةِ، وأنَّهُ إذا تسخطَ وتذمرَ، وسألَ اللهَ الْموتَ وجزعَ، فإنَّهُ يَجلبُ على نفسِهِ الْمصيبتيْنِ: ما هوَ فيهِ منَ البلاءِ، ويؤاخذُ على تسخطِهِ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- على قضاءِ اللهِ وقدرِهِ.

والْمقصودُ أنَّ تَمَنِّي الْموتَ بِمعنى أنْ يطلبَ منَ اللهِ أنْ يَميتَهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-.

والتمَنِّي في الأصلِ يكونُ في الشيءِ الذي لا يقعُ، أو الْمستحيلِ -كمَا يقولُون- يتمنِّي الْمستحيلَ فيتمنَّى عودَ الشبابِ:

أَلا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَومًا فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيْبُ

يتمنَّى الْمستحيلَ، التمنِّي يكونُ في الْمستحيلِ، ولذلكَ كرهَ بعضُ العلماءِ أنْ يقولَ الشخصُ: (ليتَهُ يَحصلُ كذا وكذا)، بِمعنَى أنَّهُ يقصدُ الدعاءَ، لا يقولُهُ، وإنَّما يقولُ: (اللهمَّ، إنْ كانَ الْخَيْرُ فليكنْ

كذا وكذا)، فيسألُ اللهَ إنْ كانَ فيهِ خَيْرٌ أنْ يَحصلَ، لكنْ أنْ يَجعلَهُ أمنيةً، وأَنْ يَجعلَهُ بِهذهِ الصيغةِ، كرهَ بعضُ العلماءِ ذلكَ أنْ يكونَ في الأشياءِ الْمستحيلةِ، ولا يستحيلُ على اللهِ شيءٌ، إنَّ اللهَ لا يعجزُهُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ.

وتَمَنِّي الْموتِ اتَّفقَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّ أقلَّ درجاتِهِ الكراهةُ.

ومنهُم مَنْ قَالَ: إنَّ تَمَنِّي الْموتِ مُحرَّمٌ، أَخذًا للنَّهي على ظاهرِهِ: ((**لا يَتَمَنَّيَنَّ**))؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَهَى عنهُ بصيغةِ التوكيدِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: ((**عَنْ حارثةَ بنِ مُضرِّبٍ قَالَ: دَخَلْتُ على خبَّابٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **وَقَدِ اكتَوَى فِي بطنِهِ**))، ((**دَخَلْتُ على خبَّابٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-)): خبابُ بنُ الأرتِّ الصحابيُّ الجليلُ، ومن السابقيْنَ للإسلامِ، ومنَ الذينَ أُوذُوا في اللهِ -جَلَّ جَلالُهُ-، فصبَرُوا واحتسبُوا.

((**دَخَلْتُ على خبَّابٍ وَقَدِ اكتَوَى فِي بطنِهِ**)): والْحالُ أنَّهُ قد اكتوى في بطنِهِ، فيه دليلٌ على مشروعيةِ الكيِّ، وأنَّ الصحابةَ عملُوا بهِ، أي أنَّهُ ليسَ بِمنسوخٍ؛ لأنَّهُ وردتْ عنَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- السُّنَنُ بِجوازِ الكيِّ، وقالَ: ((**إِنْ يَكُنِ الشِّفَاءُ فَفِي أَرْبَعَةٍ: فِي آيةٍ مِنْ كِتَابٍ، أَوْ شَرْطَةٍ مِنْ مِحْجَمٍ، أَوْ لَعْقَةٍ مَنْ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ مِنْ نَارٍ، وَلا أُحِبُّ أَنْ اكْتَوِيَ**)).

وكانتْ بعمرانَ بواسيْرُ، وكانتْ تسلمُ عليهِ الْملائكةُ، ولَمَّا اكتوى انقطعَ تسليمُهم، فتركَ الكيَّ فعادَ التسليمُ عليهِ.

فالْمقصودُ: أَنَّ الكيَّ مكروهٌ عندَ العلماءِ، بِمعنَى أنْ يعجلَ بهِ الإنسانُ، وإنَّمَا يَجعلُهُ آخرَ العلاجِ العلاجُ بالكيِّ في الْحقيقةِ هوَ سنةٌ، وسيأتي -إِنْ شَاءَ اللهُ- بيانُهُ في (**أبوابِ الطِّبِّ**)، وهوَ آخرُ العلاجِ.

والعجيبُ أنَّ بعضَ الأطباءِ لهُ في قولِهِ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِنَّ آخِرَ الشِّفَاءِ الْكَيُّ**)) نكتٌ لطيفةٌ تدلُّ على أنَّه يفيدُ، ولكنَّهُ يفيدُ بطريقةٍ عجيبةٍ غريبةٍ، حَتَّى في بعضِ الأمورِ الْمستعصيةِ، وهذا ذكَرَهُ لنَا بعضُ الْمختصيْنَ في التشريحِ عندمَا كُنَّا في إعدادِ رسالةِ الدكتوراةِ، أنَّهُم يقولُونَ: إنَّ الآلامَ تنقلُ بواسطةِ العصبِ، وأنَّ الكيَّ يَشْغَلُ العصَب عن موضعِ الألْمِ؛ لأنَّ هناكَ آلامٌ مثلُ ما يقولُونَ يصرُّ العصبُ على نقلِهَا ولو كانَ الْموضعُ قد شُفِي وبرئَ، فيبقى مثلُ الْمداومةِ على نقلِ الألَمِ، فتُنقَلُ إلى أعصابِ الدماغِ، فيتأثرُ الإنسانُ ويتألَّمُ، فإذا اكتوى نُقِلتْ هذهِ الأعصابُ التي هي في أصلِ طبيعةِ الْخلقةِ، أنَّها تنقلُ الألَمَ، فجاءَهَا أَلَمٌ جديدٌ يشغلُهَا عن أَلَمِهَا الأولِ، فتشتغلُ بِهذا الأَلَمِ عنْ أَلَمِهَا الأولِ،

وكانَ مِنْ كبارِ أطباء التشريحِ، وكانَ يقولُ لِي: أتعجبُ منْ هذا الْحديثِ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقولُ: أتعجبُ كثيْرًا؛ لأنَّهُ فعلاً فيهِ طريقةٌ غريبةٌ، حَتَّى عندَهُم نوعٌ منَ الْمَرَضِ وليسَ بِمرضٍ يُقالُ لهُ: (الأَلَمُ الْمُعَنِّدُ) الذي يعنِي أصبحَ عنيدًا، لا تنفعُ فيهِ الأدويةُ، علاجُهُ الكيُّ، فإنَّهُ إذا اكتوى نَقَلَ مثلُ مَا ذكرْنَا.

وهذا كلُّهُ جاءَ بهِ الصادقُ الْمصدوقُ، نزلَ بهِ الروحُ على قلبِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- فما ينطقُ عنِ الْهوى.

فاكتوى -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، هذا يدلُّ على مشروعيةِ الكيِّ وجوازِهِ.

((**فَقَالَ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: **مَا أَعلمُ أَحداً من أصحابِ النَّبيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **لَقِي منَ البلاءِ ما لقيتُ**)) هذا ليسَ الْمرادُ بهِ أنْ يفضِّلَ نفسَهُ على بقيةِ الصحابةِ، ولكنَّهُ في التنوعِ، أي أنَّهُ يصابُ كلُّ واحدٍ منهُم بالبلاءِ العظيمِ، لكنهُ في خاصتِهِ، فمنهُم منِ أُبتُلِيَ بالبلاءِ العظيمِ في مالِهِ، ومنهُم منِ أُبتُلِي بالبلاءِ العظيمِ في أهلهِ، ومنهُم منِ أُبتُلِي البلاءَ العظيمَ في جسدِهِ، ومنهُم منِ أُبتُلِي البلاءَ العظيمَ في تعذيبِ الْمشركيْنَ لهُ، فهذا منَ التنوعِ، ولذلكَ جاءتْ مناقبُ الصحابةِ مُختلفةً.

ومنْ هنا لا يُستدَلُّ بِهذا الْحديثِ على أنَّه أفضلُ منْ أبي بكرٍ وعُمَرَ وبقيةِ الصحابةِ الذينَ أُوذُوا في ذاتِ اللهِ، ولا يُقالُ بأنَّهُ يعتقدُ ذلكَ أنَّهُ لَمْ يصبْ أحدٌ بِمثلِ ما أُصِيبَ بهِ منْ بلاءٍ فهوَ أفضلُ، لَمْ يَرِدْ ذلكَ، وإنَّما هوَ في التنوعِ، أنَّهُ يصيبُهُ نوعٌ منَ البلاءِ لا يعلمُهُ لغيْرِهِ، فحينئذٍ هوَ يتحدثُ بِما نزلَ بهِ منَ البلاءِ، وفي هذا نوعُ تزكيةٍ، وتزكيةُ الإنسانِ لنفسِهِ إذا كانتْ لغرضٍ شرعيٍّ فإنَّهُ لا بأسَ بِها ولا حرجَ، وهذا مأثورٌ عنِ الصحابةِ؛ لأنَّ مَنْ كانَ في حالِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حالَ الْمرضِ، وكذلكَ ما عُرِف منهُم إخلاصُهم وصدقُهم، فهُم بإذنِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- نَحسبُهم أبعدَ عنِ الرياءِ، يتحدثُون بذلكَ منْ بابِ القدوةِ الْحسنةِ لغيْرِهم، فيجوزُ للمسلمِ أنْ يقولَ: (واللهِ لقدْ مرتْ عليَّ أيامٌ عصيبةٌ يا بُنِي، كُناَّ في الْجوعِ، وكُناَّ في الضيقِ، وكُناَّ في الْخوفِ، وكُناَّ في الشدةِ، وابتلانَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بكذا وكذا) هذا منْ بابِ التحدثِ بنعمِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- على العبدِ أنَّه أُبتُلِي في ذاتِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

ومنهُ ما ثبتَ في صحيحِ البخاريِّ وغيْرِهِ عنْ أبي أسيدٍ السَّاعديِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: أنَّهُ قالَ: ((**لا أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِمِنْبرِ النَّبيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **مِنِّي**)) الْحديثُ الْمشهورُ، فإنَّهُ زكى نفسَهُ أنَّهُ أعلمُ.

((**لَقَدْ كُنْتُ مَا أَجِدُ دِرْهَمًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) كانَ الصَّحابةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- قدِ ابتلاهُم اللهُ بضيقِ الحالِ، فليسَ عندَهُم الأموالُ الكثيْرةُ، وما أُصِيبُوا بهِ منْ ضيقِ العيشِ وشظفِهِ ونكدِهِ سلوى لكُلِّ مؤمنٍ إلى قيامِ الساعةِ، فإنَّكَ لنْ تقرأَ سيْرةَ أحدٍ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إلا وجدتَ ذلكَ ظاهرًا جليًا، ومن أُعطِي نعمةَ الْمالِ وهُم قلةٌ سخَّرُوا ذلكَ الْمالِ في طاعةِ اللهِ، فأنفقُوهُ في الْجهادِ في سبيلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وفي تفريجِ كرباتِ إخوانِهم الْمسلميْنَ، كمَا أُثرَ عنْ أغنياءِ الصحابةِ، كأبي بكرٍ وعثمانَ وعبدالرحمن بنِ عوفٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- ونَحوِهم من أغنياءِ الصحابةِ، ولذلكَ قالَ اللهُ في أبي بكرٍ: **{وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}** فأغنياهُم أنفقُوا أموالَهم في طاعةِ اللهِ ومَحبتِهِ، وفقراؤُهم صبرُوا على ما أُوذُوا، ولذلكَ كانَ فيهُمُ الفقراءُ، وكان فيهُمُ الأغنياءُ، كمَا في الصحيحِ: ((**جَاءَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِيْنَ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ**)).

فالْمقصودُ: أنَّ الأغلبَ كانُوا فقراءُ، خاصةً عندمَا كانُوا في مكةَ، كانَ حالُهم على العُسرِ والشدةِ والضيقِ، وقد صَبَرُوا، حَتَّى في الْمدينةِ كانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يربطُ على بطنِهِ الْحَجَرَ والْحَجَرَيْنِ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِ وَسَلامُهُ-، ويَمُرُّ الشهرُ والشهرانِ ولا يُوقدُ في بيتِهِ نارٌ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِ وَسَلامُهُ-، وهذا الضيقُ في الدُّنيا وسَّعَهُ اللهُ بالآخرةِ، فكانتْ أيديهُم فقيْرةً، وأحوالُهم شديدةً ولكنَّ اللهَ أغناهُم بالإيْمانِ بهِ، والتسليمِ والرضا، فزوى اللهُ عنهُم الدُّنيا، فكانُوا أغنَى ما يكونُونَ باللهِ وأفقرُ مَا يكونُون إلى اللهِ، ولذلكَ قالَ عتبةُ بنُ غزوانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: ((**وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ أَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَمَا لَنَا طَعَامٌ إِلا وَرَقَ الشَّجَرِ، وَإِنِّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ**)) أي إذا جاءَ يتبَرَّزُ لَمْ يَخرجْ منهُ إلا كمَا يَخرجُ منَ الشاةِ؛ منْ قلةِ الطعامِ الذي أدخلَ في جوفِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، أُوذُوا في ذاتِ اللهِ، وأُبتُلُوا، وهذا مَا حكاهُ خبابٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وصدقَ وبَرَّ.

((**وَفِي نَاحِيةٍ مِنْ بَيْتِي أَرْبَعُونَ أَلْفًا**)): ثُمَّ فتحَ اللهُ عليهم الدُّنيا، ولَمَّا فتحَ اللهُ عليهِم الدُّنيا خافُوا وهذا هوَ حالُ أهلِ الإيْمانِ، إذا أردتَ أنْ ترى حالَ الْمؤمنِ الصادقِ في إيْمانِهِ، فانظُرْ إليهِ إذا جاءتْهُ النعمةُ، أو حلَّتْ بهِ النغمةُ، ابتَلَى اللهُ العبادَ بِحلولِ النقمِ، وكثرةِ النعمِ، فإذا وجدتَهُ إذا نزلَتْ بهِ النعمةُ خافَ ووجلَ واتقى اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- فيها، فاعلمْ أنَّ اللهَ قد أرادَ بهِ الْخيْرِ، ولذلكَ كانَ الصحابةُ -

رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم- لَمَّا فُتِحتِ الأمصارُ، وغنمُوا الغنائمَ، وأصابُوا حظوظَ الدُّنيا كانُوا على الزهدِ والتواضعِ وليْنِ الْجانبِ، فمَا بطرُوا، ولا تكبَّرُوا، ولا ارتفعُوا على الناسِ.

كانَ أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حينمَا ولي الإمارةَ، ولاهُ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، كانَ ذاتَ يومٍ جالسًا معَ أصحابِهِ، أو يسيْرُ معَ أصحابِهِ، فأرادَ أنْ يتمخطَ، فأخرجَ الْمنديلَ من جيبِهِ، ثُمَّ تَمخَّطَ، ثُمَّ قالَ: ((**بَخٍ بَخٍ، أَبُو هُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ فِي الْكِتَانِ**))، وهذا منَ التواضعِ والزهدِ أنَّ العبدَ الصالِحَ إذا أعطاهُ اللهُ النعمةَ وجدتَ منهُ التواضعَ، سواءً نعمةُ الدينِ أو نعمةُ الدُّنيا، فلا يتكبَّرُ على الناسِ ولا يقولُ: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على علمٍ عندِي)، وإنَّما كانُوا أقربَ الناسِ إلى الضعفاءِ، وأرحمَ الناسِ بأهلِ البلاءِ؛ لأنَّهُم ذاقُوا شظفَ العيشِ، وذاقُوا شدتَهُ.

فهنا خبابُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- يبيّنُ نعمةَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وكانُوا لَمَّا جاءتْهُم الدُّنيا أذلُّوها واحتقرُوها، وبينُوا أنَّهَا لا تُساوي شيئًا، هوَ يقولُ: إنَّهُ مَرَّ عليهِ اليومُ والأيامُ، وعلى عهدِ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وليسَ في بيتِهِ درهمٌ، واليومُ في ناحيةِ البيتِ فقطْ، في جزءٍ منَ البيتِ أربعونَ ألفَ درهمٍ، فانظُرْ كيفَ احتقارُ الدنيا وازدراؤُهَا، وهكذا كانُوا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-.

وأُثِرَ عنْ أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّهُ حينمَا وَلِي الإمارةَ، وَضَعَ الْحطبَ على ظهرِهِ، ثُمَّ دخلَ الكوفةَ، وصارَ يصيحُ: (**طَرِّقُوا للأمِيْرِ، طَرِّقُوا للأمِيْرِ**)، كانُوا إذا ارتفعُوا يكسرُونَ غرورَ النفسِ، وما هي فيهِ من زهوِ الدنيا ومنْ متاعِهَا.

وكانَ عتبةُ بنْ غزوانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إذا جاءَهُ الطعامُ الفارهُ، ذكرَ أصحابَ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وبكى، وقالَ: أينَ فلانٌ وأينَ فلانٌ؟ قالَ: حَتَّى إنَّ مصعبَ بنَ عميْرَ قُتلَ يومَ أُحُدٍ وليسَ لهُ إلا شَمْلةٌ، إنْ غطُّوا بِهَا رأسَهُ بدتْ قدمَاهُ، وإنْ غطُّوا بِها قدميهِ بدا رأسُهُ، فقالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى قَدَمَيْهِ إِذْخِرًا، أَوْ شَيْئًا مِنَ الإِذْخَرِ**))، حَتَّى لَمَّا كفنُوا وقدْ خرجُوا منَ الدنيا خرجَ وليسَ عليهِ إلا شَملةٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، لا تسعُ لتكفينِهِ كاملةً -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

نعم، خرجَ من الدنيا بشملةٍ، ولكنهُ خرجَ منهَا بالروحِ والريْحانِ، والرحَمةِ والرضوانِ، وربٍّ راضٍ عنهُ غَيْرَ غضبانٍ.

خرجُوا منَ الدنيا وقدْ أرضوا اللهَ في دينِهِ وشرعِهِ.

خرجُوا منَ الدنيا واللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- قدْ أحبَّهم، وأوجبَ لَهم الْمحبةَ ووضعَ لَهم القبولَ بيْن خلقِهِ.

هذهِ واللهِ هيَ الدنيا وكرامتُها،أنْ يَخرجَ العبدُ منْ هذهِ الدنيا–ولو خرجَ فقيْرًا– غنيًا باللهِ –جَلَّ جَلالُهُ– ولذلكَ خرجَ أصحابُ رسولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– منْ هذهِ الدنيا بِهذهِ الكنوزِ العظيمةِ منْ رضا اللهِ –جَلَّ جَلالُهُ–، والثقةِ باللهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، والأدبِ معَ النعمِ، والشكرِ والثناءِ عليهِ حينمَا نزلتْ بِهم النعمُ، فهذا الصحابيُّ الجليلُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– يقولُ: إنَّهُ مرَّ عليهِ في صحبتِهِ لرسولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– أنَّهُ مَا يَجِدُ الدرهمَ وفي ناحيةِ بيتِهِ أربعونَ ألفَ دِرْهَمًا، يتحدثُون بنعمِ اللهِ، ما كانُوا يتكبَّرُون، مَا كانُوا يسترُونَ ماضيهِم، ولا يستحونَ منْ ذكرِ هذا الْماضي؛ لأنَّهُ ماضٍ مشرقٌ، ماضٍ منيْرٌ، وإشراقُهُ وإنارتُهُ بالإيْمانِ والتسليمِ، وليسَ بالتصنعِ والتكلفِ، ولذلكَ تَجدَ العبدَ يكونُ فقيْرًا، فإذا اغتَنَى نَسِيَ ماضيهِ، وويلٌ لأحدٍ يذكرُ هذا الْماضي، ورُبَّمَا كذبَ واختلقَ القصصَ التي لا أصلَ لَها أنَّهُ كانَ وكانَ. فنسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ وعظمتِهِ وكمالِهِ أنْ يرزقَنَا مرضاتِهِ في حلولِ النعمِ، أنْ يدفعَ عنَّا النقمَ، وأنْ يرزقَنَا ما يرضيهِ عنَّا إذا حلتْ بنَا النعمُ، وأنْ يَجعلَها عونًا على طاعتِهِ ومحبتِهِ ومرضاتِه.

((**وَلَولا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– **نَهَانَا، أَوْ نَهَى أَنْ نتَمَنَّى الْموتَ لتمنّيْتُ**))، ((**وَلَولا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– **نَهَانَا**)) وهذا يدلُّ على أنَّهُ نَهي تَحريْمٍ ومنعٍ، وأنَّهُ لا يَجوزُ للمسلمِ أنْ يتمَنَّى الْموتَ.

((**وَلَولا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– **نَهَانَا، أَوْ نَهَى أَنْ نتَمَنَّى الْموتَ لتمنّيْتُ**)) انظرْ ليسَ سعةُ الدنيا بالْمالِ، ولكنَّ سعتَها باللهِ –جَلَّ جَلالُهُ–، كانتْ أيامُهم لا يَجدونَ فيها إلا درهَمًا، ولكنَّهُم كانُوا معَ رسولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ–، انظُرْ كيفَ ضيقُ حالٍ لا يعلمُهُ إلا اللهُ –جَلَّ جَلالُهُ–، لكنَّ صحبتَهُ للرسولِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– لا يُمكنُ أنْ تعدلَ بِها الدنيا وما عليهَا، ولَمَّا فارقَهم –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– أصبحتِ الدنيا ضيقةً عليهم –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ–، وهذا كلُّه من عظيمِ فضلِ اللهِ عليهِم.

إنَّ منْ أجلِ نعمِ اللهِ على العبدِ أنْ يكونَ مؤمنًا صادقًا في إيْمانِهِ، فيكونُ أزهدَ ما يكونُ في الدنيا، وأرغبَ ما يكونُ في الآخرةِ، وإذا زَوَى اللهُ عنِ العبدِ الدنيا، فلمْ يَجعلْها في قلبِهِ، ولَمْ يَجعلْها أكبْرَ هَمِّهِ، ولا مبلغَ علمِهِ، فهو سعيدٌ، وهكذا كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ–، ونسألُ اللهَ أنْ يرزقَنَا حُسنَ الائتساءِ والاقتداءِ بِهم.

إذا بدتْ لكَ مطامعَ الدنيا، فانظرْ إلى هؤلاءِ، انظرْ إلى هؤلاءِ الأئمةِ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– كيفَ ضربُوا لنا الْمثلَ، وكيفَ عاشُوا، وأنَّ الدنيا ليستْ هيَ العزةُ والكرامةُ،

مَنْ قالَ: إنَّ الْمالَ هوَ العزةُ والكرامةُ كَذَبَ وفَجَرَ؛ لأنَّ قارونَ أهلكَهُ اللهُ بِمالِهِ، الْحياةُ السعيدةُ كلُّها باللهِ وبطاعةِ اللهِ ومرضاةِ اللهِ.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وقد رُوِيَ عن أنسِ بنِ مالكٍ عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ قالَ: ((**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْموتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحياةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إذَا كَانَتِ الوفاةُ خَيْرًا لِي**)).

الشَّرْح:

سنقفُ عندَ هذا الْحديثِ، ونكملُهُ في الدرسِ القادمِ -إنْ شاءَ اللهُ-.

وأحبُّ أنْ أنبهُ: أنَّهُ في بعضِ الأحيانِ قد يسبقُ اللسانُ في بعضِ الأحاديثِ في مسألةِ: ((**خَيْرُ يَومٍ طَلَعَتْ عَلَيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ عَرَفَةَ**)) هذا فيهِ سبقُ لسانٍ، وهوَ: ((**خَيْرُ الدُّعَاءِ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي**)).

ووجهُ الدلالةِ فيهِ: تفضيلُ الدُّعاءِ.

وهذا ليسَ بِحديثٍ وهوَ: ((**خَيْرُ يَومٍ طَلَعَتْ عَلَيهِ الشَّمْسُ**)).

وأنبهُ: أنَّه في بعضِ الأحيانِ قدْ يكونُ السببُ سبقَ اللسانِ في ذكرِ بعضِ الأحاديثِ، وهذا الذي يَجعلُ -إنْ شاءَ اللهُ- كثيْرٌ منَ الدروسِ التي تفرَّغ تُراجَعُ، وأفضِّلُ أنَّهُ يتأكدُ مِنَ الأحاديثِ.

وأشكرُ للأخوةِ جزاهم اللهُ خيْرًا بعضُ الأخوةِ ينتبهونَ لِمثلِ هذا، وينبهونَ عليهِ، ولا أحبُّ أنْ يكونَ طالبُ العلمِ مقلدًا متعصبًا، لا يرضى لأحدٍ أنْ يردَ على شيخِهِ، أو كأنَّه معصومٌ، نَحنُ بشرٍ كثيْرو الخطأِ، خطأ وألفْ خطأ، وليسَ هناكَ تساهلٌ في شيءٍ ينسبُ إلى النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يقلْهُ هذا ما فيه تساهلٌ، أمرُ الاعتقادِ، أمرُ الآياتِ، أمرُ الأحاديثِ، هذهِ ما فيهَا مُجاملةٌ، قيمةُ الإنسانِ في دعوتِهِ أنْ يقولَ الْحقَّ، وأهلُ العلمِ مقامُهم بالْحقِّ، ورفعَ اللهُ قدرَهم بالْحقِّ، لا يُجاملُ طالبَ العلمِ إذا وجدَ حديثًا ضعيفًا.

لكنْ إذا كانَ الْحديثُ مُختلفًا في إسنادِهِ، فحينئذٍ إذا رجَّحَ الشيخُ ثبوتَهُ، ليسَ من حقِّكَ أنْ تلزمَ الشيخَ بتصحيحِ فلانٍ أو علانٍ، أبدًا، لكنْ أنْ يكونَ حديثًا، أو ليسَ بِحديثٍ أصلاً، تكتبُ للشيخِ وتقولُ: هذا بَحثتُ عنهُ ولَمْ أجدْهُ، وإذا كانَ الإنسانُ عندَه خِبْرَةٌ أو سألَ مَنْ يثقُ بعلمِهِ هذا ما فيه

مُجاملةٌ، ليسَ هناكَ فضلٌ لأحدٍ على هذا الدينِ، لا يَجوزُ لأحدٍ أنْ يظنَّ أنَّهُ أكبْرُ منْ أنْ يُردَّ عليهِ، أبدًا، الْحقُّ فوقَ كلِّ أحدٍ، وينبغي أنْ يكونَ الإنسانُ ناصحًا.

وجزى اللهُ بعضَ الإخوةِ ليسَ في هذا الْحديثِ، وإنَّما في غيْرِهِ منَ الأحاديثِ أجدُ مْنَ بعضِهم بعضَ الكتاباتِ، فأسألُ اللهَ أنْ يَجزيَهم خيْرَ الْجزاءِ.

وأنبهُ الإخوةَ: أنْ لا يسيئُوا الظنَّ بأمثالِ هؤلاءِ أو يقولُوا: ما أحدٌ يردُّ على شيخِنَا، لا أريدُ هذا أبدًا، ليسَ هناكَ أحدٌ فوقَ الْحقِّ، كلٌّ يُخطئُ ويصيبُ، قدْ يكونُ الإنسانُ مريضًا، قدْ يسهو أثناءَ الذكرِ ، قدْ تَجدُ الآنَ كمثالِ بعضِ القراءِ تَجدُهم منْ أحفظِ الناسِ في القرآنِ تَجدهم بأربعَ عشرةَ قراءةً بأسانيدَ صحيحةٍ عنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- برواياتِهِ، ومعَ ذلكَ قدْ تلتبسُ عليهِ أوجهُ القراءاتِ وهذا لا يَحطُّ منْ قدرِهِ أبدًا، إنَّما الذي يَحطُّ من القدرِ أنْ ينبهَ الإنسانُ على الخطأِ فيصرُّ وهوَ يعلمُ أنَّهُ خطأٌ، يأتي إلى شيءٍ موضوعٍ أو مكذوبٍ على النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فتأخذُهُ العزةُ بالإثْمِ -أَعَوذُ بِاللهِ-، هذا مَا يَجوزُ، ولا ينبغي لأحدٍ، على الْمسلمِ أنْ يُحبَّ منْ أخيهِ النصيحةَ، وإذا جاءكَ أخوكَ يذكركَ وينصحكَ ويذكركَ بِحديثٍ أو خطأٍ تقبلهُ بصدرٍ رحبٍ.

ونسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ أنْ يرزقَنَا التمسكَ بالسنةِ، وأنْ يرزقنَا الإذعانَ للحقِّ والتسليمَ للحقِّ، اللهم اجعلنَا هداةً مهتدين، غيْرَ ضاليْنَ ولا مضليْنَ، اللهم ارحمْ ضعفنَا، واجبُرْ كسرَنَا، وكملْ نقصنَا، واسترْ عيبنَا، اللهم عليكَ توكلنَا، وإليكَ أنبنَا، وإليكَ الْمصيْرُ، نسألكَ بعزتكَ وجلالكَ أنْ تعصمنَا من الزللِ، وأنْ توفقنَا للقولِ والعملِ، وأنْ ترشدَ بنَا في أمورنَا، يسرنَا لليسرى، وجنبنَا السوءَ والعسرى، واغفرْ لنَا في الآخرةِ والأولى، اللهم اغفرْ لآبائنَا، واغفرْ لأمهاتنَا ومشائخنَا ومُحبينَا ومن أوصانَا واستوصانَا وحضَر مَجلسنَا وغابَ عنَّا وأحبنَا فيكَ، اللهم اغفرْ لنا أجْمعيْنَ، وهبِ الْمسيئيْنَ منَّا للمحسنيْنَ، وعمنَا برحْمتكَ يا أرحمَ الراحِميْنَ، واغفرْ لنْا يا خيْرَ الغافرينَ، وارحَمنَا يا أرحمَ الراحِميْنَ، اللهم اجبُرْ كسرنَا، وارحمْ ضعفنَا، وأصلحْ ذاتَ بيننَا، واهدنَا سبلَ السلامِ، وأخرجنَا منَ الظلماتِ إلى النورِ يا حيُّ يا قيومُ، اللهم إنَّا نعوذُ بكَ من زوالِ نعمتكَ، وتَحولِ عافيتكَ، وفجاءةَ نقمتكَ، ومنْ جَميعِ سخطكَ، اللهم أصلحْ لنَا ديننَا الذي هو عصمةُ أمرِنَا، وأصلحْ لنَا دنيانَا التي فيهَا معاشنَا، وأصلحْ لنَا أخرتنَا التي إليها معادنَا، واجعلْ الْحياةَ زيادةً لنا في كلِّ خيْرٍ، والْموتَ راحةً لنَا منْ كلِّ شرٍّ، اللهم اجعلْ ما تعلمناهُ وعلمناهُ خالصًا لوجهكَ الكريْمِ، موجبًا لرضوانكَ الكريْمِ، واغفرْ لنَا فيه

كلِّ زللٍ وخطأٍ وخللٍ يا إلهَ الأوليْنَ والآخرينَ، وكملْ لنَا فيهِ كلَّ نقصٍ، واسترْ فيهِ كلَّ عيبٍ، واجبُرْ لنَا كلَّ كسرٍ، وأعظمْ لناَ بهِ الأجرَ والعاقبةَ والذخرَ يا عظيمُ يا برُّ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِيْنَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ.

رقم الدَّرس ٤٠٩

الأربعاء ٣-٣-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

قَالَ الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وَقَدْ رُوِيَ عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ، أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: بِذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بِذَلِكَ.

قَالَ الإمامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرح:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام الأتمانِ الأكملانِ على خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على سبيله ونهجه، واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ:

فقد ذكر الإمام الحافظ الترمذي هذا الحديثَ، حديثَ أنس بن مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وقد بيَّن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث ما ينبغي أن يكون عليه المسلم والمؤمن الصالح من قوة اليقين بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، وحس الظنِّ بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، وكمال التوكل عليه، وصدق اللجأ إليه.

ولا شك أنَّ الحياةَ مليئةٌ بالهموم والغموم والمصاعب والمتاعب، ولكنَّ الله يهوِّنُها بقدرته، وييسر عسيرها برحمته، فهو اللطيف بخلقه، العليم بضعفهم، وشدة حاجتهم إليه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

ولذلك بيَّن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّها إذا عظُمت على المؤمن الخطوب، وأحاطت به الهموم والكروب، أنَّه ينبغي عليه أن لا يكون جزعًا، وأن لا يكون ضعيفًا، بل ينبغي عليه أن يكون قويًّا بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

((**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ**)): وهذا يدل على أنَّ المصاعب والمتاعب تُهونُ إذا هونَها الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وتكون يسيرة مع أنَّها في حالها عسيرة إذا شاء الله تيسيرها.

وكم من عبد عظُمت عليه الكروب، وأشدت عليه الخطوب، ولكنَّه بفضل الله -جَلَّ جَلالُهُ- وبإيمانه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وتوحيده، وصدق العبودية له -جَلَّ جَلالُهُ- كأنَّه في نعيم، وكأنَّه في راحة وخير، مع أنَّه يذوق من العذب أصنافًا، ويتقلب في البلايا ألواناً وأشكالاً، ولكنَّه بمناجاته لله، والتجائه إلى

الله وصدق عبوديته وتوحيده لله يتلذذ، فيجعل اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عسرَه يسرًا، وضيقَه سعةً، وهذا كله بفضل الله وبفضل توحيده والإخلاص له: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}**، فهو -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يعينُ عبده إذا استعان به.

فبيَّن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ الضر والشدائد والمصائب والمتاعب شديدٌ وقعُها على الناس، شديدٌ وقعُها على القلوب، ومن هنا بيَّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من الالتجاء إلى الله بالدعاء.

ومناسبة هذا الحديث لكتاب الجنائز: واضحة؛ لأنَّه قبل موت العبد، وقبل خروجه من الدنيا قد يبتليه الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لكي يخرجَ منها نقيًّا من الذنوب، وقد يكون العبد قد أعدَّ الله له منزلةً في الجنة لم يبلغها، ولكن شاء الله -جَلَّ جَلالُهُ- أن يبتليه قبل موته ببلاءٍ، تُرفَع به درجتُه، وتعظُم به عند الله منزلتُه، ومن هنا يرى الإنسان البلاء شرًّا في ظاهره، ولكنَّه خير في باطنه: **{وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}**، وهذا كله امتحانٌ من الله.

فإذا دنا العبد من الآخرة أشدت عليه الأمور، فمنها ما يكون في نفسه، ومنها ما يكون في أهله وولده وما يخلِّفه وراء ظهره، خاصة إذا كان وراءه أيتامًا، سييتم أولاده، وترمَّل نساؤه.

فهذه كلها أمور تزلزل بها القلوب، والمناسبة أنَّه يحتاج الإنسان إلى السبيل الأمثل، والطريق الأقوم الذي يرضي الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

أهمُّ شي يفكر فيه الإنسان في هذه الدنيا كيف يرضي الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ومن هنا بيَّن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه ليس هناك ملجأ ولا منجى للعبد من بلاء الله إلا بالالتجاء إلى الله.

((لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ)): فهذا يقع من الناس، خاصة في مرض الموت، وشدة الأسقام والآلام، فإنَّه قد يصبر، ثم يضعف إيمانه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

والناس على أحوال:

منهم من إذا اشتدت عليه البلايا قبل موته، ربما -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- تزلزل، وضعف إيمانه، فقال ما لا خير فيه، فهذا مما ينبغي للمسلم أن ينتبه له، أنَّه قبل رحيله من الدنيا قد يُشدَّد عليه في الأسقام والآلام والمتاعب والمصاعب، فيرى ما يسوؤه لا ما يسره؛ لأنَّ الدنيا سجنُ المؤمن، فإذا أراد فراقها، والخروج منها، وشُدَّ عليه، وعظُمت عليه الكربات، وعظُمت عليه المصاعب والبليات فإنَّه إذا نزل به أمر الله اشتاق إلى لقاء الله، وأحبَّ لقاء الله، فأحبَّ الله لقاءَه.

لا يحسبن العبد أنَّ ضيق الدنيا عليه، وما يصيبه فيها من المهانة والمذلة، وأذية أهلِها له كلُّ ذلك يجري على الطبيعة أو الصدفة كما يقولون، أبداً والله، إنَّما هو لِحِكَمٍ وأسرارٍ لا يعلمها إلا الله-جَلَّ جَلالُهُ- إذا أحبَّ الله عبده اصطفاه، ومن دلائل الاصطفاء أنَّه ينفر من هذه الدنيا، ويرتاح إلى الآخرة، ويرتاح لليقين بالله، وحسن الظن بالله -جَلَّ جَلالُهُ-.

فهذا الحديث يحتاج إليه المؤمن، خاصة قبل فراقه من الدنيا، ولذلك كان -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- شُدَّت عليه سكرات الموت، وكان يقول: ((**إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٌ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٌ**))، وهذا يدل على أنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جعل هذه الدنيا بلاءً على المؤمن، ولكنها نقمةٌ في ثوبِ نعمة، وظاهر البلاء أنَّه مهانة، ولكنَّ حقيقته أنَّه كرامة، فالله يصطفي العبد لهذه البلايا.

((**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ**)): وهذا كثيرٌ في ضعاف الإيمان والجهلة، أنَّ الرجل إذا أصابته مصيبة قال: يا ليته مات، يا ليتني مت، يا ليتني لم أكن شيئًا، يا ليت -أعوذ بالله- ربي أخذ روحي، يا ليتني ارتحت من الدنيا، يا ليتني لم أرَ كذا، يا ليتني لم أسمع بكذا.

((**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ**)): المؤمن لا يجزع، ولا يفزع، المؤمن يتوكل، ويأخذ بالأسباب، ويحسن الظن برب الأرباب، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: ((**أنا عند حسنِ ظنِّ عبدِي بي، إنْ ظنَّ بي خيرًا كان له**))، فمن نزلت به المصاعب، واشتدت عليه المتاعب، وقال: يفرجُها الله، وربي لا يخيبني، اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، اللهم أعني، اللهم يسرْ لي، اللهم اغفرْ بهذا البلاء ذنبي، وأرفعْ به درجتي، وكفِّرْ به خطيئتي، فإذا بالبلاء يتسع:

يُوسِّعُ الضِّيقَ الرِّضَا بِالضِّيقِ وَإِنَّمَا السَّعدُ مِنَ التَّوفِيقِ

فمن وفقه الله سدد في قوله، وسدد فيما يكون منه.

فإذا كانت ضمائر المؤمنين منطوية على الإيمان واليقين، فأنَّها إذا شَدَّت عليها البلايا خرجت منها هذه النفحات، والكلمات الطيبات التي تصعد فتفتح لها أبواب السماوات: **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}**، فإذا قال العبد: (الله ربي، الله لا يخيبني، الله يعينني، الله ييسر لي)، فإنَّه تفتَّح أبواب السماوات لهذا التوحيد، ولهذه العبودية، ولهذا الصدق، ولذلك لا يظهر المؤمن على حقيقته إلا في مثل هذه المواطن.

ومن هنا من يلي المرضى، ومن يكون قريباً من المريض مرض الموت، ومن يكون قريبًا ممن دنت ساعتُه، وحالت قيامتُه، عليه أن ينتبه لهذا الأمر العظيم، وهو توحيد الله، وتسليم الأمور إلى الله وتفويضها إلى

الله، مع حسن الظن بحسن العاقبة، ولذلك: **{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ}**، يثبتهم بسداد القول، وحسن الظن بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

((فَإِنْ كانَ وَلا بُدَّ قَائِلاً فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ، أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي))، هذا دعاء يقوله عند الشدة، إذا كان ولا بُدَّ قائلاً فليقل هذا الدعاء.

وهذا يدل على أنَّ الأصل أنَّه عليه أن يسلِّم ويستسلم، وألذُّ ما تكون الحياة، وأطيبُ ما تكون الحياة بالإسلام والتسليم، فما خلقنا الله إلا لتوحيده، وأعلى درجات التوحيد اليقين، والرضا بربِّ العالمين.

ولذلك كان بعض السلف يقول: إنَّه يجد أثناء البلاء لذة، فإذا زال عنه البلاء تمنى أن تعود إليه تلك اللذة؛ لأنَّها لذة الأنس بالله، والثقة بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ما خيَّب الله عبداً صدقه، من صدق مع الله، صدق الله معه.

فالكلمات التي فيها تذمر، وفيها تسخط، وفيها جزع، وفيها فزع، كلها لا تغني للعبد من الله شيئًا، بل إنَّها قد تبعد العبد من الله -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

ومن هنا ينبغي للعبد أن يحذر من كلامه، خاصة عند نزول البلايا، فإنَّ الشيطان يتخبط الإنسانَ ومن تخبط الشيطان أن يصدر منه ما لا يليق به، ولا يليق بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، مثل: سوء الظن بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، وما يكون من الكلمات التي تخالف التسليم، -نسأل الله السلامة والعافية-:**{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ}**، فتسمع الكلمات التي تبقى دروسًا للمؤمنين والمؤمنات، من أهل الإيمان، من أهل التوحيد، من أهل التسليم، من أهل الصدق، من أهل اليقين، تخرج من العبد الكلمة تبقى نوراً وخيراً لمن وراءه من الأخيار والصالحين، يكون قدوة لعباد الله الصالحين، ويكون قدوة للمؤمنين، فكنْ ذلك الرجل، لا تتمنى الموتَ للضر والشدة، ولكن اسأل الله الثبات، واسأل الله المعونة.

يمر على العبد البلاء، لو أنَّه تفكر أنَّ كل ساعة، بل كل ثانية من هذا البلاء، كلها: إمَّا تكفير لذنب، أو رفعة لدرجة، فهو على خير: **((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ))**، مِمَّ يجزع؟! ومِمَّ يفزع؟! والحسنات تكتب، والدرجات ترفع، وإذا رأى أهل البلاء ما لهم عند الله من الأجر، والمثوبة إذا وقفوا بين يدي الله -جَلَّ جَلالُهُ-، ونُشرت الدواوين مليئة بالتسليم، وبالرضا بقضاء الله وقدره: **((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يكتبُ اللهُ له بها رضاه إلى يوم يلقاه))**، قد تأتي البلية للإنسان فيقال له: معك -أجارك الله- السرطان، فيقول: الحمد الله، رضيتُ بقضاء الله وقدره، اللهم ثبتني، اللهم اربطْ على قلبي، اللهم أحسنْ لي الفرج والمخرج من هذا البلاء، ربي عليك توكلت،

وإليك أنبت، ويحسن الظن بالله، فتخرج هذه الكلمات حجةً له بين يدي الله -جَلَّ جَلالُهُ-، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

التسليم في المصاعب والمصائب والمتاعب أمر عظيم ترفع به الدرجات، وتكفر به الخطيئات، ويظهر به صدق المؤمنين والمؤمنات: **{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}**، ونسأل الله بعزته وجلاله أن يجعلنا ذلك الرجل.

أمَّا هذا الدعاء فسأل العبدُ ربَّه أحدَ أمرين: إن كان الخير له في الحياة: أن يبقيه، وإن كان في بقائه شر: أن يتوفاه، وهذا من خير ما يكون من الدعاء.

((اللَّهُمَّ، أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي)): إذًا ينبغي لكل مؤمن أن يعلم أنَّه لا قيمة للحياة إلا إذا كانت خيرًا وطاعة وبرًا، ما خلقنا الله للهو واللعب، ما خلقنا الله لعبث العابثين، وصخب الصاخبين، ما خلقنا الله لكي نضيع الأوقات والساعات واللحظات فيما لا طائل له ولا نائل، وإنَّما خلقنا الله لعبادته وتوحيده وطاعته.

ونسأل الله بعزته وجلاله أن يبارَك أعمارنا، وأن يبارَك أقوالنا وأعمالنا، وأن يسلمَنا إلى خير، وأن يعيذنا من حياة لا ترضيه عنا.

ولذلك أمر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- المؤمن أن يسأل ربَّه الخيرَ في هذه الدنيا، وكان من جوامع الدعاء التي حُفِظت عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، حتى كان أنس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يقول: **((كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))**، قال: **((وكان أنسٌ إذا صلَّى، أو دعا بدعواتٍ جعلَ فيهنَّ هذه الدعوةَ))**، أن تسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- الحياة التي يكون فيها رضاه، ومحبته والقرب منه -جَلَّ جَلالُهُ-؛ لأنَّ الله ما خلقنا إلا لذلك: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}**.

اللهم إنا نسألك أن تبارَك لنا فيما بقي من أعمارنا، وأن تثبتَ قلوبنا بما يرضيك عنا، اللهم اصرفْ عنا الفتن والمحن ما ظهر منها وما بطن، نسألك بعزتك وقدرتك وجلالك وعظمتك أن تصرفَ عنا كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، وحقد الحاقدين بما يشغلنا عن طاعتك ومرضاتك يا أرحم الراحمين، ووفقْنا لمحبتك ومرضاتك؛ إنَّك أنت السميع المجيب.

قال الإمام أبو عيسى التَّرمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابٌ: مَا جَاءَ فِي التَّعوُّذ للمريض]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ هِلالٍ الْبَصْرِيُّ الصَّوَّافُ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عَبْدِالْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ وَعَيْنِ حَاسِدٍ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، وَاللَّهُ يَشْفِيكَ**)).

الشَّرح:

يقول المصنف -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بابٌ: ما جاء في التَّعوُّذ للمريض] التَّعوُّذ**: هو طلب العوذ، **والعوذ**: هو الالتجاء والاعتصام، ولا ملجأ ولا عصمة للعبد إلا بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، فهو وحده الذي يعيذ من استعاذه، ويجير من استجاره: **{قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ}**، فهو الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وهذا من توحيد الألوهية أنَّ العبد إذا استعاذ يستعيذ بالله، وإذا استجار يستجير بالله، وإذا طلب الأمن، أو طلب خيرًا، إذا طلب خيرًا، أو دفع شرٍّ، فإنَّه لا يطلبه إلا من الله -جَلَّ جَلالُهُ-ولما كان المرض الذي يسبق الموت يحتاج المؤمن فيه إلى ما يوطنه ويقويه على تحمل البلايا، وما يكون سببًا في دفع الشر عنه.

أورد المصنف -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الباب: **[التَّعوُّذ للمريض]**، وهو أقرب ما يكون لباب الرقية، اشتمل على هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنته في الرقية والدعاء، وإن كان سيذكر المصنف-رَحِمَهُ اللهُ- أبواب أخرى فيما سيأتي، ولكن هذا الموضع يُحتاج إلى التَّنبيه إلى هذا الأمر ولو بقدر، لكن محلَّ هذا الباب إنَّما هو في باب (**الدَّعوات**)، وأفرد لها المصنف كتابًا خاصًا (**كتاب الدَّعوات**) أورد في السُّنُن وهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الدعاء عمومًا.

لكن هنا في التَّعوُّذ للمريض أنَّ الناس من عادتهم إذا نزل البلاء والمرض والسقم، تارة يلجأون إلى ما يحصنون به المرضى، فمنهم المصيب، ومنهم المخطئ:

أمَّا من أصاب: فهو الذي يدعو ربَّ الأرباب، ويستعيذ بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، متبعًا هدي السنة والكتاب فهذا هو الحري بالهدى والصواب، أن يبحث عن هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنته

فيما ورد من الأدعية الصَّحيحة للمريض، ومن فعل هذا فقد نصح لمريضه، فإذا كان المريض أباً أو أماً فقد برَّ والديه، فمن برِّ الوالدين أن يكون الابنُ متبعاً للسنة في رقية الوالدين، والتَّعوُّذ للوالدين، وهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في ذلك أكمل الهدي وأجمعه، ومنه هذه الدعوات العظيمة.

وفي الحقيقة أدعية النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **اشتملت على أمورٍ عظيمةٍ جدًّا:**

وأعظمها وأجلها وأشرفها وأقدسها على الإطلاق: الإخلاصُ لله -جَلَّ جَلالُهُ-، الذي تنحلُّ به العقد وتزال به الكربات، وتدفع به المصائب والمصاعب والملمات، فليس هناك شيءٌ يُذهِبُ الله به البلاء أعظم من توحيده، حتى إنَّ المشركين وهم عبدة الأوثان لما أخلصوا لله الدعاء فرَّج الله كربهم، وأزال الله عنهم ما يجدون، فهذا هو الحبل المتين، والصراط المستبين، من تمسك به نجا ومن استعصم به فقد أصاب الخير كله.

من الناس من يصيب هذا الأصل العظيم، ومنهم -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- من يذهب يمينًا وشمالاً: **{يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ}، {يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ}**

ولذلك كان في جاهليتهم الجهلاء يذبحون للجن، ويستعيذون بالجن، ويضعون الطلاسم ويضعون الحجب والكلمات والعبارات التي لا تُفهم ولا تُعرف، فأبدلنا الله -جَلَّ جَلالُهُ- بهذا الصفاء وهذا النقاء، وهذا الخلوص الذي لا شائبةَ فيه، أبدلنا اللهُ هذا الخير العظيم من ذكر اسم الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

((**بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ**)): ليس هناك شيء أعظم بركةً من أسماء الله -جَلَّ جَلالُهُ-، ولذلك قال تعالى: **{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ}**، فما وضع الله من البركة في أسمائه الحسنى وصفاته العلى فهو الخير العظيم والبركة التامة الكاملة، فإذا سأل العبدُ ربَّه يسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ومن أعظم العوذ: العوذ بأسماء الله وصفاته.

ولذلك ثبت في الحديث الصحيح من العوذ الثابت قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في هديه في المساء والصباح، وأيضًا في حديث خولة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في المنزل: ((**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**))، فهذا يدل أنَّ أعظم العوذ وأكمله وأجله: هو العوذ بأسماء الله وصفاته، فأسماء الله تامة كاملة، وصفاته -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- تامة كاملة فمن استعاذ بها أعاذه الله، ومن سأل بها أعطاه الله، فهي الوسيلة إلى الله -جَلَّ جَلالُهُ-، مما يتوسل به إلى الله أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته.

واستفتح الله -عَزَّ وَجَلَّ-هذه الرقية لنبيه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فقال: ((**أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ**))، ((**أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)): كرامة من الله -جَلَّ جَلالُهُ- أرسل الروح الأمين إلى سيد الأولين والآخرين:

((**اشْتَكَيْتَ؟**)): منزلة ما بلغها أحدٌ، أكرمه الله بهذه الكرامة، قال لأم سلمة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**أَمَا عَمِلْتِي أَنِّي خِيرَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ**)).

أرسل إليه الروح الأمين: ((**اشْتَكَيْتَ؟**))، وهذا يدل على عظيم ما اختصَّه الله من المنزلة -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

والشكوى تكون بسببٍ، وغالباً يعبر بالشكاية عن المرض والسقم والألم.

وينقسم إلى القسمين: إمَّا أن يكون حسيًّا: كالجرح، **وإمَّا** أن يكون روحيًّا: كالضيق، ونحو ذلك مما يصيب النفس.

((**اشْتَكَيْتَ؟**)): هذا جارٍ مجرى الاستفهام والسؤال، يعني: (هل تشتكي؟) وهذا فيه دليل على جواز أن يخبر الإنسان عما أصابه من البلاء، وعما نزل به من العناء.

ومن يشتكي على حالتين:

إمَّا أن يشتكي إخبارًا ورجاءً أنَّ أخاه المسلم يدعو له، أو يعذره في تقصير، فهذا لا بأس به وثبتت به السنة، **وإمَّا** أن يشتكي -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- تسخطاً وتذمرًا، فهذا محرمٌ شرعًا، أن يشتكي -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- تسخطاً على القضاء والقدر، وهذا -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- كمن يشتكي ربَّه على الخلق.

ونصَّ العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّه لا يجوز التشكي على سبيل التسخط والتذمر من قضاء الله وقدره.

((**قَالَ: نَعَمْ**)): والسؤالُ معادٌ في الجواب، أي نعم أشتكي، وهذا كما ذكرنا فيه جواز إخبار الإنسان عما أصابه.

واختلف العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-: **هل الأفضل أن الإنسان لا يخبر بما أصابه، ويتوكل، أو يأخذ بالأسباب، فيشتكي، ويعرض نفسه على الأطباء، ويتطبب؟**

أمَّا من حيث الأصل في أصل هذه المسألة: فإنَّ أئمة السلف والإجماع منعقد على أنَّ مَنْ اشتكى ولم تكن شكواه على سبيل التَّسخط والتَّذمر أنَّ هذا لا يقدح في التَّوحيد، ولا يقدح في الإيمان لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهو إمام المتوكلين وسيد الأولين والآخرين كما ثبت في الصحيح لما قالت أم المؤمنين عائشة: ((**وَا رَأْسَاهْ، قَالَ: بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهْ**)) -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

فهذا يدل على مشروعية أن يشتكي الإنسان ما دام أنَّه على سبيل الإخبار، أو على سبيل الأخذ بالسبب من العلاج والتَّداوي، أو رجاءَ أن يدعو له أخوه بدعوة صالحة، ونحو ذلك من المقاصد الحسنة، أنَّه لا بأس به ولا حرج.

((**قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ**)): فيه دليل بأنَّ الرقية تكون بأسماء الله وصفاته.

((**قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ**)): والوارد أفضل من غير الوارد بالنسبة للأسماء الحسنى والصفات العلا، فإذا دعا بهذا الوارد فهو أفضل؛ لأنَّه يُكتَب له أجرُ المتابعة للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وينال خير وبركة في السنة، وغير الوارد أن يقول: يا لطيف، يا لطيف، يا رحيم، يا رحيم، ونحو ذلك من الالتجاء بأسماء الله وصفاته الثابتة في الكتاب والسنة، هذا لا بأس به، جائز.

ولكن أفضل وأكمل أن يقول بالوارد، مثل قول: ((**بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ**)).

((**بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ**)): **فيه دليل على مسائل:**

المسألة الأولى: مشروعية الرقية، وهي محلُ إجماعٍ بين العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-، أنَّ الرقية مشروعة لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- رَقَى.

وكذلك أيضًا علَّم أمته ما يُرقَى به، كما في حديثنا، حيث أخبر عن هذه الرقية التي نزل بها جبريل -عَلَيهِ السَّلامُ-.

وفي حديث أم المؤمنين عائشة أنَّه كان من رقيته -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- للمريض: ((**أَذْهِبْ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي**)).

وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ويعده بعض العلماء في حكم الرُّقية: ((**مَنْ عَادَ مَرِيضًا فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ، سَبْعَ مَرَّاتٍ، شَفَاهُ اللَّهُ..**)) إلى آخر الحديث.

كل هذا يدل على مشروعية أن يري الإنسان أخاه المسلم الرقية الشرعية، وهذا محل إجماع بين العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّ الرقية جائزة، ومشروعة.

المسألة الثانية: أنَّ محل الجواز يختص بالوارد، بمعنى أن تكون الرقية مشروعة، لا ممنوعة، والمشروع منها ما ذكرناه بأسماء الله وصفاته، وما ثبت في الأحاديث عن رسول الله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- من الأدعية الصحيحة.

وأمَّا بالنسبة للرقية غير المشروعة: فهي التي تكون بالحروز والطَّلاسم والشرِّكيات -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- والالتجاء إلى الجن، والاستعانة بهم، هذا كله محرم، لا يجوز للمسلم أن يفعله، ولا أن يأذن به أن تكون

الرقية مشتملة على الاستغاثة بالجن، والاستعاذة بهم، فهذا يصل إلى الشرك الأكبر -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- المخرج من الملة، أنَّه إذا سأل العبد الجن، واستغاث بهم، واستجار بهم من دون الله -عَزَّ وَجَلَّ-، أو شركهم مع الله، فاعتقد نفعهم وضرهم مع الله -جَلَّ جَلالُهُ-، فهذا شرك أكبر -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، فينبغي الحذر.

وهذا يفعله -نسأل الله السلامة والعافية- السَّحرة والمشعوذون، ولذلك يأكلون أموال الناس بالباطل، ويلبِّسون عليهم دينهم، ويعطونهم الحروزات ويعطونهم التمائم، وقد أُخفِي فيها ما يغضب الله -جَلَّ جَلالُهُ- ويسخطه، فينبغي للمسلم أن لا يقبل هذا.

ولا يجوز للمسلم أن يقبل من أحدٍ أن يرقيه ما لم يسأله عن هذا الذي يرقيه، ويستبين عنه، خاصة عند فساد الزمان، فلا يُعذر أن يأتي إلى كل من هب ودب، ويأخذ من الطلاسم والحجب ويقول: والله ما أدري ما فيها، بل ينبغي عليه أن يحتاط لدينه، وأن يستبرئ لدينه، وأن يبتعد عن حدود الله وحمى الله: ((**أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ**)) وأعظم حرمة، وأعظم حق هو حق الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وهذا الحق ينتهك ويضيع، فكان به الظلم أعظم الظلم حينما يُصرف حق الله إلى غير الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

كيف يرضى المسلم أن يأتي إلى شخص كافر مشرك بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، يجعل له حجبًا فيها الاستغاثة والاستعاذة بالجن، وسؤالهم النفع، ودفع الضر -نسأل الله السلامة والعافية-، مما هو حق الله -جَلَّ جَلالُهُ-؟ هل طردنا الله عن بابه؟ حاشاه: **{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ}**.

الرقية غير المشروعة: هذه محرمة بإجماع العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

المسألة الثالثة: في قوله: ((**بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ**)) دليل كما ذكرناه على أنَّ الرقية تكون بأسماء الله وصفاته.

وتنقسم هذه الأسماء والصفات إلى قسمين:

أن يكون فيها دعاء خاص من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **مثل** قوله: ((**أَذْهِبْ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي**))، و((**بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ**))، ونحوها من الوارد.

ومثل: المعوذتين، فإنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كان يتعوذ كما في الصحيح من حديث أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: ((**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَتَعَوَّذُ مِنْ الْجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتْ الْمُعَوِّذَتَانِ فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا**))؛ لعظم ما فيها من البركة والخير، من

قرأ المعوذتين في البلاء والشدة، معتقدًا لمعناها حاضر القلب، قوي اليقين بالله، والله لن يخيب، وسيجعل الله له من بين أطباق السماوات والأرض فرجًا ومخرجًا؛ لأنَّها عوذٌ من الله عظيم.

إذا نزل البلاء بالعبد فاستعاذ بها؛ لأنَّ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قالت: ((**تَرَكَ مَا سِوَاهُمَا**)) ترك ما سوى المعوذتين، وهذا يدل على أنَّها من أفضل الرقية.

وكذلك من أفضل الرقية: الرقية بالفاتحة، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قال لأبي سعيدٍ الخدري لما سئل بما رقى فقيل له: ((**بِمَا رقيته؟ قال: بفاتِحة الكتاب، فقال له رسول الله** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!**)) خير عظيم، وفضل كريم من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فالفاتحة فيها خير كثير في الرقية، ولكن سر هذا الخير وفاتحته في يقين العبد، بمعنى الفاتحة حينما يقرأ الفاتحة يستحضر معاني الفاتحة ويقرأها بقلب خاشع فإنَّه إذا قرأها على هذه الصفة، وتدبَّر ما في هذه الآيات من المعاني، فإنَّ فيها نفع عظيم لمن يَرقِي ومن يُرقَى، وهذا أمر مجرب ومعروف أنَّ فاتحة الكتاب هي من أفضل ما يرقى بها، ونحو ذلك من آيات الله العزيز.

فالمقصود أنَّ هذا الحديث يدل على مشروعية الرقية، وأن تكون الرقية بالوارد بالشيء المشروع والثابت.

وقد توسَّع الناس في هذا، يعني في الرقية، ومنهم من اتَّخذها -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- تجارة، فيَرقي الناس على قصد المال، لا على قصد نفعهم، قصده المال، وليس قصده النفع.

وأمَّا من كان قصده نفع المسلمين، وجاءه الخير والمال تبعًا: فهذا لا يضره؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أقرَّ أبا سعيد حينما سأل الجُعْل على رقية سيد الحي، وقال: لا نرقيه حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فجعلوا لهم جُعلاً من الغنم، فرَقَى، فلما سأل النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عن الجُعْل، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ**)) فهو يدل على مشروعية أخذ الجُعْل.

لكن أبا سعيد -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كان قصده أولاً: أنَّ هذا وإن كان كافراً، فإنَّ هذا يدل على صدق نبوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فله غرض صحيح، وجاءت الدنيا تبعًا.

وعند العلماء أنَّه إذا كان الغرض صحيحاً وجاءت الدنيا تبعًا لا يضر.

ولذلك جعل الله للمجاهد الغنيمة، مع أنَّه لا يكون مجاهداً إلا إذا قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا وقال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن أهل بدر، وهم في أعلى مراتب الجهاد: **{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}** وهي العير، ومع ذلك هم مخلصون، ويريدون الأجرَ من الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

فالمقصود أنَّه إذا رَقَى، وكان نفع الدنيا تبع: فلا يضر.

وهنا مسألة: أنَّ أخذ الجُعْل على الرقية الذي ثبتت به السنة، ثبتت على سبيل الجُعْل، **والجُعْل فيه فرق بينه وبين الإجارة:**

والجُعْل: لا يستحق إلا بعد تمام العمل، فلا يجوز أخذ الجُعْل إلا بعد وجود الشفاء، وهذا هو المتفق عليه بين العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-، كلهم مجمعون على أنَّ من قال لشخص: (إذا رقيتَ مريضي، وشُفِي، سأعطيك مئة ريال أو ألف دينار أو ألف درهم) أنَّه لا يستحق شيئًا إلا بالشفاء، بعد أن يشفى تماماً. وهذا أصلٌ عند العلماء، ولذلك أبو سعيد ما أخذ الجُعْل إلا بعد تمام الشفاء.

وأمَّا الإجارة: فإنَّها تتقسط بحسب العمل، ولذلك لو أنَّ شخصًا استأجر شخصًا، ثم مات أثناء العمل، استحق بقدر ما أنجز من العمل، لكنه لو قال له: (أعطيك جُعْلاً، على أن تبحث لي عن بعيري الشارد، وعبدي الآبق، أو عن سيارتي المفقودة، أو ابحث لي عن ساعتي المفقودة، وإذا وجدتها أعطيك مئة ريال)، فظل يبحث سنين، ولم يجد الساعة، لم يستحق شيئاً بإجماع العلماء.

والأصل في الجعل: قوله تعالى: **{وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ}**، وحديث أبي سعيد الذي معنا.

المشكلة أنَّ البعض أدخل الإجارة في الجُعْل، وتفنن البعض في أخذ أموال الناس في الرقية؛ لأنَّ الرقية تقوم على أمرٍ غيبي، ومن هنا لا تستطيع أن نجعلها من باب الإجارة، تقوم على أمر غيبي؛ لأنَّها متعلقة بالأرواح، فهو يقرأ على المريض الممسوس أو المعيون، وهذا أمرٌ غيبي: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}**، فهو لا يعلم هل شُفي شفاء تاماً، وإنَّما يعمل على الدلائل الظاهرة.

فالمشكلة أين؟

المشكلة حينما يقول له:(تأتيني وتجلس عندي جلسات، وكل جلسة بخمسين ريال)، هذا ما يصح؛ لأنَّ هذا لا يأتي إلا على طريق الإجارة.

لو كان طبيبًا يعالج البدن بالطب الطبيعي، يمرنه مثلاً كالمشلول، في العلاج الطبيعي يقول: (كل جلسة بمئة)، ومعروف ما هو الذي يقوم به هذا الطبيب في العلاج الطبيعي، جاز ذلك إجارةً؛ لأنَّ العمل والنتيجة موجودة، وليس فيها أكلٌ للمال بالباطل، مالٌ في مقابل عمل.

لكن حينما يقول له: (تعال عندي، وأنا أرقيك، مثلاً: كل جلسة أقرأ عليك الفاتحة بخمسين ريال)، هذا لا يعتبر إجارةً، ولا يصح؛ لأنَّ الوارد في الرقية الجُعْل، ولم يرد فيها الإجارة، ولذلك كتاب الله وكلام

الله -عَزَّ وَجَلَّ- ليس محلاً للبيع والشراء: **{قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ}**، **{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}**، فهذه الآيات لم تُنَزَّلْ لأجل أن يباع بها ويشترى، وإنَّما جاء الجُعْل فيها لما فيه من النفع، **لكن بشرط**: أن يتحقق الشفاء.

لو أنَّ شخصًا رَقَى شخصًا، فقام الشخصُ الذي رُقِيَ وأعطى من عنده خمسين أو مائة، وهو لم يُشفى، فهذا لا باس فيه، ولا حرج، والأفضل أن يتورع عن أخْذِه، ولا يأخذ إلا بعد الشفاء.

هذا أمر مهم جداً أنَّ الجُعْل لا يُستحَق إلا بعد الشفاء وهذا منصوصٌ عليه عند العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- وتكلم عليه الأئمة في (**بَابِ الْجُعْلِ**).

الرقية من باب الجُعْل، وأمَّا فتح ملفات، وأنَّه يأتي، وكلما يأتي يدفع خمسين ريال، وأربعين ريال، ويجلس ويأخذ هذا الجالون وهذا الزيت، هذا بيع وشراء، وليست رقية، وهذه فتنة لمن يقوم بالرقية، فينبغي التنبه لهذا، المسائل الشرعية تضبط بضوابطها.

إذا رَقَى وأخذ الأجرة على الرقية يأخذها بعد تمام الشفاء والعافية خاصة إذا كانت جُعْلاً وعلى سبيل المشارطة.

أمَّا إذا كان إجارة: لا يُعرف في الرقية إجارةً، وإنَّما المحفوظ أنَّها تكون جُعْلاً، قال: ((**واجعلُوا لنا جُعْلاً**))، والجُعْل يُستحق بعد التمام.

بالنسبة للجُعْل والإجارة، الإجارة تكون في الأشياء التي تُجَزَّأ:

إمَّا بالزمان: مثل أن تستأجر الشخص يشتغل عندك يومًا أو شهرًا، التي هي المياومة والمسانَهة والمشاهرة.

أو تستعمله بالعمل: تقول له: (ابنِ لي هذا الجدار مِتْرًا في مترين، في ثلاثة، وأعطيك كذا، وكذا) هذه إجارة، أو خِطْ لي هذا الثوب أو هذا القماش، هذه إجارة.

في هذه الحالة إذا وقعت الإجارة على سننها يُستحق.

لكن الجُعل يأتي في الأشياء التي فيها مخاطرة، يحتمل أن تقع، ويحتمل أن لا تقع، كأن يقول: (ابحثْ لي عن الشيء المفقود، كتابي، أو ساعتي، أو سيارتي، أو ولدي، فإذا جئت بولدي، أو بسيارتي، أو بساعتي، أعطيك ألف ريال)، **{وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ}** الذي هو صواع الملك، قال: **{وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ}** هذا في الشيء المفقود.

لكن انظرْ في الإجارة تكون في شيءٍ واضحٍ معلومٍ، هذا الفرق.

ولذلك الشريعة من أدقِّ ما تكون في المعاملات، حفظت حقوق الناس وأموالهم، ولذلك الشخص حينما يأتي بمريض إلى من يَرقي فيأتي ويقرأ عليه، ربما يكون المرض عضويًّا وليس مرضًا متعلقًا بالرقية، فيأتي ويأخذ الخمسين ريال والمئة ريال، بأي حقٍّ؟

قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في الصحيح من حديث أنس: ((**أَرَأَيْتَ إِذَا مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ، بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ**))، قرأ عليه القرآن، ثم الرجل بقي كحالته هو هو، ويصرع كما كان، ولم يجد أي جديد، بأي حقٍّ يؤخذ المال؟

الكتاب نصَّ على هذا: **{لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}**، والباطل يقولون: بدون وجه حق، فإنَّه إذا دفع هذا المبلغ، وألزمه بدفع الخمسين والمئة، بأي شيء، بأي مقابل؟ ((**أَرَأَيْتَ إِذَا مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ، بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ؟**)) فدل على أنَّه إذا أُنْفِق على شيء لا يستحقه إلا بعد وجود هذا الشيء.

ونحن نقول هذا؛ تنبيهًا؛ لأنَّ البعض يخلط في هذه المسائل، ولا بد من بيان حكمها شرعًا؛ حتى يكون فيه إعذارٌ إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

أنَّ الرقية إذا كان يبحث الإنسان عن أخذ المال فيها فإنَّها تشرع على سبيل الجعالة، والجعالة تستحق بعد تمام الشفاء والعافية، ونسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يكفينا بحلاله عن حرامه.

((**مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ**)): فيه دليل على أنَّ اسم الله يصرف الأذى، وأنَّه حرز من الأذى، وأنَّ من وجد الأذى فإنَّه يستعين بالله -جَلَّ جَلالُهُ-.

((**بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**)): هذا عموم، ((**يُؤْذِيكَ**)).

((**مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، وَعَيْنِ حَاسِدٍ**)): قال بعض العلماء: النفس هي العين، وأعادها على سبيل التوكيد، وبناء على ذلك تكون هذه الرقية من العين، وهذا هو الأصل أنَّه: ((**لاَ رُقْيَةَ إِلاَّ مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ**))، وهي أشدُّ وآكد ما تطلب له الرقية العين، وكذلك اللَّدغ كما ورد في حديث سيِّد القوم.

وفي هذا دليل على مسائل:

المسألة الأولى: أنَّ العين حقٌّ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ**)).

وثبت في الحديث الصحيح عن سهل بن بيضاء أنَّه خرج مع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في غزوته في تبوك أو خيبر، وجلس يغتسل، وكان سهل أبيض البشرة، ناصع البياض، فمرَّ عليه رجلٌ فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلدَ عذراء، فسقط سهلٌ محمومًا في مكانه، فلمَّا أراد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-

أن يرتحل أخبروه أنَّ سهلاً محموم، فأخبروه بقصة الرجل أنَّه مرَّ وقال كذا وكذا، فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**عَلَيَّ بِهِ**)) فأُتي بالرجل وقال له: ((**عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ هلا برَّكت؟**)) أي قلت: (ما شاء الله، تبارك الله)، ثم قال له: ((**اغْتَسِلْ لَهُ**))، فأمره أن يغتسل فاغتسل، فأمر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بمائه، فصُبَّ على سهل، فقام كأنما أُنْشِطَ من عِقَالٍ، كأن لم يكن به بأس.

وهذا يدل على أنَّ العينَ حقٌّ، وأنَّه من السنة أنَّ الإنسان إذا رأى أمرًا يعجبه أن يقول: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله)، كما هو في التنزيل: **{وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ}**، فيقول: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله)، أو يقول: (ما شاء الله، تبارك الله)؛ لقوله: ((**هلا برَّكت عليهِ؟**)).

وإذا قال العبد: (ما شاء الله، تبارك الله) فإنَّه يخنس الشيطان؛ لأنَّه يخنس عند ذكر الله، لكنه إذا لم يذكر الله تبعها الشيطان، كما جاء في الحديث: ((**الْعَيْنُ حَقٌّ وَيَحْضُرُ بِهَا الشَّيْطَانُ**))، فيصاب الإنسان بإذن الله وقدرة الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

فقال: ((**مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، وَعَيْنِ حَاسِدٍ**)) أو تكون النفس عامة، وهذا يكون من باب عطف الخاص على العام: ((**مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ**)) أي أنَّه استعاذ من شر الأنفس كلها، وشر الحاسد وشر عين الحاسد على سبيل الخصوص، كقوله تعالى: **{وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}**، فالحاسد هو الذي يحسد، وينظر بعينه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

ولا يجوز للمسلم إذا علم أنَّ عينه تصيب، وأنَّه عائن، لا يجوز له أن يؤذي إخوانه المسلمين، بل عليه أن يستمر في ذكر الله -جَلَّ جَلالُهُ-، كلما سمع شيئًا أعجبه، أو رأى شيئًا أعجبه، يقول: (ما شاء الله، تبارك الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله)؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنكر هذا، فقال: ((**عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟!**)).

وإذا قصد ذلك وعناه، فإنَّه يأثم -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وقال بعض العلماء: يكون عليه وزر ما ينتج عن عينه؛ لأنَّه تعاطى السبب المفضي للضرر.

وفي قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، وَعَيْنِ حَاسِدٍ**)) فيه دليل على أنَّ العين تصيب كما ذكرنا، وأنَّها قد تورد الإنسان -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- القبر، وهذا أجمع العلماء عليه أنَّ العينَ حقٌّ.

واختلفوا: ما هي حقيقة العين؟

قال بعض العلماء: إنَّه إذا نظر الإنسان خرج منه شيٌ كالسم، فيقتل المنظور.

وقال بعضهم: إنَّه يوجد فيه مثل ما يوجد في الحيَّة التي تخطف البصر، وتسقط الجنين.

وهذا في الحقيقة كله من أمر الغيب الذي لا ينبغي الخوض فيه، الله أعلم كيف تصيب الأعين وكيف تؤثر، ولا يتكلف الإنسان البحث عن هذه المسائل؛ لأنَّها أمورٌ غيبيةٌ، وينبغي في العلم الكف عن التكلف الذي ليس فيه دليل واضح يبين حقيقته؛ لأنَّ هذا أمر ليس راجعًا إلى المحسوسات، وإنَّما أمر معنويٌّ خفيٌّ، فالتسليم فيه ورد علمه إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- هو المنبغي للمسلم لا يقول: إيش حقيقة العين؟ وكيف تصيب؟ وكيف تؤثر؟ هذا أمر علمه عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وقد يصيب العائن نفسه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- كما قصَّ الله في كتابه في سورة الكهف في الرجل لما دخل جنته: **{قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً}** فتعين -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، ولذلك قال: **{وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ}**، فهو حسد نفسه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

فالعائن الذي لا يذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- يقتل نفسه، ويقتل أهله وولده، ومن يحيط به، فينبغي للمسلم أن ينتبه لهذا، أنَّه إذا رأى شيئًا يعجبه أن يقول: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، ما شاء الله، تبارك الله). ((**بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، وَاللَّهُ يَشْفِيكَ**))، ((**بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ**)) كررها مرةً ثانيةً.

((**وَاللَّهُ يَشْفِيكَ**)): فيه دليل على أنَّ الشفاء بيد الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وهذا يدل على الحصر، على أنَّه لا يشفي إلا الله.

ولذلك قال في حديث عائشة: ((**اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ**)).

ولو أنَّ أطباء الدنيا كلهم أجمعوا وأطبقوا على علاج إنسان بأبسط الأمور، وأبسط الأسقام والعلل، ولم يأذن الله بشفائه لم يُشف، ولو أنَّ ما في الأرض كلها من الأطباء اجتمعوا على إنسان كتب الله له الشفاء، وقالوا: لا يُشفى، يشفيه الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وهذا كله يدل على قدرة الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

وأذكرُ: أنَّ رجلاً أدخل العناية، فقيل: إنَّه ميت، ودخل عليه رجل، فرقاه بالرقية الشرعية، حاضر القلب، يقول له ابنه: كيف ترقيه؟ ترى ما نبغى نكلف عليك، هذا يقولون: إنَّه ميت فقال له: الذي عند الأطباء شيء، والذي عند ربِّ العالمين شيء آخر، فدخل متوكلاً على الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فدخل عليه ورقاه الرقية الشرعية، وخرج من عنده فإذا به بعد عشر دقائق يتصل عليه يقول: الوالد خرج من العناية، وأدخلوه الغرفة وهم واضعون الأنبوب للنسم منه، ثم بعدها بأسبوع أخرجوا الأنبوب، ورد يتنسم طبيعي، وعاش بعدها ثماني سنوات، وهو في السبعين في آخر عمره، ما يعجز الله شيء.

فَكَمْ مِنْ طَبِيْبٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِنْ سَقِيمٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ

يموت الطبيب، ويعيش المريض، دلَّ على أنَّه ليس بيد أحد شيء، الأمر كله بيد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وهو الذي يشفي، وهو الذي يكفي، فهنيئًا، ثم هنيئًا لمن أذاقه الله حلاوة الإيمان، وعَرَف وتعرَّف على الله -جَلَّ جَلالُهُ- بكرمه وجوده ولطفه بخلقه، ليس هناك أحدٌ أبرّ بخلق الله من الله -جَلَّ جَلالُهُ- ولذلك من صفاته أنَّه البر الرحيم، البر؛ لأنَّه يبرُّ خلقه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فتأتي وتحس أنَّ الأب وأنَّ الأم وأنَّ الأخ وأنَّ الأخت وأنَّ الابن وأنَّ البنت تشتكي، وتحس بحنانك ورحمتك فإذا ما في قلبك من الحنان والرحمة والشفقة والألم لا يساوي ذرةً من عشر معشار عشير العشر المعشر من عشير الذرة من عشر معشار إلى ما لا منتهى منه من رحمة الله -جَلَّ جَلالُهُ-ما يأتي شيء، ولذلك ليس هناك إلا الثقة بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، والتوكل على الله، وصدق اللَّجأ إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

((**وَاللَّهُ يَشْفِيكَ**)): أي أنَّه لا أحد يشفي غير الله -جَلَّ جَلالُهُ-، ولذلك لا يجوز أن يُعتقد أنَّ أحدًا يشفي من دون الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وإذا وجد الإنسان أنَّ الطبيب نافع، وأنَّ الله وضع له التيسير والإصابة، فعليه أن لا يَعتقد أنَّ الطبيب يشفيه من دون الله -جَلَّ جَلالُهُ-، فإنَّ الله يخيب ظنه، ولذلك عليك أن تكون على كمال التوحيد والتسليم.

وليس الرجوع إلى الأطباء بقادح في التوحيد والإيمان، ولذلك سيد الموحدين وإمام المتقين -بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين- تطبَّب، وجاءه الأعراب في حديث أسامة بن شريك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: ((**جاء الأعرابُ من هَا هُنَا وهَا هُنَا، قالُوا: يا رسولَ اللهِ، أَنَتَدَاوَى؟ فقالَ: تَدَاووا عبادَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ ما أنزلَ داءً إلا وأنزلَ له دواءً**))، فهذا يدل على أنَّه فضل من الله -جَلَّ جَلالُهُ- وأنَّه أنزل الداء والدواء، وأطلع هذا المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره نفعًا ولا ضرًا، أطلعه على هذا الشيء الذي فيه الشفاء، وفيه العافية، لكن أن يكون هو الشافي، لا، الشافي هو الله -جَلَّ جَلالُهُ-، فهو -سبحانه- الذي يشفي، ولذلك قال: ((**وَاللَّهُ يَشْفِيكَ**))، فإذا نزل السقم والألم يعتقد الإنسان أنَّه لا يشفي إلا الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

قال المصنف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا عَبْدُالْوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ عن عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ قَالَ: ((**دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أنس بْنِ مَالِكٍ، فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، اشْتَكَيْتُ؟ فَقَالَ أنس: أَفَلا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟ **قَالَ: بَلَى، قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ الْبَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شَافِيَ إِلا أَنْتَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا**)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وَفِي الْبَاب عن أَنَسٍ وَعَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

الشَّرح:

((**دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أنس بْنِ مَالِكٍ**)): ثابت البناني، وهو من أصحاب أنس بن مالك، وكان يحبه كثيراً، وكان أئمة الحديث يقولون: (لا أثبت من ثابت في أنس)، وهو من أصحاب أنس الموثقون، ويعتبر من إجلائهم، وكان -رَحِمَهُ اللهُ- أيةً في الصلاح والزهد.

مما أثر عنه: أنَّه كان لا يمر بمسجد إلا ويصلي فيه، كان كثير الصلاة -رحمه الله برحمته الواسعة- **وقيل**: إنَّ أنس بن مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أوصى إذا مات أن يغسله ثابت، فغسله -رَحِمَهُ اللهُ-.

((**دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أنس بْنِ مَالِكٍ، فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، اشْتَكَيْتُ؟**))، ((**يَا أَبَا حَمْزَةَ**)): كنية أنس بن مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وهذا من الإجلال، أنَّه يجل الإنسان الذي له حقٌّ، كالعالم ونحوه، كبير السن، فيكنى، أو يدعى بما يليق به من الأوصاف.

((**فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، اشْتَكَيْتُ؟**)): فيه دليل على مشروعية الإخبار بما يجده الإنسان.

((**اشْتَكَيْتُ؟**)): أي بي شكوى، واشتكي، وهذا فيه دليل كما ذكرنا على الشكوى، وأنَّه إذا كان لغرض شرعي، فإنَّه يعرض على أنس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ حتى يبين له الهدي الشرعي، وهذا شأن التلميذ مع شيخه، والطالب مع العالم، يخبره بالشيء وهو يريد أن يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله، فقال له أنس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَفَلا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟)).

((**أَفَلا أَرْقِيكَ**)): أسلوب من الأدب الرفيع، وهكذا كان أصحابُ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يزينون السنة، وهي في الزينة في أتم وأكمل ما يكون، ولكن يزينونها بهذه الكلمات: ((**أَفَلا أَرْقِيكَ**))

والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقول: ((**يَا غُلامُ، أَلا أُعَلِّمَكَ كَلِمَاتٍ**))، و((**أَلا**)): حرف تنبيه، وكأنَّه يستأذن من يخاطبه، وهذا من أعلى ما يكون وأسمى ما يكون في الأدب في الحوار والحديث.

((**فَقَالَ أنَسٌ: أَفَلا أَرْقِيكَ**)): فيه دليل على أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كانت له رقية.

وفيه دليل على ما قدمنا من المسائل: من مشروعية الرقية، وأنَّ الرقية لها ألفاظ مخصوصة، ولها أذكار مخصوصة، ولذلك قال: ((**بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) فدل على أنَّ لها ألفاظًا مخصوصة.

((**قَالَ: بَلَى**)): وهذا فيه دليل على أنَّه يجوز أو يشرع وأنَّ من هدي الصحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- تشويق الإنسان للعلم، قال: ((**أَفَلا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟))، ومن الذي لا يشتاق إلى رقية النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟! ولذلك لما قيل لثابت هذا، ولو قيل لرجل من أهل الخير، وأهل الصلاح -جعلنا الله وإياكم منهم-: ((**أَفَلا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟)) لطار شوقاً وحنيناً ليسمع هذه الرقية، وهذا من أجمل وأكمل ما يكون في خطابهم -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- لمن بعدهم.

((**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ**))، ((**اللَّهُمَّ**)): أي يا الله، ((**رَبَّ النَّاسِ**)): هذه من صفاته -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّه ربُّ الجنة والناس.

((**مُذْهِبَ الْبَاسِ**)): فيه دليل على أنَّ البأس لا يذهبه إلا الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وهذا يدل على أنَّه ينبغي للمسلم إذا نزلت به البأساء والضراء أن يعلم أنَّه لا يذهبها إلا الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

((**مُذْهِبَ الْبَاسِ**)): والبأساء إذا نزلت بالعباد نزلت لحِكَمٍ، ولم تنزل عبثًا، وأعظم الحكم التضرع إلى الله: **{فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا}**، فالبلايا هذه، الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بيَّن في كتابه هذا الأمر العظيم: **{مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ}**، فهو سبحانه ينزل البأساء، ويصيب بالضراء من أجل أن يُوحد، ويُلتجأ إليه، ويُحتمي به -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؛ ليظهر صدق الموحدين، وتوفيق الله لهم بالإخلاص والعبودية والاعتصام به -جَلَّ جَلالُهُ-، ويَظهر خذلان المخذولين -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- ممن يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره.

ولذلك الشقاء كل الشقاء على من كفر، الكافر إذا نزلت به المصيبة لا يدري أن يذهب: **{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ}**، حيرة الكفر بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، لكن المؤمن بمجرد أن تنزل به الضراء يتوجه إلى الله؛ لأنَّه يعلم أنَّه لا يشفي إلا الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

((**اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي**)): فيه إثبات صفة الشفاء لله -جَلَّ جَلالُهُ-، أنَّه وحده الشافي، فهو سبحانه الذي يشفي، وهو الذي يكفي -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

في قوله: ((**اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي**)) أثبت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لله -جَلَّ جَلالُهُ- أنَّه يشفي، وشفاء الله -جَلَّ جَلالُهُ- لا يُحَدُّ بحدٍّ، قادر على كل شيء، ولذلك لا يظن العبد أنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يشفي أشياء معينة، هو قادر على أن يشفي من كل شيء.

((**اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي**)): ((**أَلْ**)) في ((**الشَّافِي**)) للاستغراق، استغرقت جميع ما يكون من صفة الشفاء، وهذا لا يليق إلا بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، المخلوق قد يشفي، لكن بإذن الله -جَلَّ جَلالُهُ- إذا أذن الله له أن يشفي.

ولذلك لو أنَّ أبرع الأطباء، وأقوى الدواء وُضِع للمريض ولم يكتب الله له الشفاء لم يشفَ، وهذا أمر مقرر حتى الأطباء يسلمون به، حتى إنَّهم في بعض الأحيان يحتاجون إلى نفسية المريض لتقبل العلاج، ويقولون: إنَّ العلاج لا يؤثر إلا إذا كان المريض عنده رضا وتسليم، وُجِد الطبيب ووُجِد الدواء، ومع ذلك يقولون: نريد المريض معنا، وهم من أضعف ما يكونون.

والحقيقة أنَّه لا الدواء ولا الطبيب ولا المريض ولا نفس المريض، ولكن الله -جَلَّ جَلالُهُ- هو وحده.

((**اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي**)): فإذا أذن الله بالشفاء كان الشفاء، وإلا فلا.

((**لا شَافِيَ إِلا أَنْتَ**)): هذه من كمال التوحيد، الإثبات والنفي، ((**اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي**))؛ لأنَّه قد يثبت الشفاء لله، ويشرك مع الله غيره، لكن: ((**لا شَافِيَ إِلا أَنْتَ**)) فهذا يدل على أنَّه وحده الذي يشفي وأنَّه مختص بذلك -جَلَّ جَلالُهُ- فهو يشفي، وهذا الشفاء لا يكون إلا منه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ، ليس معه شريك.

((**اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شَافِيَ إِلا أَنْتَ**)): ومن هنا حري بالمؤمن الموحد أنَّه إذا برىء جسمه وانتصب عوده، واستقام أوده أن يحمد الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وأن يشكر الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

ولذلك والله إنَّه للشجى، والحزن والأسى أن تجد العبد يصاب بالمرض الذي يقضُّ مضجعه، ويذهب نومه، ويعكر صفوه، ويذهب به حوله وقوته، ثم يتأذَّن الله له بالشفاء، فيجريه على يد مخلوق ضعيف، فما أن يشفى إلا وهو يجلس في المجالس كل يوم، وكل ما جاء ذكر المرض: (الطبيب الفلاني فعل لي، والطبيب الفلاني فعل لي)، ولا يقول يومًا: (ربي أكرمني وشفاني)، **{وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً}**، ما في أجهل من هذا الإنسان! **{وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}**، يجلس يتحدث عن الطبيب في المجالس أمام أبنائه، أمام بناته، أمام أسرته، أمام أصدقائه، وقلَّ أن يقول: (إنَّ الله شفاني) -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وهذا من الخذلان.

العبد بمجرد أن تدب فيه العافية، بل قبل أن تأتيه العافية يقول: يا الله، وإذا جاءت قال: بالله، وإذا أحس بخيرها قال: الحمد لله، وعندها يرضى الله: ((**إنَّ اللهَ ليرضى عن العبدِ يأكلُ الأكلةَ فيحمدُه عليها، ويشربُ الشربةَ فيحمدُه عليها**)).

اللهم اجعلنا من الشاكرين، وارزقنا كمال الحمد والشكر لك يا رب العالمين.

فالمقصود: أنَّ الله -سبحانه- هو وحده الذي شفى.

((**شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا**)): بعض الشفاء جزئيٌّ، وبعض الشفاء وقتيٌّ، فينفع في زمان، ثم يعود الداء مرة ثانية، لكن أريد منك يا الله شفاءً لا يغادر سقمًا.

((**شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا**)): أي لا يبقى في المريض سقم، ولذلك أكمل ما يكون من دعاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن تسأله الشيء كاملاً، عطايا الله ما هي ناقصة، عطايا الله كاملة.

((**اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا**)): أي أنَّه شفاء تام كامل، فلا يعود مرة ثانية وينتقض، ولذلك بعض الأدوية وبعض الأطباء يعالج، ثم ينتقض -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وقد يعود البلاء أضعاف ما كان عليه، لكنَّ شفاء الله -جَلَّ جَلالُهُ- بفضله ومنه يشفي شفاء لا يغادر سقمًا، فلذلك إذا حلَّ الشفاء، ونزع عن المكان لم يترك وراءه سقمًا، فلا يعود مرة ثانية، وهذا من

أكمل ما يكون أنَّ العبد يسأل الله -جَلَّ جَلالُهُ- أكمل المسألة وأتمها، طمعاً في رحمته وكرمه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
قال -رَحِمَهُ اللهُ-: وَسَأَلْتُ أَبَا زُرْعَةَ عن هَذَا الْحَدِيثِ فَقُلْتُ لَهُ: رِوَايَةُ عَبْدِالْعَزِيزِ عن أَبِي نَضْرَةَ عن أَبِي سَعِيدٍ أَصَحُّ أَوْ حَدِيثُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عن أَنَسٍ قَالَ: كِلاهُمَا صَحِيحٌ
قال -رَحِمَهُ اللهُ-: وَرَوَى عَبْدُالصَّمَدِ بْنُ عَبْدِ الْوَارِثِ عن أَبِيهِ عن عَبْدِالْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ عن أَبِي نَضْرَةَ عن أَبِي سَعِيدٍ وَعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ عن أَنَسٍ.

نسأل الله بعزته وجلاله وعظته وكماله أن يجعل ما تعلمناه وما علمناه خالصاً لوجه الكريم، موجباً لرضوانه العظيم.

وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

رقم الدَّرس ٤١٠

الأربعاء ١٠-٣-١٤٣١هـ

شرح سننِ الترمِذِي

كِتَابُ الجَنَائِز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطي

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

قال الإمام أبو عيسى الترمذي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الْحَثِّ عَلَى الْوَصِيَّةِ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا إسحاقُ بنُ منصورٍ أخبرنا عبدالله بنُ نميرٍ أخبرنا عبيدالله بنُ عمرَ عن نافعٍ عن ابنِ عمَر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: أنَّ رسولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيْتُ لَيْلَتَيْنِ، وَلَهُ شَيْءٌ يُوْصِي فِيْهِ، إلاَّ وَصِيَّتُهُ مَكْتُوْبَةٌ عِنْدَهُ**)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن ابنِ أبي أوفَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ ابنِ عمرَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمد لله ربّ العالِمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والْمُرسلين سيدنا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعدُ:

فقد ترجم الإمام الْحافظ التِّرمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذه التَّرْجَمة: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الْحَثِّ عَلَى الْوَصِيَّةِ]**

الْحثُّ في لغة العرب: هو الحضُّ على الشَّيء.

والْمُراد بالْحث على الوصية: أي ما ورد عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الحضِّ على فعل الوصية. **والوصية في لغة العرب**: يقال: أصلها الأمر، وهي من: "وَصَّى الشيءَ": إذا وَصَلَهُ. قالوا: وُصِفت بذلك؛ لأنَّ الإنسان يصلُ خيرَ دنياه بخير آخرته.

وهي في حقيقة اللغة معناها: الأمر، ومنه قوله تعالى: **{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ}** أي أَمَرَ. وقول الخطيب: (أوصيكم ونفسي بتقوى الله) أي أمرتكم ونفسي بتقوى الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

فأصل الوصية: الأمر.

وأمَّا في اصطلاح الشَّرع: فإنَّ الْمراد بِهَا "**الأَمْرُ بِالتَّصَرُّفِ بَعْدَ الْمَوتِ**".

وتكون في الأمور المتعلقة بِمصالح الدُّنيا التي ترتبط بِما يعود بالْخير على الإنسان في آخرته.

مثل: أن يوصي بماله، سواءً كان من النَّقد، أو كان من الأعيان.

وهذا الباب ذكره الإمام -رَحِمَهُ اللهُ- **في هذا الموضع**؛ لأنَّ كتابَ الجنائز يشتمل على الأمور

الْمُتقدمة التي تكون قبل وفاة الْمُكلف، ومن ذلك الوصية، حيث وردت النُّصوص في كتاب الله وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ببيان الهدي الذي ينبغي للمسلم أنْ يلتزمَه في هذه الحالة.

والْمُراد بها أن يكون في آخر عمره على وشك الرَّحيل من هذه الدُّنيا، فيوصي بما يتدارك به الأمور في صلاح حاله، **مثل:** أن يوصي بتبرئة نفسه من الحقوق والْمَظالم، فيوصي بردِّ الحقوق إلى أصحابها، كأن يكون عليه دَيْنٌ، أو عنده أمانةٌ، أو عنده وديعةٌ، فيكتب في وصيته حقوق النَّاس ويأمر من بعده من الورثة أن يوصلوا هذه الحقوق إلى أهلها.

وهذه الوصية شَرَعَهَا اللهُ: في كتابه، وفي سنة رسول الله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وأجْمع الْمُسلمون على مشروعيتها وجوازها.

ودلَّ على مشروعيتها دليل الكتاب: بقوله تعالى: **{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ}**، وكانت في أول الإسلام واجبة بهذه الآية في قوله: **{كُتِبَ عَلَيْكُمْ}**.

وكذلك في قوله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: **{مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}**.

وقوله: **{مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ}**.

وقوله سبحانه: **{مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}**.

فهذا كله يدلُّ على مشروعية الوصية في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وأمَّا مشروعيتها في سنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: فقد ثبتت الأحاديث الصَّحيحة عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بمشروعية الوصية، **ومنها:**

حديث الباب الذي ذكره الْمُصنف -رَحِمَهُ اللهُ-، وأصلُهُ في الصَّحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه قال: ((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيْتُ لَيْلَتَيْنِ، لَهُ شَيْءٌ يُرِيْدُ أَنْ يُوْصِي فِيْهِ، إِلاَّ وَصِيَّتُهُ مَكْتُوْبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ**)).

وكذلك أيضًا في قصة سعد بن أبي وقاصٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لما مرض وعاده النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكان يريد أن يوصي بماله كله، فمنعه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من ذلك، كما سيأتي في الحديث في الباب الذي ذكره الْمُصنف -رَحِمَهُ اللهُ- عقب هذا الباب.

وأمَّا الإجماع: فقد أجْمع العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّ الوصية مشروعة.

وفي هذه الوصية خيرٌ عظيمٌ، وحِكَمٌ عظيمةٌ: فالْمُسلم بالوصية ينال الأجرَ العظيمَ إذا كانت وصيتُهُ

مبنيةً على تقوى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وراعى فيها إقامة العدل الذي قامت عليه السَّماوات والأرض، فعدل بين ورثته وإلِّهِ وقرابته، ووصل الرَّحم، وأرضى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في وصيته، فهو بخير الْمَنازل عند الله-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فالوصية خيرٌ للناس من هذا الوجه، يتدارك الإنسان بها ما عليه من الحقوق والْمَظالم، فيأمر بردِّ الحقوق إلى أهلها إن كانت عليه حقوقٌ:

سواءً كانت الحقوق فيما بينه وبين الله -عَزَّ وَجَلَّ-، كأن يكون عليه حقٌّ لله -عَزَّ وَجَلَّ- من النُّذُور ونحوها، فيوصي ورثتَه بأن يقوموا بذلك النَّذر الذي نذره على نفسه.

وكذلك أيضًا بالنسبة للحقوق المتعلقة بالمخلوقين، مثل: الدُّيون، والْمَظالم، فيوصي ورثته أو مَنْ يلي تنفيذَ الوصية من ورثته وقرابته أن يحلِّلَه أو يبيحَه ممن ظلمه، فإن كان لأخيه عنده مظلمةٌ بَيَّنَها، وسأل ورثتَه أن يطلبوا منه الْمُسامحة، وأن يجعلَه في حِلٍّ من حقه ومظلمته.

وهي وصية النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- للمسلم في حال حياته، **ويتأكد ذلك:** عند خروجه من الدُّنيا، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مشيرًا إلى هذا الْمَعنى: ((**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ لا يَكُوْنَ دِيْنَارٌ وَلا دِرْهَمٌ**)).

فالوصية فيها خيرٌ عظيمٌ، يتدارك الإنسان بها ما فاته.

وكذلك أيضًا ينال بها الأجرَ العظيمَ إذا أوصى بخيرٍ من بعد وفاته، **مثل:** أن يوصيَ ورثتَه بتقوى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ويأمرهم بالْمَعروف، وينهاهم عن الْمُنكر، ويوصيهم بأعظم الوصايا وهي الوصية بالدِّيْن، والتَّمسُّك بحبل الله الْمَتين، فيوصيهم بتوحيد الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولزوم طاعته، والاستقامة على محبته ومرضاته، وترك الحُرُمات، ونحو ذلك من الوصايا النَّافعة.

ولا شكَّ أنَّ الوارث ومَنْ يخلُفُ الْمَيت يتأثَّرُ بما يُكتَبُ له، وبما يوصيه فيه الْمَيِّتُ. وإن كانت هذه الوصايا في الأصل قد وصَّانا الله -عَزَّ وَجَلَّ- بها، ولكنه حينما يوصيه يشحذ همتَه ويحركه للمتابعة، ولزوم شرع الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فإنَّ في ذلك موعظةٌ بليغةٌ. الوصايا ينال الإنسان بها الأجر، **مثل:** أن يوصي بالصَّدقات والقُرُبات والإحسان إلى الضُّعَفاء والبُؤساء ونحو ذلك من الْمُحتاجين من فقراء الْمُسلمين، فيصله الأجر بالصَّدقة الجارية من بعد موته، فهذا كله خيرٌ عظيمٌ.

ولذلك تعتبر الوصية رحمةً من الله بالعباد، ويتدارك النَّاس بها الخير الكثير، ويدركون بها الأجرَ العظيمَ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وكم من ميِّتٍ مات من سنين، بل منهم من مات من قُرُونٍ، وما مات

من ألسنة النَّاس بذكره الطيب، وما خلَّف من الْمَآثر الحميدة، والوصايا الْمَجيدة التي بقيتْ من بعده سببًا في ذكره بالجميل، والتَّرحُّم عليه، ونحو ذلك مما يناله الإنسان من عاجل البشرى من النَّاس من صالح الدَّعوات.

مَنْ جَادَ سَادَ وَأَحْيَا الْعَالَمُوْنَ لَهُ بَدِيْعَ حَمْدٍ بِمَدْحِ الْفِعْلِ مُتَّصِلِ

فالوصية إذا كانت قائمةً على طاعة الله ومحبة الله، فإنَّها فيها الخير العظيم للحيِّ والْمَيتِ. كانت الوصية في أول الإسلام واجبة، وهذا قبل الفرائض التي بيَّنَها الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في كتابه، وسنة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وقبل بيان الْمَواريث ونصيب كل وراثٍ، فكانت آيةُ الوصية أصلاً في وجوبها؛ لقوله تعالى: **{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ}**.

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ}، **{كُتِبَ}**: بمعنى فُرِضَ، فكانت فريضةً واجبةً، ثم نسخت هذه الفرضية، **واختلف العلماء** -رَحِمَهُ اللهُ- **في النَّاسخ لها:**

قال عبدالله بنُ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((نسخَها قولُه تعالى: **{لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ}**)).

وقال عبدالله بنُ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**نسختْها آيةُ المواريث**))، وهو مذهب الجمهور، قال به مجاهد بن جبر، وطاووس بن كيسان، وغيره من أئمة التفسير، وهو مذهب الجمهور، أنَّ فرضية الوصية نسخت بآية الْمَواريث، ولذلك قال عبدالله بن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**إِنَّ اللهَ أعطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ مِنَ التَّرِكَةِ**)).

وفيه حديث أبي أُمَامَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، **وقيل**: إنَّ الأصل في الحديث: ((**لا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**))، وأدرج قوله: ((**إِنَّ اللهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ مِنَ التَّرِكَةِ**)).

ونُسخت هذه الفرضية في قول بعض أئمة العلم بالسُّنَّة في قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**)) وهذا عند من يقول بنسخ القرآن بالسُّنَّة، وهو مذهبٌ صحيحٌ؛ أنَّ السُّنَّة تنسخ القرآن، وتُقيِّدُ مطلقَه، وتُخصِّصُ عمومَه، وتُبَيِّنُ مجملَه.

وأقوى الأقوال أَنَّهَا نسختها آية الْمَواريث، **مثل**: قوله تعالى: **{يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}**، نسخت آية الوصية، فأعطى اللهُ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه من التركة، ثم بعد ذلك بقيت الوصية مستحبةً لغير الوارثين، **مثل**: أن يكون له أبناء عمٍّ أو أبناء عمومه ونحوهم من الْمُحتاجين، أو يكون هناك من ذي الرَّحم، كأخواله، وأبناء أخواله، فيوصي لهم بشيءٍ يصل به الرَّحم، وينال به أجرَ

الوصية.

وهي مستحبةٌ على هذا الوجه أنْ يوصيَ لغير الوارث.

وإذا أراد أنْ يتصدق بالثُّلُث أو بما دون الثُّلُث فإنَّه يبدأ بأقرب النَّاس إليه؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا سأله الصَّحابيُّ، وقال: عندي دينارٌ، قال: ((**أنفِقْهُ على نفسِك**))، قال: عندي غيره، قال: ((**أنفِقْهُ على أهلِك وولدِك**)) أي من تلزمك نفقته، قال: عندي غيره، قال: ((**أنفِقْهُ على ذي رحِمك وقرابتِك**)) قال: عندي غيره قال: ((**شأنَكَ به**)).

فمعنى ذلك أنَّه يبدأ بأقرب النَّاس إليه، وتكون وصيتُهُ بماله للقرابة؛ لأنَّه إذا وصى للقريب غير الوارث كتب اللهُ له الأجرَ: أجرَ الصَّدقة، وأجرَ الرَّحم، كما في حديث زينبَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- حين استفتت رسول الله-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الصدقة على آل عبدالله -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ- قَالَتْ: ((**يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّكَ أَمَرْتَ الْيَوْمَ بِالصَّدَقَةِ، وَكَانَ عِنْدِي حُلِيٌّ لِي، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ، فَزَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ وَوَلَدَهُ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **صَدَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ، زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ بِهِ عَلَيْهِمْ**))، فبقيت الوصيةُ مستحبةً لغير الوارثين، ويبدأ كما ذكرنا بقرابته، ثم بعد ذلك شأنه بعموم النَّاس، **مثل**: أن يوصي بالأعمال الصَّالحة والصَّدقات الجارية.

ومن أفضل ما تكون الوصية: إذا كانت بعتق الرِّقاب كما في القديم،وإطعام القريب اليتيم والْمِسكين الْمُحتاج: **{فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ}** فمثل هذه الْمَواضع أجرُها عظيمٌ، وثوابُهَا كريمٌ، وهي الْمُقدَّمة في الصَّدقات؛ لِمَا فيها من عظيم الأجر والْمَثوبة في الحياة وبعد الوفاة.

والوصية أركانها أربعةٌ: الْمُوصِي، والْمُوصَى إليه، والْمُوصَى به، والصِّيغة التي تكون بها الوصية.

فأمَّا الْمُوصِي: فإجمالاً هو (**الشَّخصُ المكلفُ البالغُ العاقلُ المختارُ**).

فلا تصحُّ الوصية من الْمَجنون والسَّكران والنَّائم.

وأمَّا ضعيفُ العقلِ: لو أنَّ رجلاً ضعُف عقله وإدراكه، ولكن بقي معه التَّمييز، بحيث يعقل الكلام الذي يقوله في وصيته، فإنَّه إذا كان عنده عقل يعقل الكلام الذي يقوله في وصيته، وضبط الوصية، فإنَّه تنفذ وصيته، وتصحُّ.

وقد نبَّه على ذلك بعضُ أئمة السَّلف، كما نبَّه عليه غير واحد -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّه لو كان كبيرًا في السِّنِّ، لكن عنده تمييزٌ، حتى ولو كان يغيب أحيانًا ويعود له عقله أحيانًا، وعاد له، وضبط ما يقول،

وكان كلامه متزنًا في وصيته، فإنَّه تنفذ وصيته ويعتد بها.

وأمَّا بالنِّسبة لمن كان غير عاقلٍ: كأن يكون في حال سُكْرِه، ويوصي بشيء بعد موته، أو مُخَدَّر ونحو ذلك، فهذا لا تنفذ وصيته.

وأمَّا الصَّبي: فاستثنى بعضُ العلماء الصَّبيَّ إذا كان مميزًا، فقال بصحة وصيته.

والجمهور على أنَّه لا بد أن يكون الْمُوصِي بالغًا.

ويشترط أن يكون مختارًا: فلا تصحُّ الوصية بالإكراه، فلو هدَّدَهُ شخصٌ، أو أحرجه جماعةٌ تحت الضَّغط والأذية والإضرار أنْ يوصيَ بشيءٍ، وفعله كرهًا بغير اختيارٍ، وتوفرت فيه شروط الإكراه فإنَّه لا تصحُّ هذه الوصية ولا تنفذُ؛ لأنَّ الله أسقط بالإكراه قول الْمُكلف، فقال سبحانه:

{إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ} فأسقط اللهُ الرِّدة وهي أعظم الأشياء، ولم يُؤَاخذ بها في حال الإكراه، فدل على أنَّ ما دونه من باب أولى وأحرى.

وأمَّا الْمُوصَى به: فالْمُوصَى به فإنَّه يكون بالْمَال، وبغير الْمَال.

فيوصي بغير المال مثل: أن يقول: (وأوصي ابني الأكبر أن يكون وليًّا على إخوانه، وأن يحسن إلى إخوانه وأخواته) أو (أوصي ابني الأكبر أن يكون قيِّمًا على أولادي الأيتام حتى يبلغوا سنَّ الرُّشد)، فهذه وصيةٌ بغير الْمَال.

وتكون الوصية بالمال، مثل: أن يقول: (أوصي بربع مالي صدقة على الفقراء والضُّعفاء والْمَساكين ونحو ذلك).

وهذه الوصايا سواءً على كانت بالْمَال، أو غير الْمَال، إذا قام بها الورثة من بعد موت مورثهم **فإنَّه يكتب اللهُ لهم الأجر مرتين:**

يكتبُ اللهُ لهم أجرَ برِّه، خاصة إذا كان من الآباء والأمهات.

ويكتبُ اللهُ لهم أجرَ العملِ نفسه، فالعمل لو صدر من الإنسان كتب له ذلك، ولكنه إذا صدر بناءً على وصية أبيه وأمه كُتِبَ الله له أجر العمل، وأجر الوصية.

وإذا وصى الْمَيت بصدقةٍ من أموال ونحو ذلك، فقام أبناؤه من بعده أو الولي من بعده، فأوصل الحقوق على أصحابها، ونفَّذها على وجهها، فإنَّه يكتبُ اللهُ له الأجرَ مثل أجرِ مَنْ تصدَّق كما تقدم معنا، وأشار إلى ذلك النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حينما بَيَّنَ: ((**الْخَازِنُ الْأَمِينُ الَّذِي يُؤَدِّي مَا أُمِرَ بِهِ طَيِّبَةً نَفْسُهُ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقِينَ**)).

فهذا الْمُوصَى إليه إذا قام بالوصية على وجهها، وأدَّى ما عليه، فإنَّ الله يكتبُ له أجرَه، ويشاركُ الْمُوصِي في ذلك الأجر، وتلك الْمَثوبة.

وأمَّا بالنسبة للمُوصَى إليه: فتصحُّ الوصيةُ للكلِّ، للصَّغير والكبير، والذَّكَر والأنثى.

ويصحُّ أنْ يُوصِي للجنين في بطن أمِّهِ **في قول طائفةٍ من أهل العلم** -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وعلى كل حالٍ، من حيث الأصل تقوم الوصية على هذه الثَّلاثة الأركان.

أمَّا الصيغة وهي الرُّكن الرَّابع: فهي قائمةٌ على الإيجاب والقبول.

الإيجاب: من الْمُوصي، **والقبول:** من الْمُوصى إليه.

بيَّن الْمُصنف -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذه الترجَمة أنَّه سيذكر هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الْحَثِّ والْحَضِّ على الوصية.

والأصلُ في ذلك: هذا الحديث، حديث عبدالله بن عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، وله ألفاظٌ، وأصلُهُ في الصَّحيح: ((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيْتُ لَيْلَتَيْنِ، لَهُ شَيْءٌ يُرِيْدُ أَنْ يُوْصِي فِيْهِ، إِلاَّ وَصِيَّتُهُ مَكْتُوْبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ**)).

وقدَّم الْمُصنف هذا الحديث؛ لأنَّ بعضَ العلماء يرى أنَّ الوصيةَ واجبةٌ، ولا زالت واجبةً.

ويَحتجُّ: بظاهر آية البقرة: **{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ}**، وهذا الحديث حديث عبدالله بن عمر.

والصَّحيح أنَّ الوصية ليست بواجبةٍ، وهو مذهبُ الحنفية والْمَالكية والشَّافعية والحنابلة، وجمهورُ السَّلف والخلف -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّ الوصيةَ مستحبةٌ، وليست واجبةً.

ولا تجبُّ إلا إذا كانت على الإنسان حقوقٌ، وكان أهلُ الحقوق ليست عندهم بِيِّنَةً يثبتون بها حقوقَهم.

أمَّا إذا لم تكن عليه حقوقٌ: فإنَّه إن شاء أوصى، وإن شاء لم يوصِ، لا تلزمه الوصية.

والاستدلال بالآية على الوجوب: ضعيفٌ؛ لأنَّ الآيةَ -كما ذكرنا- منسوخةٌ.

وأمَّا بالنِّسبة لحديث الباب: ((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ**)) فإنَّه مقيَّدٌ وليس بمطلقٍ؛ لأنَّ قوله: ((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيْتُ لَيْلَتَيْنِ، وَلَهُ شَيْءٌ يُرِيْدُ أَنْ يُوْصِي بِهِ**)) فهو مقيَّدٌ، والقولُ بالوجوب مطلقٌ، ولا يصحُّ الدَّليلُ الْمُقيَّدُ حجةً وإثباتًا للدَّعوى الْمُطلقة، بل ينبغي أن يكون دالاً على الدَّعوى بتمامها وكمالها.

ونحن نسلم بما دلَّ عليه الحديث؛ لأنَّ الحديث دلَّ على أنَّ من كان عليه حقٌّ لإخوانه المسلمين أنَّ

عليه أن يكتب في وصيته، **مثل**: أن يستلف من شخصٍ، أو يقترض من شخصٍ دَينًا، ولا يكتب هذا الدَّين، ولا يشهدون على هذا الدَّين، ويخاف أنَّه إذا مات أنَّ الورثة لا يوصلون هذا الدَّين، فيجب عليه أنْ يكتبَ: (أنَّ لفلان عليَّ مئة رِيالٍ أو ألف رِيالٍ أو ألفين ونحو ذلك) حتى يبرئ ذمته، وحينئذٍ تكون الوصيةُ واجبةً عليه في حالٍ مخصوصٍ، فهي مقيَّدةٌ.

وبناءً على ذلك، **أصحُّ القولين** -والعلم عند الله- القول باستحباب الوصية.

ومِمَّا يقوِّي ذلك: أنَّ الصَّحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- لم يكتبوا ولم يوصوا، توفي بعضهم ولم يوصِ، ولو كانت الوصيةُ واجبةً لأوصوا.

وبناءً على ذلك تبيَّنَ أنَّ الآيةَ منسوخةٌ، والحديث لا يدلُّ على الوجوب.

إذا ثبت هذا، فالْمُستحب أنَّ الإنسانَ يوصي، لكن حديثنا: ((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ**)) من جهة الحزم والاحتياط وإبراء الذمة.

((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ**)): عامٌّ شاملٌ لِمَنْ كان يخاف الْمَوت، **مثل**: الْمَريض مرض الْمَوت، أو مَنْ كان في صحته وقوته.

في الحديث قوله: ((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ**)) عامٌّ، يشمل جميع هذه الأصناف من النَّاس، ولا يختصُّ بِمَنْ كان مريضًا مرض الْمَوت، بِمَنْ يخاف الْمَوت.

وبناءً على ذلك، كل مَنْ عليه حقٌّ، سواءً كان في تمام صحته وعافيته، أو كان يخاف الْمَوت، مثل مريض مرض الْمَوت، يجب عليه أن يكتب الوصية.

لا يشترطُ كتابةُ الوصية: الوصيةُ لا يشترط أن تكونَ مكتوبةً؛ لأنَّها قائمةٌ على اللَّفظ.

فلو أنَّ شخصًا قال: (أعطوا فلانًا من قرابتي -وكان غَيْرَ وارثٍ- أعطوه بعد موتي مئة رِيالٍ)، ثم توفي.

نقول: هذه وصيةٌ، ولا يشترط أن تكونَ مكتوبةً.

لكن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**إِلاَّ ووَصِيَّتُهُ مَكْتُوْبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ**)) هذا أبلغ في الحفظ؛ لأنَّه إذا كتبها رجع إليها الورثة، والْمَكتوب أبلغُ في الحفظ، بخلاف الذي يكون غير مكتوبٍ، لذلك بين النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ الوصية تكون بالكتابة.

أمَّا من حيث الأصل: فإنَّ الوصية تكون باللفظ، وعمادُها اللفظُ، فإذا تلفَّظَ الإنسانُ ولَمْ يكتبْ فهذه وصيةٌ.

وقولُهُ -عَلِيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ**)) الوصية تصحُّ من الْمُسلم والكافر، ولذلك

لو أن كافراً أوصى لِمُسلمٍ صحَّتِ الوصيةُ، لأنَّ هذا ليس من باب التَّوريث، لأنَّ الْمُسلم لا يرث الكافر بالنِّسبة للورث، أمَّا الوصية فشأنُهَا غير شأن الورث **في قول طائفةٍ من العلماء**-رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وأمَّا من حيث الأصل في قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيْتُ لَيْلَتَيْنِ**)) قالوا: إنَّ هذا الْمُراد به التَّعجيلُ، وليس الْمُرادُ به عينَ الليلتين، قَصَدَ من ذلك النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الْحَثُّ والْحَضُّ، فلا مفهومَ لقوله: ((**يَبِيْتُ لَيْلَتَيْنِ**)).

((**وَلَهُ شَيْءٌ**)): أي عليه شيءٌ، (**اللام**) بِمعنَى (**على**)، ومنه قوله تعالى: **{ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** أي على مَنْ لَمْ يكنْ أهلُهُ حاضري الْمَسجد الحرام.

فقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**وَلَهُ شَيْءٌ**)) أي وعليه شيءٌ.

((**يُرِيْدُ أَنْ يُوْصِي بِهِ**)): هذا الْمُراد به الحقوق، حقوق الله -عَزَّ وَجَلَّ-، **مثل**: ما ذكرنا، منها: أن يكونَ عليه حجُّ فريضةٍ، أو عمرةٌ واجبةٌ على القول بوجوبها، ولم يحجَّ، أو عليه حجُّ نذرٍ، فيكتب في وصيته هذا الحقَّ لله؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**فدينُ الله أحقُّ أن يُقضَى**))، فهذا دين الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فكما يكتب ديون الْمَخلوقين، فديون الله أحق بالكتابة والقضاء.

وكذلك أيضًا بالنسبة لحقوق المخلوقين، **مثل**: أن يكونَ عليه قرضٌ لشخصٍ، فيقول: (إنَّ لفلانٍ في ذمتي ألف رِيالٍ)، ونحو ذلك من الحقوق، فيكتبها ويبينها.

وقوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِلاَّ ووَصِيَّتُهُ مَكْتُوْبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ**)) يدلُّ على أنَّه ينبغي للمسلم أن يحرصَ على الوصية.

وقولُهُ: ((**مَكْتُوْبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ**)) هذا من باب القرائن التي تؤكِّدُ نسبةَ الوصية إلى الْمَيِّت، أنَّهَا توجد في فراشه، أو توجد في صندوقه، أو في مكتبه، ونحو ذلك مما يدلُّ، وهو ما يسميه العلماء بـ(**دِلالة الظَّاهر**) فهي من القرائن، أو توجد بخطِّ يدِهِ، ويكون خطُّه معروفًا، أو يكتبها، ويقول لشاهدين عدلين: (هذه وصيتي، ادفعها إلى ابني بعد موتي)، ونحو ذلك مما يدلُّ على توثيق الوصية وثبوتها.

قال المُصنف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ وَالرُّبُعِ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ أخبرنا جريرٌ عن عطاءِ بنِ السَّائِبِ عن أبي عبدالرحمن السُّلميِّ عن سعدِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: ((عادَني رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وأنا مريضٌ فقالَ: ((**أوصيتَ؟**)) قلتُ نعمْ، قالَ: ((**بكَمْ؟**)) قلتُ: بمالي كلِّهُ في سبيلِ اللهِ، قال: ((**فما تركتَ لولدكَ؟**)) قال: هُم أغنياءُ بخيرٍ، فقالَ: ((**أوصِ بالعُشرِ**))، قال: فما زلتُ أناقصُهُ حتىَّ قال: ((**أوصِ بالثُّلُثِ، والثُّلثُ كبيرٌ**)).

الشَّرْح:

ترجم الْمُصنف -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرجمة، والتي تتعلَّق بقدر الوصية.

وهذا الباب مناسبتُهُ لما قبله: ظاهرٌ، فإنَّه بعد بيان مشروعية الوصية، **يرد السُّؤال:** بكم يوصي الإنسان؟

وقد جاءت السُّنَّة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ببيان الحدِّ الذي لا يجوزُ لإنسان أنْ يزيدَ عليه من حيث الأصل، بل ينبغي عليه أن يراعيه كحدٍّ أعلى.

وهذا الحديث -حديث سعد بن أبي وقاصٍ- وقع من سعد-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حينما مرض وهو بمكة، فإنَّ النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لما أتى مكةَ دخل على سعدٍ يعوده وهو مريض.

والحديث أصلُهُ في الصَّحيح: ((**مَرِضْتُ، فَعَادَنِي النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لِي مَالٌ، وَلَيْسَ لِي وَارِثٌ إِلا ابنَةٌ، أَفَأُوْصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: لا**)).

وأمَّا الرِّواية التي معنا فإنَّها على لفظٍ آخر، ولفظُ الصَّحيح هو الْمُعتمدُ؛ لأنَّ الروايةَ فيه أصحُّ، وثبوتُهُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أظهرُ.

فسأل في هذه الرِّواية التي في الصَّحيح، أنَّه هو الذي عَرَضَ على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وقال: ((**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لِي مَالٌ، وَلَيْسَ لِي وَارِثٌ إِلا ابنَةٌ، أَفَأُوْصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: لا**)).

وهنا سأله النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وقال: ((**أَوْصَيْتَ؟**))، وعلى هذه الرِّواية من سؤاله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- لسعدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فيه دليلٌ على ما كان عليه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-

من تفقُّدٍ وتعهُّدٍ لأحوال أصحابه خاصةً في أمور الدِّين، وكان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- حريصًا على الخير للأمة، وظهر ذلك جليًا في كل ما صدر منه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- من سنته وهديه أنَّه حرص على الخير.

لذلك يقول العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-: في هذا دليلٌ على أنَّه ينبغي للعلماء ونحوهم مِمَّنْ يُقتَدَى بهم أنْ يتفقَّدُوا من حولهم، خاصةً في أمور الدِّين، فإذا كان الإنسان عنده عِلْمٌ، ودخل على مريضٍ في مرض الْمَوت سأله عن الأمور التي تتعلق بأحكام الْمَريض مرض الْمَوت، وسأله عن طهارته للصَّلاة ونحو ذلك، يتفقَّدُ هذه الأمور، ويبيِّنُ له حكم الله بما علم، وهكذا كان رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ، وكان من بعده الخلفاء الرَّاشدون، وكان مَنْ بعدهم أئمةُ الهدى -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وكم من مسائلَ وأحكامَ شرعيةٍ أُستُفيدت من مثل هذا، وبيَّن العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- بعض الْمَسائل بسبب التَّعهُّد والتَّفقُّد، بخلاف ما أصبح عليه كثيرٌ من النَّاس اليوم، وخاصةً مَنْ ينتسب إلى العلم من طلبة العلم وأهل العلم فإنَّهُم إذا زاروا النَّاس واستأنسوا معهم بالقِيل والقال، وتركوا هذه الأمور الْمُهمة، فالعالم وأهل العلم وطالب العلم إذا أُكرِم من النَّاس وزار النَّاس تفقَّدَهم في أمور دينهم؛ لأنَّه يُكرَم بسبب العلم، فينبغي عليه أن يقومَ بحق الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأن يفيَ لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وأن لا يضيّعَ هذا الحقَّ.

وأدركنا العلماء والْمَشايخ -رَحِمَهُمُ اللهُ- يقومون بمثل هذا، وكان الرَّجلُ إذا دخلَ فلاحظَ أمرًا من أمر الشَّرع نبَّه عليه، وأمر بما أمر اللهُ به، ونهى عمَّا نهى اللهُ عنه.

ولذلك باشره بالسُّؤال: ((**أَوْصَيْتَ؟**)) فهذا يدلُّ على الحرص، ما جاء ليجلس معه ليتفكَّهَ معه أو يدير الحديث في أمورٍ أخرى، وإنَّما حرص على سؤاله عمَّا يتعلَّقُ بأمور دينه.

وهكذا ينبغي على النَّاس أيضًا إذا زارهم العلماء وطلبة العلم أنْ يسألوا عن أمور دينهم، وأن يذاكروهم، وأن يستفيدوا، وأن يفيدوا الغير، فهذا كلُّهُ من توفيق الله -عَزَّ وَجَلَّ- للزَّائر والْمَزور، والدُّنيا لا خيرَ فيها إلا ما أعان على طاعة الله، وبلَّغ العبد مرضاة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

قال بعضُ العلماء في قوله تعالى: **{وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ}** قالوا: **{جَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ}** بالأمر بالْمَعروف والنَّهي عن الْمُنكر، فإنَّ الإنسانَ إذا صار أمَّارًا بالْمَعروف، ناهيًا عن الْمَنكر حيثما حلَّ، وحيثما نزل، عظُمت بركتُهُ، هذه من البركة التي يجعلها الله في العبد.

فإذا زار مريضًا مرض الْمَوت سأله عن الوصية، وتفقَّده، وقال له: (يا فلانُ إذا كانت عليك حقوق أو مظالم أوصِ بها، وردَّ الْمَظالم إلى أهلها، تفقدْ أمر دينك، وتداركْ دنياك بما يصلح آخرتك)، ويكون معه صادقًا، وهذه أمورٌ ليست فيها أذيةٌ للإنسان، وليس فيها ضررٌ، بل فيها حقُّ الله العظيم، وهكذا الْمُؤمنون يتراحمون، ومن رحمة الْمُؤمن بأخيه الْمُؤمن أنْ يذكِّرَه بالله -عَزَّ وَجَلَّ- وليس صديق الْمَرءِ مَنْ لا يصدقه، ومن هنا لَمَّا ضيَّع النَّاسُ هذا الحقَّ ضاعَتْ حقوقَ النَّاس، واللهُ سائلُك إذا كنتَ طالبَ علمٍ، ودخلْتَ على إنسانٍ جاهلٍ، وهناك أمورٌ يحتاج إلى تنبيهها ولَمْ تنبه، فإنَّه في ذمتك وأمانتك، وستسأل أمام الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن ذلك، ولا عليك من النَّاس، فأرضِ الله يرضيك، ويرضي عنك النَّاس، ابحثْ عن أداء الأمانة وتبليغها.

ولذلك حرص -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على ذلك فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أَوْصَيْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ**)).

((**أَوْصَيْتَ؟**)): سؤالٌ، أي هل أوصيتَ؟ وهذا يحتمل أنَّه قبل نسخ الوصية والأمر بها.

((**قَالَ: أَوْصَيْتَ؟**)): **والذي يظهر** أنَّه بعد نزول آيات الْمَواريث؛ لأنَّ قوله: ((**وَلَيْسَ لِي وَارِثٌ إِلا ابنَةٌ**)) فهذا يدلُّ على أنَّ آيات الْمَواريث قد نزلت.

وبناءً على ذلك يكون قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أَوْصَيْتَ؟**)) يدلُّ على أنَّه إذا كان هناك فضلُ خيرٍ على الإنسان أنَّه يحرص على الوصية، وكان لسعدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- خيرٌ.

((**قَالَ: بِكَمْ؟ قَالَ: بِمَالِي كُلِّهِ فِي سَبِيْلِ اللهِ**))، ((**بِكَمْ**)): أي بكم أوصيتَ؟ وهذا يدلُّ على مشروعية التَّفقُّد والْمُتابعة في السُّؤال، وليس هذا من التَّكلُّف.

((**فَقَالَ: بِكَمْ؟**)): لأنَّ هناك أحكامًا شرعيةً تتعلَّقُ بقدر الوصية، فسأله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**بِكَمْ أَوْصَيْتَ؟**))، فقال: ((**بِمَالِي كُلِّهِ فِي سَبِيْلِ اللهِ**)) أي أوصيت بمالي كله في سبيل الله، فهذا يدلُّ على فضل سعدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- الذي قال له النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**))، وقال: ((**هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ**)) -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-؛ لأنَّه من بني زُهْرَة، وكان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- به حفيًّا.

فقال: ((**بِمَالِي كُلِّهِ فِي سَبِيْلِ اللهِ**)) -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- كانت الدُّنيا أحقرَ من أن تحولَ بينهم وبين مرضاة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وإذا قيل: ((**فِي سَبِيْلِ اللهِ**)) الْمُراد به الجهاد في سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لأنَّه إذا أطلق: ((**فِي سَبِيْلِ اللهِ**)) في الكتاب والسُّنَّة فإنَّه ينصرف في الأصل والغالب إلى الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروةُ سنام الدِّين، ومن أحبِّ الطاعات، وأعظم القُرُبَات لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فقال: إنَّه أوصى بماله كله في سبيل الله.

ويحتمل قوله: ((**فِي سَبِيْلِ اللهِ**)) أي في سبيل الخير والطَّاعة؛ لأنَّ سبيل الخير والطَّاعة هو سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ-، يحتمل الوجهين، **والأولُ أظهرُ**.

((**قَالَ: فَمَا تَرَكْتَ لِوَلَدِكَ؟ قَالَ: هُمْ أَغْنِيَاءُ بِخَيْرٍ**))، قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**فَمَا تَرَكْتَ لِوَلَدِكَ؟**)) سؤالٌ فيه إنكارٌ على سعدٍ أنَّه أوصى بماله كله، وترك ورثته.

وهذا يدلُّ على مسائل:

منها أنَّ الشَّريعة تقدِّم القريبَ على غير القريب، ولذلك قال: ((**مَا تَرَكْتَ لِوَلَدِكَ؟**)).

وتقديمها للقريب على البعيد أصلٌ صحيحٌ؛ لأنَّ الإنسان ينبغي أن يبدأ بالنَّفع لأقرب النَّاس إليه قبل الأبعدين، وهذا ميزانُ عدلٍ وقسطٍ، أنَّ الإنسان إذا أراد أن يتصدق، أو يفعل الخير يبدأ بالقرابة.

وقد عَمِيَ كثيرٌ من النَّاس عن هذا الأصل، فتجده إذا أراد الخير تجده أول ما يفكر في أبعد النَّاس عنه، وتجد في قرابته من الْمُحتاجين الذين هم أحوجُ ما يكونون إلى الصَّدقة، بل بعضهم قد يستحقُّ الزَّكاة، ولا يعطيهم، وإذا أراد أن يعطيَهم دقَّقَ في أمورهم، حتى إنَّه لا يعطيهم الشَّيء ذي البال، بسبب ضياع هذا الحق، والشَّيطان حريصٌ على إبعاد النَّاس عن القرابة؛ لأنَّه يعلم أنَّ مَنْ وَصَلَ القريب وَصَلَهُ اللهُ، وأنَّ مَنْ قَطَعَ القريبَ قَطَعَهُ اللهُ، قال: ((**إِنَّ أَولَّ مَا خَلَقَ اللهُ الرَّحِمُ تَعَلَّقَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، وَقَالَ: مَهْ؟ قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيْعَةِ، قَالَ: أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَنْ أَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ فَرَضِيَتْ بِذَلِكَ**)).

فالشَّيطان يعلم أنَّ صلةَ القريب بالزِّيارة، وبالدَّعوة للمناسبة، للوليمة، بالوصية إليه، بالصَّدقة عليه والزَّكاة عليه، أنَّ الأجرَ فيها عظيمٌ، فيحول بين الإنسان وبين ذلك.

فتأَمَّلْ رسولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كيف يعتب على سعدٍ أنَّه نَسِيَ القرابةَ، وهذا يدلُّ على أنَّه ينبغي على من أراد الخير أن يبدأ أول ما يبدأ بالقرابة.

حتى أنَّ شريعة الله -عَزَّ وَجَلَّ- قامت على هذا الأصل في أعظم الأمور، وهو الدَّعوة إلى الدِّين، حيث قال سبحانه: **{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}**، وهذا يدلُّ على عظم حق القرابة على الإنسان.

فسأله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فقال له: ((**فَمَا تَرَكْتَ لِوَلَدِكَ؟**)) أيُّ شيءٍ تركته لولدك، وهذا يدلُّ على أنَّ القريب له حقٌّ، وأنَّ الولدَ أقربُ الأقربين، وآكدُهم حقوقًا.

ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في الحديث الصَّحيح: ((**إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيْبُنِي مَا رَابَهَا، وَيُؤْذِيْنِي مَا آذَاهَا**))، فولدُ الإنسان من الإنسان، ولذلك تجد في حِكَمِ العرب والقُدماء والأولين أنَّهم كانوا يرون أذية الولد كأذية الوالد، وإهانة الولد كإهانة الوالد، فالولدُ قِطعةٌ من والده، ولذلك قال له: ((**مَا تَرَكْتَ لِوَلَدِكَ؟**)) أيُّ شيءٍ تركته لولدك، وهذا يدلُّ على أنَّه ينبغي للمسلم أن يبدأَ بأقرب النَّاس إليه وهو ولده، فيترك لهم الحقَّ الذي جعله الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لهم وافرًا على أتم الوجوه وأكملها.

هذا الْمَعنى جاء في رواية الصَّحيح: ((**إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ لَكَ مَنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**)).

ولذلك تجد الآن بعض النَّاس يريدُ أنْ يتصدَّقَ للغير، وابنُهُ يحتاجُ، فيقول: (ابني ليس بحاجة)؛ لأنَّه ينظر إلى شدة حاجة البعيد، مع عدم مراعاته لفضل الصَّدقة على القريب، والْمُنبغي أنْ يعطيَ القريبَ حقَّه، ويعطيَ البعيدَ أيضًا حقَّه؛ حتى يصيبَ الحُسنيين، ويتبعَ سنةَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديه في ذلك.

((**قُلْتُ: هُمْ أَغْنِيَاءُ بِخَيْرٍ**))، فقال سعدٌ: ((**هُمْ أَغْنِيَاءُ بِخَيْرٍ**)) يعني أنَّهم لا يحتاجون، وهذا يرجع إلى أنَّهُم في حياته أعطاهم شيئًا فأصبحوا أغنياء، فعهد بالْمَال الذي أوصى به من بعد موته أن يكون لغيرهم؛ لأنَّهُم أغناهم في حياته.

((**قَالَ: أَوْصِ بِالْعُشْرِ**)): وهذا من أقلِّ ما يوصى به، العُشر، وهذا بالنِّسبة إلى النِّسَب من واحد إلى عشرة، فهو أقلُّ النِّسَب، العشر.

((**فَمَا زِلْتُ أُنَاقِصُهُ حَتَّى قَالَ: أَوْصِ بِالثُّلُثِ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**))، ((**فَمَا زِلْتُ أُنَاقِصُهُ**)): أي أنني أطلب ما هو أقل، وما هو أكثر في الوصية، لأنَّه إذا أوصى بالعُشر بقي التِّسعة الأعشار.

((**فَأُنَاقِصُهُ**)): أي أناقصه من التِّسعة الأعشار، وليس من العُشر، إنَّما يناقصه من التِّسعة الأعشار؛ لأنَّ الْمُناقصة للأكثر ((**فَمَا زِلْتُ أُنَاقِصُهُ**)) أي أنَّه يردِّدُ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وفيه مشروعية الْمُراجعة إذا كانت على وجهٍ ليس فيه محظورٌ شرعيٌّ.

((**حَتَّى قَالَ: أَوْصِ بِالثُّلُثِ**)): حتى قال: أوص بالثلث.

((**وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)): وهذا معنى قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الصَّحيح قال: ((**أُوْصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: لا، قَالَ: بِنِصْفِهِ؟ قَالَ: لا، قَالَ: بِثُلُثِهِ؟ قَالَ: الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)).

قولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)) **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: أنَّه يُسمَحُ لإنسان أنْ يوصيَ في حدود الثُّلُث، ولا يجوز له أنْ يتجاوزَ الثُّلُثَ من حيث الأصل؛ لقولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)) من حيث الأصل، **وأمَّا إذا أوصى بما فوق الثلث:** كأَنْ يوصيَ بنصف الْمَال، أو بثلثي الْمَال، **فإنَّه يُنظر فيه:**

إنْ رَضِيَ الورثةُ وأجاز الورثةُ: نفذت الوصية.

وللعلماء وجهان: هل هي صحيحة في الأصل، ويكون إذن الورثة تنفيذًا، أم أنَّها باطلة في الأصل ويكون إذن الورثة إنشاءً؟

وهذا يترتَّبُ عليه فوائدُ محلُّها الْمُطولات في الفقه؛ لأنَّنا إذا قلنا: أنَّه ابتداءً فله حُكمٌ، وإذا قلنا: إنَّه استدامةٌ، له حُكمٌ آخر.

المسالة الثَّانية: أنَّ الأفضلَ أنْ ينقصَ عن الثُّلُث، وألا يبلغَ الثُّلُث؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)).

ولذلك قال ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: "لو أنَّ الناس غَضُّوا من الثُّلُث؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**))".

وهذا هو الذي جرى عليه العمل عند الصَّحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- فيما أُثِرَ عن بعضهم: كأبي بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- قال: (رَضِيْتُ لِنَفْسِي بِمَا رَضِيَ اللهُ بِهِ)، يعني قوله تعالى: **{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ}**، فأوصى بخمس الْمَال.

وعن عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مثله أنَّه قال: (**خُمُسُ المَالِ أحبُّ إليَّ من الرُّبُعِ**).

وقال إبراهيمُ النَّخعيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: (كانوا يرون أنَّ الرُّبُعَ أحبُّ مِنَ الثُّلُثِ، وأنَّ الخُمُسَ أحبُّ من الرُّبُعِ) أي أنَّهُم كانوا يرونه يعني السَّلف ومَنْ أدرك -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ- من سلف الأمة، وهذا يدلُّ على أنَّ الأفضل ألا يبلغ الثلث.

فالصَّحابة أُثِرَ عن **بعضهم** كما ذكرنا عن أبي بكرٍ، وعَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّهُم يرون أنْ تكونَ الوصيةُ بالخمس، **ومنهم** من يرى الربع.

والأمر في هذا واسعٌ، وإنَّما الحديث دلَّ على أنَّه أنْ يوصيَ إلى الثُّلُث، ما زاد عن الثُّلُث هذا يعبر

عنه العلماء أنَّه إذا وصى بما زاد عن الثلث فهو محجورٌ عليه، يعني وصيته لا تنفذُ إلا بإجازةٍ من الورثة، ولذلك يرونه نوعًا من أنواع الحَجْر، فهو حَجْرٌ خاصٌّ، قال:

وَزَوْجَةٌ فِي غَيْرِ ثُلْثٍ تُعْتَرَضْ كَذَا مَرِيْضٌ مَاتَ فِي ذَاكَ الْمَرَضْ

فدل على أنَّ ما زاد عن الثُّلُث يُحجَرُ على الإنسان فيه، ويُوقَفُ على إجازة الورثة، والأفضلُ ألا يبلغ الثلث.

المسألة الثَّالثة: في قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)) رحمةٌ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بالعبد أنَّه تصدَّق عليه بثُلُث ماله، وجعل له الثُّلُثَ يتصدَّقُ به، وينال به الأجرَ والخيرَ والْمَثوبة، وهذا فضلٌ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وقد يكون الثُّلُث يساوي مالاً كثيرًا، فوسَّع اللهُ على عباده بهذا.

المسألة الرَّابعة: قال بعضُ العلماء: يعتبر الثُّلُثُ حدًّا فاصلاً بين القليل والكثير، وهو الذي دَرَجَ عليه الْمَالكيةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، أخذ الإمامُ مالكٌ -رَحِمَهُ اللهُ- من قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)) أنَّ الثلث فيصلاً ما بين القليل والكثير، وما بين الْمَعفوِّ وغير الْمَعفوِّ،

فمثلاً: إذا تُسُومح في القليل في يسير الشَّيء، وأراد الْمَنع من كثيره قال: بشرطِ ألا يبلغَ الثُّلُثَ، إذا بلغ الثُّلُثَ أَثَّرَ.

وهذا يطردُهُ عبادةً ومعاملةً:

فمثلاً: إذا كان الخفُّ مخرَّقًا، ولَمْ يصلْ إلى ثُلُثِه صحَّ الْمَسحُ عليه؛ لأنَّه إذا تُسُومح في التَّخريق وقلنا: أنَّه ما من خُفٍّ إلا وفيه أخراقٌ، خاصةً وأنَّ الصَّحابة كانوا يمشون على خفافهم، فلا يسلم من التَّخريق، فيقول: الأصل أنَّه يُعفى عن التَّخريق، لكن لو أخذنا بهذا الأصل عمومًا ربما تقطَّع الخفُّ، وكثُرتْ خروقُهُ، فيقول: الحدُّ عندي الثُّلُثُ.

وفي الْمَسح على الْمَواضع الْمُعتبرة في إحدى الرِّوايات عنه أنَّه يُعتدُّ بثُلُثِ الْمَوضع، وأنَّه إذا كان ما انكشف منه دون الثُّلُثِ فهو عفوٌ، وما بلغ الثُّلُثَ فلا.

وهكذا في المعاملات فمثلاً: في الْمُزارعة إذا كان الزَّرعُ تبعًا للنَّخل الْمَسقي، قال: يتسامح في الأرض البيضاء والأرض الْمَزروعة أنْ تكون تبعًا في السُّقْيَا للمزرعة، **بشرط:** ألا تبلغَ الثُّلُثَ.

فإذا كانت دون الثُّلُثِ: فإنَّه يتسامح فيها، وتتبعُ الأصلَ.

وإذا بلغت الثُّلُثَ: أخذَتْ حكمًا مستقلاً بها، وقِسْ على هذا، أنَّه طَرَدَ الثُّلُثَ، وجعله أصلاً

وفيصلاً؛ لقوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)).

قولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)) بيانٌ مَنْ أنَّ القدرَ وهو الثُّلُث أنَّه كثيرٌ وهذا الذي دفع الصَّحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِمْ- إلى استحباب الانتقاص والغضّ عن الثُّلُث.

وفي قولِهِ: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**)) يستوي في ظاهره أنَّ الوصيةَ تكون بالثُّلُث إذا كان عند الإنسان مالٌ كثيرٌ، وترك خيرًا.

أمَّا لو أنَّ شخصًا كانت عنده ستة آلاف رِيالٍ، أو تسعة آلاف رِيالٍ، والتِّسعة آلاف رِيالٍ في بيئته وزمانه لا تساوي الكثير، وعنده ورثةٌ كبنتين لهما الثُّلُثان، وأراد أنْ يوصيَ بالثُّلُث، فإنَّه يقال له: الأفضلُ أنْ تردَّهُ إلى الورثة؛ لأنَّ الوصيةَ في حال وجود الخير كما قال تعالى: **{إِنْ تَرَكَ خَيْراً}** الآن عندك بعض النَّاس يترك **مثلاً**: ألف رِيالٍ، ويقول: أريدُ أنْ أتصدَّقَ بثُلُثها، فنقول: إنَّ الوصيةَ والصَّدقةَ إنَّما تفضل وتكون مستحبةً إذا كان الذي تركته خيرًا.

ولذلك جاء رجلٌ إلى أم الْمُؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- وقال: إنَّ لي أربعةَ آلافِ درهمٍ، ولي بنتان، وأريدُ أنْ أوصيَ بالألف، فقالت -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: أعطِ الْمَال كلَّه لابنتيك، ولم تَرَ له أنْ يوصيَ بشيءٍ، لا بثلثٍ، ولا بخمسٍ، وبربعٍ؛ لأنَّه لَمْ يترك خيرًا، فالْمُهمُ أنْ يُنْظَرَ إلى الْمَال.

واختلف العلماء في حدِّ الخير:

حدَّه **بعض السَّلف** من الصَّحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِمْ- بأربعمائة درهم، **ومنهم** مَنْ حدَّهُ بسبعمائة درهمٍ، كابن عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، **ومنهم** مَنْ حدَّهُ بألف درهمٍ، كالإمام أحمد.

والصَّحيحُ أنَّه يختلفُ بحسب اختلاف الأزمنة، والأشخاص، والعصور، ولذلك ينظر إذا كان الْمَال الذي تركه يمكن أنْ يُوصفَ بأنَّه خيرٌ، يُقالُ له: أوصِ، وحينئذٍ ننظرُ فيما غضَّ عن الثُّلُث، أو بما قلَّ عن الثُّلُث، وهو الأفضلُ.

وأمَّا إذا كان الذي تركه لا يُوصف بكونه خيرًا، فالأفضلُ أنْ يتركَه للورثة، ولا يُوصي لا بخُمُسٍ ولا برُبُعٍ، ولا بثُلُثٍ.

قالَ أبو عبدِالرَّحمَنِ: ونحنُ نستحبُ أنَّ ينقصَ من الثُّلثِ؛ لقولِ رسولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**والثُّلثُ كثيرٌ**)).

الشَّرْح:

كما قال قبله حبرُ الأمة وترجمانُ القرآن عبدالله بنُ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: "لو غَضَّ النَّاسُ عَنِ الثُّلُثِ؛ فإنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ**))".

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن ابنِ عبَّاسٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ سعدٍ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وقد رُوِيَ من غيرِ وجهٍ، وقد رُوِيَ عنهُ: ((**والثُّلُثُ كَبِيرٌ**))، والعملُ على هذا عندَ أهلِ العلمِ لا يرونَ أنْ يُوصي الرَّجُلُ بأكثرِ من الثُّلثِ، ويستحبُّونَ أنْ ينُقصَ من الثُّلثِ.

الشَّرْح:

لا يرونَ أنْ يُوصي بأكثرِ من الثُّلثِ، هذا متفقٌ عليه، ويستحبُّونَ أنْ ينُقصَ عن الثُّلثِ، ولكن في حالة ماذا؟ إذا ترك خيرًا، إذا ترك مالاً كثيرًا.

قال سُفيانُ الثَّوريُّ: كانوا يستحبُّونَ في الوصيَّةِ الخُمسَ دونَ الرُّبعِ، والرُّبعَ دونَ الثُّلثَ، ومن أوصى بالثُّلثِ فلمْ يترك شيئاً، ولا يجوزُ لهُ إلاَّ الثُّلثَ.

الشرح:

ولا يجوز له من حيث الأصل، كلهم متفقون أنَّ الوصية في حدود الثُّلُث، وأنَّ ما زاد عن الثُّلُث ليس

من حقِّه في الأصل، لو قال: (أوصيتُ بثلثي مالي صدقةً للفقراء والْمَساكين) رُدَّ إلى الثُّلُث هذا أصلٌ متفقٌ عليه بين العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-، إلا أنْ يجيزَ الورثةُ، في قول جمهور أهل العلم-رَحِمَهُمُ اللهُ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي تَلْقِيْنِ الْمَرِيْضِ عَنْدَ الْمَوْتِ وَالدُّعَاءِ لَهُ عِنْدَهُ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أبو سلمةَ يحيى بنُ خلفٍ البَصريُّ أخبرنا بشرُ بنُ المفضَّلِ عن عمارةَ بنِ غزيَّةَ عن يحيى بنِ عمارةَ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ: ((**لقِّنوا موتاكُم: لا إلَه إلاَّ اللهُ**)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أبي هُريرَةَ، وأمِّ سلمةَ، وعائشةَ، وجابرٍ، وسَعدى المرّيَّة وهي امرأةُ طلحةَ بنِ عبيدالله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أَجمَعِينَ-.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ أبي سعيدٍ حدِيثٌ غَريبٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

ترجم الْمُصنف -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرجمة والتي تتعلَّق بتلقين الْمَيِّت، والْمُراد بتلقين الْمَيِّت تلقينه الشَّهادة، وهو قول (لا إلهَ إلا الله).

والسَّببُ الباعثُ إلى هذا التلقين: أنَّ من كان آخر كلامه من الدُّنيا: (لا إلهَ إلا الله) دخل الجنة، وهو من علامة حسن الخاتمة، أنْ يكونَ آخر ما يتكلَّمُ به الإنسانُ كلمةَ التَّوحيد، وآخر ما يخرج به من هذه الدُّنيا شهادة (أنْ لا إلهَ إلا الله).

وأجمع العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- على استحباب تلقين الْمَيِّت؛ بهذه السُّنَّة الصَّحيحة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وقد جعل اللهُ الْمُؤمنين كالجسد الواحد، يحبُّ بعضُهم بعضًا، ويرحمُ بعضُهم بعضًا، ويعينُ بعضُهم بعضًا على طاعة الله، وهذه الْمَحبة لا تزالُ قائمةً حتى في آخر حياة الإنسان، فيقف الأخُ مع أخيه في آخر وقفاته عند خروجه من هذه الدُّنيا؛ لكي يعينَه ويشدَّ من أزره، ويقويَه؛ حتى يقولَ هذه الكلمة، فيختم له بخاتمة السُّعداء، جعلنا اللهُ وإياكم منهم.

أمر -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- الْمُؤمنين أنْ يُلقِّنَ بعضُهم بعضًا (لا إلهَ إلا الله).

وقولُهُ: ((**لقِّنُوا مَوتَاكُم**)) ليس الْمُراد به الْمَيِّت حقيقةً؛ لأنَّ الْمَيِّتَ حقيقةً لا يلقَّن؛ وهذا من باب تسمية الشَّيء بما يؤول إليه، **ولذلك يُسمَّى الشَّيء:** بما يؤول إليه، ويسمى بما كان عليه.

يسمى بما كان عليه، كقولهم: (يتيمُ أبي طالب)، يصفونه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بما كان عليه قبل بلوغه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

وقوله تعالى: **{وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ}** أي الذين كانوا يتامى؛ لأنَّ اليتيمَ لا يُدفَعُ له الْمَالُ، هذا من باب تسمية الشَّيء بما كان عليه.

وتسمية الشَّيء بما يؤول إليه، كقوله: ((**لقِّنُوا مَوتَاكُم**)) أي الذين أوشكوا على الوفاة والْمَوت و((**مَوتَاكُم**)): الإضافة هنا تقتضي التَّخصيص؛ لأنَّ الخطاب للمؤمنين، الْمُراد بها الْمُؤمنين؛ لأنَّه إذا غرَّغر الكافرُ فإنَّه لا تنفعُهُ الشَّهادةُ، كما لا تنفعُ التَّوبةُ، فإنَّه إذا قال: (لا إلهَ إلا الله) كان تائبًا من الشِّرك، والتَّوبةُ لا تنفعُ في حال الغرغرة.

ومن هنا يُلَّقن: (لا إلهَ إلا الله) الْمُؤمن حتى يختم له بهذه الخاتمة السَّعيدة، فيخرج من الدُّنيا وآخر كلامه: (لا إلهَ إلا الله).

ويستحبون أنْ يكونَ الذي يُلَقِّنُ لطيفًا، يتعهَّدُ الْمَيِّت بطريقةٍ طيبةٍ، وطريقةٍ لا تزعجُهُ.

ومن هنا نصَّ بعضُ الأئمة -رَحِمَهُمُ اللهُ- والفقهاء على أنَّه إذا نزل بالإنسان أمر الله، وكان مريضًا مرض الْمَوت أنَّه يستحبُّ أنْ يليَ أمرَه مَنْ يحبُّ، ولذلك استأذن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- زوجاته أنْ يُمَرَّضَ عند أم الْمُؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، وهذا أصلٌ صحيحٌ؛ لأنَّه إذا كان يرتاح لأحدِ أبنائه أو بناته وهو أرفقُ به؛ فإنَّ هذا أدعى إلى الرفق بالْمَيِّت، فالذي يلي أمرَ الْمَيِّت هو الأمر عليه آكدُ.

وهكذا إذا زارَ الإنسانُ مريضًا، ونظر إلى حاله، وأنَّه نزل به أمرُ الله فإنَّه يتفقَّدُهُ.

ومَحلُّ التَّلقين: أنْ يكونَ آخر كلامه، يقول بجواره: (لا إلهَ إلا الله)، فيقول الْمَريضُ: (لا إلهَ إلا الله)، فإذا قال الْمَريض:(لا إلهَ إلا الله) يسكت عنه، فإذا تكلَّم بكلامٍ آخر، عاد وقال: (لا إلهَ إلا الله)، قال: (أسقوني) فيسقونه، فبعد أنْ يسقوه يقول له: (الحمدُ لله)، يعني قُلِ: الحمدُ لله، إذا قال: (الحمدُ لله)، يقول له: (لا إلهَ إلا الله) ونحو ذلك.

ولا يجلس يكرِّرُ حتى يملَّ الْمَريضَ أو يسأم، وإنَّما تكون في آخر الكلام، فإذا تكلَّم بكلامٍ بعدها تلطَّفَ معه، وجاء بشيءٍ لا يضايقُهُ ولا يزعجُهُ؛ لأنَّ العبدَ في هذه الحالة حالةٌ صعبةٌ، وحرجةٌ، وسكرات

الْمَوت عظيمةٌ، ونسأل اللهَ أنْ يلطفَ بنا جميعًا، وأنْ يرحمَنا برحمته وهو أرحم الرَّاحمين فالعبدُ إذا نزل به أمرُ الله يتخبَّطُهُ الشَّيطانُ، وتضعفُ النَّفسُ، ولكنَّ اللهَ يثبِّتُ الَّذِين آمنوا بالقول الثابت، ويتدارك اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بلطفه أولياءَه الذين استقاموا على طاعته، **{فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}**. فإذا قال كلامًا غريبًا تعاهدُهُ بقول: (لا إلهَ إلا الله)، فإنَّه مع شدة الْمَرض قد ينسى، ويسهو، **فالمرادُ من هذا التَّلقين**: أنْ يكون حالُهُ على أحسن الأحوال، ومآلُهُ بأفضل ما يكون عليه الْمَآل واللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- كريمٌ، وليس لكرمه منتهَى -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فأكرم العبدَ إذا قال هذه الكلمة، وكانت آخر كلامه من الدُّنيا بدخول الجنَّة: (**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلامِهِ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**).

وفيه دليلٌ على فضل هذه الكلمة، وعظيم ما أعدَّ الله لأهلها، وهي كلمةُ التَّقوى، ولها أهلٌ في هذه الدُّنيا، كما قال تعالى: **{وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}**، وهذا فضلٌ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فأهلُ: (لا إلهَ إلا الله) لا تزالُ تلهجُ بها ألسنتُهم، وتعملُ بمقتضاها جوارحُهم حتى يلقوا الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بها، فيكونوا من أهل السَّعادة.

وقد ثبت في الحديث الصَّحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَنَّهُ يُنْشَرُ لِلعَبْدِ تِسْعَةً وَتِسْعِيْنَ سِجِلاً، كُلُّهَا ذُنُوبٌ وَخَطَايَا، كُلُّ سِجِلٍ مِنْهَا مَدَّ الْبَصَرِ، فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي، هَلْ ظَلَمَتْكَ مَلائِكَتِي؟ فَيَقُولُ: لا، يَا رَبِّ، قَالَ: هَلْ تُنْكِرُ مَنْ هَذَا شَيْئًا؟ قَالَ: لا، يَا رَبِّ، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تُظْلَمَ الْيَوْمَ مِنْ عَمَلِكَ شَيْئًا، فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا تَفْعَلُ هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاتِ فَيَقُولُ اللهُ** تعالى: **إِنَّكَ لَنْ تُظْلَمَ الْيَوْمَ مِنْ عَمَلِكَ شَيْئًا**)) ، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**فَتُوْضَعُ الْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَتَطِيْشُ بِتِلْكَ الصَّحَائِفِ، وَإِذَا فِيْهَا: لا إلهَ إلا الله**))، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- : ((**وَلا يَثْقُلُ مَع اسمِ اللهِ شيءٌ**))، نسأل اللهَ أنْ يرزقَنا محبةَ هذه الكلمة، وأنْ يرزقَنا العملَ بها وتحقيقَها والقيامَ بحقوقها.

فهذا دليلٌ على فضل هذه الكلمة العظيمة، وما أعدَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- لأهلها، أهلُ: (لا إلهَ إلا الله) هم السُّعداء، الأولياء، الأتقياء، الأصفياء، الذين أكرمهم اللهُ بكرامة الدُّنيا والآخرة، ولذلك من أسعد النَّاس من أكثر من هذه الكلمة، يقولها الإنسانُ قائمًا وقاعدًا؛ لأنَّه لا يأمن الْمَوت أنْ يأتيَه على أي حالٍ.

فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِنْ مَرِيْضٍ عَاشَ حِيْنًا مِنَ الدَّهْرِ

فالْمَوتُ ليس بيد الإنسان فيه حِيلةٌ، ويأتيه فجأةً، ويأتي أمرُ الله فجأةً، فإذا كان لسانُهُ رطبًا بهذه الكلمة العظيمة نال بها خير الدُّنيا والآخرة.

وأجمع العلماءُ والأئمةُ على أنَّها أفضل الذِّكْر بعد القرآن، قول: (لا إلهَ إلا الله)، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**خَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلَهَ إِلا اللهُ**))، -فنسأل اللهَ بعزته وجلاله- أنْ يلزمَنا هذه الكلمة، وأنْ يجعلَنا من أهلها، تلهج بها ألسنتُنا، وتعمل بها جوارحُنا وأركانُنا.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا هَنَّادُ حدثنا أبو معاويةَ عن الأعمشِ عن شقيقٍ عن أمِّ سلمةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالت: قالَ لنا رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوِ الْمَيِّتَ فَقُولُوا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**)) قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَتَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ مَاتَ، قَالَ: ((**فَقُولِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ، وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عُقْبى حَسَنَةً**))، قَالَتْ فقُلتُ، فَأَعْقَبَنِي اللهُ منهُ منْ هو خَيْرًا منهُ، رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: شقيقٌ هو ابنُ سلمةَ أبو وائلٍ الأسديُّ.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ -: حديثُ أمِّ سلمةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

هذا الحديث وقع في دخول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على أبي سلمة لَمَّا قضى، وقُبضت روحُهُ، فدخل البيت فسمع فيه شيئًا من الفزع والخوف، فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا تَقُولُوا إِلا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ تُؤَمِّنُّ عَلَى مَا تَقُولُون**))، ثم قال: ((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِيْنَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِيْنَ، اللَّهُمَّ أَفْسِحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنوِّرْ لَهُ**))، ما أسعدَ أبا سَلَمَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-! ((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِيْنَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِيْنَ**)).

وهذه هي السُّنَّة أنْ تُقالَ هذه الدَّعوات الطِّيبات في مثل هذه الْمَواقف، وأصعبُ الْمَواقف في البلاء حين نزول البلاء، فإذا نزل البلاءُ بالإنسان، ففُجِع بالقريب، والحبيب، والصَّديق، والرَّفيق، فإنَّه يتذكَّرُ مَلِكَ الْملوك، وإلهَ الأولين والآخرين ، يتذكَّرُ مَنْ فيه عزاءٌ لكلِّ مُصابٍ، ولكلِّ مكلومٍ، ولكلِّ محرومٍ،

ففي الله عِوْضٌ عن كلِّ فائتٍ، ليس هناك للعبد شيءٌ يعطيه الله -عَزَّ وَجَلَّ- في هذه الدُّنيا مثل استغناؤه بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، فإذا استغنى بالله هانت عليه الْمَصائبُ، وذلَّتْ له الْمَتاعبُ، وآلَ بخيرٍ في دينه ودنياه وآخرته، مَنِ استغنى بالله -جَلَّ جَلالُهُ- جبر كسرَه، وأصلحَ اللهُ أمرَه، ونفَّسَ اللهُ كربَه، وأذهبَ الله همَّه، ويظهر هذا التَّسليم والتَّصديق والإذعان حينما يعلمُ الْمُؤمن أنَّه لن يقعَ في هذه الدُّنيا شيءٌ إلا بأمر الله، وأنَّه لن يكونَ إلا بقضاء الله وقدره، وأنَّه ممتحنٌ ومبتلًى، فإذا دخل فقيل له: (أبوك مات، وأمُّك ماتت، وأختُك، وبنتُك، وعمتُك، وخالتُك وصديقُك، وفلانٌ)، قال: **(إنَّا لله وإنَّا وإليه راجعون)**، **(إنَّا لله)**: ملْكٌ لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

(وإنَّا إليه راجعون): لأنَّه يعلم أنَّه ما مات الصَّديق، ولا مات القريب، ولا مات الحبيب، إلا بقضاء الله وقدره، فيقول هذه الكلمة التي تفتح لها أبواب السَّماوات، إذا قال العبد: **(إنا لله وإنَّا وإليه راجعون)** كلمةٌ طيبةٌ تفتح لها أبواب السَّماوات، وتصعد إلى السَّماء فتفتح لها أبواب السَّماوات، ويحمد الله، ويسترجع، ويقول: **(إنَّا لله وإنَّا وإليه راجعون)**: **{أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}**، فإذا جاءت الصَّلواتُ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فهي الرحمةُ التي هي الرحمةُ، إذا رحم اللهُ الْمُبتلى عاد بلاؤُهُ خيرًا عليه في دينه ودنياه وآخرته، فيسمع الإنسانُ ما يسوؤه، ويسمع ما يجرحه، ويسمع ما يفزعه ويقرعه، ولكنَّه يثبت بتثبيت الله بهذا الكلام الطَّيب، يعلم أنَّ هذه الدُّنيا فانيةٌ، وأنَّ مَنْ عليها فَانٍ، وأنَّه لا يبقى إلا وجهُ ربِّك، إلا الله -جَلَّ جَلالُهُ-، لا يبقى إلا الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}**، يؤمن بهذه الحقائق التي ذَكَّرَهُ اللهُ بها، وذكَّرَتْهُ بها السُّنَّةُ الصَّحيحةُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

بَيَّن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث الصَّحيح أنَّه حين نزول الْمَصائب، وحين نزول الكوارث والفجائع ينبغي للمؤمن أنْ يتلقَّاها بالصَّدر الرَّحب، فالْمُؤمن الواثق بما عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الْمُستيقن بالله -جَلَّ جَلالُهُ-.

يُوَسِّعُ الضَّيْقَ الرِّضَا بِالضَّيْقِ وَإِنَّمَا السَّعْدُ مِنَ التَّوْفِيْقِ

فمن رضي عن الله أرضاه الله، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **((إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَومًا ابتَلاهُم))**، ثم قسَّمَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الخلائقَ إلى قسمين: **((فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ))**، يعلم أنَّه لو بكى وجرَتِ الدُّموعُ حتى تجفَّ عيونُهُ، فإنَّه لا يغني من الله شيئًا، فإنَّ هذا البكاء لا يغني له ولا للميت من الله شيئًا، وأنَّه إذا حزن وعظُم حزنُهُ، وعظُم همُّهُ وغمُّهُ لن يقدِّمَ أمرَ

الله الذي أخَّرَهُ، وأنَّه لن يؤخرَ أمرَ الله الذي قدَّمَهُ، ومهما كان للأحبة من ذكرياتٍ، ومهما كان لهم من مواقفَ ذكرها يهزُّ القلوب ويؤلِمُها، لكنَّ أعظم من ذلك سلوتُنا بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، واحتسابُنا للأجر عند الله، ورضاؤُنا بقضاء الله وقدره، وحبُّنا لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ينسينا حبَّ مَنْ سواه، إذا ذكرَ الابنُ حنانَ الأب، وحنانَ الأم، وعلم أنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هو الذي أوجد هذا الحنان، إذا هزَّ القلبَ رحمةُ الأب، ورحمةُ الأم وذكرياتُ الرَّحمة من الآباء والأمهات، تذكَّرَ رحمةَ فاطرِ الأرض والسَّماوات، وقال: مَنِ الذي خلق أبي؟ ومَنِ الذي خلق أمي؟ ومَنِ الذي عطف قلب أبي؟ وعطف قلب أمي؟ ومَنِ الذي رزقني هذا الصَّديق الصَّادق، وهذا الْمُحب الصَّادق في محبته؟ هو الله، ومَنِ الذي تداركني بالرَّحمة؟ هو الله، ومَنِ الذي أحسن إليَّ؟ هو الله، ومَنِ الذي رزقني هذا الابن؟ هو الله، ومَنِ الذي جعله بارًّا؟ هو الله، ومَنِ الذي جعله قرة عين لي؟ هو الله، ومَنْ؟ ومَنْ؟ مسائلُ لا يجد لها جوابًا إلا فضل الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وعندها تطمئنُ القلوبُ، وتنيبُ إلى علام الغيوب، راضيةً بقضاء الله وقدره، راضيةً بما عند الله من حسن الجزاء:

وَقَالَ هُلُّوا عَلَيْهِ التُّرَبَ واغْتَنِمُوا حُسْنَ الثَّوَابِ مِن الرَّحمَنِ ذِي المِنَنِ

فإذا علم العبدُ ما عند الله من الْمَثوبة، وما عند الله من حسن العاقبة، هانَتْ عليه فجائعُ الدُّنيا، وهانَتْ عليه قوارعُها، وأصبح في قوةٍ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ورباطٍ.

فهؤلاء هم أولياء الله، وصفوةُ الله من خلقه، الذين إذا نزل بهم البلاءُ زادهم من الله قربًا، وزادهم من الله رضى وحبًّا، لا تسمعُ تسخطًا، ولا جزعًا، لا قلقًا، ولا تسمعُ إنكارًا للقضاء والقدر، بل تسمعُ انشراحًا، وفرحًا، وطمأنينةً بما عند الله، واللهُ لا يخلف الْمِيعاد، وعدَ اللهُ الَّذين صبروا أنْ يصبِّرَهم، وعدَ اللهُ الَّذين صبروا أنْ يكونَ معهم، ووعدَ اللهُ الَّذين صبروا أنَّه يحبُّهُم، **{وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}**، **{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}** ووعدَ اللهُ الَّذين صبروا بحسن الخلف، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ**)) فإذا صبر العبدُ عند نزول الشَّدائد وعند حلول الْمَصائب والْمَكائد، وفوَّضَ أمرَه إلى الله، ودمعَتْ عيناه من خشية الله، واطمأنَّ قلبُهُ ثقةً بالله، فإنَّه لا يؤوبُ إلا بالخير في دينه ودنياه وآخرته.

فأمر النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أمَّ سلمةَ أنْ تقولَ: ((**إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجِرْنِي فِي مُصِيْبَتِي، وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتَهَا، ثُمَّ قُلْتُ: وَمَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟**)) فأبدَلَهَا اللهُ خِيْرَتُهُ من خلقه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

اللهم إنَّا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أنْ تجبرَ كسرَنا، وأنْ ترحمَ ضعفَنا، وأنْ تجعلَ لنا الخيرَ منك في كل بلاءٍ نزل بنا، اللهم ثبتْ قلوبَنا، وسددْ أقوالَنا، اللهم ارضَ عنَّا في ظواهرنا وبواطننا، ونستغفرُك مما لا يرضيك عنا، اللهم إنَّا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى في هذه السَّاعة أنْ تنوِّرَ قبورَ آبائنا وأمهاتنا وإخواننا وأخواتنا وسائر قراباتنا، اللهم أفضْ عليهم من رحماتك، اللهم أوسعْ لهم فيها، اللهم نوِّرْ لهم فيها، اللهم إنَّا نسألك برضاك عنَّا في قضائك وقدرك أنْ ترضينا ببلوغهم للدرجات العُلى من فردوس الجنَّة، برحمتك يا أرحم الرَّاحمين، وأنْ تعيذَهم من عذاب القبر، ومن بلاء القبر، وأنْ يرهنوا بالحقوق والْمَظالم والْمَآثم، إلهَ الأولين والآخرين، هذا مقامُ العائذ بك لهم مَنْ كل حقٍّ ومن كلِّ مظلمةٍ، فيما بينهم وبينك، وفيما بينهم وبين خلقك، اللهم نوِّرْ عليهم قبورَهم، وأفسحْ لهم فيها وأعظمْ جزاءَهم عنَّا، يا أرحمَ الرَّاحمين، وارزقْنا حسنَ الخلف منك في ديننا ودنيانا وآخرتنا.

اللهم اغفرْ للمُؤمنين والْمُؤمنات، والْمُسلمين والْمُسلمات، الأحياء منهم والأموات، اللهم فرِّجْ همَّ الْمُهمومين، ونفِّس الكرب عن الْمَكروبين، واشفِ مرضانا ومرضى الْمَسلمين، واشفِ مرضانا ومرضى الْمُسلمين، واشفِ مرضانا ومرضى الْمُسلمين، وارحمْ موتانا وموتاهم أجمعين.

اللهم اغفرْ ذنوبَنا، واسترْ عيوبَنا، وفرِّجْ كروبَنا، اللهم ارحمْ في موقف العرض عليك ذلَّ مقامنا اللهم يمنْ كتابَنا، ويسرْ حسابَنا، وامننْ بالعافية غدوَّنا وآصالَنا.

اللهم إنَّا نسألك أنْ تجعلَ آخرَ كلامنا من هذه الدُّنيا (لا إلهَ إلا الله)، اللهم اجعلْ أسعدَ اللحظات وأعزَّها وأشرفَها لحظةَ الوقوف بين يديك، اللهم لقِّنا الحُجَّةَ، وثبِّتْنا على الْمَحجَّةِ، يا أرحم الرَّاحمين.

اللهم إنَّا نسألُك التَّمسُّك بالسُّنَّة عند فساد الأمة، وأنْ نلقاك غيرَ مبدلين ولا نادمين ولا مغيرين، يا ربَّ العالَمِين، يا إلهَ الأولين والآخرين.

اللهم اغفرْ لِمَشايخنا، ولِمَنْ أوصانا، واستوصانا، وحضرَ مجلسَنا، وغابَ عنَّا، ولِمَنْ أحبَّنَا فيك اللهم اجمعْنا في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ، اللهم اجمعْنا في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ، اللهم أعذْنا من الفتن ما ظهر وما بطن، أعذْنا من إرجاف الْمُرجفين، وإبطال الْمُبطلين، وإلحاد الْمُلحدين، اللهم أخرسْ ألسنتَهم عنَّا، واصرفْ فتنَهم عنَّا، وحُلْ بيننا وبينهم بعزتك وقدرتك، إلهَ الأولين والآخرين، وأكفِنا مَنْ عادانا، ومَنْ آذانا، ومَنْ ظلمنا، ومَنْ بغى علينا، زلزلْ أركانَه، وشتتْ شملَه وأعوانَه، وصدِّعْ بنيانَه، نسألُك لا إلهَ إلا أنت، نسألُك لا إلهَ إلا أنت.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِيْنَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ.

رقم الدَّرس ٤١١

الأربعاء ١٧-٣-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد كانَ يُستَحَبُّ أنْ يلقِّنَ الْمَرِيض عندَ الْمَوت قولَ: **(لا إلهَ إلاَّ اللهُ)**.

وقالَ بعضُ أهلِ العلمِ: إذا قالَ ذلكَ مرةً فما لَمْ يتكلَّمْ بعدَ ذلكَ فلا ينبغي أنْ يلقَّنَ، ولا يُكثَرَ عليهِ في هذا.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وروى عن ابنِ الْمُبَارَك أنَّهُ لَمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ جعلَ رجلٌ يلقِّنهُ: **(لا إلهَ إلاَّ اللهُ)** وأكثرَ عليهِ، فقالَ لهُ عبدُ اللهِ: إذا قُلْتَ مرَّةً فأنا على ذلكَ ما لمْ أتكلَّمْ بكلامٍ.

وإنَّما معنى قولِ عبدالله إنَّما أرادَ ما رُوِيَ عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَنْ كَانَ آخرُ قَولِهِ: لا إلَهَ إلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**)).

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الحمدُ لله ربِّ العالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتمانِ الأكملانِ على أشرفِ الأنبياءِ والْمُرسلينَ وخيرِ خلقِ اللهِ أجمعينَ، على آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ سارَ على سبيلِهِ ونَهْجِهِ واستَنَّ بسنتِهِ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد اشتمل كلامُ الإمام الحافظ -رَحِمَهُ اللهُ- بعد أنْ أوردَ الأحاديث الواردة عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في التَّلقين **على بعض المَسائل**:

أمَّا المسألة الأولى: فقد قرَّر أن التَّلقين سُنَّةٌ مُحْكَمَةٌ، بمعنى أنَّ تلقينَ الْمَيِّت مشروعٌ، ولم ينسخْ، فهو باقٍ بعد وفاة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إلى قيام السَّاعة، وهو من الأخبار، والأخبارُ لا يدخلُها النَّسخُ، أنَّ مَنْ قال: ((**لا إلهَ إلا الله**)) وكانتْ آخرَ كلامه من الدُّنيا دخل الْجَنَّة، إذا قالها موقنًا بِهَا ومعتقدًا لِمَعناها.

وبيَّن في قصة الإمام عبدالله بن الْمُبَارَك -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ العبرةَ في التَّلقين أنْ يكونَ آخرُ الكلام هو هذه الكلمة، وبناءً على ذلك فإنَّه إذا قال الْمُحتضرُ: **(لا إلهَ إلا الله)** ثم سكت ولم يتكلمْ بعدها بشيءٍ، فإنَّه لا يُلَقَّنُ، ويُمسَكُ عن تكرار التَّلقين.

بيَّن -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ العبرة بهذه الكلمة أنْ تكونَ آخرَ كلامه من الدُّنيا، فإذا لم يتكلمْ بعدها بشيءٍ

فإنَّه على هذه الكلمة.

ومما نبَّه عليه العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّه لا ينبغي إضجارُ الْمَرِيض بهذه الكلمة.

وإضجارُهُ: كثرةُ تكرار **(لا إله إلا الله)** عنده، وهذا هو الذي أشار إليه الإمامُ عبدالله بنُ الْمُبَارَك -رَحِمَهُ اللهُ-، ونصَّ غيرُ واحدٍ من الأئمة -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّه يُكرَهُ إضجارُ الْمَرِيض بها، وخاصةً إذا كانت بأسلوبٍ يرفعُ به الصَّوتَ، ويقلقُ ويزعجُ، وإنَّمَا يتولَّى ذلك مَنْ يحبُّهُ الْمَرِيضُ ويرتاحُ إليه، كما نبَّهَ الفقهاءُ بقولهم: **(يَتَوَلَّى أَمْرَ الْمَرِيضِ مَنْ هُوَ أَرْفَقُ النَّاسِ بِهِ)**.

وهذا الذي ذكروهُ مستنبطٌ: من السُّنَّة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فإنَّه لَمَّا نزل به أمرُ الله استأذنَ أزوجَه أنْ يُمَرَّضَ عند أُمِّ الْمُؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، ولذلك قالوا: يُسنُّ ويُشرَعُ أنْ يَلِيَ الْمَرِيضَ مَنْ هو أرفقُ النَّاس به؛ لأنَّ الحالةَ -وهي حالةُ مرضِ الْمَوت- حالةٌ تستدعي الصَّبْرَ، وليس كُلُّ إنسانٍ يستطيعُ أنْ يتحمَّلَ الْمَرِيضَ مرضَ الْمَوت، ولذلك ينبغي أنْ يكون حليمًا رفيقًا وعنده شفقةٌ بالْمَرِيض، ويحسُّ بأحاسيسه؛ حتى يستطيعَ أنْ يتحمَّلَ ما يكون منه من السَّآمة والضَّجر، ويكون حريصًا على الخير له، ومن أعظم الخير خيرُ الدِّين، وأعظمُ خيرٍ يقدمُهُ له أنْ يكونَ عونًا له على بلوغه جنَّة الله -عَزَّ وَجَلَّ- ومرضاته، ومن ذلك التَّلقين.

هذا التَّلقين الذي ذكره العلماء، التَّلقين ينقسمُ إلى قسمين:

القسمُ الأولُ: التَّلقينُ الذي يكون عند الاحتضار، وهذا هو الْمَقصود بالأحاديث الصَّحيحة: ((**لَقِّنُوا مَوتَاكُم: لا إلهَ إلا اللهُ**))، وفي بعض الرِّوايات: ((**لَقِّنُوا هَلْكَاكُمْ**))، فكُلُّ هذا يدلُّ على مشروعية التَّلقين قبل الْمَوت.

والقسمُ الثَّاني: التَّلقينُ بعد الْمَوت، وهو أنْ يقومَ على قبره بعد الْمَوت ويقول: ((**يا فلانُ بنَ فلانةٍ، اذْكُرْ ما كنتَ عليه في الدُّنيا من: شهادة أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، وأنَّك رضيتَ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا**)).

هذا فيه حديثٌ ضعيفٌ، وهو حديثُ أبي أُمَامَةَ، ولم يصحَّ فيه شيءٌ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ومتنُهُ مستنكرٌ، ومخالفٌ للأصول.

ووجهُ ذلك: أنَّ العبدَ إذا قعد في قَبْرِهِ، كما في الأحاديث الصَّحيحة، **ومنها**: حديث البَرَاء بن عازبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**أَنَّه يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فِي قَبْرِهِ، وَيَسْأَلَانِهِ عَنْ رَبِّهِ وَنَبِيِّهِ وَدِيْنِهِ**))، هذا لا أشكالَ أنَّ العبدَ الْمُؤمنَ سيُجِيب، هو ليس بحاجةٍ إلى مَنْ يُلَقِّنُهُ أَحَدٌ، سُبْحَانَ الله، أيخذلُ

اللهُ أولياءَه؟! حاشَاهُ، وهو الذي يُثَبِّتُ الَّذين آمنوا بالقولِ الثَّابتِ، ما حاجةُ أنْ يقفَ على قَبْرِهِ؟! وهل وُقِفَ على قبور الصَّحَابَة أو قبور التَّابعين؟!

هذا حديثٌ مُنكَرٌ ومردودٌ مهما تسامحَ بعضُ العلماء فيه، أمرُهُ عجيبٌ! يقول في الحديث:

((**فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، يَقُولُ الْمَلَكُ لِصَاحِبِهِ: قُمْ، فَمَا لَكَ مِنْ حَاجَةٍ فِي رَجُلٍ يُلَقَّنُ حُجَّتَهُ**))،

هذا أمرٌ عجيبٌ، مخالفٌ للأصول.

ولذلك الذي دلَّتْ عليه النُّصُوصُ أنَّ اللهَ يُثبِّتُ الَّذين آمنوا بالقولِ الثَّابتِ. وأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صحَّ عنه في الحديث الصَّحيح أنَّه قالَ: ((**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ**)).

هذه هي السُّنَّةُ أنْ نسألَ له الثَّباتَ: (اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ بِالقولِ الثَّابتِ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ عندَ السُّؤالِ)، ونحو ذلك مما هو سؤالُ التَّثبيت.

أمَّا (اذْكُرْ كَذَا، وَكَذَا)، **هل هو ناسٍ فيُذَكَّرُ؟!**

هذا كُلُّهُ ضعيفٌ ومردودٌ، والله تعالى لا يخذلُ أولياءَه، وليس هناك حاجةٌ للمؤمن الذي خرج على التَّوحيد، وعلى شهادة أنْ لا إلهَ ألا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله أَنْ يُلَقِّنَهُ أحدٌ إلا رَبَّهُ، هو الذي يُلَقِّنُهُ حُجَّتَهُ، وهو الذي يُثَبِّتُهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فهذا الحديثُ لا يُعمَلُ به، وهو حديثٌ ضعيفٌ سندًا ومتنًا.

وعليه فإنَّه يُشرَعُ التَّلقينُ في **حالةٍ واحدةٍ**، وهي أنْ يكونَ الإنسانُ عند الاحتضار.

وإنَّما شُرِع أنْ يكونَ الإنسانُ عند مرض الْمَوت، أو عند الاحتضار أنْ يُلَقَّنَ؛ لفضيلة الختم بـ(لا إلهَ إلا الله).

وأمَّا إنَّه مات على التَّوحيد فلا إشكالَ أنَّ اللهَ تعالى لن يظلمَ عبدَه مثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ، وأنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- سيُوفِّي العاملَ أجرَه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: **{لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّشدِيدِ عِنْدَ الْمَوْتِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ، أخبرنا اللَّيثُ، عن ابنِ الْهَادِ، عن موسى بنِ سرجسٍ، عن القاسمِ بنِ مُحَمَّدٍ، عن عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنَّهَا قالَتْ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ بِالْمَوتِ وَعِنْدَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ، وَهُوَ يُدخِلُ يَدَهُ فِي القَدَحِ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بالْمَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: ((**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوتِ، أَوْ سَكَرَاتِ الْمَوتِ**)).

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حدِيثٌ غَرِيبٌ.

الشَّرْح:

ترجم الإمامُ التِّرمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرْجَمة، والتي تشيرُ إلى هول الْمَوت وشدَّتِه، وأنَّه سيَذكرُ ما وَرَدَ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في أمر نزول الْمَوت.

والْمَوتُ هولُهُ عظيمٌ، وشدَّتُهُ عظيمةٌ، ولكنَّ اللهَ يلطفُ بأوليائه بلطفه ورحمته، وهو أرحمُ الرَّاحمين.

وهذا الحديث الذي ذكرَهُ حديثٌ ضعيفٌ **من جهة الإسناد**.

وأمَّا ما يفيدُهُ الْمَتْنُ: من أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- اشتدَّتْ عليه سكراتُ الْمَوتِ فنعم؛ لأنَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ثبتَتِ الأحاديثُ الصَّحيحةُ أنَّه اشتدت عليه سكراتُ الْمَوتِ، وأنَّه وَعِكَ كما يَوعَكُ الرَّجلانِ، **أنَّ الحكمة في ذلك**: أنَّه يُضاعفُ له الأجرُ، وفي هذا سلوى لكلِّ مؤمنٍ، وعزاءٌ لكل مسلمٍ، أنَّ اللهَ تعالى يُخفِّفُ عنه الذُّنُوبَ، ويُكَفِّرُ عنه الخطايا.

وتكونُ سَكَرَاتُ الْمَوتِ، وشدَّةُ الْمَوتِ، وغَمَرَاتُ الْمَوتِ؛ **لأحدِ أمرين**:

إمَّا أنْ تكونَ غفرانًا لذنبه، **وإمَّا** أنْ تكونِ رفعةً لدرجته، فهو على خيْرٍ في كلتا الْحالتين.

وقولُهُ: ((**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوتِ، أَوْ سَكَرَاتِ الْمَوتِ**))، (**أَوْ**): هنا إذا كانَتْ للشَّك: فلا إشكالَ.

وإذا كانت للعطف: فهي عند بعض العلماء عطفُ بيانٍ، أنَّ ((**غَمَرَاتِ الْمَوتِ**)) في بعض الرِّوايات: ((**سَكَرَاتِ الْمَوتِ**))، هذا العطفُ عطفُ بيانٍ، أي أنَّ ((**غَمَرَاتِ الْمَوتِ**)) هي ((**سَكَرَاتِ الْمَوتِ**))، **وهذا هو أحدُ القولين في التَّفسير**.

والذي يظهرُ وهو القولُ الثَّاني: أنَّ ((**الغَمَرَاتِ**)) غَيْرُ ((**السَّكَرَاتِ**)):
وأنَّ ((**غَمَرَاتِ الْمَوتِ**)): جَمع غَمْرَةٍ، وهي الشِّدَّةُ، فإذا اشتدَّتْ ((**غَمَرَاتِ الْمَوتِ**)) جاءَتْ نتيجتُها، وهي ((**السَّكْرَةُ**))، و((**السَّكْرَةُ**)) أثرٌ من أثار شدة الْمَوتِ.
ولذلك بيَّن الله تعالى أنَّ السَّكرةَ هي أنْ يكونَ الإنسانُ في حالٍ أشبه بِحال السَّكران، وهي الدَّهشةُ، تكون معه أشبه بالدَّهشة.
وحينئذٍ تكونُ السَّكرةُ أثرًا من أثار الغمرة، وهذا استَظْهَرَهُ بعضُ أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ- في شرح الحديث، **وهو أقوى**.
لكنَّ الَّذين قالوا: إنَّ ((**الغَمَرَاتِ**)) هِيَ ((**السَّكَرَاتِ**))، ولا فرقَ بيْن ((**الغَمَراتِ**)) و((**السَّكَرَاتِ**))؛ لأنَّ اللهَ ذَكَرَ ((**الغَمَرَاتِ**)) في شدَّةِ الحال، وهي حال السَّكرة، فقال: **{وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ}**، فَذَكَرَ الغمرةَ، واستغنى بِهَا عن السَّكرة، فقالوا: لا فرقَ بين (الغَمْرَة) و(السَّكْرَة).
وسَكْرَةُ الْمَوتِ: هي سكرةُ الحقِّ، ولذلك كانَتْ إحدى القراءتين في آية **{ق~}**: **{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بالْمَوْتِ}**، وهو الذي يُسمَّى بـ(التَّقديم والتَّأخير)، وهي قراءةُ أبي بكرٍ، وطلحةَ بنِ مُصَرِّفٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، ويذكرُها العلماءُ مثالاً على ما نُسِخَ في العَرْضَة الأخيرة، ورُوعِي فيه التَّقديم والتَّأخير.
وسَكْرَةُ الْمَوتِ: هي سكرةُ الحقِّ؛ لأنَّ عندها تنكشفُ الحقائقُ، وتزولُ الغِشَاوةُ، ويتبيَّنُ للإنسان أنَّه كان في غفلةٍ، وهي سكرةُ الحقِّ؛ لأنَّهَا تُفضِي به إلى الحقِّ الذي لا باطلَ معه، وإلى الْجِدِّ الذي لا لعبَ معه، يقفُ الإنسانُ عندها، في ساعةٍ يُؤمنُ فيها الكافرُ، ويُوقنُ عندها الفاجرُ، وَقَفَ عندها الجبابرةُ، فانكسر جبروتُهُم، وقفَتْ عندها الأكاسرةُ، فانكسرَتْ أمورُهم، إنَّهَا السَّاعةُ التي وَقَفَ عندها فرعونُ، فقال: **{آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}** ساعةٌ عظيمةٌ، وهي ساعةُ سكرةِ الْمَوتِ التي هي آخرُ نَصَبِ الدُّنيا، الذي يرتاحُ الْمُؤمنُ عنده من عناء الدُّنيا كُلِّهِ عناها النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بقوله: ((**مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ...**)) قال بعضُ العلماء: إنَّهَا سكرةُ الْمَوتِ؛ لأنَّهَا آخرُ ما يعاني وَلِيُّ الله الْمُؤمن من هذه الدُّنيا، فإذا عانى هذه السَّكرةَ عندها

لا يرى كربًا ولا هَمًّا ولا غمًّا ولا تعبًا؛ لأنَّ اللهَ يبدلُهُ بدار السَّلوى التي تنتهي عندها أحزانُهُ. ولذلك لَمَّا قالَتْ فاطمةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: **(وَا كَرْبَ أَبَاهُ)**، وهي ترى رسولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في شدَّةِ الْمَوتِ، قال لَهَا -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((لا كَرْبَ عَلَى أَبِيْكِ بَعْدَ الْيَوْمِ))**.

وسَكْرَةُ الْمَوتِ: هي آخرُ أعتاب هذه الدُّنيا، وعندها يولِّي العبدُ هذه الدُّنيا ظهرَهُ، وما أدمنَ عبدٌ ذِكْرَها إلا جعلَه اللهُ من السُّعداء، فما من عبدٍ موفقٍ يلهمُهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- ذكرَ السَّاعة التي يُفارِقُ فيها هذه الدُّنيا إلا هانَتْ عليه:

صَاحِ شَمِّرْ لا تَزَلْ ذَاكِرَ الْمَوتِ فَنِسْيَانُهُ ضَلالٌ مُبِيْنُ

وإذا أرادَ اللهُ أنْ يبتليَ عبدًا بالغفلة جعله مِمَّنْ غفل عن هذه السَّاعة، هذه السَّاعة إذا تذكَّرَها الإنسانُ هذَّبَتْ أخلاقَه، وقوَّمَتْ سلوكَه، وجعلَتْهُ أزهدَ ما يكون في الدُّنيا، وأطمعَ ما يكون في رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وعندها يفكِّرُ ويتساءلُ: كيفَ ألقى اللهَ؟ وكيفَ يكونُ حالي حينئذٍ؟ فَيُعِدُّ للأمر عدَّتَهُ مستعينًا بالله، مستهديًا بالله، سائلاً اللهَ الْمَعونةَ والتَّوفيق، وإذا أحضرَ العبدُ في نفسه ذكرَ هذه السَّاعة، فإنَّ اللهَ يرزقُهُ ثباتَ القلب، وسدادَ اللِّسان، وصلاحَ الجوارح.

قلَّ أن تَجدَ عبدًا يُحسُّ بسكرة الْمَوت، وفراق الدُّنيا، وإذا رآها في الآباء، والأمهات، والإخوان، والأخوات، والأبناء والبنات، والأصحاب، والأحباب، ورأى كيف ينزلُ الْمَوتُ بأهله، فإنَّ هذا يَجعله صالِحَ القول بإذن الله -عَزَّ وَجَلَّ-، صالِحَ العمل؛ لأنَّ مثلَ هذه الْمَواقفَ تقرعُ القلوبَ، وتُهَذِّبُ الأخلاقَ، وما زلَّتِ الأقدامُ، ولا زلَّتِ الألسنةُ والجوارحُ إلا بالغفلة، وأساسُ الغفلةِ الغفلةُ عن الآخرة، -ونسألُ اللهَ العظيمَ، ربَّ العرش الكريم بعزَّته وجلاله أنْ يرزقَنا ذكرَ هذه السَّاعات على الوجه الذي يعينُنا على الطَّاعات والْمَرضاة، ويجنبُنا بذلك الْمَعاصي والمحرمات-.

وسكرةُ الموت، وغمراتُ الْمَوت تحتاج إلى معونةٍ؛ لأنَّ أمرَ الله إذا نزل بالعبد فإنَّه لن يستطيعَ أحدٌ مهما أُوتِي من قوةٍ أن يَفِرَّ منه، وقفَ عظماءُ الدُّنيا حقراءَ في هذه السَّاعة، ووقف أغنياءُ الدُّنيا فقراءَ في هذه السَّاعة، هل رأيتَ عظيمًا لَمَّا نزل به الْمَوتُ استطاع أنْ يؤخِّرَهُ لَحظةً واحدةً؟

وهل استطاع مَنْ في الأرض أنْ يؤخِّرَهُ عن أمر الله الذي نزل به؟

وهل رأيْتَ غنيًا جُمِعَتْ له الأموال استطاع أنْ يُؤخِّرَ أمرَ الله -عَزَّ وَجَلَّ-؟

ولا شكَّ أنَّ الْمُؤمن إذا تفكَّر، ونظرَ، وتدَّبرَ في مثل هذا، فإنَّه تتسعُ عليه الدُّنيا بضيقها؛ لأنَّه إذا رأى سخريةَ السَّاخرين، واستهزاءَ الْمُستهزئين، وظلمَ الظَّالِمَين، تذكَّر أنَّهُم إلى الله سائرون، وبين يديه

موقوفون، وأنَّهُم مُحاسبون مُجازون، وصدقَ اللهُ: **{فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}**، فهذا مِمَّا أعدَّه اللهُ لخلقه.

فالسَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيره، والسَّعيدُ مَنْ حرَّك قلبَه إلى الله، وانتبَهَ من غفلته، واستيقظَ من منامه، وعلم أنَّ أمرَه مع الله جِدٌّ ليس فيه لعبٌ، وأنَّه فَصْلٌ ليس فيه هَزْلٌ، وأنَّه يُعامل ملكَ الْمُلوك، وجبَّار السَّماوات والأرض، وأنَّه لن يفلتَ من الله، ولن يستطيعَ أن يَحِيدَ عن أمر الله، وعندها يتفكَّر كيف يصيْرُ إلى الله.

اللَّهُمَّ رُدَّنَا إليك مردًا جميلاً، وهبْ لنا من لدنك عملاً صالِحًا جليلاً.

قالَ الإمامُ التِّرمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا الحسنُ بنُ الصَّباحِ البغداديُّ، حدثنا مبشِّرُ بنُ إسماعيلَ الحلبيُّ، عن عبدالرحمن بنِ العلاءِ، عن أبيهِ، عن ابنِ عمرَ، عن عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالتْ: ((**مَا أَغْبِطُ أَحَدًا بِهَوْنِ مَوْتٍ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ شِدَّةِ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسلَّمَ-))، **قَالَ** -رَحِمَهُ اللهُ-: سألتُ أبا زُرعةَ عن هذا الحديثِ، وقُلْتُ لهُ: مَنْ عبدالرحمن بنُ العلاءِ؟ قال: هو ابنُ العلاءِ بنِ اللَّجلاجِ، وإنَّما أعرفهُ من هذا الوجهِ.

الشَّرْح:

هذا الحديثُ حديثُ أُمِّ الْمُؤمنين عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- تكلَّم العلماءُ على إسناده، ومنهم مَنْ حسَّنَهُ، وهو يدلُّ على شدَّةِ ما نزل برسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عند موته، حتى إنَّ أُمَّ الْمُؤمنين -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالَتْ: ((**مَا أَغْبِطُ أَحَدًا**)) وهذا يدلُّ على أن يُسْرَ الْمَوتِ وخفةَ الْمَوت ليست بشهادةٍ من كلِّ حالٍ على صلاح الإنسان، وكذلك العكس، والأمرُ والْمُعوَّلُ كلُّه على العمل، على صلاح الإنسان واستقامته؛ **لأنَّ النُّصُوصَ دلَّتْ على أنَّ النَّاس:**

منهم مَنْ يموتُ فجأةً، **ومنهم** مَنْ يموتُ بعد معاناةٍ، **ومنهم** مَنْ يموتُ دون معاناةٍ.

فعائشةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- بيَّنتْ أنَّ من يُسِّرَ عليه ولم يشدَّدْ عليه في الْمَوت، فإنَّ هذا ليس مَحلَّ غِبطة من شدَّةِ ما رأتْ من رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وهذا فيه حكمةٌ عظيمةٌ: أنَّ الإنسانَ إذا رأى أقرباءَه، أو رأى مَنْ يحبُّ أنَّه شُدِّدَ عليه في موته فإنَّه

يسلو برسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ويتعزَّى برسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولذلك دلَّتِ النُّصُوصُ أنَّ العبد يُكَفَّرُ عنه الذَّنبُ بسبب ما يصيبُهُ، فإذا بقي عليه ذنبٌ، وحضرَهُ الْمَوتُ شُدِّدَ عليه في سكرات الْمَوتِ حتى يلقى اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- خفيفًا من الْحَمْلِ، وقد هَوَّن اللهُ عليه ثُقْلَه.

فهذه الْمَصائبُ والْمَتاعبُ التي تأتي قبل الْمَوتِ يدخل فيها الْمَرضُ، كأَنْ يطولُ أمدُ الإنسان في الْمَرضِ، وقد يتفطَّرُ قلبُه حزنًا على أبيه وأُمِّه وهو يراه طريحَ الفراش، وقد يسمعُهُ يئنُ من الألم، فلاشكَّ أنَّه إذا تأثَّرَ وأدركتْه العاطفةُ فهذا شيءٌ لا يملكه، لكن ينبغي عليه أنْ يتسلَّى ويتعزَّى، فإنَّ هذه الآلام وهذه الأسقام تُرفع بِهَا الدَّرجاتُ، وتُكَفَّرُ بِها الخطيئاتُ، ولو أنَّ أهلَ البلاء يوم القيامة إذا عُرِضُوا على الله، ورأُى ما عند الله من الْمَثوبة والأجر في بلائهم لتمنوا أنَّ حياتَهُم كلَّهَا بلاءٌ، ولذلك يتسلَّى الإنسانُ، ويتعزَّى الْمُؤمنُ، خاصةً وهو يعلمُ أنَّ هذا الأمرَ كلَّهُ بقضاء الله وقدره، وأنَّ اللهَ أرحمُ منه بأبيه وأُمِّه، فهو يرى ابنَه أو يرى ابنتَه أو يرى أخاه أو أخته أو أباه أو أُمَّه أو قريبَه أو صاحبَه وهو يتأوَّهُ ويتألَّمُ، فلينظرْ ما في قلبه من الرَّحمة، فإنَّه لا يساوي شيئًا في رحمةِ أرحمِ الرَّاحمين، فإذا جاء الشَّيطانُ وقال: (هذا أبوك، وهذه أُمُّك أصابَهَا ونزل بِهَا، وافعلْ)، وهو لا يستطيعُ أنْ يفعلَ، فإنَّ عليه أنْ يتذكَّرَ أنَّ اللهَ أرحمُ منه بأبيه وأُمِّه، وأنَّ رحمةَ الله واسعةٌ، وأنَّ اللهَ يريدُ الخيرَ بأبيه وأُمِّه، فما عليه إلا أنْ يدعوَ لهم بالْمَعونة، ويدعوَ لهم أنْ يُعظِمَ اللهُ لهم أجرَهم، وأنْ يُثَقِّلَ في هذا البلاء موازينَهم، ونحو ذلك مما ينفعُ، ومما يعودُ بالخير على الْمُبتلى والْمُصاب.

فهذا الأثرُ عن أُمِّ الْمُؤمنين -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- عن عدم غبطتها مبنيٌّ على هذا الأصل؛ لأنَّه لو كان التَّخفيف فيه سلوى لكان لرسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولكن جعلَ اللهُ نبيَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أسوةً للصَّابرين، وأسوةً للمُبتلَين، ولذلك أُبْتُلِيَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بصنوف البلاء على اختلافها، حتى أُوْذِيَ في عرضه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وسُفِّهَ رأيُه، وكُسِرَتْ رباعيتُه، وشُجَّ وجهُه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وأُدْمِيَ ساقه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، كُلُّ هذا سلوى لأهل الإيمان وعزاءٌ لأهل الطَّاعة والإحسان، جعلنا اللهُ وإياكم منهم.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك أنْ ترزقَنا إيمانًا ويقينًا يرضيك عنَّا في كلِّ بلاءٍ وابتلاءٍ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا أحمدُ بنُ الحسنِ، حَدَّثَنَا مسلمُ بنُ إبراهيمَ، حَدَّثَنَا حسامُ بنُ الْمِصَكِّ، حَدَّثَنَا أبو معشرٍ، عن إبراهيمَ بنِ علقمةَ قالَ: سَمِعْتُ عبدالله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يقولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: ((**إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ رَشْحًا، وَلا أُحِبُّ مَوْتًا كَمَوْتِ الْحِمَارِ**)) قِيلَ: وَمَا مَوتُ الْحِمَارِ؟ قَالَ: ((**مَوْتُ الْفَجْأَةِ**)).

الشَّرْح:

هذا الحديثُ ضعيفٌ، ومن حيث الأصل ثبتَتْ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الأحاديثُ الصَّحيحةُ أنَّ موتَ الفجأةِ رحمةٌ بالْمُؤمن، ونقمةٌ على الكافر، وأنَّ الْمُؤمنَ إذا نزل به أمرُ الله فجأةً فمات، فإنَّه خيرٌ له، وأنَّه إذا تأخَّرَ خيرٌ له، وأنَّ هذا لا يُنقِصُ العبدَ من مقامه عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- شيئًا. موتُ الفجأةِ ليس بعيبٍ، ولا عارٍ، ولا مذمةٍ، ولا منقصةٍ على العبد؛ لأنَّ الْمَوتَ فجأةً وبتأخيرٍ كلُّهُ من أمر الله، والعبرةُ كلُّ العبرةِ بالعمل، فمن اتقى وأصلح فقد أفلح وأنجح، إنْ مات فجأةً، أو تأخَّر موتُه مادام أنَّه قد أصلح ما بينه وبين الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

قولُهُ: ((**إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ رَشْحًا**)) الثَّابتُ في الحديث، حديث البَرَاء بن عازبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال في الحديث الطَّويل في صفة الْمَوتِ قال: ((**فَيَأْتِيهِ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ** -وهذا في الْمُؤمنِ- **فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا الرُّوْحُ الطَّيِّبَةُ، اخرُجِي إِلَى رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَسِيْلُ كَمَا تَسِيْلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، قَالَ: فَلا يَدَعُونَهَا مَعَهُ حَتَّى يَضَعُونَهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ** -وهو الكفن الذي نزلوا به من السَّماء من الجنَّة-، **قَالَ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **فَتَخرُجُ مِنْهَا كَأَحْسَنِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرضِ، فَلا يَمُرُّونَ بِنَفَرٍ إلا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُون: رُوحُ فُلانٍ ابنِ فُلانٍ**)) حتى ذكر تمامَ الحديث.

ثم ذَكَرَ الكافرَ، قال: ((**فَيَقعُدُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُها الرُّوحُ الخَبِيْثَةُ، اخرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، فَتَتفَرَّقُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَتُنْزَعُ نَزْعاً كَمَا يُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الثَّوبِ الْخَلِقِ، فَلا يَدَعُونَهَا مَعَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَضَعُونَهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ** -أي الَّذي أُنزِل من النَّار-، **فَتَخرُجُ مِنْهَا كَأَخْبَثِ رِيْحٍ**

وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرضِ، فَلا يَمُرُّونَ بِمَلأٍ إلا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الخَبِيْثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: رُوحُ فُلانٍ ابنِ فُلانٍ...)) الحديث.

هذا هو **الصَّحيحُ** في صفة نزع الرُّوح، وأنَّ الْمُؤمنَ يكونُ موتُهُ بعَرَقِ الجَبِين، كما سيذكرُهُ الْمُصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ-.

أمَّا الرُّوحُ نفسُها: فإنَّهَا إذا دُعِيَتْ إلى أمر الله استجابتْ، إذا كانت روحَ مؤمنٍ، وسالت بكُلِّ سهولةٍ. **قالَ بعضُ العلماءِ** في تفسير قوله تعالى: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}** أنَّهَا رُوحُ الْمُؤمنِ، ورُوحُ الكافرِ، تُنزَعُ روحُ الكافر، وتنشطُ رُوحُ الْمُؤمن، أي أنَّهَا تسيلُ بسرعةٍ، وتخرجُ بسرعةٍ كأنَّما أُنْشِطَتْ من عِقالٍ؛ إشارةً إلى السُّرعةِ والخفَّةِ.

فالْمَقصودُ أنَّ روحَ الْمُؤمنِ تكونُ على هذه الصِّفة من السُّهولة؛ لأنَّهَا مدعوةٌ إلى الإكرام وإلى الخير العظيم من ربٍّ كريمٍ، وعندها تشتاقُ إلى لقاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- كما في الحديث الصَّحيح: **((مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ فَقَالَ: لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ))**، فحالُ الْمُؤمنِ وحالُ نفسِه على أكمل الأحوال، ولذلك الثَّابت في الحديث الصَّحيح: **((فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ))**، وهذا إشارةٌ إلى سرعة أخذِها، وإلى يُسْرِ نزعِها بالنِّسبة لِمَلَكِ الْمَوتِ من الجسد.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا زيادُ بنُ أيوب، حَدَّثَنَا مبشرُ بنُ إسماعيلَ الحلبيُّ، عن سمانَ بن وجيحٍ، عن الحسنِ، عن أنسِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَا مِنْ حَافِظَيْنِ رَفَعَا إِلَى اللهِ مَا حَفِظَا مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فَيَجَدُ اللهُ فِي أَوَّلِ الصَّحِيْفَةِ وَفِي آخِرِ الصَّحَيْفَةِ خَيْرًا إِلا قَالَ اللهَ تَعَالَى: ((أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي مَا بَيْنَ طَرَفَي الصَّحِيْفَةِ**)).

الشَّرْح:

بالنِّسبة لهذا الحديث قالَ بعضُ العلماء: إنَّه إذا أصبحَ العبدُ وأمسى، وكان قد استفتح صباحَهُ بطاعة لله، وختمَ مساءَه بطاعة الله أنَّه يُغفَرُ له ما بين الاثنينِ.

ومناسبةُ ذِكْرِ المُصنفِ -رَحِمَهُ اللهُ- لِهَذا الباب في الجنائز، وفي هذا الْمَوضع بالخصوص، أنَّه موضعُ فراق الدُّنيا، وأنَّه لَمَّا ذَكَرَ التَّلقينَ وهو يكونُ في آخر حياة الإنسان، فإنَّه يُبَيِّنُ أنَّه مَنْ أطاع وأتقى، فإنَّه أولُّ ما يُكتَبُ إذا تابَ توبةً نصوحًا، والتزم بالإسلام، وبشرائع الإسلام، فسيكون أولُّ أمره خيرًا، ثم إذا تُوفي يَخْتِمُ بـ(**لا إلهَ إلا الله**) سيكون آخرُ عمله خيرًا، فيتفاءلُ بالْمَغفرة له بِمَا بين الأمرين، وهذا كُلُّهُ موقوفٌ على ثبوت ذلك وصحته:

فإذا صحَّ: عُمِلَ به.

وأمَّا إذا لم يصحَّ: فإنَّه لا يُعتقَدُ شيءٌ في مسألة غفران الذنب، ورفعة الدرجة، ولا الْمُؤاخذة إلا إذا كان بدليلٍ صحيحٍ واضح الدِّلالة في كتاب الله، وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الصَّحيحة، والحديثُ فيه كلامٌ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَمُوْتُ بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا ابنُ بشَّارٍ أخبرني يحَيى بنُ سعيدِ عن المثنىَّ بنِ سعيدٍ، عن قَتَادَةَ، عن عبدالله بنِ بريدةَ، عن أبِيهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**الْمُؤْمِنُ يَمُوْتُ بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن ابنِ مسعودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قَالَ الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حديثٌ حسنٌ.

وقد قَالَ بعضُ أهلِ الحديثِ: لا نعرفُ لقتادةَ سَمَاعًا من عبدالله بنِ بريدةَ.

الشَّرْح:

ترجم الإمامُ الحافظُ التِّرمذيُّ بِهذه التَّرْجمة التي تتعلَّقُ بالبشارة للمؤمن أنَّه يَموت بعَرَقِ الجبين.

قالَ بعضُ العلماء: وهذا راجعٌ إلى أنَّه إذا بُشِّرَ بما له عند الله من الْمَثوبة سُرَّ حالُهُ فيَعرَقُ جبينُهُ.

وقالَ بعضُ العلماء: إنَّه لَمَّا كان نزعُ الرُّوحِ يبتدئُ من أسافل البدن، وينتهي بأعالي البدن، فإنَّ آخرَ ما يكون نزعُها من جهة الرَّأس، وحينئذٍ يَعرقُ الجبينُ.

والَّذِي عليه طائفةٌ من الْمُحَقِّقِيْنَ أنَّ هذا الأمرَ يُكَّفُ عنه، ولا يُخاضُ فيه؛ لأنَّه أمرٌ متعلِّقٌ بالغيب ونعتقدُ ما وَرَدَ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنَّ الحديثَ حَسَّنَهُ غَيْرُ واحدٍ من العلماء، وذكرُوا أنَّه من علامة حُسن الخاتِمة أنَّه يَموتُ الإنسانُ بعَرَقِ الْجَبينِ، فهذه من العلامات، ومن الأمارات التي تُبَشِّرُ بالخير، وإلا فالأصلُ أنَّ الْمُؤمنَ يُبَشِّرُهُ عملُهُ الصَّالحُ، فمَنْ كان على طاعة الله والاستقامة على مرضاة الله، آمرًا بطاعة الله، ناهيًا عن معصية الله، ملتزمًا بحدود الله، فهو بخير الْمَنازل عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وظاهرُ هذا الحديث أنَّه إذا وُجِدَتْ هذه العلامةُ يُستبشرُ لصاحبها بخيرٍ.

ولا يجوزُ لأحدٍ أنْ يقطعَ لأحدٍ أنَّه من أهل السَّعادة، أو أهل الشَّقاء إلا إذا دَلَّ الدَّليلُ على ذلك؛ لأنَّ هذا فيه حُكْمٌ على الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولا يُدرَكُ لا بالاجتهاد، ولا بالعقل، ولا بالنَّظر، وإنَّما يُلتزم فيه الأثرُ والواردُ في كتاب الله وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وقد أَدَّبَ اللهُ هذه الأمة بهذا

الأدب العظيم، أَنْ تَكُفَّ عن هذه الأمور، فلا يَجزِمُ الإنسانُ بأنَّ فلانًا من السُّعداء، أو أنَّه من الصَّالحين، ولكن يقول: (نَحْسَبُهُ كَذَا وَكَذَا)؛ حتى لا يتَّكِلَ على هذا.

وتوضيحُ ذلك: أنَّ بعضَ النَّاس إذا رأى مَيِّتَهُ مات بعرق الْجبين تَهَاون في الدُّعاء له، وجَزَمَ أنَّه دخل الجنَّةَ، وأنَّه قد انتهى أمرُهُ، وهذا لا يجوزُ، وليس الْمَقصودُ من مثل هذه الأحاديث هذا الْمَعنى، إنَّما هي بِشارةٌ وسلوى وفألٌ طيبٌ، وحالٌ طيبٌ، يُرجَى معه خيرٌ للإنسان، ولا يُبَالَغُ في مثل هذا.

ولذلك يُنصَحُ الْمُغَسِّلُونَ، ويُنصَحُ الأخيارُ الَّذين يتولَّون شؤونَ الْمَوتى أنْ لا يدخلوا في مثل هذه الأمور؛ حتى يتأدَّبَ النَّاسُ بأدب الشَّرع، وإذا رأى الابنُ أباه قد مات، وهو لا يستطيعُ أنْ يملكَ له نفعًا ولا ضرًّا، ولا يَجزِمُ له بجنَّةٍ ولا سعادةٍ، فعندها يلتزمُ الأدبَ مع الله.

وهذا هو الْمُنبغي أنَّنا لا نستطيعُ أنْ نجزمَ لأحدٍ أنَّه من أهل السَّعادة حتى ولو رأينا مثلَ هذه الأمارات، نرجو للمُحسن خيرًا، ونرجو للمُسيء غفرانًا من الله، وندعو له أنَّ اللهَ يتجاوزُ عنه، ولا نزيدُ على ذلك ولا نقصُ منه.

أمَّا أنْ نرى هذه العلامات، وهذه الأمارات كدليلٍ قطعيٍّ أنَّه قد دخل الجنَّةَ، وأنَّه قد زُحزِحَ من النَّار، ونحو ذلك، فهذا أمرٌ ليس هو الْمَقصودُ من وُرُودِ هذه الأخبار، إنَّما هي عاجلُ بشرى للمؤمن، يتسَلَّى بِهَا أهلُهُ الْمُصابون، يُقالُ لهم: إنَّه وَرَدَ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قال: ((**مَوْتُ الْمُؤْمِنِ بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ**)) ولا تنسوه من الدُّعاء، ولا تنسوه من صالح الدُّعاء، وهذا لا يدعوكم أنْ تُقصِّرُوا في سؤال الله له الْمَغفرةَ، والعتقَ من النَّار، ونحو ذلك.

وعلى كُلِّ حالٍ، فالحديثُ على هذا الوجه بشارةٌ للعبد أنَّه إذا قُبِضَتْ روحُهُ، وكان بعرق الجبين أنَّ هذا بشارةُ خيرٍ له.

قولُهُ: ((**بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ**)) في الحديث الْمَاضي، ((**الْجَبِيْن**)): من منابت شعر الرَّأس إلى الصِّدغين من طرفي الوجه يمينًا وشمالاً، هذا الْمَوضع حدُّهُ الحاجبُ، فهذا هو موضوعُ الجبين، فإذا وُجِد فيه العَرَقُ أو رَشْحُ العَرَقِ، فهذا هو الذي يُبَشَّر به الْمَيِّتُ، ويكونُ علامةَ خيرٍ له.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بابٌ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا عبدالله بنُ أبي زيادٍ الكوفي وهارونُ بنُ عبدالله البزَّارُ البغداديُّ قالا حَدَّثَنَا سيَّارُ بنُ حاتمٍ، حَدَّثَنَا جعفرُ بنُ سليمانَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ بِالْمَوتِ، فَقَالَ: ((**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**)) قَالَ: وَاللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرجُو اللهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حدِيثٌ حسن غَريبٌ، وقد رَوى بعضهُمْ هذا الحديثَ عن ثابتٍ عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مرسلاً.

الشَّرْح:

الحديث الذي ذُكِر فيه هذا الرَّجل فهو ضعيفٌ، وإسنادُهُ ضعيفٌ، لكنَّ متنَهُ صحيحٌ أنَّ العبدَ إذا لَقِيَ اللهَ يومَ يلقاه، وحضرَهُ الْمَوتُ خائفًا من ذنبه، راجيًا لربّه، فإنَّه بخير الْمَنازل عند الله؛ لأنَّ الأحاديثَ الصَّحيحةَ تدلُّ على صحة هذا الْمَتن، فإنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بيَّنَ أنَّ مَنْ أحسنَ الظَّنَّ بالله -عَزَّ وَجَلَّ- عند موته فَرَجَا رحمتَه كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-**)) فَرَجَا رحمتَه، وخاف من عذابه، فإنَّ الله يُؤَمِّنُه من العذاب، ويبلِّغُه ما رَجَا من الرَّحمة.

قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**يَقُولُ اللهُ تعالى: أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَمَنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا كَانَ لَهُ وَمَنْ ظَنَّ بِي شَرًّا كَانَ لَهُ**)).

وحينئذٍ يستشكلُ بعضُ طلبةِ العلم: أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ: ((**مَنْ ظَنَّ بِي شَرًّا كَانَ لَهُ**)) ألا يتعارضُ مع قوله هنا: ((**أَخَافُ مِنْ ذَنْبِي**))؟

والجوابُ: أنَّ الخوفَ من الذَّنب ليس بسوء ظنٍّ بالله، الخوفُ من الذَّنب ناشئٌ عن تعظيم الله -جَلَّ وَعَلا-، واعترافٌ بالتَّقصير، وليس له عِلاقةٌ بالظَّنِّ بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، فإنَّ الاعترافَ بالذَّنب

شيءٌ، والحكمُ على أثر ذلك الذَّنب والإساءة شيءٌ آخر.

فمسألةُ الظَّنِّ بالله: في الحكم على الذَّنب.

وأمَّا بالنسبة لكون الإنسان يخاف من ذنوبه، ويخاف من سيئاته: فهذا فَضْلٌ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-

فإنَّ اللهَ لا يجمعُ **للعبدِ بين خوفينِ وأمنينِ:**

إمَّا أنْ يخافَ في الدُّنيا، فيؤمنه في الآخرة، **وإمَّا** أنْ يأمنَ في الدُّنيا، ويعذبه ويخيفه في الآخرة.

ومن هنا قالَ العلماءُ: إنَّ مَنْ كان في الدُّنيا صحيحًا قويًا البدن في شبابه وفي حال سلامته يُغلِّبُ الخوف؛ حتى يحسنَ العملَ.

فإذا دنا من الْمَوت، واقترب من الْمَوتِ، فإنَّه يُغَلِّبُ الرَّجاء فيما عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؛ حتى يتحققَ قولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا يَمُوتنَّ أَحَدُكُم إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ**)).

فالخوفُ من العقوبة والرَّجاء في الْمَثوبة كلُّ هذا لا يُعارِضُ حُسنَ الظَّنِّ بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، حُسنُ الظَّنِّ أصلٌ في الْمُسلم أنَّه ينبغي أنَّه يُحَسِّنُ ظنَّهُ بالله -عَزَّ وَجَلَّ- على كُلِّ حالٍ، لكن لا يأمنُ من مكر الله، ولا ييأس من روح الله.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَّةِ النَّعْي]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ حميدٍ الرَّزايُّ، حَدَّثنا حكامٌ بنُ سلمٍ وهارونُ بنُ الْمُغيرةِ، عن عنبسةَ، عن أبي حمزةَ، عن إبراهيمَ، عن علقمةَ، عن عبدالله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**إيَّاكُم وَالنَّعْيُ؛ فإنَّ النَّعيَ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ**)).

قَالَ عبدُ اللهِ: والنَّعيُ أذانٌ بالموتِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن حذيفةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

الشَّرْح:

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بابُ ما جاءَ في كراهيةِ النَّعي]** ترجم الْمُصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذا الباب، **والمناسبةُ فيه:** واضحةٌ، فإنَّه بعد قبض الرُّوح يحرصُ النَّاسُ على إعلام بعضهم بعضًا بموت الإنسان، **وحينئذٍ يَرِدُ السُّؤالُ:** عن حُكم هذا الإعلام. والنَّعيُ يقوم على الإعلام والإخبار بموت الإنسان. **النَّعيُ نوعانِ:** نعيٌ **مشروعٌ**، ونعيٌ **ممنوعٌ**.

أمَّا النَّعيُ المشروعُ: فهو أنْ تُخْبِرَ قرابةَ الإنسان وأصحابَه ونحو ذلك من إخوانه الْمُسلمين؛ لكي يكثرَ العددُ في الصَّلاة عليه والدُّعاء له، وهذا يكونُ بعد وفاته، وقبل الصَّلاة عليه، كما فعل النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في الصَّحيح من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- فقالت: ((**نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ**))،وقال: ((**قَدْ تُوُفِّيَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ الْحَبَشِ**))،فَصَلَّى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عليه صلاةَ الغائب.

قالوا: هذا يدلُّ على مشروعية النَّعي، فأخبر الصَّحابةَ، وجمعهم وصلَّى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عليه، هذا النَّعيُ للإخبار بموت الإنسان: لا بأسَ به.

قال ابنُ سيرين: لا أرى بأسًا أنْ يُخْبِرَ قرابةَ الإنسان وأصحابَه، كأهل وُدِّهِ ومحبَّتِهِ؛ من أجل أنْ يقوموا بحقِّه في الصَّلاة عليه، فهذا الإعلامُ لا بأسَ به، **وهو مشروعٌ**.

وأمَّا النَّعيُ الممنوعُ: وهو الذي اشتمل عليه هذا الحديثُ، وهو نعيُ الجاهلية، كانوا يُرسلُون صائحًا يصيحُ في الدُّور وفي الأسواق وفي الطُّرُقات: (أنَّ فلانًا قد مات)، فيُعلِمُون النَّاسَ، ويصيحون، وكأنَّ النَّاسَ ليس عندهم إلا خبرُ موتِ فُلانٍ، وهذا يصحبُهُ في بعض الأحوال الْمَدحُ والتَّزكيةُ والثَّناءُ، كأَنْ يُقالَ: (مات الأمجدُ ابنُ الأماجد، الكريمُ ابنُ الكرام، مات مفخرةُ الأرض، مات مفخرةُ الزَّمان، مات مفخرةُ العصر، مات كذا وكذا) من نحو ذلك من الْمَدح والثَّناء على الشَّخص، **فهذا لا يجوزُ، وهو مُحَرَّمٌ**.

وهكذا الْمُبالغةُ في الإخبار بالْمَوت والنَّعي به، كُلُّ ذلك الأصلُ مَنْعُهُ؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ثبتَتِ السُّنَّةُ بالإذن به على وجهٍ فيه مصلحةٌ للميت من الصَّلاة عليه، وجمع النَّاس، أو كثرة العدد، أو قيام القريب بحقِّ قريبه، والصَّديق بحقِّ صديقه، ونحو ذلك مما هو مشروعٌ.

وهذا يدلُّ على: كمال هذا الدِّين، فإنَّه لم يجعلِ النَّاسَ يعيشون أحزانَ موتاهم، ولذلك خرجَتْ هذه الشَّريعةُ السَّمحةُ من الضِّيق الذي كان فيه أهلُ الجاهلية من الْمُبالغة في موت الأموات، وتعديد مآثرهم، وشغل النَّاس بذلك، كما يفعلُهُ بعضُ أهل البدع، حينما عظَّمُوا موتَ بعض الصَّالحين، وجعلوا الأمة كأنَّهَا قائمةٌ على هذا الحَدَثِ، كالْمُبالغة في موت ميتٍ، أو شهادة شهيدٍ، وتكرار ذلك وإعادته على مَرِّ الأسابيع، أو على مرِّ الأيام، أو على مرِّ الشهور، أو على مرِّ الأعوام، ويُتَّخَذُ ذكرى تُحْيَا، كُلُّ هذا مما لم يأذنِ اللهُ به، سواءً كان للصَّالحين أو الطَّالحين أو غيرهم، كُلُّ هذا مخالفٌ

لشرع الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا من سماحة الدِّين، فإنَّ مَنْ مات يُشتغَل بما ينفعُهُ من الدُّعاء، والتَّرَحُّمِ عليه، وسؤال الله له الْمَغفرةَ، **إنْ كانَ مُسلمًا**.

وأمَّا إذا كان غَيْرَ مُسلمٍ: فقد استراح وأُستُرِيح منه، كما بيَّنَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ذلك. فإحياءُ مآثر الْمَوتى، وكثرةُ الإشادة وذكرهم، كُلُّ هذا من عمل الجاهلية، وقد نَهَى الشَّرعُ عنه **وأجمعَ العلماء** -رَحِمَهُمُ اللهُ- على تحريمه، وأنَّه لا ينبغي الاشتغالُ في ذكر مآثر الْمَوتى، إلا إذا كان على وجهٍ صحيحٍ، وله غرضٌ شرعيٌّ، **مثل**: أَنْ يَذكُرَ الإنسانُ ترجمةَ عالمٍ أو رجلٍ صالحٍ؛ من أجل أنْ يحملَ النَّاسَ على خيرٍ، أو يحملَهم على طاعةٍ وبِرٍّ.

أمَّا الاشتغال بعد موت الْمَيِّت بالنَّعي، والْمُبالغة به، بل بعضُهم يستمرُّ في هذا النَّعي حتى بعد وفاة الْمَيِّت، فيُعلِنُ ذلك، ويُشْهِرُهُ في الْمَلأ، ويدفعُ الأموالَ الطَّائلةَ، حتى ولو كان بمساحاتٍ واسعةٍ في الجرائد ونحوها مكلفةٍ؛ من أجل أنْ ينعى موتاه، ويدخل في ذلك نوعٌ من التَّفاخر، ونوعٌ من إظهار مكانة الْمَيِّت، كلُّ هذا مما كان عليه أهلُ الجاهلية.

وأمَّا الإسلامُ فقد جاء بالسَّماحة واليُسر.

فهذه الأموالُ لو أُنفِقت على اليتامى، وكُفكِفت بها دموعُ الأراملِ والثُّكَالى لكان في ذلك من الخير العظيم للمَيِّت ولأهله، فهذا هو الذي ينبغي أنْ يُشتَغَلَ به، وهو الذي يُعَوَّلَ عليه.

أمَّا صرفُ الأموال في النَّعي، وفي ذكر الْمَآثر، وفي الْمَدح، وفي تأليف الكُتب في ذكر السِّيَر لأقوامٍ لا يستحقونَهَا، كُلُّ هذا مما كان عليه أهلُ الجاهلية.

وقد رَحِمَ اللهُ هذه الأمةَ الْمَرحومة فأنجاها من هذه الشَّطَطِ، وجعل لها الأمرَ يسرى، فمن مات يقام بحقِّه بتغسيله وتكفينه والصَّلاة عليه والتَّرَحُّم عليه، وما وراءَ ذلك فإنَّا في غَنَاء عنه؛ لأنَّ اللهَ أغنانا عنه، فنرجو للمُحسن الإحسان، ونرجو للمسيء من موتى الْمُسلمين الصَّفحَ والغُفرانَ، فندعو لهم، ونَتَرَحَّمُ عليهم، ونستغفرُ لهم، كما قال تعالى: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}**، فهذا هو الذي ينبغي أنْ يسيرَ عليه الْمُؤمنُ الْمُوفقُ الصَّالحُ.

وأمَّا بالنِّسبة لِمَا وراء ذلك من الْمُبالغة في ذكر مآثر الْمَوتى لتمجيدهم وتعظيمهم، والاشتغال بمثل هذه الأمور، فكُلُّهُ مما لم يأذنِ اللهُ به.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا سعيدُ بنُ عبدالرحمن المخزوميُّ، حَدَّثنا عبدالله بنُ الوليدِ العدنيُّ، عن سُفيانَ الثَّوريِّ، عن أبي حمزةَ، عن إبراهيمَ، عن علقمةَ، عن عبدالله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عن النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نحوَهُ، ولم يرفعهُ، ولم يذكرْ فيهِ: ((**والنَّعيُ أَذَانٌ بِالْمَيِّتِ**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: وهذا أصحُّ من حديثِ عنبسةَ عن أبي حمزةَ.

وأبو حمزةَ هو ميمونٌ الأعورُ، وليسَ هو بالقويِّ عندَ أهلِ الحديثِ.

الشَّرْح:

قولُهُ: ((**إِيَّاكُمْ**)) أي اجتنبوا، ((**والنَّعْي**)): كما ذكرنا، هذا في الأصل عمومُهُ أنَّه لا يجوزُ نعيُ الْمَيِّت، فلَمَّا نَعَى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- النَّجاشيَّ، ونَعَى زيدَ بنَ حارثةَ، ونَعَى جعفرَ بنَ أبي طالبٍ حينما أُستُشهِدا يومَ مؤتةَ، فكشف اللهُ له، فقال: ((**أَخَذَ الرَّايَةَ زيدٌ، فَقُتِلَ**))، ثم قال: ((**أَخَذَهَا جَعْفَرُ، وَقُتِلَ، فَاستَغْفِرُوا لَهُ**)) فاستغفَروا له، ثم قال: ((**أَخَذَهَا خَالِدٌ، فَفُتِحَ عَلَيهِ، أَوْ قَالَ: اللَّهُمَّ افتَحْ عَلَيهِ**)).

هذا يدلُّ على مشروعية النَّعي؛ لأنَّه نَعَى زيدًا، ونَعَى بعدَه جعفرًا، ثم لَمَّا نزل من الْمِنبر -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-؛ لأنَّ الحديثَ في وأحمدَ في مسنده أنَّه لَمَّا بعثَهُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- بَعْثَ زيدٍ في غزوة مؤتةَ، وخرجوا، وحضرت نادى: (**الصَّلاة جامعة**)، فرقى الْمِنبر، ثم قال ما سبق قولُهُ، ثم بعد ذلك نزل من الْمِنبر، ومضى إلى آلِ جعفرٍ، وقال: ((**ادعُوا لأولادِ جعفرٍ**))، فأُوتي بأولاده، ودمعَتْ عيناه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ودعا لهم وبرَّكَ عليهم. **فالْمَقصودُ:** أنَّه أخبرَهم بوفاته، وهذا يدلُّ على مشروعية الإخبار بوفاة الإنسان ونعيه، ويُعتَبَرُ استثناءً من النَّهي الذي وَرَدَ في حديثنا، بمعنى أنَّه مُخَصِّصٌ لعموم هذا النَّهي.

أو يكون الذي نُهِي عنه شيءٌ، والذي وَرَدَ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- شيءٌ آخر، **كلاهُما وجهانِ**.

أنْ يكونَ الذي نُهي عنه الذي فيه ذكر الْمَدائح والثَّناء على الْمَوتى، ونحو ذلك.

ويكونُ الجائزُ هو الذي يُرَادُ به الإعلام والإخبار.

كلاهُما وجهان عند أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ- أمَّا الأصلُ عندهم أنَّ الأحاديثَ صحيحةٌ في أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَعَى، وأنَّه لَمَّا نَعَى، وأخبر أصحابَه صلَّى على الْمَيِّت، كما في حديث النَّجاشيِّ: ((**وَصَلَّى عَلَيْهِ**)) بمعنى دَعَا، كما في قوله: ((**وَاستَغْفِرُوا لَهُ**))، فاستغفرَ الصَّحابةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- لجعفرٍ، ونحو ذلك مما هو مبنيٌّ على غرضٍ شرعيٍّ صحيحٍ.

وأمَّا النَّعيُ الذي فيه الْمَدح والثَّناء والْمَبالغة: فهذا هو الْمُحَرَّمُ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: حديثُ عبدالله حدِيثٌ غَريبٌ.

وقد كرهَ بعضُ أهلِ العلمِ النَّعيَ، والنَّعيُ عندهُم أنْ ينادىَ في النَّاسِ بأنَّ فلانًا ماتَ؛ ليشهدُوا جنازتَهُ.

الشَّرْح:

هذا من حيث الأصل العام أنَّ النَّعيَ أنْ يُنادى في النَّاس.

إمّا أنْ تذهبَ إلى شخصٍ معينٍ وتخبره، وتذهب إلى قرابته وآله: فلا بأسَ، ولا حرجَ.

أمَّا أنْ يُنادى في النَّاس: (أيُّها النَّاس، إنَّ فلانًا مات) فهذا فيه نوعٌ من الغلو حتى في الأموات، والنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا مات ما رُقِيَ على الْمِنبر، وقِيلَ: (أيُّها النَّاس، إنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مات) ولا جاءوا في أسواق الْمَدينة ولا على أبواب الطُّرُقات، ولا على أبواب الْمَدينة يقولون: (أيُّها النَّاسُ إنَّ نبيَّكُم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- مات) أبدًا.

ولذلك ما يفعلُهُ البعضُ من تعليق الأوراق في الطُّرُقات وفي الأماكن العامة: (أنَّ فلانًا مات)، هذا من النَّعي، يعتبر من النَّعي الْمَمنوع.

أمَّا كونه يذهب إلى قرابته، كما ذهب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إلى آل جعفرٍ، وقال: ((**اصنَعُوا لَهُم طَعَامًا فَقَدْ أَتَاهُم مَا يَشْغَلُهُم**)).

ثم كذلك أيضًا أخبر أصحابَه الذين عندهم: ((**نَعَى النَّجَاشِيَّ**)) بمعنى أخبرَهم بموته؛ لأنَّ النَّعيَ بمعناه العام الإخبار بالْمَوت، فأخبر أصحابَه، ولم يأمرْ مناديه أنْ يناديَ: أنَّ النجاشيَّ مات.

فهناك فرق بين الإعلام بصفةٍ عامةٍ، وبين الإعلام بصفةٍ خاصةٍ:

أمَّا الإعلامُ بصفةٍ خاصةٍ: فقد ثبتَتْ به السُّنَّةُ، وصحَّتْ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولذلك استثناهُ أهلُ العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وَقَالَ بعضُ أهلِ العلمِ: لا بأسَ بأنْ يُعلمَ الرَّجُلُ قرابتَهُ وإخوانَهُ، وروِيَ عن إبراهيمَ أنَّهُ قال: لا بأسَ بأنْ يُعلمَ الرَّجُلُ قرابتهُ.

الشَّرْح:

هذا التَّخصيصُ من شدَّةُ وَرَعِ السَّلف، قالوا: **(قرابتَهُ وإخوانَهُ)** ما استطاعوا حتى أنْ يستثنوا الغيرَ لكن أضفنا النَّاسَ **مثل**: النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-أخبر عن النَّجاشيِّ الصَّحابةَ-رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-، وهم ليسوا من القَرَابةِ، ليسوا من قرابة النَّجاشيِّ، ولكن أخبرهم لغرضٍ صحيحٍ، وهو الصَّلاة عليه -رَحِمَهُ اللهُ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا أحمَدُ بنُ منيعٍ، حَدَّثنا عبدُ القدُّوسِ بنُ بكرِ بنِ خُنيسٍ، حَدَّثنا حبيبُ بنُ سليمٍ العبسيُّ، عن بلالِ بنِ يحَيى العبسيِّ، عن حذيفةَ بن اليمان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- قَالَ: ((**إِذَا مِتُّ فَلا تُؤْذِنُوا بِي أَحَدًا، فَإِنِّيّ أَخَافُ أَنْ يَكُونَ نَعْيًا، وَإِنِّيّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَنهْى عَنِ النَّعِيِ**))، هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الشَّرْح:

هذا الأثرُ في الأصل من كونه يمنع أنْ يُؤذَنَ به -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- **يدلُّ على** حرص الصَّحابة على السُّنَّةِ والعمل بما بَلَغَهُم عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أو سمعوه.

ويدلُّ على مسألة ثانية وهي: أنَّه ينبغي لِمَنْ حضرَهُ الْمَوتُ، أو أراد أنْ يوصيَ أنْ يوصيَ بالسُّنَّةِ وتحري السُّنَّة في تغسيله وتكفينه والصَّلاة عليه، ونحو ذلك من الأمور الْمُتعلقة به، فهذا من الخير الذي يُختَمُ به للإنسان أنْ يقولَ: (أُوصِي قرابتي أنْ يتحرَّوا سُنَّةَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في تغسيلي وتكفيني والصَّلاة عليَّ، وألا يفعلوا الْمُنكرات، أو البدع والْمُحدثات مثل ما يقع في العزاء ونحو ذلك) فيوصيهم بتقوى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ويشدِّدُ عليهم في ذلك، كما يُلاحظ من هذا الصَّحابي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كيف شدَّد في هذا الأمر، أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يوصيَ قرابتَه بهذا، وهو فِعلُ السَّلف الصَّالح من

الصَّحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-، ويُؤجَرُ الإنسانُ على هذا؛ لأنَّ فيه اتباعًا لسُنَّةِ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وإحياءً لها، وخاصةً في هذه الأزمنة، فإنَّ الناسَّ خالفوا الوَارِدَ، وخرجوا عن السَّنَنِ، وأصبحوا يُحدِثُون أمورًا في موتاهم من تأخير الْمَيِّت، وانتظار النَّاس، وكثرة النَّاس، والإطالة في النَّعي والْمُبالغة في إعلام النَّاس، كُلُّ هذه من الأمور التي خالفُوا بها السُّنَّةَ.

والسُّنَّةُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قال كما في حديث طَلْحَةَ بْنَ الْبَرَاءِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِجِيفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تُحْبَسَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِهِ**)).

وقال كما في الصَّحيح من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَسرِعُو بالْجنازةِ**))؛ فإنَّ الْمُؤمنَ يُعَجَّلُ بما عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وإنَّ الْمُؤمنَ إذا حُمِلَ يصيحُ وتقولُ الجنازة: قَدِّمُوني، قَدِّمُوني، إذا كان عبدًا صالحًا، فلا يُحِلُّ حبسُ الجنائز، وانتظارُ فُلانٍ وعِلانٍ، ونحو ذلك من الأمور التي خالفَتِ السُّنَّةَ وأهلُ العلم وطلبةُ العلم هم أولى النَّاس بإحياء السُّنَّةِ، وإماتة البدعة.

وإنَّك لتعجبُ حينما ترى بعض النَّاس في عزاء الْمَيِّت، وكأنَّه -نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ-فَرَحٌ من الأفراح من كثرة الذَّبائح، ومن كثرة النَّاس الذين يشهدون الطَّعام، ونحو ذلك من الجلوس في بيت الْمَيِّت، والْمُبالغة فيه، كُلُّهَا من البدع والْمُحدثات.

مَنِ الذي يحيي السُّنَّةَ؟ مَنِ الذي يميت هذه البدع بإذن الله؟ هم طلبةُ العلم وأهلُ العلم. وللأسفِ إذا كان طلبةُ العلم يُجَارُونَ عامةَ النَّاس، وأهلُ العلم يُجَارُونَ عامةَ الناس في ذلك.

فالْمُنبغي لِمَنْ حضرَتْهُ الوفاةُ، أو أراد أنْ يوصيَ أنْ يوصيَ أهلَه بمثل هذا، وهو تحرِّي السُّنَّةِ، وترك البدعة.

فهذا الصَّحابيُّ لَمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ مَنَعَهُم من الأمور التي يخشاها، وهي مخالفةٌ لهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولنا فيهم أسوةٌ حسنةٌ بعد رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهذا أمرٌ مطلوبٌ من كُلِّ مَنْ يريدُ الأجرَ والْمَثوبة. وإذا فعلَ الأخيارُ ذلك ائتسى النَّاسُ بهم واقتدوا.

وفيه حرصُهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- على الإعلام بهذه السُّنَّة عند موته، ما يسميه العلماءُ بـ(**التَّحديث عند الْمَناسبة**)، فإنَّ الصَّحابةَ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- حدَّثُوا بأحاديثَ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خاصةً حينما وُجِدَتِ الْمُناسبةُ، كانت الحاجةُ أبلغَ.

ولذلك يُشرَعُ للعالم ولطالب العلم أنْ يفيدَ النَّاسَ، خاصةً عند وجود الْمُوجب، وأنْ يَعتَنِي بدلالتهم على السُّنَّةِ، ويحذِّرَهم عَمَّا فيه مخالفةٌ لهدي رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنته.

نسألُ اللهَ أنْ يرزقَنا العلمَ النَّافع والعملَ الصَّالح، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك علمًا نافعًا، وعملاً صالحًا يقرّبُنا إليك، ثَبِّتْنا على الحقِّ حتى نلقاك، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنا على الحقِّ حتى نلقاك، اللَّهُمَّ ارزُقْنا التَّمسُّكَ بالسُّنَّة عند فساد الأمة.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

رقم الدَّرس ٤١٢

الأربعاء ٢٤-٣-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الصَّبْرَ فِي الصَّدْمَةِ الأُوْلَى]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ، حدثنا اللَّيثُ، عن يزيدَ بنِ أبي حبيبٍ، عن سعدِ بنِ سِنانٍ، عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أنَّ رسولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**الصَّبْرُ فِي الصَّدَمَةِ الأُوْلَى**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حدِيثٌ غَريبٌ من هذا الوجهِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ قال حدثنا مُحَمَّدُ بنُ جعفرٍ عن شعبةَ عن ثابتٍ البنانيّ عن أنسِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُوْلَى**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأَتَمَّانِ الأكملانِ على خيرِ خلقِ اللهِ أجمعينَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ سارَ على سبيلِهِ ونَهْجِهِ واستَنَّ بسنتِهِ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد ترجم الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيُّ بِهذه التَّرْجمة والتي تتعلَّقُ ببيان فضل الصَّبْر عند حصول الفاجعة **ومناسبةُ هذا الباب لكتاب الجنائز**: ظاهرةٌ، حيث إنَّ الْمُسلمَ يحتاجُ إلى ما يسليه ويعزيه، خاصةً عند نزولِ الْمَصائب وحلولِها.

وقد بيَّن النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث الصَّحيح أنَّ أعلى الدَّرجات وأعظم ما يكون الْمُؤمنُ في صبره على البلاء، واحتسابه للأجر عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، أنْ يكونَ صبرُه عند الصَّدمة الأولى.

وهذا الحديث يبيّنُ ما ينبغي أنْ يكونَ عليه الْمُؤمنُ من الثَّبات، وحُسنِ الظَّنِّ بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، واليقينِ الكاملِ فيه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بحُسنِ الخلف منه، فإنَّه ما أصيب عبدٌ بمصيبةٍ، فأحسنَ الرُّجوعَ إلى الله -جَلَّ وَعَلا- إلا جعل اللهُ عاقبتَه على أحسن ما تكونُ عليه العواقبُ.

وقد بشَّر اللهُ الصَّابرين، وأحبَّ الصَّابرين، وأثنى على الصَّابرين، وذكر الصَّبْرَ في كتابه في أكثر من

سبعين موضعًا، حتى قال عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: (**أَلا إِنَّ مَنزلةَ الصَّبْرِ من الإيْمانِ كمنزلةِ الروحِ من الجْسدِ، ألا لا إيْمانَ لمن لا صبرَ له**).

والصَّبْرُ يدلُّ دِلالةً واضحةً على كمال الإيمان بالله، وحُسنِ الظَّنِّ بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولذلك أحبَّ اللهُ أهلَه، فهو من الخصال الْمُقرِّبة إلى ذي العزَّةِ والجلال، وقد قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الصَّحيح: ((**وَمَا أَعْطَى اللَّهُ أَحَدًا مِنْ عَطَاءٍ أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ**))؛ ذلك أنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لا يعطيه إلا لِمَنْ أحبَّ.

والصَّبْرُ يدلُّ على الإيْمان بالله وبقضائه وقدره، ويدلُّ على كمال الثِّقة في الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وهذا الصَّبْرُ له أسبابٌ تعينُ عليه، وتجعل الْمُسلمَ من أهله:

ومن أعظم هذه الأسباب وأجلِّها: الإيمانُ بالله -جَلَّ وَعَلا-، ولذلك أكملُ النَّاس صبرًا في هذه الدنيا هم أكملُ النَّاس إيمانًا وتوحيدًا؛ لأنَّهُم آمنوا بالله، وصدَّقُوا بكتاب الله وبما جاء به رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من عند الله، ومن كان بِهذه الصِّفة فإنَّه لا يتزلزلُ في الْمَصائب، ولا يقلقُ، ولا يجزعُ، ولا يقولُ إلا ما يرضي الله، ويعلمُ الْمُؤمنُ علمَ اليقين أنَّه إذا صَبَرَ، فإنَّ الله يصبِّرُه؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال في الحديث الصَّحيح: ((**وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ**)).

وإذا كان الْمُؤمن متوكِّلاً على الله، مفوضًا أمرَه إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فإنَّ هذا من أعظم ما يعينه على الصَّبْرِ والثَّبات.

ومن الأسباب التي تعينُ على الصَّبْرِ: الإيمانُ بالقضاء والقدر، فإنَّ العبدَ إذا عَلِمَ أنَّه ما من شيءٍ في هذه الدُّنيا يكون أو هو كائنٌ إلا وهو بقضاء الله وقدره، وسابقِ علمه سبحانه وتقديره ولذلك قال تعالى في كتابه: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}**، فمن آمن بالله، ووحَّد الله، وعلم أنَّ هذه الأمورَ قدَّرها الله، فإنَّه يتلقى قضاءَ الله بما يرضي اللهَ، ويقول: (الْحَمدُ لله على كُلِّ حالٍ، وأعوذُ بالله من حالِ أهلِ النارِ).

الأمرُ الثَّالثُ مما يعينُ على الصَّبْرِ: ثقتُهُ بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بحُسن الخلف، فإنَّ الْمُؤمنَ إذا عَلِمَ أنَّ اللهَ ما أَخَذَ شيئًا إلا أَعطَى خيرًا منه، وأنَّ اللهَ يُعطي لحكمةٍ، ويأخذُ لحكمةٍ، وأنَّه رُبَّما سلبه الْمَالَ والولدَ لِعِلْمِهِ سبحانه أنَّ الْمَالَ فتنةٌ لعبده، وأنَّ الولدَ فتنةٌ لصَفِيِّهِ ووليِّهِ، فيأخذ الولدَ عنه حتى يخلصَه من هذه الفتنة، كما أخبر اللهُ في الغلام في قصة موسى -عَلَيهِ السَّلامُ- مع الخضر: **{وَأَمَّا الْغُلامُ**

فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}، فأخبر اللهُ أنَّه لو بقي هذا الولدُ أنَّه سيرهق والديه طغيانًا وكفرًا.

فإذا نزلت الْمُصيبةُ بالْمُؤمن في نفسه أو ماله أو أهله أو ولده، وعَلِمَ أنَّ اللهَ يريدُ به الخيرَ، وأنَّ هذا الولدَ لا يُغني له من الله شيئًا، وأنَّ هذا الْمَالَ لا يُغني له من الله شيئًا، وأنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- رُبَّما أَخَذَ عنه هذا الْمَال، أو أَخَذَ عنه هذا الولدَ لخيرٍ يريدُهُ به، اطمأنَتْ نفسُه، وانشرح صدرُه، ووَثِقَ بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-:

يُوسِّعُ الضِّيقَ الرِّضَا بالضِّيقِ وإنَّمَا السَّعْدُ مِنَ التَّوفِيقِ

فهذا من توفيقِ الله للمؤمن، أنَّه يرضى بقضاء الله لحسن ظنِّه بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وقد أشار النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إلى هذا الْمَعنى في قوله: ((**عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ**))، وهذا يدلُّ على أنَّ اللهَ لا يريدُ بالْمُؤمن إلا خيرًا، ومن أحسنَ الظَّنَّ بالله هَانَتْ عليه الْمَصائبُ، وذُلِّلَتْ له الْمَتاعبُ، وزَالَتْ عنه الْمَصاعبُ، وكان له من الله معينٌ وظهيرٌ، فلو أحاطتْ به الدُّنيا بهمومِها، وأطبقتْ عليه بغمومِها لجعل اللهُ له من بين أطباقهنَّ فرجًا ومَخرجًا.

ومما يعينُ على الصَّبْرِ: أنْ يكونَ الْمُؤمنُ قويَ الثِّقة بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في لطفه ورحمته، فما من مصيبةٍ إلا وهناك ما هو أكبر منها، **كما قالَ بعضُ السَّلف**: (ما ابتلاني اللهُ بمصيبةٍ إلا كان له عليَّ فيها ثلاثُ نِعَمٍ: **أولها**: أنَّهَا لم تكنْ في ديني، **وثانيًا**: أنَّ اللهَ لم يبتليني بما هو أكبر منها).

فما من مصيبةٍ إلا وهناك ما هو أكبر منها، ولكنَّ اللهَ إذا ذَكَّرَ العبدَ ببلاءٍ عَلِمَ العبدُ أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يبتليَه بما هو أعظم منه، وعندها يحمدُ الله على لطفه ورحمته وكرمه.

ذكروا عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّه لَمَّا دَفَنَ ابنَه عبدَ الْمَلك، وكان ابنُه عبدُ الْمَلك من أبرِّ الأبناء وأصلحِهم، وكان خيِّرًا ديِّنًا، كان أمَّارًا بالْمَعروف، نَهَّاءً عن الْمُنكر، وكان يأمرُ والدَه حتى في خلافته بأمرِ الله، وينهاه عمَّا نَهَى الله -عَزَّ وَجَلَّ- عنه، وكان عُمَرُ يحبُّه حبًّا شديدًا فتوفي عبدُ الْمَلك، فكانت مصيبةً عظيمةً على عُمَرَ -رَحِمَهُ اللهُ-، فلَمَّا دَفَنَهُ ومضى جاءه رجلٌ بعد أن استقرَّ في دار الخلافة، جاءه رجلٌ يشتكي، و ذكر أنَّه كان في ليلةٍ ظلماءَ في غنًى ونعمةٍ، وكان معه مالهُ وأهلُهُ وولدُهُ وحشمُهُ وخدمُهُ، فجاء السَّيلُ فاجتَرَفَهم عن بَكْرَةِ أبيهم، وأنَّه أصابَه الحزنُ، وما زالَ يبكي حتى فَقَدَ عينيه من شدّةِ ما وَجَدَ من الحزن، فلَمَّا سمع عُمَرُ قصتَه تعزَّى -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-.

الْمُسلم إذا عَلِمَ أنَّ هناك ما هو أشدُّ وما هو أعظم، فإنَّه يتعزَّى بلطف الله به، فإنَّ اللهَ لطيفٌ بعباده.

ومما يعينُ على الصَّبْرِ: إسنادُ الْمَصائب إلى الذُّنوب والخطايا، والتَّقصير في جنب الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فإذا عَلِمَ العبدُ أنَّه ما أصابَتْهُ سيئةٌ إلا من نفسه، وعَلِمَ أنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لو آخَذَهُ بذنبه ما تركَه يمشي على وجه الأرض، فعندها يتعزَّى ويصبرُ، ويخافُ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ويفرُّ من الله إلى الله، وهذا من أعظم الْمَقامات عند نزول الْمَصائب وحلول النَّكبات.

بيَّن الْمُصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- في هذه التَّرْجمة أنَّ الصَّبْرَ عندَ الصَّدمةِ الأولى.

الصَّبْرُ الْمُرادُ به: كمال الصَّبْرِ، وليس الْمُرادُ به أنَّه لا صَبْرَ إلا عند الصَّدمة الأولى، فالصَّبْرُ الكاملُ العظيمُ الأجر عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هو الصَّبْرُ الذي يكون في الصَّدمة الأولى.

والصَّدمُ: ارتطامُ الشَّيء بالشَّيء بقوةٍ.

والمراد بالصَّدمَةِ الأُوْلَى: حينما تنزلُ الفاجعةُ بالإنسان أول ما تنزل، وهذه هي الصَّدمة الأولى، أنْ يصدمَ الإنسانُ بالخبر الذي يفقدُ فيه ما يعزُّ عليه، سواءً كان مالاً أو ولدًا أو عزيزًا أو نحو ذلك، فإذا جاءَهُ الخبرُ أولَّ ما يجيءُ فهي الصَّدمة الأولى، فإذا تلقَّى الأمرَ بالطُّمأنينة والثَّبات والرِّضى بقضاء الله وقدره، وحمد اللهَ على كُلِّ حالٍ واسترجع، فإنَّه في أعلى منازل الصَّابرين.

هذا معنى قولِهِ: ((**الصَّبْر**))، ((**الصَّبْرُ**)): أي الصَّبْرُ الكاملُ، والأعظمُ أجرًا.

والنَّاسُ إذا نزلَتْ بِهِمُ الْمصائبُ: منهمُ **الصَّابرُ**، ومنهمُ **الجَزِعُ**.

فأمَّا إذا كانوا صابرين: فإنَّ اللهَ يفاضلُ في منازلهم ومراتبهم، حتى إنَّه يكونُ بين الرَّجُل والرَّجُل كما بين السَّماء والأرض في الأجر والْمَثوبة؛ وهذا على حسب اختلافهم في اليقين بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، وحسن الظَّنِّ بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، واستشعار حسن الخلف من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ونحو ذلك مما فيه توحيدٌ وإيمانٌ وعبوديةٌ لله -جَلَّ وَعَلا-.

فهناك مِنَ النَّاس مَنْ يصبرُ لعلمه أنَّه لا حيلةَ ولا مَخرجَ، **وهناك** مَنْ يصبرُ إيمانًا بالله، واحتسابًا للثَّواب عند الله، فهذا بمنزلةٍ، وهذا بمنزلةٍ، فالْمَنازلُ تتفاوتُ.

فأكملُ المنازلِ وأعظمُها: أنَّه إذا نزلَتِ الْمُصيبةُ بالإنسان أول ما تنزلُ ثَبَتَ بثبات الله، مستشعرًا ما عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- من حسن الخلف، ومؤمنًا بقضاء الله وقدره.

فإذا جمعَ اللهُ للعبد بين هذه الخِصال، فإنَّه في أعلى الْمَنازل وأعلى الْمَراتب.

ومن النَّاس مَنْ يجزعُ ويُفجَعُ ويتألَّمُ، ثم يصبرُ.

ثم هؤلاء الَّذين هم في الْمَرتبة الثَّانية **يتفاوتون**: منهم مَنْ يجزعُ، ويرجعُ مباشرةً، ومنهم مَنْ يجزعُ، ويتأخرُ رجوعُه.

وكلٌّ له أجرُهُ: **{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا}**، فاللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فَاضَلَ بين النَّاس، فَاضَلَ بين الصَّابرين، وفَاضَل بين الْمُحتسبين على قدر كمال إيمانِهِم، وتوحيدهم به -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فنسألُ اللهَ بعزته وجلاله وعظمته وكماله أنْ يثبتَ قلوبَنا، وأنْ يسدِّدَ ألسنتَنا، وأنْ يلهمَنا الرِّضى بقضائه وقدره على الوجه الذي يرضيه عنَّا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**عندَ الصَّدمةِ الأُولَى**)) الصَّدمة الأُولى مؤلِمةٌ وموجعةٌ، وتأتي على صُورٍ قد تتزلزلُ فيها القلوبُ، وتطيشُ فيها العقولُ، واللهُ تعالى يجعلُ هذا الصَّدم ويجعلُ هذه الصَّدمة الأولى لوليِّه الْمُؤمنِ على أعلى مراتبها:

فالذي يأتيه الخبرُ بطريقةٍ مزعجةٍ مقلقةٍ مؤلِمةٍ أعظم أجرًا عند الله من الذي يأتيه بطريقةٍ هينةٍ سهلةٍ لينةٍ.

ومَنْ مات ولدُه أمام عينيه ليس كمن مات غائبًا عنه.

ومَنْ مات ولدُه وأخوه وأختُه وأمه وأبوه وقريبُه وحبيبُه وهو ينظر إليه في صورٍ مزعجةٍ مقلقةٍ، وهو صابرٌ، مُحتسبٌ للأجر عند الله، مستيقنٌ بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فإنَّه بأعلى الْمَراتب عند الله -جَلَّ وَعَلا- وهذا هو الفيصلُ بين أولياء الله في علوِّ مراتبهم ومنازلِهم، أنَّ اللهَ يختارُ لوليِّه الْمُؤمنِ أشدَّ الأمور وأصعبَها؛ حتى يعظمَ أجرُهُ في البلاء.

فالصَّبْرُ عند الصَّدمة الأُولى ينبغي للإنسان أنْ يتهيأَ له بالتَّوحيد، والإيمان بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، والثِّقة الكاملة بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، أَبَى اللهُ لوليِّه الْمُؤمن إذا آمن بالله وصدَّق ووفَّى لله، وصدَّق بكتاب الله، واتَّبع رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إلا أنْ يُظهِرَ الله ذلك الإيمان، ولذلك تجدُ أهلَ الإيمان في الْمَصائب والْمَصاعب وفقد الأحبة وفقد الأعزاء أصدقَ ما يكونون ثباتًا، وأكملَ ما يكونون سدادًا في أقوالِهم وأعمالِهم، قدوةً للمؤمن، وسلوى للأخيار والصَّالحين.

ولذلك أولى النَّاس بِهذا الصَّبْرِ عند الصَّدمة الأُولى هم العلماءُ، وطلبةُ العلم، والأخيارُ، الذين هم قدوةٌ لغيرهم، وينبغي للمؤمن دائمًا أنْ يوطِّنَ نفسَه بالتَّوحيد والإيمان، والتَّسليم لله -جَلَّ وَعَلا-، حتى إذا نزلَتْ به الْمُصيبةُ أَظهَرَ من قوله وعمله ما يرضي اللهَ -جَلَّ وَعَلا-.

ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**وَلا نَقُولُ إِلا مَا يُرضِي اللهَ**)).
فنسألُ اللهَ بعزته وجلاله وعظمته وكماله أنْ يلطفَ بنا، وأنْ يرحمَنا برحمته وهو أرحم الرَّاحمين.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي تَقْبِيْلِ الْمَيِّت]**.
قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ، حدثنا عبدالرحمن بنُ مهديّ، حدثنا سفيانُ عن عاصمِ بنِ عُبَيدِ اللهِ، عن القاسمِ بنِ مُحَمَّدٍ، عن عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قَبَّلَ عثمانَ بْنَ مَظْعُونٍ وَهُوَ مَيِّتٌ وَهُوَ يَبْكِي، أَوْ قَالَ: عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ**)).
قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن ابنِ عبَّاسٍ، وجابرٍ، وعائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-، قالُوا: ((**إِنَّ أَبَا بَكْرٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **قَبَّلَ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَهُوَ مَيِّتٌ**)).
قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ عائشةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

تقبيلُ الْمَيِّت ثبتَتْ به السُّنَّةُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، والآثارُ عن الصَّحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-.

وهذا التَّقبيل تقبيلُ إجلالٍ وإكرامٍ إذا كان لذي الحقِّ، كالوَالد والعَالِم، وكتقبيل أبي بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **ويكونُ** التَّقبيلُ تقبيلَ رحْمةٍ وعاطفةٍ، **ويكونُ** تقبيلَ وفاءٍ، كتقبيل الأخِ لأخيه، والْمُحبِّ في الله لِمَنْ يُحبُّه في الله، أنْ يُقَبِّلَ جبهتَه؛ إكرامًا لِمَا بينهما من العهد.
وقد ثبتَتْ السُّنَّةُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في تقبيله لعثمانَ بنِ مظعونٍ، وهذا يدلُّ على كمال وفائه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، فكان أرحمَ النَّاسِ بالنَّاس -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، كان أرحمَ بأصحابه وأحبابه من الوَالد بولده -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ولذلك ضَرَبَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- الْمَثلَ الكاملَ في الأخوة والْمَحبة، كان -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أكملَ ما يكونُ في إخوته ومحبَّتِه وصحبته لأصحابه، ولذلك من تأمَّلَ سيرةَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وجدَها على أكمل ما تكون السِّيرةُ، وأكمل ما يكونُ الحالُ، فهو -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- إذا صحب النَّاسَ صحبهم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- على الوفاء، وحفظ العهد والذِّمة، وبقيتْ مَحبَّتُهم في قلبه -عَلَيهِ الصَّلاةُ

وَالسَّلامُ-، ولَمْ تنقطعْ بالرَّحيل من هذه الدُّنيا، فكان يُحبُّ أصحابَه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ويعطفُ عليهم، ويتفقدُ أمورهم، فإذا ماتوا شَهِدَ لهم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، كما في الحديث الصَّحيح نَّه لَمَّا رأى شهداءَ أُحُدٍ قد جُندِلُوا على الأرض في الله ولله ولإعلاء كلمة الله، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**زمِّلُوهُم في ثيابِهم؛ فإنِّي شَهِيدٌ لَهُم بَيْن يَدَي رَبِّهِم**)).

وكان -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أبرَّ ما يكون في وفائه لأصحابه، حتى في حال الْمَوت وبعد الْمَوت. فهذا مثالٌ من هذه الأمثلة، وكان إذا فقد الصَّاحبَ من أصحابه تفقَّد أولادَه، وتفقَّد أحوالَهُم، كما صنع مع جابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، فإنَّه كان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على أكمل ما يكون الأخُ والْمُحِبُّ والصَّاحبُ لِمَنْ يصحبُ.

ثبت الحديثُ الصَّحيحُ أنَّ عبدالله بنَ حرامٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- وهو والدُ جابرٍ لِمَّا قُتِلَ يومَ أُحُدٍ جعل جابرٌ يكشفُ الثَّوبَ عن وجه أبيه ويبكي، فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**تَبْكِيهِ أَوْ لَا تَبْكِيهِ؛ مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ**))، كان يصبِّرُ ويعزِّي -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ويتفقَّدُ ويسألُ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ومن ذلك: لَمَّا مات عثمانُ دخل -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وقد آخى بينه وبين عثمان، وكان يُحبُّه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، فدخل عليه وقبَّله، وذرفَتْ عيناه من الرَّحْمة والْمحبَّة وحفظ العهد، وهذا يدلُّ على أنَّ البكاءَ ودمعَ العين مشروعٌ وغَيْرُ ممنوعٍ.

وإنَّما الْمَمنوعُ ما يكون من التَّسخُّط والتَّذمر من القضاء والقدر.

أمَّا لو أنَّ الإنسانَ دمعَتْ عيناه، وخشع قلبُه، وقال خيرًا، فهذا شيءٌ لا يملكُهُ، واللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لا يُؤاخذُ العبدَ بدمع العين، ولا بِحزن القلب، ولكن يؤاخذُهُ بالتَّسخُّط والتَّذمر، وقولِ ما لا يرضي اللهَ -جَلَّ جَلالُهُ-، نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ.

ولَمَّا قُبِرَ عثمانُ أَمَرَ بوضع علامةٍ على قبرِهِ -صَلَوَاتُ اللهَ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وأَخَذَ العلماءُ من هذا دليلاً على مشروعية تعليم القبر، كما ترجم له بعضُ الأئمة -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

فالشَّاهدُ: أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وَفَّى لعثمانَ، قَبَّلَهُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وهذا يدلُّ على مشروعية تقبيل الْمَيِّت، وأنَّه لا بأسَ به، ولا حرجَ، وأنَّه من الوفاء، وقَبَّلَ أبو بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- رسولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بعد وفاته وهو مسجًى، فكشفَ الثَّوبَ عن وجهه، ثم

قَبَّلَ بين عينيه، وقال: ((**بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا**)) -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيهِ إِلَى يَومِ الدِّينِ-.

فيُشرعُ التَّقبيلُ، ولا بأسَ به ولا حرجَ.

وهذا يدلُّ على سعة الشَّريعة الإسلامية، وتيسيرها على النَّاس، فإنَّ الفجائعَ والْمَصائبَ إذا حُفَّتْ بشيءٍ من التَّيسير على النَّاس، **مثل**: أنْ يُقَبِّلَ الْمُحِبُّ مُحِبَّهُ، والأخُ أخاه، تخفُ عليه الْمُصيبةُ، وتَهُونُ عليه الْمُصيبةُ نوعًا ما، ويتعزَّى نوعًا ما.

أمَّا لو مُنِع النَّاسُ من هذا، وحِيلَ بينهم وبين التَّقبيل فإنَّه يكون أدنى مرتبةً من هذا الكمال الذي جاءَتْ به الشَّريعةُ، فهذا من تيسير الله، ولطف الله -عَزَّ وَجَلَّ- بعباده، أنَّ الْمُسلمَ إذا فُجِعَ بأخيه دخل عليه، وقال خيرًا؛ فإنَّ الْمَلائكةَ تُؤَمِّنُ على ما يقول، ويقبِّلُهُ، فهذه من الأمور الْمَسنونة بعد الوفاة.

والْمُصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- رَتَّبَ هذه الأبواب بعضَها على بعضٍ:

فَبَيَّنَ أولَّ شيءٍ: تلقين الْمَيِّت، **ثُمَّ بعدَ تلقينِهِ** وقبض روحه يحتاج الْمُسلمُ إلى ما يقوِّي إيمانَه من الصَّبْرِ عند الصَّدمة، فذكر **[باب الصَّبْر عند الصَّدمة الأولى]**.

ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ يَرِدُ السُّؤَالُ: ما هو هديُ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيما نفعلُهُ للميِّت بعد قبضه لروحه؟

فكان من هديه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه قَبَّلَ الْمَيِّت، وقَبَّلَ أصحابُهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- بعد الوفاة، فدلَّ على مشروعية ذلك، وذكر هذا الباب في هذا الْمَوضع؛ للدِّلالة على هذا الْمَعنى.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي غُسْلِ الْمَيِّت]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أحمَدُ بنُ منيعٍ، حدثنا هُشَيمٌ، أخبرنا خالدٌ ومنصورٌ وهشامٌ، فأمَّا خالدٌ وهشامٌ فقالا: عن مُحَمَّدٍ وحفصةَ، وقال منصورٌ: عن مُحَمَّدٍ، عن أمِّ عطيَّةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالت: ((**تُوفِّيتْ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فَقَالَ: اغسِلْنَهَا وِترًا: ثَلاثًا، أَوْ خَمْسًا، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ، وَاغسِلْنَهَا بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَاجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كَافُورًا، أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ، فَإِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنْنِي، فَلَمَّا فَرَغْنَا آذَنَّاهُ، فَأَلْقَى إِلَيْنَا حِقْوَهُ فَقَالَ: أَشْعِرْنَهَا بِهِ**)).

قال هُشَيم: وفي حديثِ غيرِ هؤلاءِ، ولا أدري ولعلَّ هشامًا منهم قالت: ((**وَظَفَرْنَا شَعْرَهَا ثَلاثَةَ قُرُونٍ**)).

قال هُشَيم: أظنُّهُ قالَ: ((**فَأَلْقَيْنَاهُ خَلْفَهَا**)).

قال هُشَيم: فحَدَّثنا خالدٌ من بينِ القومِ عن حفصةَ ومُحَمَّدٍ، عن أمِّ عطيَّةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالت: وقال لنا رسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**وَابْدَأْنَ بِمَيَامِنِهَا وَمَوَاضِعِ الوُضُوءِ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أمِّ سُليمٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ أمِّ عطيَّةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي غُسْلِ الْمَيِّت]** ترجم الْمُصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرْجمة والتي تتعلَّقُ بحقٍّ من حقوق الْمَيِّت، أنَّه إذا مات الْمُسلمُ وَجَبَ تغسيله.

وقد دلَّ على هذا الوجوب: دليلُ السُّنَّةِ في الحديث الذي ذكره الْمُصنِّفُ في هذا الباب، وهو حديث أُمِّ عطية -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال لها ولِمَنْ معها من النِّسوة حينما تُوفِّيتْ ابنتُه: ((**اغسِلْنَهَا**))، وهذا أمرٌ، والأمرُ للوجوب.

وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الصَّحيحين من حديث ابن عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في الرَّجُل الذي وَقَصَتْهُ دابتُهُ يومَ عرفةَ: ((**اغسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ**))، فقال: ((**اغسِلُوهُ**)) فهذا أمرٌ، والأمرُ يدلُّ على الوجوب.

وقد أجمعَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّ تغسيل الْمَيِّتِ فرضٌ من فروضِ الكفاية، أي أنَّه إذا قام به البعضُ سقط الإثمُ عن الباقين وأنَّه لا يجوزُ دفنُ الْمَيِّتِ إلا بعد تغسيله والقيام بحقِّه في هذا الغسل.

وتغسيل الْمَيِّتِ للذَّكَرِ والأنثى:

فأمَّا بالنِّسبة لتغسيل الرَّجُل: فقد ثبتَ فيه حديثُ ابن عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

وتغسيلُ الأُنثى: ثبتَ فيه حديثُ الباب، وهو حديثُ أُمِّ عطية -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-. وهذان الحديثانِ من أجمع الأحاديث في صفة غسل الْمَيِّت.

((**عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- **قَالَتْ: تُوفِّيتْ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) أُمُّ عطية -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- كانت من الصَّحابيات الفاضلات اللاتي كُنَّ يتولينَ أمورَ النِّساء.

قالَتْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: (**تُوفِّيتْ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) هذه البنت هي زينبُ، وكان للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الولد أربعةٌ من الذُّكور، وأربعةٌ من الإناث:

فأمَّا الذُّكورُ: فهم القاسمُ، والطَّيبُ، والطَّاهرُ، وإبراهيمُ، **والثَّلاثةُ الأولون:** من خديْجةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

وإبراهيمُ: من ماريةَ القِبطيَّة التي أهداها الْمُقوقسُ إلى رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

والقاسمُ هو أكبرُ أبنائه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- وبه يُكْنَى، وولد للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وتوفي بعد سنتين، وهكذا بالنِّسبة للطَّيب والطَّاهر.

وأمَّا إبراهيمُ: فقد ولد في السَّنة الثَّامنة من الهجرة، وتوفي في السَّنة العاشرة من الهجرة.

ولم يبلغْ أحدٌ من أولاده الذُّكور الْحِنْثَ، ولذلك قال تعالى: **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ}** فلم يبلغْ أحدٌ من أولاده مبلغ الرِّجال، وإنَّما تُوفُّوا وهم صغارٌ.

وأمَّا بناتُهُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- و-رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ-: فهُنَّ أربعةٌ: زينبُ، ورقيةُ، وأُمُّ كلثومٍ وفاطمةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ-، وكلُّهُنَّ أسلمْنَ وهاجرْنَ إلى الْمَدينة الهجرةَ من مكةَ إلى الْمَدينة، وهُنَّ كلُّهُنَّ من خديْجةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، وهي أمُّ بناتِه.

أمَّا بالنِّسبةِ لزينبَ: فهي الْمَقصودةُ بهذا الحديث، وهي التي تُوفِّيتْ، وكان فيها حديثُ أُمِّ عطيةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، وقد وردَ التَّصريحُ باسمها، قالت: ((**دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **حِيْنَ تُوفِّيَتْ ابنَتُهُ زَيْنَبُ**)).

وزينبُ قِيلَ: إنَّهَا أكبرُ بناتِه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، **وقِيلَ:** رُقَيَّةُ أنَّهَا هي الكبرى، **وقِيلَ:** أُمُّ

كلثومٍ، فيه خِلافٌ بين أهل السِّيَر -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وزينبُ وُلدتْ في سنة ثلاثين من عام الفيل، وتُوفِّيَتْ سنة ثمانٍ من الهجرة.

أمَّا رقيةُ: فهي التي تُوفِّيَتْ في السَّنة الثَّانية من الهجرة، وكان زوجُها عثمان بن عفان، وتخلَّف عن غزوة بَدْرٍ بسببها، أنَّه كان يمرضها، ويقوم عليها حتى تُوفِّيَتْ، ورسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- غائبٌ في غزوة بَدْرٍ، ولَمْ يشهدْهَا -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

وأمَّا بالنِّسبةِ لفاطمةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: فقد عاشَتْ بعد وفاة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكانت أسرعَ النَّاسِ لُحُوقًا به حيث تُوفِّيَتْ بعد وفاته بستةِ أشهر -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، وقد أخبرها النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهَا من أسرع النَّاس لُحُوقًا به، فسُرَّتْ بذلك -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- كما في الحديث.

تقولُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-: ((**تُوفِّيَتْ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فَقَالَ: اغسِلْنَهَا وِتْرًا ثَلاثًا، أَوْ خَمْسًا، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ**))، ((**اغسِلْنَها**)): أمرٌ، والأمرُ للوجوب كما ذكرنا، فدلَّ على وجوب تغسيل الْمَيِّت. والحكمُ لا يختصُّ بالنِّساء؛ لأنَّ العلةَ واحدةٌ في الرِّجال والنِّساء، وهي الْمَوت.

ثانيًا: دلَّ هذا على حقٍّ من حقوق الْمَيِّت أنَّه يُغسَّل.

وثالثًا: أنَّ قولَه: ((**اغسلُنَهَا**)) توجَّه الخطابُ للحاضرين، ولذلك يقولون: من حَضَرَ الْمَيِّت كأن يكونوا رُفقةً في السَّفر أو نحو ذلك، فهم الْمَسئولون عن تغسيله وتكفينه والصَّلاة عليه والقيام بحقوقه.

والأصلُ: أنَّه يلي الْمَيِّتَ أقرباؤُهُ، والعَصَبةُ من القرابة هم الذين يتولَّون القيامَ بهذه الحقوق: كأبنائِه وآبائِه، وإخوانِه، وبني إخوانِه الأشقاء ولأبٍّ، وأعمامِه الأشقاء، وأعمامِه لأبٍّ، وبني الأعمامِ الأشقاء، وبني الأعمامِ لأبٍّ.

هؤلاء هم العَصَبةُ، وهم الْمَعنيون بحقِّ الْمَيِّت والقيام بحقوقه من تغسيله وتجهيزه والصَّلاة عليه والقيام بما يلزم لتحقيق هذه الأمور الشَّرعية.

أمَّا إذا لَمْ يوجدْ أحدٌ من القَرَابة، أو تُوفي في سَفَرٍ أو نحوِهِ: تَوَجَّهَ الْخِطابُ على مَنْ حَضَرَ، ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لأُمِّ عطيةَ: ((**اغسِلْنَهَا**)).

وقال في الرَّجُل الذي وَقَصَتْهُ دابتُهُ: ((**اغسِلُوهُ**))، ولَمْ يقلْ: (ليغسلْهُ قرابتُه) ونحو ذلك، أو (انتظروا

حتى يليه القرابةُ)، وإنَّما وَجَّهَ الخطابَ لِمَنْ حضر؛ لأنَّ الْمَيِّتَ يُبَادَرُ به، ولا يُؤَخَّرُ كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**لاَ يَنْبَغِي لِجِيفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تُحْبَسَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِهِ**))، كما في حديث شدَّاد عند أحْمَدَ في مسنده.

وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في الصَّحيح: ((**أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ**)).

فالأصلُ أنَّه يُبَادَرُ بتغسيل الْمَيِّتِ وتكفينه والصَّلاة عليه، ولا يجوزُ تأخيرُهُ إلا من حاجةٍ وضرورةٍ.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**اغسِلْنَهَا**)) يدلُّ على أنَّ الأصلَ التَّغسيلُ بالْمَاء.

والغَسْلُ: هو صَبُّ الْمَاء على الشَّيء وإمرارُهُ عليه.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**اغسِلْنَهَا**)) **محلُّهُ** أنْ يمكنَ الغسلُ، بحيث يوجدُ الْمَاءُ، وأنْ لا يكونَ في الْمَيِّتِ مانعٌ يمنع من تغسيله.

أمَّا إذا لَمْ يوجدِ الْمَاءُ، أو كان الْمَاءُ موجودًا ومنع الأطباءُ من تغسيل الْمَيِّت، **مثل**: أنْ يقولوا: معه مرضٌ، أو يكون مثلاً الْمَيِّتُ مات حَرْقًا، فإنَّه إذا غُسِّل يتأذَّى جسدُهُ، أو كان به مرضٌ كالجُدَرِي -أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكُم- أو نحو ذلك مما يمنعُ التَّغسيلَ.

فإذا امتنع التَّغسيلُ لسبب لعدم وجود الْمَاء، أو لتعذر تغسيل الْمَيِّتِ بالْمَاء: فإنَّه يُيَمَّمُ، يُيَمِّمُونَه لأنَّ اللهَ جعل طهارةَ التُّراب بدلاً عن طهارة الْمَاء عند العجز عن استعمال الْمَاء، أو فَقْد الْمَاء.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**اغسِلْنَهَا**)) الضَّميرُ عائدٌ إلى ابنته -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- وفيه دليلٌ بقوله: ((**اغسِلْنَهَا**)) أنَّهُ وَجَّهَ الخطابَ للنِّساء، فدلَّ على أنَّ تغسيلَ النِّساء يكون من النِّساء، ولا يكون من الرِّجال، ولا يجوزُ للرِّجال أنْ يَلُوا تغسيلَ النِّساء.

وهنا نُنَبِّهُ على أمرٍ يفعلُهُ بعضُ العامةِ: وهو من الخطأ أنْ يقومَ الرَّجُلُ بتغسيل أُمِّه، البعضُ يظُنُّ أنَّ هذا من البرِّ، هذا ليس من البرِّ، هذا من العقوق؛ لأنَّه مخالفٌ لهدي الشَّرع، يُغَسِّلُ أُمَّه، لا يجوزُ للابن أنْ يُغَسِّلَ أُمَّهُ، وهذا أمرٌ ينبغي أنْ يُنَبَّهَ النَّاسُ عليه، والبعضُ يفعلُهُ يظنُّ أنَّه من البرِّ، الذي يُغَسِّلُ الْمَرأةَ من الرِّجال الزَّوج فقط **في أَصَحِّ قَوْلَيِ العُلَمَاءِ**، وهو مذهبُ الجمهورِ:

لأنَّ عليًّا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- غَسَّلَ فاطمةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، ولم ينكرْ عليه أحدٌ من الصَّحابة.

ولحديث عائشةَ: ((**مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي فَقُمْتُ عَلَيْكِ فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ**)) فدلَّ على أنَّ الزَّوجَ يُغَسِّلُ الزَّوجةَ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّه إذا ماتَتْ انقطعَتْ الصِّلةُ، وحينئذٍ تصبحُ كالأجنبية، فلا يجوزُ للرَّجُل أنْ

يُغَسِّلَ امرأتَه، **وقِيلَ**: لا يجوزُ العكسُ.

والصَّحيحُ أنَّه يجوزُ للرَّجُل أنْ يُغَسِّلَ الْمَرأةَ، والْمَرأةُ أنْ تُغَسِّلَ زوجَها؛ لأنَّ أسماءَ بنتَ عُميسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- غَسَّلَتْ أبا بكرٍ الصِّديقَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الخليفةَ، ولَمْ ينكرْ عليها أحدٌ، وهي زوجُهُ، فدلَّ على أنَّ الْمَوتَ لا يقطعُ الزَّوجيةَ، وأنَّه لا يُغَسَّلُ الرَّجُلُ من الْمَرأة، ولا الْمَرأةُ من الرَّجُل، **إلا في حالةٍ واحدةٍ**: وهي من الزَّوج لزوجِهِ، والزَّوجةُ لزوجِها.

وأمَّا بالنِّسبة لما عدا ذلك: كالابن مع أُمِّه، والبنت مع أبيها: فهذا لا يجوزُ، لا يجوزُ تغسيلُ الرَّجُل للمرأة، ولا الْمَرأة للرَّجُل، إنَّما يلي الرِّجالَ الرِّجالُ، ويلي النِّساءَ النِّساءُ، هذا هو الأصلُ عند أهل العلم.

فإذا تُوفِّيَتِ الْمَرأةُ، ولَمْ يوجدْ زوجٌ لها، ولَمْ يوجدْ نساءٌ، فإنَّهَا في هذه الحالة لا تُغَسَّلُ، كما نصَّ عليه جَماهيرُ العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وأنَّه يُسقط فرضَ التَّغسيل؛ لوجود العُذر الشَّرعيِّ، كما يسقطُ فرض التَّغسيل للعجز الحِسيِّ يسقطُ للعجز الشَّرعيِّ، وهو عدم وجود الْمَحرمية الْمُوجبة؛ لأنْ يليَ الرَّجلُ تغسيل الْمَرأة.

وهكذا العكسُ: لو أنَّ الرَّجُلَ ماتَ بين النِّساء.

هذا من حيث الأصل أنَّ التَّغسيلَ مشروعٌ؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على سبيل الفرضية. فقال: ((**اغسِلْنَهَا وترًا: ثَلاثًا، أو خَمْسًا، أو أكثرَ من ذلكَ إنْ رَأَيْتُنَّ**)).

قولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**اغسِلْنَها وترًا: ثَلاثًا، أو خَمْسًا**))، وفي روايةٍ في الصَّحيح: ((**أو سَبْعًا**)) وفيها رَدٌّ على مَنْ يقولُ: لا تجوزُ الزِّيادةُ على السَّبع.

((**اغسِلْنَها وِتْرًا**)) يدلُّ على أنَّ السُّنَّةَ تغسيلُ الْمَيِّتِ وترًا، أي أنَّه إذا عُمِّمَ وغسل يُغَسَّلُ ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا، ((**أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ**))، ((**أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**))، **هذا سببُهُ**: أنَّ الأمواتَ يختلفون، وقد يكون هناك في الجسد وأجساد الْمَوتى تختلفُ، وقد يُحتاجُ إلى تغسيل الْمَيِّتِ إلى تسعِ غَسْلاتٍ وأكثر من ذلك، على حسب حال الْمَيِّتِ، وحسب وجود الحاجة.

ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِنْ رَأَيْتُنَّ**))، وهذا يدلُّ على إسناد الأمر للمُغَسِّل، وأنَّه يجتهدُ في الأصلح والأنفع للمَيِّت، وأنَّه إذا وُجِدَتْ حاجةٌ للزِّيادة أنَّه يزيدُ، ثم يختمُ بالوتر، هذه هي السُّنَّةُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ التَّغسيلَ يكونُ ثلاثَ مراتٍ.

والتَّغسيلُ للمَيِّت: تعميمُ بدنِه بالْمَاء، فيبدأ أولاً بتنظيف مواضع الأذى، إذا تُوفِّيَ فإنَّه يبدأُ يأخذ

خرقةً ويلُفُّهَا على يده، ويُنَحِّي الْمَيِّتَ، فيزيل الأذى والفضلةَ؛ حتى يُنَظِّفَ الْمَواضعَ التي يُحتَاجُ إلى تنظيفها.

ثم بعد ذلك يبدأ بأعضاء الوضوء، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**ابْدَأْنَ بِمَيَامِينِهَا وبأعضاءِ الوُضُوءِ مِنْهَا**)) فيغسِّلُ وجهَ الْمَيِّتِ، ثم يديه، ثم يغسِّلُ رأسَه، ورجليه.

ثم يبدأ بشقِّه الأيمن، ثم بعد ذلك شقِّه الأيسر، ثم بعد ذلك يعمِّمُهُ بالْمَاء.

فإذا احتاج إلى أنْ يُكَرِّرَ الغَسَلاتِ أكثر، ثلاثًا فزاد إلى رابعةٍ يوتر، فيزيد الخامسةَ، فإذا أنقاه بالثَّانية زاد الثَّالثة وترًا، وإذا أنقاه بالرَّابعة زاد الخامسة وترًا، وإذا أنقاه بالسَّادسة زاد السَّابعة وترًا فينظر إلى الأصلح والأنفع للمَيِّت.

ولذلك ينبغي في المُغَسِّلِ من الأمور التي ينبغي أنْ تتوفَّرَ فيه:

أنْ يكونَ عالِمًا بصفة التَّغسيل، متحرِّيًا للسُّنَّة وهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **أَمِينًا، وناصِحًا**.

الأمانةُ: العلم بصفة التَّغسيل.

والأمانةُ، والنُّصْحُ: من أهم الشُّرُوط التي ينبغي أنْ تكونَ في الْمُغَسِّل.

وينبغي عليه إذا رأى خيرًا أنْ يذكرَه، وإذا رأى شرًّا أنْ يسترَه؛ لأنَّه قد تَمُرُّ بعضُ الأشياء التي يستبشر بِهَا خيرًا للمَيِّت، و قد تَمُرُّ بعضُ العِبَرِ التي يُستَرُ فيها الْمَيِّت، إلا إذا كانَتِ الْمَصلحةُ أنْ يُحَدِّثَ في حدودٍ ضيقةٍ؛ لردع العاصي عن معصيته، والفاجر عن فجوره، فإنَّه يُحَدِّثُ بذلك، مثل أنْ يرى أمرًا فيه عبرةٌ وعظةٌ، فيرى من الْمَصلحة أنْ يتحدَّثَ به فإنَّه يُحَدِّثُ به، ويذكره زجرًا للعاصي عن معصيته، وتنبيهًا للغافل عن غفلته.

الشَّاهدُ: أنَّه يُغَسَّلُ ثَلاثًا، أو خَمْسًا، أو سَبْعًا كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وظاهرُ هذه الأعداد أنَّ العبرةَ بالتَّنظيف والنَّقاء، وأنَّه يراعي الْمُغَسِّل الأفضلَ والأكملَ للمَيِّت، هذا هو الأصلُ.

وثانيًا: أنْ يكونَ ختمُه للغسلة بالوتر.

ذهب بعضُ السَّلف في قوله: ((**اغسِلْنَهَا ثَلاثًا، أو خَمْسًا إنْ رَأَيْتُنَّ**))، وفي رواية الصَّحيح: ((**أَوْ خَمْسًا، أَوْ سَبْعًا، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ**)) قال بعضُ السَّلف، وهو قولُ الإمامِ مالكٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: إنَّه ليس في تغسيل الْمَيِّت حَدٌّ.

وهذا كلامٌ دقيقٌ من الإمام مالكٍ، لَمْ يُحسِنْ بعضُ الْمُتأخرين فهمَه.

الإمامُ مالكٌ –رَحِمَهُ اللهُ– حينما بيَّن أنَّه ليس فيه حَدٌّ ولا صفةٌ، بيَّن أنَّ ظاهر الحديث في قوله: ((**اغسِلْنَهَا ثَلاثًا، أَوْ خَمْسًا، أَوْ سَبْعًا، أَوْ أَكْثَرَ إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ**)) دلَّ على أنَّه ليس هناك تحديدٌ لعددٍ معينٍ، وهذا من دِقَّتِهِ –رَحِمَهُ اللهُ– في فهم السُّنَّة؛ لأنَّه قال: ((**إِنْ رَأَيْتُنَّ**))، وأسند الأمرَ إلى الرأي.

وقولُهُ: (**لَيْسَ فِي ذَلِكَ حَدٌّ**) بمعنى أنَّه لا يلزم الْمُغَسِّلُ بِحَدٍّ ينتهي إليه لا يزيدُ عليه ولا ينقصُ منه وهذا صحيحٌ من فقهه؛ لأنَّ النبيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– في الطَّهارة اعتَدَّ بالغسلة التي يتحقق بها الْمَأمور، ولم يُجِزِ الزِّيادةَ على ثلاث غسلاتٍ في الإسباغ، وقال: ((**هَذَا وُضُوئِي ووُضُوءُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، فَمَنْ زَادَ فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ**)) في طهارة الوضوء، فجعل لطهارة الوضوءِ حَدًّا لا يُزاد عليه، وحينئذٍ دلَّ على أنَّ الطَّهارة والغسل نوعٌ من الطَّهارة، أنَّ الطَّهارة فيه ما له حَدٌّ، وفيها ما لا حَدَّ له فلما قال: ((**إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ**))، وجعل الأمرَ للمكلف والخيارَ للمكلف دلَّ على أنَّ هذا التَّغسيل ليس فيه حَدٌّ معينٌ لا تجوزُ الزِّيادة عليه ولا النُّقصان منه.

وكلامُهُ في هذا دقيقٌ وصحيحٌ.

ولذلك أشار إليه الإمامُ الشَّافعيُّ، وهو من أئمة السَّلف وأئمة الأصول في الفهم، ولَمْ يُعِبْهُ على مالكٍ؛ لأنَّ بعضَ الْمُتأخرين يُعَقِّبُ على كلام الإمام مالكٍ، وكأنَّ الإمامَ مالكًا لَمْ يفهمِ الحديثَ أو خالف الحديثَ، وخالف السُّنَّةَ.

والواقعُ أنَّه لَمْ يُخالفِ الحديثَ والسُّنَّةَ، وهو أدقُّ في فهمه لِمَا ورد من سنة النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– في التَّغسيل وأنَّه ليس هناك حَدٌّ معينٌ لا تجوز الزِّيادةُ عليه ولا النُّقصان منه، وإنَّما يُفَوَّضُ الأمرُ إلى الْمُغَسِّل: إنْ وجدَ الحاجةَ إلى الزِّيادة زاد، وإن لَمْ يَجِدْ حاجةً إلى ذلك اقتصر على ما فيه الأصلحُ للمَيِّت.

((**وَاغسِلْنَهَا بِمَاءٍ وَسِدْرٍ**)): يبدأُ بالْمَاء القَرَاح، أول ما يغسل الْمَيِّت بالْمَاء القَرَاح؛ حتى يتحققَ الْمَأمورُ من تغسيل الْمَيِّت؛ لأنَّ تغسيلَ الْمَيِّت لا بُدَّ وأنْ يكونَ بماءٍ طهورٍ على أنَّ الغسلَ عبادةٌ، فيغسله بماءٍ كاملٍ قَرَاحٍ، ثم بعد ذلك بماء السِّدر، **قيل**: ماء السِّدر، السِّدر يكونُ أشبَه بالصَّابون؛ لأنَّه نوعٌ من الْمُنظِّفات، وهو ينظف البدنَ وينقيه، وفيه مصالحُ عظيمةٌ في الجسد الغسل بالسِّدر، ومعروفٌ، وتكلَّم عليه الأئمةُ، وذكر العلماءُ في الطِّبِّ النَّبويِّ، كالإمام ابن القيم –رَحِمَهُ اللهُ– وغيرُه

من الأئمة، ذكروا له فوائد في الشُّرُوح -شروح الأحاديث-والسَّببُ في عناية السُّنَّةِ بالسِّدر، وخاصيته في التَّنظيف والطَّهارة.

قالوا: إنَّه يُلقى ورقُ السِّدر في الْمَاء وينقَّع فيه.

وقِيلَ: إنَّه يُدَقُّ، ثم بعد ذلك يُذَرُّ على الْمَاء وينظف به البدن ويدعك به جسد الْمَيِّتِ.

وقولُهُ: ((**بِمَاءٍ وَسِدْرٍ**)) إذا خُلط السِّدر بالْمَاء يُضرب برغوة السِّدر، بعد تغسيله بالْمَاء القَرَاح يُضرب برغوة السِّدر، ورغوة السِّدر مثل رغوة الصَّابون.

وهذا الْمَقصودُ به -كما ذكرنا- الْمُبالغة في تنظيف بدن الْمَيِّتِ وتطييبه.

((**وَاجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كَافُورًا، أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ**))، ((**وَاجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ**)) أي في الغسلة الآخرة، ((**كَافُورًا، أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ**)).

إذًا قولُهُ: ((**اغسِلْنَهَا بِمَاءٍ وسِدْرٍ**))، وقولُهُ في الْمَيِّت الذي وَقَصَتْهُ دابتُهُ: ((**اغسِلُوهُ بِمَاءٍ، وسِدْرٍ**)) ليس الْمَرادُ أنْ يأتيَ بالْمَاء مع السِّدر ويغسله أولاً، إنَّما الْمُرادُ أنَّه يقعُ الغسلُ بالْمَاء، ثم السِّدر، وكان الْمُرادُ به التَّشريك بمجموع الأمرين على أنَّه يقع الغسلُ بالماء، ويقعُ الغسلُ بالسِّدر لأنَّه لو كان الْمُرادُ أنْ يجمعَ الْمَاءَ مع السِّدر، ثم يغسله به، لقال: (اغسلُوهُ بِماء السِّدرِ)، لكنَّه قال: ((**اغسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ**)) أي اغسلوه بماءٍ، واغسلوه بسِدرٍ، والغسل بالسَّدر يستلزم أنْ يكونَ السِّدرُ معه ماءٌ:

إمَّا بتنقيع أوراق السِّدر.

وإمَّا بذرها بعد سحقها في الْمَاء، على الصِّفة الْمَعروفة.

والكافُورُ: فيه خاصيةٌ في تطييب جسد الْمَيِّتِ، وبقائه مدةً أطول، وقالوا: إنَّ له خاصيةً في طرد الْهَوَام إذا وُضِع في القبْر ورائحتُهُ طيبةٌ، الكافورُ رائحتُهُ طيبةٌ، وخاصةً وأنَّ الْمَيِّتَ سيُحمل ويشهده النَّاسُ، فتكون رائحتُه طيبةً، وهذا من القيام بحق الْمَيِّتِ والعناية به، وهذا هو الأصلُ أنَّ الْمُسلمَ إذا تولَّى تغسيلَه أنْ يغسلَه على أتم الصِّفات وأكملها.

((**فإذا فَرَغْتُنَّ فآذِّنَنِي**)): ((**فَإِذا فَرَغْتُنَّ**)) أي انتهين من الغسل، ((**فآذِّنَنِي**)): أي أعلمنني، آذَنَهُ إذا أَعلَمَهُ:

آذنتْنَا بِبَيْنِهَا أسماءُ يا رُبَّ ثاوٍ ملَّ منه الثَّوَاءُ

أي أعلمتنا وأخبرتنا، الإيذان: هو الإعلامُ، **{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ}** أي إعلام.

فقولُهُ: ((**فآذِّنَني**)) أي أعلمنني أنَّك فرغْتُنَّ وانتهيتُنَّ.

((**فَلَمَّا فَرَغْنَا آذَنَّاهُ**)): أي لَمَّا انتهينا من غسلها ((**آذَنَّاهُ**)): أي أعلمناه، وقلنا له: يا رسولَ اللهِ، انتهينا من غسلها.

((**فَأَلْقَى إِلَيْنَا حِقوَهُ، فَقَالَ: أَشْعِرْنَهَا بِهِ**))، (**فَأَلْقَى إِلَيْنَا حَقوَهُ، وحِقوَه**)): (حِقوه)، و(حَقوه) لغةٌ هُذَيلٍ، **والحَقو**: هو مَعْقَدُ الإزار عند الخصر، وسُمِّي به الإزارُ من باب تسمية الشَّيء بالجزء.

والْمُرادُ بذلك أنَّه أعطاهُنَّ إزارَه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

وهذا من خصوصياته -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- أنَّه يتبرك بثيابه وما لامس بدنَه على الصِّفة الواردة أنَّ اللهَ جعل فيها البركةَ؛ لأنَّ هذا فيه إعجازٌ لنبوته -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ولا يشاركُهُ أحدٌ في ذلك، ولذلك ما أُثِرَ عن الصَّحابة أنَّهُم أخذوا إزارَ أبي بكرٍ أو عُمَرَ أو عُثمَانَ أو عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-وخُصَّ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بِهَذه الأمور، **منها**: أنَّه كان إذا تَفَلَ أَخَذَ رِيْقَهُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وكما في الحديث الصَّحيح عن سهلٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عند البخاريِّ قال: ((**وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ،**)).

وهذا لَمْ يفعلْه الصَّحابةُ مع أبي بكرٍ ولا عُمَرَ ولا عُثمَانَ، وإنَّما فُعِلَ مع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ لِمَكان الْمُعجزة، والدِّلالة على صدق نبوته -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

وهناك فَرْقٌ بين التَّبَرُّك بذات الشَّيء، وبين فعل ذلك تبعًا للتَّصديق والإيمان، ولذلك كان عبدالله بن عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- ينزل في الْمَنازل التي نَزَلَهَا رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من شدة متابعته للسُّنَّة، وليست لقضية التَّبَرُّك بنفس الْمَوضع؛ لأنَّ الْمَوضع لا تكون فيه البركةُ إلا إذا أنزلَهَا اللهُ، واللهُ يقولُ لنبيه نوحٍ -عَلَيهِ السَّلامُ-: **{وَقُلْ رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا}**، فدلَّ على أنَّ مجردَ تصرف الأنبياء لا يقتضي البركة ما لم يُنزلها الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا: أنَّ التَّبَرُّكَ خاصٌّ بالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ لِمَكان النُّبوة، وإظهار صدق نبوته -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

ولَمَّا فُتِحَ هذا الباب، وتَسَامَحَ فيه مَنْ تسامح، حصل للأمة البلاءُ العظيمُ، والشرُّ الوخيمُ، حتى استرسل الشَّيطانُ ببعضهم -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ- حتى كادَ أنْ يعبدَ الْمَواضعَ التي يُتَبَرَّكُ بها، ثم توسَّعُوا من الأنبياء إلى غيرهم، وشُيِّدَتِ القبورُ، وطِيف بها، وصُرِف حقُّ الله لغير الله، حتى إنَّ الإنسانَ إذا دخل قبرًا مشيدًا يُنادَى صاحبه ويُستغاث به من دون الله يسمع من الكلمات والعبارات

ما يقضُّ الْمَضاجعَ من صرف حقِّ الله لغير الله -عَزَّ وَجَلَّ-، حتى إنَّك في بعض الأحيان تتعجبُ ماذا أبقى لله، فهو يناديه ويعظِّمُهُ ويبجِّلُهُ.

وكلُّ هذا مدخلٌ جاء بدعوى البركة، فدعوى البركة لا تجوزُ إلا بدليلٍ يدلُّ عليها، فاللهُ تعالى وَصَفَ البيتَ بأنَّه مباركٌ، ومع ذلك لا يُقَبَّلُ من البيت إلا الحَجَر، ولَمَّا أَذِنَ اللهُ بتقبيله، وقف الْمُحَدَّثُ الْمُلْهَمُ عُمَرُ بنُ الْخَطَّاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وقال: ((**أَمَا إِنِّي أعلمُ أنَّكَ حَجَرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ**)) لأنَّه يخافُ على النَّاس، أعظمُ حقٍّ هو حقُّ الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وإذا ضاع حقُّ الله فماذا بقي؟! فما خلق اللهُ الجنَّ والإنسَ إلا لهذا الحقِّ.

فإذا أصبح يصرف حقُّ الله لغير الله بدعوى التَّبَرُّك، حتى إنَّ الإنسانَ تجدُهُ يصحب الرَّجُلَ فيه الخيرُ فلا يزالُ الشَّيطانُ يأخذُهُ خطوةً خطوةً حتى ينسبَ نِعَمَ الله إلى هذا الْمَخلوق، فتجدُهُ إذا حَلَّتْ به نِعْمةٌ قال: (من بركاتِك يا شيخُ) فتوسَّع النَّاسُ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ- حتى صرفوا حقوقَ الله لغير الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

فمن النَّصيحة لعامة الْمُسلمين إيقافُهم عند حدِّ ربِّ العالَمِينَ، فما كان لله لا يصرفُ لغير الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وحقُّ الله لم يأذنِ اللهُ بصرفه لأحدٍ كائنًا مَنْ كان، لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلاً، قال اللهُ لعيسى بن مريم: **{أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}**، فهذا حقٌّ عظيمٌ لله -عَزَّ وَجَلَّ-، لا يُضَيَّعُ باسم البركة، وباسم التَّبَرُّكِ بالأثر ونحو ذلك.

فالنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خصَّهُ بهذه الخاصة، وما فَعَلَ أحدٌ من أصحابه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لا في حياته ولا بعد وفاته مثلَ هذه الأمور، فهذه من خصوصياته -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وأَذِنَ اللهُ له بذلك؛ لأنَّه لا يحقُّ لأحدٍ أنْ يعطي أحدًا ثوبَه أو ملبوسَه ويقول له: (خُذْ هذا الثَّوبَ وتَبَرَّكْ به، أو كفِّنوه فيه أو نَحو ذلك)؛ لأنَّ هذه الأمور كلَّها مردُّها إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وقد أَذِنَ اللهُ لنبيِّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنْ يُعطِيَ حَقوَه لابنته في تكفين ابنته، ولم يأذنْ بذلك لغيره -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، إلا فيما وَرَدَ منه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، كإعطائه لقميصه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

فالشَّاهدُ من هذا: أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أعطى إزارَه لأُمِّ عطيةَ؛ حتى تُشْعِرَ زينبَ به.

الإشعارُ: هو ما يلي البدنَ من الثِّياب، **والدِّثارُ:** ما فوق ذلك، **ومنه:** الحديث عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ

وَالسَّلامُ- في الصَّحيح حديث أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في الأنصار: ((**الأنصارُ شِعَارِي، والناسُ دِثارِي**))، فالشِّعار: هو الذي يلي البدن.

قال هُشَيم: وفي حديثِ غيرِ هؤلاءِ، ولا أدري ولعلَّ هشامًا منهُم، قالت -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**وظَفَرْنَا شَعرَها ثلاثةَ قُرُونٍ**)).

الشَّرْح:

فيه دليلٌ لِجمهور العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّ شعرَ الْمَرأة إذا غُسِّلت وأُريدَ تكفينُها أنَّه يُظَفَّرُ ثلاثةَ قُرُونٍ، أو ثلاثةَ ظفائر: اثنتان منها لِجنبتَي الرَّأس، والثَّالثة لوسطه، وتُلقى الثَّلاثة القرون وراء الظَّهْر كما جاء في الرِّواية.

وقالَ بعضُ العلماءِ -وهو عند الحنفية وغيرهم-: إنَّه يُسَرَّحُ شعرُها، ويُفْرَقُ، ويُرْسَلُ من وراء ظهرها، **والأظهرُ** أنَّه يُظْفَرُ، وهذا أرفقُ بشعر الْمَيِّت.

قَالَ هُشَيم: أظنّهُ قالَ: ((**فألقيناهُ خلفَها**)).

قَالَ هُشَيم: فحَدَّثنا خالدٌ من بينِ القومِ عن حفصةَ، ومُحَمَّدٍ عن أمِّ عطيَّة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالَتْ: وقال لنا رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**وابْدَأْنَ بِمَيَامِنِهَا ومَواضِعِ الوُضُوءِ**)).

الشَّرْح:

قولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**ابدأْنَ بِمَيَامِنِهَا**)) فيه دليلٌ على فضل اليمين، وتفضيلها على الشِّمال، وهذا أصلٌ شرعيٌّ دلَتْ عليه نصوصُ الكتاب والسُّنَّةِ.

ثانيًا: فيه دليلٌ على أنَّ بداءةَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- باليمين في الغسل أنَّهَا على سبيل النَّدب والاستحباب وليست على سبيل الحتم والإيجاب.

وفي قوله: ((**بأعضاءِ الوُضُوءِ منهَا**)) فيه دليلٌ على أنَّ الوضوءَ قبل الغسل لا يُراد به رفعُ الحدث،

وإنَّما الْمُرادُ به شرفُ أعضاء الوضوء.

وبناءً على ذلك، فإنَّه مَنِ اغتسلَ فعمَّمَ بدنَه بالْمَاء صحَّ أنْ يكونَ غسلُهُ عن الطَّهارة الصُّغرى والكبرى؛ لأنَّ البعضَ يقول: إنَّ وضوءَه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أثناء غسله الْمُرادُ به رفعُ الحدث الأصغر، وغسلُهُ الْمُرادُ به رفعُ الحدث الأكبر، **وهذا ضعيفٌ**؛ لأنَّه لا يرتفعُ الحدثُ الأصغرُ قبل الحدث الأكبر.

واعتذرُوا، لَمَّا قِيلَ لهم: إنَّ الحدثَ الأصغرَ لا يرتفعُ قبل الأكبر، **قالُوا**: إنَّه أخَّر غسلَ رجليه إلى بعد الغسل.

وأُجيبَ عن هذا: بأنَّ تأخيرَه لغسل رجليه وقع في بعض الرِّوايات، كما في حديث ميمونةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، وأمَّا في حديث عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- لَمْ تذكرْ تأخيرَ غسل رجليه.

وأمَّا بالنِّسبة للسَّبب: فإنَّه كما ذكرَ بعضُ العلماء إنَّما أخَّر غسلَ رجليه لِمَكان الطِّين؛ لأنَّه إذا اغتسل -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وكان الطِّينُ يصيب القدمَيْنِ، فأخَّر غسل القدمَيْنِ؛ حتى لا يحتاج إلى إعادة غسلهما مرةً ثانيةً؛ لأنَّه كان يغتسلُ بالصَّاع -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، والْمَاءُ قليلٌ.

ومن هنا **الذي يظهرُ** أنَّ بداءةَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالوضوء في غسله لا تدلُّ على قصد رفع الحدث الأصغر وإنَّما هي بداءةٌ لشرف أعضاء الوضوء.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: والعملُ على هذا عندَ أهلِ العلمِ.

الشَّرْح:

((**والعملُ على هذا عندَ أهلِ العلمِ**)): إشارةٌ إلى أنَّ هذا الحديثَ مُحكَمٌ، وليس بِمنسوخٍ؛ لأنَّه بعض الأحيان يكونُ الحديثُ ليس عليه العمل عند أهل العلم:

إمَّا لكونه منسوخًا، **أَوْ** لكونه ضعيفًا: **إمَّا** لعلةٍ في سنده، **أو** علَّةٍ في متنه.

فعلَّةُ السَّندِ مثل: الضَّعف، والشُّذُوذ، ونحو ذلك.

وعلَّةُ الْمتنِ مثل: أنْ يكونَ منسوخًا، فحينئذٍ لا يكونُ عليه العمل، لا يجري عليه العملُ عند أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد رُوِيَ عن إبراهيمِ النخعيِّ أنَّهُ قال: غسلُ الْمَيِّت كالغسلِ من الجنابةِ
قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وقال مالكُ بنُ أنسٍ: ليسَ لغسلِ الْمَيِّت عِندَنا حَدٌّ موقتٌ، وليسَ لذلكَ صفةٌ معلومةٌ، ولكن يُطَهَّرُ.

الشَّرْح:

هذا من دقَّتِه -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّه قال: (**لَيسَ لذلكَ صِفَةٌ مَعلُومةٌ**) من جهة أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أمر بمطلق الغسل، لَمْ يَحدَّ في الغسل صفةً معينةً، مثلاً قال: ابدأوا مثلاً بغسل الأذى، ثم ابدأوا بالوضوء توضأ، ثم بعد الوضوء اغسلوا الجنبَ الأيمنَ، ثم اغسلوا الجنبَ الأيسرَ، أو نحو ذلك بالتَّفصيل، إنَّما أَمَرَ به أَمْرَ إجمالٍ على سبيل التَّفضيل للميامين ولأعضاء الوضوء، وترك الغسل في عدده وصفته وكيفيته للمُغَسِّل فقال: ((**إِنْ رَأَيْتُنَّ**))؛ لأنَّ قولَه: ((**إِنْ رَأَيْتُنَّ**)) هذا الذي يصرف الصِّفة عن التَّحديد إلى الإطلاق، وأنَّه يردُّ الأمرُ إلى الْمُغَسِّل أنَّه يجتهد فيما هو الأصلحُ للمَيِّت.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقال الشَّافِعِيُّ: إنَّما قال مالكٌ قولاً مجملاً؛ يغسَّلُ وينقَّى؛ وإذا أنقيَ الْمَيِّت بماءِ القراحِ أو ماءٍ غيرِهِ أجزأَ ذلكَ من غُسلِهِ، ولكن أحبُّ إليَّ أن يغسلَ ثلاثاً فصاعداً، لا يقصُر عن ثلاثٍ؛ لما قال رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**اغسِلْنَهَا ثَلاثًا، أَوْ خَمْسًا**)).
وإنْ أنقوا في أقلَّ من ثلاثِ مرَّاتٍ: أجزأَ، ولا نرى أنَّ قولَ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إنَّما هو على معنى الإنقاءِ ثلاثًا، أو خَمْسًا، ولَمْ يؤقِّتْ، وكذلكَ قالَ الفقهاءُ، وهُم أعلمُ بِمعاني الحديثِ.

الشَّرْح:

كذلك ((**وهم أعلمُ بِمعاني الحديث**)): بخلاف الذين يأتون اليوم ويقولون: (الفقهاءُ أهلُ رأيٍ)، لا يعرف الفضلَ إلا أهلُهُ، فمتونُ الأحاديثِ ودِلالتها لأهل الفهم، وهم أهل الفقه، وهذا هو الإمامُ الشَّافعيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- والإمام التِّرْمِذِيّ -رَحِمَهُ اللهُ- الذين يعرفون الفقهَ، ويعرفون قدرَ الفقهاء ولذلك

هم أعلمُ بالحديث، أعلمُ بدلالة الحديث، النَّظر إلى النُّصوص مجتمعةً، ليس كالنَّظر إلى نصٍّ واحدٍ، وقَرْن النُّصوص ببعضها، بمعنى أنَّك تتبع هديَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الخطابات، فلَمَّا خاطبَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بهذه الصِّفة دلَّ على أنَّها على سبيل الإطلاق، لا على سبيل التَّقييد والتَّحديد.

وقولُ الشَّافعيِّ في الأخير **أوجهُ** من قول الإمام مالك -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّه يتحرَّى فيه السُّنَّةَ، وأنَّ الأقلَّ ثلاثًا من جهة العدد، من جهة العدد أنَّ الأحبَّ والأفضلَ أنْ لا ينقصَ عن ثلاثٍ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

رقم الدَّرس ٤١٣

الأربعاء ١-٤-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزِيدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطي

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ مَا جَاءَ فِي الْمِسْكِ لِلمَيِّتِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا محمودُ بنُ غيلانَ، حَدَّثَنَا أبو داودَ وشَبابةَ قالا: حَدَّثَنَا شعبةُ، عن خُليدِ بنِ جعفرٍ: أنَّه سَمِعَ أبا نضرةَ يحدِّث عن أبي سعيدٍ الخدريِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَطْيَبُ الطِّيْبِ الْمِسْكُ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله ربِّ العالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأَتَمَّانِ الأكملانِ على خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه ومَنْ سار على سبيله ونَهْجه واستَنَّ بسنته إلى يوم الدِّين، أمَّا بعدُ:

فقد ترجم الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيّ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرْجَمة: **[بَابُ الْمِسْكُ لِلمَيِّتِ]**.

الْمِسْكُ: نوعٌ من أنواع الطِّيب، وهذا النَّوع يُستَخرَجُ من دم الغَزَال.

وأصلُهُ: أنَّ الغَزَالَ تنشأُ فيه الْحَبَّةُ أشبهُ بالثَّآليل على جسده، ثم هذه الْحَبَّةُ تَكبُرُ شيئًا فشيئًا، فيأخذُها أهلُ الحِرْفَةِ والخبرة، ويربطونَهَا حتى تبلغَ أمدًا معينًا، ثم بعد ذلك تُؤخَذُ في فأرَتِهَا -أي في الجِلْد التي هي فيه- ثم تُستَخرَجُ بطريقةٍ خاصةٍ.

ولذلك الْمَسكُ بعضُ دَمِ الغَزَال، كما قال الشَّاعر:

فَإِنْ تَفُقِ الأنامَ وَأَنْتَ مِنْهُم فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

وقال بعضُ أئمة العلم: لولا أنَّ رسولَ الله-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- تطيَّبَ به ما تطيَّبْتُ به؛ لأنَّ أصلَه دمٌ، ورائحتَهُ طيبةٌ زكيةٌ، وكان رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يحبُّه.

الْمِسْكُ: هو الْمِسْكُ الأحمرُ الذي هو بلون الدَّم.

وأمَّا الْمِسْكُ الأبيضُ: فهذا لا علاقةَ له بالْمِسْك الأصلي، وإنَّمَا يُسمَّى بهذا الاسم، وهو الْمِسْكُ الأبيضُ الْمَعروفُ.

هذا النَّوعُ من الطِّيْب كان رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يحبُّه.

وفي هذا الحديثِ دليلٌ: على أنَّه أفضلُ الطِّيبِ، وأحسنُهُ، ولذلك ذَكَرَهُ بعضُ الأئمة -رَحِمَهُمُ اللهُ-

في هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الطِّيب أنَّه كان يحبُّ الْمِسْكَ، ويتطيَّبُ به -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ وَبَرَكَاتُهُ إِلَى يَومِ الدِّينِ-.

ترجم الْمُصَنِّفُ-رَحِمَهُ اللهُ- بقوله: **[بَابُ الْمِسْكُ لِلمَيِّتِ]** بعد أنْ ذَكَرَ صفةَ تغسيل الْمَيِّتِ.

وهذا راجعٌ إلى: أنَّه إذا غُسِّل الْمَيِّت فإنَّه بعد ذلك يُشرَعُ في تكفينه، وفي هذا الحالة يكونُ التَّطيبُ للبدن، والتَّطيبُ للكفن، فيُوضع الْحَنُوطُ في الأكفان، ويُطيبُ جسدَ الْمَيِّتِ، وتُطيبُ مَغَابنُهُ، ومواضعُ السُّجُودِ منه، ولذلك اعتنى بذكر هذا الباب في هذا الْمَوضع بعد صفة التَّغسيل؛ لأنَّ الْمُغَسِّلَ يعتني بتغسيل الْمَيِّتِ.

والتَّرْجمةُ خاصةٌ بالْمَيِّتِ أُنتُزِعت من عموم النَّصِّ، فليس في النَّصِّ التَّعيين على هذه الْمَسألة، ولكن من عادة العلماء أنَّه إذا كان هناك أصلٌ عامٌّ يُنتَزع منه خصوصُ الْمَسائل، فإذا كان أطيبُ الطِّيبِ وأحبُّه إلى رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أُستُحب للمَيِّت، خاصةً وأنَّ بعضَ العلماءِ كَرِهَ الْمِسْكَ للمَيِّت، وهذا الأصلُ العامُ قد ينقضُ ما ذكروه من أنَّه عمَّم النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مدحَه والثَّناء عليه.

وعلى كُلِّ حالٍ، فالحديثُ يدلُّ على فضل هذا النَّوع من الطِّيب، وإذا كان دالاً على ذلك فإنَّه يستحبُّ للمَيِّت أنْ يُطيَّبَ به.

وذَكَرَ العلماءُ لحسن ما يُتَطيَّبُ به ولأحسن ما يُلْبَسُ في كفن الْمَيِّتِ راجعٌ إلى السُّنَّة التي دلَّتْ على أنَّه ينبغي للمسلم إذا تولَّى تغسيل أخاه الْمُسلِم أو قريبه أنْ يُحسَّنَ كفنَه، كما ثَبَتَ في الحديث الصَّحيح في صحيح مسلمٍ، والذي سيشير إليه الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ-، ومن الإحسان في تكفين الْمَيِّتِ إحسانُ تطيبِه.

ولعلَّ كراهةَ مَنْ كَرِهَ قد يكون لهم سَبَبٌ من جهة أنَّهُم كرهوا الْمَبالغةَ في التَّطييب، والْمُبالغةَ في التَّكفين، وهذا الأصلُ يُنتَزع من أصولٍ شرعيةٍ، وخاصةً أنَّ أبا بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- نَبَّهَ على ذلك في الكفن ومَنَعَهُم أنْ يكفِّنُوه في ثيابٍ جديدةٍ، وقال: **(إِنَّ الْحَيَّ أَحَقُّ بِالْجَدِيدِ مِنْ الْمَيِّتِ)** فصار أصلاً عامًّا، والْمِسْكُ هو أفضلُ الطِّيبِ، فكأنَّ وجهَ الكراهة أنَّه نوعٌ من الْمُبالغة في الإحسان إلى الْمَيِّتِ.

ولكنَّ هذا مُشْكِلٌ مع قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((فَلْيُحْسِنْ كَفَنَهُ))** أمرٌ بأَنْ يكونَ الإحسان، وأنْ يكونَ على أفضل الأحوال وأتمها، دون إسرافٍ على وجهٍ مؤثِّرٍ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا سفيانُ بنُ وكيعٍ، حَدَّثَنَا أبي عن شعبةَ، عن خليدِ بنِ جعفرٍ، عن أبي نضرةَ، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **سُئِلَ عَنِ الْمِسْكِ؟ فَقَالَ: هُوَ أَطْيَبُ طِيْبِكُمْ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

سُئِلَ رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عن الْمِسْكِ، فقال: ((**هُوَ أَطْيَبُ طِيْبِكُمْ**)) ذكر بعضُ العلماء أنَّ فيه فوائدَ كثيرةً، حتى إنَّ بعضَها يرجعُ إلى الصِّحة، ولا شكَّ أنَّ سنةَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديَه اشتملَتْ على خير الدِّيْن والدُّنيا والآخرة، فلا يبعدُ أنْ يُنَبِّهَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على بعض الأمور.

وإن لَمْ تكنْ في الأصل متعلقةً بالشَّرع؛ لأنَّ الطِّيبَ مردُّهُ إلى العُرْف أكثر من مردِّهِ إلى الشَّرع، وإنْ كانَ في بعض الأحوال يستحبُّ شرعًا، على حسب ما وَرَدَ في النُّصُوصِ في الدَّعوة إليه والإكثار منه ولكن من حيث الأصل العام هو مردُّه إلى الأمور العادية الْجِبِلِيَّة.

ولَمَّا نَبَّهَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يحتملُ أَنَّ الصَّحابةَ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِمْ- سألوا رسولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عن الْمِسْكِ بخصوصه؛ لأنَّهُم رأوه يُكثِر من الْمِسْكِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ولرُبَّما لَحظوا أَنَّهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أحبَّه، أو صنعَ صنيعًا يدلُّ على حبِّه، ومن هنا سألوه، ولذلك لَمْ يسألوه عن بقية الأطياب كالعنبر والورد ونحوها، وسألوه عن الْمِسْكِ بخصوصه، فأجابَهُم النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بهذا الجواب، وهذا الجوابُ أنَّه ((**أَطْيَبُ الطِّيْبِ**)).

ولا شك أنَّ جوابَه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يدلُّ على فضل هذا النَّوع من الطِّيب، وهو ألصقُ بالشَّرع منه بالطَّبع، بمعنى أنَّ هذا القولَ منه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يُستفادُ منه أنَّ من السُّنَّةِ التَّطيُّبُ بالْمِسْكِ.

ولا يُقَالُ -كما يقولُ البعضُ-: إنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أجابَ بالْجِبلة والعَادة، ولَمْ يُجبْ بالشَّرع والعبادة.

ولكنَّ هذا الجواب بيَّنَ فيه النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه: ((**أَطْيَبُ الطَّيْبِ**))، فهو ((**أَطْيَبُ الطَّيْبِ**)) كما أخبر -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

وهنا مسألةٌ: وهي أنَّه قد يُنَبِّهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على بعض الأمور بصفة الغالبة، وقد يتعارضُ هذا الغالبُ مع النَّادرِ والخاصِّ، فهناك أمورٌ استحبَّها رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ونَبَّه على فضلها في الْمَأكل والْمَشرب والطِّيب، رُبَّمَا لو تعاطاها بعضُ الناس أثَّرتْ عليه، كأنْ يكونَ به حساسيةٌ ونحو ذلك فهذا لا يستلزمُ أنْ يكونَ عِصيانًا لرسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فإنَّ بعضًا من النَّاس قد تكون عنده حساسيةٌ من الطِّيب لا يطيقُ شَمَّ الْمِسْكِ ولا غيره، فلا نقولُ: إنَّه مخالفٌ للسُّنَّةِ، أو نشدِّدُ عليه في ذلك لأنَّ الأمرَ حينئذٍ بالْجِبلة ألصقُ منه بالتَّشريع.

وهذا من رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خرج مَخرج الغالب في النَّاس أنَّه ((**أَطْيَبُ الطَّيْبِ**))، ولا يمتنع أنْ يكونَ في بعض النَّاس منه حساسيةٌ.

وعليه فإنَّ السُّنَّةَ دلَّتْ على فضل هذا النَّوع من الأطياب، ما ترك -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- خيرًا حتى من أمور الدُّنيا إلا ودلَّ الأمةَ عليه، وهذا من فضل الله على هذه الأمة.

اللَّهُمَّ اجزِهِ عنَّا خيرَ ما جزيْتَ نبيًّا عن نُبوَّتِهِ، وصاحبَ رسالةٍ عن رسالته، وآتِه الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثْه الْمَقامَ الْمحمودَ الذي وعدته.

والعملُ على هذا عِندَ بَعضِ أهلِ العلمِ.
وهو قولُ أحمَدَ وإسحاقَ، وقد كرهَ بعضُ أهلِ العلمِ الْمِسْك للميّتِ.
وقد رواهُ الْمُستمرُّ بنُ الرَّيانِ أيضًا، عن أبي نضرةَ، عن أبي سعيدٍ عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.
قال عَليٌّ: قال يحيى بنُ سعيدٍ: الْمُستمرُّ بنُ الرَّيَّانِ ثقةٌ، قال يحيى: خُليدُ بنُ جعفرٍ ثقةٌ.

الشَّرْح:

(**العملُ على هذا عندَ بعضِ أهلِ العلمِ**): مرادُهُ أنَّه يُطَيَّبُ الْمَيِّتُ بالْمِسْكِ، وأنَّ من السُّنَّةِ تطييبُهُ بالْمِسْك.

والذين يقولون بعدم تطييبه أو كراهيته لعلَّهم لاحظوا غلاءَ ثمنه، وأنَّه فيه نوعٌ من الْمَبالغة، كما قال بعضُهم في التَّشديد في تكفين الْمَرأة في الْحَرير، فإنَّ الْحَرير جائزٌ للمرأة، ولكنَّهم كرهُوا أنْ تُكفَّنَ في

الثَّوب الْحَرِير، **وهو قولُ بعضِ العلماءِ القولُ بالكراهية.**

وقالَ بعضُهم: بالتَّحريْم، حتى قال بعضُهم: إنَّما أُذِنَ للمرأة بلبس الْحَرِير حال الْحَيَاة، **وهو ضعيفٌ.**

وقال بعضُهم: إنَّه مكروهٌ؛ لِمَكان السَّرف والْمُبالغة.

وعلى كُلِّ حالٍ، فإنَّ الْمِسْكَ إذا طُيِّبَ به الْمَيِّتُ استنادًا إلى هذا الأصل العام، **فله وجهُهُ.**

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الغُسْلِ مِنْ غُسْلِ الْمَيِّتِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا **مُحَمَّدُ** بنُ عبدِالملكِ بنِ أبي الشَّوارِبِ، حَدَّثَنَا عبدُالعزيزِ بنُ الْمُختارِ، عن سُهيلِ بن أبي صالحٍ، عن أبِيهِ، عن أبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**مِنْ غُسْلِهِ الغُسْلُ، ومِنْ حَمْلِهِ الوُضُوءُ** -يَعني الْمَيِّت-)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن عَليٍّ، وعائشةَ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ أبي هُريرَةَ حديثٌ حسنٌ.

الشَّرْح:

ترجم الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بهذه التَّرْجمة، والتي تتعلَّقُ بحكم مَنْ يُغَسِّلُ الْمَوتَى.

إذا غسَّل الْمُسلِمُ أخاه، هل يَجبُ عليه أنْ يغتسلَ بعد تغسيلِهِ؟

قولانِ للعلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-:

قال بعضُ العلماء: إنَّ من غسَّل ميِّتًا فإنَّه يغتسلُ، سواءً كان رجلاً أو امرأةً.

واستدلُّوا: بِهذا الحديث، **وفي معناه:** قولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**مَنْ غَسَّلَ مِيِّتًا فَلْيَغْتَسِلْ وَمَنْ حَمَلَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ**))، وهذا الحديثُ تُكُلِّمَ على إسناده، وذكرْنَا في (شرحِ البُلُوغِ) كلامَ أهل العلم، وخلاصةَ ما ذكروهُ في ذلك.

ولكن قالَ بعضُ العلماء: إنَّه مُحَسَّنٌ بالشَّواهد، وإذا قيل بأنَّه حسنٌ بالشَّواهد فإنَّ أمرَهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بالغُسل مِنْ تغسيل الْمَيِّتِ مبنيٌّ على الأكمل والأفضل، أي أنَّه مندوبٌ للإنسان أنَّه إذا غسَّل مسلمًا أنْ يغتسلَ بعد تغسيله على سبيل الاستحباب، لا على سبيل الْحتم والإيجاب وذلك أنَّ تغسيلَ الْمَيِّتِ ليس بِحَدَثٍ، ولا في حكم الْحَدَثِ، ولذلك لا يجبُ منه وضوءٌ، ولا يجبُ منه غُسْلٌ.

وهذا هو أصحُّ قولي العلماء، وهو مذهبُ جمهور أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ- من الحنفية والْمَالكية والشَّافعية والحنابلة في روايةٍ.

وقالَ بعضُ العلماء -وهو قولُ طائفةٍ من أهل الحديث، وروايةٌ عن الإمام أحمدَ-: إنَّ مَنْ غسَّل ميِّتًا فليغتسلْ، أي يجبُ عليه أنْ يغتسلَ.

والمرادُ بالتَّغسيلِ: الْمُباشرة بالتَّغسيل، سواءً غسل أغلب الجسد، أو بعض الجسد، فلو اشتَرَكَ ثلاثةٌ في تغسيل الْمَيِّتِ لزمهم أنْ يغتَسِلُوا، ولو كان الذي غسَّله واحدٌ لزمه أيضًا أنْ يغتسلَ، فيستوي أنْ يكونَ مشاركًا بمعنى أنْ يتولَّى التَّغسيلَ.

أمَّا إذا كانَتْ مشاركتُهُ للتَّغسيل **بالمعاونةِ والمناولةِ، مثل**: أنْ يناولَ الْمَاءَ ويهيئَ السِّدرَ ورغوةَ السِّدر ونحو ذلك، فهذا لا يجبُ عليه تغسيلٌ **قولاً واحدًا عند العلماء**؛ لأنَّه لَمْ يغسِّلْ فعلاً.

فالْمُرادُ أنَّ وجوبَ الغسل عند مَنْ يقولُ من أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ- **مَحَلُّهُ**: أنْ يباشرَ ذلك التَّغسيل مشتركًا مع غيره أو منفردًا.

وكذلك في حَمْلِهِ، أنَّ مَنْ حَمَلَ الْمَيِّتَ يلزمُهُ الوضوءُ، وهو قولُ بعضِ العلماءِ، وهذا القولُ مرجوحٌ وجمهورُ أئمة العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ- من السَّلف والخلف على أنَّه لا يجبُ الوضوءُ مِنْ حَمْلِ الْمَيِّتِ، وذلك لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال كما في الصَّحيح من حديث أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : ((**لا يَقْبَلُ اللهُ صَلاةَ أَحَدِكُم إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ**)).

ووجهُ الدِّلالة من هذا الحديث: أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بيَّن أنَّ مَنْ توضَّأَ لا ينتقضُ وضوؤُهُ إلا بالْحَدَثِ وحَمل الْمَيِّت ليس بِحَدَثٍ، ولا في معنَى الْحَدَثِ.

ولذلك سلك جُمهور العلماء هذا الْمَسلك، وقالُوا: إنَّ الأصلَ أنَّه متطهرٌ، وأنَّه متوضِّئٌ، فلا يجبُ عليه أنْ يعيدَ الوضوءَ، وأنْ يتطهرَ من جديدٍ من حَمْلِ الْمَيِّتِ.

هذا الحديثُ فيه مسألتانِ:

المسألةُ الأولى: هل يَجبُ الغسلُ على مَنْ غَسَّلَ الْمَيِّتِ؟

والمسألةُ الثانيةُ: هل يَجبُ الوضوءُ على مَنْ حَمَلَهُ؟

والصَّحيحُ في كلتا الْمَسألتين مذهبُ جَماهيْرِ العلماء والأئمة -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّه لا يَجبُ غُسْلٌ، ولا يجبُ وُضُوءٌ مِنْ حَمْلِ الْمَيِّتِ ومِنْ تغسيلِهِ، وأنَّه إذا توضَّأَ الْمُسلِمُ لا يُحكمُ بانتقاض وضوئه إلا إذا حصل منه الْحَدَثُ، أو ما في حكم الْحَدَثِ، مِمَّا دلَّتِ النُّصُوصُ على أنَّه يُنَزَّلُ منزلةَ الحدثِ كالنَّوم،

فهذا هو الْمُعتبرُ في نقض الوضوء.

أمَّا حَمْلُ الْمَيِّتِ فإنَّه يُقالُ بالنَّدب والاستحباب أنَّه إذا حَمَل الْمَيِّتِ يتوضَّأُ، أمَّا على سبيل الوجوب فإنَّه لا يجبُ عليه ذلك.

والأمرُ من النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **بتغسيلِ الْمَيِّتِ:**

قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ من الْمُناسبة فيه أنَّه إذا تولَّى تغسيل الْمَيِّتِ فإنَّه أمرٌ يُدهَشُ فيه الإنسانُ،

تغسيلُ الْمَيِّتِ النَّاسُ فيه على مراتب:

أعلاها وأسماها وأسناها: أنْ يكونَ الْمُغَسِّلُ حاضرَ القلبِ، خاشعًا للربِّ، معتبرًا بِهذه العظة، حينما يُقَلِّبُ جسدًا بين يديه، قد كان يراه بالأمس سميعًا بصيرًا، يقبلُ ويدبرُ

بَيْنَمَا امْرُؤٌ بَيْنَ يَدَيْكَ حَيًّا إِذْ صِرْتَ لا تَرَى مِنْهُ شَيَا

فهذه عَبْرَةٌ عظيمةٌ، فإنَّه يرى الأغنياءَ والأقوياءَ والفقراءَ والضُّعفاءَ يراهم بين يديه وقد سكنوا بالْمَوتِ وصرعهم الْمَوتُ، وإذا به يُقَلِّبُ الْمَيِّتَ يمينًا وشمالاً ليس فيه حركةٌ، ولا يسمع منه صوتٌ، هذا كُلُّهُ يَهُزُّ القلوبَ الحيةَ الْمُوقنةَ، فتعتبرُ وتدَّكِرُ، خاصةً وأنَّ هذا الْمَصير لا يمكنُ لأحدٍ كائنًا مَنْ كان أنْ يفرَّ عنه، فإنَّ الْمَوتَ لا شكَّ أنَّ الإنسانَ ملاقيه، طال أجلُهُ أم قَصُرَ، وهذه النِّهايةُ صائرٌ إليها ولذلك إذا رأى في حال أخيه على هذه الصِّفة، وبالأخصِّ إذا كانت له حالةٌ في الدُّنيا من عزٍّ وجاهٍ وقوةٍ وغنًى فإنَّ هذا يُدهِشُ الفكرَ، ويزلزلُ القلوبَ، ويحدِّثُ الرَّوعَ، وهذا الرَّوعُ والفزعُ والدَّهَشُ يناسبُهُ أنْ يغتسلَ الإنسان بعده ليستجمعَ قواه، ويستجمعَ نفسه.

وهذا معنى صحيحٌ، ومعنى سليمٌ، ولذلك من الْمُناسب أنَّه بعد تغسيلِهِ أنْ يغتسلَ على سبيل النَّدب والاستحباب، لا على سبيل الْحتم والإيجاب.

ولذلك أُثِرَ عن أسماء بنت عُميس -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- أنَّهَا لَمَّا غسَّلَتْ أبا بكرٍ الصِّديق -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- زوجَها، وكان اليومُ شديدَ البَرْدِ، لأنَّ أبا بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قِيلَ: إنَّه اغتسل، وأصابَهُ شيءٌ أشبه بِما يُسمَّى بالصَّفق من لفح البرد، ثم حمى -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فمات، فلَمَّا غسلَتْهُ قالَتْ لِمَنْ حضرَها من الْمُهاجرين: "إنَّ هذا اليومَ شديدُ البرد، وأنا صائمةٌ، وأخافُ أنِّي لو اغتسلْتُ أنَّهَا تتضرَّرُ، فهل عليها غُسْلٌ"؟ فقالُوا لها: "لا غُسْلَ عليك".

وهذا يدلُّ على أنَّ الغُسلَ ليس بواجبٍ، إذ لو كان واجبًا لأمروها أنْ تغتسلَ إذا كانت تطيقُ، أو تتيمَّمُ بدلاً عن الغُسل كما هو الأصلُ الشَّرعيُّ، ولَمَّا لَمْ يأمروها بذلك، وهذه القِصَّةُ وقعَتْ في محضر

الْمُهاجرين؛ لأنَّ تغسيلَ أبي بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الغالبُ فيه أنْ يشهدَه الصَّحابةُ وكبارُ الصَّحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-، وهذا يدلُّ على أنَّه من الْمُستقرِ عند أصحاب رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عدمُ الإلزام بالغُسل من تغسيلِ الْمَيِّتِ، **وهو أصحُّ قولي العلماء**، وهو مذهبُ جمهور أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ جَمِيْعًا-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد رُوِيَ عن أبي هُريرَةَ موقوفًا.

وقد اختَلفَ أهلُ العلم في الذي يغسِّلُ الْمَيِّتَ:

فقالَ بعضُ أهلِ العِلمِ من أصحابِ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغيرِهِم: إذا غَسَّلَ ميِّتاً فعليهِ الغُسْلُ، وقالَ بعضُهم: عليه الوضوءُ.

الشَّرْح:

فقالُ بعضُ أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كأبي هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حُكِيَ عنه القولُ بأنَّه يرى أنَّ مَنْ غَسَّلَ الْمَيِّتَ يغتسلُ، وأنَّ مَنْ حَمَلَهُ يتوضَّأُ، ولكنَّ جُمهورَ الصَّحابة على أنَّه ليس بواجبٍ، **وهو الصَّحيحُ** كما ذكرنا.

وقال مَالكُ بنُ أنسٍ: أستحبُّ الغُسلَ من غُسلِ الْمَيِّتِ، ولا أرى ذلكَ واجبًا، وهكذا قال الشَّافِعيُّ.
وقال أحمَدُ: من غسَّلَ ميِّتًا أرجُو أنْ لا يجبَ عليه الغُسلُ، وأمَّا الوضوءُ فأقلُّ ما قيلَ فيهِ.
وقالَ إسحاقُ: لا بدَّ من الوضوءِ.
قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقدْ رُوِيَ عن عبدالله بن الْمُبارَكِ أنَّهُ قال: لا يغتسلُ، ولا يتوضَّأُ منْ غُسْلِ الْمَيِّتِ.

الشَّرْح:

قولُهُ عن الإمام أحمد: (**أَرْجُو**) هذا من الوَرَعِ، كان الإمام أحمدُ -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ- كإخوانه من الأئمة شديدَ الورع والخوف من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، نحسبُهُ ولا نزكيه على الله.
كان يقول: (لا أَرَى) يعبر بعباراتٍ لا ينصُّ فيها صراحةً على الإلزام، ولا على عدم الإلزام؛ خوفًا وورعًا، ولذلك قال: (**أَرْجُو**).
وكان أئمةُ السَّلف على هذا، فكان إذا سُئِلَ الرَّجُلُ منهم عن الْمَسألة يقول: (لا أَرَى بِهَذَا بَأْسًا، أَوْ لَمْ يَظْهَرْ لي فِيْهَا بَأْسٌ).
وهذا كما أُثِر عن بعضهم أنَّه استفتاه رجلٌ، فقال له: ما ترى -رَحِمَك اللهُ- في كذا وكذا؟ فقال: ما أرى بِهذا بأسًا، فسأل رجلٌ بجوار السَّائل: ماذا قال؟، قال: يقول إنَّهَا جائزةٌ، فقال: قد قُلْتُ لك: (ما أَرَى بِهَذَا بأسًا، ولَمْ أقلْ لك: إنَّهَا حلالٌ).
انظرْ كيف الورع! كانوا يشدِّدون، القولُ على الله والفتوى في دين الله أمرُها عظيمٌ، ولذلك مَنْ كَمُلَ خَوفُهُ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وخشيتُهُ لله -عَزَّ وَجَلَّ- صان لسانَه أنْ يرتعَ في الأحكام الشَّرعية تحليلاً وتحريمًا إلا ببينةٍ وبرهانٍ من الله -عَزَّ وَجَلَّ-.
فكان أئمةُ السَّلف -رَحِمَهُمُ اللهُ- ودواوينُ العلم أشدَّ ما يكونون ورعًا في الجزم والحسم في الْمَسائل.
وظاهرُ ما ذكره -رَحِمَهُ اللهُ- مثل ما تقدَّم أنَّ **بعضَ أئمة الحديث** يرون الوجوبَ، كما حدَّثَ عن إسحاقَ بنِ راهويه، وهو من أهل الحديث.
وأنَّ جمهور العلماء لا يرون الوجوبَ، كما حكى عن الإمام مالكٍ والشَّافعيِّ، وهو قولُ الإمام أبي حنيفةَ، وكذلك الإمامُ أحمدَ في الْمَشهور أنَّه لا يجبُ الغسلُ من تغسيل الْمَيِّتِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا يُستَحَبُّ مِنَ الأَكْفَانِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا قُتَيبَةُ، حَدَّثَنَا بِشرُ بنُ المفضَّلِ، عن عبدالله بنِ عثمانَ بنُ خثيمٍ، عن سعيدِ بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: قالَ رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**اِلْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيْهَا مَوْتَاكُمْ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي الباب عن سَمُرَة، وابن عمرَ، وعائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ ابنِ عبَّاسٍ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

ترجمَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرجمة، والتي تتعلَّقُ بتكفين الْمَيِّتِ، **وتكفينُ الْمَيِّتِ**: سترُهُ بالكفن، والكفنُ من الثِّياب.

وقد جاءَتِ السُّنَّةُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في تكفين الْمَيِّتِ، حيث قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما في الصَّحيحين من حديث عبدالله بن عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في الرَّجُلِ الذي وَقَصَتْهُ دابَّتُهُ، وهو واقفٌ بعرفةَ مع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في حجة الوداع، قال: ((**اغسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوبَيْنِ**))، قال: ((**وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوبَيْنِ**)) **وهذا يدلُّ على مسائلَ:**

المسألةُ الأولى: وجوب تكفين الْمَيِّتِ، ولذلك قال العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ-: إنَّ تكفينَ الْمَيِّتِ يعتبر من فُرُوض الكفاية، إذا قام به البعضُ سقطَ الإثمُ عن الباقين.

والأصلُ في الكفنِ أنَّه يُؤخَذُ من تركة الْمَيِّتِ، فإنَّه يُؤخذ من تركة الْمَيِّتِ قبل تقسيم الْمَال وإعطائه للورثة، تُؤخَذُ مؤنةُ التَّجهيز.

ومؤنةُ التجهيز يدخلُ فيه: أجرةُ الغسَّالِ إذا لَمْ يكنْ هناك محتسبٌ في تغسيله، وما يحتاجُ إليه من الْمَاء إذا أُحتِيج إلى شراء الْمَاء لتغسيله، كما في بعض الأحوال.

وكذلك أيضًا قيمةُ الثِّياب التي يُكَفَّنُ فيها.

فإذا لَمْ يترِكِ الْمَيِّتُ مالاً: وجبَتْ على الأقرب فالأقرب على حسب الْمِيراث في استحقاق النَّفقة لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى**

الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ}، إلى أنْ قالَ: **{وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ}**، فجعل النَّفقةَ على الوارث، فإذا كان الورثةُ يرثونه في حال الغِنَى فإنَّه يلزمُهُم أنْ يضمنوا قيمةَ كفنِهِ في حال العُسر والفقر.

وهذا راجعٌ إلى: الأصلِ الشَّرعيِّ في القاعدةِ الْمَشهورةِ: "**أنَّ الغُنْمَ بِالغُرْمِ**"، ومَنْ يأخذ الرِّبحَ يتحمل الخسارةَ، فقرابتُهُ من العَصَبَة الذين يرثونه وتجبُ عليهم نفقتُهُ هم الذين يتولَّون شراءَ هذا الكفن في حال عدم ترك الْمَيِّتِ لِمَالٍ يمكنُ من خلاله شراءُ الكفن.

والسُّنَّةُ: أنَّ الْمَيِّتَ يُطلبُ له الكفنُ الْحَسَنُ، ويجتهِدُ قرابتُهُ ومَنْ يلي تكفينَه في ذلك أنَّه هو الأصلُ في السُّنَّةِ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أمر مَنْ تولَّى تكفينَ أخاه الْمُسلِم أنْ يُحسنَ كفنَه.

وثبتت السُّنَّةُ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالأمر بالتَّكفين.

وجاءَتْ صفةُ التَّكفين عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما في قصة زينبَ التي تقدَّمت معنا بعد تغسيلها -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-.

ويُكَفَّنُ الرَّجُلُ: في ثلاثة أثوابٍ.

والسُّنَّةُ والأفضلُ والأكملُ: أنْ تكونَ بيضاءَ؛ لِهذا الحديث؛ ولأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في الصَّحيحين من حديث أُمِّ الْمُؤمنين عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-: ((**كُفِّنَ فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ بِيْضٍ**)).

قَالَتْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-: ((**كُفِّنَ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ بِيْضٍ سَحَولِيَّةٍ لَيْسَ فِيْهَا قَمِيْصٌ وَلا عِمَامَةٌ**)).

وقولُهَا: ((**بِيْضٍ**)) من البياض.

و((**سَحَولِيَّةٍ**)): نسبةً إلى سَحُول بلدةٌ في اليمن، وكانت تُجلب منها الثِّيابُ.

وهذا يدلُّ على أنَّ السُّنَّةَ والأفضلَ أنْ يكونَ الكفنُ؛ لِهذا الحديث من قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ولأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كُفِّنَ في الثَّلاثةِ الأثوابِ البيضِ.

وهذه الثَّلاثةُ الأثوابُ: تُنشر، فيُوضَعُ الثَّوبُ الأولُ، **واختلفَ العلماءُ على وجهين** إذا كانَتِ الثَّلاثةُ الأثوابُ.

أولاً: نُحبُّ أن نُنَبِّهَ على أنَّه إذا قِيلَ في لسان العرب: (ثَوْبٌ) لا يستلزم أنْ يكونَ مفصَّلاً كثيابنا إذا قِيلَ: (ثَوْبٌ)، فإنَّه لو كان إزارًا ورداءً غيرَ مُفَصَّلٍ بأَنْ يُشَدَّ على أسفل البدن، كما في الإزار في الإحرام والرِّداء، الإزارُ لأسفل البدن، والرِّداءُ لأعلى البدن، فهذا غَيْرُ مُفَصَّلٍ، وقد قال -صَلَّى اللهُ

عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**كَفِّنُوهُ فِي ثَوبَيْنِ**))، فالثَّوبُ لا يستلزم أنْ يكونَ مفصَّلاً.

فحينما تريدُ أنْ تُكَفِّنَ ميِّتًا فتأخذُ ثلاثةَ أثوابٍ، أي تأخذُ ثلاثةَ قِطَعٍ من القماش.

وهذه الثَّلاثةُ القطعُ من القماش إذا كانَتْ كُلُّهَا مستويةً في الجودة والحُسن والجمال والنَّظافة والنَّقاء: فلا إشكال.

وأمَّا إذا اختلَفَتْ، فكان بعضُها أحسنَ، وبعضُها أجودَ، وبعضُها أطيبَ وأنظفَ، **فللعلماءِ وجهانِ**:

قالَ بعضُ العلماء: يُجعَلُ أجملُها وأكملُها الأوَّلَ من جهة النَّاسِ، بمعنى أنَّه سينشرُ الثَّلاثة الأثواب يُبْسَطُ الثَّوبُ الأولُ، ثم يُبْسَطُ الثَّوبُ الثَّاني فوقَه، ثم يُبْسَطُ الثَّوبُ الثَّالثُ فوقَه، ثم يُؤْتَى بالْمَيِّتِ من أجل أنْ تُلَفَّ عليه هذه الثِّياب.

فإذا قُلْنَا: أنَّهَا تُبْسَطُ فإنَّك إذا بَسَطْتَ الثَّوبَ الأولَ الجيدَ، فمعنى ذلك أنَّه إذا كُفِّنَ سيكون هذا الثَّوبُ الأبيضُ الجيدُ بالخارج، وسيلي نظرَ النَّاسِ.

وأمَّا إذا قُلْتَ: إنَّه يلي بدنَ الْمَيِّتِ ينبغي أنْ يكونَ أجودَ الثِّياب مما يلي جسدَ الْمَيِّت، فمعناه أنَّنَا نضعُ الأولَ، ثم الثَّاني، ثم نضعُ الجيدَ الثَّالثَ الأخيرَ الذي يلي الْمَيِّتَ.

وللعلماءِ وجهانِ:

قال بعضُهم: إنَّ الأفضلَ أنْ يُتْرَكَ الجيدُ من الخارج؛ لأنَّ مَنْ لبسَ ثوبًا وفيه ما هو جيدٌ ورديءٌ جعلَ الجيدَ مما يلي نظرَ النَّاسِ، وإنَّما يُصنَعُ بالْمَيِّتِ كما يُصْنَعُ بالحيِّ، فقالوا: الأفضلُ أنْ يُجعَلَ أجودُها وأحسنُها مما يلي نظرَ النَّاسِ.

وقال بعضُ العلماءِ: بالعكسِ؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال في حِقْوِهِ حينما أعطاهُ لأُمِّ عطيةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ**)) فجعلَ الأفضلَ والأكملَ مما يلي جسدَ الْمَيِّتِ.

وقالوا: إنَّ هذا من باب إكرام الْمَيِّتِ، وإكرامُهُ إكرامُ بدنِه، وحينئذٍ يكون مما يلي الجسدَ.

ولكلٍّ منهما وجهُهُ، والقولُ بأنَّه يلي الجسدَ **أقوى وأظهرُ** -والعلمُ عندَ اللهِ تَعَالَى-.

فإذا وُضِعَتْ هذه الثِّيابُ يُوضَعُ الثَّوبُ الأولُ، ثم يُنْشَرُ الثَّوبُ الأولُ، ويُنْشَرُ الثَّوبُ الثَّاني، وإذا نُشِرَ الثَّوبُ وُضِعَ الْحَنُوطُ عليه.

والْحَنُوطُ: أخلاطٌ من الطِّيب الْمَعروف، أخلاطٌ من الطِّيب تُوضَعُ فوق الكفن.

ثم بعد ذلك بُسِطَتِ الثَّلاثةُ الأثوابُ على التَّكفين بثلاثٍ، أو يُكَفَّنَ في خمسٍ.

وهذا أصلٌ: أنَّ تكفينَ الْمَيِّتِ يكونُ بالوترِ، إمَّا أَنْ يكونَ ثلاثًا، أو خَمْسًا.

فإذا لَمْ يوجدْ إلا ثوبٌ واحدٌ: فإنَّه يُكَفَّنُ فيه، ولا بأسَ، ولا حرجَ.

فإذا بُسِطَتِ هذه الثِّيابُ، ووُضِعَ عليها الْحَنُوطُ فإنَّه إذا أُنتُهِيَ من تغسيل الْمَيِّتِ جُفِّفَ، جُفِّفَ بمنشفةٍ أو نحوها، ولا يُوضَعُ مباشرةً على الكفن، وإنَّما يُجَفَّفُ، فإذا جُفِّفَ وُضِعَ على هذه الأكفان ثم رُدَّتْ عليه:

قِيلَ: يُرَدُّ الأيمنُ بالنِّسبة لجسد الْمَيِّتِ أولاً، ثم بعد ذلك الأيسرُ، **وهذا قَوِيٌّ**؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**إِذَا لَبِسْتُمْ وَإِذَا تَوَضَّأْتُمْ فَابْدَءُوا بِأَيَامِنِكُمْ**))، فنبدأُ بِرَدِّ الثَّوبِ؛ لأنَّك إذا وَضَعْتَ الْمَيِّتَ في وسط الثِّياب تحتاجُ أنْ تَرُدَّ الثَّوبَ الأولَ الذي يلي الجسدَ، وتَرُدُّهُ من جِهَتينِ، تَرُدُّهُ من شقِّه الأيمنِ، وتَرُدُّهُ من شقِّه الأيسرِ، **فهل نبدأُ بشقِّه الأيسرِ، ونجعلُ الأيمنَ الأعلى على أنَّه تفضيلٌ للأيمنِ بالعُلُوِّ؟ أَمْ نَرُدُّ الأيمنَ أولاً، ثم نَرُدُّ الأيسرَ؟وهو أقوى**؛ لظاهرِ قولِه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِذَا لَبِسْتُمْ فَتَيَامَنُوا**)).

فهذه هي السُّنَّةَ أنَّ مَنْ لبس ثوبًا يبدأُ بإدخال يدِهِ اليمنى قبل يدِهِ اليسرى؛ اتِّباعًا للسُّنَّةِ وهدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وهكذا إذا لبس الحذاءَ يُقَدِّمُ اليمين على الشِّمال.

قالَتْ أُمُّ الْمُؤمنين عائشةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**كَانَ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ وَتَرَجُّلِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ**)).

فقولُهَا: ((**فِي تَنَعُّلِهِ**)) أي لبس النعال.

فقولُهُ: ((**إِذَا لَبِسْتُمْ فَتَيَامَنُوا**)) فيه عمومٌ، يشملُ لبسَ الثِّياب، ولبسَ الحذاء، ونحو ذلك مما يُلبَسُ، فالسُّنَّةُ أنَّهُ يُقَدِّمُ اليمينَ على اليسار.

بيَّن الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- تكفينَ الْمَيِّتِ، وهذا التَّكفينُ بوضع هذه الأكفان يُشرَعُ للرِّجالِ كما قدَّمْنَا؛ لأنَّه السُّنَّةُ وهديُ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **إلا أنَّ الْمرأة** أشدُّ من الرَّجُل، فالسَّتْرُ فيها أبلغُ، ولذلك تُكَفَّنُ في خَمسةِ أثوابٍ: في قميصٍ، ودِرعٍ، وخِمَارٍ، ولِفَافَتَيْنِ.

فهذا أكملُ في سَتْرِ الْمَرأة، كما وَرَدَ في حديث أُمِّ عطيةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في تكفين زينبَ بنتِ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فأوترَ للرَّجُل بثلاثٍ، وأوترَ للمرأة بِخمسٍ، فجُعِلَتْ سُتْرَةُ الْمَرأةِ أكثرَ من سُتْرَةِ الرَّجُلِ ؛ لوجود الحاجة إلى سَتْرِهَا، وهذا أصلٌ شرعيٌّ.

والتَّكفينُ باختيار الثِّياب الجيدة هو مذهبُ جمهور العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وقالَ بعضُ العلماء: إنَّ الأفضلَ أنْ يُكَفَّنَ في الثِّياب الْمَوجودة الْمُتيسرة، ولا يُشْتَرَى له الجديدُ ولا يُكَفَّنُ في الجديد.

واحتجُّوا: بِما أُثِرَ عن أبي بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه أَمَرَ أنْ يُكَفَّنَ في ثوبه، وقالَ: ((**إِنَّ الْحَيَّ أَحَقُّ بِالْجَدِيدِ مِنْ الْمَيِّتِ**)).

والأوَّلُ أقوى وهو مذهبُ جُمهور العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فُعِلَ به ذلك، فكُفِّن في ثلاثةِ أثوابٍ بيضٍ سحوليةٍ.

وكذلك مِمَّا يدلُّ على رُجحانِ هذا القول: عمومُ الأمر بالإحسان في تكفين الْمَيِّتِ، فإنَّ هذا يستلزمُ أنْ تكونَ الثِّيابُ جديدةً ونظيفةً، وهذا أبلغُ وأكملُ ما يكونُ في الإحسان إلى الْمَيِّتِ.

وأمَّا الشَّهِيْدُ: فإنَّه تُجمَعُ عليه ثيابُهُ، ولا يُكَفَّنُ بثيابٍ خارجةٍ عن ثيابِه التي قُتِل فيها، وهذا خاصٌّ بالشَّهيد الذي يُقْتَلُ في أرض الْمَعركة، فهذه الأحكام أعني أنَّه لا يُغَسَّلُ، ولا يُطْلَبُ له الكفنُ كغيره من الأموات فضيلةٌ فضَّل اللهُ بِها الشُّهداءَ.

ولذلك ثَبَتَ في الحديث عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه قال في شُهداءِ أُحُدٍ: ((**زَمِّلُوهُم في ثِيَابِهِم؛ فَإِنِّي شَهِيدٌ لَهُم بَيْنَ يَدَي اللهِ**)).

فالأصلُ في الشَّهيد أنَّه تُجمَعُ عليه ثيابُهُ، ولذلك لَمَّا استُشهِدَ مصعبُ بنْ عُمَيْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- يومَ أُحُدٍ لَمْ يَجدوا له إلا شَمْلَةً، كانوا إذا غطَّوا بِهَا رأسَه بَدَتْ قَدَمَاهُ، وإذا غطَّوا بِهَا قَدَمَيهِ بَدَا رأسُهُ، فقالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيهِ إِذْخِرًا، أَوْ شَيْئًا مِنَ الإِذْخِرِ**))، ولَمْ يطلبِ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كفنًا زائدًا عن ثوبه.

والسَّببُ في ذلك: فضلُ الشَّهادة في سبيل الله، وكونُ الإنسان مقتولاً لإعلاء كلمة الله، وجاهد أعداءَ الله مقبلاً غيْر مدبرٍ، صابرًا مُحتسبًا، قد باع نفسَه لله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولذلك لا يُغَسَّلُ ولا يُكَفَّنُ، وإنَّما تُجمَعُ عليه ثيابُهُ التي قُتِلَ فيها.

قالَ بعضُ العلماءِ: ومن الْمُناسبة أيضًا في عدم تكفين الشَّهيد أنَّه يكونُ عليه دمٌ، والدَّمُ هذا دمُ فضيلةٍ، ولذلك لا تُشرَعُ إزالتُهُ؛ لأنَّه شهادةٌ للشَّهيد، كما في الحديث الصَّحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه قال : ((**مَا مِنْ كَلْمٍ**)) والكَلْمُ هو الجرح ((**مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيلِ اللهِ إلا جَاءَ يومَ القيامةِ وجرحُهُ يَثْعُبُ دَمًا، اللونُ لَونُ دَمٍ، والرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ**))، ولذلك يُبْعَثُ الشَّهداءُ ودماؤُهم تسيلُ في عَرَصَات يوم القيامة شاهدةً على أنَّهُم قُتِلوا في سبيل الله، وأنَّهُم قدَّمُوا أرواحَهم

لإعلاء كلمة الله على الوجه الذي يرضي الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

فالْمَقصودُ: أنَّه يُسْتَثْنَى من التَّكفين مَنْ مات شهيدًا في سبيل الله.

والشَّرط في ذلك: أَنْ يكونَ شهيدًا في أرض الْمَعركة، بمعنى أنَّه تفيضُ روحُهُ في أرض الْمَعركة.

أمَّا لو أنَّه ضُرِب أو جُرِح، ثم نُقِل من أرض الْمَعركة، ولو عاش دقائقَ يسيرةً ثم مات، فإنَّه يُعَامَلُ معاملةَ الْمَيِّتِ سواءً بسواءٍ، فيُغَسَّلُ ويُكَفَّنُ.

أمَّا بالنِّسبة لهذا الحكم، وهو إسقاطُ التَّكفين عن الْمَيِّتِ الشَّهيدِ **مَحَلُّهُ**: أَنْ يموتَ في أرض الْمَعركة فتفيضُ روحُهُ في أرض الْمَعركة قبل نقلِه وتحويلِه عنها، هذا بالنِّسبةِ للأصلِ في التَّكفين.

بيَّن النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث أنَّ أفضلَ ما يُلبَسُ الثِّيابُ البيضاءُ، وأنَّهَا خيرُ الثِّيابِ، ولذلك يُستَحَبُّ إذا لَبِسَ الْمُسلِمُ أنْ يحرصَ في لبسه على الثِّياب البيضاء، وهذا لا يمنعُ لُبْسَ غَيْرِها؛ لأنَّ هذا على سبيل الأفضل، وهو لا يدلُّ على تحريم الْمَفضول، ولا يدلُّ على الْمَنع من الْمَفضول، فلو لَبِسَ ثيابًا لها ألوانٌ أخرى فلا حرجَ عليه، وقد كان -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يلبسُ البُرْدَ الْحِبَرَة.

والْحِبَرَةُ قِيلَ: هي التي لونُهَا ضاربٌ إلى الْحُمْرَة، وهذا خلافُ اللَّون الأبيض.

وعلى كُلِّ حالٍ **الأفضلُ والأكملُ** لُبْسُ الثَّوب الأبيض، وهذا يشملُ ما إذا كان داخلاً أو خارجًا كأَنْ يلبسَ ما يلي البدن من الشِّعار كما يُسمَّى في زماننا بـ(الفَنِيْلَة)، أو يلبس السَّراويلَ وتكون بيضاء، وهكذا بالنِّسبة للبس الثَّوب الخارج من البدن، فالأفضلْ أنْ يلبسَ الأبيضَ.

هذا الحديث فيه عمومٌ يدلُّ على أنَّ الأفضلَ الأبيضُ في جميع الْمَلبوس حتى ولو كان عمامةً، فإذا اعتمَّ بالعمامة، فإنَّ **الأفضلَ والأكملَ** أنْ تكونَ عمامتُهُ بيضاءَ.

وهذا كُلُّهُ كما ذكرنا على سبيل النَّدب والاستحباب، وإلا فقد ثَبَتَ عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه لبسَ البُرْدَ الأَخْضَرَ، واعتمرَ به -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما في عمرة الْجِعِرَّانَة.

وكذلك أيضًا لبسُهُ للعمامة السَّوداء، حينما كان في خطبته بِمَكَّةَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وهو الذي يستحبُّهُ أهلُ العلمِ.

وقال ابنُ الْمُباركِ: أحبُّ إليَّ أنْ يكفَّنَ في ثيابهِ التي كان يُصلِّي فيها.

الشَّرْح:

(**أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يُكَفَّنَ فِي الثِّيَابِ التِي كَانَ يُصَلِّي فِيهَا**): هذا قول ابن الْمُبارك -رَحِمَهُ اللهُ-.

وكان بعضُ العلماءِ يقول: بأنَّ الأصلَ أنَّ الْمُسلِم يُكَفَّنُ في الثِّياب العادية؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كُفِّن فيها، وكُفِّن فيها الصَّحابةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-.

وهذا تسامحٌ منه -رَحِمَهُ اللهُ-، وإلا في الأصل أنَّ الاستحبابَ حكمٌ شرعيٌّ، ويحتاجُ إلى دليلٍ، ولو كانَتِ الثِّيابُ الْمُعينةُ في الصَّلاة تعين عند اللبس لنبَّهَ على ذلك النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لو كان لها مزيةُ فضلٍ وهذا مما تعمُّ به البلوى.

ولذلك هذا تسامحٌ منه، وإلا فالأصل أنَّه لا ينبغي أنْ يُقَالَ باستحباب أمرٍ إلا بأصلٍ شرعيٍّ، أو دليلٍ شرعيٍّ يدلُّ عليه.

ولا أحفظُ -حَسَبَ عِلْمِي- أنَّ هناك دليلاً يدلُّ على أنَّ الأفضلَ أنْ يُكَفَّنَ الإنسانُ في الثَّوب الذي لَبِسَهُ، أو مثلاً في الثِّياب التي كما يَفْعَلُ بعضُهم أنَّه إذا حجَّ واعتمر احتفظَ بالثِّياب الإزار والرِّداء الذي حجَّ به واعتمر، ثم أمرَ بأنْ يُكَفَّنَ فيه، كُلُّ هذا لا أحفظُ له دليلاً.

والْمُنبغي الاقتصارُ على الوارد؛ لأنَّه لو كان فيه مزيةُ فضلٍ لبَيَّنَهُ كتابُ الله، وبيَّنَتْهُ سنةُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولو كان فيه مزيةُ خيرٍ.

تَأَمَّلْ رسولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- دلَّنا على ألوانِ الثِّياب، وهو يقول: إنَّ الأبيضَ هو خيرُهَا، وأنَّه يُكَفَّنُ فيه الْمَوتى، فلو كان الثَّوبُ الذي يُصَلِّي فيه الإنسانُ أفضلَ وأكملَ ما سكتَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عن ذلك.

وهذا هو الذي ينبغي للمُسلم أنْ يلتزمَه، أنَّه لا يجوزُ اعتقادُ مزيةِ فضلِ شيءٍ إلا بدليلٍ.

أمَّا لو أنَّه قالَ: (كفِّنُونِي في ثوبي الذي أُصَلِّي فيه) فهذا جائزٌ.

لكن إذا قال: (إنَّ هذا أفضلُ وأكملُ)، ودلَّ النَّاسَ عليه، فهذا يحتاجُ إلى حُجَّةٍ وبُرهانٍ؛ لأنَّه دينٌ وشرعٌ.

أمَّا لو أنَّه فعَلَهُ هو بنفسِه، كما أمرَ أبو بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنْ يُكَفَّنَ في الثِّياب التي يلبَسُها، وأنَّ الْحَيَّ أولى بالثَّوب من الْمَيِّتِ، هذا له أصلٌ وسائغٌ.

أمَّا أنْ يُقَالَ للنَّاسِ: (احرصُوا على أنْ تُكَفِّنُوا في ثيابِ الصَّلاةِ أو الثَّوب الذي تُصَلُّون فيه) فإنَّه لا بُدَّ لذلك من دليلٍ يدلُّ عليه، والنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ما ترك خيرًا إلا ودلَّنَا عليه، حتى لونُ الثَّوبِ الذي نُكَفَّنُ فيه.

اللَّهُمَّ اجزِهِ عنَّا خيرَ الجزاء، ورَحِمَ اللهُ عبدالله بنَ الْمُبارك برحمته الواسعة، وهذا قالَهُ على حُسْنِ ظنٍّ ولكن مثل ما ذكرنا أنَّه لا يجوزُ أنْ يُجْعَلَ للنَّاسِ دينًا وشرعًا، ويُقَالَ لهم: إنَّ هذا أفضلُ وأكملُ إلا إذا كان هناك أصلٌ شرعيٌّ.

الثِّيابُ سُبْحَانَ اللهِ العظيمِ، هذا الثَّوبُ الذي يُصَلِّي فيه الإنسانُ لو فرضْنَا قُلْ: (فيه بركةٌ) البركةُ مِنْ أينَ جاءَتْ؟ لو قُلْنَا يعني على قولٍ، جاءَتْ من الطَّاعة من الجسد، ثم نقولُ: هذا الجسدُ خَلُّوهُ يأخذُ بركةَ الثَّوب، واضحٌ هذا، ما يمكنُ، هو أصلاً تقولُ: إنَّه الثَّوبُ الذي يُصَلِّي فيه مَنِ الَّذِي صَلَّى والصَّلاةُ وَقَعَتْ بِمَاذَا؟ بالجسدِ، ولذلك فضَّل اللهُ بني آدمَ وكرَّمَهم، فمثل هذا الأمر فيه مسامحةٌ.

وهذه أمانةُ أهلِ العلم أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يضعَ للنَّاس استحبابًا أو ندبًا أو تفضيلاً إلا وعنده حُجَّةٌ ودليلٌ وبرهانٌ من الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

ولذلك مَنْ سَبَقَ الإمامَ ابنَ الْمُبارِكِ من أئمة العلم ودواوين العلم لَمْ يُنَبِّهُوا على هذا، وتسامحَ بعضُ العلماء، أنَّمَا نَبَّهْنَا عليه؛ لأنَّه تسامحَ البعضُ كما ذكرنا، حتى إنَّ بعضَهم يقول: (كَفِّنُونِي في هذا الإحرام الذي أَدَّيْتُ به العمرةَ أو كذا أو نحو ذلك) فهذا لا أصلَ له.

أمَّا لو أنَّه أخذ أكفانًا وطيَّبَها وأحسنَها، ثم قال: (إذا مِتُّ فكفِّنُونِي في هذا الثَّوب) فلا بأسَ، ولا حرجَ، إذا أخذَ أكفانَه، واستعدَّ لِمَوتِهِ، وجعل له أكفانًا مخصوصةً تحرَّى فيها السُّنَّةَ، وقال لأهله: (إذا مِتُّ فكفِّنُونِي في هذه الأكفان) فلا بأسَ بذلك، ولا حرجَ فيه، وإنَّمَا الْمَمنوعُ أنْ يعتقدَ مزيةَ الفضلِ، فيقولُ بالاستحباب، أو بالتَّفضيل، أو يأمرُ النَّاسَ بذلك، أو يتخذُهُ مَنْ بعدَهُ سُنَّةً وشرعًا

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقال أحمَدُ وإسحاقُ: أحبُّ الثِّيابِ إلينا أنْ يُكفَّنَ فيها البياضُ، ويُستحبُّ حُسنُ الكفنِ.

الشَّرْح:

(أحبُّ الثِّيابِ إلينا أنْ يُكفَّنَ فيها البياضُ): كما وَرَدَ في السُّنَّةِ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وكذلك يُستَحَبُّ إحسانُ الكفنِ، أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يُكَفِّنَ أخاهُ الْمُسلِمَ أنْ يُحسِنَ كفنَه. وهذا القولُ من هذا الإمام والْحَبْرِ -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ- لَمْ يُجَاوِزْ فيه السُّنَّةَ الْمَحفوظةَ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابٌ مِنْهُ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ، حَدَّثَنَا عُمرُ بنُ يونسَ، حَدَّثَنَا عِكرمةُ بن عمَّارٍ، عن هشامِ بنِ حسَّانَ، عن مُحَمَّدِ بنِ سيرينَ، عن أبي قَتادةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قالَ رسول اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِذَا وَلِيَ أَحَدُكُم أَخَاهُ فَلْيُحْسِنْ كَفَنَهُ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وفيهِ عن جابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

الشَّرْح:

هذا الحديثُ الذي رَوَاهُ أبو قتادةَ الحارثُ بنُ بَلْدَمَةَ أو بَلْدَهةَ، فارسُ رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الذي دعا له رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الدَّعوةَ الْمَشهورةَ، فقال: ((**حَفِظَكَ اللهُ بِمَا حَفِظْتَ بِهِ نَبِيَّهُ**)) ذلك أنَّه كان يسيرُ وراءَ رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فنام النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حتى كادَ يسقطُ من على الدَّابة، فدعم أبو قتادةَ الدَّابةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فاستيقظَ

رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ودعا له بهذه الدَّعوة، وهو فارسُ رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَجَعَلَ أَعَالِي الْفِرْدَوْسِ مَسْكَنَهُ وَمَثْوَاهُ-.

بيَّن فيه هذه السُّنَّةَ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حيث يقولُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِذَا وَلِيَ أَحَدُكُم أَخَاهُ فَلْيُحْسِنْ كَفَنَهُ**)).

((**إِذَا وَلِيَ**)): يُقَالُ: "وَلِيَ الأمرَ": إذا قامَ به، "وتَوَلَّى الأمرَ": إذا قامَ به.

و((**إِذَا وَلِيَ أَحَدُكُم أَخَاهُ**)): أي وَلِيَ تغسيلَه وتكفينَه، أو وَلِيَ تكفينَه:

لأنَّه قد يتولَّى التَّغسيلَ والتَّكفينَ، كالابن يغسل أباه ويهيئ الكفن له.

وقد يتولَّى التَّغسيلَ دون التَّكفينِ، كأَنْ يُغَسِّلَهُ ولا يَشتَغِلُ بشيءٍ من كفنه، ويُحضِرُ الكفنَ غَيْرُهُ. **وقد يتولَّى التَّكفينَ**، ولا يتولَّى التَّغسيلَ، فيُحضِرُ الكفنَ ويشتريه.

فبيَّن النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ مَنْ وَلِيَ أمرَ أخيه الْمُسلِم بتكفينه أنْ يُحسِنَ كفنَه، وهذا كما يذكرُ العلماءُ أنَّ مَنْ تولَّى التَّغسيل والتَّكفين **ينبغي أنْ تُراعَى فيه الأمورُ الشَّرعيةُ:**

أولاً: بالنِّسبة للتَّغسيل أنْ يكونَ معروفًا بالدِّيانة، فلا يتولَّى تغسيلَ الْمَوتى إلا مَنْ كان فيه دِينٌ وخوفُ من الله وخشيةُ لله -عَزَّ وَجَلَّ-.

ولذلك أُثِر عن الصَّحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- أنَّهُم عَهِدُوا بالتَّغسيل، وهكذا أئمةُ التَّابعين ودواوينُ العلم، حتى كان بعضُهم يوصي أنَّه إذا مات فليغسلْهُ فلانٌ؛ لِمَا عُرِفَ عنه من الدِّيانة والاستقامة.

والسَّبب في هذا: أنَّه إذا تولَّى تغسيلَ الْمَيِّتِ مَنْ كان عنده دِينٌ ومحافظةٌ، فإنَّه يقومُ بالتَّغسيل على أتمِّ الوجوه وأكملِها، فيتقي اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- في تغسيله، ويتحرَّى السُّنَّةَ وهديَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنَّ مثلَ هؤلاء الأبرارِ الصِّالحين الأخيارِ الظَّنُّ بِهِم أنْ يقومُوا بحقِّ الله وحقوقِ إخوانِهِم على الوجه الذي يُرضي اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-.

ولذلك أُثِر عن أنسِ بنِ مالكٍ -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّه وَصَّى أنْ يُغسِّلَهُ ثابتٌ الْبُنَّانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-، وهو من خِيارِ أصحابِه، وهذا أمرٌ معروفٌ عن أئمة السَّلف ودواوين العلم أنَّهُم عَهِدُوا وأوصوا إلى مَنْ يُغَسِّلُهُم، ويتولَّى ذلك الأمرَ إلى مَنْ يُعْرَفُ بالدِّيانة والاستقامة.

وثانيًا: أنْ يكونَ عنده عِلْمٌ ومعرفةٌ بطريقةِ التَّغسيل، وطريقةِ التَّكفينِ؛ حتى يتحرَّى هديَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنته؛ لأنَّه إذا كان جاهلاً فإنَّه يُضَيِّعُ حقَّ اللهِ في التَّغسيل، ويُضَيِّعُ حقَّ الْمَخلوق وهو الْمَيِّت الذي يُرَادُ تغسيلُهُ؛ لأنَّ تغسيلَ الْمَيِّتِ فيه حقٌّ لله، وفيه حقٌّ للمخلوق، فإذا

كان عالِمًا وعنده معرفةٌ وبصيرةٌ بمهمة التَّغسيل وكيفية التَّغسيل فإنَّه يقومُ بذلك على أتم الوجوه وأكملها.

وثالثًا: أَنْ تكونَ فيه أمانةٌ، وهذه الأمانةُ الْمُرادُ بها حفظُ السِّرِّ، فإِنْ رأى خيرًا أظهرَهُ، وإِنْ رأى شرًّا ستَرَهُ، فإنَّ تغسيلَ الْمَوتى قد تقعُ فيه بعضُ العِبَرِ، وقد تقعُ فيه بعضُ الآياتِ، تغسيلُ الْمَوتى بل أحوال الْمَوتى عمومًا فيه عِبَرٌ تَهُزُّ القلوبَ، وفيها عِبَرٌ توقظُ النَّائمين، وتُنَبِّهُ الغافلين، وهي آياتٌ من ربِّ العالَمِينَ، مَنْ أحسنَ الاتعاظَ والادِّكارَ بها أفلحَ وأنجحَ، وأصابَ الخيرَ الكثيرَ.

فهذه الأمورُ التي تحدثُ للموتى عند تغسيلهم إذا كان أمينًا فإنَّه:

أولاً: يَسْتُرُ عورةَ الْمَيِّتِ إذا أرادَ تغسيلَه، ويحفظُ هذه العورةَ، بخلافِ ما إذا كان فاسقًا وفاجرًا متهتِّكًا في حدود الله ومحارم الله لَمْ يُؤْمَنْ منه أنْ يفعلَ الْمَحظورَ، أو يُضَيِّعَ أو يهتِكَ الْمَستورَ، فينبغي عليه أنْ يكونَ فيه أمانةٌ وحفظٌ، فما رأى من خيرٍ نشرَهُ إنْ كان الخيرُ في نشرِهِ، وما رأى من سوءٍ سَتَرَهُ، هذا هو الأصلُ.

ولذلك ما يفعلُهُ البعضُ من نشرِ بعضِ الحوادث عن الْمَوتى، قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّه يسوغُ ذلك إذا كان بدونِ تحديدِ الْمَيِّتِ، كأَنْ يقولَ: غَسَّلْتُ ميِّتًا، فرأيْتُ أمرًا فيظعًا كذا وكذا؛ لأنَّه تقعُ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ-، بعضُ العُصاةِ إذا غُسِّلُوا ظَهَرَتْ منه أمورٌ شنيعةٌ فظيعةٌ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-، ولرُبَّمَا يعني يتأذَّى حتى مَنْ يُغَسِّلُهم، وهذا أمرٌ ثابتٌ ومعروفٌ، وحتى في بعض الذُّنُوب والْمَعاصي يلحقُ شؤمُها وبلاؤُها أصحابَهَا، فيأخذُهم اللهُ بها أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، وخاصةً مَنْ كانَتْ عنده جُرأةٌ على الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وعلى رسوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وعلى الدِّين والشَّرع.

ولذلك قَدْرَ ما ترى من الْمُستهزئين والْمُستخفين، فهؤلاء لهم يومٌ عند ربِّ العالَمِينَ، ولا يظهرُ هذا -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ- إلا في الخاتمة أسوأَ ما يظهرُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- في الخواتم، وفي تغسيلهم وفي قبورهم، حتى إنَّ بعضَهم -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-، وهذا شَهِدَ به الثِّقاتُ أنَّهُم عجزُوا أنْ يجعلُوا رَجُلاً مستقبلاً للقبلة -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-، كُلَّمَا وُضِعَ للقبلة يُنْقِلُبُ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ-، وكان من أشدِّ النَّاسِ على الأخيار، يتهكمُ بِهِم، ويستهزئُ بِهِم، وكان يستهزئُ بالعلماء، ويثلبُهم، ويتتبَّعُ عوراتِهِم، ويؤذيهم، وينتقصُهم، وهو ممن يتسمَّى باسم الإسلام، فَلَمَّا وُضِعَ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- في قبره عجزُوا أنْ يجعلُوهُ على القبلة، ولا يمكنُ أنْ يستجيبَ لهم جسدُهُ، كُلَّمَا وُضِعَ يَنْقِلُبُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- ويَنْحَرِفُ.

ومنهم مَنْ تحصلُ بعضُ الآياتِ والعِبَرِ في دفنه، فهذه قد يُظهِرُها اللهُ في بعض الأحوال، وقد لا يُظهِرُها سبحانه؛ لأنَّه يريدُ أنْ يجعلَ لصاحبها البلاءَ أشدَّ في الآخرة -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ-، ونسألُ اللهَ بعزتِه وجلالِه وعظمتِه وكمالِه أنْ لا يُؤَاخِذَنا بذنوبنا.

فهذا التَّغسيلُ فيه عِبَرٌ عظيمةٌ، وآياتٌ عظيمةٌ، يقولُ بعضُهم: غَسَّلْتُ رَجُلاً كان مُبتلًى بشُربِ أمرٍ محرمٍ، قال: فأصبحَتْ تخرجُ من جسده رائحةٌ نَتِنَةٌ من ذلك الْمُحرَّم، حتى إنِّي لَمْ أُطِقْ تغسيلَه، يقولُ: ما استطعْتُ أنْ أُغَسِّلَه، وهذا في بعض الْمُحرَّمات التي أُبتُلِي بها بعضُ النَّاسِ.

وبعضُهم لَمَّا يُنَزِّلُهُ في قبره تظهرُ هذه الرَّائحةُ، هذه آياتٌ قد يُظهِرُها اللهُ في بعض الأحوال، وهذا كُلُّهُ على سبيل الاتعاظ والاعتبار.

والأصل أنَّ الْمُسلِمَ يَستُرُ أخاهُ الْمُسلِمَ، فإذا رأى منه خيرًا نشرَهُ.

وأمَّا بالنِّسبةِ للمُتهتِّكِ والفاجرِ فإنَّه تُنشَرُ العِبَرُ التي تكونُ في خاتمته وفي قبره.

ذكرَ بعضُ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّه سافر إلى بلدٍ ما، كان فيها أحدُ الكُتَّابِ الذين يستهزئون بأبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وكان هذا الكاتبُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- ليس له شأنٌ إلا الْمِسَاسَ بحُرمة هذا الصَّحابيّ الذي قال فيه النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**لا يُحِبُّكَ إلا مُؤْمِنٌ، وَلا يُبْغِضُكَ إلا مُنَافِقٌ**))، وهو حافظُ الصَّحابةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، قال: وكُنْتُ أريدُ أنْ أُناقشَ هذا الكاتبَ الذي آذى أبا هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وهو كاتبٌ من الْمُتأخرين، مشهورٌ، وما ماتَ إلا قريبًا، قال: فجِئْتُ أسألُ عن بيته لأجلِ أنْ أدخُلَ عليه وأناقشَه، قال: فشاءَ اللهُ أنْ يكونَ دخولِي وهو في سَكَرَاتِ الْمَوتِ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- قال: فوجدْتُهُ قد -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- أظلمَ وجهُهُ، واشتدَّ من شدةِ الدَّمِ الْمُتجلطِ في وجهه -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- بأسوأِ الأحوال، وإذا به يريدُ أنْ يتنسمَ فلا يستطيعُ، فيقول: آه أبو هريرةَ، آه أبو هريرةَ، حتى فاضَتْ روحُهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- بأسوأِ ما يكون، وهذا أقلُّ ما يكونُ، ولكن ما عندَ الله أشدُّ.

فالشَّاهد: أنَّ أشدَّ ما يكون من العِبَرِ خاصةً للمستهزئين بالدِّينِ، فإنَّه لا يأمنُ لهم سوءُ الخاتمة -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- وعظيمُ نكال الله بهم، فتحدثُ بعضُ الآياتِ والعِبَرِ في تغسيل الْمَوتى وتكفينهم فالْمُنبغي أنْ يكونَ الَّذِين يَلُونَ تغسيلَ الْمَوتى وتكفينهم مِمَّنْ عُرِفُوا بالأمانة والعلم في التَّغسيل والتَّكفين؛ حتى يتحرَّى سنةَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديَه.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقالَ ابنُ الْمُباركِ: قالَ سلاَّمُ بنُ أبي مطيعٍ في قولهِ: ((**وَلْيُحْسِنْ أَحَدُكُم كَفَنَ أَخِيهِ**))، قالَ: هو الصَّفا، وليس بالْمُرتفِعِ.

الشَّرْح:

(هو الصَّفَا، وليسَ بالْمرتفعِ): الأصلُ أنَّه لا يُبالِغُ، ليس الْمُرادُ بتحسين الكفن أنَّه يشتري أغلى الثِّياب وأنفسَها وأجودَها، وأيضًا لا يحطُّ من قَدْرِ الْمَيِّتِ فيشتري له الأردأَ، كما هو صنيعُ أهلِ البُخلِ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ-، وإنَّما يكونُ على الوسط، وهذا هو العدلُ والقَوامُ.

نسألُ اللهَ العظيمَ أنْ يرزقَنا العلمَ النَّافعَ، والعملَ الصَّالحَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

رقم الدَّرس ٤١٤

الأربعاء ٨-٤-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِي الشَّنقيطي

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-:**[بَابُ مَا جَاءَ فِي كَفَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ**]**

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ، حدثنا حفصُ بنُ غياثٍ، عن هشامِ بنِ عروةَ، عن أبيهِ، عن عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ: ((**كُفِّنَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ بِيْضٍ يَمَانِيَّةٍ، لَيْسَ فِيْهَا قَمِيْصٌ، وَلا عِمَامَةٌ**)).

قال: فَذَكروا لعائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قولهمْ: ((**فِي ثَوْبَيْنِ وَبُرْدٍ حَبِرَةٍ**)) فَقَالَتْ: قَدْ أُتِيَ بِالْبُرْدِ وَلَكِنَّهُمْ رَدُّوْهُ، وَلَمْ يُكَفِّنُوْهُ فِيْهِ.

قَالَ الإمامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشرح:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله ربِّ العالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتمانِ الأكملانِ على خير خلق الله أجمعين، وعلى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ سارَ على سبيلِهِ ونَهْجِهِ، إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد ترجم الإمام الحافظ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرْجَمة، والتي تتعلَّقُ بكفن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وقد جعل اللهُ لنا في رسولِ الله أسوةً حسنةً، ولذلك اعتنى العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- ببيان الكفن الذي كُفِّن فيه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، واستحبُّوا للأُمَّةِ التزامَ السُّنَّةِ في ذلك.

وما اختاره اللهُ لنَبِيِّهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في كفنِه هو الأفضلُ والأكملُ.

ولذلك قرَّر العلماءُ والأئمةُ على أنَّ الأفضلَ والأكملَ أنْ يكونَ كفنُ الإنسان بالنِّسبة للرِّجال ككفنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- دون زيادةٍ أو نقصانٍ، إذا قُصِد بذلك الكمالُ.

أمَّا من حيثُ الجوازِ: فإنَّ الكفنَ الذي يجزئُ الْمُرادُ به ما يَحْصُلُ به السَّتْرُ، فلو كُفِّنَ الْمَيِّتُ في ثوبٍ واحدٍ يستُرُهُ فإنَّه يكفيه، وإنَّما الْمُرادُ ما هو الأكملُ والأفضلُ، ولا شكَّ أنَّ الثَّلاثةَ الأثوابَ هي الأفضلُ والأكملُ.

وذكرَ حديثَ أمِّ الْمُؤمنينَ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، **وهذا الحديثُ يُعتبَرُ عُمْدَةً في بابِ كفنِ النبيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنَّه أَجْمَعُ الأحاديثِ، ولأنَّ أمَّ الْمُؤمنينَ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

وَأَرْضَاهَا- أقربُ النَّاس إلى رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، حتى إنَّه تُوُفِّيَ بين حاقِنَتِها وذِقْنِها -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، فهي أقربُ النَّاسِ إلى رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وأعلمُهُم بما جَرَى في تكفينِهِ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ-.

وقولُهَا -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**كُفِّنَ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ**)) غُسِّل -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- غُسْلَ الْمَيِّتِ، ولَمَّا غُسِّلَ لَم يجرَّدْ من ثيابِه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ولذلك غُسِّلَ في قميصِهِ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وأُعِدَّ الكفنُ بعد تغسيلِهِ، وكان الكفنُ كما وَصَفَتْ أُمُّ الْمُؤمنينَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في هذا الحديثِ الصَّحيحِ، وأصلُهُ في الصَّحيحين، أنَّه مشتملٌ على: ((**ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ بِيْضٍ سَحُوْلِيَّةٍ، لَيْسَ فِيْهَا قَمِيْصٌ، وَلا عِمَامَةٌ**)) **مُرَادُهَا**: الكفنُ الذي أُعِدَّ بعد التَّغسيل.

أمَّا هو -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فقد غُسِّل في قميصِهِ، ولَمَّا أرادُوا أنْ يُجرِّدُوهُ مُنِعُوا من ذلك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-.

ولذلك إذا أُثبِتَ القميصُ من وجهٍ فهو سائغٌ، وإذا نُفِيَ من وجهٍ فهو سائغٌ.

مرادُها: ما أُعِدَّ بعد التَّغسيل؛ لأنَّ الكفنَ الْمُرادُ به: ما أُعِدَّ بعد التَّغسيل، فبعدَ تغسيلِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وُضِع في هذه الثَّلاثةِ الأثوابِ البيضِ السَّحوليةِ.

وقولُهَا: ((**فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ**)) تقدَّم معنا أنَّ السُّنَّةَ **أنْ يُبسَطَ الثَّوبُ الأولُ**:

قِيلَ: أحسنُها وأفضلُها؛ لأنَّ الإنسانَ إذا لبس شيئًا، وكان جميلاً جَعَل الجميلَ مما يلي نظرَ النَّاسِ ثم تُبسَطُ، ثم يُوضَعُ على الكفنِ الحنوطُ والطِّيبُ على اللُّفافةِ الأولى والثَّوبِ الأولِ، ثم يُبسَطُ بعدَ ذلك الثَّوبُ الثَّاني، ويُوضَعُ فيه الطِّيبُ، ثم يُبسَطُ الثَّوبُ الثَّالثُ.

وهذا كُلُّهُ بعد تجميرِ الكفنِ وتطييبِهِ؛ لأنَّ السُّنَّةَ أنْ يُطيَّبَ ويُحَسَّنَ؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أوصى بذلك أنَّه: ((**إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ**))، ومن إحسانِ الكفنِ تنظيفُهُ وتغسيلُهُ وتطييبُهُ، إذا كان ثوبًا مستعملاً يُغَسَّلُ ويُطَيَّبُ، فيُجَمَّرُ بالعُودِ، ويُجَمَّرُ بالطِّيبِ الطَّيِّبِ، ثم بعد ذلك يُنشرُ على الطَّريقة التي ذكرناها.

كُفِّن -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في هذه الثَّلاثة الأثواب، فدلَّ على أنَّ السُّنَّةَ في الرَّجُلِ الأكملُ والأفضلُ أنْ يُكَفَّنَ في ثلاثةِ أثوابٍ، وأنَّه ليسَ من السُّنَّةِ، ولا من الأفضلِ أنْ يُزَادَ على الثَّلاثة الأثوابِ، ولذلك

عُدِّتِ الزِّيادةُ على الثَّلاثة الأثواب من الْمُبالغة التي لا داعِيَ لها، ومن الإسرافِ، فيُقتَصَرُ على الثَّلاث؛ لأنَّهَا الحدُّ الأكملُ في كفن الْمُسلم إذا كان رَجُلاً.

وأمَّا الْمَرأةُ: فقد بيَّنا أنَّهَا تُكفَّنُ في خمسةِ أثوابٍ، وبيَّنا حقيقتَها.

والسَّببُ في الزِّيادة: أنَّ الْمَرأةَ يُطلَبُ فيها السَّتْرُ أكثرَ من الرَّجُلِ، ولذلك شُرِعَ تكفينها في خمسةِ أثوابٍ، كما وَرَدَ في الصَّحيح من حديثِ أمِّ عطيةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في تكفين بنتِ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- زينبَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، وقد بيَّنا وجهَ ذلك.

فالسُّنَّةُ في الرَّجُلِ أن يُكفَّنَ في ثلاثةِ أثوابٍ، ولا يُزادُ عليها.

وقولُهَا: ((بِيْضٍ)) فيه دليلٌ **على أنَّ السُّنَّةَ والأفضلَ والأكملَ** أنْ يكونَ الكفنُ من الثِّياب البيضاء وهذا ما نَدَبَ إليه رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما تقدَّم معنا أنَّ خَيْرَ ثيابِنَا البِيْضُ، قال: **((خَيْرُ ثِيَابِكُمْ الْبِيْضُ، فَالْبَسُوهَا، وَكَفِّنُوا فِيْهَا مَوْتَاكُمْ))**، فدلَّ على أنَّ الكفنَ في الأبيض أفضلُ من غيره، وأنَّه من السُّنَّةِ أنْ يتحرَّى الْمُسلمُ الثِّيابَ البيضاء في الكفن، سواءً له، أو لأخيه الْمُسلمِ.

وقولُهَا -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- هنا: **((يَمَانِيَّةٍ))**، قد جاء في رواية الصَّحيح: **((سَحُولِيَّة))** نسبةً إلى سَحُولٍ: موضعٌ في اليَمَنِ تُصنَعُ فيه هذه الثِّيابُ، ففَسَّر معنى قولها هنا: **((يَمَانِيَّةٍ))**.

و**((يَمَانِيَّةٍ))**: نسبةً إلى اليَمَنِ، **((يَمَانِيّةٍ))**، أو **((يَمَانِيَةٍ))**، أو **((يَمَنِيَّةٍ))** كُلُّهُ الْمُرادُ به النِّسبةُ إلى اليَمَنِ، والْمَوضعِ الذي تُصنَعُ فيه الثِّيابُ هو سَحُولٌ كما ذكرنا.

واستحبَّ بعضُ العلماء أنْ تكونَ جديدةً؛ لأنَّ هذه الثِّيابَ كانَتْ جديدةً نُشِرَتْ لرسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهذا هو الأفضلُ والأكملُ؛ ولأنَّ الجديدَ يحقِّقُ قولَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **((فَلْيُحْسِنْ كَفَنَهُ))**؛ لأنَّ من إحسان الكفن أنْ تكونَ الثِّيابُ جديدةً.

وأُثِرَ عن أبي بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه أَمَرَ أنْ يُكَفَّنَ في ثوبيه، وقالَ: **((إنَّ الْحَيَّ أَحَقُّ بِالْجَدِيدِ مِنْ الْمَيِّتِ))**.

وأُجِيبَ عن هذا: بأنَّه لعلَّه لَمْ يبلغْه ما وَرَدَ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الأمر بتحسين الكفن.

وقولُهَا -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: **((لَيْسَ فِيْهَا قَمِيْصٌ، وَلا عِمَامَةٌ))** أي أنَّ هذه الثَّلاثةَ التي نُشِرَتْ كفنًا للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لم يكنْ فيها القميصُ، ولا العمامةُ، **وهذا أَخَذَ منه بعضُ العلماء** أنَّ العمامةَ لا تُوضَعُ للمَيِّت إذا كان رَجُلاً.

قالَ بعضُهم: إنَّهَا لا تُستَحَبُّ.

وأُثِر عن بعض أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، كعبدالله بن عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه كان يُعَمِّمُ الْمَيِّتَ، يفتي بتعميم الْمَيِّتِ في كفنه، ولذلك استحبَّهُ بعضُ السَّلف، كالإمام مالكٍ وغَيْرِهِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الْجَمِيْعِ-.

وقولُها -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**لَيْسَ فِيْهَا قَمِيْصٌ، وَلا عِمَامَةٌ**)) يدلُّ على ما اتَّفَقَ لكفن النبيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولا شكَّ أنَّه الأفضلُ والأكملُ، وهذا لا يدلُّ على تحريمٍ أو حُرْمَةِ أَنْ تكونَ العمامةُ، وإنَّما يدلُّ على الأفضل والأكمل.

وعليه **فإنَّ الأفضلَ والأكملَ** أنْ لا يُعَمَّمَ الْمَيِّتُ، وأن يُقتَصَرَ على ما كان لرسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الثَّلاثة الأثواب التي ليسَ فيها قميصٌ ولا عِمَامةٌ.

وأمَّا البُرْدُ: كما ذكرَتْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أنَّه أُتِيَ بها، ثم لَمْ يكفِّنُوهُ أصحابُهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- في البُرْد -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وهي البُرْد (**الحَبِرَة**) و(**الحِبْرَة**).

هذه (**البُرْدُ**) لم يجعلْهَا الصَّحابةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- في كفن النبيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وكونُ (**البُرْدِ**) و (**القميصِ**) لا يكونُ في كفن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الْمُعدِّ بعد غسله لا يدلُّ على منع القميص في كفن الْمَيِّتِ.

والدَّليلُ على ذلك: أنَّ عبدالله بنَ أُبِّي بنَ سلولٍ لَمَّا سأل أبوه عبدالله بنُ أُبِّي بنُ سلولٍ الْمُنافقُ رسولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الْمَسائلَ، سألَهُ أنْ يَشْهَدَهُ، وأَنْ يَشْهَدَ تغسيلَه، وأَنْ يُعطيَه قميصَه.

وقيل: إنَّ الذي طلبَ عبدُ الله، فلمْ يُنْكِرِ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- القميصَ له؛ لأنَّه يعاملُهُ على ظاهر الإسلام، وإنْ كان الأصلُ فيه أنَّه منافقٌ، وقد أُمِر أنْ يَأخُذَ بظواهر النَّاس، وهذا قبل أنْ يُبَيِّنَ اللهُ له مآلَه، وينهاه عن القيام على قَبْرِهِ.

فالْمَقصودُ أنَّه سألَ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في الحديثِ الصَّحيح.

قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أعطاهُ القميصَ؛ رداً للجميل؛ لأنَّ عبدالله بنَ أُبِّي لَمَّا أُخِذَ العباسُ عمُّ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في أُسَارى بَدْرٍ، واحتاجَ إلى أنْ يُكْسَى دَفَعَ عبدالله بنُ أُبِّي قميصَه، فردَّ له النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- جميلَه، فأعطاه القميصَ، فكُفِّن فيه.

فالْمَقصودُ من هذا أنَّ هذا يدلُّ على جواز أنْ يُكفَّنَ الْمَيِّتُ في القميص، وأنَّه لا بأسَ في ذلك ولا حرجَ، وأنَّ ما أُثِرَ عن النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وحُفِظَ في تكفينه هو الأكملُ والأفضلُ. وفي الحديثِ الصَّحيحِ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَنَّ امرَأَةً نَسَجَتْ لَهُ** -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- **قَمِيْصًا، ثُمَّ دَفَعَتْهُ إِلَيهِ** -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-)) كما في صحيحِ البُخاريِّ: ((**وَكَانَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَحْوجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا، فَلَمَّا أَخَذَهَا قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَجْمَلَهَا! أَعْطِنِيْهَا أَوِ اُكْسُنِيْهَا، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ، فَقَالُوا لَهُ** -أي قالَ الصَّحابةُ لهذا الرَّجُلِ-: **بِئْسَ مَا صَنَعْتَ أَخَذْتَهَا وَرَسُولُ اللهِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا؟ قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ تَكُوْنَ كَفَنًا لِي**))، فهذا يدلُّ على مشروعيةِ أنْ يكونَ الكفنُ بالثِّيابِ الْمُفصَّلةِ، مع أنَّ اللَّفائفَ والثَّلاثةَ الأثوابَ التي كُفِّنَ فيها -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- غَيْرُ مُفَصَّلةٍ.

ومِنْ هُنَا نُنَبِّهُ على: أنَّ قولَهَا: ((**ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ بِيْضٍ سَحُولِيَّةٍ**)) **الْمُرادُ بها الثِّيابُ غَيْرُ الْمُفَصَّلَةِ** وهي قِطَعُ القِماشِ التي يُنشَرُ بعضُها فوقَ بعضٍ هي أكفانُ الْمَيِّتِ الْمَعروفةُ.

وأمَّا الْمُفَصَّلُ: فهو القميصُ والشَّمْلةُ، وفي زماننا كالثَّوب ونحو ذلك كالْمُفصَّلِ، كالسِّروال، والفنيلة، فهذا من الْمُفَصَّلِ.

فالْمَقصودُ أنَّ هذا اللِّباسَ لَمَّا سألَهُ الصَّحابيُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وهو مُفَصَّلٌ سألَهُ ولَمْ يُنْكِرْ عليه النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-ذلك، فدلَّ على التَّوسعة في الكفن، وأنَّه لا بأسَ أنْ يكونَ بالْمُفصَّلِ وغَيْرِ الْمُفصَّلِ؛ لأنَّ الْمَقصودَ سَتْرُ عورةِ الْمَيِّتِ، فإذا سُتِرَ بثوبِه الذي يلبسُهُ، غُسِّل، ثم أُلبِسَ ثوبَهُ، أو وُضِع في ثوبِه، أو أُدرِجَ في ثيابٍ كما فُعِل في رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فالأمرُ في ذلك كُلِّهِ واسعٌ.

أَنْ يحصلَ السَّتْرُ: **هذا هو الأجزاءُ**.

وأَنْ يحصلَ الاتِّباعُ لهدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وما وَرَدَ في كفنه: **هذا هو الأفضلُ**، والأفضلُ لا يستلزمُ حُرْمَةَ غَيْرِهِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حدَّثنا ابنُ أبي عُمرَ، حدَّثنا بشرُ بنُ السَّريِّ، عن زائدةَ، عن عبدالله بنِ مُحَمَّدِ بنِ عقيلٍ، عن جابرِ بنِ عبدالله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **كَفَّنَ حَمْزَةَ بنَ عَبْدِ الْمُطَلِبِ فِي نَمِرَةٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن عَليٍّ، وابنِ عبَّاسٍ، وعبدالله بنِ مغفَّلٍ، وابنِ عمرَ -رَضِيَ عَنْهُمْ جَمِيْعًا-

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ عائشةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشرح:

((**النَّمِرَة**)): هي الكِساءُ الذي له خُطُوطٌ سوداءُ وبيضاءُ.

وقِيلَ: إنَّه الكِساءُ البُرْدُ من الصُّوفِ، هذا هو كَفَنُ حمزةَ بنِ عبد الْمُطلب عمِّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وقد اُسْتُشْهِد يومَ أُحُدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، ولَمَّا اُسْتُشْهِد جُندِل على الأرض -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- وبُقِرَتْ بطنُه، وأُخرِجَتْ أحشاؤُه، وكان منظرُه مروِّعًا، وهذا كلُّهُ في ذاتِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- وفي سبيل الله، فنالَ الشَّهادةَ في سبيل الله على أجملِ وأكملِ ما تكونُ، حتى وَرَدَ في الحديثِ الحسنِ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**لَوْلا أَنْ تَجْزَعَ صَفِيَّةُ**)) أي عمَّتُهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- ((**لَتَرَكْتُهُ لِجَوَارِحِ الطَّيْرِ تَأْكُلُهُ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ بُطُونِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) من شدةِ بلائه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وهو عمُّ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وللنبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **عشرةُ أعمامٍ، وقِيلَ:** أحدَ عشرَ.

لَمْ يُدْرِكِ الإسلامَ منهم إلا أربعةٌ: **أسلمَ منهم اثنانِ:** وهما العبَّاسُ، وحمزةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَأَرْضَاهُمَا- **وكفرَ اثنانِ:** أبو طالبٍ، وأبو لهبٍ.

والاثنانِ اللَّذَانِ كَفَرَا: أحدُهما: كان ينصرُ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ويحفظُه، وهو عمُّهُ أبو طالبٍ، **والآخرُ:** كانَ أشدَّ ما يكونُ عداوةً وأذيةً لرسولِ الله-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ليس وحدَهُ، بل حتى -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- زوجُهُ التي أنزلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فيه وفيها سورةَ التَّبابِ، وهو أبو لهبٍ -لَعَنَهُ اللهُ وَأَبْعَدَهُ-، ومات شرَّ ميتةٍ، حتى إنَّه بُلِي بداءٍ لم يستطيعوا أنْ يُغَسِّلُوهُ أو يُكَفِّنُوهُ، وجعلَوهُ على الجَبَلِ، كأنتنِ ما تكونُ عليه حالُ الْمَيِّتِ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-، وما ينتظرُهُ عند الله من العقوبة جزاءَ ما صنعَ برسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أعظمُ.

وكانَتْ امرأتُهُ أُمُّ جَمِيْلٍ -وهي أمُّ قبيحٍ -كانَتْ تأتي بالحَطَبِ والشَّوكِ، وتضعُهُ على باب رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وتزوَّجَ ابناهُ من بنتي رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فما زالَتْ وراءَ الابنِ حتى طلَّقَ بنتَ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فكانَتْ أذيتُهُ أشدَّ ما تكونُ.

وأمَّا بالنِّسبةِ لحمزةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: فقد أسلمَ بمكةَ، وقصتُهُ الْمَشهورةُ مع أبي جهلٍ، لَمَّا جاءَهُ الخَبَرُ أنَّ أبا جهلٍ سَبَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكان حمزةُ في الصَّيدِ، فلَمَّا قَدِم وأُخبِر بالخبر، جاء إلى أبي جهلٍ، وقال له: (أتسبُّه وأنَا على دينِهِ؟!)، فأخذَتْهُ الحميةُ، وشاءَ اللهُ أنْ تكونَ مفتاحًا له للإسلامِ فأسلمَ، وأعزَّ اللهُ به الإسلامَ منذ إسلامِهِ إلى أنْ اُسْتُشْهِدَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَجَعَلَ أَعَالِيَ الْفِرْدَوْسِ مَسْكَنَهُ وَمَثْوَاهُ، وَجَزَاهُ عَنَّا وَعَنِ الإسلامِ والْمُسلمينَ وعَنْ نَبِيِّنَا خَيْرَ مَا جَزَى صَاحِبًا عَنْ صُحْبَتِهِ-.

هذا العَمُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- اُسْتُشْهِدَ يومَ أُحُدٍ، وهو أسدُ اللهِ ورسولِهِ، وبُقِرَتْ بطنُهُ، وجُندِل على الثَّرى، ولَمَّا انتهَتِ الْمَعركةُ، جاءَتْ صفيةُ، وهي أختُه، عمةُ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صفيةُ بنتُ عبد الْمُطلب، لَمَّا بلغها خبرُه جاءَتْ تسعى، فنظر النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إلى ما كان عليه حالُ حمزة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، ثم أحسَّ بها وهي قادمةٌ، فصاح بأصحابِه: الْمَرْأَةَ، فتلقَّاها الزُّبيرُ، ودفعتْهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، وكانت امرأةً جَلْدَةً، كما قال الزُّبيرُ، ومعها ثوبانُ، قال: فَلَمْ يستطعْ ردَّها، فقال: إنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يَعْزِمُ عليكِ، فمنذ أنْ قالَ: إنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يَعْزِمُ عليكِ، بقيتْ في مكانِهَا ولَمْ تتحركْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، الطَّاعةُ الكاملةُ لله ولرسوله تُقَدَّمُ على الهوى والنَّفس، وعلى العواطف، أمةٌ صادقةٌ زَكَّاها اللهُ من فوق سبعِ سماواتٍ: **{رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}** فهذا هو الإسلامُ والاستسلامُ والعبوديةُ، أنَّ الإنسانَ حينما يأتي في الْمَواقفِ الصَّعبة، امرأةٌ ضعيفةٌ وهي شديدةُ العاطفةِ، قويةٌ، جَلْدَةٌ، جاءَتْ من أجل أنْ تنظرَ، ورَفِقَ بها النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولَمْ يحبَّ أنْ تنظرَ ما رأى، ومع هذا منذُ أنْ قِيلَ لها بعزيمة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عليها لَبِثَتْ مكانَهَا، ولَمْ تتحركْ، وهذا واللهِ هو الإسلامُ بحقٍّ، فلا قيمةَ للمُسلم إذا لَمْ يستسلمْ لربِّه، وما سُمِّيَ الإسلامُ إسلامًا إلا من الاستسلامِ والانقيادِ.

العبدُ السَّعيدُ والأَمَةُ السَّعيدةُ الذي إذا قِيلَ له: قالَ اللهُ، قالَ رسولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، قال بلسان الحال والْمَقال: **{سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}**.

أُمَّةٌ اشتَرَتِ الآخرةَ، وباعَتِ الدُّنيا، وباعَتِ الدُّنيا بما فيها، من عواطفها، ومن أشجانِهَا، ومن أحزانِهَا،

كُلُّها في سبيلِ مرضاةِ الله -جَلَّ جَلالُهُ-.

فالْمَقصودُ من هذا: أنَّهَا جاءَتْ بثوبينِ، قال -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: فَأَخَذَتِ الثَّوبينِ، وكانَ بجوارِ حمزةَ رَجُلٌ من الأنصارِ فُعِل به مثلَ ما فُعِل بحمزةَ، قال: فَلَمْ نشأْ أنْ نُكَفِّنَ حمزةَ في الثَّوبينِ، ونترُكَ الأنصاريَّ فكَفَّنَاه في ثوبٍ، وكُفِّنَ الأنصاريُّ في الثَّوبِ الآخر.

وكفَّنَهُ رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهذا يدلُّ على مشروعية تكفين الْمَيِّتِ في ثوبٍ واحدٍ.

وإنْ كانَ الشَّهيدُ من حيثُ الأصلِ: أنَّه يُزَمَّلُ بثيابِه وبدمائِه، ولا يُغسَلُ شيءٌ من دمِهِ، ومن جراحِهِ، **هذا بشرطِ:** أنْ يكونَ موتُه في أرض الْمَعركة، فإذا قُبِضَتْ روحُهُ، وتُوفِّيَ في أرض الْمَعركة ولَمْ يُنْقَلْ، فإنَّه يُعامَل معاملةَ الشُّهداءِ، وحينئذٍ يُزَمَّلُ في ثوبِه.

فكفَّنَهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذه النَّمِرَة، وكانَ عبدالرحمن بنُ عوفٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- من أغنياءِ الصَّحابةِ -كما في صحيح البُخاريِّ- أنَّه ذَكَرَ حمزةَ في تكفينِه بشَمْلَتِهِ ونَمِرَتِهِ، وكذلك مُصعبَ بنَ عُميرٍ، أنَّ كلاً من حمزةَ ومُصعبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَأَرْضَاهُمَا- كُفِّن كلُّ واحدٍ منهما في ثوبٍ، إذا غُطِّي رأسُه بَدَتْ قدماهُ، وإذا غُطِّتْ قدماهُ بَدَا رأسُه، فقالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في الصَّحيح: ((**غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ إِذْخِرًا، أَوْ شَيْئًا مِنَ الإِذْخِرِ**)).

فكان عبدالرحمن بنُ عوفٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- يُؤتَى له بطعامِه صائمًا ليفطرَ، ثم يذكرُ ما كانَ عليه وأنَّه هاجرَ للهِ ورسولِهِ، وأنَّ منهم مَنْ أُعطِي عاجلَ الدُّنيا، وثمرةَ الدُّنيا، فهو يهدِبُهَا، ومنهم مَنْ قُبِض ولَمْ يَنَلْ منَ الدُّنيا شيئًا، قال: ومنهم مُصعبٌ، وذكر مصعبًا وحمزةَ بنَ عبدِ الْمُطلب، فإنَّهُم أُسْتُشْهِدوا حتى إنَّهُم خرجُوا من الدُّنيا بهذا الكِساء الذي لا يسعُ غِطاءً للبدن كلِّهِ، ولكن ما ينتظرُهُم عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- من رحمته ورضوانه أكبرُ من هذا كلِّه، كما قال اللهُ تعالى: **{وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ}**، **{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ}**.

نسألُ اللهَ بعزتِه وجلالِه، وعظمتِه وكمالِه أنْ يُلحقَنا بهم، غَيْرَ خزاياءَ، ولا نادمينَ، ولا مخزيينَ، ولا مبدلينَ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد رُوِيَ فِي كَفَن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- رواياتٌ مختلفةٌ، وحديثُ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أصحُّ الأحاديثِ التي رُوِيَتْ فِي كَفَن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

الشَّرْحُ:

بَيَّنَ -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّه وردَتْ رواياتٌ في تكفينه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وحديثُ عائشةَ أصحُّ. القول بأنَّ هذا الحديث أصحُّ شيءٍ في الباب، لا يستلزمُ التَّصحيحَ، ولكن هنا حديثُ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في الصَّحيحين.

وهذا من حيثُ الأصلِ يدلُّ على مشروعية ما ذكرْنَاهُ، وأنَّه الأفضلُ والأكملُ أنْ يُكفَّنَ الْمَيِّتُ الرَّجُلُ في ثلاثةِ أثوابٍ، ولا يستلزمُ -كما ذكرنا- تحريمَ القميصِ، وتحريمَ العمامةِ، ولكن يُحمَل على الأفضلِ والأكملِ.

ومَنْ زَادَ على الثَّلاثةِ: فإنَّه مخالفٌ للسُّنَّةِ؛ لأنّه فيها نَوعُ إسرافٍ، ومبالغةٍ، فالسُّنَّةُ أنْ يُقتَصَر على الثَّلاثة كحدٍّ أكمل.

وأمَّا نوعُ الثِّيابِ: فإنَّ السُّنَّةَ الواردةَ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في كفنِه أنَّه كانَتْ ثيابُهُ الثَّلاثةُ من القُطْنِ؛ لأنَّهَا من الكُرْسُفِ، والكُرْسُفُ: هو القُطنُ، ولذلك يُقدَّمُ القُطنُ على غَيْرِهِ.

فأصبحَ الاستحبابُ:

من حيثُ العددِ: ثلاثًا، **ومن حيثُ اللَّونِ:** الأبيض، **ومن حيثُ الصَّنفِ:** أنْ يكونَ من القُطنِ، وهو أفضلُ وأجودُ ما يكونُ في تكفين الْمَيِّتِ، وفيه تَحَرٍّ لسُنَّةِ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديه. وهكذا كما ذكرنا أنَّ القميصَ لا يستلزمُ أنَّ كونَهُ لَمْ يكنْ فيها قميصٌ، أي في التي أُدرِج فيها -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

وفي الحديث الصَّحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الصَّحيح: أنَّ رَجُلاً جاءَ إلى رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهاجرَ معه، ثم قاتلَ معه، فأُتِي بنصيبِه وهو قَسْمُهُ من الغنيمة، فقال: ما هذا؟ قالُوا: هذا قَسْمُك من الغنيمةِ، بعثَه إليك رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لتأخذَه، فأخذ القَسْمَ، وجاءَ إلى رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فقال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي لم أهاجرْ ولم أبايعْك، ولم أخرجْ معك لهذا، إنَّما خرجْتُ لأُضْرَبَ بسهمٍ في هذا، وأشارَ إلى حلقِه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، فقال

-عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- حينما وَلَّى: ((**إِنْ يَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْهُ**))، فلَمَّا مضوا جاءه سهمٌ عائرٌ، فضربَهُ في الْمَكان الذي أشار إليه بأصبعه، فمات شهيدًا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وأَمَرَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بتكفينه في قميصه.

ودلَّ هذا على مشروعيةِ تكفينِ القميصِ، وصلَّى عليه، ودعا له وقالَ: ((**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ عَبْدُكَ هَذَا، هَاجَرَ لَكَ، وَقَاتَلَ فِي سَبِيْلِكَ حَتَّى اُستُشهِدَ، وَإِنِّي شَهِيْدٌ لَهُ**)) -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

فهذا يدلُّ على مشروعيةِ التَّكفين في القميص كما ذكرنا.

وحديثُ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- من جهة الأفضلِ والأكملِ في الثِّياب التي يُدرَج فيها الْمَيِّتُ كما ذكرناه.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: والعملُ على حديث عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- عِندَ أكثرِ أهلِ العلمِ من أصحابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغيرِهِم.

وقال سُفيانُ الثَّوريُّ: يُكفَّنُ الرَّجُلُ في ثلاثةِ أثوابٍ، إنْ شئتَ في قميصٍ ولفَافتينِ، وإنْ شئتَ في ثلاثِ لفائفَ، ويجزئُ ثوبٌ واحدٌ إنْ لم يجدوا ثوبينِ، والثَّوبانِ يُجزَيانِ، والثَّلاثةُ لِمَنْ وجدَها أحبُّ إليهمْ، وهو قولُ الشَّافِعِيِّ، وأحمَدَ وإسحاقَ، قالوا: تُكفَّنُ الْمَرأةُ في خمسةِ أثوابٍ.

الشَّرْحُ:

هذا الكلامُ من هذا الإمام -رَحِمَهُ اللهُ- هو الفقهُ فيه أنَّه يشتملُ **على نوعينِ من الكفنِ:**

النَّوعُ الأولُ: ما يُسمَّى بـ(**كفن الإجزاء**)، وكفنُ الإجزاء الذي أشار إليه أنَّه ثوبٌ واحدٌ يَستُرُ الْمَيِّتَ، فإذا كانوا في سَفَرٍ، ولم يجدوا شيئًا يكفِّنُونُه به إلا ثوبًا واحدًا، كفَّنُوه في الثَّوب الواحد، وأجزأَ.

وأمَّا النَّوعُ الثَّاني: فهو كفنُ الفضيلةِ والأفضلِ والأكملِ، **مثل:** الوضوء:

حدُّ الإجزاءِ فيه: مرةٌ.

والكمالُ فيه: ثلاثُ مرَّاتٍ، الإسباغُ، ولا يُزادُ على الثَّلاث.

هكذا هنا: الثَّلاثُ الأثواب: أفضلُ، **وأدنى الكمال:** ثوبانِ، **وقدرُ الإجزاءِ:** ثوبٌ واحدٌ.

ثم هذه الثَّلاثة الأثواب بيّنَ أنَّه يستوي:

أَنْ تكونَ من اللَّفائف: كما فُعِل برسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **أو تكونَ قميصًا ولُفافتين:** فيُكَفَّنُ في قميصٍ.

والقميصُ: يكون ساترًا لأعلى البدن، وهو من الْمُفصَّل، **واللُّفافتان:** ثوبانِ، فيصبحُ القميصُ ثوبًا، واللُّفافتان ثوبينِ، كأنَّه كُفِّنَ في ثلاثةِ أثوابٍ لكنَّه ليس على صفة الكمال؛ لأنَّه إذا حُسِب القميصُ من الثَّلاث فهذا أدنى الكمال، وليس بأعلى الكمال **أعلى الكمال:** أنْ تكونَ الثَّلاثُ غَيْرَ مُفصَّلةٍ، كما فُعِل برسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

أمَّا الْمَرأَةُ: فقد تقدَّمَ معنا كما في حديثِ أُمِّ عطيةَ بيانُ صفة كفنها، وعددُ الأثواب التي تُكفَّن فيها.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الطَّعَامِ يُصْنَعُ لأَهْلِ الْمَيِّتِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أحمَدُ بنُ منيعٍ وعَليُّ بنُ حُجْرٍ قالا: حدَّثنا سفيانُ بنُ عُيينةَ، عن جعفرِ بنِ خالدٍ، عن أبيهِ، عن عبدالله بنِ جعفرٍ قال: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ جَعْفَرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**اصْنَعُوا لأَهْلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مَا يَشْغَلُهُم**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حديثٌ حسنٌ.

الشَّرْح:

هذا الحديثُ أصلُهُ: أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حينما بعثَ جعفر، وزيدَ بنَ حارثةَ، وخالدَ بنَ الوليد، ومَنْ معهم من الصَّحابة، إلى غزوة مؤتةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، أُستُشهِدَ زيدٌ، وكانَ زيدٌ هو أميرُ السَّريَّة، وقد أمَّرَهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، مع أنَّ زيدًا مولًى من الْمَوالي، فكسرَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بنبيِّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- نَعَرَاتِ الجاهلية، وجعلَ جعفرًا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وهو ابنُ عمِّ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وفي نظرِ قريشٍ والعربِ أنَّ له مكانةً، وله نسبًا وحسبًا، جعلَه تحتَ إمرةِ زيدٍ، وسمعَ وأطاعَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، واستجابَ لأمر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

فلَمَّا وقعَتِ الوقعةُ كشفَ اللهُ لنبيِّه -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهذا من الْمُعجزات ساعتَها، وبيَّن أنَّه أُستُشهِدَ زيدٌ، ثم لَمَّا أخذَ الرَّايةَ جعفرٌ، وقُطِعَتْ يداهُ وأُستُشهِد اِغْرَورَقَتْ عينا النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ

وَسَلَّمَ-، فعلموا أنَّه مات ثم أخذَ الرايةَ سيفُ الله الْمَسلول خالدُ بنُ الوليد -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- وحصلَ ما حصلَ.

فلمَّا أَخبَرَ الصَّحابة بذلك، وكان قد دعاهم واجتمعُوا في الْمَسجد، وقام على الْمِنبر، وأخبَرَهُم بخبر الوقعةِ في حينِها، لَمَّا أَخبَرَ بموت جعفرٍ نزل من على الْمِنبر -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- ومضى إلى بيتِ ابنِ عمّهِ، وهو بيتُ جعفرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وكانت زوجُهُ أسماءَ بنتَ عُميسٍ؛ لأنَّهَا كانَتْ تحتَ جعفرٍ قبلَ أنْ يُستَشهَدَ، ثم لَمَّا اُستُشهِدَ تزوَّجَها أبو بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، فلَمَّا جاء إلى بيتهم دعا بأبناء جعفرٍ، ومَسَحَ برؤوسهم، وبَرَّكَ عليهم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ومسحَ على رأسِ عبدالله وعبيدالله ابْنَي جعفرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، ودعا لهم، وقال هذه الْمَقالة: ((**اِصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا؛ فَقَدْ أَتَاهُمْ مَا يَشْغَلُهُم**)) أو((**يُشْغِلُهُم**))، **وجهان**، والأولُ **أشهرُ**، ((**ما يَشْغَلُهُم**))، و((**ما يُشْغِلُهُم**)).

والْمُرادُ بالشُّغْلِ هنا: أَنَّهُم مشغولون بالفاجعة وبالْمُصيبة، والإنسانُ إذا نزلَتْ به الفاجعةُ من فِراق القريب أو الحبيب، فإنَّه يُذْهَلُ، ولا يتفرَّغُ لا لْمَأكلٍ، ولا لْمَشربٍ، ويؤذيه ويزعجُهُ ويقلقُهُ ما أصابَه من بلاءٍ، حتى يثبِّتَه اللهُ بتثبيته، ومن هنا فإنَّه لا يستطيعُ أنْ يصنعَ لنفسه طعامًا، بل يبلغُ به في بعض الأحيان أنَّه لا يستسيغُ الطَّعامَ، بل قد لا يستسيغُ الشَّرابَ، وكان بعضُهم إذا قُتِل قريبُه أو من له حقٌّ عليه لا يستسيغُ حتى الشَّراب حتى يأخذَ بثأرِهِ:

فَسَاغَ لِيَ الشَّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلاً أَكَادُ أُغَصُّ بِالْمَاءِ الْفُرَاتِ

فالْمَقصودُ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الذي بعثَهُ اللهُ رحمةً للعالَمِينَ رَاعَى هذا الأمر وهذا الْمَعنى، فأوصى أصحابَه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُمْ- وَأُمَّتَه جميعًا بالرِّفق بأهلِ الْمَيِّتِ، أَنَّهُم إذا نزلَتْ بهم النَّازلةُ، وحلَّتْ بهم الْمُصيبة أنْ يجدُوا من إخوانِهم وقرابتِهم مَنْ يقومُ بحقِّهم، من رعاية شؤونِهِم، ومن ذلك صنعُ الطَّعام لهم، فقالَ: ((**اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ**)) والْمُرادُ بآلِ جعفرٍ: أهلُ جعفرٍ، وهم قرابتُهُ، كزوجِهِ، وولدِهِ.

وهذا يدلُّ على مسائلَ:

المسألةُ الأولى: أنَّ من السُّنَّةِ أنْ يُصنَعَ لأهل الْمَيِّت -وهم قرابتُهُ وأهلُ بيتِهِ الخاصةِ- طعامًا في يوم الفاجعة ويوم الْمُصيبة.

والأمرُ الثَّاني: أنَّه لا يُشْغَلُ أهلُ الْمَيِّتِ شغلاً زائدًا عن شُغْلِهم، بأَنْ يصنعُوا للنَّاس طعامًا، فقد بيَّن النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ السُّنَّةَ أنْ يُصنَعَ لأهل الْمَيِّتِ، لا أنَّ أهلَ الْمَيِّتِ يصنعون لغيرهم.

والأمرُ الثَّالثُ: في قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا**)) بيَّن علَّتَهُ، وهو قولُهُ: ((**فَقَدْ جَاءَهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ**)) والْمُرادُ أنَّهُم في بلاء الْمُصيبة وشدة الفاجعة لا يتفرَّغُون لصنع الطَّعام لأنفسهم، فدلَّ على أنَّ الْمُرادَ به الرِّفقُ بأهل الْمَيِّتِ، لا بغيرهم.

وبناءً على ذلك فإنَّ السُّنَّةَ أنْ يُصنَعَ لأهل الْمَيِّتِ، لا لغير أهلِ الْمَيِّتِ، وأنَّ من السُّنَّةِ أنْ يُصنَعَ لأهل الْمَيِّتِ، لا أنْ يَصنَعَ أهلُ الْمَيِّتِ للغير.

ولذلك نصَّ العلماءُ والأئمةُ على أنَّ أهلَ الْمَيِّتِ إذا صنعُوا للغير طعامًا عن اعتقادٍ وعادةٍ جاريةٍ، فإنَّه بدعةٌ مستقبحةٌ، كما نصَّ بعضُ العلماءِ، ليسَتْ بدعةً فقط، بل بدعةٌ مستقبحةٌ؛ لأنَّ هذا من أقبحِ ما يكونُ، أنْ يكونُوا مشغولين بما هم فيه، ثم يأتي النَّاسُ من أجل أنْ يأكلُوا ويشربُوا عندهم، هذا لا شكَّ أنَّه قبيحٌ.

ولذلك ليس من السُّنَّةِ أنْ يَصْنَعَ أهلُ الْمَيِّتِ للنَّاس.

إلا أنَّه أُسْتُشْكِلَ على ذلك: الحديثُ في الْمَشهور: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **خَرَجَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ، فَوَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ، وَقَالَ لِلحَافِرِ: أَوْسِعْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، أَوْسِعْ لَهُ مِنْ جِهَةِ رِجْلِهِ، أَوْسِعْ لَهُ مِنْ جِهَةِ رَأْسِهِ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ دَفْنِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَتَلَقَّاهُ دَاعِي الْمَرْأَةِ**))، هذا الحديثُ فيه إشكالٌ عند بعض العلماء ((**فَتَلَقَّاهُ دَاعِي الْمَرْأَةِ فَأَجَابَهُ** -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-)) قال: ((**دَاعِي الْمَرْأَةِ**)) امرأةُ الرَّجُلِ الذي تُوُفِّيَ.

وهذا قِيلَ: إنَّه حصل اتفاقًا، لا قصدًا، وأنَّهَا صَنَعْتِ الطَّعامَ اتفاقًا، لا قصدًا؛ لأنَّ الوقتَ يسيرٌ جدًّا، ولا يسعُ لأَنْ يُصنَعَ الطَّعامُ.

لكن كونه أجاب -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، قالوا: هذا يدلُّ على الجواز.

لكنَّ الذي يفعلُهُ النَّاسُ عن اعتقادِ صدقةٍ عن الْمَيِّتِ، أو يفعلونَه على عادةٍ، هذا مخالفٌ للشَّرعِ لأنَّ الشَّرعَ أنَّ أهلَ الْمَيِّتِ جاءهم ما يَشْغَلُهم.

وبناءً على ذلك السُّنَّةُ أنْ يُصنَعَ لهم، لا أنْ يصنعُوا للغير.

أمَّا الذي يُرَادُ التَّنْبِيْهُ عليه: أنَّ هذه السُّنَّةَ وهي صنعُ الطَّعام ينبغي أنْ تختصَّ بأهلِ الْمَيِّت.

وبناءً على ذلك ما يفعلُه البعضُ من عزومة النَّاس، ودعوة النَّاس عند أهل الْمَيِّتِ، فيقول لهم: اليوم نتغدَّى سويًا عند أهل الْمَيِّتِ، أو عند آل فلانٍ، فيأمرُ بصنع الطَّعام الكثير، ويدعو النَّاسَ للحضور عند أهل الْمَيِّتِ، فهذا بدعةٌ منكرةٌ، وليسَ مقصودَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- هذا.

وهكذا ما يفعلُه النَّاسُ من الاجتماع في بيت أهل الْمَيِّتِ، وإحراجِ مَنْ يصنعُ الطَّعامَ، حتى يُحضَرَ لهم الطَّعامَ؛ لأنَّه يرى العددَ كثيرًا، فيضطرُ إلى أنْ يُحضَرَ الطَّعامَ لهم، هذا كُلُّهُ مخالفٌ للسُّنَّةِ.

ومن العاداتِ التي استشرَتْ خاصةً في زماننا، توسَّعَ النَّاسُ في هذا الأمر، فأصبحوا يصنعون لأهلِ الْمَيِّتِ الطَّعامَ في اليوم الأول، واليوم الثَّاني، واليوم الثَّالث.

بل أصبح يُصنَع الطَّعامُ غداءً وعشاءً في الثَّلاثة الأيام.

وتوسَّعُوا في ذلك حتى جعلُوا للطَّعام تَراتِيبَ معينةً، وجعلوا لآخر أيام العزاء يُصنَع الطَّعامُ بطريقةٍ معينةٍ، وبطعمٍ معينٍ.

كُلُّ هذا من البِدَعِ الْمُنكرةِ التي ما أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ، وهي تخالفُ سُنَّةَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

بل بلغَ ببعضهم أنَّه يذبحُ الذَّبائحَ الكثيرةَ، حتى أخبرني مَنْ أثقُ به أنَّه في أحد الْمُناسبات التي تُوُفِّيَ فيها بعضُ الْمَوتى ذُبِحَ ما لا يَقِلُّ عن خمسينَ ذبيحةً.

وهذا كلُّه من الغُلُوِّ، والْمُخالفةِ للسُّنَّةِ، والنَّاسُ خرجُوا عن سنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وخالفوها، حتى إنَّك إذا جئتَ إلى بيتِ الْمَيِّتِ لا تُفرِّقُ بين بيتٍ فيه نكاحٌ، وبين بيتٍ فيه عزاءٌ، من الشُّمُوع الْمُضاءة، والكهرباء الْمُضاءة، والفُرُش الْمُبسوطة، والْمُبالغة في إطعام النَّاس، وسقيهم.

وهذا كلُّه مخالفٌ لهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ومخالفٌ للسُّنَّةِ.

لقد تجاوزَ الناسُ الحدودَ، **{وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}**

والحقُّ على طلبة العلم وأهل العلم أنْ يكونُوا قدوةً للنَّاسِ، وأنْ يبدأَ التَّغْيِيْرُ لهذه العادات الْمُنكرة من أقربِ النَّاسِ إلى السُّنَّةِ، وهم أهلُ العلم، وعليهم أنْ يُؤدِّبُوا هؤلاء، وأنْ يُشعرُوهم بأنَّ إكرامَ الْمَيِّتِ ليس في هذه الأمور، ومخالفةِ سنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديه، والغُلُوِّ في هذه الأمور التي تُصنَعُ في عزاء الْمَيِّتِ.

بل كان الصَّحابةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- يَعُدُّونَ الجلوسَ في بيتِ الْمَيِّت من النِّياحة.

ولو نُظِرَ إلى الأصل فإنَّ الأصلَ أنَّ الإنسانَ لا يَحتاجُ أنْ يَجلسَ في بيته من أجل أنْ يأتيَه النَّاسُ للعزاء، **وإنَّما أُحتِيجَ إلى ذلك**: بسبب كثرة الْمُدن واتساعها في العصور الْمُتأخرة، وإلا في القديم فإنَّ الإنسانَ يُعزَّى في القبر، ويُعزَّى وهو ذاهبٌ إلى الْمَسجد، ويُعزَّى بعد الصَّلاة، وهي دعاءٌ له بالثَّبات، ودعاءٌ للمَيِّتِ بالرَّحمة، لا أقلَّ ولا أكثرَ.

أمَّا أنْ يذهبَ النَّاسُ للمقبرة، ثم يأتون ويجتمعون في بيت الْمَيِّتِ، ثم يأتون اليومَ الأولَ، واليومَ الثَّاني، واليومَ الثَّالثَ، هذا كُلُّهُ مخالفٌ للشَّرع.

والأدهى والأَمَرُّ: أنَّ الشَّخصَ يتعطَّلُ عن دوامه، ويَتْرُكُ عملَه، ولو ذهبَ إلى عمله قالُوا: إنَّه مُقصِّرٌ في حقِّ الْمَيِّتِ، أولا يَأْبَهُ بحقِّ الْمَيِّتِ، وإذا كان صاحبَ شركةٍ أقفل محلاتِهِ.

كُلُّ هذه أمورٌ لا تمتُّ للشَّرع بصلةٍ، وكُلُّهَا مخالفةٌ للسُّنَّةِ، مخالفةٌ لهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

العَزَاءُ يكونُ في القبر، وعندَ القبر، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- للمرأة: ((**اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي**)) فهذا هو العَزَاءُ، أنْ يُقَالَ لولي الْمَيِّتِ: (اصْبِرْ، واحْتَسِبْ).

وأمَّا الحرصُ على الجلوس في بيت الْمَيِّتِ، وإحضارِ القرابة، وجلوسِهم بطريقةٍ مرتَّبةٍ، ثم يُؤتَى بأصحابِهِ، وأصحابِ أصحابِهِ، وأحبابِهِ ونحوِ ذلك، هذا كُلُّهُ من الأمور التي ما أَنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ.

لقد تُوُفِّيَ رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وما صُنِعَ به هذا، وتُوُفِّيَ أبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم- وهم السَّادةُ الغُرَرُ، وما فُعِلَ هذا كُلُّهُ.

يُعَزَّى الْمُسلمُ في القبر بالعَزَاءِ الشَّرعيِّ، ولا دَاعيَ أن يَنْتَصِبَ إلى النَّاس، ويجلسَ لهم هذا الجلوسَ والسَّهر إلى ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل حتى تضيعَ صلاةُ الفجرِ، ثم يقوم أهلُ الْمَيِّتِ وهم في عناءٍ شديدٍ، وكربٍ شديدٍ، من إطعامِ الطَّعامِ، وسقي الشَّرابِ، وتفَقُّدِ الدَّاخل والخارج.

هذا كلُّه مخالفٌ للسُّنَّةِ.

وليس في مَنْعِنَا لهذا الأمر تشديدٌ على النَّاس، إنَّما الذي يُشَدِّدُ على النَّاس مَنْ يُحْدِثُ لهم هذه البدعَ والْمُنكراتِ.

وأعظمُ ما يكونُ هذا الأمر منكرًا إذا كان من أموال اليتامى، وأموال الثُّكَالى والأرامل، الذين هم أحوجُ ما يكونون إلى تركة الْمَيِّتِ، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُم عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**))، فيأخذون من تركة الْمَيِّتِ هذه الأموال، وهذه الأموالُ لا يجوزُ أخذُها من تَرِكَةِ الْمَيِّتِ إذا كان فيها أيتامٌ وقُصَّارٌ، بل ينبغي حفظُ حقوقِهم، ولا يُدفَع في صنع هذه الأشياء شيئًا؛ لأنَّهَا ليست بمشروعةٍ، ولم يأذنِ اللهُ بها.

يُسْتَثْنَى من هذا: أنْ يكونَ هناك ضيوفٌ جاءوا لأهل الْمَيِّتِ من خارج الْمَدينة، وأحبَّ أهلُ الْمَيِّتِ أنْ يُكرمُوهم، فلا بأسَ، ولا حرجَ، لكن يكونُ بالسَّنَن، وليس بالْمُبالغة، وبأذية أهل الْمَيِّتِ.

وأعظمُ ما تكونُ هذه المنكراتُ إذا صُنِعَ الطَّعامُ من أجل أنْ يجلسُوا في بيت الْمَيِّتِ للقيل والقال وأحاديث الدُّنيا، بل بلغ ببعضهم أنَّه يتحدَّثُ في أمور الدُّنيا في مثل هذه الْمَجالسِ، فقِيلَ له في ذلك، فيقول: (نريدُ أنْ نَشْغَلَ أهلَ الْمَيِّت عن الحزن).

يا سبحان الله! إنَّهُم إنْ حزنوا حزنًا شرعيًا رقَّتْ قلوبُهُم، وإذا حزنُوا الحزنَ الشَّرعيَّ تفكَّرُوا وتدبَّرُوا ونظرُوا إلى قريبهم وأبيهم وحبيبهم الذي كان بالأمس بينهم كيف صار إلى الله، وأنَّ الْمَوتَ لا يرحمُ أحدًا وأنَّ للموتِ أجلاً مسمًى لا يقدِّمُه أحدٌ، ولا يؤخِّرُه أحدٌ؛ لأنَّ اللهَ قدَّره، فعندها يتعِظُ النَّاسُ ويعتَبِرُون.

فإذا كان هؤلاء يجلسون من أجل شَغْلِ أهل الْمَيِّتِ عن التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ والاتعاظِ، فبئسَ ما صنعُوا وهم مأزورونَ غَيْرُ مأجورين، الذي يريدُ أنْ يُعَزِّي أهلَ الْمَيِّتِ ويسليهم يعزيهم بالعَزَاءِ الشَّرعيِّ، فإنْ كانوا في غفلةٍ عن الله قال لهم: (اتَّعِظُوا، وتذكَّرُوا، وانتَبِهُوا من غفلتكم، واستيقِظُوا من منامكم، إنَّ الذي قَبَضَ روحَ فلانٍ سيقبضُ أرواحَكم، وإنَّ هذا الْمَصيرَ الذي صار إليه سنصيرُ إليه عاجلاً أو آجلاً، فذَرُوا ما أنتم فيه من الْمُحرماتِ والْمُنكراتِ).

أَنْ يأمرَ بما أمرَ اللهُ به، وأنْ ينهى عمَّا نَهَى اللهُ عنه، وهي الكلمةُ التي يحبُّها اللهُ، والكلمةُ التي شَهِدَ اللهُ بالخيرية لأهلها: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}**، فهذا أحوجُ ما يحتاجُ إليه أهلُ الْمَيِّتِ.

وإذا لم يُذَكَّرْ أهل الْمَيِّت في مثل هذه المواطن فمتى يُذَكَّرُون؟! وإذا كان هؤلاء يأتون من أجل شغل أهل الْمَيِّت عن الاذِّكار والاتِّعاظ، فلا شك أنَّهم مأزورون غير مأجورين.

قالَ بعضُ العلماءِ: شُرِعَ للمرأة أنْ تَتَرَبَّصَ أربعةَ أشهرٍ وعَشْرًا في بيت الزَّوجية؛ من أجل أنْ تتذكَّرَ أيامَ زوجِها، فتترحم عليه، وتسامحه، وتذكر أخطاءَه فتعفو عنه.

وهكذا بالنِّسبة للثَّلاثة الأيام التي يُحَدُّ فيها على الْمَيِّتِ لغير الزوجة، كما في حديث أُمِّ حبيبةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في الصَّحيح أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**لا يَحِلُّ لامرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ**))، فدلَّ على أنَّه شُرِعَ لها أنْ تجلسَ ثلاثةَ أيامٍ حِدادًا على قريبِها وذي الحقِّ عليها.

وهكذا بالنِّسبة للقريب مع قريبه، فإنَّه يتذكَّرُهُ، وهذه الأيامُ الثَّلاثةُ يكونُ الإنسانُ فيها أقربَ ما يكونُ إلى ربِّه من الاتِّعاظِ والاعتبارِ، وكثرةِ الدُّعاء، والاستغفار للمَيِّتِ.

هذا هو الذي كانَ عليه السَّلفُ الصَّالحُ -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وأمَّا ما يفعلُه النَّاسُ اليومَ فإنَّهُم قد ضيَّقُوا على أنفسهم في سَعَةٍ وسَّع اللهُ بها عليهم.

وإنَّهَا لدعوةٌ مباركةٌ لطلبة العلم وللأخيار والصَّالحين والقدوة من أهل الحِجَا، وأهل العقول السَّليمة أنْ يُحيوا في النَّاس هذه السُّنَنَ، وأَنْ يُميتُوا فيهم هذه البدعَ.

ولو أنَّ مَنْ كان قُدوةً من العلماء ونحوهم، إذا مات أعزُّ النَّاسِ إليه، كأبيه وأُمِّه وذي الحقِّ عليه جلس مجلسًا لا يُشعِرُ بالْمُبالغة، وإذا صَلَّى لو بلغ حتى إلى صلاة الْمَغرب أقفل بابَه، ومنعَ النَّاسَ من الإتيان إليه، ثم أصبحَ هذا سُنَّةً بين طلبة العلم، لتَأَدَّبَ النَّاسُ، وارتدعُوا عن هذه الأمور، وإذا فعلَ الإنسانُ السُّنَّةَ فلا عليه، يرضى مَنْ يرضى، ويسخطُ مَنْ يسخطُ.

وليتَ هذه الذَّبائحَ التي تُذبحُ، تذبحُ صدقةً على أموات الْمُسلمين، رحمةً عليهم، يُطعمُ به الجائعُ وتُسَدُّ بها خُلَّةَ الْمِسكين الْمُحتاج، فذلك أعظمُ أجرًا، وأعظمُ ثوابًا عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

نسألُ اللهَ بعزتِه وجلالِه وعظمتِه وكمالِه، أنْ يرزقَنا التَّمسُّكَ بالسُّنَّةِ عند فساد الأُمَّةِ، اللَّهُمَّ علِّمْنَا السُّنَّةَ، وارزقْنَا العملَ بها، والدَّعوةَ إليها، والثَّباتَ عليها، اللَّهُمَّ ثبِّتْنَا على الحقِّ حتى نلقاك، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا على الحقِّ حتى نلقاك وأنت راضٍ عنَّا.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد كانَ بعضُ أهلِ العلمِ يستحبُ أن يُوجّهَ إلى أهلِ الْمَيِّتِ بشيءٍ لشُغلِهم بالْمُصيبةِ، وهو قولُ الشَّافِعيِّ.

وجعفرُ بنُ خالدٍ هو ابنُ سارَّةَ، وهو ثقةٌ، روى عنهُ ابنُ جريجٍ.

الشَّرْحُ:

هذا قولُ جماهيرِ السَّلف والخلف -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّه يُصنَعُ لأهل الْمَيِّت الطَّعامُ، وأنَّ الأمرَ -مثل ما ذكرْنَا- أنَّه لأهل الْمَيِّت كزوجته وأولاده، يُصنَعُ لهم الطَّعامُ فقد أتاهم ما يشغلُهم، وكما ذكرْنَا أنَّ هذا مذهبُ جمهور العلماء، وليس قولَ الشَّافعيِّ وحدَه.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ ضَرْبِ الْخُدُودِ، وَشَقِّ الْجُيُوبِ عِنْدَ الْمُصِيْبَةِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ، حدَّثنا يحيى بنُ سعيدٍ، عن سفيانَ، حدثَّني زبيدٌ الأياميُّ، عن إبراهيمَ، عن مسروقٍ، عن عبدالله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجُيُوْبَ، وَضَرَبَ الْخُدُوْدَ، وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ

بيَّن الْمُصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرْجمة ما ينبغي للمُسلم أنْ يجتنبَه عند نزول الْمُصائب، وحلول الفواجع، **من الابتعاد عن الأمورِ الْمُحرَّمة سواءً كانَتْ: قوليةً**، أو **فعليةً**، أو كانَتْ متعلِّقةً **بالاعتقاد**.

وقد اعتنى العلماءُ والأئمةُ من الْمُحدِّثين والفقهاء بتوجيه النَّاس، وإرشادهم إلى هذا الأمر العظيم: **أنَّه ينبغي** للمُسلم أنْ يجتنبَ ما حرَّمه اللهُ عند نزول الْمَصائب، وأنْ يحفظَ لسانَه، وأنْ يحفظَ جنانَه وأنْ يحفظَ جوارحَه وأركانَه.

فهناك أمورٌ واجبةٌ على الْمُسلم عند نزول الْمَصائب، سواءً كانت بفقدِ الأحبة، كما في (كتاب الجنائز) هنا، أو كانت بفقد الدُّنيا، كما يقعُ في الْمَصائب التي يحصلُ فيها النَّقص في الأموال.

فينبغي عليه أولاً فيما يتعلَّقُ باعتقاده: أنْ يعلمَ أنَّه ما مِنْ مُصيبةٍ يُصابُ بها إلا وهي في كتابٍ عند الله قبلْ أنْ تقعَ، وأنَّ اللهَ قدَّرَ الْمَقاديرَ، ونَسَخَ الآجالَ والأعمارَ، **{وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}**.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ، فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ**)).

وبيَّن النَّصُّ في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنَّ الأمورَ مقدَّرةٌ، كما قال تعالى: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}**.

فأولُّ ما ينبغي على الْمُسلم أنْ يعتقدَهُ: أنَّ اللهَ كتبَ عليه هذا الأمرَ، من فراق القريب والحبيب وفراق هذا الْمَال من الدُّنيا، وأنَّ الذي كتبَ عليه هذا الشَّيءَ هو الذي أعطاهُ إيَّاهُ.

وأنَّه ينبغي عليه أنْ يؤمِنَ بالقضاء والقَدَر، حتى يُسَلِّمَ لله، فيُؤجَرُ على تسليمه، ويُؤجَرُ على صبره واحتسابه، وهذا معنى قوله: **{إِنَّا لِلَّهِ}** أي إنَّا مِلْكٌ لله -عَزَّ وَجَلَّ-، واللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هو الذي خلقَنَا وأوجدَنَا، ولذلك قالَتْ أمُّ طلحةَ لأبي طلحةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: (أَرَأَيْتَ لَوْ أنَّ قومًا أَعطَوا قومًا عاريةً، ثم جاءُوا يسألونَهَا، أظلمُوهم؟ قال: لا، قالَتْ: فاحتَسِبْ ابنَك عند الله)، فهذا من ضرب الْمَثل.

فما من أمرٍ، وما من بلاءٍ، وما من شرٍّ، ولا من مصيبةٍ، إلا وقد كتبَها اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- قبل وقوعها، فيتلقَّاها الْمُؤمنُ بصدرٍ رحبٍ، موقنٌ بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، مؤمنٌ بقضائه وقدره، ويقولُ بعد ذلك بلسانِه ما يُرضي اللهَ -جَلَّ جَلالُهُ-، فيقول: ((**إِنَّا للهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ، أَجِرْنِي فِي مُصِيْبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا**)) كما صحَّ في الصَّحيح من حديثِ أُمِّ سلمةَ.

وأمَّا الجوارحُ والأركانُ: فيفعلُ ويعملُ ما يُرضِي اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-.

إذا وُفِّقَ العبدُ لهذه الثَّلاثة الأمور: التَّسليمُ بالجَنَان، والرِّضا بالقول: من الاسترجاع، والدُّعاء، وقول ما حُفِظَ في السُّنَّة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-. **والعملُ بما يُرضي اللهَ** -عَزَّ وَجَلَّ-. **فإنَّه** بخير الْمَنازل عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

تحلُّ الْمَصائبُ، وتنزلُ الكوارثُ، والنَّاسُ يقولون، ويعملون، ويعتقدون: **فمنهم** مَنْ يسمو إلى أعلى درجات الجنَّة من رضوان الله -عَزَّ وَجَلَّ-، **ومنهم** مَنْ يتهاوى إلى الدَّرَكَات في الجحيم -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- ولذلك هذه الْمَصائبُ هي التي يَظهَرُ فيها نفاقُ الْمُنافقين، وصدقُ الصَّادقين، وإيمانُ الْمُحتسبين، فينبغي للمُسلم أنْ يجتنبَ كلَّ ما يُسخِطُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-.

ولذلك وَرَدَتِ الأحاديثُ التي فيها الوعيدُ الشَّديدُ في مثل هذه الأمور؛ لأنَّ كثيرًا منها يتعلَّقُ بالاعتقاد، فإنَّ الذي يتسخَّطُ ويتذمَّرُ بقرارة قلبه -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- **يَظْهَرُ السُّخْطَ في قولِه، ويَظْهَرُ في فعلِهِ: فيَظْهَرُ في قوله**: من النِّياحة، والعويل، والصُّراخ.

ويَظْهَرُ في فعله: من شقِّ الجيوب، ولطم الخدود -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- من أعمال الجاهلية.

أمَّا العبدُ الْمُوحدُ، والأَمَةُ الْمُوحدةُ الْمُؤمنةُ بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، الرَّاضيةُ بقضاء الله وقدره، الْمُوقنةُ بأنَّ الخلفَ عند الله مضمونٌ، والتي تحتسبُ كلَّ بلاءٍ عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فإنَّ كلاً منهما يتلقَّى هذا البلاءَ بقلبٍ موقنٍ ومؤمنٍ، فلا يَظْهَرُ على لسانِه إلا ما يُرضي اللهَ.

ولذلك نَبَّهَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على ذلك، فقال: ((**لا تَقُولُوا إلا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ**

تُؤَمِّنُ عَلَى دُعَائِكُمْ))، وهذا حينما دخلَ على أبي سلمةَ، فلَمَّا دخلَ على أبي سلمةَ سمع صوتُ الْمَرأة من داخل البيت، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((لا تَقُولُوا إِلا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ تُؤَمِّنُ عَلَى دُعَائِكُمْ))**، ثم قال: **((اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيْنَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِيْنَ، وَاغْفَرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِيْنَ، اللَّهُمَّ أَفْسِحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ))**.

فهذه الكلماتُ الطِّيباتُ الْمُباركاتُ يُشرعُ قولُها عند الوفاة، وعند خبر الوفاة أنْ تقول: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ولفلانٍ، وارفعْ درجتَه في الْمَهديينَ، واخلفْه في عقبِهِ في الغابرينَ، واغفرْ لنَا وله يا ربَّ العالَمِينَ، وأفسحْ له في قبرِهِ، ونوِّرْ له فيه).

هذه الكلماتُ سُنَّةٌ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يحفظُها الْمُسلمُ، ويعلِّمُها غَيْرَهُ؛ لأنَّ النَّاسَ بحاجةٍ.

فإذا وَفَّقَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- العبدَ عَصَمَهُ بعصمته، وحَفِظَهُ بحفظه، فلَمْ يَقُلْ إلا خيرًا، ولم يكُنْ في قلبه إلا الرِّضا.

ومن أظهر ما ينكشفُ فيه النَّاسُ على حقائقهم، **ومن أقوى ما يُظْهِرُ النَّاس على حقائقهم، ويكشفُ أسرارَهم**: الْمَصائبُ والشَّدائدُ والكوارثُ، فإنَّهَا يَظْهَرُ فيها نفاقُ الْمُنافقين، وصدقُ الصَّادقين، جعلَنَا اللهُ وإيَّاكُم منهم برحمته، وهو أرحمُ الرَّاحمين.

وسنكملُ -إنْ شاءَ اللهُ- شرحَ الحديث في الْمَجلس القادم بإذن الله.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

رقم الدَّرس ٤١٥

الأربعاء ١٥-٤-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ ضَرْبِ الْخُدُوْدِ، وَشَقِّ الْجُيُوْبِ عِنْدَ الْمُصِيبَة]**.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ، حدَّثنا يحيى بنُ سعيدٍ، عن سفيانَ، حدثَّني زبيدٌ الأياميُّ، عن إبراهيمَ، عن مسروقٍ، عن عبدالله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجُيُوبَ، وَضَرَبَ الْخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ**)).

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتمانِ الأكملانِ على خيرِ خلقِ اللهِ أجمعينَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ سارَ على سبيلِهِ ونَهْجِهِ، واستَنَّ بسنتِهِ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد ترجمَ الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، والتي اشتملَتْ على جملةٍ من الْمَنْهِيَاتِ التي ينبغي للمُسلمِ أنْ يتقيَها، وأنْ يجتنبَها إذا نزلَتْ به الْمُصِيبَةُ.

وَشَرْعُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- قائمٌ على جلبِ الْمَصالح وتكثيرِها، ودرءِ الْمَفاسد وتقليلِهَا، فلما بيَّن -رَحِمَهُ اللهُ- ما ينبغي للمُسلم أنْ يراعيَه في حقِّ أخيه الْمُسلِم إذا تُوفِّي، ونزلَ به أمرُ الله من تغسيلِه وتكفينِه والقيامِ بحقوقِه، **وهذا كلُّهُ من الْمَصالح التي:**

منها ما يتعلقُ بِالْمَيِّت، **ومنها** ما يتعلقُ بأهل الْمَيِّت، **ومنها** ما يجمعُ الطَّرفين.

شَرَعَ -رَحِمَهُ اللهُ- بعد ذلك في بيان الْمَفاسدِ التي نَهَى الشَّرعُ عنها.

وإذا نزلت الْمُصِيبَةُ بالإنسان فإنَّه قد يَسْتَزِلُّهُ الشَّيطَانُ، وحينئذٍ لا بُدَّ من تنبيهِ النَّاسِ على أذيةِ الشَّيطَانِ وبليته التي يَحْرِمُ الإنسانَ فيها الخيرَ من الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وقد يوقعُهُ في غضب الله وسخطه -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-، ومن جملة ذلك هذه الْمَنْهِيَات التي أَكَّد النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- تحريمها عند الْمُصِيبَة.

وليس الْمُرَاد أنَّه يُنْهَى عن لطم الخدود وضربِهَا، وشقِّ الجيوب وقطعِها، ودعوى الجاهلية، عند نزول الْمُصِيبَة فقط، بل الأمرُ شاملٌ لحال نزول الْمُصِيبَة وما بعد نزول الْمُصِيبَة؛ لأنَّ العلةَ والسَّبَبَ هي التَّسَخُّطُ على القضاء والقدر، وعدمُ الرِّضَا بأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

ولذلك جعلَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- هذه الْمَنْهِيَات من كبائر الذُّنُوب؛ لورود الوعيد الشَّدِيد عليها

والتَّعبيرُ بالكراهية الْمُرَاد بها: كراهةُ التَّحرِيم، وليس الْمُرَادُ بها كراهةَ التَّنْزِيهِ.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لَيْسَ مِنَّا**)) **قِيلَ**: ليس على طريقتنا، ولا على سُنَّتِنَا.

وقالَ بعضُ العلماءِ: هذا كقول الرَّجُلِ لابنِهِ: "لَسْتَ مِنِّي"، أي لست على طريقتي؛ لأنَّ الابنَ يسيرُ مع أبيه على طريقةٍ معينةٍ، فإذا عصى أمرَه، أو أرتكب نَهْيَه قال له: "لَسْتَ مِنِّي"، أي لست على طريقة الولدِ مع والده، وليس الْمُرَاد أنَّه ليس على دين الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وليس على شرعه بالخروج من الإسلام بالكلية، وإنَّما الْمُرَاد أنَّه ليس على سُنَّةِ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديه -بِأَبِي وَأُمِّي-؛ لأنَّ سُنَّتَه وهديَه قائمٌ على الصَّبْر، واحتسابِ الأجر، وحُسنِ الظَّنّ بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وضربُ الخدود، وشقُّ الجيوب، ليس فيه هذا الْمَعنَى، بل هو مضادٌّ لهذا الْمَعنَى، ومخالفٌ له، ولذلك لم يتفقْ مع سُنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وقالَ بعضُ العلماءِ: قولُهُ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-: ((**لَيْسَ مِنَّا**)) الْمُرَاد به ليس على هديي الكامل، فهديُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بيَّنه بما ثبتَ عنه وصحَّ عنه من سُنَّتِه، وليس فيه ضربُ الخدود، ولا لطمُها، ولا شقُّ الجيوب، ونحو ذلك مما فيه تَسَخُّطٌ على قضاء الله وقدره. **وقالَ بعضُ أئمةِ السَّلف**: إنَّه ينبغي السُّكُوتُ عن تأويل هذا الحديث وتفسيره، وهو قولُ سفيان -رَحِمَهُ اللهُ-.

والسَّبَبُ في قوله: أنَّه رأى أنَّ مقصودَ الشَّرع زَجْرُ النَّاس، وأنَّ عدمَ تفسير هذه العبارة أبلغُ في زجرهم وردعهم وتخويفهم.

وهذا القولُ ينبغي أنْ يُنَبَّهَ فيه على أمرٍ مهمٍ: وهو أنَّه يمكن السُّكُوتُ عن تأويله؛ زجرًا للناس وتخويفًا لهم، ولكن في مقام العلم والتَّعليم لا يسعُ إلا بيانُهُ وتوضيحُهُ.

والسَّبَبُ ذلك: أنَّ الخوارجَ ونحوَهم من أئمة الضَّلال الذين يُفَسِّرُون النُّصُوصَ على غير الْمُرَاد يأخذون من مثل هذه النُّصُوص دليلاً على تكفير الفاعل للكبيرة، والْمُرتكب لها، ولذلك لو سُكِتَ عن تأويلها، وفُسِّرَ بهذا الوجه الوحيد لانصرف النَّاس إلى هذا التَّفْسِير، وأساءوا فهمَ سُنَّةِ النبي-صَلَّى

اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهذا اللفظُ لا إشكال في كونه دالاً على أنَّه ليس من سُنَّتِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ولا من هديه.

وقالَ بعضُ العلماءِ: يحتملُ أنَّ قولَه: ((**لَيْسَ مِنَّا**)) إي أنَّه تنبيهٌ من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إلى عقوبةٍ خفيةٍ لا يعلم إلا الله.

قالوا: ومن ذلك مما يحتملُهُ أنَّه إذا حُشِرَ النَّاس فإنَّه لا يحشرُ مع النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما يحشر الْمُتبِعُونَ لسُنَّتِهِ وهديه -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-؛ وهذا لِمَكان الْمُخالفة.

وأقوى ما ذُكِر القولانِ الأولانِ، أنَّ قوله: ((**لَيْسَ مِنَّا**)) الْمُرَاد به: ليس على طريقتنا، ولا على سنتنا، أو يرادُ به ليس على هدينا الكامل.

فهذان التَّفْسِيرانِ **هما أقربُ** التَّفاسيرِ إلى الصَّواب -وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ-.

قولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ**))، وفي الصَّحِيح: ((**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ**))، ولطمُ الخدود: ضربُهَا.

وكانوا في الجاهليةِ، إذا أصابَتِ الرَّجُلَ الْمُصِيبَةُ أو أصاب الْمَرْأَةَ، وهذا أكثرُ ما يكونُ من النِّسَاء تقوم بضرب خديها؛ إشارةً إلى شدة الفاجعة، ويتضمنُ ذلك الجزعُ للمُصَاب، وبيانُ عِظَمِهِ، مع أنَّه يتضمن الْمَعنَى الخفي من التَّسَخُّط لقضاء الله وقدره.

وقولُهُ: ((**مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ**)) **الخُدُودُ**: جمعُ خَدٍّ، وهو الْمَوضع الْمَعروف من الوجه، وأعلاه الوَجْنَة، وأسفلُهُ ما يلي اللَّحْي، فهو ما بين لحي الإنسان وأطراف العينين والأنف.

وليس الْمُرَاد ضرب الخد وحدَهُ، بل إنَّهَا لو ضربَتْ وجهَهَا صَدُقَ عليها هذا الوعيد، فلا يختصُّ الأمرُ بالخد، وإنَّما عُبِّر بالخدِّ؛ لأنَّه الغالبُ، وإلا فقد تضربُ وجهَهَا، وقد تضربُ أنفَهَا من الجهتين.

وللإنسانِ خَدَّانِ، وقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ**))، فجَمَعَ، ولم يُثَنِّ، **قالوا**: إنَّه جَمْعٌ باعتبار.

وقيل: قُصِد منه مقابلةُ الجمع للجمع، وقالوا: كقولِهِ تعالى: **{وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ}**، وللنَّهار طرفان، فجمع لهذا الْمَعنَى.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**وشَقَّ الجُيُوبَ**)) **الشَّقُّ**: هو القَطْعُ، **والجُيُوبُ**: جمعُ جيبٍ

والجيبُ: هو الفتحةُ في أعلى الجيب التي يدخل الإنسانُ منها رأسَه إذا لبس الثَّوبَ.

وشقُّها: الأخذُ من طرفيها ومزعها، سواءً أَتَمَّ المَزْع لثوبٍ كاملٍ، أو كان مَزْعًا لبعضه، ولو كان قليلاً،

فكُلُّ هذا داخلٌ في الوعيد.

وأصلُ ((**الجُيُوب**)): من "جَابَ": إذا قَطَعَ، ومنه: قولُه تعالى: **{وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي}**، أي قطعوا الصَّخرةَ بالواد.

الْمُرَاد بقوله: ((**وشَقَّ الجُيُوبَ**)) ما ذكرناه، من أنَّ الْمَرْأَة كانت إذا نزلَتْ بها الْمُصِيبَةُ، وحلَّتْ بها الفاجعةُ أمسكت بطرفي جيبها، ثم مزعَتْ ثوبَهَا وشَقَّتْهُ؛ إشارةً إلى جزعها وعظم مصيبتها، فهذا الفعلُ محرَّمٌ شرعًا، وسواءً وقع من الرَّجُلِ، أو وقع من الْمَرْأَة، وإن كان الذي يفعلُهُ في الغالب هو النِّسَاءُ.

فالنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أراد الْمَعنَى، وأنَّ هذا الفعلَ يتضمنُ التَّسَخُّطَ والتَّشَكِّي، كما ذكر بعضُ العلماء فيه نوعٌ من التَّظَلُّمِ، كأنَّه يَتَظَلَّمُ من قضاء الله وقدره -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-: **{إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاس شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاس أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}**.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**وشَقَّ الجُيُوبَ**)) قلنا: الْمُرَاد به أعلى الثَّوب يمزع من الطَّرفين وكما ذكرنا يستوي أنْ يكونَ الشَّقُّ للقليل والكثير، ولذلك جاء مطلقًا في حديث الصَّحِيحين كما في حديث أبي موسى الأشعريِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَنَّ النبيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **بَرِئَ مِنْ الصَّالِقَةِ وَالْحَالِقَةِ وَالشَّاقَّةِ**))، ((**والصَّالِقَة**)) قالوا: أصلُها من السَّلْق، وهو رفعُ الصوت.

ومنه قوله تعالى: **{سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}**، وهي التي ترفعُ صوتَهَا عند الْمُصِيبَة.

وقولُهُ: ((**الشَّاقَّة**)) يدلُّ على أنَّ الْمُرَاد به شَقُّ الثَّوب عمومًا، والْمَرْأَة توصفُ بكونِهَا شَاقَّةً لثوبِهَا سواءً كان الشَّقُّ قليلاً أو كثيرًا، صغيرًا أو كبيرًا، يسيرًا أو كبيرًا؛ فإنَّ الحديثَ مطلقٌ، إذا شَقَّتْ صَدُقَ عليها أنَّهَا ارتكبَتْ ما يُوجُب هذا الوعيد الشَّدِيد.

قولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**وَدَعَا بِدَعْوَةِ الجَاهِلِيَّة**)) كانَ أهلُ الجاهلية إذا ماتَ الْمَيِّتُ ندبَتْهُ امرأتُهُ، وندبَهُ قريبُهُ وصديقُهُ، فيقول: (وا جبلاه وا سنداه وا كهفاه وا كذا وكذا...) فيشيد به، ويعظم أمره، فهذه من دعوى الجاهلية، وهذا هو الذي عناه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من تعظيم أمر الْمَيِّت وتعظيم الْمُصاب به.

وقد جاء في حديث عبدالله بن رواحة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كما في الصَّحِيح: ((**أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللهِ وَأَصَابَتْهُ غَاشِيَةٌ قَبْلَ مَوْتِهِ وَقَبْضِ رُوْحِهِ، جَعَلَتْ أُخْتُهُ عَمْرَةُ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- **تَذْكُرُ**

فَضْلَهُ وَتَقُولُ: وَآ أخَاه، وَآ سَنَدَاه، وَهُوَ لا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيهَا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: مَا قُلْتِ شَيْئًا إِلا وَلَكَزَنِي الْمَلَكُ فَقَالَ: أَنْتَ كَذَلِكَ، أَنْتَ كَذَلِكَ؟)).

ولذلك لَمَّا تُوفِّيَ ما بكَتْ عليه -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، وهذا يدلُّ على أنَّ الأصلَ عدمُ فعل هذا الأمر، وأنَّه من الْمَنْهِيَات التي ينبغي للمُسلم والْمُسلِمة أنْ يجتنبَها إذا حلَّتْ به الْمُصِيبَةُ، ونزل به أمرُ الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

واللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- حرَّم اتباعَ أهل الجاهلية في جاهليتهم، وأعظمُ الجهلِ الجهلُ بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- خاصةً فيما يتعلقُ بالاعتقاد، ومن ذلك ما يقعُ عند نزول الْمَصَائب، فإنَّ الواجبَ على الْمُسلِم التَّسليمُ والرِّضَا بقضاء الله وقدره.

وقد وعدَ اللهُ أنَّه إذا صَبَرَ فإنَّه يظفر بالخير العظيم من الصَّلوات والرَّحْمَة من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وأنَّهُ مَا صَبَرَ عبدٌ على قضاء الله وقدره إلا صبَّرَهُ اللهُ.

وأنَّهُ مَا صَبَرَ عبدٌ على قضاء الله وقدره، واحتسبَ الأجرَ عند الله إلا كان أجرُهُ على الله.

وأنَّهُ مَا صَبَرَ عبدٌ وأحتسب أجرَهُ عند الله إلا بشَّرَهُ اللهُ بثوابه كما قال تعالى: **{وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ}**.

فشهد اللهُ من فوق سبع سماواتٍ أنَّه ما صَبَرَ عبدٌ لقضائه وقدره، وقال ما يرضي ربَّه إلا جعلَ عليه الصَّلوات: وهي الرَّحمات الْمُتتابعة الْمُتلاحقة، التي لا يعلمُ بقدرها إلا الله -جَلَّ جَلالُهُ-، فبقدر توحيده وتسليمه وإيمانه وإذعانه تكون له الصَّلوات من الله -عَزَّ وَجَلَّ- والرَّحْمَة، ومَنْ رَحِمَهُ الله فهو الْمَرحوم، ولذلك تجدُ العبدَ إذا نزلَتْ به الْمُصِيبَةُ، وتجدُ الأَمَةَ إذا نزلَتْ بها الْمُصِيبَةُ، واحتسبَتْ واسترجعَتْ تجدُها في ثباتٍ من الله، وتيسيرٍ وحسنِ عاقبةٍ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؛ لأنَّ هذا من تقوى الله، واللهُ يقول: **{وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**، والتَّقوَى لا تؤولُ في عواقبها إلا بكُلِّ خيرٍ.

في هذا الحديث دليلٌ على تحريم هذه الأمور من شقِّ الجيوب، ولطم الخدود، ودعوى الجاهلية، وأنَّه لا يجوز للمُسلم ولا للمُسلمة أنْ يفعلَ ذلك، وأنَّه ينبغي نَهْيُ النَّاس، وتنبيهُهم على حرمة هذا الفعل، وأنَّ الواجبَ على الْمُسلِم أنْ يُسَلِّمَ ويستسلم، وأنْ يتذكرَ أنَّ الصَّبْرَ عند الصَّدمة الأولى أجرُهُ عند الله أعظمُ، وثوابٌ من الله أكرمُ، ومَنْ سَلَّمَهُ اللهُ فإنَّه الأسلمُ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَّةِ النَّوْحِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أحمَدُ بنُ منيعٍ، حَدَّثنا قرَّانُ بنُ تمَّامٍ ومروانُ بنُ معاويةَ ويزيدَ بنُ هارونَ، عن سعيدِ بنِ عُبَيدِ الطّائيِّ، عن عَليِّ بنِ ربيعةَ الأسديِّ قال: ((**مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: قُرْظَةُ بْنُ كَعْبٍ، فَنِيْحَ عَلَيهِ، فَجَاءَ الْمُغِيْرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيهِ وَقَالَ: مَا بَالُ النَّوْحِ فِي الإِسْلامِ؟ أَمَا إِنِيّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَقُولُ: مَنْ نِيْحَ عَلَيهِ عُذِّبَ بِمَا نِيْحَ عَلَيهِ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وفي البابِ عن عُمرَ، وعَليٍّ، وأبي موسى، وقيسِ بن عاصمٍ، وأبي هُريرَةَ وجُنادةَ بنِ مالكٍ، وأنسٍ، وأمِّ عطيةَ، وسَمُرَةَ، وأبي مالكٍ الأشعريِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَمِيْعًا-.

قالَ الإمامُ أَبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَديثُ المُغيرَةِ، حَديثٌ غَريبٌ حَسنٌ صَحيحٌ.

الشَّرْحُ:

ترجم الإمامُ الحافظُ بهذه التَّرْجَمة التي تتعلَّقُ بكراهية النَّوْح، **والكراهيةُ هنا:** كراهيةُ تحريمٍ، وحَكَى الإجماعَ عليها الحافظُ ابنُ عبدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللهُ-.

إلا أنَّ الإمامَ أحمدَ -رَحِمَهُ اللهُ- خَفَّفَ في النَّوْح إذا كان مثلَ ما قالَتْ فاطمةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- عند وفاة النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في صحيح البخاريِّ: ((**يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ**))، فخَفَّفَ إذا كان النَّوْحُ مثلَ نَوْحِ فاطمةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-،**وفَهِمَ من هذه الرِّواية بعضُ أصحابِهِ** أنَّه يجيزُ النَّوْحَ، ونَصُّوا على جوازه، كأبي الخطَّاب ونحوه، وذكرُوا فيه بعضَ الآثار عن بعض الصَّحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-.

ومذهب الحنابلة الْمَذهب على تحريم النَّوْحِ وأنَّه لا يجوزُ، وهو موافقٌ لقولِ جماهيرِ السَّلفِ والخلفِ والأئمةِ -رَحِمَهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-.

والنَّوْحُ ثبتَتِ السُّنَّةُ بتحريمه، حتى إنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَخَذَ العهدَ في البيعة على اجتنابه على النِّسَاء، وخَصَّ النِّسَاءَ به؛ لأنَّه أكثرُ ما يكونُ من النِّسَاء، وكانُوا في الجاهلية تنعي الْمَرْأَةُ زوجَها، وتنوحُ عليه، وتشقُّ ثوبَهَا، كما قال طَرَفَةُ:

إِذَا أَنَا مِتُّ فَانْعِيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَيَّ الثَّوْبَ أُمَّ مَعْبدِ

فكانُوا يوصون بذلك، ويتفاخرون به، وكانت الْمَرْأَةُ تنوحُ على زوجها، فهو أكثرُ ما يكونُ من النِّسَاء، ولذلك فَسَّرَ الإمامُ أحمدُ -رَحِمَهُ اللهُ- قولَهُ تعالى: **{وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}** فَسَّرَهُ بترك النَّوْحِ، أي أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أخذَ البيعةَ على النِّسَاءِ أَنَّهُنَّ لا يعصين في الْمَعروف، قال: ومعناه أنْ لا يفعلْنَ النَّوْحَ إذا نزل أمرُ اللهِ بِالْمَيِّتِ.

وهذا يدلُّ على أنَّ الإمامَ أحمدَ يرى تحريمَ النَّوْحِ، لا جوازَه، وتفسيرُهُ لهذه الآية على هذا الوجه قويٌّ من جهة حديث أُمِّ عطيةَ في صحيح البخاري أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا أخذ البيعةَ على النِّسَاء أخذَ عليهنَّ العهدَ أن لا يَنُحْنَ.

فدلَّ على أنَّ الإجمالَ في قوله: **{وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}** أنَّه يدخل فيه ما فَسَّرَتْهُ به السُّنَّةُ من النَّهْي عن النَّوْحِ، وخَصَّ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- النِّسَاء بذلك؛ لأَنَّهُنَّ أكثر مَنْ يفعلُ ذلك، فهنَّ اللاتي يَنُحْنَ على الْمَيِّت، ويحصلُ منهنَّ الجزعُ؛ لضعفِهِنَّ، وشدةِ عاطفتِهِنَّ، ولذلك خُصَّ النِّسَاءُ بهذا النَّهْي وبالْمَنع.

وذَكَرَ الْمُصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- في هذا الباب حديثَ الْمُغيرة بن شعبةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- صاحبُ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وأحدُ دهاة العرب الْمَشهورين الْمَعروفين، وهو أميرُ الكوفة في زمان عمرَ بنِ الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ وَأَرْضَاهُمْ- أنَّه لَمَّا نِيْحَ على قرظةُ الأنصاريِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وكان هذا النَّوْحُ **قالَ بعضُ العلماءِ**: إنَّه أولُ نوحٍ في الإسلام بعد وفاة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهذه الحادثة هي أولُ حادثةِ نَوْحٍ، ولذلك عند العلماء ما يسمى بـ(**الأوائل**).

والأوائلُ: هي الحوادثُ التي وقعَتْ من الأشخاص لأولِ مرةٍ.

فقالُوا: إنَّ أولَ من نِيْحَ عليه هو هذا، هو قرظةُ.

ولَمَّا نِيْحَ عليه، وبلغ الخبرُ للمغيرة بن شعبة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- صاحبُ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قام على الْمِنْبَر.

وهذا يدلُّ على حرص أصحاب رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، -فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ- على الأمر بالْمَعروف، والنَّهي عن الْمُنكر، وتذكير النَّاس عند غفلتهم، وتعليمهم عند جهلهم.

فقام -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- على الْمِنْبَر، ولا يُقامُ على الْمِنْبَر إلا في الأمور العامة، والأمور الشَّدِيدة التي يحتاج إليها.

وهذا يدلُّ على تعظيم أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لأمر النَّوْحِ، وإذا نظرْتَ إلى تعظيم الشَّرع والسُّنَّة وإلى ما ورد فيها من الأحاديث من النَّهي عن هذا الْمُنكر العظيم، وَجَدْتَ أنَّ هناك عِلَّةً تدلُّ على أهمية أنَّه ينبغي العنايةُ بتنبيه النَّاس على ذلك؛ لأنَّه متعلقٌ بالاعتقاد؛ لأنَّ النَّوْحَ لا يكونُ إلا من ضعف التَّسليم للرِّضا بقضاء الله وقدرة.

ولذلك الأمورُ إذا تعلقَتْ بالاعتقاد فإنَّ مفاسدَها تعتبرُ عند العلماء في أعلى درجات الْمَفاسد، فأعظمُ الْمَفاسد التي نُهِيَ عنها، وأعظمُ الشُّرُور التي مُنِعَ منها ما يتعلَّقُ بالاعتقاد؛ لأنَّه إذا فَسَدَ اعتقادُ العبد هلك -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-.

ومن هنا: ((**لَعَنَ النبيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **الوَاشِمَةَ، والْمُسْتَوْشِمَةَ، والوَاشِرَةَ، والْمُسْتَوْشِرَةَ، والوَاصِلَةَ، والْمُسْتَوْصِلَةَ، والْمُتَفَلِّجَاتِ للحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ**)).

فبَيَّنَ أنَّ العلةَ أنَّهُنَّ غَيَّرْنَ خَلْقَ اللهِ، وهذا راجعٌ إلى أنَّهُنَّ لم يرضينَ بخلقة الله التي خلقَهُنَّ عليها، ومن هنا جاء الوعيدُ الشَّدِيدُ؛ لارتباط الأمر بالاعتقاد، فالأمرُ إذا ارتبط بالاعتقاد أمرًا ونَهْيًا فهو في أعلى درجات الأمر، وأعلى درجات النَّهي، فإنَّ الْمَرْأَةَ والرَّجُلَ كلٌّ منهما إذا تسخَّطَ على القضاء والقدر لم يأمنْ أنْ يتبعَ خطواتِ الشَّيطَان حتى ينسلخَ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- من دينه، فيرجعُ أولَ ما يرجعُ على الْمُصاب، ثم يرجع ثم يقولُ ما لا يرضي الله، ثم لا يزالُ الشَّيطَانُ يأخذُهُ حتى ينتهي به -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- إلى كراهية قضاء الله وقدره، وتجدُ الْمَرْأَةَ تقول: ماذا فعلْتُ حتى يفعلَ اللهُ بي كذا؟ ويقولُ الرَّجُلُ: ماذا فعلْتُ حتى يفعلَ اللهُ بي كذا؟ أو يقولُ بعضُهم: لا يستحقُّ فُلانٍ أنْ يفعلَ به كذا وكذا، وكأنه -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- يعترضُ على قضاء الله وقدره.

فالأمرُ جِدُّ خطيرٍ وعظيمٍ، ولذلك ردَّهم الشَّرعُ إلى ما فيه السَّلامةُ والأمنُ من الخزي والنَّدامة في الدُّنيا ويوم القيامة، وهو الرِّضَاء بقضاء الله بلا حسرةٍ، ولا ندامةٍ، فيتبيَّنُ أنَّ العبدَ ينبغي عليه أنْ يعلمَ أنَّه ملكٌ لله، ولذلك أولُ ما يقولُهُ في الْمُصِيبَة: (إنَّا للهِ) فدلَّ على أنَّ الأمرَ راجعٌ إلى الاعتقاد، أي أنَّني أنا مملوكٌ لله، ومخلوقٌ لله، واللهُ هو الحليمُ الرحيمُ العدلُ الحكيمُ في أمره ونَهْيه وقضائه وقدره، فإذا قال: (إنَّا للهِ) استجمعَ هذه الْمَعاني من صفات الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فإذا قال: (إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون) تذكَّرَ حكمَ الله على العباد، أنَّهُم إليه صائرونَ، وإليه منقلبونَ، وبين يديه مجموعونَ: **{قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}**.

فإذا أحسَّ هذه الْمَعاني رجع إلى اعتقاده، إلى الصَّواب، إلى الرُّشد، إلى الهدى، فثبَّتَهُ اللهُ بتثبيته ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**وَلا نَقُولُ إِلا مَا يُرْضِي اللهَ**)).

فشدَّد الشَّرعُ في النَّوْحِ بأنَّه طريقٌ إلى شرٍّ وبلاءٍ، ثم إنَّ النَّاسَ يتعلَّمُ بعضُهم من بعضٍ، فإذا ابتدأَ الإنسانُ بالكلمة من الجزع والتَّسَخُّط فإنَّه يأتي مَنْ يزيدُ في هذه الكلمة، ثم يزادُ في هذه الكلمة حتى تنتهي بكلماتٍ قد تسلخُ الإنسانَ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- من دينه وإسلامه.

ولذلك اعتنى هذا الصَّحابيُّ الجليلُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- بتحذير النَّاس وقرعهم بزواجر الوحي، وأنَّ هذا منكرٌ، وأنَّه كان من أمر الجاهلية، وأنَّ اللهَ رَحِمَ هذه الأمةَ حينما أنقذَها من أدران الجاهلية، وساقها إلى صفاء التَّوحيد بالتَّسليم والرِّضَا بقضاء الله وقدره.

فقالَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- فجاء الْمُغيرةُ بنُ شعبةَ: ((**فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيهِ**)) قد كان بالإمكان أنَّه يُكَلِّمُ النَّاسَ، ويتكلَّمُ في النَّاس ويلقي كلمةً، لكن جاءَ فصعدَ الْمِنْبَرَ.

والْمِنْبَرَ قِيلَ: من النَّبْرِ، وهو الصَّوتُ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا علاه ارتفعَ صوتُهُ.

وهو من سُنَنِ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في آخر حياته، لَمَّا هاجرَتْ إليه الوفودُ، وكثُرَ النَّاسُ عليه، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في الصَّحِيح من حديث أبي العباسِ سهلِ بن سعدٍ السَّاعديِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قال لامرأةٍ من الأنصارِ: ((**اصْنَعِي لِي أَعْوَادًا أُكَلِّمُ عَلَيهَا النَّاسَ، فَصُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ مِنْ طَرْفَاءِ الغَابَةِ، فَقَامَ عَلَيهَا** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- **وَخَطَبَ**)).

فصعد الْمِنْبَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، والْمِنْبَرُ لا يُصعَد عليه كما ذكرنا إلا في الأمور الْمُهمة: إمَّا لأمرٍ من أوامر الله يُدعَى إليه، أو نَهْي من نواهي الله يُزجَرُ عنه.

((**فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيهِ**))، ((**فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيهِ**)): وهذا يدلُّ على أنَّ هديَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- والصَّحابةِ مِنْ بعده استفتاحُ الكلمات والْمَواعظ والتَّوجيه بحمد الله والثَّناء عليه.

وفيه دليلٌ على أنَّه لا تلتزم صيغةٌ معينةٌ، وما يفعلُهُ البعضُ من التزام صيغةِ: ((**إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ...**)) هذا مخالفٌ للوارد؛ لأنَّ أُمَّ الْمُؤمنين عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، والأحاديث الصَّحِيحة عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه لم يلتزمْ صيغةً معينةً؛ لأنَّ الالتزامَ بها يُشعِرُ النَّاسَ بوجوبها، وأنَّ الْمُخالفةَ في تركها، ولهذا كانَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في الأمر الذي ليس بمحتمٍ يتركُهُ أحيانًا، ويقول: (أخشى أَنْ يَعتَقِدَ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ) أي سنةٌ لازمةٌ، ولا بأسَ أنَّ الإنسانَ يقولُهُ أحيانًا وأحيانًا.

أمَّا أنْ يلتزمَهُ التزامًا كاملاً وهو خطبةُ الحاجة، **بل قالَ بعضُ العلماءِ**: إنَّ خطبةَ الحاجة تُقَالُ عند النِّكاحِ، وعند حوائج الأمور الخاصة، وأَمَّا في العامة فلا يُحفَظُ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- التزمَ صيغةً معينةً، ولذلك في الصَّحِيح من حديث أُمِّ الْمُؤمنين من قصة بَرِيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالت: ((**فَقَامَ رَسُول اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ**)).

فدلَّ على أنَّ الأمرَ واسعٌ، وأنَّه لا يلتزمُ فيه بصيغةٍ معينةٍ، بحيث مَنْ تركَها يُنْكَرُ عليه، أو يُفْهَمُ أنَّه مخالفٌ للسُّنَّةِ، وهذا ما يقعُ فيه بعضُ الْمُتأخرين، ولذلك لم نجدْ في كتب العلماء والأئمة الْمُتقدمين من سلف الأمة في كتب الحديث وغيرها أنَّهُم صَدَّرُوا كتبَهم بخطب الحاجة، حتى أصبحَ البعضُ لا يُؤلِّفُ مُؤَلَّفًا إلا وهو يلتزمُ ذكرَها، فهذا أمرٌ ينبغي التَّنبيهُ عليه.

هي واردةٌ في خطبة الحاجة، لكنَّ التزامَها والحرصَ عليها، والإنكارَ على مَنْ يخالفُها أمرٌ لا يُحفَظ له أصلٌ من السُّنَّةِ، يُقَالُ: (تُفْعَلُ أحيانًا، وتُتْرَكُ أحيانًا) فلا بأسَ، ولا حرجَ.

((**فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيهِ**)): وهذا هو الهديُ والسَّنَنُ كما ذكرنا أنَّه يبتدئُ بالكلمات والْمَواعظ بحمد الله، والثَّناء عليه بما هو أهلُهُ.

وقال: ((**مَا بَالُ النَّوْحِ فِي الإِسْلامِ؟**))، ((**مَا بَالُ النَّوْحِ؟**)) وهذا استفهامٌ إنكاريٌّ، ما الشَّأنُ؟ وما الحالُ أنَّه يُنَاحُ، ونحنُ في الإسلام الذي سلَّمَنَا اللهُ فيه من الجاهلية، وهذا النَّوْحُ من أمر الجاهلية، ونحنُ في الإسلام، أي أنقذَنَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- من أدران الجاهلية باتباع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على دين الإسلام ودين الفطرة.

((**أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَقُولُ: مَنْ نِيْحَ عَلَيهِ عُذِّبَ بِمَا نِيحَ عَلَيهِ**)):

((**أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ**)): تأمَّلْ -رَحِمَكَ اللهُ- كيف كانَ الصَّحابةُ يُحَرِّرُونَ الكلماتِ؟! وهذا يدلُّ على أنَّ العلمَ والوحيَ ومِيْرَاثَ النُّبوةِ ينبغي أنْ يُصَاغَ بالطَّريقة التي تليقُ به، فالْمُغيرةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَمْ يتكلَّمْ كلامًا عامًا، وإنَّما قال: ((**مَا بَالُ النَّوْحِ فِي الإِسْلامِ؟**)) فذكَّرَ النَّاسَ بنعمة الله بكلماتٍ جميلةٍ، وهذا هو هديُ الكتاب، كما قالَ اللهُ تعالى: **{وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا}**.

فمَنْ أراد أنْ يعظَ، وأراد أنْ يُذَكِّرَ عليه أنْ يُحَبِّرَ، وأنْ يُزَوِّرَ الكلامَ، ويكونَ الكلامُ لائقًا بما هو بصددِهِ، من الأمر بأمر الله، أو النَّهي عمَّا نَهَى اللهُ عنه.

فقال: ((**مَا بَالُ النَّوْحِ فِي الإِسْلامِ؟**)) وهذه كلمةٌ جميلةٌ، وجملةٌ جميلةٌ رائعةٌ، تحرّك القلوبَ إلى أنَّ أمرِ النَّوْحِ أمرٌ عظيمٌ، فقالَ: ((**مَا بَالُ النَّوْحِ؟**)) فجاء بأسلوب الاستفهام الْمُتضمنِ للإنكار ((**مَا بالُ النَّوْحِ فِي الإِسْلامِ؟**)).

((**أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَقُولُ: مَنْ نِيْحَ عَلَيهِ عُذِّبَ بِمَا نِيحَ عَلَيهِ**)): ((**أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ**-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)): وهذا يدلُّ على الرِّوايةِ الْمُباشرةِ؛ لأنَّ الصَّحابيَّ يروي الحديثَ مباشرةً، ويرويه بواسطةٍ، فبيَّنَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه سمعَ من رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فنِعْمَ السَّامعُ، ونِعْمَ الْمُسَمّعُ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

((**أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَقُولُ: مَنْ نِيْحَ عَلَيهِ عُذِّبَ بِمَا نِيحَ عَلَيهِ**))، ((**مَنْ نِيْحَ عَلَيهِ**)): هذا عامٌّ شاملٌ للرَّجُلِ والْمَرْأَةِ، شاملٌ لِمَنْ أوصى، ومَنْ لَمْ يوصِ، شاملٌ لِمَنْ عَلِمَ، ومَنْ ولَمْ يعلَمْ.

وهذا الذي جعلَ بعضَ العلماء يجعلُ الوعيدَ في هذا على عمومه: ((**مَنْ نِيْحَ عَلَيهِ عُذِّبَ بِمَا نِيحَ عَلَيهِ**))، هذا الحديثُ يأتي على وجوهٍ:

قالَ الأئمةُ: لا يمكنُ لهذا الحديث، وما سيأتي من قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيهِ**))، ((**وَلَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيهِ**)) كما سيأتي في الرِّواية الأخرى، أنَّ هذا الحديثَ لا يمكنُ أنْ يكونَ على ظاهره؛ لأنَّ الْمَيِّتَ لا ذنبَ له، **فلماذا يُعَذَّبُ ببكاء أهله عليه؟ وبنوحِ الغيرِ عليه؟** فهو لم يَنُحْ، وقد دلَّتْ نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ على أنَّه لا يُعذَّبُ العبدُ، ولا يحملُ وزرَ غَيْرِهِ، كما قالَ تعالى: **{وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}؟**

ولذلك **ذهبَ جمهورُ العلماء والأئمة** -رَحِمَهُمُ اللهُ- إلى تأويل هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث، كحديث: ((**إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيهِ**))، فقال جمهورُهم: إنَّ الْمُرَاد به أن يكون عَالِمًا أنَّهُم سيبكون عليه، أو يوصي بذلك، فإذا أوصى بذلك، فإنَّه من عمله وإذا عَلِمَ قَطْعًا، أو غَلَبَ على ظنِّه وسكتَ وأقرَّ، كان كالرَّاضي بما يفعلُ به.

ومن هنا يعلم قطعًا، كأَنْ يقولُ له: (إذا مِتُّ سننوحُ عليك، وأنت مقامُك عندنا كبيرٌ، وإذا مِتُّ سنفعلُ لك، وسنفعلُ لك، وسنندبُك، ونذكرُ مآثرَك)، فهذا قد علمَ قطعًا أنَّهُم سينوحون عليه فإذا وَصَّى، أو عَلِمَ أنَّهُم سينوحون عليه، أو غَلَبَ على ظنِّه ذلك، فإنَّه في هذه الحالة يُعذب، أمَّا إذا وَصَّى: كان من عمله، وليس من وزر الغير.

وإذا عَلِمَ وَسَكَتَ: فقد أَقَرَّ، فكان من عمله، فهو لا يحملُ وزرَ غَيْرِهِ، بل هو مُعَذَّبٌ بوزرِهِ، **وهذا التَّفْسِيرُ من أقوى التَّفاسير**، وهو يزيلُ الإشكالَ أنَّه إذا وَصَّى كما كان في عادة الجاهلية كما ذكرنا في قول طَرَفَةَ:

إِذَا أَنَا مِتُّ فَانْعِيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَيَّ الثَّوْبَ أُمَّ مَعْبدِ

فكانوا يوصون بذلك، فحينئذ إذا وَصَّى، أو غَلَبَ على ظنِّه، أو تحقق أنَّهم سيفعلون ذلك، فإنَّه يكون ذلك الأمر: إمَّا من عمله، أو إقرارًا يدخلُ في العمل، فلا يَرِدُ الإشكالُ من كونه وزرَ غيره بل إنَّه في حكم وزره؛ لأنَّه رَضِيَهُ وأَقَرَّ به ودَعَا إليه، فهو من عمله.

وهذا الوجهُ أُستُشكِل عليه، فقالُوا: إنَّه إذا وَصَّى فإنَّه يُعَذَّبُ قبل موته؛ لأنَّ الوصيةَ تكونُ قبل الْمَوْتِ لا بعد الْمَوْتِ.

وأجابَ بعضُ العلماءِ عن ذلك بجوابٍ، ولكنَّ **الأظهرَ** أنْ يُقَالَ في جوابه: إنَّ الوصيةَ إذا وَصَّى بها فإنَّه يُعَذَّبُ بتنفيذها بعد موته، ولا يشتَرَطُ أنَّه إذا وَصَّى يُعَذَّبُ قبل الْمَوْت؛ لأنَّ تنفيذَ الوصيةِ يكونُ بعد الْمَوْتِ؛ لأنَّ الأصلَ في الوصيةِ إسنادُ الأمر إلى ما بعد الْمَوْت، وهو عهدٌ بما بعدَ الْمَوْت. فالوصيةُ إذا كانَتْ عليها عقوبةٌ لا تقعُ إلا بوقوعها، بوقوع الْمُحَرَّمِ في الوصية، وهذا الْمُحَرَّمُ لا يقعُ إلا بعد الْمَوْت، فساغَ أنَّه يُعَذَّبُ بعد موتِهِ.

والوجهُ الثَّاني من الجوابِ: وهو من ألطفِ الأجوبة وأنسبِها، **والنَّفْسُ تميلُ إليه أكثر**، وأشارَ إليه الإمامُ ابنُ القيم -رَحِمَهُ اللهُ- في نقله عن شيخ الإسلام ابن تيميةَ -رَحِمَهُ اللهُ- في (عدة الصابرين)، أنَّ الحديث في قوله: ((**إِنَّهُ لَيُعَذَّبُ**)) ليس الْمُرَادُ به عذابَ العقوبة؛ لأنَّ العذابَ يطلقُ بمعنى العقوبة يطلقُ بمعنى التَّأَلُّمِ الذي ليس فيه العقوبةُ، ليس الْمُرَادُ به معاقبةَ الإنسان.

ولذلك ثَبَتَ في الصَّحِيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قال: ((**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ الْعَذَابِ؛ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**))، فهذا وَصَفَ فيه الشَّرعُ تَأَلُّمَ الإنسانِ وحصولَ العناءِ عليه بكونه عذابًا، مع أنَّه ليس بعقوبة، فأصبح العذابُ أعمَّ من العقوبة، وإذا كان العذابُ أعمَّ من العقوبة لا يمكنُهُ حَمْلَ العام على الخاص إلا بدليلٍ يدلُّ على خصوصِهِ، فقال: إنَّ هذا هو أنسبُ الوجوهِ، أنَّ الْمَيِّتَ ربما يسمعُهُ اللهُ، أو يطلعُهُ اللهُ على شيءٍ مما يكونُ من هذا الأمر من أهله، فيؤلِمُهُ ذلك، ويزعجُهُ وذكرَ أنَّ الْمَيِّتَ لذلك يتأذَّى بقبره بجوار الفُسَّاق والفُجَّار.

وحَكَى ذلك عنه -رَحِمَهُ اللهُ-، وأنَّه يتأذَّى إذا قُبِرَ بجوار أهل البدع، وهذا له أصلٌ فيما أُثِرَ عن عقبة

-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنَّه لَمَّا رأى كثرةَ الدَّفن في البقيع، وتزاحمَ النَّاس فيه، قال: (إِمَّا أَنْ يكونَ رَجُلاً صالحًا، فَلا أُحِبُّ أَنْ أُوذِيه، وإِمَّا أَنْ يكونَ رَجُلَ سُوءٍ، فَلا أُحِبُّ أَنْ أُقْبَرَ بجنبِهِ) فقال: إنَّ هذا الذي ذكرَهُ -رَحِمَهُ اللهُ- له أصلٌ.

وبناءً على ذلك يكونُ العذابُ بإسماعه، كما ثبتَ من قصة عبدالله ابن رواحةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَمَّا جعلَتْ أختُهُ تذكرُ مآثرَهُ، فصار الْمَلَكُ يقول له: ((**أَنْتَ كَذَلِكَ؟**))، فهذا نوعٌ من الإحراج للميت، مع أنَّه صدرَ من أخته، ولَمْ يصدرْ منه، فهذا إحراجٌ له، ولذلك قال: ((**ما يَزَالُ يَقُولُ لِي: أَنْتَ كَذَلِكَ، أَنْتَ كَذَلِكَ؟**))، والحديثُ في الصَّحِيح في صحيح البخاريّ، وهذا يدلُّ على أنَّ العذابَ ليس على ظاهرِهِ.

وبناءً على ذلك، ليس الْمُرَادُ بتعذيبِ الْمَيِّتِ عذاب العقوبة الذي يأتي بِتَرْكِ واجبٍ، أو فِعْلِ مُحَرَّمٍ؛ لأنَّ الْمَيِّتَ لَمْ يفعلْ ذلك، ولَمْ يقعْ منه ذلك.

وبناءً على ذلك كأنَّه إذا بُكِيَ عليه تَأَلَّمَ الْمَيِّتُ، وتأثَّرَ، فحصلَ له نوعٌ من الألم أشبهُ بالعذاب، وهو نوعُ عذابٍ، وليس بعذابِ عقوبةٍ.

وذَكَرَ بعضُ الأئمة كما أشارَ إليه الإمامُ السَّفارينيُّ وغَيْرُهُ -رَحِمَهُ اللهُ- **أَنَّهُ قولٌ ثالثٌ**: أَنَّ أحكامَ الله لا تُعَلَّلُ، وأنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- له أنْ يُعَذِّبَ بذنبٍ، وبدون ذنبٍ، كما يُعَذِّبُ الأطفالَ والبهائمَ، وحَكَى هذا القولَ، **وهو ضعيفٌ** بالنِّسبة لأصول الشَّرع والأدلة، فإنَّ ما وَرَدَ من دعاء النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- للطِّفل أنْ يُوقَى عذابَ القبر؛ لأنَّ اللهَ أعلمُ بما يكونُ منه، ولذلك قالَ في قصة الخضر وموسى: **{وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}** اللهُ أعلمُ بما يصيرُ إليه أمرُهُ وعلى كُلِّ حالٍ **أقوى الأجوبة** ما ذكرناه من الوجهينِ الأولينِ.

وظاهرُ قولِهِ: ((**مَنْ نِيحَ عَلَيهِ عُذِّبَ بِمَا نِيحَ عَلَيهِ**))، (عُذِّبَ بِمَا نِيحَ) أي بسببِ ما نِيْحَ عليه فإن كان الْمُرَادُ به عذابَ العقوبة، فيُحمَلُ على مَنْ وَصَّى، وعلى مَنْ رَضِيَ، أو غَلَبَ على ظنه أنَّهُم سيفعلون، ورَضِيَ بذلك.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا محمودُ بنُ غيلانَ، حَدَّثنا أبو داودَ، أنبأنا شعبةُ والمسعوديُّ، عن علقمةَ بنِ مَرثدٍ، عن أبي الرَّبيعَ، عن أبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَنْ يَدَعَهُنَّ النَّاسُ: النِّيَاحَةُ، وَالطَّعْنُ فِي الأَحْسَابِ، وَالعَدْوَى؛ أَجْرَبَ بَعِيْرٌ فَأَجْرَبَ مِئَةَ بَعِيْرٍ، مَنْ أَجْرَبَ الْبَعِيْرَ الأَوَّلَ؟ وَالأَنوَاءُ، مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- هذا حديثٌ حسنٌ.

الشَّرْحُ:

ذكر الْمُصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الحديثَ الشَّريفَ الذي نَفَّرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيه أُمَّتَهُ من أعمال الجاهلية، ومنها: **النِّيَاحَةُ**.

ونظراً لاشتمال الحديث على النَّهي عن النِّيَاحَةِ، ذكرَهُ الْمُصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- في هذا الباب في كراهية النَّوْحِ.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ**)) يدلُّ على أنَّ هذه الأمورَ الأربعةَ مُحَرَّمةٌ، قالَ بعضُ العلماء: إنَّهَا من كبائر الذُّنُوب، وأنَّ فِعْلَها يُعتَبَرُ كبيرةً من كبائر الذُّنُوب والكبيرةُ تُوجِبُ تفسيقَ صاحبِها -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أَرْبَعٌ**)) إجمالٌ قبلَ البيانِ والتَّفصيلِ.

((**فِي أُمَّتِي**)): أمةُ الإجابةِ.

((**مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ**)): أي مِمَّا كان عليه أهلُ الجاهلية، ووَصَفَ الأُمَّةَ بأنَّهَا لَنْ تَدَعَ هذه الأربعةَ، أي أنَّ هذا لا يزالُ ضعافُ الإيمان وضعافُ النُّفُوس يفعلون هذه الأمورَ الأربعةَ.

وينبغي للمُسلم الذي أسلمَ لله، واستسلمَ، والْمُؤمن الذي آمنَ بالله وصدَّقه، واتَّبَعَ شرعَهُ أنْ يحفظَ هذه الأربعَ، وأنْ يجتنبَها، فبَيَّنَها -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فقال: ((**النِّيَاحَةُ**)): وقد تقدَّم أنَّهَا مأخوذةٌ من النَّوْحِ، وبيَّناها، وبيَّنا وجهَ التَّحريم فيها.

((**وَالطَّعْنُ فِي الأَحْسَابِ**)): **الْحَسَبُ**: من الحِسَابِ، **والْحَسَب سُمِّيَ حَسَبًا**؛ لأنَّ الإنسانَ عند التَّفاخُرِ بآبائه وأجداده يَحسِبُهُم، فيَحسِبُ الأبَ الأولَ الذي يباشرُهُ، فيقول: (أبي فُلانٌ الذي هو فاعلٌ كذا وكذا، أبي فُلانٌ الذي كان شجاعًا مقدامًا، وجدِّي فُلانٌ الذي قتلَ فُلانًا، أو قاد معركةَ كذا وكذا،

وجدِّي الثَّالثُ فُلانٌ الذي أكرمَ الضُّيوفَ، والذي فعل كذا وكذا)، فهو يحسِبُ، فالحَسَبُ من الحِسَابِ، يُقَالُ: (هذا أبوهُ فُلانٌ، وجدُّهُ فُلانٌ) فيحسِبُون في سُلالَتِهِ أصحابَ الْمَآثرِ، وهذا في التَّفَاخُرِ، فيَعُدُّ الآباءَ، فمنهم مَنْ يَعُدُّ الأبَ الواحدَ، ومنهم مَنْ يَعُدُّ الأبوينِ، فيكونُ صاحبُ الأبوين مُقَدَّمًا على صاحبِ الأب، ومنهم مَنْ يَعُدُّ الثَّلاثةَ والأربعةَ، فحينئذٍ يحصلُ التَّكاثُرُ، أصلُ الفخر بكثرة الآباء، هذا الذي عناهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بقوله: **{أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ}** قِيلَ: التَّكَاثُرُ في التَّفاخر في الأحساب.

وعناهُ تعالى أيضاً بقوله: **{فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}**، فكانوا إذا وَقَفُوا في عرفاتٍ تفاخروا وذكرُوا مآثرَ آبائهم وأجدادهم، فأمرَهم اللهُ أنْ يذكرُوا خالقَ الآباء وخالقَ الأجداد والذي له الْمُجدُ كُلُّهُ، وله الأمجادُ -جَلَّ جَلالُهُ- ربُّ العباد، فقال: **{فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}** أي وأشدَّ ذكرًا من ذكركم لآبائكم.

فكانت العربُ في جاهليتها تتفاخرُ، والإنسانُ يقولون أحدُ ثلاثةٍ إذا كان له أمرٌ وشأنٌ، **فهو أحدُ ثلاثةِ رِجَالٍ: إمَّا** أَنْ يكونَ عِصَامِيًّا، **أو** يكونَ عِظَامِيًّا، **أو** يكونَ عِصَامِيًّا عِظَامِيًّا.

فالعِصَامِيُّ: هو الذي يفتخرُ بنفسه، وليس له في آبائه أمجادٌ معينةٌ يحتسِبُها، فيكون عنده مواقفُ من شجاعةٍ وكرمٍ وحسن بلاءٍ، فيقال: (هذا عِصَامِيٌّ).

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا
وَعَلَّمَتْهُ الكَرَّ وَالإِقْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ بَطَلاً هُمَامَا

فهذا يفتخرُ بنفسه، هذا عِصَامِيٌّ.

وأمَّا العِظَامِيُّ: فهو الذي يفتخرُ بآبائه وأجداده، فيقول: (أبي فُلانٌ، وجدِّي فُلانٌ).

وإذا جمع له بين الأمرين قالوا: (عِصَامِيٌّ عِظَامِيٌّ).

فكان الرَّجُلُ إذا لَقِيَ الرَّجُلَ يقول له: هل أنت عِصَامِيٌّ أو عِظَامِيٌّ؟ فإذا أراد أنْ يتطاولَ قال: أنا عِصَامِيٌّ عِظَامِيٌّ؛ لأنَّني عِصَامِيٌّ وعِظَامِيٌّ، فلي مَجْدٌ وحَسَبٌ، وأيضًا لي فخرٌ في نفسي.

فهذا كُلُّهُ من الأدران التي كانت في الجاهلية؛ لأنَّ التَّفاخرَ في الأنساب والأحساب كُلُّهُ من الجهل، فإنَّ الإنسانَ لا يسوِّدُهُ أبوه وأُمُّهُ، وإنما تُسوِّدُهُ التَّقوَى كما قال تعالى: **{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}**، قال عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ: (ذَهَبَ النَّسَبُ الْيَوْمَ)، أي ذهب التَّفَاخُرُ

بالأنساب بعد هذه الآية الكريمة؛ لأنَّ الإنسانَ حينما يفتخرُ بآبائه وأمجاده وأجداده هذا دليلٌ على نقصِ عقلِهِ، ولذلك قالوا: (النَّارُ ما تُخَلِّفُ إلا الرَّمَادَ).

إِذَا افْتَخَرْتَ بِآباءٍ لَهُمْ شَرَفٌ قُلْنَا: صَدَقْتَ، وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

فالذي يفتخرُ ويتعالى على النَّاس بآبائه وأجداده، إذا أرادوا تسكيتَه قالوا له:

إِذَا افْتَخَرْتَ بِآباءٍ لَهُمْ شَرَفٌ قُلْنَا: صَدَقْتَ، وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

نارٌ خلَّفت رمادًا، فالذي يتطاولُ على النَّاس بأمجاده وأحسابه وآبائه وأجداده، هذا مسكينٌ وضعيفٌ، وأيُّ فخرٍ يفتخر به؟! آباؤُهُ وأجدادُهُ وأمجادُهُ التي يحتَسِبُها كلُّها مآلُهَا إلى ماءٍ وطينٍ، الأبُ آدمُ، والأُمُّ حواءُ، وكُلُّهُم سائرون إلى آدمَ وحواءَ، فما الذي يجعلُهُ يَظُنُّ أنَّ له شرفًا وفخرًا على النَّاس وعِلْيَةً عليهم؟! ولذلك لا كرمَ إلا بالتَّقوى، وخيارُ النَّاس وسادةُ النَّاس هم أهلُ تقوى الله عزائمُ التَّقوى الذين إذا قالُوا صدقُوا، وإذا عملُوا بَرُّوا، وزَكَّى اللهُ أقوالَهم وأعمالَهم، وزَكَّى اللهُ سرائرَهم وضمائرَهم وظواهرَهم، فهؤلاء هم سادةُ النَّاس، وخيارُ النَّاس، ولا حَسَبَ إلا بالتَّقوى، فمَنْ أراد الحَسَبَ الأصيلَ هو حَسَبُ التَّقوى، ولذلك تجدُ الرَّجُلَ لا تعرفُ حسَبَهُ ولا نَسَبَهُ، فتجدُ فيه أخلاقَ الإسلامِ وشمائلَ الكرامِ، وما يدلُّ على مرضاة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في سَمْتِهِ ودَلِّهِ فَتُحِبُّهُ، وأنت لا تعرفُ من هو، ولا إلى مَنْ ينتسبُ، وهذا هو الحبُّ في الله الذي هو أوثقُ عُرَى الإسلام.

فالذي يتفاخرُ على النَّاس، ويتطاولُ على النَّاس بآبائه وأجداده وأمجاده هذا فيه نَعْرَةٌ من الجاهلية، وهكذا إذا احتقرَ النَّاسَ لألوانِهِم، فازدراهم وانتقصَهم، أو لوظائفهم ومناصبهم، فأصبحَ يبجلُ مَنْ عنده منصبٌ أو عنده مالٌ، فهذا شأنُ أمواتِ القلوب وضعفاء النُّفُوس، بل هو شأنُ أهل النِّفاق؛ لأنَّ أهلَ الإيمان جعلوا ميزانَهُم تقوى الله -عَزَّ وَجَلَّ- بها أَحَبُّوا، وبها قَرَّبُوا، قَرَّبُوا البعيدَ، وأبعدُوا القريبَ، فهذه ولايةُ الله -عَزَّ وَجَلَّ- الجامعةُ لخير الدِّين والدُّنيا والآخرة، ومَنْ أَحَبَّ قومًا حُشِرَ معهم، فالذي يُحِبُّ للتَّقوى يُحشَرُ مع الْمُتقينَ، والذي يُحِبُّ للأحساب والأنساب فإنَّه جَاهِلِيٌّ، وفيه عِرْقٌ من الجاهلية، ولا يزالُ هذا الأمرُ موجودًا في النَّاس، فتجدهم إذا وقفُوا في مجامع النَّاس وفي الْمُناسبات أظهرُوا أمثالَ هذه الأمور؛ تعاليًا على النَّاس وانتقاصًا لهم، وهذا لا يجوزُ، فإنَّ مَنْ قالَ في أخيه: (إنَّه فُلانُ ابنُ فلانٍ)، أو قال عن نفسه: (إنَّه فُلانُ ابنُ فُلانٍ) يُعَرِّضُ بغيره، وينتقص بغيره، فهذا امرؤٌ فيه جاهليةٌ، وفيه من نَتَنِ الجاهلية بقدر ما تفاخرَ على إخوانه الْمُسلِمين ولذلك لم يجاملِ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ

وَسَلَّمَ-، ولم يحابِ حتى أصحابَه، وقال لأَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَمَّا عَيَّرَ بلالاً بأُمِّهِ قال: ((**أَتَسُبُّهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امرُؤٌ فِيْكَ جَاهِلِيَّةٌ**))، ((**إِنَّكَ امرُؤٌ فِيْكَ جَاهِلِيَّةٌ**)).

وهذا يدلُّ على عظم هذا الأمر، فالنَّاسُ لا تكرمُهُم ألوانُهُم، ولا يكرمُهُم جمالُهم، ولذلك قالَ اللهُ: **{لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ}**، والسُّخريةُ تكونُ على الْمَظاهرِ، وتكون بالْمَناظرِ، ولكن رَدَّ النَّاسَ فقال: **{عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ}** بمعنى أنَّ في قلوبِهِم وسرائرِهم وضمائرِهم وأفعالِهم ما يزكّيهم، فهم محتقرونَ في الظَّاهر، ولكنَّهم في الباطن كُرماءُ على الله، قال: ((**يَا بِلالُ، إِيْ سَمِعْتُ دَفَ نَعْلَيْكَ فِي الْجَنَّةِ**))، وهذا مَنْ تأمَّلَهُ، رسولُ الأمة -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**قَالَ: يَا بِلالُ**)) ما قال: (يا أبا بكرٍ)، ولَمْ يَقُلْ: (يا عُمَرُ)، وهم شأنُهُم أعظمُ من شأن بلالٍ، ولكن اختصَّ بلالاً وحدَهُ وقال: ((**يَا بِلالُ، إِنِّي سَمِعْتُ دَفَ نَعْلَيْكَ**)) اللهُ أَكْبَرُ! ما قال: (سمعْتُ صفيقَ ثوبك) النَّعلانِ موطأُ قدمِ الإنسان، حديثٌ مَنْ تأمَّلَهُ، ينظرُ كيف هذا الدِّينُ يَنْزِعُ هذه الأدرانَ التي ليسَتْ لها قيمةٌ: ((**إِنِّي سَمِعْتُ دَفَ نَعْلَيْكَ**)) اللهُ أَكْبَرُ! لَمْ يقلْ له: (ابن السَّوداء) يُقَالُ له: ((**سَمِعْتُ دَفَ نَعْلَيْكَ فِي الْجَنَّةِ**)) يُزَكِّيه أنَّه من أهل الجنَّة ويُزَكِّيه بهذه التَّزكية العظيمة أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يسمعُ دفَ نعليه، نبيُّ الأمةِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهذا بوحي الله؛ حتى يقتلَ في النُّفُوس هذه الأدرانَ، وهذا الاحتقارَ للنَّاس والازدراءَ لهم، نَعَمْ، إذا كان عاصيًا لله متمرِّدًا على الله من الذين كفُروا، وفجرُوا وفسقُوا، يلامُ بجميع ما فيه من النَّقائص، ولكن إذا كان مسلمًا استسلمَ لله، وأذعنَ للهِ فله حُرْمَةٌ ولا ينتقصُهُ، ((**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**))، فهذا من أدران الجاهلية.

ولَمَّا فتحَ اللهُ عليه مكةَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- لَمْ يقفْ عند هذا الحدِّ، ودخلَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- الكعبةَ، فأدخل معه أسامةَ بنَ زيدٍ وبلالاً -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَأَرْضَاهُمَا-، وكلاهما مَوْلًى، فبلالُ عَتِيْقُ أبي بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وأسامةُ، لَمْ يدخلْ أبا بكرٍ ولا عُمَرَ ولا أشرافَ قريشٍ، وإنَّما أدخلَ مَنْ هم من أشراف الإسلام؛ كُلُّهُ لقتل هذه الْمَعاني، لكنَّها لقومٍ يعقلون، ولنفوسٍ تعي، ولنفوسٍ تعقل. ولَمَّا بَعَثَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- إلى غزوة مؤتةَ جعفرَ بنَ أبي طالبٍ أَمَّرَ عليه زيدَ بنَ حارثةَ، وجعفرُ ابنُ عَمِّ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهو في مكانته من النَّسَبِ والحَسَبِ، فجعلَه تحتَ زيدٍ مَوْلًى من الْمَوَالي؛ كُلُّ هذا قتلاً لهذه الأدران، وهذه الْمَعاني البغيضة.

وأعظمُ ما تكونُ هذه الدَّعوى من دعاوى الجاهلية إذا كانت ممن ينتسبُ إلى الخير والاستقامة، فيجدُ أخوه الْمُسلِم منه احتقارًا؛ لكونه ليست عنده وظيفةٌ، أو ليس عنده حَسَبٌ أو نَسَبٌ بالْمَفهوم الذي

يفهمُهُ، فإذا دخل عليه من له تلك الأمور التي يراها عظيمةً أَجَلَّهُ وأَكْرَمَهُ، وإذا دخلَ عليه أخوه في الإسلام ووليُّ الله الْمُؤمنُ لَمْ يعبْهُ به، وهذا كُلُّهُ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ- مرضٌ في القلب ومن بقايا الجاهلية كما قال-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِنَّكَ امرُؤٌ فِيْكَ جَاهِلِيَّةٌ**)).

فنسألُ اللهَ بعزتِه وجلالِه أنْ يصلحَ فسادَ قلوبنا، وأنْ ينزعَ منها احتقارَ الْمُسلِمين، وأنْ يسلمَنا إلى محبتهم فيه، اللَّهُمَّ اجعلْنَا سِلمًا لِمَنْ سَالَمْتَ، حربًا لِمَنْ حَارَبْتَ، نحبُّ بحبِّك مَنْ أحببْتَ، ونعادي بعداوتك مَنْ عاديْتَ، يا سميعَ الدُّعاء.

قوله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**وَالْعَدْوَى**)) وهي انتقالُ الْمَرض من الْمُصاب إلى غيره.

((**وَالْعَدْوَى**)): جاءت فيها الأحاديثُ، وسيأتي -إِنْ شاءَ اللهُ- بيانُهَا في باب الطِّبِّ، ونشيرُ إجمالاً إلى الْمُرَاد بها أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنكر هنا ما كان عليه أهلُ الجاهلية من اعتقاد أنَّ العدوى تضرُّ بنفسها، وأنَّهَا مؤثرةٌ بنفسها.

ولذلك تجدُ الشَّخصَ إذا رأى مُصابًا ابتعدَ عنه، واعتقدَ أنَّ الابتعادَ هو الذي يُنَجِّيهِ، وليسَ اللهُ -جَلَّ جَلالُهُ-.

أمَّا إذا ابتعدَ أخذًا بالأسباب، وأخذاً بالسُّنَّةِ، كما ثبتَ في الصَّحِيحِ عن النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قال عن الطَّاعون: ((**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلا تَقْدُمُوا عَلَيهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ، فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا**)) قالوا: إنَّ هذا راجعٌ إلى الاعتقاد؛ لأنَّه إذا قَدِمَ إلى الأرض، وأصابَه الطَّاعونُ قال: (أصابني؛ لأنَّني قَدِمْتُ)، فجعل التَّأثيرَ للسَّبب.

وهكذا إذا خَرَجَ منها وهو فيها، ظَنَّ أنَّ نجاتَه بسبب الخروج لا باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا}** فاللهُ لا يُغَالَبُ، فإذا صار يعتقدُ في السَّبَبِ تأثيرًا، فهذا هو الْمُحَرَّمُ شرعًا، أنْ يعتقدَ أنَّ العدوى بنفسها مؤثرةٌ.

أمَّا إذا اعتقدَ أنَّ اللهَ هو الذي جعلَ فيها التَّأثيرَ، وأخذَ بالسَّبَب، ونجا من الْمَرضِ، فقال: (أنجاني اللهُ)، ولم يقلْ: (أنجاني البعدُ عن فلانٍ أو كذا)، فإنَّه حينئذٍ يكونُ على السَّنَنِ، فالأصلُ في العدوى أنَّهَا لا تؤثِّرُ بنفسها، وإنَّما تؤثِّرُ بتأثير الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهذا مُشاهدٌ.

ولذلك قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟**))، إذا كنتُم تقولون: إنَّ العدوى هي التي تؤثِّرُ، فمن الذي أعدى الأول؟ فدلَّ على أنَّ الْمَرضَ من الله -جَلَّ جَلالُهُ-، **بدليلِ**: أنَّه أصابَ أولَ البهائم التي انتقلَتْ منها العدوى، ولَمْ يكن ثم بَهِيمةٌ تُعدِيها، فدلَّ على أنَّ العدوى لا تؤثِّرُ

بنفسها، وأنَّ الْمُرَادَ أنْ يَسُلَّ من النُّفُوس اعتقادَ أنَّ العدوى مؤثِّرةٌ بنفسها.

وهذا هو معنى قولِه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا عَدْوَى، وَلا طِيَرَةَ**)) وأنَّ الْمُرَادَ أنْ يعتقدَ أنَّ العدوى بنفسها تضرُّ وتنفعُ في النَّجاة، وأمَّا إذا أخذ بأسبابها مستعينًا بالله، متوكلاً على الله، معتقدًا أنَّ السَّبَب لا يؤثِّرُ إلا بتأثير الله، فلا بأسَ، ولذلك قال: ((**فِرَّ مِنَ الْمَجْذُوْمِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ**))، والْمَجذومُ نوعٌ من الجَرَبِ، وهو الجُذَامُ، ويقعُ بالعدوى، فأثبت العدوى، وقال: ((**فِرَّ مِنَ المَجْذُوْمِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ**))، فدلَّ هذا على أنَّ الْمُرَادَ لا يرجعُ إلى الاعتقاد أنْ يعتقدَ أنَّ العدوى مؤثِّرةٌ بنفسها.

وأمَّا ((**الأَنْوَاءُ**)): فجمعُ نَوْءٍ، وهو كما فَسَّرَه النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، كانَتِ العربُ في الجاهلية إذا نزلَ الغيثُ قالوا: (مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، هذا سَعْدُ السُّعُودِ، وهذا سَعْدُ الذَّابِحِ)، وكما وقعَ من أصحابِ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يومَ الحديبية، فإنَّه لَمَّا صلَّى بهم الفجرَ، وكانوا على إثرِ سحابٍ، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بعد أنْ انفتلَ من الصَّلاة: ((**يَقُولُ اللهُ تعالى: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَهَذَا مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالنُّجُومِ، وَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَهَذَا مُؤْمِنٌ بِالأَنْوَاءِ، كَافِرٌ بِي**)).

وهذا يدلُّ على أنَّه لا يجوزُ نسبةُ التَّأثير لغير الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأنَّ الأنواءَ ليس عندَها خيرٌ ولا شرٌّ، وأنَّ الخيرَ والشَّرَّ كلَّه بيد الله -جَلَّ جَلالُهُ-، فمَنْ أرادَ اللهُ أنْ يرحَمَهُ فهو الْمَرحومُ، ومَنْ أراد اللهُ أنْ يُعَذِّبَهُ فهو الْمُعذَّبُ، يحكمُ ولا معقبَ لحكمه، ولا رادَّ لقضائه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- لا يستطيع أَحَدٌ، بل لا يستطيعُ الخلائقُ كلُّهم أنْ يَحُولُوا بين عبدٍ وبين أمر الله، إنَّ اللهَ لا يعجزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء.

ونسألُ اللهَ بعزتِه وجلالِه وعظمتِه وكمالِه أنْ يرزقَنا كمالَ الإيمان به، والتَّسليم له، على الوجه الذي يرضيه.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ.

رقم الدَّرس ٤١٦

الأربعاء ٢٢-٤-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ ما جاءَ في كراهيةِ البكاءِ على الميّتِ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا عبدُ اللهِ بنُ أبي زيادٍ قال: حدثنا يعقوبُ بنُ إبراهيمَ بنِ سعدٍ قال حدثنا أبي عن صالحِ بنِ كيسانَ عن الزُّهريّ عن سَالِمِ بنِ عبدِاللهِ عن أبِيهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال عمرُ بنُ الخطابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: قال رسولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**الميّتُ يعذَّبُ ببكاءِ أهلهِ عليهِ**)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن ابنِ عمرَ، وعمرانَ بنِ حصينٍ.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ عمرَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ الأتمانِ الأكملانِ على خير الله خلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ك ونهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ:

فقد ترجم الإمام الترمذي -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه الترجمة، والتي تتعلق بحكم البكاء على الميت.

وذَكَرَ هذا الحديث الشريف الذي يدلُّ على أنَّ الميت يعذب ببكاء أهله عليه، وقد تقدَّم معنا أنَّ هذا الحديث استشكلَه العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ-؛ لأنَّ أصول الشريعة تقتضي أنَّ الإنسانَ لا يُعَذَّبُ بذنب غيره، كما قال تعالى: **{وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}**، وقد بيَّنَّا وجهَ الجواب عن هذا الإشكال، وأنَّ هناك جوابين هما **من أقوى الأجوبة** في دفع هذا الإشكال:

إمَّا أن يكون الميت يعلم أنَّهم يفعلون ذلك، أو يوصي بذلك، وحينئذٍ لا إشكالَ إذا علم أنَّهم يفعلون، ولم ينهَهُم عن ذلك، وأقرهم عليه، فإنَّه بمثابة الفاعل لذلك الشيء، وحينئذٍ يُعَذَّبُ على ظاهر الحديث عذابًا حقيقيًّا يناسبُ ما يكون من هذا الجرم.

وأمَّا إذا أُخِذَ الحديثُ على معنى أنَّه يتألم، بمعنى أنَّ الله يُسْمِعُهُ بكاءَ أهله عليه، أو يُطْلِعُهُ الله على بكاء أهله عليه، فيتألم، والتألمُ نوعٌ من العذاب، وليس المراد به العذاب عذاب الإساءة والذنب فهناك فرقٌ بين عذاب الإساءة والذنب، وهو الذي دَلَّتِ الأصول على أنَّ العبدَ لا يُعَذَّبُ بذنبٍ غيره، وفَرْقٌ بين

هذا النوع من العذاب، وبين عذاب التألم، بمعنى أنَّه يُطْلِعُهُ الله بما هو أعلم به -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- كما ثبت في الحديث الصحيح حديث عبد الله بن رواحة في قصة عَمْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- لما كانت تندبه وتنوح عليه، فكان الملك يلكزه، ويقول له: أهكذا أنت؟ فكان يسمع مع أنَّه أغمي عليه، ولم يستطعِ الردَّ عليها.

على كلِّ حالٍ فظاهر هذا الحديث في قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الميتَ ليُعَذَّبُ ببكاءِ أهلهِ عليهِ**)) ظاهره العموم؛ لأنَّ قولَه: ((**إنَّ الميِّتَ**)) و((**الميتُ يعذَّبُ**)) يدلُّ على أنَّه يشمل الميتين من الكفار والمسلمين، وهذا فيه رَدٌّ على ما وَرَدَ عن أمِّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- حينما خطَّأتْ عبدَ الله بن عمرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- في روايته لهذا الحديث، وحملتْ حديث العذاب على نوعٍ خاصٍّ وهم الكفار، وبيَّنَتْ أنَّ سببَ وُرُوْدِ الحديث إنَّما هو في قصة اليهودي أو اليهودية، وأنَّ هذا خاصٌّ بالكفار، فلما قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الميت**)) فهذا عام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرَّرٌ في الأصول.

وبناء على ذلك ضُعِّفَ رَدُّ أمِّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- على عبد الله بن عمر، وتخطئتها له؛ لأنَّ الحديثَ لم يروه عبدُ الله بن عمر وحدَهُ، وإنَّما رواه أكثرُ من صحابي.

ولذلك قالوا: إنَّ حمل الحديث على العموم **أقوى** من حمله على الخصوص، وظاهر قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الميت**)) عامٌّ، شاملٌ لكل ميت، سواء كان من الكفار، أو من غير الكفار، ومن هنا يَتَوَجَهُ القولُ بأنَّ حديثَ ابن عمر ورواية ابن عمر **أرجحُ وأثبتُ**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد كَرِهَ قومٌ من أهلِ العلمِ البكاءَ على الميّتِ، قالوا: الميّتُ يعذَّبُ ببكاءِ أهلهِ عليهِ، وذَهبوا إلى هذا الحديثِ.

وقالَ ابنُ المباركِ: أرجو إنْ كانَ ينهاهُمْ في حياتهِ أنْ لا يكونَ عليهِ منْ ذلكَ شيءٌ.

الشرح:

حَكَى -رَحِمَهُ اللهُ- هذا القول الذي يقولُ بأنَّ الميتَ يُعَذَّبُ، وأَخذوا هذا من ظاهر الحديث، ولا يمكن حَمْلُ ذلك إلا على وجهٍ يتفقُ مع الأحاديث الأخر؛ لأنَّ الكلَّ خَرَجَ من مشكاةٍ واحدةٍ وهي مشكاةُ الوحي، والوحيُ لا يتعارضُ، ومن هنا لا يمكن أنَّ يقال: إنَّ الإنسانَ لا يُعَذَّبُ بفعلِ غيرِهِ وبذنبِ غيرِهِ، ثم يقال: إنَّ الميتَ يُعَذَّبُ بما يكون من إساءةٍ من غيرِهِ بالبكاء عليه.

ولذلك الجمع بين الحديثين على الوجه الذي ذكرناه **أقوى**.

والذين أخذوا بظاهر هذا الحديث هم الذين حَكَى عنهم المصنف -رَحِمَهُ اللهُ- هذا القول.

والذي يظهر -وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ- أنَّه لا يمكن حَمْلُ الحديث على ظاهره بأنَّه يُعَذَّبُ بذنب غيره؛ لأنَّ هذا معارضٌ لأحاديثَ أخر، وآيات أخر دَلَّتْ على أنَّه لا يمكن أن يكون العذابُ عذاب العقوبة بذنب الغير، ومن هنا يكون التأويل.

والتأويل عند علماء الأصول: "**صرفُ النَّصِّ عن ظاهرِهِ الرَّاجحِ إلى معناهُ المرجوحِ بدليلٍ من خارجِ النَّصِّ**".

فلما كان حَمْلُ الحديث على ظاهره يعارضُ النصوصَ صرفْنَا هذا الحديث عن ظاهره إلى معناه المرجوح، فقلنا: إنَّه يعذب عذابًا غيرَ عذاب العقوبة.

وحينئذٍ وجدْنَا السنة تدلُّ على ذلك، فإنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وَصَفَ العذابَ بالألم بكونه عذابًا شرعًا، فقال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ**)) فوَصَفَ السفرَ بكونه قطعةً من العذاب، فدلَّ على أنَّ الشرعَ يطلقُ لفظَ العذاب، ويريدُ به العقوبة، ويريدُ به غير العقوبة، وحينئذٍ يكون تألُّمُهُ نوعًا من العذاب، وهذا هو المرادُ إن كان الحديث على ظاهره من أنَّه يُعَذَّبُ، فيُحْمَلُ على عذاب الألم، لا على عذاب العقوبة، كما حكاه الإمامُ ابنُ القيم -رَحِمَهُ اللهُ- عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو قولُ بعض المحقِّقين -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

وإذا حُمِلَ على هذا الوجه لم يكن هناك تعارضٌ.

أو يكون كما حَمَلَهُ ابنُ المباركِ -رَحِمَهُ اللهُ- القول الذي حكاه عنه الإمام الترمذي بصرف الحديث من وجه آخر: وهو أن يكون يعلم بأنَّهم يفعلون ذلك، فلا ينهاهم، فقال: إنَّه إن نَهَاهم أرجو أنَّه لا يعذب. وهذا يدلُّ على أنَّه فيمن يعلم، أو يغلب على ظنِّه أنَّهم سيفعلون به ذلك.

وكيف يغلبُ على ظنِّهِ؟

يغلب على ظنه حينما يرى قرابته إذا مات فيهم الميت صاحوا عليه، وبكوا عليه، وأكثروا من البكاء، فحينئذٍ الذي هو على وجهٍ غير مشروعٍ، وحينئذٍ تكون غلبة الظن بأنَّه إذا مات فعلوا به كما فعلوا بغيره، فهذا هو ديدنُهم، فإذا كان ديدنًا لهم، وكانوا معروفين بذلك، واطَّلَعَ على ذلك منهم، أو أخبروه أنَّهم سيفعلون ذلك، فأقرَّهم، ولم ينكرْ، فحينئذٍ يمكن حمل الحديث على عذاب العقوبة؛ لأنَّه شاركهم، **بشرط**: أن يكون بكاؤهم على الوجه المذموم شرعًا.

أمَّا إذا كان بكاءهم على السنن، فبالغوا فيه، فحينئذٍ لا إشكال أنَّه إلى عذاب الألم أقربُ منه إلى عذاب العقوبة.

وقالَ ابنُ المباركِ: أرجو إنْ كانَ ينهاهُمْ في حياتهِ أنْ لا يكونَ عليهِ منْ ذلكَ شيءٌ.

الشرح:

((**أرجو**)): وهذا هو أدبُ السلف -رَحِمَهُمُ اللهُ- في الأمور الغيبية أنَّهم لا يقطعون في الحكم، أنَّه ينبغي لكل من يفتي، وكل من يُعَلِّمُ الناسَ، أن يقف عند الحدود الشرعية، وأن يَعْلَمَ أنَّه جاهل إلا أن يعلمه الله، وأنَّه ينبغي عليه أن لا يتكلم إلا في حدود ما علمه الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

ما قَطَعَ -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ-، ما قَطَعَ، قال: ((**أرجو**))، ولو وقف بين يد الله، وسأله، قال: (يا ربِّ، رجوتُ أنَّك لا تعذبُهُ)، ولا يتحمل من تبعة غيره شيئًا، وهذا يدلُّ على علم السلف، وهذا هو العلم والله، العلمُ الحقُّ هو علم الخشية، الذي يورثُ الإنسانَ الخشية من الله، فلا يقولُ إلا في حدود ما وَرَدَ، ولا يتقدَّم ولا يتأخر إلا عنده حجة وبرهان، ثم لا يغشَّ عامة المسلمين وعموم الأمة، فلا يَقْطَعُ لهم فيما لا يُقْطَعُ به، وإنَّما يقولُ الكلامَ الذي يقوم فيه بحق الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ومن حق الله أنَّ الناسَ تشعرُ بعظمة هذا الشرع، وعظمة هذا الدين، وأنَّه ليس نُهْبَةً لكلِّ أحدٍ يتكلم بما شاء، ويقطع

بما شاء، أين الذين يقفون عند موت قرابتهم وموت العظماء والصلحاء فيجزمون لهم بالجنة، ويجزمون لهم بالفردوس، ويجزمون لهم بالنعيم؟! وهذا كلُّه لا شَكَّ أنَّه مَهْلَكَة على صاحبه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

إذا أَرَادَ الإنسانُ أن يتكلمَ في أمرٍ غيبيٍّ فليلجمْ لسانه، ولا يتكلمْ إلا في حدود الوارد.

فالله، ثم والله، لقد أدركنا من علمائنا ومشايخنا من يتغير وجهه، ويمتقع لونه، ويتغير حاله، إذا سُئِلَ عن مسائل تتعلق بالغيبيات، أو بأمور القبر، أو بأحوال الناس بعد موتِهم، لا يتكلمون إلا في حدود الوارد، شَاءَ مَنْ شَاءَ، وأبى من أبى، ويأتي العوام، ويحرجونهم بالأسئلة، فتجدهم لا يزيدون العوامَ إلا خوفًا من الله، وخشيةً لله، حتى إنَّ الجواب لا يحمل شفاء الغليل -كما يقولون- في المسألة، ولكنه يحمل بين طياته من علم الخوف من الله، والخشية من الله، والخشية لله سبحانه ما هو أكثر بكثير من الجواب، وهذه هي النصيحة لعامة المسلمين، ولو أنَّ كل من تكلم من العلماء وطلبة العلم والمفتين والمعلمين، لو أنَّهم إذا تكلموا عَرَّفُوا الناس، وعلَّمُوا الناس بحق الله -جَلَّ جَلالُهُ-، وعلَّمُوهم حقَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-فيما كان من خصوصياته -جَلَّ جَلالُهُ-، ويختص به من علم الغيب الذي استأثر به، لكان في ذلك الخير الكثير للأمة.

نسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يرزقنا خشيته في الغيب والشهادة، وأن يجعلنا وَقَّافِيْنَ عند حدوده، لا نقول عليه بدون علمٍ، والله تعالى أعلم.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا عَلِيُّ بنُ حجرٍ، قال أخبرنا مُحَمَّدُ بنُ عمَّارٍ قال حدثَّني أسيدُ بنُ أبي أسيدٍ عن موسى بنِ أبي موسى الأشعريِّ أخبرهُ عن أبِيهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أنَّ رسولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**ما منْ ميّتٍ يموتُ، فيقومُ باكيهِ فيقولُ: وا جبلاهُ، وا سيداهُ أو نحو ذلكَ، إلاَّ وُكِّلَ بهِ ملكانٍ يلهزانهِ: أهكذا كُنتَ؟**)).

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

الشرح:

ذَكَرَ المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الحديث الذي يدلُّ على أنَّ النياحةَ لا يجوزُ فعلُها، فقد تقدَّم معنا بيانُ النصوص التي تدلُّ على تحريمها، وأنَّها من كبائر الذنوب.

((**وا جبلاهُ، وا سيداهُ**)): هذه كلماتٌ كانت تقال عند وفاة الميت، ويعظِّمون بها شأن الميت وكان الناس في جاهليتهم الجهلاء، وضلالتهم العمياء، ينوحون على موتاهم، ويندبونَهم بالمآثر فحرَّم الله ورسولُه ذلك، فالتزكية والمدح مَقْتَلَةٌ ومَهْلَكَةٌ للحي والميت، ومع أنَّ الميت لمْ يقلْ ذلك، فأصبح يُلْهَز، **واللَّهْزُ**: هو الدفع، قيل: نوعٌ من الدفع يصل إلى وصف الضرب، كأنَّه يُضرَب: (أهكذا كنت)، **والأقوى** أنَّه نوع من الدفع، يدفع، ويقال له: (أهكذا كنت).

وهذا الحديث أصحُّ منه حديث عَمْرَةَ مع عبد الله بن رواحة في صحيح البخاري، وقد تقدَّمت الإشارة إليه، وكلا الحديثين يدلُّ دِلالة واضحة على أنَّ المدحَ والتزكيةَ والإطراءَ للموتى أنَّه لا يخلو من تبعةٍ وعناءٍ على الميت، ولهذا ينبغي على أهل الميت أن يتقوا الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وأن يشتغلوا بما هو أهم.

والأهم نَبَّهَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عليه كما ثبت في الحديث الصحيح أنَّه دَخَلَ على أبي سلمةَ حين فاضت روحه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، فسمع صوتًا في البيت، فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- : ((**لا تقولوا إلا خيرًا؛ فإنَّ الملائكةَ تُؤَمِّنُ على ما تقولون**))، ثم قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**اللهم، اغفرْ لأبي سلمة، وارفعْ درجتَه في المهديين، واخلفْه في عقبه في الغابرين، واغفرْ لنا وله يا ربَّ العالمين، وافسحْ له في قبره، ونوِّرْ له فيه**)).

هذا هو الأهم الذي يُشتغَلُ به: الترحم على الميت، والدعاء له، والاستغفار له، هذا هو الذي ينفعُهُ.

وأمَّا (وا جبلاه، وا سيداه، يا كافل اليتامى، يا أبا الأيتام، أبا الأرامل، يا كذا)، المدح مَهْلَكَةٌ، ولذلك قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: **{فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى}**.

وأسعد الناس مَنْ صَرَفَ اللهُ عنه تزكيةَ الناس بالإطراء في وجههم.

وأسعد الناس مَنْ حَفِظَ لسانَه عن مدح الغير، إلا عند الحاجة والضرورة؛ لأنَّ اللهَ نَهَاهُ، فقال: **{فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}**.

التزكيةُ بلاءٌ وشقاءٌ وعناءٌ ومَهْلَكَةٌ، ليتركْ الناس لربِهم -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، هو المطلع على ضمائرهم، العليم سبحانه بما أرادوا به، وقصدوا به من أقوالهم وأعمالهم، فلا يجوز للمسلم أن يقحم نفسه في هذه الأمور من التزكية والمدح والإطراء، خاصةً إذا كان هذا على سبيل التنافس، فإنَّ الناسَ يغارُ بعضُهم من بعض، فإذا حضروا جنازة لفلان يقال له: (يا كذا، وكذا)، قالوا: (كيف لا نقولُ لميتنا، وميتُنا أفضلُ من فلان) وأخذوا يمدحونه، ويطرونه، فيتنافسون، وتأتي النَّعَرَات والعصبيات التي هي أنتن ما تكون، وأهلك ما تكون لأهلها -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، فحرَّم الله ورسوله هذا، وحذَّر الله عباده المؤمنين بسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديه.

فينبغي على طلبة العلم وعلى الخطباء أن يوجهوا الناس إلى السنة، وأن يعلموهم في خُطُبِ الجُمَع ونحوها هديَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الميت قبل احتضاره، وعند احتضاره إذا نزل به أمر الله، وما الذي ينبغي عليهم أن يقولوه، وما الذي ينبغي عليهم أن يعتقدوه أيضًا في حقِّ الميت، فلا يعتقدوا أنَّه من أهل الجنة، ولا يعتقدوا أنَّه من أهل النار، إلا ما دلَّ الشرع بدليله على أنَّ فلانًا من أهل الجنة أو أنَّه من أهل النار، فلا يشهدُ لأحدٍ بجنةٍ ولا نارٍ، ولكن يرجى للمحسن الخيرَ والبرَ؛ لأنَّه لا أوفى من الله، ويرجى للمسيء من المسلمين العفو والغفران، ويُشتَغَلُ بما هو أهم، من الدعاء، والترحم، ومسامحته في ذنبه، وذكر محاسنه، والكفّ عن مساوئه، ونحو ذلك مما ثبت به السنة الصحيحة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ومن اتَّبع هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنته في الموتى وَجَدَهُ أكمل الهدي وأفضله، هذا الهدي المبارك الذي فيه خيرٌ للموتى، وخيرٌ لأهل الموتى، وخيرٌ للناس، وفيه الخيرُ للمسلمين في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

نسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يرزقَنا التمسكَ بالسنة عند فساد الأمة، وأن يثبتَنا عليها على الوجه الذي يرضيه.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ ما جاءَ في الرخصةِ في البكاءِ على الميّتِ]**

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حَدَّثنا قُتَيبَةُ قال حدثنا عبادُ بنُ عبادٍ المهلّبيُّ عن مُحَمَّدِ بنِ عمرٍو عن يحيى بنِ عبدِالرحمن عن ابنِ عمرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**الميّتُ يعذَّبُ ببكاءِ أهلهِ عليهِ**)) فقالتْ عائشةُ: يرحَمُهُ اللهُ، لم يكذبْ، ولكنَّهُ وَهِمَ، إنمَّا قال رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لرجلٍ ماتَ يهوديًّا: ((**إنَّ الميّتَ ليعذَّبُ، وإنَّ أهلَهُ ليبكونَ عليهِ**)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن ابنِ عبَّاسٍ، وقَرَظةَ بنِ كعبٍ، وأبي هُريرَةَ، وابنِ مسعودٍ وأسامةَ بنِ زيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جَمِيعًا-.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: حديثُ عائشةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشرح:

ذَكَرَ المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- هذه الترجمة، والتي تتعلق بالرخصة بالبكاء على الميت.

والرخصة تكون بعد العزيمة، سواء كانت العزيمة بالأمر، أو كانت بالنهي.

ويترجم العلماء بالرخص بعد ذكر العزائم، ولذلك تجد تراجم أئمة الحديث في أبوابهم أنَّهم يذكرون النهي، ثم يذكرون ما يدلُّ على الرخصة فيه.

أو يذكرون الوجوب واللزوم، ثم يذكرون ما يدلُّ على التوسعة والرخصة في الترك.

في هذا الحديث الوارد عن أمِّ المؤمنين عائشة بيانٌ لسببِ وُرُودِ الحديث، والأحاديث تَرِدُ بأسبابٍ، وبدون أسبابٍ، حتى أَلَّفَ بعضُ العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- كتبًا متخصصةً، وَوَصَفُوهَا بـ(**أسباب وُرُودِ الحديثِ**).

وهذه الأسباب تأتي على صورتين:

الصورة الأولى: أن تكون مقيّدة لمطلق الحديث الوارد، **وتارةً** تكون غير مقيّدة لمطلقه.

فإذا كانت من النوع الأول المقيّد لمطلق الحديث، أو المخصِّص لعمومه: فلا إشكال.

وأمَّا إذا كانت الأسباب غير مقيّدة، وغير مخصِّصة: فحينئذٍ تكونُ العبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والصحابةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- والعلماءُ من بعدهم كما قَرَّرَ أئمةُ العلم اختلفوا في أحكام المسائل بسبب اختلافهم في بعض الأحاديث لورود أسبابِها.

فعلى سبيل المثال: قد يَعترِض الصحابيُّ على الصحابي أن يأخذَ بعموم الحديث؛ لأنَّه يرى أنَّ سببَ ورود الحديث يقتضي التخصيص.

ومن أمثلة ذلك: ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من حديث عبد الله بن عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**أنَّ النبيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **نَهَى عن بيعِ الثمرةِ قبلَ بدوِّ صلاحِها**)).

وكذلك حديث أنسٍ في الصحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أنَّه نَهَى عن بيعِ الثمرةِ حتى تُشْقِحَ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما تُشْقِحُ؟ قال: تَحْمَارُّ أو تَصْفَارُّ**)).

هذا النهي ظاهره العموم، فلما بلغ زيدَ بن ثابت -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كما في السُّنَن النهي، قال: ((**أنا أعلمُ بالحديث منكم، كَانَ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ الثِّمَارَ قَبْلَ أَنْ يَبْدُوَ صَلاَحُهَا، فَإِذَا جَدَّ النَّاسُ، وَحَضَرَ تَقَاضِيهِمْ قَالَ الْمُبْتَاعُ: قَدْ أَصَابَ الثَّمَرَ الدُّمَانُ، وَأَصَابَهُ قُشَامٌ، وَأَصَابَهُ مُرَاضٌ، عَاهَاتٌ يَحْتَجُّونَ بِهَا، فَلَمَّا كَثُرَتْ خُصُومَتُهُمْ عِنْدَ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **كَالْمَشُورَةِ يُشِيرُ بِهَا: ((فَإِمَّا لاَ، فَلاَ تَتَبَايَعُوا الثَّمَرَةَ حَتَّى يَبْدُوَ صَلاَحُهَا))** .

ففسَّر هذا السبب بأنَّه واردٌ بسبب الخصومة، لا بسبب خوف فساد الثمرة، وإذا قيل بسبب الخصومة فهذا شيءٌ، وإذا قيل بسبب خوف فساد الثمرة هذا شيءٌ آخر.

والذي يرجّحُ أنَّه لخوف فساد الثمرة، ويُضَعِّفُ سببَ ورودِ الحديثِ أن يكون مقيّدًا حديثُ أنسٍ أيضًا في الصحيح أنَّه قال: قال رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بعد نَهيه عن بيع الثمرة قبل بدوِّ صلاحها، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أرأيتَ لو مَنَعَ اللهُ الثمرةَ عن أخيك، فبِمَ تستحلُّ أَكْلَ مَالِهِ؟**))؛ فدلَّ على أنَّ العلةَ خوفُ فساد الثمرة.

وجاءت هذه العلةُ منصوصًا عليها من قول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ فدلَّ على أنَّ زيدًا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فَهِمَ فهمًا يدلُّ على تخصيص العموم، مع أنَّ ظاهرَ السنة العموم، وحينئذٍ يُقَدَّمُ لفظُ الحديثِ الدالِّ على العموم ويسقط السبب، ويكون ما وَرَدَ من السبب فَرْدًا من أفراد الأسباب الموجبة للتحريم، فهناك سببٌ من جهة خوف الغرر لفساد الثمرة، وأنَّ الغرر من عادته أنَّه يوجبُ الشحناء والخصومة، وحينئذٍ لا يقتضي هذا السبب تخصيصَ الحكم به.

هذا بالنسبة لاعتراض الصحابي على الصحابي إذا رَوَى عمومًا، وفَسَّرَهُ الصحابيُّ بسببٍ يقتضي تخصيص عمومه، أو تقيد مطلقه.

أمَّا إذا رَوَى الصحابيُّ وفَسَّرَ الحديثَ على عمومه، وبَيَّنَ أنَّه وإن كان وَرَدَ في صحابيٍّ بخصوصه أنَّ المراد به العموم، فلا إشكال في هذا النوع.

ومنه: ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عُجْرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- أنَّه قال في الفدية لما سُئِلَ عنها، عن آية الفِدْية، قال: ((**نزلتْ فيَّ خاصة، وهي لكم عامة، حُمِلْتُ إلى رسول الله** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **والقملُ يتناثرُ على وجْهِي، فقال: ما كنتُ أَرَى أن يبلغَ بِكَ الجَهْدُ ما أرى**.....)) الحديث.

فحالةُ كعبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حالةٌ شديدةٌ، ولكنه قال: ((**نزلتْ فيَّ خاصة، وهي لكم عامة**))، فلم يخصِّصْ عموم الحديث.

قد يفسر الصحابي النهي تفسيرًا يُعْمَلُ به، ويكون دَالاً على معنى تقتضيه الأصول الشرعية، وهذا يكون ضربًا من الضروب أو نوعًا من الأنواع التي تندرج تحت العموم المقتضي للتحريم.

ومن أمثلة ذلك: نَهْيُه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عن المُخَابَرَة، هذا النهي وَرَدَ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نهيه عن المخابرة: وهي استئجار الأرض للزرع، فقد فسَّره أبو رافع -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- وقال: ((**إِنَّمَا كَانَ النَّاسُ يُؤَاجِرُونَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **عَلَى الْمَاذِيَانَاتِ وَأَقْبَالِ الْجَدَاوِلِ وَأَشْيَاءَ مِنَ الزَّرْعِ، فَيَهْلِكُ هَذَا، وَيَسْلَمُ هَذَا، وَيَسْلَمُ هَذَا، وَيَهْلِكُ هَذَا، فَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ كِرَاءٌ إِلاَّ هَذَا فنهى النبيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **عن ذلك**)).

توضيح هذا: أنَّه ثبت في الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من حديث جابر بن عبد الله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**أنَّه نَهَى عن إجارةِ الأرضِ**))، أي أن يستأجرَ الرجلُ الأرضَ ليزرعَها، فعندك أرضٌ تصلح للزراعة، فيأتي شخص ويقول: (أريد أن أستأجر منك هذه الأرض سنة)، فيدفع لك قيمة الأرض، ثم يستأجرها سنة، يضع فيها حبوبًا، ويزرعها بالحب، ويأخذ النِّتَاج ويبيعه. ظاهر حديث جابر بن عبد الله: ((**نَهَى عن كِرَاء المزارع**)) أنَّ التحريم عام.

وظاهر حديث أبي رافع أنَّ التحريم وَرَدَ بصورةٍ خاصةٍ تقتضي الأصول تحريمها، فقال: ((**إنَّما كانوا يُؤاجرون على الْمَاذِيَانَاتِ وأَقْبَالِ الجداولِ**))، كان الرجل إذا جاء يستأجر يقول له صاحبُ الأرض: (أستثني ما هو قريب من الماء، الماذيانات، وأقبال الجداول، جدول الماء)؛ لأنَّه إذا كان قريبًا من الماء

فإنَّه يعيش، وأمَّا إذا كان بعيدًا فالغالب أنَّه يهلك، أو يكون النِّتَاج ضعيفًا، فإذا قال له: (أُؤجِرُكَ ما بعد الماذيانات، وما بعد أقبال الجداول) فقد غرَّرَ به، حينئذٍ قال أبو رافع: ((**فيسلمُ هذا**)) أي الذي لصاحب الأرض، ((**ويهلكُ هذا**))، أي الذي للمستأجر فيكون قد ظلمه بدفع الأجرة بدون فائدة .

فقال -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**وأمَّا ما كان بشيءٍ معلومٍ، فلا بأسَ به**))، بمعنى أنَّه إذا كان قال له: (أَجِّرْنِي أرضَك بعشرة آلاف ريال، بخمسة آلاف ريال) فلا بأسَ به، ولا حرجَ.

لكن إذا كان مخابرةً، المخابرةُ: من الخَبْر، وهي الأرض، أن يكريه الأرض بجزءٍ مما يخرج منها فيقول له: (أؤجِّرُكَ هذه الأرض فتزرعها، فما كان بجوار الجدول من زرعك آخذه أنا -صاحب الأرض-، وما كان بعيدًا فأنت الذي تأخذه)، فحينئذٍ يسلم هذا، ويهلك هذا، فقال: ((**وأمَّا ما كان بشيءٍ معلومٍ فلا بأسَ به**))، **هذا وجه.**

الوجه الثاني: أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَهَى عن كراء المزارع، وهذا النهي عام، وأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إنَّما نَهَى عن ذلك حينما أتى المهاجرون إلى المدينة، وكانت فيهم حاجة، فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**علامَ يُؤَجِّرُ أحدُكُم أخاهُ**))، وهذا نوعٌ من المواساة في حالٍ مخصوصٍ، كما: ((**نَهَى عن ادِّخَارِ لحومِ الأضاحي مِنْ أَجْلِ الدَّافةِ**)) فكان الورودُ لسببٍ مخصوصٍ، مع أنَّ لفظَ الحديث في النهي عن كراءِ المزارعِ عامٌّ.

فالشاهد من هذا: أنَّ حديث: ((**إنَّ الميتَ يُعذَبُ ببكاءِ أهلِهِ عليهِ**)) في تفسير أمُّ المؤمنين عائشة ما يدلُّ على التخصيص، فهل نأخذُ بهذا التخصيص من الصحابي، أو نأخذُ بعموم اللفظ الوارد عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟

فهل نأخذُ بهذا التخصيص الذي تقول به أمُّ المؤمنين -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- الوارد لسببٍ مخصوصٍ، ونُخَصِّصُ الحديثَ به، أم نقولُ: إنَّ العبرةَ بعموم اللفظ، وليس خاصًّا؟ فأمُّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- لما وجدَتْ أنَّ هذا كافر وغير مسلم استقامَ أن يُعذَّبَ ببكاء أهله عليه.

<u>والذي يظهر</u> -وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ- أنَّ المعنى موجودٌ؛ لأنَّه ولو كان كافرًا فلا يعذبُ بذنبِ غيرِهِ كما قال الله تعالى: **{وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}** فهذا شاملٌ للكفار والمسلمين، فالإشكال لا يزال باقيًا، ومن هنا ضَعُفَ استدراكُ أمِّ المؤمنين عائشة، وهذا الحديث من الأحاديث التي يصفُها العلماء بـ(**استدراكات أمِّ المؤمنين عائشة**)، وألَّف فيها الإمام الزركشي -رَحِمَهُ اللهُ- كتابًا: (**استدراكات أمِّ**

المؤمنين عائشة على الصحابة –رَضِيَ اللهُ عَنْهُم–)، منها هذا الحديث، فهذا الحديث استدركتْهُ أمُّ المؤمنين عائشة على غيرها، لكن الإشكال أنَّ الحديث لمْ يَرِدْ عن ابن عمرَ وحدَهُ، وإنَّما وَرَدَ عن أكثر من صحابي –رَضِيَ اللهُ عَنِ الجَمِيعِ–، فحينئذٍ يضعف استدراكُها.

وقولها: ((**رَحِمَ اللهُ أبا عبدِالرحمن، مَا كَذَبَ، ولكنْ وَهِمَ**)) هذا يدلُّ على أنَّها فهمَتْ من الحديث ما لمْ يفهمْهُ عبدُ الله بنُ عمرَ وفهمه جمهورُ الصحابة.

والذي يترجح –وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ– أنَّ ما أَخَذَ به جمهورُ الصحابة أقوى، وأنَّ الحديث دَالٌّ على الميتَ يُعَذَّبُ ببكاء أهلِهِ عليه، ولكن يُحمَل على أحد الوجهين الذين سبق التنبيهُ عليهما.

قال –رَحِمَهُ اللهُ–: وقد رُوِيَ من غيرِ وجهٍ عن عائشةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا–.

وقد ذهبَ أهلِ العلمِ إلى هذا، وتَأَوَّلوا هذهِ الآية: **{وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}**، وهو قولُ الشَّافِعِيّ.

الشرح:

((**وهو قولُ الشَّافِعِيّ**)): وجمهور العلماء على أنَّ الحديثَ ليس على ظاهره، وكثيرٌ من شُرَّاح الحديث يميلون إلى تأويل الحديث.

والتأويل كما ذكرنا: "**صرفُ النَّصِ عن ظاهرِهِ الرَّاجحِ إلى معناهُ المرجوحِ بدليلٍ من خارجِ النَّصِ**".

وهو ينقسم إلى قسمين: تأويل محمود، وتأويل مذموم.

فأمَّا التأويل المحمود: فهو الذي يجتهد فيه المجتهد، إن أصاب كان له أجران، وإن أخطأ كان له أجرٌ واحدٌ، فيُعْمِلُ النصوصَ بالنصوصِ في صرف النص، ودفع التعارض بين الأحاديث والآيات وبين الآيات والأحاديث من وجهٍ آخر، فهذا إذا كان مبنيًّا على دليلٍ شرعيٍّ فهو التأويل المحمود الذي يُؤجرَ صاحبه، أصاب أو أخطأ.

وأمَّا التأويل المذموم: فهو حمل نصوص الكتاب والسنة على الأوجه التي تُبْنَى على الهوى، وعلى الرأي الفاسد، كتفسير القرآن بغير الأصول المعتبرة في التفسير، وحَمْلُهُ على غير المحمل، وتأويلُهُ على غير الوجه المعتبر، كقول بعض الرافضة–عَلَيهِم مِنَ اللهِ مَا يَسْتَحِقُّونَ–: **{يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}** أنَّ الجبت أبو بكر، والطاغوت عمر –لَعَنَهُمُ اللهُ–، فهذا التفسير وهذا التأويل لَعَنَ الله من قاله ومن سوَّغَهُ، هذا لاشك أنَّه إجرامٌ عظيمٌ في الشيخين، وهما من زَكَّاهم الشرعُ وشهد الله من فوق سبع

سنوات بتقواهم، قال تعالى: **{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}** وهو أبو بكر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

فهذا التأويل فاسدٌ، ومذمومٌ شرعًا، وغيرُ مقبولٍ، فحَمْلُ النصوص وَلِيُّ النصوص عن دلالتها والخروج بها عن السنن، صاحبُه صاحبُ هوى وضلالة -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ-، لا يُقبَل التأويل إلا من عَالِمٍ، ولا يُقبَل إلا بدليلٍ وأمارةٍ تدلُّ على أنَّ هذا التأويل مبنيٌّ على الأصول الشرعية المعتبرة.

في هذا الأثر الذي ذكره عن أم المؤمنين عائشة: ((**رَحِمَ اللهُ أبا عبدِالرحمن**))، وقد قالت هذا في غير ما موضع، نوعٌ من الأدب؛ لأنَّه كان الصحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- ولا يزالون قدوةً لهذه الأئمة، وقد زَكَّاهم النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذه القدوة، فقال: ((**هي التي تكونُ على مثلِ ما أنا عليه وأصحابي**))، فكان أصحاب رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- سيماهم وشعارهم الأدب؛ لأنَّ الله ورسولَه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أدبَهم فأُحْسِنَ تأديبُهم -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

ولذلك قال الإمام الشاطبي: (إنَّ الله اختار لخيرته من الأنبياء خيرَ صحبٍ صَحِبُوا نبيًّا) أي أنَّ الصحابة أفضلُ من الحواريين، وأفضلُ من أصحاب الأنبياء الأخر؛ لشرف صحبة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وقد اختارهم الله لنبيه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

فلذلك تجد هذه المواقف المحمودة التي ينبغي لخلف الأئمة أن يأتسوا فيها بسلف الأمة، أنَّ العلماء وأهل العلم إذا حَصَلَ بينهم اختلافٌ عليهم أن يختاروا الألفاظَ التي لا تُفْسِدُ العامةَ على الخاصة، فقالت -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**رَحِمَ اللهُ أبا عبدِالرحمن**)).

وهنا قالت: ((**رَحِمَهُ اللهُ، مَا كَذَبَ**))، ((**مَا كَذَبَ**)) زَكَّتْهُ ((**ولكنْ وَهِمَ**)) فالتَمَسَتْ له العذرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- بما تظن أنَّه خطأ، وهذا يدلُّ على أنَّه ينبغي للمسلم فضلاً عن طالب العلم فضلاً على العَالِمِ أن لا يعجلَ في اتهام غيره، وحمله على أسوء المحامل، وأنَّه ينبغي أن يحمله على أفضل المحامل؛ لأنَّ الظنَّ في أهل العلم والمنتسبين للعلم أنَّهم يريدون الخير للأمة، وأنَّهم يريدون النصيحة للأمة كما هو الظن بهم، نحسبهم، ولا نزكيهم على الله.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا عَلِيُّ بنُ خشرمٍ قال: أخبرنا عيسى بنُ يونسَ عن ابنِ أبي ليلى عن عطاءٍ عن جابرِ بنِ عبدِاللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: أخذَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بيدِ عبدِالرحمن بنِ عوفٍ، فانطلقَ بهِ إلى ابنهِ إبراهيمَ، فَوَجَدهُ يجودُ بنفسهِ، فأخذهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فوضعهُ في حجرهِ، فبكَى، فقالَ لهُ عبدُ الرَّحمَنِ: أتبكي؟ أولم تكُنْ نَهَيْتَ عن البكاءِ؟ قال: ((**لا، ولكِن نَهَيْتُ عن صوتينِ أحمقينِ فاجرينِ: صوتٍ عندَ مُصيبةٍ، خمشِ وجوهٍ، وشقِ جيوبٍ، ورنَّةِ الشَّيطانِ**))

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي الحديثِ كلامٌ أكثرُ منْ هذا.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشرح:

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: ((**عن جابرِ بنِ عبدِاللهِ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **قال: أخذَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **بيدِ عبدِالرحمن بنِ عوفٍ**)).

((**أخذَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **بيدِ عبدِالرحمن بنِ عوفٍ**)):وكان شأنه-عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في بعض المواقف أنَّه يأخذُ بعضَ الصحابة، ويشهدُها مع بعض أصحابه -رضي الله عنهم وأرضاهم- ، والإنسانُ من طبعه كبشرٍ يقوى بأخيه، وخصَّ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عبدَالرحمن بن عوف -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بهذه الخصيصة، وهو أحدُ الصحابة الأجلاء -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وهذا يدلُّ على عُلُوِ منـــزلته ومكانته؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أشهدَه هذا الموقف؛ لأنَّ مواقف الحزن لا يُشْـــهِدُ الإنســـانُ فيها إلا أعزَّ الناس عليه ويكون أبعد ما يكون عن العدوّ، وأقرب ما يكون إلى الصديق، كما قال أبو ذؤيبٍ الهذلي:

وتجلدِي للشامتين أُرِيْهُمُ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ

فعند المصائب يتجلدُ الإنسانُ للشامتين والحاسدين، ويتغيبُ عنهم، إذا كان ثَمَّ شيء لا يحب أن يشهدوه ولا يروه؛ لأنَّها شماتة الأعداء، وهي التي تعوَّذ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وأمر الأمةَ أن يتعوذوا الله منها: ((**تعوَّذُوا باللهِ من جَهْدِ البلاءِ، ودَرَكِ الشقاءِ، ومن شماتةِ الأعداءِ**)) فأمرنا أن نتعوذ بالله من شماتة الأعداء.

فلذلك في المواقف الصعبة لا يشهدُ الإنسانُ عدوَّهُ، وإنَّما يشهد وليه، ويشهد أقرب الناس إليه، فأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

((**فانطلقَ بهِ إلى ابنهِ إبراهيمَ**)): وقد جاء في الحديث في الصحيح أنَّه أرسلتْ إليه ماريةُ أنَّها تريده أن يشهدَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وكان جالسًا مع أصحابه، وهو الحديث المشهور قال: ((**مُرْها فلتصبرْ، ولتحتسبْ، إنَّ لله ما أعطى، وله ما أخذ، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ، فمرها فلتصبرْ، ولتحتسبْ**)) فأرسلتْ إليه، وأصرَّتْ أن يشهدَ، وهذا عندما قعقعتْ نفسُ إبراهيم واشتدَّ به نزعُهُ، كانت أمُّهُ ماريةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- تحبُّ أن يشهدَهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهذا من نصيحةِ الأمِّ لولدها أن يكون معه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فينالُه الخيرُ من دعاء النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ورحمته، ولمْ يشهدِ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مباشرة، فقد كان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- حليمًا رحيمًا رقيقَ القلبَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فكونه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما في الصحيحين عندما دُعِيَ المرة الأولى لمْ يشهدْ، يكون لغلبة رحمته وشفقته، والذي تريده من دعائه وترحمه على ولده -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- حاصلٌ، ولذلك إذا حصل المقصودُ سواءً شَهِدَ أو لمْ يشهدْ، فيكون امتناعُهُ من الشهادة -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- للمعنى الذي ذكرناه: كمال شفقته ورحمته.

ولذلك لما وضع في حَجْرِهِ وحِجْرِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، **وهما لغتان**: الحَجْر، والحِجْر.

وأصل الحِجْر: المنع؛ لأنَّه إذا وُضِعَ الشيءُ فيه مُنِعَ من السقوط، فَوَضَعَ إبراهيمَ في حَجْرِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-فلما رآه بحاله دمعت عيناه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ولمْ يتمالكْ نفسه -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، حَبَسَ حزنَهُ، فلما رآه كان منه ما كان من كمال شفقته، ولذلك لما صَدَرَ منه ذلك، قال له عبدالرحمن بن عوف -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أتبكي؟ وقد كُنْت نهيتَ عن البكاءِ**)) -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، فبين -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما جاء في الصحيح: ((**أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَإِنَّمَا يُعَذِّبُ بِمَا يكونُ من اللِّسَانِ والجَنَانِ**))، يُعَذِّبُ بما يعتقده الإنسان من التسخط على القضاء والقدر -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وبما يكون من اللِّسان من النياحة والكلام الذي لا يليقُ من العبد مع ربِّهِ الذي وهبَهُ وأعطاه هذه النعمة، وهو سبحانه مالكٌ كلِّ شيءٍ، كما تقدم معنا في بيانه من النصوص الواردة في الصبر عند البلاء.

فالمقصود: أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- دمعت عيناه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وهو المعبَّرُ عنه ببكائه.

وفيه دليل على أنَّه لا يحرمُ البكاءُ على الميت من حيث الأصل، أنَّه إذا كان البكاء دون صراخ، ودون عويل، ودون ندب ونياحة، فإنَّه لا بأس به، لا حرج، فإنَّ العيونَ تبكي الأجلاءَ، تبكي الآباءَ، وتبكي الأمهاتَ، وتبكي الأخوانَ والأخواتَ، والآلَ والقرابات، وتبكي العلماءَ والصلحاءَ والأخيارَ والدُّعاةَ، وتبكي أهلَ الودّ وأهلَ والمحبة:

اثنانِ لو بَكَتِ الدِّمَاءُ عليهما عيناكَ حتى يُؤذَنَا بذهـــابِ

لمْ يبلغِ الْمِعشارَ من حقَّيهما فقدُ الشبابِ، وفرقةُ الأحبابِ

فإنَّ الإنسان إذا كان معه أخوه ومن يحبه في الله ويودُّهُ في الله، وكان خِلاً خليلاً صادقًا في محبته ومودته، فإنَّ فراقَه صعبٌ، فلا تتمالكُ النفسُ أن تحزنَ، ولا تتمالكُ العينُ أن تدمعَ، ولكن كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إنَّ العينَ لتدمعُ، وإنَّ القلبَ ليحزنُ، ولا نقولُ إلا ما يرضي اللهَ**))، فإذا تأثَّر الإنسانُ، بل إنَّه قد لا يتأثر عند المصيبة، وقد يتأثر حتى بعد المصيبة، فإنَّه إذا أحبَّ أحدًا في الله خاصة إذا كان ممن له حقٌّ عليه كالعَالِم وكالأب والأم، تُذَكِّرُهُ المعاهد، وتُذَكِّرُهُ المواقف، تُذَكِّرُهُ الفضل، وتُذَكِّرُهُ الإحسان، وتُذَكِّرُهُ ما يكون، فتجيشُ النفس، وتدمعُ العينُ، ويحزنُ القلبُ، فهذا كلُّه لا يؤاخذُ اللهَ به العبادَ، ولذلك هذا نبي الأمة -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- بيَّن أنَّها رحمة أسكنها الله في قلوب عباده، وفي الأثر الصحيح عن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- كما في صحيح البخاري أنَّه قال: (**يومُ الخميسِ، ما يومُ الخميسِ؟**) ثم بكى، وقال: (**اشتدَّ الوجعُ على رسولِ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يومَ الخميسِ**)، فحُقَّ لهذا الصحابي الذي أحبَّ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وصحبَه ولازمَه أن يتذكر أولَّ نزول المرض الذي فارق فيه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- هذه الدنيا، وكان مع رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يعيشُ معه أيامه ولياليه، حتى باتَ معه في عَرْضِ الوِسَادَةِ، ونال شرفَ الركوب مع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وإردافَه وراءه، فإذا ذَكَرَ مثلَ هذه المعاهد، وذَكَرَ مثلَ هذه المواقف فإنَّه يتأثر، وإذا كانت المحبةُ لله وفي الله وابتغاء مرضاة الله، وكانت المحبةُ على الطاعة والدين، كان الأثرُ أبلغَ؛ لأنَّها الحبُّ الصادقُ الذي لا تشوبُهُ شوائبُ الدنيا ودَخَلُهَا، فهذه رحمة أسكنها الله في قلوب العباد، ولذلك لما قَبَّلَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ولدَه، وقال له الأقرعُ بنُ حابسٍ: ((**إنَّ لي عشرةً من الوَلَدِ ما قبَّلْتُ منهم أحدًا، قال: أو أملكُ أن نزعَ اللهُ الرحمةَ من قلبِكِ**))، وقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إنَّما يرحمُ اللهُ من عبادِهِ الرُّحَمَاءَ**)).

إذا فَارَقَ طالبُ العلمِ شيخَه وودعَه، وكان نورًا له من الله -عَزَّ وَجَلَّ- وضياءً له، ثم فُوجِئَ بفراقه فالتبستْ عليه الأمور، والتبستْ عليه المشاكل، والتبستْ عليه النوازل، فإنَّ وَقْعَ هذا أليمٌ على القلوب:

نبكي عليه جميعًا إنَّ مَفْقِدَهُ لَمْ يُبْقِ من مُسْلِمٍ إلا وأجْهَدَهُ
يبكيه طالبُ علمٍ كانَ علَّمَهُ وتائهٌ عن سبيلِ الرُّشْدِ أرشدَهُ
تبكيه مكتبةٌ مَا مَـدَّ ناظرَهُ إلا إليها إليها باسطٌ يـــدَهُ
كبسطِهِ الوجهَ ترحيبًا بزائرِهِ وقد أعــدَّ له نُــزُلاً ومــدَّدَهُ

إذا ذكرتَ مفاخر الكرماء ومآثر العلماء تحركتْ في النفس الأحزان والأشجان، ولمْ تتمالك عينك أن تدمع، ولا يتمالك القلب أن يحزن، فرسولُ الأمة -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهو أكملُ الأمة إيمانًا وأصدقهم يقينًا، وألجئهم إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-في الشدائد لمْ يتمالكْ نفسه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فهذه رحمة أسكنها الله في قلوب العباد، فصبر -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- واصطبر، وما حصل منه من دمع العين والبكاء يدلُّ على الرخصة في هذا الأمر، **لكن بشرط**: ألا يكون البكاءُ مشتملاً على الصراخ والعويل والنياحة والندب مِمَّا حرَّمَهُ اللهُ ورسولُهُ.

((**فبكَى، فقالَ لهُ عبدُ الرَّحمَنِ: أتبكي؟ أولم تكُنْ نهيتَ عن البكاءِ؟ قال: لا**)): هذا ليس اعتراضًا من عبد الرحمن -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- على رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وإنَّما هو نوعٌ من الإشكال، أي يا رسول الله نَهَيْتَنَا عن البكاء، فكيف تبكي؟ يريد أن يعرف: هل تغير الحكم الشرعي، فأصبح البكاءُ مرخَّصًا به؟ فبيَّن -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّ المنهيَ عنه غيرُ المفعول، وأنَّ الجهةَ مختلفةٌ، فلمْ يتعارضْ قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ولـــمْ ينسخْ ما تقدَّم من النهي، وبيَّن أنَّ الذي نَهَى عنه إنَّما هو البكاءُ المذمومُ شرعًا.

وهنا فائدة وهي: أنَّ عبدَ الرحمن بن عوف -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَخَذَ بعموم النص، وفَهِمَ من النص العموم وفَسَّر له النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- النهي بالخصوص، فدلَّ على أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قد ينطقُ بالعام، ويريدُ به الخاص، وهذا ما يُعَبِّرُ عنه كثير من العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-: "**أنَّ النَّصَّ قد يأتي عامًا يُرادُ به العموم، وقد يأتي عامًا يُرَادُ به الخصوص، وقد يأتي خاصًّا يُرَادُ به العموم، وقد يأتي خاصًّا يُرَادُ به الخصوص**".

((**قال: لا، ولكِنْ نَهَيْتُ عن صوتينِ أحمقينِ فاجرينِ**)): الحُمْق: ضربٌ من نقصان في العقل، الحُمْق من أشدِّ البلاء وأعظمِه على العبد -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- أن يكون أحمق، ولذلك قالوا في الحكمة:

(لا تصحبِ الأحمقَ؛ فإنَّه يضرُّكَ من حيثُ يظُنُّ أنَّه ينفعُكَ)، هو يريد أن ينفعك، فيأتي لينفعك، فيفعل بك الضرر، وهذا من الحمق، وهو خفةٌ في العقل، ونقصانٌ في العقل، أحمقُ أخرقُ لا يُحسنُ التصرف في الأمور.

فالصوت الأحمق، وصف الصوتَ بأنَّه أحمق، وهذا المراد به صاحب الصوت؛ لأنَّه لو كان على عقل واتزان لوجد أنَّ هذا الندب والنياحة والصياح على الميت بذكر مآثره لا يغني شيئًا، الميتُ أفضى إلى عمله، فما هو الداعي لهذا الصياح والعويل؟ ثم ما الذي يستفيده الميتُ؟ لا يستفيد لنفسه، ولا يفيد غيره، بل يضرُّ نفسَه، ويضرُّ غيرَه، فهو الأحمق الذي ضَرَّ بنفسه، وضَرَّ بغيره.

((**أحمقينِ فاجرينِ**))، الفُجور: ضد البِرّ، ضد البُرُور، والفاجر: ضد البِرّ، ولكن المراد هنا بالفجور نوع من الفجور، وليس كل الفجور؛ لأنَّه يأتي بمعانٍ، كالفسق يطلق على أقلَّ مراتبه ويطلق على أعلى مراتبه من الكفر بالله والخروج من الملة، والفسق: أصلُهُ من "فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ": إذا خرجت من قشرتِها، قالوا: سَمِّي الفاسقُ فاسقًا؛ لخروجه عن طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وهكذا بالنسبة للفجور، والفاجرُ يتهتك في حدود الله ومحارمه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، فتجدُه لا يرده شيء، ولا تردُّه حرمة، وأعظمُ الفجور وأشدُّ ما يكون الفجور إذا كان بتحليل ما حرَّم الله والاستخفاف بحدود الله -عَزَّ وَجَلَّ-، أن يأتي لأمرٍ حرَّمَهُ الله، فيقول: (هذا ما فيه شيء) -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، فينتهك حدود الله وحرمات الله على بصيرة -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، مُحَلِّلاً ما حرَّمَهُ الله، ويقول لك: (هذا ما فيه شيء)، وأعظم ما يكون الفجور في هذا النوع، وهو تحليل ما حرَّم الله إذا أُفْتِيَ به العامة، وأصبح الإنسان ينشر هذه الأفكار للعامة، ويسوِّغُها، وينمقها، ويزينها ويتهكم بالصالحين والأخيار الذين يغارون على حدود الله ومحارم الله، فيصفُهم بالتزمت والتشدد والتنطع في الدِّين، وهو من أجهل الناس بدين الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لأنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أن يصف أحدًا بالتنطع أو التزمت أو التشدد إلا إذا كان من أهل العلم، أو أَخَذَ هذا الوصف عن أهل العلم؛ لأنَّنا لا نستطيع أن نقول: (وسطية، أو غلو، أو إفراط، أو تفريط)، إلا بنور من الله؛ لأنَّ صراط الله مستقيم، ولا يمكن أن نعرف هذا الصراط المستقيم إلا بكتاب الله وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وكتاب الله وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لا يمكن أن نعلمَهما إلا عن طريق العلماء؛ لأنَّ الله زَكَّاهم بذلك فقال: **{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ}**، وأهل الذِّكْرِ نسبهم إلى القرآن والسنة فقال: **{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ}**، فهم الذين يعلمون من هو الوسط، ومن هو المفرط، ومن هو المفرط.

فإذا كان الشخص -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- في فجوره يتهتك، ويجعل الحرامَ سهلاً رخيصًا، فقد آذان الله بعقوبة، وقد أعذر من أنذر، فإنَّ الله أعذر لعباده، وحذَّرهم من القول عليه بدون علمٍ، وحذَّرهم من تحليل ما حرَّم: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ}**، **{وَمَنْ أَظْلَمُ}**: أي ولا أظلم، فلا يظن أحدٌ أنَّ هذه الآية المراد بها الكفار فقط، فإنَّ هناك من يفتري على الله الكذب وهو ينتسب للإسلام: إمَّا جهلاً، أو تجاهلاً.

فينبغي أن يزمَّ نفسه بزمام الورع، وأن يقفَ عند حدود الله، وأن لا يتهتكَ بمحارم الله، خاصة عند فساد الزمان، فتجد كلَّ يوم يخرج بحثٌ وتخرج مقالٌ وينشر وكأنَّ دين الله أصبح نُهْبَةً لكل من شاء وأبى، فالفجور أعظم ما يكون بهذه الصفة، فمن فجر فقد خرج عن طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ-: **{إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}**، فالفجور ينتهي بصاحبه إلى النار، وهو أقسام، ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مبينًا أنَّ الفجور تَهدي إليه المعصيةُ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إيَّاكم والكذبَ؛ فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار**))، إذا تأملتَ، قال: ((**إيَّاكم والكذبَ**))، فجعل الكذب من بين الذنوب كلها، ينتهي إلى ماذا؟ إلى الفجور، لماذا؟ لأنَّ الذي يكذب يكذب على الله، فيحلِّل الحرام، ويحرِّم الحلال، ويكذب على رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فيروي الأحاديث الضعيفة، وهو يعلم بضعفها والموضوعة المكذوبة على رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**من حَدَّثَ عني حديثًا يَرَى أنَّه كَذِبٌ فهو أحدُ الكَاذِبِيْنَ**))،وبيَّن -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-أنَّ الكذبَ ينتهي بالفجور؛ لأنَّه يكذب على الله، ويكذب على رسوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-،ويكذب على المؤمنين، ولذلك تجد الكذَّاب يبدأ أول شي بالكذب اليسير لمصلحته، ثم ينتهي به الكذب -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- حتى يكذب بدون مصلحة -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وهي خُطوات الشيطان -نسألُ اللهَ أن يُعيذَنا منهَا- أن يبدأ بالإنسان بالذنب وراء الذنب، فبيَّن -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّ الفجور ينتهي بصاحبه إلى النار قال: ((**إيَّاكم والكذبَ؛ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار**)) الفجور، قال: ((**فاجرين**))، الفجور يهدي إلى النار:

إمَّا أن يهدي إلى الخلود فيها، وهو فجور الكفار.

وإمَّا أن فتجد الفاجر الكافر يقول لك: (ما فيه دين، أي دين هذا؟ لا تقيدونا بالأديان)، ويعترض، ويتهتك في حدود الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ويفجر -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ-.

أو يكون الفجور دون الكفر، وهو فجور الفسق الذي يوجب سقوط العَدَالة وانخرامها-وَالعِيَاذُ بِاللهِ- بارتكاب الكبائر.

أو يكون الفجور بالذنوب التي يُوصف صاحبُها بالمعصية، ولا تزالُ تتراكمُ على صاحبها حتى تنتهي به -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- إلى فجور الكبيرة.

قال بعض العلماء: إنَّ الكذبَ عمومًا كبيرة.

وقال بعضهم: إنَّه ليس بكبيرةٍ إلا إذا تكرَّر، **وهذا أقوى**؛ لأنَّه قال: ((**فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور**))، وهذا إنَّما يكون بالتكرار والعَوْد.

وبعضهم يقول: إنَّ المرادَ به جنس الكذب.

على كل حالٍ أنَّ وَصْفَهُ بالفجور هو التهتك بحدود الله، ومحارم الله.

((**صوتٍ عندَ مُصيبةٍ**)): (وا مصيبتاه، وا بلاء، وكذا وكذا، لماذا فعل بي ربِّي هذا، هل أنا أستحقُّ هذا؟ فلان ما يستحق هذا -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ-، أخذ ولدي).

اعترضت امرأة على ربِّها -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، فكانت تقول: (أعطيتني أولادي متفرقين، وأخذتَهم جميعًا) -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، ذهبَ أولادُها الأربعة في حادثٍ -فنسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ- صارت تصيح وتقول: (أعطيتني أولادي متفرقين، وتأخذهم دفعة) -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ-، فالقضاء والقدر دَحْضُ مَزِلَّةٍ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

فالذي ينبغي للمسلم أن يلتزمَ بحدود الله،وأن يتقيَ الله-عَزَّ وَجَلَّ-،وأن يعلمَ أنَّ الله-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يسمعُه ويراه، وأنَّ الصبرَ عند الصدمة الأولى، وأكثرُ ما يكون هذا الصوت الفاجر إنَّما يكون عند الصدمة الأولى،ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-:((**صوتٍ عندَ مُصيبةٍ**))؛لأنَّ عند الفاجعة الأولى يكون ما يكون من التسخط -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

((**خمشِ وجوهٍ**)): وهذا كما ذكرنا تَخْمِشُ وجهَهَا، ولذلك ينبغي تنبيهُ الأبناء والبنات، البعض من الأبناء والبنات إذا رأى شيئًا يضع يده هكذا كأنَّه يغطي وجهه ، فلا يزال يبدأ الشيطان به حتى ينتهي به -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- إلى خمش الوجه، ولذلك كان بعض الحكماء والمربين والعلماء ينتبهُ لأولاده والصغار وخاصة النساء، فينبغي أن يَنصحَ بعضُهنَّ بعضًا، أن لا تعتاد عند أي شيء غريب أن تضع يديها على وجهها ، هذا من استدراج الشيطان لخمش الوجه؛ لأنَّ خمش الوجه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- كبيرةٌ من كبائر الذنوب؛ لأنَّه يُظهر التسخط بقضاء الله وقدره.

وكما ذكرنا أنَّ هذا الوعيد الذي وَرَدَ في النياحة ما تقدَّم الإشارة إليه سببه: أنَّه راجعٌ إلى الاعتقاد، أنَّ أمره يتعلق بالرضا بقضاء الله وقدره، والإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان الستة التي ينبغي للمسلم أن يلتزمَ بها، وأن يحافظَ عليها.

((**وشقِ جيوبٍ**)): وشق الجيوب، وقد تقدَّم معنا معنى الجيب، وصورة الشق، الجيب: ما يَدخُلُ منه الرأس في الثوب، فتمسك بطرفي الثوب، ثم تشقُّ الثوب، سواء بلغ الشقُّ إلى الأخير أو كان شقًّا لبعض الثوب.

((**ورنَّةِ الشَّيطانِ**)): والرَّنة ترجيع الصوت، الصوت الذي فيه ترجيع، وتكون في الموسيقا والغناء، وتكون في غير الغناء، تكون بغناءٍ، وتكون بدون غناءٍ، والمراد الرنة عند الحزن، أن تجدَ الونين ونحو ذلك من الآهات والصيحات التي يرددونَها عند وفاة الميت، فإنَّ المرأة خاصة النساء إذا أصابهن الحزن أدمت، فَسُمِعَ من بكائها رنين، يكون لبكائها رنين، وهذا فيه إشهار للحزن وإظهار له، وهو إظهار نسبي، كما أنَّ الصياحَ إظهارٌ كلي.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ عن مالكٌ قال: وحَدَّثنا إسحاقُ بنُ موسى قال: حدثنا معنٌ قال: حدثنا مالكٌ عن عبدِاللهِ بنِ أبي بكرٍ بنُ مُحَمَّدِ بنِ عمرِو بنِ حزمٍ عن أبِيهِ عن عمرةَ أخبرتها: أنَّهَا أخبرتهُ أنَّهَا سمعتْ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، وذُكِرَ لها أنَّ ابنَ عمرَ يقولُ: ((**إنَّ الميِّتَ ليعذَّبُ بِبُكاءِ الحيِّ**)) فقالت عائشةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**غَفَرَ اللهُ لأبي عبدِالرحمن، أَمَا إنَّهُ لَمْ يكذبْ، ولكنَّهُ نسيَ أو أخطأَ، إنَّما مرَّ رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **على يهودَّيةٍ يُبكى عليها فقالَ: إنَّهُمْ ليبكونَ عليها، وإنَّهَا لتُعذّبُ في قبرِها**)).

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حديثٌ حسن صحيحٌ.

الشرح:

بناءً على هذا الوجه إنَّهم يبكون عليها، وإنَّها تعذب في قبرها، يكون لا علاقةَ لبكاء الحي بالميت أي أنَّه انظروا كيف يبكون عليها وهي في عذاب الله، وهذا يدلُّ على أنَّها معذَّبة بكفرها.

وبناءً على ذلك لا علاقةَ بين الحي والميت في البكاء، بناءً على هذا الوجه الذي ذكرته -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، ويكون الحديث لا يدلُّ على ظاهره من كون الميت يعذب ببكاء أهله عليه وهذا يُضَعِّفُ تفسير أم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أكثر، على هذا الوجه؛ لأنَّه مخالفٌ لظاهر الحديث. ولأنَّ غيرَها من الصحابة قد خالفوها في ذلك، فلو كان جاء من طريقٍ واحدٍ عن عبد الله بن عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كان يمكن أن يكون معارضًا نوعًا ما، لكن إذا جاء عن أكثر من صحابي يدلُّ على أنَّه وَقَعَ من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في أكثر من مرة، وكونه يقعُ في حال اليهودية يكون معنى الحديث في اليهودية شيءٌ، ومعنى الحديث الذي معنا بالنهي عن البكاء على الميت شيءٌ آخر.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّمَ.

رقم الدَّرس ٤١٧

الأربعاء ٢٩-٤-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ ما جاءَ في الْمَشْي أمامَ الْجَنَازَة]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا قُتَيبَةُ وأحمَدُ بنُ منيعٍ وإسحاقُ بنُ منصورٍ ومحمودُ بنُ غيلانَ قالُوا: حَدَّثَنَا سفيانُ بنُ عُيينةَ، عن الزُّهريِّ، عن سالمٍ، عن أبيهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: ((**رَأَيْتُ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَمْشُونَ أَمَامَ الْجَنَازَةِ**)).

الشَّرْحُ:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الحمدُ لله ربِّ العالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتمانِ الأكملانِ على خيرِ خلقِ اللهِ أجمعينَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ سارَ على سبيلِهِ ونَهْجِهِ، واستَنَّ بسنتِهِ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ: فقد ترجمَ الإمامُ الحافظُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرْجَمة، والتي تتعلَّقُ بهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في تشييع الْجَنَائِز.

وهذا البابُ مناسبتُهُ لكتابِ الْجَنَائِزِ: واضحةٌ، وذِكْرُ الْمُصَنِّفِ له في هذا الْمَوضعِ مناسبٌ جدًّا حيث بيَّن هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في تغسيل الْمَيِّتِ وتكفينه، **ثم يَرِدُ السُّؤَالُ**: ما هو هديُهُ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- في تشييع الْجَنَازَة والْمَشْي معها؟

وكان هديُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في ذلك أكملَ الهدي وأجملَه، حيث حضَّ الأُمَّةَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- على تشييع الْجَنَائِز واتباعها، وأَمَرَهم بذلك كما صحَّ في الصَّحِيحَين من حديث البراء بن عازب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ- أنَّه قال: ((**أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **بِسَبْعٍ**))، وذكر منها: ((**وَاتِّبَاعِ الْجَنَائِز**)).

وأجمعَ العلماءُ-رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّ تشييعَ الْجَنَائِز من القُرُبات وفضائل الطَّاعات ففيها خيرٌ للمُسلمِ حينما يشيِّعُ أخاه الْمُسلِمَ، إذ يَعْتَبِرُ بفراق الْمَوتى لهذه الدُّنيَا.

وكذلك يكون فيه سَلْوَةٌ لإخوانه الْمُسلِمين من أهل الْمَيِّتِ وتصبيرٌ لهم.

وفيه كذلك تذكيرٌ بحقوق الأُخوة الإسلامية، فهذه الأخوةُ العظيمةُ التي لا تنقطعُ بانقطاع الْمَصَالِح ولكنَّهَا باقيةٌ خالدةٌ تالدةٌ إلى يوم لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنونَ إلا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليمٍ، فهذه الأخوةُ

من حقوقها أنَّ الْمُسلِمَ يشيّعُ أخاه الْمُسلِمَ، سواءً عَرَفَهُ أولم يَعْرِفْهُ، وخاصةً إذا كان من الضُّعفاء والفقراء ومِمَّنْ لا يُعْبَأُ بهم،فهؤلاءِ الأجرُ فيهم عظيمٌ،والإخلاصُ فيهم لوجه الله-عَزَّ وَجَلَّ- أتمُّ وأكملُ.

ومن هنا عقدَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- هذا البابَ الذي يبيّنُ الهديَ في اتباع الْجَنَائِز.

وقد وَرَدَتْ أمورٌ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- تعتبرُ من الْمَحاذير والْمَنهِيَّاتِ التي ينبغي أنْ تُتَّقَى؛ لأنَّ النَّاسَ إذا شيَّعُوا الْجَنَائِزَ رُبَّمَا أحدثُوا فيها أمورًا لا يأذنُ اللهُ بها:

ومن ذلك اتباع الْجَنَائِز بالنَّار كما كان يفعلُ أهلُ الجاهلية.

وكذلك اتباعُها بأصوات النِّياحة والصِّياح والصُّرَاخ مِنْ ذِكْرِ مآثرِ الْمَيِّتِ، وتعظيم أمره.

فهذا كُلُّهُ مما نَهَى اللهُ عنه ورسولُه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

والسُّنَّةُ والهديُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ الْمُسلِمَ إذا مشى في الْجَنَازَة لزم الصَّمْتَ، بمعنى أنَّه لا يرفعُ صوتَه بشيءٍ مخصوصٍ إلا بما دلَّ الدليلُ عليه، من الأمر بالْمَعروف والنَّهي عن الْمُنكر، ويلزمُ ذِكْرَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- في خاصةِ نفسِهِ، والاعتبار في فؤادِهِ وقلبِهِ، هذا هو الهديُ.

وأمَّا ما يفعلُهُ بعضُ النَّاسِ من اتباع الْجَنَائِز بِمَنْ يُنْشِدُ ويذكرُ القصائدَ التي فيها تَهْوينٌ لأمرِ الدُّنيَا وتعظيمٌ لأمر الْمَوتِ، أو فيها تزكيةٌ للمَوتَى.

فكُلُّ هذا حَدَثٌ كما نَبَّهَ العلماءُ عليه.

وهكذا الصُّراخُ بقول بعضِهم: (وَحِّدُوه)، أو قولِ بعضِهم: (لا إلهَ إلا الله) يرفعُ بها صوتَه، أو نحو ذلك، كُلُّهُ من الْمُحدثاتِ.

فالسُّنَّةُ أنَّ الْمُسلِمَ يسيرُ وراء الْجَنَازَة مُتَّعِظًا مُتَدَبِّرًا مُتَفِكِّرًا مُتَأَمِّلاً، وهذا هو هديُ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وإذا لزمَ النَّاسُ ذلك فقد لزمَ السَّماحةَ واليسرَ، وابتعدُوا عن أمورٍ لم يشرعْهَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- ولم يأذنْ بها

والسُّنَّةُ في اتباع الْجَنَائِز أنَّه يسيرُ الْمَاشِي أمامَها وعن يمينِها وعن يسارِها ومِنْ خلفِها، كما صحَّ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في حديث السُّنَنِ عن الْمُغيرة بنِ شُعبةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**الرَّاكِبُ يَسِيرُ خَلْفَ الْجَنَازَةِ، وَالْمَاشِي يَمْشِي خَلْفَهَا وَأَمَامَهَا وَعَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَرِيبًا مِنْهَا**))، فبيَّنَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- السُّنَّة، **وفرَّقَ بين الرَّاكِبِ والْمَاشِي: أَنَّ** الرَّاكِبَ يسيرُ وراءَ الْجَنَازَة، **وَأَمَّا** الْمَاشِي فإنَّه يسيرُ مِنْ أمامِها، ويسيرُ مِنْ خلفِها، وعن يمينِها، وعن شمالِهَا.

ولكن ينبغي عليه إذا سارَ عن اليمين أو الشِّمال أنْ يكونَ قريبًا منها، كما نصَّ عليها -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ((**عَنْ يَمِيْنِهَا وَيَسَارِهَا قَرِيْبًا مِنْهَا**)) أي لا يبتعدُ، وهذا من بابِ التَّشييع لِلمَيِّتِ؛ لأنَّ مَنْ شيَّع الشيءَ يكونُ قريبًا منه لا بعيدًا عنه، كما يفعلُهُ بعضُ العامة فإنَّه رُبَّمَا يَتَنَحَّونَ إلى أقصى اليمين أو أقصى الشِّمال، فيبتعدون عن مَجْمَعِ الْجَنَازَة، والسُّنَّةُ أنْ يكونُوا قريبينَ منها، كما بيَّن النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيما صحَّ عنه.

وذكرَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الحديثَ تحتَ هذه التَّرْجَمة وهذا الباب؛ لكي يُبينَ أنَّ السُّنَّةَ في الْمَاشِي أنَّه يجوزُ له أنْ يسيرَ أمامَ الْجَنَازَة، وأنْ يسيرَ خلفَها.

وهذا مذهبُ جمهورِ العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وذهبَ الحنفيةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- إلى أنَّه يسيرُ الْمَاشِي خلفَ الْجَنَازَة، ولا يسيرُ أمامَها، وهذا هو الأفضلُ، فمذهبُهم أنَّ الأفضلَ أنَّه يسيرُ خلفَ الْجَنَازَة.

ولا شكَّ أنَّه لو سارَ خلفَ الْجَنَازَة فقد خرجَ من الخلاف.

واحتَجُّوا: بأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صحَّ عنه كما في الصَّحيح: ((**أَمَرَ بِاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ**))، والشَّيءُ الْمَتبوعُ يكونُ التَّابعُ فيه وراءَه، ولا يسيرُ أمامَه.

ولكنَّ الواردَ كما في حديثنا، وكذلك عن أبي بكرٍ وعُمَرَ والصَّحَابةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- أنَّهُم رخَّصُوا في الْمَشْي أمامَ الْجَنَازَة، وحُفِظَ ذلك عن أبي قتادةَ الحارثِ بنِ رِبعي بنِ بلدمةَ، أو بلدهةَ، قولانِ في نسبته، وهو فارسُ رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، الحارثُ بنُ رِبعي الأنصاريُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- أنَّه كان يسيرُ أمامَ الْجَنَازَة.

وهكذا عن أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فهو قولٌ عن الصَّحَابة ومَنْ بعدَهم من التَّابعين أنَّه لا بأسَ بالْمَشْي أمامَ الْجَنَازَة.

وذكرَ بعضُ أئمةِ السَّلَفِ أنَّ النكتةَ في ذلك: أنَّهُم شفعاءُ، والشَّفيعُ يتقدَّمُ مَنْ يشفعُ له.

ولذلك بيَّنتِ السُّنَّةُ الصَّحيحةُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ الْمُسلِمين إذا صلُّوا على أخيهم الْمُسلِم فإنَّهُم شفعاءُ له، كما ثبتَ بذلك الخبرُ عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنه قَالَ: ((**مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ**)).

قالُوا: فإذا كانُوا شفعاءَ فإنَّ الشَّافعَ يتقدَّمُ الْمَشفوعَ له، ولذلك قالُوا: يجوزُ أنْ يسيرُوا أمامَ الْجَنَازَة، ولا بأسَ في ذلك ولا حرجَ.

ولكنَّه إذا سارَ خلفَ الْجَنَازَة فإنَّه حينئذٍ يكونُ قد خرجَ من الخلاف في الأفضل.

وأمَّا من حيثُ الجواز فإنَّه يجوزُ أنْ يسيرَ أمامَها وخلفَها، وعن يمينِها وعن يسارِها كما ذكرنا؛ لظاهرِ حديث أبي داودَ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في التَّرْخِيص بذلك.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا الحسنُ بنُ عَليّ الخلاَّلُ، حَدَّثَنَا عمرِو بنُ عاصمٍ، أَخْبَرَنَا هَمَّامٌ، عن منصُور، وبَكر الكُوفِيّ، وزيادٍ، وسفيانَ، كلَّهم يذكرُ أنَّهُ سمعه من الزُّهريّ، عن سالِم بن عبدِ اللهِ، عن أبِيهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: ((**رَأَيْتُ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَمْشُونَ أَمَامَ الْجَنَازَةِ**))

الشَّرْحُ:

الحديثُ الأول أُخِذ فيه على الزُّهري، **وقِيلَ**: إنَّه وَهِمَ فيه، وتكلَّمَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللهُ- على إدراجه، ورجَّح هذا، من أنَّه مُرْسَلٌ، وإنْ شاءَ اللهُ سنتكلَّمُ عليه عند مراجعة العِلل والكلام على أسانيد الأحاديث.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا عبدُ بنُ حُميدٍ، حَدَّثَنَا عبدُ الرَّزاقِ، أَخْبَرَنَا معمرٌ عن الزُّهريّ قالَ: ((**كَانَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَمْشُونَ أَمَامَ الْجَنَازَةِ**)).

قال الزُّهريُّ: وأخبرني سالمٌ أنَّ أباهُ كانَ يمشي أمامَ الْجَنَازَة.

الشَّرْحُ:

أبوه هو عبدُ الله بنُ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَأَرْضَاهُمَا- الصَّحابيُّ الجليلُ، وسالمُ بنُ عبدِ الله بن عُمَرَ (أنَّ أباه) أي أبوه، وهو عبدُ الله بنُ عُمَرَ الصَّحابيُّ الجليلُ، وسالمٌ ابنُهُ، وكان من أحبِّ أبنائه إليه:

يَلُوْمُوْنَنِي فِي حُبِّ سَالِمٍ وَلُحْمَةُ مَا بَيْنَ الْعَيْنَيْنِ سَالِمُ

وهو من فقهاءِ الْمَدينةِ السَّبعةِ -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى: حديثُ ابنِ عمرَ هكذا رواه ابنُ جُريجٍ وزيادُ بنُ سعدٍ وغيرُ واحدٍ، عن الزُّهريِّ، عن سالمٍ، عن أبيهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- نحوَ حديثِ ابنِ عُيَينَةَ.

وروى معمرٌ ويونسُ بنُ يزيدَ ومالكٌ وغيرُ واحدٍ من الحفَّاظِ: ((**عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **كَانَ يَمْشِي أَمَامَ الْجَنَازَةِ**)).

قال الزُّهريُّ: وأخبرني سالمٌ أنَّ أباهُ كانَ يمشي أمامَ الْجَنَازَة.

وأهلُ الحديثِ كلُّهُم يرونَ أنَّ الحديثَ الْمُرْسَلَ في ذلكَ أصحُّ.

الشَّرْحُ:

هذا هو الذي قرَّره الحافظُ -رَحِمَهُ اللهُ- وتكلَّم عليه، والجزمُ فيه بالوصل فيه كلامٌ لأئمة الحديث ولكن كما ذكر الإمام التِّرْمِذِيّ -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ أهل الحديث على أنَّه: ((**عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) بالانقطاع.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: سمعتُ يحيى بن موسى يقول: قال عبد الرَّزاق قال ابنُ الْمُباركِ: حديثُ الزُّهريِّ في هذا مرسلٌ أصحُّ من حديثِ ابنِ عُيَينَة.

قال ابنُ الْمُباركِ: وأرى ابنَ جُريجٍ أخذهُ عن ابنِ عُيَينَةَ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: وروى هَمَّامُ بنُ يحيى هذا الحديثَ عن زيادٍ، هو ابنُ سعدٍ ومنصورٍ وبكرٍ وسفيانَ، عن الزُّهريِّ، عن سالمٍ، عن أبيهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، وإنَّما هو سفيانُ بنُ عُيَينَةَ روى عنه هَمَّامُ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: واختلفَ أهلُ العلمِ في الْمَشْي أمامَ الْجَنَازَة، فرأى بعضُ أهلِ العلمِ من أصحابِ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغيرِهِم أنَّ الْمَشْي أمامَها أفضلُ، وهو قولُ الشَّافِعيِّ وأحمَدَ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: وحديث أنسٍ في هذا الباب غيرُ محفوظٍ.

الشَّرْحُ:

هذا مذهبُ جمهورِ العلماء، ما ذكرَهُ عن الشَّافِعِيِّ وأحمدَ ومالكٍ، هو مذهبُ جمهورِ العلماءِ أنَّ الْمَشْيَ أمامَها أفضلُ.

ومذهب الحنفية -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّ الْمَشْي وراءها أفضل.

والحقيقة الْمَشْي وراءَها على ظاهر قوله: **(اتِّبَاع الْجَنَازَةِ)** من ناحية اللَّفظ على أنَّ الْمُرَاد بالاتباع حقيقة الاتباع لا شكَّ أنَّ مذهب الحنفية **أرجح وأقوى**.

وأمَّا على تحسين هذا الحديث بالشَّواهد فيكونُ الْمَشْي أمامَها محكيًّا عن النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أمَّا إذا قلنا: إنَّ قولَه: **(اتِّبَاع الْجَنَازَةِ)** مطلقُ الاتباع وهو التَّشييع، فحينئذٍ لا يكونُ دليلاً على أنَّ الْمَشْيَ خلفَ الْجَنَازَة أفضلُ.

وعلى كُلِّ حالٍ، الأمرُ واسعٌ، إنْ شاءَ مشى أمامَها أو خلفَها، الخلافُ في الأفضلية، وليس في التَّحريم والْمَنع، الخلافُ فقط في الأفضل.

فإذا سار وراء الْجَنَازَة فهو مُشيّعٌ لها، وإذا سار أمامَهَا فإنَّه حينئذٍ يكونُ أفضلَ على مذهب جمهور العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-، والخلافُ في الأفضلية.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا أبو مُوسى محمدُ بنُ الْمُثنَّى، حَدَّثَنَا **مُحَمَّدُ** بنُ بكرٍ، حَدَّثَنَا يونسُ بنُ يزيدَ، عن ابن شهابٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ كَانُوا يَمْشُونَ أَمَامَ الْجَنَازَةِ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: سألتُ مُحَمَّداً عن هذا الحديثِ؟ فقال: هذا حديثٌ خطأٌ، أخطأَ فيهِ مُحَمَّدُ بنُ بكرٍ، وإنَّما يُروى هذا الحديثُ عن يونسَ، عن الزُّهريِّ: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانُوا يَمْشُونَ أَمَامَ الْجَنَازَةِ**)) قال الزُّهريُّ: وأخبرني سالمٌ أنَّ أباهُ كانَ يمشي أمامَ الْجَنَازَة. قال مُحَمَّدٌ: هذا أصحُّ.

الشَّرْحُ:

(**مُحَمَّدٌ**): هو الإمامُ محمدُ بنُ إسماعيلَ البخاريُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، وهذه من مسائل الإمامِ التِّرْمِذِيِّ للإمام البخاريِّ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمَشْيِ خَلْفَ الْجَنَازَةِ]**

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا محمودُ بنُ غيلانَ، حَدَّثَنَا وهبُ بنُ جريرٍ، عن شُعبةَ، عن يحيى إمامِ بني تيمِ اللهِ، عن أبي ماجدٍ، عن عبد اللهِ بنِ مسعودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْمَشْيِ خَلْفَ الْجَنَازَةِ؟ فَقَالَ: ((**مَا دُوْنَ الْخَبَبِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا عَجَّلْتُمُوهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَلا يُبعَّدُ إِلا أَهْلُ النَّارِ، الْجَنَازَةُ مَتْبُوْعَةٌ، وَلا تَتْبَعُ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَقَدَّمَهَا**)).

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حديثٌ لا يعرفه من حديثِ عبد الله بن مسعودٍ إلا من هذا الوجهِ.

الشَّرْحُ:

عقدَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- هذه التَّرْجَمة التي تدلُّ على التَّوسعة والْمَشْي خلف الْجَنَازَة، وأنَّ ما ذُكِر من جواز الْمَشْي أمام الْجَنَازَة إنَّما هو على سبيل الفضل والاستحباب، لا على سبيل الحتم والإيجاب.

والْمَشْي خلف الْجَنَازَة متفقٌ عليه بين العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وخَلْفَ الْجَنَازَة: بمعنى أنْ تسيرَ هي أولاً، ثم يسيرَ النَّاسُ من ورائها، وهذا على طريقةِ الاتباع، وقد أكَّدَتِ السُّنَّةُ أنْ يكونُوا قريبين من الْجَنَازَة.

وهذا الحديث الذي ذَكَرَهُ مُتَكَلَّمٌ في إسناده، وهو غيرُ ثابتٍ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: ((**عن عبد اللهِ بنِ مسعودٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **قال: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **عَنِ الْمَشْيِ خَلْفَ الْجَنَازَةِ؟**))

((**سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **عَنِ الْمَشْيِ خَلْفَ الْجَنَازَةِ**)): أي عن حكمِه، وهل له فضلٌ؟ وهذه من مسائل الصَّحَابة للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وجوابُ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيها يكون الجوابُ بالحكم الشَّرعيّ، وهو ما يُسمَّى ويُصطلحُ عليه بـ(**الْفَتْوَى**)، فإنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كانت له شخصياتٌ، ومنها شخصيةُ الإفتاء والجواب عن الْمَسَائل، كما قال تعالى: **{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ}**، فعلَّمَهُ ما يُفتِي به -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فَالْمَقْصُود من هذا أنَّهُم كانُوا يسألُون النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-فُرَادَى وجماعاتٍ، ويسألُونَه رِجالاً ونِساءً، فسألُوه عن هذه الْمَسَأَلَةِ، عن الْمَشْي خلف الْجَنَازَة.

((**فَقَالَ: مَا دُوْنَ الْخَبَبِ**)): قولُهُ: ((**مَا دُوْنَ الْخَبَبِ**)) يدلُّ على **أَنَّ السُّؤَالُ عن الْمَشْي في صفتِهِ،** وليس في حكمِهِ، وفَرْقٌ بين السُّؤَال عن حُكم الْمَشْي، وموضع الْمَشْي، وصفة الْمَشْي.

السُّؤَالُ عن حُكم الْمَشْي مع الْجَنَازَة: هل يجوزُ أو لا يجوزُ؟ وهذا مُجْمَعٌ عليه على أنَّه من القُرُبات والطَّاعات.

والسُّؤَالُ عن صفةِ الْمَشْي: من جهة كونِه يُسْرَعُ أو يسيرُ بَطيئًا، هل يسرعُ بالْجَنَازَة ويَخُبُّ بها ويرمُلُ؟ أم أنَّه يسيرُ دَبيبًا ورُويدًا والْهُوينى؟ هذه في صفة الْمَشْي.

وعن موضعِ الْمَاشِي: هل يمشي وراءَها أو أمامَها؟ **هذا سؤالٌ ثالثٌ.**

فلَمَّا أجابَهُمُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بهذا الجواب دلَّ على أنَّ سؤالَهم عن صفة الْمَشْي.

فما تقدَّم عن موضع الْمَاشِي: هل يكونُ أمامَها أو خلفَها؟

وما هو في هذا الحديث من جوابه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- من جهة صفة الْمَشْي، وأتبعَهُ ذلك بما ذكرَهُ من الْمَشْي أمامَها وخلفَها.

قال أولاً في جوابه -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-: ((**مَا دُوْنَ الْخَبَبِ**)) **الخَبَبُ:** "خَبَّ": إذا رَمَلَ، الخَبَبُ والرَّمَل، قال عبدُ الله بنُ عُمَرَ كما في الصَّحِيح حينما وَصَفَ طوافَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عند قدومه بالبيت: ((**خَبَّ الأَشْوَاطَ الثَّلاثَةَ الأُوَلَ**))،أي رَمَلَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وقد تقدَّم معنا بيانُ صفة الرَّمَل أنَّه:

إمَّا هَزُّ الْمَنكِب مع تقارُبِ الْخُطَا، **أو** الاشتدادُ في السَّيْر دون الإسراع.

فهذا يدلُّ من قوله: ((**مَا دُوْنَ الْخَبَبِ**)) على أنَّه لا يمشي الْمَشْيَ الْمُعتَادَ، وأنَّه يسيرُ فوقَ الْمَشْيِ الْمُعتَادِ، لكن لا يَصِلُ إلى العَجَلَةِ، وهو الخَبَب.

والخَبَبُ: نوعٌ من الْمَشْيِ الذي فيه الإسراعُ، وهو الرَّمَل، ولذلك يُشرَعُ للنَّاسِ أنْ يُسرِعُوا بالْجَنَازَة فلا يمشوا الْمَشْيَ الْمُعتَادَ، وإنَّما يُسرِعُون قليلاً إلى ما دُوْنَ الاشتداد في السَّعْيِ، فإذا وصل إلى الاشتدادِ فإنَّهُم يَقصُرُونَ عنه، هذه هي السُّنَّة، ألا يُبَالِغَ بالإسراع بها بالجري والْهَرولة، ولا يَدُبُّ بها دَبيبًا خفيفًا، هذه هي السُّنَّة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

واُستُفِيدت هذه السُّنَّةُ: ليس من هذا الحديث وَحْدَهُ، فإِنْ كان الحديثُ غَيْرُ صحيحٍ، فإنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال كما في الصَّحيح، وهو الحديث الذي سيذكره الْمُصَنِّف -رَحِمَهُ اللهُ- بعد هذا قال: ((**أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ**))، فقولُهُ: ((**أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ**)) على أحد الوجهين في تفسيره وتأويله، أنَّ الْمُرَاد به أنَّه يسيرُ فوقَ السَّيْرِ الْمُعتَادِ، ودون الاشتدادِ في السَّيْر إلى درجة الإسراع والهرولة.

هذه هي السُّنَّة، أنَّه فوقَ الْمَشْي الْمُعتَاد، ودونَ الجري والهرولة، هذا دونَ الخَبَب.

((**دُوْنَ**)): أي يَقْصُرُ، يقولون: (دُوْنَ كذا) إذا قَصَرَ عنه، فلَمَّا قال: ((**دُوْنَ الْخَبَبِ**)) دلَّ على أنَّه لا يَخْبُبُ بها، ولا يُسرع بها، الخَبَب: الإسراع.

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ أَخُبّ فِيهَا وَأَضَعْ
أَقُودُ وَطْفَاءَ الزّمَعْ كَأَنّهَا شَاةٌ صَدَعْ

قولُهُ: (**أَخُبُّ فِيْهَا وَأَضَعْ**)، **الوَضْعُ**: نوعٌ من السَّيْرِ، **والخَبَبُ**: نوعٌ من السَّيْر، فالخَبَبُ الإسراعُ والرَّمَلُ.

((**فَإِنْ كَانَ خَيْرًا عَجَّلْتُمُوهُ**)): أي إذا سِرْتُمْ هذا الْمَسِيْرَ فكانت جنازةً صالحةً، فإنَّكم تُعجِّلون بها إلى خيرٍ أعدَّهُ اللهُ للمحسنين؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ، ولا يخلفُ الْمِيعادَ، ولا أوفى بعهدِهِ من الله، أنَّه لا يضيعُ أجرَ مَنْ أحسن عملاً، فمن كان صالحًا، وقَدِمَ على آخرته فقد قَدِمَ على خيرٍ، وعلى برٍّ وعلى صلاحٍ، وهو مُستَرِيحٌ من هذه الدُّنيَا إلى راحة الآخرة ونعيم الآخرة، جعلَنَا اللهُ وإيّاكُم ذلك الرَّجَلَ.

((**وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَلا يُبعَّدُ إِلا أَهْلُ النَّارِ**)): وإنْ كان شرًّا -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-، إنْ كان عاصيًا لله -عَزَّ وَجَلَّ-، متمرِّدًا على أوامره، منتهكًا لحدوده ومحارمه، ((**فَلا يُبعَّدُ إِلا أَهْلُ النَّارِ**)) أي أبعدَهُ اللهُ وهذا في قوله: ((**لا يُبعَّدُ إِلا أَهْلُ النَّارِ**)) يدلُّ على أنَّ أهلَ الطَّاعة هم أهلُ القُرْبِ، وأهل الْمَحبة، وأنَّ العبدَ الصَّالحَ الْمُؤمِنَ وليَّ اللهِ يُقرِّبُ من قرَّبَهُ اللهُ، فالقَرَابَةُ بحقِّ قَرَابَةُ الدِّين، أنْ يكونَ الإنسانُ مُقَرِّبًا لِمَنْ قَرَّبَهُ اللهُ، مُبْعِدًا لِمَنْ أبعدَهُ اللهُ، ومن كانت فيه هذه الصِّفَة أنَّه يُقرِّبُ من قرَّبَهُ اللهُ، ويحبُّهُ،

ويسكنُهُ قلبَه، فهو وليُّ اللهِ الْمُؤمِنُ، وقد خالطَتْ بشاشةُ الإيمان قلبَه: ((**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**)).

وكان -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- إذا مرَّ بقريةٍ يقول: ((**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَنْ فِيْهَا، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَنْ فِيْهَا، اللَّهُمَّ، حَبِّبْنَا إِلَى أَهْلِهَا، وَحَبِّبْ إِلَيْنَا صَالِحِي أَهْلِهَا**)).

تأمَّلْ: ((**حَبِّبْنَا إِلَى أَهْلِهَا**)) سواءً كانُوا عُصاةً أو مُذنِبين أو صالحين، العبدُ يسألُ اللهَ أنْ يُحِبَّهُ النَّاسُ؛ لأنَّهُم إذا أَحَبُّوهُ تمكَّنَ من الخير، مِنْ أمرِهم بالطَّاعة، ودلالتهم على الخير، وصار لهم قدوةً؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ شيئًا تأثَّرَ به.

ولكن قال: ((**وَحَبِّبْ إِلَيْنَا صَالِحِي أَهْلِهَا**)) لا يُدْخَلُ في القلب إلا مَنْ أحبَّه الربُّ.

فبيَّنَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه لا يُبْعِدُ إلا مَنْ أبعدَهُ اللهُ، إلا مَنْ كان من أهل النَّار -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- **وهنا يُحتَمَلُ أمرين:**

إمَّا أنْ يكونَ من أهل النَّار، كأهل النِّفاق الذين كانُوا مع النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- والصَّحَابةِ يستترون يدَّعُون الإيمانَ، وهم ليسوا بمؤمنينَ، فحينئذٍ تكونُ النَّارُ على حقيقتها، وأنَّ أهلَ النَّارِ من أهل الكفر -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-.

وإمَّا أنْ يكونَ وصفُهُ من كونه من أهل النَّار من العُصاة الْمُذنبين من أهل الكبائر، وهؤلاءِ في الأصلِ أنَّ اللهَ تعالى توعَّدَ على ارتكاب الكبائر بالعقوبة بالنَّار، ولكنَّه تحتَ مشيئة الله -عَزَّ وَجَلَّ- إنْ شاءَ عذَّبَهُ فبعدلِهِ، وإنْ شاءَ عَفَا عنه فبفضلِهِ.

((**فَلا يُبعَّدُ إلا أَهْلُ النَّارِ**)): فإذا كان من فُسَّاق الْمُسلِمين وفُجَّارهم الْمُتهتكِينَ بحدود الله، ولكنَّه على الإسلام، فإنَّه لا يُخرَج عن الإسلام بارتكاب الكبائر، لكنَّه شرٌّ وبلاءٌ، فيه من الشَّرِّ بحسب ما أصاب من الحدود، ولذلك يضعونَهُ عن رقابهم.

والَّذِي يَظْهَرُ -والعلمُ عندَ اللهِ- أنَّ الْمُقابلةَ هنا ما بين الإيمان والفجور، وهذا هو ظاهرُ ما تدلُّ عليه النُّصُوصُ، كما ثَبَتَ في الصَّحِيحَين من قوله: ((**مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ فَقَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ**

مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ..إلى آخر الحديث)) فهذا يدلُّ على أنَّ الْمُقابلةَ ما بين الْمُسلِم والفاجر.

((**الْجَنَازَةُ مَتْبُوْعَةٌ، وَلا تَتْبَعُ**)): الْجَنَازَة متبوعة، ولا تَتْبَع.

((**الْجَنَازَةُ مَتْبُوْعَةٌ**)): هذا يدلُّ على أنَّ الْمَشْي والرُّكوب كلَّه وراء الْجَنَازَة، أنَّها متبوعة.

((**وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَقَدَّمَهَا**)): ولو صحَّ هذا الحديثُ لصار الخلافُ في الحلِّ والتَّحريم؛ لأنَّ:

((**لَيْسَ مِنَّا**)) أي ليس على هدينَا، وهي مما يدلُّ في كثيرٍ من هذه الصِّيغ على التَّحريم، يدلُّ على تحريم الفعل، ولكنَّ الحديثَ لم يَصِحَّ، ولو صحَّ لكان فيصلاً في النِّزاع أنَّه لا يُمشى أمامَ الْجَنَازَة، ولكن صحَّ الْمَشْيُ أمامَ الْجَنَازَة عن أبي هريرةَ وأبي قتادةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-من الصَّحَابةِ، وما تقدَّم معنا في الحديث يشيرُ إليه.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: سمعْتُ مُحَمَّدَ بنَ إسماعيلَ يُضعِّفُ حديثَ أبي ماجدٍ لهذا.

وقال مُحَمَّدُ: قال الحميديُّ: قالَ ابن عُيَينَةَ: قيلَ ليحيى: مَنْ أبو ماجدٍ هذا؟ قال: طائرٌ طارَ فَحَدَّثَنَا.

الشَّرْحُ:

رحمةُ الله عليهم، عندَهم عباراتٌ جميلةٌ (طائرٌ طارَ فَحَدَّثَنَا، أشبهُ بالرِّيح)، وعند العلماء بعضُ الفُكَاهَاتِ يدخلونَهَا في كلامهم، هي تتضمنُ ما يدلُّون عليه.

الإمامُ ابنُ العربيِّ الإمامُ الْمُفَسِّرُ الْمَشهُورُ تكلَّم على إحدى القضايا في نقاشه للفلاسفة، قال: (فقلْنَا على الوتير، قالُوا: ما الوتيرُ؟ قلْنَا: أبو الأثيرِ، فإنَ قالُوا: ما أبو الأثيرِ؟ قلْنَا: خَلْطٌ بَخَلْطٍ، وَتَضْلِيْلٌ بِتَضْلِيْلٍ)، فهذه بعضُ العبارات عند العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وقد ذهبَ بعضُ أهلِ العلمِ من أصحابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغيرِهم إلى هذا، رأوا أَنَّ الْمَشْيَ خلفَها أفضلُ، وبهِ يقولُ سفيانُ الثَّوريُّ وإسحاقُ.

قال: إنَّ أبا ماجدٍ رجلٌ مجهولٌ لا يُعرَف، إنما يُروى عنه حديثانِ عن ابنِ مسعودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، ويحيى إمامُ بني تيمِ اللهِ ثقةٌ، يُكنَى أبا الحارثِ، ويُقَالُ لهُ يحيى الجابرُ، ويُقَالُ لهُ يحيى الْمُجَبِرُ أيضًا، وهو كوفيٌّ، روى لهُ شعبةُ وسُفيانُ الثَّوريُّ وأبو الأحوصِ وسفيانُ بنُ عُيَينَة.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَّةِ الرُّكُوبِ خَلْفَ الْجَنَازَةِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا عَليُّ بنُ حُجرٍ، أَخْبَرَنَا يحيُ بنُ يونسَ، عن بكرِ بنِ أبي مريمَ، عن راشدِ بن سعدٍ، عن ثوبان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فِي جَنَازَةٍ، فَرَأَى نَاسًا رُكْبَانًا فَقَالَ: ((**أَلا تَسْتَحْيُونَ؟ إِنَّ مَلائِكَةَ اللهِ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَأَنْتُمْ عَلَى ظُهُورِ الدَّوَابِّ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن المغيرةِ بنِ شُعبةَ، وجابرِ بن سَمُرَةَ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: حديثُ ثوبانَ قد رُوِيَ عنهُ موقوفًا، قال محمدٌ: الْمُوقوفُ منه أصحُّ.

الشَّرْحُ:

هذا الحديثُ لم يَصِحَّ إسنادُه عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ومذهبُ الأئمةِ أنَّه يجوزُ الرُّكُوبُ في تشييع الْجَنَائِز.

وحديثُ الْمُغيرة في سُنَنِ أبي داودَ يدلُّ على ذلك، فإنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقول: ((**الرَّاكِبُ يَسِيرُ خَلْفَ الْجَنَازَةِ**)) أي خلفَ الْجَنَازَة، فيجوزُ الرُّكُوبُ خلفَ الْجَنَازَة، سواءً وُجِدَتْ حاجةٌ، ككبار السِّنِّ والضُّعفاء أو الْمَرضى أو مَنْ يحتاجُ إلى الرُّكُوبِ لعلَّةٍ، أو لم تُوجَدْ حاجةٌ.

ولكنَّ الأفضلَ والأعظمَ في الأجرِ أنْ يمشيَ مع الْجَنَازَة، وأنْ لا يركبَ؛ لأنَّ الْمَشْيَ في الطَّاعة أعظمُ أجرًا من الرُّكُوب، ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ**)) فدلَّ على أنَّ الْمَشْيَ أفضلُ من الرُّكُوبِ، إلا ما ثبتَتْ به السُّنَّةُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فيكونُ تفضيلُهُ من جهة الاتباع.

وقد اختلفَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ-: هل الأفضلُ أنْ يحجَّ الإنسانُ ماشيًا أم يحجَّ راكبًا؟

فقالَ طائفةٌ من العلماءِ: الحجُّ راكبًا اتباعًا للسُّنَّةِ أفضلُ.

وهذا أجابَ عنه بعضُ أهلِ العلمِ: أنَّ الْمَشْيَ أفضلُ، وأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- تركَهُ خشيةَ الْمَشقَّة على الأُمَّةِ، **وهذا له أصلٌ**: أنَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كان يحبُّ أنْ يعملَ العملَ، ولكنَّه يتركُهُ خشيةَ أنْ تتكلَّفَ الأُمَّةُ مِنْ بعدِهِ،فلو حجَّ-عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-ماشيًا لشقَّ ذلك على الأُمَّة. وقالُوا: أيضًا إنَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- حجَّ راكبًا حتى يرى النَّاسُ الشَّعائرَ والسُّنَنَ، ولذلك طافَ في طوافِ القُدُوم في حجة الوداع وهو غيرُ راكبٍ، وأمَّا طوافُ الإفاضةِ فإنَّه طافَهُ على بعيره، كما ثبتَ وصحَّ عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، قالُوا: لأنَّه طافَ على البعير من أجل أنْ يراهُ النَّاسُ، ولذلك أشارَ إلى ذلك الرَّاوي أنَّ النَّاسَ كانُوا كثرُوا، وصارُوا يسألُون: ما يفعلُ رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟ فطافَ على بعيره طوافَ الإفاضة، فدلَّ على أنَّ الرُّكُوبَ لعلَّةٍ.

فَالْمَقْصُود من هذا: أنَّ الْمَشْيَ أفضلُ من الرُّكُوب، ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، كما في الحديث الصَّحيح: ((**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ...**))، فالْمَشْيُ إلى الطَّاعة أفضلُ؛ لأنَّه أكثرُ تعبًا، وأكثرُ عناءً، وأكثرُ جهدًا.

وهو أيضًا في الوفاء لِلمَيِّت أعظمُ، وكان من وَصَايَا سعيدِ بنِ العاصِ لابنِه لَمَّا تُوُفِّيَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ، وكان بقصره في العقيق، وهو قريبٌ من الجامعة الإسلامية اليوم، بما لا يَقِلُّ عن أربعة كيلو، أو خمسة كيلو من الْمَسجد، قال لابنه: يا بُنَيَّ، قُلْ لأبناء عمِّي يحملُونَنِي، إذا أنا مِتُّ.

كان من وصيته، قال: قُلْ لأبناء عمِّي أنْ يحملُونَنِي، فما صَنَعْتُ بهم لا يمنعُنِي من ذلك، فإنَّ الْمَعروفَ الذي صَنَعَهُ بهم في حياته لا يمنعُهُم من حَمْلِهِ.

فاختارَ أنْ يُحمَلَ على أعناق الرِّجال، لا أنْ تُحمَلَ جنازتَهُ، ويفوتُهُم أجرَ الْمَشْي بها، وحصولَ الثَّواب.
وحُمِل أبو هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وسعدُ بنُ أبي وقاصٍ من مزارعهم بالعقيق، وهي على مسافةٍ بعيدةٍ من الْمَسجدِ كما هو معلومٌ.
وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ الأفضلَ الْمَشْي، وأمَّا الرُّكُوبُ فهو جائزٌ، وقد دلَّتِ السُّنَّةُ على جوازه، لكن ما دلَّ عليه الحديث من الْمَنع من الرُّكُوب، هذا ضعيفٌ سندًا، وضعيفٌ متنًا، ولذلك يجوزُ ويُشرَعُ أنْ يركبَ، **لكنَّ الأفضلَ والأكملَ** أنْ يُمشَى مع الْجَنَازَة.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّخْصَةِ فِي ذَلِكَ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا محمودُ بنُ غيلانَ، حَدَّثَنَا أبو داود، حَدَّثَنَا شُعبةُ، عن سِماكِ بنِ حربٍ قال: سمعتُ جابرَ بنَ سَمُرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يقولُ: ((**كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فِي جَنَازَةِ أَبِي الدَّحْدَاحِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ يَسْعَى، وَنَحْنُ حَوْلَهُ، وَهُوَ يَتَقَوَّصُ بِهِ**)).

الشَّرْحُ:

ترجمَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرْجَمة التي تدلُّ على جواز الرُّكُوبِ، وذَكَرَ هذه القصةَ التي أصلُهَا في صحيحِ مُسْلِمٍ.

وأبو الدَّحداح: اسمُهُ ثابتٌ، يُقَالُ: أبو الدَّحداحِ، وابنُ الدَّحداحِ، وأبو الدَّحداحةِ.

وهو ثابتُ بنُ الدَّحداحِ، اُختُلِف في هذه القصةِ.

قِيلَ: إنَّه اُستُشهِد يومَ أُحُدٍ، وكانَتْ وفاتُهُ في أرض الْمَعركة.

والقولُ الثَّانِي: أنَّه أُصِيْبَ يومَ أُحُدٍ، وما زالَتْ به جراحُهُ حتى تُوُفِّيَ قريبًا من الخندق.

وهذا الذي رجَّحه غيرُ واحدٍ من العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-، **وهو الأقوى**.

ويدلُّ عليه: هذه القصةُ التي أصلُهَا في الصَّحيح.

وأبو الدَّحداحِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- هو صاحبُ القصة الْمَشهورة، أنَّه لَمَّا نزلَ قولُ الله -عَزَّ وَجَلَّ-: **{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ}**، قال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَسْتَقْرِضُنَا اللهُ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنَّا؟ قَالَ: ((**نَعَمْ يَسْتَقْرِضُكُمْ؛ لِيَرْفَعَ مِنْ دَرَجَاتِكُمْ، وَيُكَفِّرَ مِنْ خِطَيْئَاتِكُمْ**)) قال: يا

رسول الله، إنِّي لي حائطًا فيه ستمائةُ نخلةٍ، أُشهِدُكَ أنَّها للهِ ورسولِهِ، ثم خرجَ إلى أولاده وزوجه وهي مع أولادها في الحائطِ، فقال لها:

بِيْنِي مِنَ الْحَائِطِ بِالْوُدَادِ فَقَدْ مَضَى قَرْضًا إِلَى التَّنَادِ
أَقْرَضْتُهُ اللهَ عَلَى اعْتِمَادِ إِلا رَجَاءَ الضِّعْفِ فِي الْمَعَادِ
وَالبِرُّ لا شَكَّ فَخَيْرُ زَادِ قَدَّمَهُ الْمَرْءُ إِلَى التَّنَادِ

فما كان من الْمَرأَةِ الصَّالحةِ إلا أنْ قالَتْ له:

بَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ وَفَرَحْ مِثْلُكَ أَدَّى مَا لَدَيْهِ وَمَنَحْ
قَدْ مَتَّعَ اللهُ عِيَالِي وَفَرَحْ بِالْعَجْوَةِ السَّوْدَاءِ وَالزَّهْوِ البَلَحْ
وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَلَهُ مَا قَدْ جَرَحْ طَوْلَ اللَّيَالِي وَعَلَيهِ مَا اجْتَرَحْ

ثم ضربَتْ أيدي صبيانِهَا، وخرجَتْ من الحائط بلا تمرةٍ واحدةٍ، فقامَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- إلى أعذاق النَّخل وقطَّعَها، ثم جاء بها وعلَّقَها في مسجد رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فلَمَّا خرج -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- إلى الصَّلاة، ورأى أعذاقَ البلح وعراجينَه معلقةً بالْمَسجد، وعَلِمَ أنَّها منه، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**كَمْ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ مِنْ دَارٍ فَيَاحٍ، وَعِذْقٍ رَدَاحٍ فِي الْجَنَّةِ**)).

((**وَعِذْقٍ رَدَاحٍ**)): الرَّدَاح هو الثَّقيلُ، وهذا بشارةٌ له أنَّه من أهل الجنَّة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

ولَمَّا تُوُفِّيَ شيَّعَهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وحضر جنازتَه، كما هو حالُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الوفاءِ لأصحابه في شهود جنائزهم، والصَّلاة عليهم، والتَّرَحُّمِ عليهم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيهِ إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ، وَجَزَاهُ عَنَّا وَعَنْ أُمَّتِهِ خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ نُبُوَّتِهِ وَصَاحِبَ رِسَالَةٍ عَنْ رِسَالَتِهِ، وَآتَاهُ الْوَسِيْلَةَ وَالْفَضِيْلَةَ وَبَعَثَهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُوْدَ الَّذِي وَعَدَهُ-.

فسار -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في جنازته، فبيَّنَ الصَّحابيُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فبيَّنَ حالَه فقال: قالَ: ((**كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فِي جَنَازَةِ أَبِي الدَّحْدَاحِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ يَسْعَى**))، يدلُّ على أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ركبَ في هذه الْجَنَازَة، وأنَّه لم يمشِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

((**وَنَحْنُ حَوْلَهُ، وَهُوَ يَتَقَوَّصُ بِهِ**))، ((**يَتَقَوَّصُ**)): أي أنَّ الفرسَ يَثِبُ مع تقارُبِ الخُطَا، هذه حالٌ للفرس، أنَّه يقفزُ بصاحبه مع قُرْبِ الخُطَا؛ لأنَّه في حال الْمَشْي، مَنْ يكونُ معه فرسٌ، فإنَّ الفرسَ يُزَمُّ بعنانِهِ، فإذا أطلقَ له العِنَانَ سَبَحَ الفرسُ وأسرع، فإذا أمسكَ عنانَه فإنَّ الفرسَ يريدُ أنْ يندفعَ، فيصبحُ

في هذه الحالةِ يقفزُ بصاحبه مع قُرْبِ الخُطَا، وهذا كثيرٌ ما يحصلُ إذا مشى الفرسانُ بحضور الرِّجال، فيخشى مزاحمتَهُم، فيلجمُ الفرسَ، ولا يُطلِقُ له العِنَانَ؛ لأنَّه إذا أَطلَقَ له العَنَانَ سَبَحَ، ولذلك يقولون: (أَطلَقَ له العِنَانَ)، ويُكَنُّونَ به عن التَّخلية والإرسال.

الْمَقْصُودُ من هذا: أنَّ الفرسَ يقفزُ مع تقارُبِ الخُطَا، لا أنَّه لا يسعى ولا يشتدُّ، وهذا يدلُّ على أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- آخذٌ بعنانِهِ.

ولهذا وَرَدَ في الحديث في بعض ألفاظه: ((**وَلَهُ قِصَّةٌ**))، أي أنَّ في الحديث قصةً، وهذه القصةُ قصةُ اليتيمِ.

قِيلَ: أنَّهَا في نفس الحائط، **وقِيلَ:** في غير الحائط.

وحاصلُهَا: أنَّ يتيمًا اشتكى أبا لبابةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في نخلةٍ في حائطِهِ، فقال النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لأبي لبابةَ: ((**أَعْطِهِ النَّخْلَةَ**)) وهذا على سبيل الشَّفاعة، والنَّخلةُ تُساوِي شيئًا كثيرًا، ولذلك كان عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يقول: إنَّه رأى في النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الجوع ما رأى، رآه رابطًا الحجرَ على بطنه،قال: (فخرجْتُ إلى العالية إلى يهوديٍّ، فاستسقيْتُ له، كلُّ دلوٍ بتمرةٍ)، الدَّلو ينزحُهُ من البئر بتمرةٍ واحدةٍ.

وهذا يدلُّ على أنَّ النَّخلةَ عزيزةٌ، وأنَّ التَّمرَ عزيزٌ.

والنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أرسل سريةَ أبي عبيدةَ، وزوَّدَهم جرابَ تمرٍ، هذا يدلُّ على شدة الحال، فما بالُك أنْ يخرجَ الإنسانُ من بستانٍ، أو يُقَالُ له: اترُكْ هذه النَّخلةَ، فالنَّفسُ مهما كان ضعيفةٌ، ولذلك قال وهو يخاطِبُ الصَّحَابةَ في الأموال، وكان النَّخلُ من أعزِّ الْمَالِ: **{إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}**.

فَالْمَقْصُود أنَّه: لَمَّا خاصمَهُ في النَّخلة عَرَضَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الصُّلحَ على أبي لبابةَ بأنْ يترُكَ النَّخلةَ لليتيم، فأبى أبو لبابةَ، فقال له: إنَّه إنْ تركَهَا فله عِذْقٌ في الجنَّةِ، فقال أبو الدَّحداح -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: يا رسولَ اللهِ، أرأيْتَ إنْ أعطيْتُهُ أيكونُ لي العِذْقُ في الجنَّة؟ قال: ((**نَعَمْ**))، فاشترى حائطَهُ بستمائة نخلةٍ، **قِيلَ:** نفسُ الحائط، وأنَّ القصةَ واحدةٌ.

وقِيلَ: إنَّهُمَا قصتانِ متغايرتانِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: حَدَّثَنَا عبدُاللهِ بنُ الصَّبَّاحِ الهاشميُّ، حَدَّثَنَا أبو قُتَيبَةَ، عن الجرَّاحِ، عن سِماكٍ، عن جابرِ بن سَمُرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **اتَّبَعَ جَنَازَةَ أَبِي الدَّحْدَاحِ مَاشِيًا، وَرَجَعَ عَلَى فَرْسٍ**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ:

هذه الرِّوايةُ **هي الأقوى**، وأنَّ ركوبَه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الرُّجوع، وهي التي تضمنَتْهَا روايةُ الصَّحيحِ أنَّه أُتِيَ بالفرسِ الْمَعرُورِ الذي ليس عليه سَرْجٌ بعد انتهاء الدَّفْنِ **وهذا هو الأصحُّ والأقوى**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِسْرَاعِ بِالْجَنَازَةِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا أحمَدُ بنُ منيعٍ، حَدَّثَنَا سفيان بنُ عُيَينَةَ، عن الزُّهريِّ أنه سمعَ سعيدَ بنَ الْمُسيَّبِ، عن أبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يبلُغُ بهِ النَّبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ، فَإِنْ يَكُ خَيْرًا تُقَدِّمُوهَا إِلَيهِ، وَإِنْ يَكُ شَرًّا تَضَعُوهُ عَنْ رِقَابِكُمْ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أبي بكرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ أبي هُريرَةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ:

ترجمَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه التَّرْجَمة في الإسراع بالْجَنَازَة، وقد اشتملَتْ هذه التَّرْجَمةُ على حكمٍ شرعيٍّ، وهو أنَّه ينبغي أنْ يُسرعَ بالْجَنَازَة، **وهذا يَحتَمِلُ وجهينِ:**

الوجهُ الأولُ: الإسراعُ بالْجَنَازَة عند الْمَشْي بها كما ذكرناهُ أنَّه يكونُ فوقَ الْمَشْيِ الْمُعتَادِ ودُونَ الخَبَبِ.

والوجهُ الثَّانِي: أنْ يكونَ الْمُرَادُ بالإسراع بالْجَنَازَة أنَّه إذا تُوُفِّيَ الْمُسلِمُ، فإنَّه لا يجوزُ تأخيرُ تغسيله وتكفينه والصَّلاة عليه ودفنه.

وهذا الوجهُ الثَّانِي يحتملُهُ الحديثُ، وجاء ما يُقَوِّيه أيضًا في الأحاديث الأُخَر، أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نصَّ في لفظ الإسراع، وقال: ((**وَعَجِّلُوا بِهَا**)) أي عجِّلُوا بالْجَنَازَة.

وقال في حديث أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الذي صحَّحَهُ غيرُ واحدٍ في السُّنَنِ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**لا يَحِلُّ لِجِيْفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تَبْقَى بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِهِ**))، وهذا الحكمُ وهو أنَّه ينبغي الإسراعُ في الْمَيِّتِ إنَّما هو في حالةِ التَّأكُّدِ من وفاته.

وأمَّا إذا شُكَّ في وفاته ولم يجزمِ الأطباءُ بأنَّه مَيِّتٌ، فلا يجوزُ تغسيلُهُ ولا تكفينُهُ ولا الصَّلاةُ عليه ولا دفنُهُ إلا بعد تحقُّق الوفاةِ، أو غلبةِ الظَّنِّ بها؛ لأنَّه الأصلُ فيه أنَّه حَيٌّ حتى يُستيقَنَ أنَّه مَيِّتٌ، فإذا تيقَّنَّا أنَّه ماتَ وظهرَتْ عليه أماراتُ الْمَوتِ التي يغلبُ على الظَّنِّ معها أو بها أنَّه مَيِّتٌ، فحينئذٍ ينبغي الإسراعُ، وهذا الوجهُ الثَّانِي يحتملُهُ التَّأويلُ.

وقد حكى الإمامُ الحافظُ ابنُ عبدِ البَرِّ في الاستذكار وغيرِهِ الوجهين عن أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ- وقال: إنَّ الوجهَ الثَّانِي يحتملُهُ الحديثُ، وتؤيِّدُهُ الرِّواياتُ الأخرُ.

وأَيًّا ما كان فإنَّ الحديثَ محتملٌ للوجهين:

الإسراعُ في الْمَشْي، **والإسراعُ** في تجهيزه وتكفينه والصَّلاة عليه؛ لأنَّه يُعجَّلُ به إلى الخير الذي أعدَّهُ اللهُ له في برزخه وآخرته.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا يَحِلُّ لِجِيْفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تَبْقَى بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِهِ**)) يدلُّ على التأثيم؛ لأنَّ صيغةَ: (**لا يَحِلُّ**) يسميها العلماءُ (نفيَ الحلِّ، ونفيَ الجواز)، من صيغ التَّحريم، ولذلك التَّأخيرُ في تجهيز الْمَيِّتِ وتكفينه والصَّلاة عليه من دون حاجةٍ ومن دون ضرورةٍ، يعتبرُ مُحَرَّمًا شرعًا. وقد عمَّتْ به البلوى في هذا الزَّمان، فإنَّ النَّاسَ قد ضيَّعُوا حقوقَ الْمَوتَى، وأصبحُوا يُؤَخِّرُون موتاهم إلى ساعاتٍ، بل بعضُهم يُؤخِّرُ إلى اليوم واليومين، وتعدُّوا إلى الأيام، وأصبحَتِ الْمُبَالغةُ في ذلك شيئًا عاديًّا، وهذا لا يجوزُ، الأصلُ يقتضي الْمُبادرةَ بالْمَوتى.

وأمَّا ما وَرَدَ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **من حاله من تأخيرِ صلاته**؛ فلشُغلِ الصَّحَابة بالأمور التي نزلَتْ بهم وليس بتأخيرٍ اختياريٍّ كما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ من أهل العلم، أنَّهُم أصابَهُمُ الشُّغلَ عن الْمُبادرة برسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، بخلاف غيره، فإنَّ غيره باقٍ على الأصل. ولذلك إذا وُجِدْتْ حاجةٌ للتَّأخير مثل التَّأكُّدِ من وفاته أو نحو ذلك، مثل وجود حاجةٍ للتَّأخير كأمورٍ تستدعي من الجناية عليه، فيُحتاجُ أنْ يُعرفَ مَنِ الذي جَنَى عليه، لأمورٍ مهمةٍ، أو يكونُ به مَرَضٌ، وهذا الْمَرضُ قد يُضِرُّ بالعامة، فيحتاجُ إلى معرفة أشياءٍ من جسده أو نحو ذلك مما فيه ضرورةٌ وحاجةٌ تستوجبُ حبسَ الجُثَّةِ وتأخيرَ تغسيلها، فهذا يُسْتَثْنَى بقدر الضَّرورة.

وأمَّا ما يفعلُهُ النَّاسُ من انتظار فُلانٍ وعِلانٍ وقريبِه حتى يأتيَ من السَّفر، فحقُّ الْمَيِّتِ أولى.

وينبغي على كلِّ قريبٍ أنْ يُنَبَّهَ على أنَّ من إكرامه لِلمَيِّتِ أنْ يبادرَ بتغسيله وتكفينه.
وكونُ البعضِ يقولُ: أريدُ أنْ أَشهَدَ تغسيلَه، هذا لنفسه، والحقُّ لِلمَيِّتِ، وليس لأهله، الحقُّ في الْمُبادرةِ به لِلمَيِّتِ،ولذلك لَمَّا يقولُ: أريدُ أنْ أشاهدَهُ، أريدُ أنْ أقبِّلَهُ،والبنتُ تقولُ: أريدُ أنْ أُقَبِّلَ أبي، أريدُ أنْ أُسَلِّمَ على أبي،كُلُّ هذا لا يبيحُ التَّأخيرُ،فهذا الحقُّ للحيِّ،لا يضيعُ بسببه حقُّ الْمَيِّتِ، فينبغي الْمُبَادرةُ

بتجهيز الْمَوتى وتكفينهم وتغسيلهم والصَّلاة عليهم؛ لأنَّه إذا تأخَّرَ تغسيلُهُ فإنَّه يُنْتِنُ وتتغيَّرُ رائحتُهُ، ويتأذَّى النَّاسُ بحملِهِ، وبدخوله للمسجد.

ومن هنا، ينبغي العملُ بهذه السُّنَّةِ وإحياؤُها، وينبغي تنبيهُ النَّاسِ في الخُطَب والفتوى والدُّروس العلمية على أنَّ هذه الْمُحدثاتِ والْمُنكراتِ من تأخير الْمَوتى لحضور فُلانٍ وعِلانٍ تأخيرًا مُزعجًا.

أمَّا إذا كان تأخيرًا يسيرًا: فلا بأسَ به ولا حرجَ، التَّأخيرُ اليسيرُ لا بأسَ به ولا حرجَ.

وأمَّا التأخيرُ الذي لا داعيَ له ولا طائلَ: فهذا مخالفٌ للسُّنَّةِ، والنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ**))، ((**وَأَسْرِعُوا**)) أمرٌ، ولذلك ينبغي الْمُبَادرةُ بتغسيل الْمَوتى وتكفينهم والصَّلاة عليهم وقولُ البعضِ يتوفَّى يومَ الخميس فيقولُ: نريدُ أنْ نؤخِّرَهُ إلى يومِ الجمعة حتى يكثرَ الْمُصلونَ عليه وبعضُهم يقولُ: إنَّا نؤخِّرُهُ إلى يومِ الاثنين، تُوفِّي يومَ الأحد فيقالُ: نؤخِّرُهُ إلى يوم الاثنين، كُلُّ هذا لا أصلَ له، وهو مخالفٌ للسُّنَّةِ.

ولذلك ينبغي أنْ يُعلَّمَ النَّاسُ سنةَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديَه، وأنَّ الْمُبادرةَ بالْمَيِّتِ من حقِّه وإكرامه، وأنَّه يُعجَّلُ به إلى خيرٍ، ولذلك تقولُ الْجَنَازَةُ إذا كانَتْ صالحةً: ((**قَدِّمُونِي، قَدِّمُونِي**)).

((**قَدِّمُونِي، قَدِّمُونِي**)): شوقًا إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وشوقًا إلى رحمته وما أعدَّ من كرامتِه؛ لأنَّ الْمُؤمِنَ يُبَشَّرُ عند موته بالخير من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، كما نصَّ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- على ذلك في قولِهِ: **{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}**، **{لا تَخَافُوا}**: مما أنتم قادمون عليه، **{وَلا تَحْزَنُوا}**: على فراق هذه الدُّنيَا وأهلها، **{وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}** أصدقُ القائلين، وأوفى مَنْ وَعَدَ، وأبرُّ بخلقه، وهو الودودُ الذي يودُّ عبادَه بودِّهِ ورحمتِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فإذا ذُكِرت هذه البشائرُ للنَّفسِ الْمُؤمِنةِ، كما قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الصَّحيح عن البراء بن عازبٍ: ((**أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا أُحْتُضِرَ نَزَلَتْ إِلَيهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيْضُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَجْلِسُ مَلَكُ الْمَوْتِ عِنْدَ رَأْسِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا الرُّوْحُ الطَّيِّبَةُ، اُخْرُجِي إِلَى رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**)).

فهذا يجعلُ الرُّوحَ تشتاقُ إلى ربِّهَا، وتريدُ العجلةَ حتى ترى ما وعدَهَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- وبشَّرَهَا به، واللهُ يقولُ في كتابه: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرْ الْمُؤمِنينَ}**، فهذا الشَّوقُ من الرُّوح الْمُؤمِنةِ والنَّفسِ الْمُؤمِنةِ يُرادُ به التَّعجيلُ؛ لكي تُصِيبَ ما عندَ الله من الْمَثوبةِ والخيرِ.

فهذه هي السُّنَّةُ أنْ يُعجَّلَ بموتى الْمُسلِمين، وأنْ لا يؤخِّرَ ولا يُحبَسُوا إلا على وجهٍ شرعيٍّ، ولعذرٍ شرعيٍّ.

((**أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ**)): **الْجَنَازَةُ: تُطلَقُ** على السَّريرِ وما فيه، **وتُطلَقُ** على الْمَيِّتِ نفسِهِ.

والْمُرَاد هنا: أنْ يُبادرَ بالْمَيِّتِ، والأصلُ فيه أنَّه محمولٌ، فيُسرَعُ بتجهيزه وتكفينه والصَّلاة عليه والْمُبادرة بدفنه.

((**فَإِنْ يَكُ خَيْرًا تُقَدِّمُوهَا إِلَيهِ**)): فسَّرهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في اللفظ الآخر: ((**فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً**)) فهذا يدلُّ على أنَّ الْمُرَادَ بالخير هنا خيرُ الإنسان الْمَحمول والْمَيِّتِ، أنَّه إذا كان خيِّرًا صالحًا فإنَّه يُقدَّمُ إلى الخير ، كأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقول: إنَّكم تُكرمونَ موتاكم وتُحسِنُون إلى الْمَوتى بتقديمهم إلى الخير الذي أعدَّهُ اللهُ لهم، جعَلَنَا اللهُ وإيَّاكُم منهم.

((**وَإِنْ يَكُ شَرًّا تَضَعُوهُ عَنْ رِقَابِكُمْ**)): إن كانَتْ هذه الْجَنَازَة صاحبُهَا -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- ذا شرٍّ، -وَنَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ- من أهل الفجور، فإنَّ الْمُبادرةَ به والإسراعَ به كفايةٌ من شرِّهِ.

((**تَضَعُوهُ عَنْ رِقَابِكُمْ**)): يدلُّ على أنَّ الْمَيِّتَ يُحمَلُ، يدلَّ على أنَّ الْمَيِّتَ مَحْمولٌ، وهذا هو الأصلُ، وقالُوا: إنَّ السُّنَّةَ فيه التَّرْبيعُ، أنَّه يُحمَل مُرَبَّعًا.

نَسألُ اللهَ أنْ يرزقَنا وإيَّاكُمُ العلمَ النَّافعَ والعملَ الصَّالحَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

رقم الدَّرس ٤١٨

الأربعاء ٧-٥-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطي

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ ما جاءَ في قتلى أُحدٍ وذِكرِ حَمزةَ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ حَدَّثنا أبو صفوان عن أُسامةَ بن زيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن ابن شِهابٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: - ((أتى رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على حمزةَ يومِ أُحدٍ، فوقفَ عليهِ فرآهُ قد مُثِّلَ بهِ، فقالَ: ((**لولا أنْ تجدَ صفيَّةُ في نفسِها لتَركتُهُ حتى تأكلَهُ العافيةُ حتى يُحشرَ يومَ القيامةِ من بطونها**))، قال: ثُمَّ دعا بِنَمِرةٍ، فكفَّنهُ فيها، فكانت إذا مُدَّتْ على رأسهِ بدتْ رجلاهُ، وإذا مُدَّتْ على رجليهِ بدا رأسهُ، قال: فكثُر القتلى، وقلَّتْ الثيابُ، قال: فكُفِّنَ الرَّجُل والرَّجُلانِ والثلاثةُ في الثَّوبِ الواحدِ، ثُمَّ يُدفنونَ في قبرٍ واحدٍ، فجعلَ رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يسألُ عنهمْ: أيهم أكثرُ قُرآناً، فيقدِّمهُ إلى القِبلةِ، قالَ: فدفنهم رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ولم يصلِّ عليهم)).

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حديثُ أنسٍ حديثٌ حسنٌ غريبٌ، لا نعرفهُ من حديثِ أنسٍ إلاَّ من هذا الوجهِ.

الشَّرح:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ الأتمانِ الأكملانِ على خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على سبيله ونهجه، واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ:

فقد ترجم الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه الترجمة، والتي تتعلقُ بشهداء أُحُدٍ، والواقع أنَّ هذا الحديثَ الذي ذكره -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ- مشتملٌ على جملةٍ من الأحكام التي تتعلقُ بالشَّهِيْدِ، وما ينبغي أن يكون في أمره.

وقد أجمع العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- على فضل هذه الطاعة والقربة، وهي أن يموت الإنسان شهيداً في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، مبتغيًا مرضاة الله، مقبلاً غيرَ مدبرٍ، على الوجه الذي سنَّه الشرعُ.

فهذه المنزلة العظيمة اخْتَصَّها الشرعُ بأحكام:

منها ما يتعلق بمسائل التغسيل والتكفين، **ومنها** ما يتعلق بالصلاة عليه، **ومنها** ما يتعلق بعلوِّ الدرجة، وحسن العاقبة عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- في الآخرة.

ونظراً لاختصاص هذا النوع من الموتى بهذه الأحكام الشرعية والمنازل العظيمة عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-اعتنى أئمةُ الحديث وأئمةُ الفقه أيضاً ببيان ما خُصُّوا به من أحكام.

وهذا الحديث الذي ذكره -رَحِمَهُ اللهُ- فيه جملة من المسائل الشرعية، والتي تتعلق بالشُّهداء.

والشَّرط في الشَّهيد حتى تكون شهادتُه معتبرةً: أن يكون قاصداً إعلاء كلمة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولذلك قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما في الحديث الصحيح: ((**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُوْنَ كلمةُ اللهِ هي العليا، فهو في سبيلِ اللهِ**))، فهذا هو الأصل في الشهادة أن تكون نيتُه محمودةً شرعاً، قاصداً بها وجه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ومؤثراً بها ما عند الله على هذه الدنيا الفانية.

وليس هناك مقامٌ أعظم من أن يقدِّمَ الإنسانُ روحَه في سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ- وسبيل مرضاته ومحبته، ولذلك أنزله الله -عَزَّ وَجَلَّ- المنازل العُلَى في الجنة، واختصَّه بكثيرٍ من الخصائص والفضائل والنوائل التي لا ينالها إلا من قَاتَلَ في سبيل الله.

وفي الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قال: ((**مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيل الله**)) والمراد بالكَلْم الجُرْح، ((**إلا جاءَ يومَ القيامةِ، وجُرْحُهُ يَثْعُبُ دمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، والرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ**)).

وثبت في الحديث الصحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أنَّه يُغْفَرُ للشَّهيدِ عندَ أوَّلِ قطرةٍ من دمِهِ، وأنَّه يَشْفَعُ في سبعينَ من أهلِهِ**)) إلى غير ذلك من المنازل العظيمة، والمناقب الكبيرة، حتى إنَّه لا يجد من حَرِّ قبضِ روحِهِ إلا كقرصة النَّحْل، وهذا إشارة إلى علوِّ درجته، وأنَّه يوقى الفَتَّان وأنَّ روحَه في حواصل طيرٍ خُضْرٍ تسرح في الجنة، تشرب من أنهارها، وتأكل من ثمارها تأوي إلى قناديل معلَّقة بالعرش، كما في الحديث الصحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

فهذه المنازل العظيمة والدرجات العلى جعلها الله -عَزَّ وَجَلَّ- لهؤلاء الذين باعوا أنفسهم، فربحوا في بيعهم، ولذلك بيَّن الله صفقتَهم الرابحة، وأنَّه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، يُقاتلون في سبيل الله، فيَقتِلون، ويُقتَلون.

فهذا المقام الشريف والمنزل المنيف كان لأصحاب رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، و-رَضِيَ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم- فيه قَصَبُ السبق، فقد جاءت السِّيَرُ والآثار الصحيحة عنهم -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- أنَّهم جاهدوا في سبيل الله حقَّ جهادِه، وأنَّهم قدموا الغالي والرخيص، والنَّفْس والنَّفِيْس من أجل مرضاة الله

-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-فناصروا الدِّيْن، وحموا حمى الدِّيْن على الوجه الذي أرضى ربَّ العالمين -فرضي الله عنهم وأرضاهم وبشَّرهم بجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدًا-.

وفي الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه لما كان يوم أُحُدٍ، وقُتِلَ عبدُ الله بنُ حرام -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- والد جابر بن عبد الله -رضي عنهما- جعل جابرٌ يكشف الثوبَ عن وجه أبيه ويبكي، فقال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**ابكيه أو لا تبكيه، ما زالَتِ الملائكةُ تُظِلُّهُ حتى رفعتْهُ إلى السماءِ**)).

وفي الحديث الآخر قال: ((**يا رسول الله، أخبرني عن أبي، فإن كان في الجنة صبرت وتعزيت، قال: يا جابرُ، إنَّها جِنَانٌ، وإنَّ أباكَ قد أصابَ الفردوسَ الأعلى منها**)).

فكان أصحابُ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أسبقَ الأمة في الجهاد في سبيل الله، وأعرفَهم بما عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- وأحرصَهم على الخير، ولذلك قال الْمِقْدَادُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: (**والله، لا نقول لك مثل ما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا، إنَّا ها هنا قاعدون، ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقتلا إنَّا معكما مقاتلون**).

وخرجوا إلى بَدْرٍ وهم ثلاثمائة وأربعة عشر نفسًا أمام كثرةٍ من العدو، وقوةٍ وشوكةٍ وغلبةٍ، ومع ما للعدوِّ من السمعة والجاه، وغير ذلك من متاع الدنيا، فكانوا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم- هم أسبقُ الناس إلى حصول هذه المنزلة العظيمة، وهي الجهادُ في سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فلما خرجوا، خرجوا لطلب الْعِيْرِ، فلما أصبحوا أمام الموت، وأمام الشهادة، وأمام القتل والقتال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخبروا رسولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهم معه إن أراد أن يخوضَ بهم البحر خاضوا معه، كما قال قائلهم: (**والله، لو استعرضْتَ بنا البحرَ فخضتَهُ، لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجل واحد، ولعلَّ اللهَ أن يريَك منا ما تَقَرُّ به عينك**).

فصدقوا وبرُّوا، وأرى اللهُ نبيَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فيهم ما قرت به عينه، فكانوا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم- أُسْدُ الشَّرَى، ورِجَالُ الوَغَى الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبَه في زمان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ومنهم من بقي إلى ما بعد وفاة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- موفيًا بعهد الله، قائمًا بحقِّ الله، اللهم اجزِهم عنَّا وعن الإسلام وعن نبيّك خيرَ ما جزيْتَ صحبًا عن صحبته، اللهم أنزلْهم الدرجات العلا، واجمعْنا بهم مع الرضا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وكانت غزوة أُحُدٍ هذه التي ترجم لها المصنف -رَحِمَهُ اللهُ- من أشهر الغزوات التي ابتلي فيها المؤمنون والمؤمنات، وكان فيها البلاءُ عظيمًا، فَشُجَّ وجهُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ومَسَحَ الدَّمَ من على وجهِهِ، وقال: ((**كيف يفلحُ قومٌ شَجُّوا وجهَ نبيِّهم** -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-؟!))، ورأى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في هذا اليوم من البلاء الشديد والبلاء العظيم ما الله به عليم، فسقط في الْحُفْرَةِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- ورأى عَمَّهُ مجندلاً على الأرض، قد بُقِرَتْ بطنُهُ، ومُثِّلَ به -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، ورأى من أصحابِه وأحبابِه تلك المشاهد المؤلمة، ولكنه تسلَّى وتعزَّى -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- لعلمه بعظيم ما أعدَّ اللهُ لهم من الدرجات العلا، وكان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أثبتَ الناسِ جناناً، وأوضحَهم حجةً وبرهاناً، فكان على بينةٍ من ربِّه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

فهذا اليوم كان من أيام الله المشهودة، ومن الغزوات الشديدة المعدودة التي أُبتُلِي فيها المؤمنون وزُلْزِلُوا فيها زلزالاً شديدًا، وكان من مشاهد البلاء ما وَرَدَ في هذا الحديث من رؤية النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-لقريبِه وعمِّهِ وحبِّهِ حمزة بن عبد المطلب، أَسَد الله ورسوله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

عن أنسِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: ((**أَتَى رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **على حمزةَ يوم أُحدٍ، فوقفَ عليهِ فرآهُ قد مُثِّلَ بهِ**)): لما انتهت المعركة قام -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يتفقد أصحابه، وهذا هو شأنه، وشأن المعارك أنَّه إذا أُنتُهِيَ منها تفقد الناسُ ما يكون من المصاب والبلاء، فوقف -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- هذا الموقف على عَمِّهِ، وكان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- أَسَدُ اللهِ ورسولِه، كان من أشدَّ الناس شكيمة في الحرب، وكان معروفًا بالشجاعة والبسالة، وكان بنو هاشم معروفين بذلك، فقَاتَلَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- يوم أُحُدٍ قتالاً شديداً، وأقبل، وكَرَّ، وفَرَّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، حتى رماه وَحْشِيٌّ بحربته ورُمِيَ على غِرَّةٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، لم يقتلْ وجهاً لوجه؛ وهذا من شجاعته وقوته، وجاء وصفه في السير: (**أنَّه كان كالبعير، لا يَهُدُّ على شيءٍ إلا قضى عليه** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-)؛ من قوته وبأسه في الحرب، وهذا هو شأنُ المؤمن الصادق، فإنَّه تحركُه العقيدة، ويحركُه الإيمان بالله وإرضاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- بكسر شوكة الذين كفروا وتمردوا على الله -عَزَّ وَجَلَّ- وعتوا على دينه وشرعه،فرماه وَحْشِيٌّ بحربته،فسقط -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-،وبعدها تناولتْهُ السيوفُ، بُقِرَتْ بطنُهُ، ومُثِّلَ به، وعادةً قد يُقْتَلُ القتيلُ في المعركة، وهذا حالٌ، وأن يُمَثَّلَ به، حالٌ آخر.

والتمثيل: أن تُقْطَعُ يدُهُ، أو يُجْدَعُ أنفُهُ، فتقطع يدُه، أو تقطع رجلُه، أو تبقر بطنُه.

فبُقِرَتْ بطنُ حمزةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وقيل: أُسْتُلَّ منها كبدُهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وكان مشهدُهُ مُروِّعًا، ولذلك لما جاءت صفيةُ أختُهُ، عمةُ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وقد بلغها خبرُ استشهاده، جاءتْ لا تلوي على شيءٍ من شدة الفاجعة، ورآها النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فقال فصاح: ((**المرأةَ**)) يعني عمته، فتلقاها الزبيرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في صدرها، فمنعها؛ حتى لا ترى ما كان عليه حمزة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

فوقف -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على عَمِّهِ في هذه الحالة، وهذا يدلُّ على دلالةٍ عظيمةٍ، **منها**: أنَّ كلَّ من تحمل همَّ الدِّيْن لا بد وأن يبتلى في ذات الله ربِّ العالمين ، هذا رسول الأمة -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ما من بلاءٍ إلا وأُبْتُلِي به حتى في نفسه وحبِّه وقرابته، فقدَّم -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- الكثيرَ سلوةً للأمة، وعزاءً لها، ولكي تسيرَ في هذا الطريق، طريق الإسلام المبني على الاستسلام والعبودية لله بتقديم الغالي والرخيص، دون ضعفٍ، ودون خَوْرٍ، ودون وَهْنٍ، ودون جُبْنٍ، ودون خَوْفٍ، ودون وَجَلٍ، فهذا هو الصدقُ مع الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فوقف -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ما وقفَ وقوفَ الخانع، ولا وقفَ وقوفَ الذَّليل -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وقفَ وقوفَ الشامخ المؤمن بقضاء الله وقدره، الصابر على البلاء، المحتسب الأجر عند الامتحان والبلاء -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، فوَجَّهَ وجهَهُ للحَيِّ القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فنزل عليه الوحيُ بالبشارة، وأنَّ هؤلاء الذين جُنْدِلُوا على الأرض أنَّهم في المنازل العلى من الجنة، وأنَّهم أفضوا إلى ربهم في ذلك المشهد العظيم، ومن جوار ذلك الجبل الذي أحبَّنَا ونُحِبُّهُ، سالت دماؤهم، ورُفِعَتْ إلى الله أرواحُهم؛ لكي ينالوا سعادةً لا شقاءَ بعدها أبداً،ورحمةً لا عذابَ بعده أبداً، وقفَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ونزل عليه الوحي من الله بما هم فيه من الخير والبشارة، فبشَّر-عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أصحابَه، وبشَّر الأحياءَ بما ناله هؤلاء السعداء وبيَّن الله-عَزَّ وَجَلَّ-هذه البشارة أنَّهم وقفوا بين يدي الله-عَزَّ وَجَلَّ- وسألهم أن يتمنوا،فكانت أمنيتُهم أن يعودوا إلى الدنيا؛ لكي يُقْتَلُوا ثانيةً في سبيله.

وكان في القرآن قوله تعالى: **(بشّروا عنَّا إخوانَنا أنَّا قد لقينا ربَّنا، فرضي عنا وأرضانا)** حتى نُسِخَتْ هذه الآية، وكان لشهداء أُحُدٍ من المنزلة العظيمة والمناقب الجليلة الكريمة.

ولما رآهم -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بهذه الأحوال، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**زَمِّلُوهُم في ثيابِهم؛ فإنِّي شَهِيْدٌ لهم بين يدي ربِّهم**)) أي أنَّه شهيدٌ لهم أنَّهم قُتِلُوا في سبيل الله، وأنَّهم نصروا دِيْنَ الله، وأعلوا

كلمة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وهذه منقبة ثانية، وقال النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لجابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**إنَّ اللهَ كَلَّمَ أباكَ كِفَاحًا ليسَ بينَهُ وبينَهُ حِجَابٌ، وقال: تَمَنَّ عبدِي، قال: أتمنى أنْ أعودَ فأُقتلَ في سبيلِك ثانيةً**)).

وأعدَّ الله لهم هذه المنزلة العظيمة؛ لما كانوا عليه من الصدق والثبات، وكانوا عليه من اليقين بما عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- من حسن العاقبة إذا هم قاتلوا في سبيل الله قتال المحتسبين المخلصين لإعلاء هذا الدِّيْن.

فقال: ((**لولا أنْ تَجِدَ صفيةُ في نفسِهَا**)) **الوَجْد**: هو الْحُزْن، وهذا يدلُّ على كرم خُلُقِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ورحمته.

و((**صفية**)): صفية بنت عبد المطلب، أختُ حمزة بن عبد المطلب، وهي عمةُ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-.

((**لولا أنْ تَجِدَ صفيةُ**)) فيه دليلٌ على شفقتِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

فيه دليلٌ على تفقدِهِ لأحوال النساء، فالنساءُ فيهنَّ ضَعْفٌ، وامتنعَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- من شيءٍ مراعاةً لخاطرها، وجبرًا لخاطرها، وهذا يدلُّ على أنَّه ينبغي التفطنُ لحال النساء، فإنَّ فيهنَّ من الضعف ما يدعو إلى العطف والإحسان والبر من الرِّجَال.

ولذلك ثبت في الحديث في الصحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه قال: ((**إنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضعيفين: المرأة، واليتيم**))، فالمرأة ضعيفة، فإذا كانت من القرابة كان حقُّها أعظمَ.

فهذه عمة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فراعى حالَها، مع أنَّه لو تركَهُ حتى تأكله السباعُ والعافيةُ والطير الجارح فإنَّ هذا أعظمُ وأعلى وأكثرُ ابتلاءً لحمزة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، لكنه مؤلِمٌ للحَيِّ، ومؤذٍ للحَيِّ.

وهو ممتنعٌ شرعًا أيضًا؛ لأنَّ الله سَنَّ في الأموات أن يُقْبَرُوا، وأن يُدْفَنُوا، ولذلك أرسل اللهُ الغُرَابَ إلى هابيل؛ لكي يريَهُ كيف يواري سوأة أخيه، وهذا هو الأصل، قال تعالى: **{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}**، فالأصل أنَّ الميت يُقْبَرُ، ولكنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَصَدَ بهذه العبارة بيان عظيم المنزلة، وعظيم الدرجة لهؤلاء الذين اُستُشهِدوا في سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ-، حتى أنَّه لا يبالي، حتى أنَّهم لو تُرِكُوا للطير، وتُرِكُوا للعافية من سباع الطير، وسباع الدواب تأكل أجسادَهم.

وهذا الحقيقة فيه إشارةٌ؛ لأنَّ كثيراً ما تكون الغزوات يحصل فيها شيءٌ من هذا، فكثيراً ما كان في الغزوات يُقْتَلُ فيها العددُ الكثيرُ، ويصعبُ تمييزُ المسلمين من غيرهم، فيحزنُ المسلمون لموتاهم ففي هذا الحديث سلوى، ولذلك كما قال أبو حمزة الشاري يصف أصحابه: (فكم من كَفٍّ في منقارِ طائرٍ طالما اعتمدَ عليها صاحبُها في السجودِ بينَ يدي اللهِ، وكم من عينٍ في فمِ طائرٍ طالما بكى صاحبُها من خشيةِ اللهِ).

فالمقصود أنَّ هذه الأجساد إذا أكلتْهَا السباعُ، أو انتهشتْها السباعُ، سواءً في الشهادة أو غيرها هذا لا يضرُّ، ولا يؤثرُ؛ لأنَّ العبرةَ بحال الإنسان.

وفيه دليل على أنَّ الجسدَ إذا تمزَّق وذهبَ أشلاءً في قتله أو موته أنَّ اللهَ قادرٌ على جمعه، كما في الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قال: ((**إنَّه كانَ فيمن كانَ قبلَكم رجلٌ لما حضرتْهُ الوفاةُ قال لأولاده: إذا أنا متُّ فحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروا نصفي في البَرِّ، ونصفي في البحر، فواللهِ لأن قَدِرَ اللهُ علي ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين**))، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**فلما ماتَ فعلوا به مثلَ ما قالَ، فأوحى اللهَ إلى البَرِّ: أن اجمعْ ما فيك، وأوحى إلى البحر: أن اجمعْ ما فيك، فإذا هو قائم بين يدي الله، قال: عبدي، ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: خشيتك يا رب، قال: قد غفرت لك**)).

فالمقصود أنَّ البعض يقول: كيف يعذب الإنسان وقد تمزقت أشلاؤه؟! وكيف يعذب وقد أكله السبعُ وأكلته الطيورُ الجارحة؟! وكيف يعذب الإنسان إذا انفجر وذهب قطعًا وأشلاء حتى يتعذر معرفته؟!

نقول: إنَّ الذي أوجد الإنسانَ من العَدَم قادرٌ على أن يوجدَه بعد هذه الأحوال، وأشدُّ من هذه الأحوال: **{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}**، فاللهُ قادرٌ على أن يُخْرِجَ هذه الأجساد بعد تفرقها وتمزقها، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

((**قال: لولا أنْ تَجِدَ صفيةُ**)) فيه دليلٌ على مراعاة أهل الميت، فقد تُترَكُ بعضُ السُّنَن وبعض الأمور التي قد تكون مستحبة، وليست واجبة، ولكن أهل الميت لضعف الإيمان أو نحو ذلك يُرَاعى حالُهم، كما رَاعَى النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حالَ صفية -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-.

((**لتركتُهُ حتى تأكلَهُ العافيةُ**))، ((**لتركتُهُ**)): الضميرُ عائدٌ إلى جسد حمزة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وإلا فروحُهُ في أعلى عِلِّيين كما بَشَّرَ النبيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بذلك الشُّهداءَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

((**لتركتُهُ**)): أي تركتُ الجسدَ.

((**تأكلُهُ العافيةُ**)): أي السباع، وسواءً كانت من الطير، أو من الدواب ((**تأكلُهُ العافيةُ**)).

((**حتى يُحشَرَ يومَ القيامةِ من بطونِهَا**)) اللهُ قادرٌ على أن يخرِجَه من بطون السباع، وهكذا إذا مات الإنسان فرُمِي في البحر، فإنَّه يُكَفَّن فلربما تنتهشُهُ الحيتان، ويتفرق بين الحيتان، فإنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- قادرٌ على أن يخرِجَه من تلك الأماكن التي هي في قعر المحيطات، أو قعر البحار لا يعجزُ اللهَ شيءٌ.

قال: ((**ثُمَّ دَعَا بِنَمِرَة، فكفَّنَه فيها**)) **النَّمِرَة**: البُرْدَة من الصوف مخطَّط، قيل: من صوف أو غيره، **فقال بعض العلماء**: يشمل الكساء أيضًا.

((**فدعا بِنَمِرَة**)): وهذا هو ما غَطَى به حمزة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-؛ لأنَّه كان محتاجًا إلى هذه التغطية وإلا فإنَّ الأصل أنَّ الشهيد يُزَمَّلُ بثيابه التي قُتِلَ فيها.

((**فكانَتْ إذا مُدَّتْ على رأسِهِ بَدَتْ رِجلاهُ، وإذا مُدَّتْ على رجليه بدا رأسُهُ**)) هذا يدلُّ على ما كان عليه النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وأصحابُه من ضيق الحال وضيق العيش، ولذلك كان عتبةُ بنُ غزوان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- يقول: (**ولقد رأيتُنا نغزو مع رسول الله** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **سابعَ سبعةٍ، ما لنا طعامٌ إلا ورقَ الشَّجَرِ، وإنَّ أحدَنا ليضعُ كما تضعُ الشاةُ، فلم نلبثْ حتى أصبحَ كلُّ واحدٍ منَّا على مصر، وذكر مصعبَ بنَ عميرٍ**)، فكان الصحابة إذا ذكروه بكوا قال: (**إنَّه كان له شَمْلَةٌ، إذا غَطَّوا بها وجهَهُ بَدَتْ رجلاه، وإذا غَطَّوا بها رجليه بَدَا وجهُهُ**) فقال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**غَطُّوا بها وجهَهُ واجعلوا على رجليه إذخرًا، أو شيئًا من الإذخر**)).

((**قال: فكثُر القتلى، وقلتِ الثِّياب**)) فكثر القتلى يوم أُحُدٍ، وقلت الثياب، والمراد بالثياب: ما يُغطَون به ويُكفَنون به.

قال: ((**فكفِّنَ الرجلُ والرجلانِ والثلاثةُ في الثوبِ الواحدِ، ثم يُدفَنون في قبرٍ واحدٍ**)) هذا على الأصل أنَّه إذا ضاق الحال يلتمس أقرب الأشياء إلى المسنون والمشروع، ولذلك يجوز دفن الثلاثة في القبر الواحد، والأربعة في القبر الواحد، والأصل المسنون أنَّ الميت يُدْفَنُ في قَبْرٍ لوحده ولكن هذا من كمال الشريعة، الشريعة فيها أصل، وفيها مستثنيات.

والمستثنيات: هي الأمور الخارجة عن الأصل، التي لا يمكن أن يعمل الناس فيها بالأصل، وهي في حالة كثرة الموتى، كما ذَكَرَ العلماءُ والأئمةُ، إذا كثُر الموتُ بسبب وباءٍ لا قدر الله، أو بسبب معركة، فيكثر الموتى، فحينئذٍ تكون أحوال خاصة، وأحكام خاصة تتناسب مع ضيق الحال، **والقاعدة: "أنَّ الأمرَ إذا ضاقَ اتَّسَعَ"**، وهذا من الضيق، أنَّه إذا كثُر القتلى فإنَّه لهم أحكامٌ تخصُّهم في التكفين وفي القبر.

((**فجعلَ رسولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يسألُ عنهم: أيُّهم أكثرُ قرآنًا، فيقدمُهُ إلى القبلة**)): ((**فجعلَ رسولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يسألُ عنهم**))، أي يسأل أصحابَه ((**أيُّهم أكثر قرآنًا**)) فيه دليلٌ على أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لا يعلم الغيب إلا ما أعلمَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- ((**أيُّهم أكثرُ قرآنًا**))، وهذا ثابت في الصحيح أنَّه كان يسأل.

وهناك من يبالغ في النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه يعلم، وأنَّه كُشِفَ له اللوحُ المحفوظُ، هو -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بَشَرٌ أَوْحَى اللهُ إليه، فعلَّمه ما لم يكنْ يعلمُ، ولكن علمُه محدودٌ مقصورٌ بالشيء الذي علَّمه اللهُ إياه، ليس هناك أحد يستطيع أن يعلم الغيب إلا الله، ولذلك استأثر الله بهذه الصفة العظيمة: **{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}**، وقال سبحانه: **{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ}**.

فكلُّ من يغلو في النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الغلو الذي لا يليق به -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، لله حَقٌّ، وللنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حَقٌّ، ولله قَدْرٌ، وللنبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَدْرٌ، لله حَقٌّ، حقُّ الخالقِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وللنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حَقٌّ وقَدْرٌ، حقُّ المخلوق الذي يليق به -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، فهو عَبْدٌ من عِبَادِ الله لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا: ((**يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ، سليني من مالي ما شئتِ، لا أملُك لكِ من اللهِ شيئًا**)).

فلا يجوز الغلو في النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وادعاء أنَّه يعلم الغيب، وأنَّه كُشِفَ له كلُّ شيءٍ، وأنَّه، وأنَّه، فهو -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يسأل أصحابَه: ((**أيُّهم أكثرُ قرآنًا**))، ما يعلم.

بعض الذين -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ- يشطحون ويبالغون يأتي ويقول: كُشِفَ له، أنَّ هذا أعلم من هذا، وأنَّ هذا أعرفُ من هذا، وهي شياطين، ممكن أن يخبر الشيطان مثل هؤلاء فيعتقدون فيمن يزعمون أنَّهم أولياء أنَّهم يكشفون، هذا رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، أهم خيرٌ من رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟! حاشا والله، فهذا يدلُّ على ضعف العبد أمام الخالق المعبود سبحانه.

وهذه الأمة زكاها الله بالوسطية والاعتدال أنَّها خرجت من الغلو، وسلمت من الإجحاف، إجحاف اليهود، ومن غلو النصارى: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}**، **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}**: هم الذين أجحفوا **{وَلا الضَّالِّينَ}**: هم النصارى الذين بالغوا، فالنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- جعلَ يسألُ أصحابَه.

فيه دليلٌ على مشروعية إخبار الإنسان بعلمه، أنَّه يحفظ من القرآن كذا، أو يحفظ من السنة كذا

بدليل: أنَّ الصحابة ما كانوا ليعلمون لولا أنَّ الميتَ أخبرهم أنَّه يحفظ من القرآن هذه السور، أو يحفظ من الآيات كذا وكذا، فدلَّ على جواز التحدث بالعلم.

لكن شرطَ هذا: أن تُؤمَنَ معه الفتنة، ألا يكون مقصوده الرياء والسمعة: ((**فمن راءى راءى اللهُ به، ومن سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ به**))، وإنَّما يكون مقصوده، مقصودًا شرعيًّا.

والسائل أيضًا مقصوده مقصودٌ شرعيٌّ، فلا يقصد من هذا ما يمتنع ويحظر شرعًا، وإنَّما يقصد من هذا أن يسأل أخاه عن حفظه؛ لكي يشحذَ همته ويحتقر نفسه، فينافسه في الخير.

أمَّا إذا كان الغرضُ غيرَ شرعيٍّ، مثل: المبالغة، ومعرفة الناس بعلم الإنسان على سبيل التعالي فهذا لا يجوز.

ففيه دليل على مشروعية إخبار الإنسان بما يعلم؛ لأنَّه ما كان للصحابة أن يعلموا بحفظ الرجل إلا إذا أخبرهم.

((**أيُّهم أكثرُ قرآنًا**)): فيه دليلٌ على أنَّ المرادَ بالأكثر قرآنًا: أكثر حفظًا، وليس المراد به إتقان القراءة، وقد قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**يَؤُمُّ القومَ أقرأُهم لكتابِ اللهِ**)).

فاختلف العلماء في قوله: ((**أقرأُهم لكتابِ اللهِ**)) هل المراد به كثرة الحفظ أم المراد به التجويد؟

وذلك على وجهين مشهورين:

أقواهما أنَّه الأكثرُ حفظًا؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال في حديث عمرِو بنِ سَلَمَة في الصحيح قال لهم: ((**صَلُّوا صلاةَ كذا في حينِ كذا وكذا، وليؤمْكُم أكثرُكم قرآنًا**))، فقوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**وليؤمْكُم أكثرُكم**)) دلَّ على أنَّ العبرةَ بكثرة المحفوظ.

وهذا يدلُّ أيضًا من جهة ثانية على: أنَّ الأكثر حفظًا للقرآن أعظم منزلة في الشرع ممن هو أقل حفظًا للقرآن، وأنَّ القرآنَ يرفع صاحبَه في الدنيا والآخرة، ولذلك شرف الله أهل القرآن شرفًا عظيمًا، فجعلهم مقدَّمِين في أعظم المواقف وأجلها وأشرفها، وهو الموقف بين يدي الله في الصلاة، فأمر المسلمين

أن يقدِّمُوا حفظةَ كتاب الله، وهم أولى بهذا المقام العظيم، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الصحيح: ((**يَؤُمُّ القومَ أقرأُهم لكتابِ الله**))، فهذا يدلُّ على فضل القرآن، وفضل أهله، وشرف حفظ القرآن، والاشتغال بحفظ القرآن.

ومن أعظم النعم التي يُنعِمُ الله بها على عبده أن يرزقَه القرآن، فأسعدُ الناس في هذه الدنيا من جعلَ اللهُ القرآنَ ربيعَ قلبه، ونورَ صدره، وجلاءَ حزنه، وذهابَ همه وغمه.

من شغله الله في القرآن، فاشتغل به على الوجه الذي يرضي الله، فأكثر من تلاوته وتدبره وحفظه، والسؤال عن معانيه وعن أحكامه، فأحلَّ حلالَ الله، وحرَّمَ حرامَ الله، فهذا بخير المنازل عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

أهل القرآن هم أهلُ السعادة، وهم أهلُ الحسنى وزيادة، جعلنا الله وإياكم منهم، فهم أعلم الناس بدين الله إذا فقهوا في القرآن، وعملوا به، وهم أعظم الناس أجرًا عند الله إذا عَلَّمُوا الناس هذا القرآن، ولذلك شَهِدَ لهم النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالخيرية كما في الحديث الصحيح فقال: ((**خيركم من تَعَلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ**))، وأسعد الناس من التزم بطاعة الله، ففكر أول ما فكر كيف يحفظ القرآن، وكيف يتعلم حلاله وحرامه، وكيف يستزيد من القرآن، ولا يزالُ الرجلُ بخير إذا كان في كل يوم إذا أصبح أو أمسى سألَ: ما الذي حفظه من القرآن؟ واشتغل وجد واجتهد في ضبط هذا القرآن والعلم به والعمل به، جعلنا الله وإياكم ذلك الرجل، ورزقنا وإياكم الإخلاص في جميع ذلك.

فقدَّم النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أهل القرآن، قدَّمهم في الدنيا، وقدَّمهم حتى في موتهم، ولا يزالُ القرآنُ يرفع صاحبه بعد موته، وقبل أن يُدْفَنَ، يُقدَّم ويكون أقرب إلى القبلة، إذا وُضِعُوا في القبور قُدِّم الحافظ للقرآن على غيره، يكون أقرب إلى القبلة.

وفيه دليلٌ على أنَّ القربَ من القبلة أفضل، وهذا دلَّتْ عليه السُّنَّةُ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ثبت في الحديث الصحيح: ((**أنَّ موسى لما حضرتْهُ الوفاةُ** -وكانت قد حضرتْهُ الوفاةُ وهو مع بني إسرائيل في التيه في سيناء- **ولما حضرتْهُ الوفاةُ سألَ ربَّه أن يُقَرِّبَهُ إلى الأرضِ المقدسةِ**)) وهذا يدلُّ على أنَّ الأفضل القرب إلى القبلة والأرض المقدسة، وهو أكمل.

ومن هنا الدَّفنُ في المعلاة أفضل من الدَّفنِ في غيرها؛ لأنَّها أقرب إلى الأرض المقدسة؛ لظاهر حديث موسى -عليه السلام- في الصحيح.

وهذا نبينه؛ لأنَّ بعض المتأخرين يقول: إنَّ الدَّفن في مقبرة السَّيْل أفضل، لكن **الصحيح** أنَّ الدَّفنَ في مقبرة المعلاة أفضل؛ لأنَّها أقرب، وظاهر حديث موسى -عَلَيهِ السَّلامُ- يقوّي ذلك.

قال: ((**فدفنَهم رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **ولم يصلِّ عليهم**))، ((**فدفنَهم رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)): أي أَمَرَ بدفنهم، وفيه دليلٌ على مشروعية دفن الموتى، ودفن القتلى.

والشرط في أنْ يُعَامَلَ الشهداءُ هذه المعاملة: أن يقتلَ في أرض المعركة، فإذا قُتِل في أرض المعركة، فحينئذٍ تنطبقُ عليه هذه الأحكام، **ومنها:** أن لا يصلى عليه، فالشهيد لا يصلى عليه وهو قول جمهور العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وهذا الحديث يدلُّ على ذلك.

وما ورد من صلاته -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على شهداء أُحُدٍ بعد دفنهم: هذا خاصٌّ، أو المراد بالصلاة الدُّعاء.

فقد ثبت في الحديث الصحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ما يدلُّ على فضل هؤلاء الشهداء وعلوِّ منزلتهم عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- حتى إنَّه كما في الصحيح زَارَهُم -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- قبل وفاته كالمودِّع لهم -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: ((**النَّمِرَة: الكِسَاء الْخَلِق**)) الكِسَاء الْخَلِق: القديم، وكما قلنا: **النَّمِرَة في لسان العرب هي: إمَّا** أن تكون بُرْدًا، **وإمَّا** أن تكون كِسَاء.

وإذا كانت بُرْدًا، تشمل البُرْد من الصوف، وغيره، كالكتان، القطن، فهذه تكون نَمِرَة، لكنها إذا كانت من البُرْد يقول: لا تُسمَّى نَمِرَة إلا إذا كانت فيها خطوط.

وأمَّا بالنسبة للكساء: فهذا قول ثانٍ فيها، قيل: إنَّها الكساء، كما مال إليه المصنف -رَحِمَهُ اللهُ-.

وهذا ليس من عادته -رَحِمَهُ اللهُ- أن يفسِّرَ غريبَ الأحاديث، هذا ليس من عادةِ الإمامِ الترمذيِّ -رَحِمَهُ اللهُ-، ولكن في بعض الأحيان قد يُشير إلى نكتة، وهي عنايته بما رواه أو عنايته بالمروِّي.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد خُولِف أسامة بن زيد في رواية هذا الحديث، فروى الليث بن سعد عن ابن شهاب عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن جابر بن عبد الله بن زيد، وروى معمر عن الزهري عن عبدالله بن ثعلبه عن جابر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، ولا نعلم أحدًا ذكره عن الزهري عن أنس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إلا أسامة بن زيد -رَحِمَهُ اللهُ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: وسألتُ محمدًا عن هذا الحديث؟ فقال: حديثُ الليث عن ابن شهاب عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن جابر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أصحُّ.

الشرح:

هذا سنؤخره -إن شاء الله- الكلام على الأسانيد كما اتفقنا.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابٌ آخر]**

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا عَليُّ بن حُجرٍ أخبرنا عَليُّ بنُ مُسهِرٍ عن مُسلم الأعورِ عن أنسِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: ((**كانَ رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يعودُ المريضَ، ويشهدُ الجنازةَ، ويركبُ الحمارَ ويُجيبُ دعوةَ العبدِ، وكانَ يومَ بني قُريظةَ على حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ من لِيفٍ، عليهِ إكافُ ليفٍ**)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حديثٌ لا نعرفهُ إلاَّ من حديثِ مُسلمٍ عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: ومسلمٌ الأعورُ يُضعَّفُ، وهو مسلمُ بنُ كيسانَ، تُكُلِّم فيه، وقد روى عنه شعبة وسفيان الملائي.

الشرح:

هذا الحديث اشتمل على جملةٍ من الصفات التي اتصفَ بها -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- **ومناسبته:** في اتباع الجنازة، وعيادة المريض تتبع مسائل الجنائز، كما هو مقرَّرٌ عند العلماء من المحدثين والفقهاء، فالمناسبة فيه وعلاقته بكتاب الجنائز موجودة.

واشتمل هذا الحديث على جملةٍ من صفات النبي الكريم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وهي تدلُّ دلالةً واضحةً على تواضعه -بأبي وأمي وصلوات الله وسلامه عليه-، وكرم خلقه، وأنَّه كان أبعد ما يكون عن الزَّهو والعلو والتكبر والتجبر، فكان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- نبيًّا مرسلاً، أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وأسوةً للمؤمنين والأخيار والصالحين، فأخلاقُ الأنبياء أخلاقٌ ساميةٌ، أخلاقٌ زاكيةٌ، ولذلك هم أبعدُ الناس عن العلو في الأرض، واختصَّهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهذه الخصائص، وهذه الصفات التي تدلُّ على أنَّهم من أهل الآخرة، وأنَّهم ليسوا من أهل الدنيا: **{تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**، ما كان فيهم العلو، ولا كان فيهم البطر، ولا الأَشَر، وما كان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بطرًا ولا أَشِرًا وما كان سبابًا ولا صخابًا، ولكن كان رحمةً للعالمين -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

ومن هذه الأخلاق وهذه الصفات منها ما ورد في الكُتُب السماوية السابقة؛ لكي تدلّ على هذا النبي الكريم، **ومنها ركوبه للحمار** -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- والأنبياء والعلماء وكل من ينتسب إلى الآخرة ليس عِزُهَ بالثياب المنمَّقة، ولا بالعبارات الملفَّقة، ولكن عِزُه بالمبدأ، والعلماء هم أشبهُ الناس بالأنبياء، وهم ورثةُ الأنبياء، ولذلك ينبغي للعلماء والصلحاء أن يأخذوا من هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنته في مثل هذه الصفات ، فالمسلم إذا سَمِعَ بمثل هذه الأحاديث من شمائله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-الكريمة يُهيِّئُ نفسه للائتساء والاقتداء بالنبي -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وهذه الصفات منها ما هو حسيٌّ يُقصَد به المعنى.

يقول -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وهو أنسٌ خادمُ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، الذي صحب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عشر سنين قال -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**فَمَا قالَ لي يوماً قَطُّ أُفّ، وَمَا مَسَسْتُ دِيباجًا ولا حَرِيرًا ألينَ من كفِّ رسولِ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **ولم يقلْ لي يومًا لشيءٍ لم أفعلْه: هلا فعلتَهُ، ولا لشيءٍ فعلتُهُ: لِمَ فعلتَهُ؟**)) وهذا كلُّه من كَرَمِ خلقه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ((**كَانَ رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يعودُ المريضَ**))، ((**كَانَ**)): تدلُّ على الدوام والاستمرار. ((**يعودُ المريضَ**)): تقدَّم معنا بيان عيادة المريض، وما فيها من الفضل، والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- جَمَع في الترغيب في عيادة المريض بين القول، والفعل:

أمَّا القول: فإنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**من عادَ مريضًا فهو في خُرْفَةِ الجنةِ حتى يعودَ، قالوا: يا رسولَ اللهِ: وما خُرْفَةُ الجنة؟ قالَ: جَنَاهَا**)).

ومن السنة القولية: حديثُ البراء بن عازب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في الصحيحين قال: ((**أَمَرَنَا رسولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **بعيادةِ المريضِ، واتباعِ الجنازةِ، وإبرارِ المقسمِ**)).

فهذا يدلُّ على هديه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- القوليِّ في عيادة المريض.

وأمَّا هديُهُ الفعليُّ: فحديث أنس يدلُّ على أنَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كان يعودُ المريضَ، بل كان يعودُ المريضَ إذا كان كافرًا، فيعرض عليه الإسلام، ويعرض عليه النجاة من النار، ويعرض عليه الإسلام بطريقته -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- التي يُقِيمُ بها الحجة -صلوات الله وسلامه-.

((**ويشهدُ الجنازةَ**))، ((**ويشهدُ**)): الشهود هنا الحضور، "شَهِدَ "إذا حضر، وسُمِّي الشهيد شهيدًا؛ لأنَّه تحضرُهُ الملائكة على أحد الوجهين في تفسيره.

((**ويشهدُ الجنازةَ**))، ((**الجنازةَ**)): تطلق ويراد بها الميت، وتطلق ويراد بها السرير وما عليه.

قوله: ((**يشهدُ الجنازةَ**)) أفضل وأكمل ما يكون به شهود الجنازة: أن يخرجَ الإنسان معها من المنزل أو الموضع الذي تُغسَّل فيه، حتى تُدفَن، ويُنْتَهَى من دفنها، ويدعو لها ويسأل لها الثبات، ثم يَعَزِّي أهلَها، **هذا أكمل ما يكون من الشهود.**

واختلف السلف والأئمة: هل إذا شَهِدَها يستأذنُ أهلَ الميت إذا أُنتُهِيَ ودفن في الانصراف أو لا يستأذن؟

على وجهين مشهورين عند العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-:

وكان الإمام مالك -رَحِمَهُ اللهُ- إمام دار الهجرة يقول: إنَّه إذا دُفن الميت لا يحتاج إلى إذن، ينصرفُ راشدًا.

وقال بعض أئمة السلف، وهو قول عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن سيرين والحسن البصري، وغيره من أئمة السلف: أنَّه لا بد أن يستأذن إذا شهدها على أكمل ما يكون من الشهود.

وهذا الشهود الذي يجمع ما بين تشييع الجنازة من موضعها الأول، ثم الصلاة عليها، وشهود دفنها، هذا فيه القيراطان على أتم الوجوه وأكملها.

فمن صلى على الجنازة: كان له قِيْرَاطٌ.

ومن شهدها حتى تدفن: كان له قِيْرَاطَان.

والقيراط: مثل أُحُدٍ، وهذا يدلُّ على عِظَمِ الأجر الذي يناله الإنسان في تشيعه لجنازة المسلم، فإن كان له حَقٌّ كالعالم والداعية والوالدين وذي الحقِّ من القرابة ونحوهم كان الأجرُ فيه أعظم.

وكان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يشهد الجنائز، أي يحضرها -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، فشهد الجنازة، وكان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- لا يُفَرِّقُ في شهود الجنازة بين الأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء.

ولذلك لما ماتت المرأة السوداء التي كانت تَقُمُّ المسجد -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- تَقَالُّوا شأنَها ودفنوها في بالليل، فَفَقَدَهَا -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، فلما فَقَدَهَا سَأَلَ عنها -اللهم صلِّ وسلم عليه تسليماً، وزده تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا- يسألُ عن امرأةٍ كانت تكنُسُ المسجدَ، وتَقُمُّ المسجد، كرمُ خُلُقٍ، فسأل عنها، فقالوا: إنَّها ماتت، فقال: ((**هَلا أخبرتموني بها**))، فقام -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما في الصحيح، وَوَقَفَ على قبرِهَا، وصَلَّى عليها، وهذا من خصوصياته، كما في رواية مُسْلِمٍ أنَّه قال: ((**إنَّ هذه القبورَ مملوءةٌ ظلمةً على أهلِها، وإنَّ اللهَ يُنَوِّرُهَا بصلاتي عليهم**)).

فهذا مذهب جمهور العلماء في قوله: ((**وإنَّ اللهَ يُنَوِّرُها بصلاتي**)) يدلُّ على التخصيص.

وهذا الشهود منه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كان لعامة الناس، سواءً كانوا من الفقراء، أو من الأغنياء -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

((**ويركبُ الحمارَ**)): وهذا مأثور في صفاته -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الكُتُب السماوية أنَّه كان يركب الحمار؛ إشارةً إلى التواضع؛ لأنَّ العظماءَ والكبراءَ والمتكبرون والمتجبرون لا يركبون الحميرَ، وإنَّما يركبون الخيلَ، ويتباهون ويزهون، فيطلبون أفخرَ المراكب وأعلاها، ولا يركبون الحُمُرَ.

والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كان يركبُ الحِمَارَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وثبت هذا في أكثر من واقعة، وذكر بعض أهل السير أنَّه كان له حمار يقال له: (يعفور) -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-

((**ويُجيبُ دعوةَ العبدِ**)): أي أنَّه يجيب دعوة الْمَمْلُوْكِ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- فإذا دعاه الصغير أو الكبير، الغني أو الفقير أجاب دعوته -صلوات الله وسلامه- عليه، ولا يخص بإجابة الدعوة الكبراءَ والعظماءَ، وإنَّما يجيبُ دعوة الناس على اختلاف مراتبهم، وهذا من أكمل ما يكون في التواضع، فيجيبُ دعوةَ المملوكِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-؛ إشارة إلى تواضعه.

واستضافتْهُ يهوديةٌ على خُبْزٍ وإهالةٍ سَنِخَةٍ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، كما في حديث أحمد في مسنده.

واستضافَهُ يهوديٌّ، فأجابَ دعوتَهُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

واستضافتْهُ اليهوديةُ كما في الصحيح التي سَمَّتْهُ، ووضعت له السُّمَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- وأجابَ دعوتَها، فهو -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كان يجيبُ الدعوةَ.

((وكانَ يومَ بني قُريظةَ على حِمَارٍ مَخْطُومٍ بحبلٍ من ليفٍ، عليهِ إكافُ ليفٍ))، **((كان يوم قريظة))**: العرب تقول: (يومَ الأحزاب، ويومَ بُعَاث، ويومَ داحس، ويومَ الغبراء) إشارةً إلى الوَقْعَة، وإن كانت أكثر من يومٍ، يقولون له: (يوم قريظة) المراد به وَقْعَة بني قريظة.

وبنو قريظة:هم من فُخُوذ اليهود الذين كانوا في المدينة،وكان بينهم وبين النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- العهد حينما قدم المدينة، فنقضوا العهد وتمالئوا مع المشركين على رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكانوا في عالية المدينة،ولذلك قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن يوم الأحزاب: **{إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ}**، **{من فوقكم}**: هم بنو قريظة، **{وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ}**: هم الأحزاب الذين تحزَّبُوا، قال : **(أَتَيْتُ بِغَطَفَانَ فَأَنْزَلْتُهُمْ بِمَجْمَعِ الأَسْيَالِ مَنْ ذَنَبِ نَقْمَاء)**.

ومجمع الأسيال: بجوار أُحُدٍ الذي يكون عند مفرق الطريق الموجود الآن إلى ما يسمى بـ(الخُلَيْل) هذاك مجمع الأسيال، تجمع فيه الأحزاب.

فالمدينة من جهة قباء والعوالي عالية، ومن جهة أُحُدٍ سافلة، أسفل المدينة، فهي منقلبة منكفئة، فقال الله: **{إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ}** من منازل بني قريظة؛ لأنَّهم نقضوا العهد ونكثوه، **{وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ}**؛ لأنَّ الأحزاب تحزبوا وتجمعوا من الجهة، أُحُدٍ، من طرف أُحُدٍ، جاءوا حتى دخلوا إلى مشارف الخندق عند جبل بني حارثة، وهو بالمنطقة التي تسمى بـ(المساجد السبعة) معروفة إلى يومنا هذا، فهي من سافلة المدينة بالنسبة إلى أقصاها.

فبنو قريظة نكثوا العهد ونقضوه، ولما فرغ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- من غزوة الخندق، ورجع على بيته على صلاة الظهر، جاءه جبريل، وقال له: **((إن كنتَ قد وضعتَ لأمتَكَ، فإنَّ الملائكة لم تضعْ لأمتَهَا إلى بني قريظة))**، فأمر -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أصحابه أن يخرجوا إلى بني قريظة، وقال: **((لا تصلوا العصرَ إلا في بني قريظة))** في القصة المشهورة.

فخرج إليهم -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وأنزل الله الذين كفروا من اليهود من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم سَعْدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- الذي كما في الحديث الصحيح أمر أن تُقْتَلَ مقاتلتُهم، وأن تُسْبَى ذراريهم.

فهذا اليوم يوم بني قريظة، يوم أعزَّ اللهُ فيه الإسلام، ورفعَ الله فيه مكانة الإسلام، وكان-عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على حمار، ما جاء يركبُ المركبَ الفارهَ، ولا تعالى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ولا تعاظم.

ولما دخل يوم فتح مكة -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- دَخَلَ وعلى رأسه المغفر، وقد طأطأ رأسه حتى تكاد لحيته تمس قربوس سرجه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما في الحديث الصحيح ((**تَكَادُ لِحْيَتُهُ أَنْ تَمَسَّ قُرْبُوْسَ سَرْجِهِ**))؛ من التواضع لله -عَزَّ وَجَلَّ-.

فكان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أكملَ الخلق تواضعًا.

وهذا التواضع منشأه الخوف من الله والخشية لله، وإذا رأيتَ الرجل يتواضع فغالبًا أنَّ وراء هذا التواضع قلبًا يخافُ اللهَ؛ لأنَّه لا يتواضع إلا أهل الخشية، ولا يتواضع إلا أهل الخوف من الله سبحانه، فلما كَمُلَ خوفُهُ من ربه كَمُلَ تواضعُهُ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

وقد قال في الحديث الصحيح: ((**إِنِّي لأَرْجُو أنْ أَكُوْنَ أَخْشَاكُم لله، وأَتْقَاكُم**)).

فكان على حِمَارٍ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، ما جاءهم -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- متعاليًا، ولا متكبرًا، ولا متجبّرًا.

ولذلك لما مَشَى أبو دُجانة يوم أُحُدٍ، فتبختر بسيف النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِنَّها لمشيةٌ يبغضُها اللهُ إلا في هذا الموطن**)).

فالمقصود أنَّ أخلاقَ الأنبياء كانت أخلاقًا ساميةً عاليةً؛ لأنَّهم عَرَفُوا الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ومن عَرَفَ الله كَمُلت أخلاقه، وحسنت سجاياه، وكملت سجاياه وأخلاقه، وحسنت أفعالُه، نسأل الله بعزته وجلاله أن يرزقنا حسن الائتساء والاقتداء به -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

إذا نظرتَ إلى هذا الهدي حينما ترى أنَّ الرسلَ والأنبياءَ تجرَّدُوا من الدنيا، وخرجوا أمام الناس وهم لا يبالغون في ملبسهم وهيأتهم، انصرفتِ الناسُ إلى المعاني، ولم تنصرفْ إلى الصور والأشكال، لكن من خلا جوفُهُ، ولم تزكُ نفسُهُ يريد أن يكملَ هذا النقص، وهيهات، فتجده يبالغ في زيه وملبسه وهيأته وشارته: ((**رُبَّ أشعثَ أغبرَ، ذي طِمْرَيْنِ، مَدفُوعٍ بالأبوابِ، لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ**)).

الإنسان إذا كملت سريرتُه لم يبالِ بالذي يلبس، قال عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: (إنَّك إن اتقيتَ ربَّك لم يضرَّكَ ما لبستَ).

الذي يخاف الله ويخشاه ويتقيه يورثُهُ اللهُ الحبَّ في قلوب العباد والهيبة والعزة والكرامة؛ لأنَّها عزة الله التي لا ذلةَ معها، لكن إذا كان ناقصًا في جوفه، وناقصًا في كمالاته وآدابه وأخلاقه، طَلَبَ ما يُكَمِّلُ به هذا النقص، ولذلك زينةُ العلماء، وزينةُ الفضلاء، وزينةُ الصلحاء بمبادئهم.

ومن قال: إنَّ الناس، وإنَّ السعادة والعزة بالمال وبالتعالي وبالتكبر، فقد كذب، فإنَّ قارونَ كانت مفاتح كنوزه تنوءُ بالعصبة أولي القوة، فما زاده المالُ إلا خيبةً وخسارةً، **{قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ}**، فخسف الله به الأرض، فهو يتزلزل فيها إلى يوم القيامة -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

فالعزة لا تكون إلا بخشية الله، والخوف من الله.

ولذلك بيَّن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الصحيح: ((**أنَّه مَرَّ رجلٍ ضعيفِ الحالِ، فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ما تَعُدُّونَ هذا فيكم؟ قالوا: يا رسولَ اللهِ، هذا إذا سألَ لم يُعطَ، وإذا شَفَعَ لم يُشَفَّعَ، وإذا استَنكَحَ لا يُنْكَحَ، فجاء رجلٌ حسنُ الحالِ، وعليه من صفات الكمال في هيئته وشارته، قال: ما تَعُدُّونَ هذا فيكم؟ قالوا: يا رسولَ اللهِ، هذا حري إذا سَأَل أن يُعْطَى وإذا استَنكَحَ أن يُنْكَحَ، وإذا شَفَعَ أن يُشَفَّعَ**))، قال كما في الصحيح -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**والذي نفسِي بيدِهِ، لهذا خيرٌ من مِلءِ الأرضِ من هذا**)).

ولذلك قال الله تعالى: **{لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ}**، والسخرية تكون بالملابس وبالمظاهر، وهذا يدلُّ على أنَّ كمالَ الإنسان بدينه وأخلاقه.

فالنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- والأنبياءُ والرُّسلُ بعثهم اللهُ بهذه الصفة، أنَّهم رعوا الكمال في أصله، فَرَفَعَ اللهُ بذلك أقدارهم ومنازلهم -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-.

((**على حِمارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ من لِيفٍ**))، ((**مَخْطُومٍ**)): الخطام يكون أشبه بالزمام الذي يكون للبعير، ويكون على أنفه لِيَنْقَادَ به.

((**بِحَبْلٍ من لِيفٍ**))، **الليف:** يؤخذ من كرانيف النخل، يصنع منها، وهذا من أزهد ما يكون.

((**عليهِ إكافُ ليفٍ**)): الإكاف على الحمار -أكرمكم الله- مثل الغِطاء الذي يكون على ظهر الحمار، مثل السَّرْج الذي يكون على الفَرَس، بحيث إذا ركب عليه إذا تَعَرَّقَ أو شيء، يحفظ له هذا يدلُّ على ضعف الحال وعلى يسره -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، -اللهم صلِّ وسلم عليه-

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

رقم الدَّرس ٤١٩

الأربعاء ١٤-٥-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ الترمذي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[باب]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا أبو كريب، حدثنا أبو معاويةُ عن عبدِالرحمن بن أبي بكرٍ عن ابن أبي مُليكةَ عن عائشةَ قالت: لما قُبضَ رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- اختلفوا في دفنهِ، فَقَالَ أبو بكر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : سمعتُ من رسولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- شيئاً ما نسيتهُ قال: ((**ما قَبَضَ اللهُ نبيًّا إلاَّ في الموضعِ الذي يُحبُّ أنْ يُدفن فيهِ**)) ادفنوهُ في موضعِ فِراشهِ.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حدِيثٌ غَريبٌ.

الشرح:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ الأتمانِ الأكملانِ على خيرِ خلقِ اللهِ أجمعين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على سبيله ونهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعد:

فقد ذَكَرَ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الحديث، والذي يتعلقُ بموضعِ دَفْنِهِ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ إِلَى يَومِ الدِّينِ-.

وهذا الحديث ضعيف الإسناد، وقد رواه عبد الرزاق في مصنفه، وابن أبي شيبةَ كذلك، ولكن إسنادَهُ ضعيفٌ.

وما وَقَعَ وَحَدَثَ في وفاته -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يدلُّ على صحة متنه، وأنَّهم دفنوه في الموقع الذي قُبِضَ فيه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

وقد نصَّ طائفةٌ من العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّه دُفِنَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في موضع وفاته لمعنًى؛ لأنَّه لا يُعْقَلُ أن يُتْرَكَ الدَّفنُ في مقبرة المدينة وهي البَقِيْع، ويُدْفَنُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في حجرةِ أمِّ المؤمنين عائشة، إلا وثَمَّ شيءٌ، وهذا مما يُقَوِّي صحةَ المتن.

وغاية ما في الأمر: أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- دُفِنَ في حجرةِ أمِّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- فإنَّه لما نَزَلَ به أَمْرُ اللهِ، وأصابَهُ مرضُ الموتِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وأَحَسَّ بدنوِّ الآخرةِ استأذنَ أمهاتِ المؤمنين -رضي الله عنهنَّ وأرضاهنَّ أجمعين-، أنْ يُمَرَّضَ في بيتِ أمِّ المؤمنين

عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، فَأَذِنَ له نسوتُهُ أمهاتُ المؤمنين -رضي الله عنهن وأرضاهن- فَمُرِّضَ في بيتِ أمِّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

وقَبْرُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ودَفْنُهُ في الموضع الذي تُوُفِّيَ فيه لا شَكَّ -كما جَزَمَ غيرُ واحدٍ من العلماء- أنَّه لا يكونُ ولن يكونَ إلا بأصلٍ؛ لأنَّهم ما كانوا ليفعلوا به -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- شيئًا ما لم يكنْ هناك أَمْرٌ يدلُّ على هذا الشيء.

وأفضلُ ما في المدينة مسجدُهَا؛ لأنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جَعَلَ الصلاةَ فيه بألفِ صلاةٍ، كما صحَّ في ذلك الحديثُ عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

وأفضلُ ما في المسجد الرَّوْضَةُ، كما جَزَمَ به أئمةُ العلمِ ودواوينُ العلمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، خلافًا لما يقولُهُ البعضُ من المتأخرين مما ليس له أصلٌ من التَّهْوِينِ من أَمْرِ الرَّوْضَةِ التي شَرَّفَهَا اللهُ وَكَرَّمَهَا، وجعلَهَا روضةً من رِياضِ الجنَّة، كما في الحديث الصحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه قال: ((**مَا بَيْنَ بَيْتِي ومِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ**))، ((**وَإِنَّ مِنْبَرِي عَلَى تُرَعةٍ مِنْ تُرَعِ الْجَنَّةِ**)).

وكلا الحديثين في الصحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

والواجب على كُلِّ مؤمنٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنَّه إذا صحَّ الخبرُ عن النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يُسَلِّمَ له وأن يُذْعِنَ بما فيه.

فالرَّوضَةُ هي أفضلُ ما في المسجد؛ لأنَّها روضةٌ من رياضِ الجنَّةِ، وهي مَقَامُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الصلوات المفروضة، فكان فيها مَوْضِعُ صلاتِهِ بالناس -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

وأقربُ شيءٍ إلى الرَّوضَةِ حجرةُ أمِّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

وقد دلَّت السُّنَّةِ على فضلِ الدَّفْنِ بقربِ الأرضِ المقدسةِ المفضلةِ شرعًا.

ويدلُّ على ذلك: ما في صحيح البخاريِّ: ((**أنَّ موسى -عَلَيهِ السَّلامُ- لما حضرتْهُ الوفاةُ**)) وكان في التيه في سيناء مع بني إسرائيلَ كما هو معلوم؛ لأنَّه تُوُفِّيَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ولم يدخلْ بنو إسرائيلَ الأرضَ المقدسةَ؛ لأنَّ اللهَ كَتَبَ عليهم أنْ يَتِيهُوا في الأرض أربعينَ سنةً، فتاهوا في سيناء أربعين سنة، وحضرته الوفاة قبل أن يخرج من التِّيهِ- ((**فَسَأَلَ الله**)) كما في الحديث الصحيح ((**أَنْ يُقَرِّبَهُ إلى الأرضِ المقدسةِ، فَقُرِّبَ مِنْهَا رَمْيَةُ الْحَجَرِ**)).

وهذا أصلٌ عند بعض العلماء دَلَّتْ عليه السُّنَّة، وهي دِلالةٌ صحيحةٌ؛ إذ لا يَسْأَلُ هذا النبيُّ -عَلَيهِ السَّلامُ- القربَ من الأرضِ المقدسةِ وهي بيت المقدس إلا لمعنًى صحيحٍ، وقد جاء ذلك عن طريق الشرع والوحي.

فإذا كان هذا في الأرض المقدسة وهي بيت المقدس، فمسجدُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أفضل؛ لأنَّ الصلاةَ فيه مضاعفةٌ على البيت المقدس بالضِّعْفِ، فالصلاةُ في البيتِ المقدسِ بخمسمائة، وفي مسجد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بألفٍ، فاختار اللهُ له أقربَ الأماكنِ إلى مسجدِهِ، وإلى روضتِهِ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

وهذا المعنى صحيحٌ، وهو مستنبطٌ من النصوصِ الصحيحةِ عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، فاختار اللهُ له هذه البقعةَ مسجده -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، واختارَها لصَاحِبَيْهِ -رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل أعالي الفردوس مسكنهم ومثواهم-.

وهنا يبحث العلماءُ في هذا الحديث، يبحث العلماءُ: **(مسألة: نقل الميّتِ عن الموضعِ الذي تُوُفِّيَ فيه)**:

فالأصل قالوا: إنَّ الإنسان يُدفَنُ في الموضع الذي تُوُفِّيَ فيه، ولا يُحْمَلُ إلى موضعٍ غيرِهِ، إلا لغرضٍ صحيحٍ، أو سببٍ شرعيٍّ، فإذا تُوُفِّيَ في موضعٍ، وأَمْكَنَ دفنُهُ في ذلك الموضع، فإنَّه لا يُنْقَلُ عن ذلك الموضع على الأصل.

وعلى ذلك جَرَى عَمَلُ أئمةِ العلمِ ودواوينِ العلمِ، وإنَّما نَقَلُوا الميَّتَ إلى ما هو أفضل، أو إلى ما هو أكمل في أحوالٍ خاصةٍ، حيثُ يُؤْمَنُ تغيُّرُ جثةِ الميّتِ.

ومن ذلك: أنَّ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ وأبا هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- وغيرهما من أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، تُوُفِّيَ سعدٌ وأبو هريرةَ بمزرعته بـ(العَقِيْقِ)، فحُمِلَ على أعناقِ الرِّجَالِ إلى المدينةِ، وما بين العقيق وهو ما يسمى بـ(أَبْيَار عليّ) الذي كانت فيه مزارعُ الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- وبين المدينة ما لا يَقِلُّ عن عشرة كيلو متر، وهذه مسافةٌ بعيدةٌ، ولكنه حُمِلَ على أعناقِ الرِّجَالِ؛ طَلَبًا لفضلِ الدَّفْنِ بالبقيع.

وقد عُمِلَ بذلك بحضورٍ من الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-، ولم يُنْكَرْ.

فهذا الحَمْلُ ليس فيه تَغْيِرٌ للجُثَّة، وهو لغرضٍ صحيحٍ، فلو تُوُفِّيَ إنسانٌ بقُربِ مكةَ، أو بينه وبين مكةَ ما يُمكِنُ حملُهُ فيه إلى مكةَ كنصف ساعة أو ساعة أو كما تيسر في زماننا، كأنْ يكونَ يسيرًا جدًّا، ويمكنُ نقلُهُ، **فلا بأسَ ولا حرجَ**؛ لأنَّ هذا أصلٌ له من فِعْلِ الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- ما يؤيده. وكذلك سعيد بن زيد بن أبي العاص الأموي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- فإنَّه أَوْصَى أن يُحْمَلَ على أعناقِ الرِّجَالِ، وذلك من قصرِهِ، وكان قصرُهُ بالعقيق، وهو موجودٌ إلى الآن بقية أَثَرِهِ، وهو بجوار الجامعة الإسلامية، موجود إلى الآن في القصور الملكية، لا زالَ موجودًا أثرُهُ إلى الآن، حُمِلَ من ذلك الموضع على أعناق الرِّجَالِ، بل وَصَّى ابنَهُ أن يَحْمِلَهُ أبناءُ عمِّهِ وقرابتُهُ، وقال: إنَّ حَمْلَهُم لي من هذا الموضع يسيرٌ فيما قَدَّمْتُ لهم وأحسنْتُ إليهم.

فهذا كلُّه وقع في عصر السَّلفِ الصَّالحِ من الصَّحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- ولم يُنْكَرْ، وهو أصلٌ عند العلماء أنَّه يجوزُ النَّقلُ إذا أُمِنَ تغيُّرُ الجُثَّة، وأذيةُ الميِّت بالتأخير، وكان ثَمَّ غرضٌ شرعيٌّ، **والغرضُ الشرعيُّ مثل**: أن يُتَوَفَّ في موضعٍ ليس فيه من يغسِّلُهُ، وليس فيه من يكفنُهُ، أو يخشى أنَّه إذا تُرِكَ في هذا الموضع لا يَجِدُ من يحسنُ التغسيلَ والتكفينَ والصلاةَ عليه والقيامَ بحقوقه الشرعية، فحينئذٍ يُنقَلُ إلى الموضع الذي تَحَقَّقَ فيه الأمور الشرعية المطلوبة للمِّيت.

فمثل هذا النقل، ومثل هذا التأخير إذا كان على هذه الصفة المحدودة التي يُراعَى فيها الأمرُ الشرعيُّ، فلا بأسَ به ولا حرجَ.

أمَّا المبالغةُ في النقل لمواضعَ بعيدةٍ، ولربما شُقَّ بطنُ الميِّت، ولربما أُخْرِجَ جوفُهُ، ونحو ذلك مما يكون فيه تعرُّضٌ لجُثَّة الميِّت، فهذا خلافُ الشَّرعِ، ولذلك لما تُوُفِّيَ سعدُ بنُ خولةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- كما في الصحيح، وكانَ معَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بمكةَ، وكان من المهاجرين في قصته المشهورة قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لَكِنَّ البائسَ سعدُ بنُ خولةَ**)) يرثي له النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنْ مَاتَ بمكةَ، ثُمَّ قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما في صحيح مسلمٍ وغيرِهِ: ((**اللهم، أمضِ لأصحابي هجرتَهُم، ولا تَرُدَّهم على أعقابِهِم خاسرينَ**))؛ لأنَّ سعدَ بنَ خولةَ كان مهاجرًا من مكةَ، ثم لما تُوُفِّيَ بمكةَ رَثَى له النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، لأنَّه لو تُوُفِّيَ بغيرِ مكةَ كان أجرُهُ أعظمَ.

ومن هنا قالوا: ولو كان النقلُ مشروعًا من بلدٍ إلى بلدٍ، لنُقِلَ سعدٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الذي رَثَى النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لحاله أنْ مَاتَ بمكةَ ودُفِنَ بِهَا.

فالمقصود أنَّ النقلَ والدَّفنَ إذا لم تُؤْذَ فيه الجثَّةُ، ولم يُمْتَهَنْ فيه الميّت، ولم تتغيرْ فيه الجثةُ، أو كان لغرضٍ شرعيٍّ كما ذكرنا، فإنَّه لا بأسَ به ولا حرجَ.

وأمَّا نقلُ الجثةُ بعد دفنِها من الموضعِ الذي دُفِنَتْ فيه، فهذا قد يُجوزُ في بعض الأحوالِ المستثناةِ إذا تَبَيَّنَ أنَّ الأرضَ مستحَقَّةٌ، كأَنْ يُدْفَنَ في أرضِ شخصٍ، ثم يتبنُ أنَّها مملوكةٌ، ويَطلُبُ صاحبُ الأرضِ بنقل الميّتِ عن أرضِهِ، فهذا حقُّهُ، وهذه أرضُهُ، فحينئذٍ يجوزُ النَّبْشُ في قولِ طائفةٍ من أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ-، ودفنُهُ في الموضع الذي لا ضَرَرَ فيه، ولذلك إذا وُجِدَتِ الحاجةُ للنبش ونقل الميت من موضعه الذي دُفِنَ فيه إلى موضعٍ آخرَ، فلا بأسَ ولا حرجَ.

وهكذا لو دَهَمَ السَّيْلُ على القبورِ، فكَشَفَهَا، وتأذَّى أهلُهُا وتضرروا، فإنَّه يُشرَعُ نقلُهُم إلى موضعٍ يأمنونَ فيه السَّيلَ، ويأمنونَ فيه تعرضَهم للامتهانِ.

كما حَدَثَ لشُهَدَاءِ أُحُدٍ، فإنَّهم كما أُثِرَ عن جابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه لما أَرَادَ أنْ يُغيِّرَ قبْرَ أبيه عبد الله بن حرام، وهذا بعدَ أربعينَ سنةً، وأنَّه لما جاءَ وَجَدَ أباه كحالِهِ حينما قَبَرَهُ يومَ أُحُدٍ، لم يتغيَّرْ فيه شيءٌ بعدَ أربعينَ عامًا، حتى إنَّه كانَت فيه إصابةٌ، وكان واضعًا يدَهُ على إصابتِهِ، فلما حُرِّكَتْ يدُهُ نَزَفَ الجرحُ، كأنَّه ضُرِبَ من ساعتِهِ.

وهذا كلُّهُ يقعُ في أحوالٍ خاصةٍ، أنَّه قد يُحتاجُ إلى نقل الجثثِ من الموقع الذي قُبِرَتْ فيه؛ لأنَّها تضرر، فلو كانتْ في موضعٍ فيه سَيْلٌ، فإنَّ السَّيْلَ يكشُفُ القبورَ، وحينئذٍ تُمْتَهَنُ وتتعرضُ لضررٍ أعظمَ، فحينئذٍ يُشرَعُ نبشُهَا ونقلُهَا إلى المواضع التي يُؤْمَنُ فيها من هذا الضرر، ومن هذه الأذية، ومثل هذه الأحوال وما كان في حكمها فإنَّه يجوزُ فيه النبش.

وهكذا لو دُفِنَ الميتُ دونَ أنْ يُكَفَّنَ، ودونَ أنْ يغسَّلَ، ودون أن يُصلَّى عليه، فإنَّه يُشْرَعُ نبشُهُ وتغسيلُهُ وتكفنُهُ والصلاةُ عليه؛ قيامًا بِحَقِّهِ، وهذا قولُ طائفةٍ من أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ-؛ لأنَّه حَقٌّ شرعيٌّ، والنبشُ حينئذٍ لغرضٍ شرعيٍّ فيجوزُ.

وأمَّا النبشُ لغير ذلك فلا يجوزُ، ولا يشرعُ، والميت والقبر ما دامَتْ فيه عظامُ الميتِ وبقايا جثتِهِ فإنَّه لا يجوزُ التعرضُ له، ولا يجوزُ دفنُ غيرِهِ عليه، وإيذاؤه به مادام أنَّ هناك مندوحةً لدفن ذلك الغير في موضع آخر.

وأمَّا إذا وُجِدَتِ الحاجةُ إذا اشتدَّ الأمرُ، فإنَّه تُنُحَّى عظامُ الميتِ الأولِ، ويُقْبَرُ الثاني، على تفصيلٍ عند أهلِ العلمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- في المسألة.

واستَحْدَثَ البعضُ دفنَ القبرِ فوقَ القبرِ، **وهذا في النَّفس منه شيءٌ**؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- المحفوظُ عنه أنَّه لم يقبرِ الميت فوق الميت، وإنَّما قَبَرَ الميتَ مع الميتِ، فإذا حصل ضيقٌ فإنَّه يجمعُ للميتين في قبرٍ واحدٍ.

وأمَّا أن يُجعَلَ ميتٌ، ثم يُجعَلَ فوقه ميتٌ، فالمحفوظُ أنَّ القبر لمن سَفَلَ، أي أنَّ القبرَ في الأصل لا يُجلَسُ عليه، وحرمتُهُ أنَّه لا يجوزُ الاتكاءُ عليه، ولا الجلوسُ عليه، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة من نَهْيِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- الحيَّ أن يجلسَ على قبرِ الميتِ، فهذا يدلُّ على أنَّ مرتفعَ قبرِ الميتِ لا يُمَسُّ، ولا يوضع عليه غيرُهُ.

فهذه من الْمُحْدَثَاتِ التي في النفسِ منها شيءٌ، ولم يُعرَفْ في زمان السلف -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّهم كانوا يقبرون الميت فوق الميت، وإنَّما المحفوظُ أنَّهم يجمعون الميتين والثلاثة في القبرِ الواحدِ، كما فَعَلَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في شهداءِ أُحُدٍ، وكان يضعُ أكثرهم قرآنًا، أقربهم إلى القبلة.

وأمَّا بالنسبة للقبر فوق القبر، فهذا في النفس منه شيءٌ، وهو مخالفٌ للأصل الذي ذكرناه.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وعبد الرَّحمَنِ بنُ أبي بكرٍ المليكيُّ يُضعَّفُ من قِبَلِ حِفظِهِ.

وقدْ رُوِيَ هذا الحديثُ من غيرِ هذا الوجه، فرواهُ ابنُ عبَّاسٍ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابٌ آخرُ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أبو كريبٍ حدثنا مُعاويةُ بنُ هشامٍ عن عِمرانَ بنِ أنسٍ المكيِّ عن عَطاءٍ عن ابن عُمرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: أنَّ رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**اذكروا مَحَاسِنَ موتَاكُم وكُفُّوا عن مساوِيهِم**)).

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حدِيثٌ غَريبٌ.

الشرح:

اشتمل هذا الحديث على وصية من وصايا النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيما يجبُ على الحيِّ تجاهَ الميتِ، حيثُ بيَّن النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه ينبغي ذِكْرُ محاسنِ موتى المسلمين، والكفِّ عن مساوئهم؛ لأنَّ قوله: ((**مَحَاسِنَ مَوْتَاكُم**)) الكاف في قوله: ((**مَوْتَاكُم**)) كاف الخطاب، والخطاب موجهٌ للمسلمين، وهذا يدلُّ على أنَّ أمواتَ المسلمين تُرْعَى حرمتُهُم بذِكْرِ محاسنِهم، والكفِّ عن مساوئهم.

والمحاسن: تكون من الأمور الدِّينية، والدَّنيوية.

فالمحاسن الدينية: مثل استقامته على طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، كأَنْ يكونَ الميتُ من أهل العلم، والدعوة للخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فتُذكَرُ مآثرُهُ، وتذكرُ مواقفُه في النصيحة لله ولرسوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ولأئمة المسلمين ولعامتهم، وحرصُهُ على الخير، فيذكرُ علماءُ الإسلام مثلاً بما كانوا عليه من تعليم الأمة، ونفعها، ودلالتهم على الخير، وما لاقوا في ذلك من المصاعب والمتاعب.

فهذه المحاسن إذا ذُكِرَتْ حَرَّكَتِ النفوسَ للترحم على الموتى، والإحسانِ إليهم، فأصبحَ ذِكْرُهَا عونًا على طاعة الله؛ لأنَّ اللهَ لا يحبُّ الجهرَ بالسوء من القول، فيُذكرُ الميتُ بالجميلِ، وإذا ذُكِرَ بالجميل تَرَحَّمَتِ الناسُ عليه.

وهذا من الوفاءِ لأهلِ الفضلِ، خاصة إذا كانت لهم حرمةٌ، كأصحابِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، و-رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم أَجمَعِينَ-، فتُذكرُ مآثرُهُم ومواقفُهم في الإسلام، فتخشعُ القلوبُ، وتلهجُ

الألسنةُ لهم بالدعاء، والترضي عليهم، وسؤالِ اللهِ أن يجزيَهم عن الأمة خيرَ الجزاءِ، وأن يجزيَهم عن نبينا -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خيرَ الجزاءِ، فيكون في هذا عظيمُ الإحسانِ للميت.

وقد أَثْنَى اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- على الذين ذَكَرُوا أمواتَ المسلمين، وجاءوا من بعد السلف من الخلف الصالح الذي يذكُرُ السلف الصالح، ومن مضى بخيرٍ، فيترحم عليه، كما قال تعالى: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}**، فَضَرَعَ هؤلاءِ الصالحون الموفقون الذين زَكَّاهم ربُّهم من فوق سبعِ سماواتٍ، ضَرَعُوا إلى ربِّهم أن يَغْفَرَ لهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وأن لا يجعل في قلوبِهِم غِلاً؛ لأنَّه إذا جُعِل في القلب غِلٌّ، فإنَّ هذا الغِلَّ يُحَرِّكُ إلى ذِكْرِ المساوئِ، وقلَّ أن تَجِدَ إنسانًا يذكر إنسانًا بالسوء إلا وفي قلبه شيءٌ عليه، ولذلك سألوا ربَّهم أن يلطف بهم، وابتهلوا إلى ربِّهم أن يَسُلَّ من قلوبِهم الضغينةَ، وأن لا يجعل فيها غِلاً للذين آمنوا.

ونسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن لا يجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، وأن يُطَهِّرَ قلوبَنا من ذلك، فمن طَهُرَ قلبُهُ من الغِلِّ للمؤمنين كان من أهل الجنَّة، كما في الحديث الصحيح من حديث عبد الله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه قالَ له الرجلُ في القصة المشهورة: **(أَمَا إنَّه ليسَ عندي كثيرُ صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقةٍ، ولكني لا أُمسي وأُصبحُ وفي قلبي غِلٌّ على مسلمٍ)**.

فإذا سلمَتِ القلوبُ لأموات المسلمين وأحيائهم، ذُكِرَ الحيُّ، وذُكِرَ الميتُ بالخير، فكان في هذا الذكرِ ما يحرِّكُ القلوب على طاعة الله، ويجعلُها مؤتلفةً، لا متفرقةً ولا مختلفةً، وحينئذٍ يتراحمُ المسلمين، ويتواصل المؤمنين، ويكون في ذلك عزةٌ لأهل الدين، بخلاف ما إذا دَبَّ فيما بينهم نزغُ الشيطان، وملأ القلوبَ حقدًا وغلاً، فإنَّه يُذكَرُ الموتى، ويُذكَرُ مجاهيلَ الموتى، ثم بعد ذلك يتدرجُ إلى المعروفين، ثم يتدرجُ إلى أهل الفضل والصلاح، ثم يتدرجُ إلى أهل العلم، حتى لا يسلم منه أحدٌ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وهذه كما بيَّن اللهُ من خطوات الشيطان، فإنَّ الشيطانَ يأخذُ الإنسانَ شيئًا فشيئًا إلى الدَّرَكَاتِ، ويجعلُهُ في حالٍ يُسْلَبُ فيه عظيمَ الحسناتِ وعظيمَ الأجورِ، بسببِ ذكرِهِ لإخوانِهِ بالسوءِ، فاللسان شرُّهُ عظيمٌ، وبلاؤُهُ وخيمٌ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ خيرًا سَدَّدَ لسانَهُ، وجعلَهُ من أهل التقوى، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}** فصلاحُ الأمورِ والأحوالِ كلِّها أن يكون المسلمُ مسلمًا حقًّا قد سَلِمَ المسلمون من يدِهِ ولسانِهِ.

فذِكْرُ محاسنِ الموتى فيه أمورٌ عظيمةٌ:

أولها: فيه وفاءٌ للأخِ المسلمِ، فإن كان بينكَ وبينَه قرابةٌ أو بينك وبينه رَحِمٌ، كان الأجرُ أعظمَ لأنَّ فيه صلةَ رَحِمٍ، مثل أنْ يَذْكَرَ أباهُ الميتَ، ويذكرَ أمَّهُ الميتةَ، أو يذكرَ أخاهُ الميتَ، أو عمَّهُ أو خالتَهُ، أو قريبَهُ، فيذكرُ مأثرَةً من مآثرِهِ وحسنةً من محاسنه، فيقول: (كان أبي يحافظُ على الصلواتِ الخمسِ، كان أبي -رَحِمَهُ اللهُ- يأمرُنَا بالصلواتِ الخمسِ، كان أبي -رَحِمَهُ اللهُ- يمنعنا من أذية الناس، كان أبي يفعل كذا وكذا من الأمور الطيبة).

فإذا فَعَلَ ذلك كانَ له أجرانِ:

أجرُ ذِكْرِ الميتِ بالخير؛ اتِّباعًا للسنة، وتحريًّا لهدي الكتاب في هذه الوصية العظيمة، التي هي خَبَرٌ بمعنى الإنشاء، فيها حَثٌّ، وفيه حَثٌّ وحضٌّ على عدم ذكر الموتى إلا بخيرٍ.

وفيه أيضًا بِرًّا للميت، سواء كان من الوالدين، أو كان من القرابة.

والعكس بالعكس -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- فإنَّه إذا قال: (أبونا حرمَنَا، وأبونا منعَنَا، وأمُّنَا حرمتْنَا، وأمُّنَا منعتْنَا)، فذكر مساوئ أمِّهِ، ومساوئ أبيه، وذَكَرَتِ المرأةُ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- مساوئ أمِّها وأبيها، فهذا يتدرجُ به الشيطانُ حتى يوقعَ صاحبَه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- في العُقُوقِ.

فالمقصود أنَّه ينبغي للمسلم أن يتحرى ذِكْرَ أمواتَ المسلمين بالخير، خاصةً أولياء الله من العلماء وأئمة الدين ودواوين العلم.

وقد أُثِرَ عن بعض العلماء -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّه كان إذا ذَكَرَ المسألة الخلافيةَ، لا يَنْسُبُ القولَ إلى قائلِهِ وهذا من بابِ خوفِهِ أن يكون فيه غِيْبَةٌ إذا رَجَّحَ غَيْرَهُ.

ولكن نَبَّهَ العلماءُ على أنَّ هذا توجدُ فيه الحاجةُ للعلم بمسالك العلماء، وإلا لو لم توجدِ الحاجةُ لم يذكرْ أنَّ هذا القولَ قولُ فلان وفلان؛ كلُّه إجلالاً لأئمة العلم، وحفظًا لحرمتهم.

ولاشَكَّ أنَّ التوفيقَ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولا يزالُ الرجلُ يُوْصَى بحفظ لسانِهِ وجوارحِهِ وأركانِهِ، ولا يزالُ الرجلُ يَذَكَّرُ بهذا الأصل الذي دَلَّتْ عليه نصوصُ الكتاب والسنة حتى يصيرَ **إلى أمرين:**

إمَّا سامعًا مطيعًا مستجيبًا لله ورسوله، **وإمَّا** عاصيًا متمردًا.

وأشقى الناسِ في عصيانه وتمرده أن يكون واقعًا في سبِّ علماء المسلمين، والوقيعةِ فيهم، وذكرِ مثالب الموتى، وكشفِ عوراتهم، وهو يظنُّ أنُّه يُحْسِنُ عملاً، نعوذُ بالله من الضلال، اللهم اعصمنا من الزلل، ووفقنا في القول والعمل.

فهذا ممن زُيِّنَ له سوءُ عملِهِ، وقد يكون الإنسان طالبَ علمٍ، حتى إنَّ بعضَهم إذا جَلَسَ في المجالس، وذكر بهذه الأمور قد يَمَلُّ، ويَحُسُّ أنَّ هذه الأمور لا تُكَرَّرُ و لا تُذْكَرُ، وأنَّها واضحةٌ وهذا -نسأل الله العافية- مرضٌ في القلب، فإذا أصبح طالبُ العلم إذا ذُكِّرَ بهذه الحقوقِ الشرعيةِ التي ينبغي أن ينتبَهَ لها، ولا يصيبُهُ الخوفُ والوجلُ عند تذكيرِهِ بِهَا، فعليه أن يفتشَ قلبَهُ، وأن يعيدَ النظرَ، فإنَّه لا يزالُ الرجلُ في أَمْنٍ، مادام مستصحبًا للخوف، ولا يزالُ في هلاكٍ مادام أنَّه يظنُّ لنفسه السلامة.

العبدُ الموفقُ السعيدُ يخشى ويخافُ من الله -عَزَّ وَجَلَّ- في كلِّ ما يُذَكَّرُ به، ويتمنى أنَّه يُقرَعُ بقوارعِ التنزيل في كلِّ كلمةٍ، وكلِّ حرفٍ يكتبُهُ أو يسمعُهُ.

ونسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يرزقنا حُسْنَ الاستجابة لكتابه وسنة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ونسأله بعزته وجلاله أن يَسْلُبَ من قلوبنا الغرور، وأن يسكنَها الخوفَ منه والخشيةَ له، خوفًا يُؤَمِّننا يومَ الوعيد، ويتأذنُ لنا به بكلِّ خيرٍ مزيدٍ، وكلِّ عملٍ صالحٍ رشيدٍ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: سمعتُ مُحَمَّداً يقولُ: عِمرانُ بنُ أنسٍ المكيُّ مُنكرُ الحديثِ.

وروى بعضُهم عن عطاءٍ عن عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وعِمرانُ بنُ أبي أنسٍ مصريٌّ أقدمُ وأثبتُ من عِمرانَ بنِ أنسٍ المكيِّ.

الشرح:

سيأتي -إن شاء الله- الكلام على الصنعة الحديثية بإذن الله بعد الفراغ.

وعلى كلِّ حالٍ هذا متن الحديث صحيح، ودلَّت عليه النصوص الشرعية، وهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكان -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لا يحبُّ ذكرَ السوءِ للمسلم حيًّا وميتًا، وكان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يأْمُرُ أمتَهُ، وهذا هو هديه وسنته -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ومن تَدَبَّرَ نصوص الكتاب والسنة، وَجَدَهَا جليةً في الأمر بِذِكْرِ الخير، والكف عن الشر.

لكن إذا وُجِدَتِ الحاجةُ لذكر المساوئ تحذيرًا ونذارةً، فهذا لا بأسَ به، ولا حرجَ.

واستثنى العلماء من ذلك: من كان جريئًا على حدود الله، جريئًا على محارم الله، وكان فيه استخفافٌ بالحرمات، وحَصَلَتْ له عِبْرَةٌ في موته، فأَخَذَهُ اللهُ أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ من جرَّاء عملِهِ، فهذا لا بأسَ أن تقال قصصَهُ، وأن تُحكَى، مثل ما يقع لبعض أهل السوء الذين وقعوا في أصحاب النبي

-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، و-رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم أَجمَعِينَ- من سوء الخاتمة، وسوء الحال الذي انتهوا إليه، فهذا فيه عِبْرَةٌ، ويُذْكَرُ ويُنْشَرُ ويُشْهَرُ ويُشَهَّرُ، حتى يردعَ، خاصةً إذا وُجِدَتِ الحاجةُ.

وهكذا بالنسبة للمساوئ التي تكونُ من العبد المتهتكُ في حدود الله وحرمات الله، الذي يستهزئُ بالدين، ويستخف بالصالحين، قَلَّ أن تَجِدَ أحدًا يستخفُّ بدينِ اللهِ وشرعِ اللهِ إلا كانت عاقبتُهُ من أسوءِ العواقبِ، وهذا معروفٌ ومعهودٌ أنَّ الاستهزاءَ بالدين والاستهزاءَ بالصالحين، عواقبُهُ وخيمةٌ، ولن يسلمَ صاحبُهُ من سوء الخاتمة -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

فإذا ذَكَرَ الإنسانُ مثلَ هذه القصص والعبر، وقد عَهِدَنَا العلماءَ ومشايخنا -رَحِمَهُمُ اللهُ- كثيرًا ما يتعرضون لبعض هذه الأمور، خاصةً لطلبة العلم، فإنَّهم أحوجُ الناس إليه، ليتعظوا ويعتبروا، وخاصةً في هذه الأزمنة التي كَثُرَتْ فيها الغفلة.

ووالله إنَّ الناسَ لا يزالون بخيرٍ ما حَفِظُوا حُرُمَاتِ الدِّين والشرع، ولا يزالُ الناسُ في بلاءٍ من أمرِ دينِهِم ودنياهم ما استخفُّوا بحدود الشرع، فَذِكْرُ القصصِ والعِبَرِ التي يَمُرُّ بِهَا من استخفَّ بحدود الله، وكيف كانت عواقِبُهم، ونهايتُهم الأليمةُ، ومصارعُهم الوخيمةُ، فهذا لا بأسَ به ولا حرجَ وإذا أَمْكَنَ ذِكْرُهُ على سبيل الإبهام والنكرة، فإنَّه لا حاجةَ إلى التسمية.

أمَّا إذا وُجُدِتِ الحاجةُ إلى التسمية؛ لكي يكونَ وقعُها أبلغُ، واعتبارُ الغيرِ بِهَا أبلغُ، فهذا لا بأسَ به ولا حرجَ.

ووالله لقد رَأَتْ أعينُنَا وسمعَتْ آذَانُنَا مِنْ فِعْلَ اللهِ بالذين استخفُّوا بدين الله وشرع الله العجبَ العجابَ، ووالله إنَّ الإنسانَ ليشكُّ في بعض من شدة الخوف، يخافُ على نفسه من شدة ما يرى من سوءِ العاقبة لمن تعدَّى حدود الله، فمساوئُ الموتى وأحوالُهم وما آلو إليه:

منهم -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- من تكونُ العبرةُ عند نزع روحه، ومنهم من تكون العبرةُ في قبره. وحدثني من أثقُ به، وتكررُ من ثلاثة أشخاص تقريبًا، وأعرف منهم من هو حافظ لكتاب الله، من أصدق الناس، وكان حريصًا على قبر الموتى، أنَّ أحدَهم -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- كان يُقَبِّلُهُ لِلْقِبْلَةِ فَيَنْقَلِبُ عليه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وكانَ من أكثر الناس سخريةً بالأخيارِ، واستهزاءً بِهم، وتهكمًا بهم، وحرصًا على نشر مساوئ العلماء وفضائحهم، والتفكه في ذلك في المجالس، والضحك به يُقَبِّلُهُ لِلْقِبْلَةِ، فَيَنْزِعُ، ثم ينقلبُ إليه، يقولُ: كأنَّه جدارٌ يسقطُ على يدي، وأَرُدُّ، ولا أستطيعُ، ما يقربُ من ثلاثِ أو أربعِ مرات، ثم تركتُهُ على حالِهِ.

عِبَرٌ، وما خَفِيَ أعظمُ، فلو كُشِفَ للناس أهوالُ القبر، وما صارَ إليه من عَصَى وتَمَرَّدَ، وما صار إليه القومُ، لكرهوا هذه الدنيا، ((**واللهِ، لو تعلمونَ مَا أَعْلَمُ لضحكتُم قليلاً، ولبكيتُم كثيرًا، ولخرجتُم إلى الصَّعُدَاتِ تجأرون إلى الله بالبكاءِ**)).

فكلُّ شيءٍ يمكن أن تتساهلَ فيه إلا ما بينك وبين الله، وليعلمِ العبدُ أنَّه يُعَامِلُ ربًّا عزيزًا قادرًا منتقمًا جبارًا، أَخْذُهُ أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ: **{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى}**، ما قال: الأشخاص، ولا قال: القرية، ولا قال: الجماعة، قال: **{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ}** وعَبَّرَ بالمصدر **{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}**، **{أَلِيمٌ شَدِيدٌ}** وهذا الأَخْذُ إذا صَدَرَ بِهِ أَمْرُ اللهِ لن يستطيعَ أحدٌ، ولو أهلُ السموات والأرض كلُّهم اجتمعوا على أن يَحُولُوا بين المخلوق والخالق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ألم ترَ كيف فَعَلَ بالأمم، بِعَادٍ وثَمُودَ وغيرِهِم: **{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى}** من يستطيع أن يتمارى في آيات الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

فهذه العِبَرُ التي تَحْدُثُ للناسِ قد يأتي على الناسِ زمانُ اللهوِ والعبثِ، وقد تَخِفُّ هذه الآياتُ بسببِ قلةِ الخوفِ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولذلك قال تعالى: **{وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً}**، والنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- امتنعَ من سؤالِ اللهِ أن يُسْمِعَنَا عذابَ القبرِ؛ خشيةً على هذه الأمة، ولو سَمِعَ الناسُ عذابَ القبرِ لتركوا لذاتِ الدنيا، ولهانَتِ عليهم هذه الدنيا وما فيها.

فالمقصود أنَّ ذِكْرَ المساوئ التي فيها العِبَرُ، وفيها آياتٌ وفيها عظاتٌ، كم من عزيزٍ ارتفع في الدنيا، وطَغَى وبَغَى: **{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ}** أَخَذَ يَتَعَزَّزُ بشيءٍ ليس من ملكِهِ، وليس بيده: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}**، هنا جاءَ الاستهزاءُ، القرآنُ ما هو عبثٌ، كُلُّ آيةٍ فيه فيها رسالةٌ واضحةٌ لكلِّ من يتهكمُ بِهَذا الدِّين، أو شرعِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ}**، هذه الكلمةُ التي استخفَّ فيها بنبيِّ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، تَعَزَّزَ فيها بالأنْهارِ التي تجري من تحته، فجعلَهُ اللهُ تحتَ الماءِ، وأخرجَهُ من الماء، قال: **{قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}** ما قال: (آمنتُ أنَّه لا إلهَ إلا الله)، لكن جاءَ تحتَ القومِ الذين كان يستعبدُهم، ذلةٌ نَزَلَ إلى الحضيض، مَنْ أَذَلَّ دينَ الله أَذَلَّهُ اللهُ، ومَنْ أَذَلَّ أولياءَ اللهِ أَذَلَّهُ اللهُ، ومَنْ آذَى أولياءَ اللهِ آذَنَهُ اللهُ بِحَرْبٍ.

فهذه العِبَرُ التي قصَّهَا اللهُ في القرآنِ، فيها سلوةٌ للمؤمنِ، وآيةٌ وعظةٌ، فَذِكْرُ مساوئَ الموتى التي تَهُزُّ القلوبَ، وتُنَبِّهُ الغافلين، وتُوقِظُ النائمين، وتَزْجُرُ المتهتكين في حدود الله وحرماته، هذا مقصودٌ شرعًا.

طَغَى رجلٌ وبَغَى على امرأةٍ ضعيفةٍ أرملةٍ من الأرامل، وكان من أغنى الناسِ في المدينة، وجاءَتْ هذه الأرملةُ إليه يومًا من الأيام، وهي تسألُهُ حقَّهَا، وهو من أغنى الناسِ، وهذه الأرملةُ لها مبلغٌ يسيرٌ جدًّا، باعتْهُ شيئًا لأعوانه، فما كانَ منه إلا أن تَهَكَّم منها وآذَاهَا، فأصبح يُماطِلُهَا المرةَ بعد المرةِ، حتى جاءَتْ، وهذه المرأة أعرفُها، وكانَتْ من خيارِ النساءِ في المدينةِ، نحسبُهَا -رحمها الله برحمته الواسعة-، وكانت خاتمتُها من أجمل الخواتم، توفيت -رحمها الله- على أحسنِ الأحوالِ، كانَتْ من أصدقِ الناسِ قولاً، ومن أصلحِهم عملاً، نحسبُها ولا نزكيها على الله، -رَحِمَهَا اللهُ بِرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ-، وكانَتْ صديقةً للوالدة -رحمهم الله جميعًا-، فهذه المرأةُ جاءَتْ، وذَكَّرَتْهُ باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، والقصة مشهورة.

فالشاهد أنَّه جاءَتْهُ في آخرِ مرةٍ، فقالت له، وكانَتْ امرأة يعني تَأَلَّمَتْ من حاجتِها للمالِ، فقالَتْ له في آخر كلامها: (أعطني حَقِّي) فقال: (ما بي معطيكِ حقّك، وافعلي ما تشائين) قالت: (سأشتكيكَ)، قال لها: (باب المحكمة مفتوح)، قالت: (لا، أشتكيكَ إلى الله)، قال: (اذهبي، واشتكي) -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، (اذهبي واشتكي)، فخرجت من عنده إلى مسجد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، قالت: صَلَّت ركعتين، ثم رجعَتْ إلى بيتها، وفُوجِئَتْ بالصائحِ يصيحُ: فلانٌ ماتَ، ماتَ في دكانِهِ، وعلى متجرِهِ.

لا يعبثُ أحدٌ مع الله، كان الرجل إذا قيل له: (اتق الله) تَرْعَدُ فرائصُهُ من الخوف من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، كانَ الناسُ كلُّ شيءٍ تَجِدُ الرجلَ يقال له وهو في الخصومة: (اِحْلِفْ باللهِ)، يقول: (لا، اليمين ما أحلف) تقوى لله، وخوفًا من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، يعني العاقلُ الموفقُ السعيدُ لا يعبثُ مع ربِّه، ومع دينِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، هذه حدودٌ وحرماتٌ: **{تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ}**، فاللهُ أَعْذَرَ إلى الْخَلْقِ.

فمثلُ هذه القصص، منهم مَنْ يَأخُذُهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عند خاتمته، ومنهم مَنْ تَنْزِلُ به عقوبةُ الله قبل الخاتمة، يكون غنيًّا، فيموتُ بأفقرِ ما يكون، وكانَ يؤذِي الناسَ بغناه.

كانَ رجلٌ يظلمُ العمالَ عندَهُ، ويأخذُ أموالَهم، وجَمَعَ أموالاً كثيرةً من كَدِّ العمالِ بالظلمِ، فابتلاه الله -عَزَّ وَجَلَّ- بمرضٍ عُضَالٍ، نُقِلَ من بلدٍ إلى بلدٍ، وما زالَ ينفقُ أموالَ هؤلاءِ المظلومين حتى بِيْعَتْ عمائرُهُ، وما جَمَعَ من ثروتِهِ، ولم يَمُتْ إلا وهو مديونٌ، ولم يُشْفَ من مرضه -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

هذه عِبَرٌ، جزءٌ يسيرٌ، قطرةٌ من عُشْرِ مِعْشَارِ العظيم من العِبَرِ التي تكون للعباد، والمساوئ التي تكون لأهل السوء -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- في خواتيمهم، نسأل اللهَ السلامةَ والعافيةَ، اللهم إنَّا نعوذُ بكَ من سوءِ الخاتمةِ، اللهم إنَّا نعوذُ بكَ من سوءِ الخاتمةِ.

فالسعيدُ من وُعِظَ بغيْرِهِ، قد يَهْلَكُ الإنسانُ، تكونُ سوءُ الخاتمة لهؤلاء بكلمةٍ، وقد تكونُ سوءُ الخاتمةِ بعملٍ، وقد تكونُ سوءُ الخاتمةِ بالقول والعمل.

فهذه المساوئ التي تكونُ للموتى، وتكونُ فيها العبرةُ للأحياء تُحْكَى، وتُذْكَرُ، وإذا وُجِدَتِ الحاجةُ للتسميةِ يُسَمَّى.

أمَّا الأصل فإنَّه إذا كان المقصودُ، وهو زَجْرُ الناسِ، وتخويفِ الناسِ باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فهذا يَحْصُلُ بدونِ ذِكْرِ الأسماءِ، فتُذْكَرُ محاسنُ الموتى.

قال بعض العلماء في قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وِدِّ أَبيهِ**))؛ لأنَّه إذا زَارَ حبيبَ أبيه تَذَكَّرَ أباه، فقال له: (رَحِمَ اللهُ أَبَاكَ)، واستحيا من ابنِهِ، فذَكَرَ أجملَ المواقفَ، ولذلك تَجِدُ حبيبَ الوالدين وصديقَ الوالدين إذا زَارَهُ ابنُ الوالدين يبحثُ عن أجملِ شيءٍ من والدِهِ، فأصبحَ بهذا يُحرِّكُ على ذكرِ محاسنِ الموتى، ولذلك جعلَهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من أَبَرِّ الْبِرِّ.

قال بعض العلماء: لماذا مِنَ أَبَرِّ الْبِرِّ؟

قال: لأنَّه لم يَصِلْ هذا الرجل أو هذه المرأة لم تصلها المرأة إلا بسببِ الوالدين، فصار بارًّا بوالده ثم إنَّه إذا جَلَسَ معه، وقال: (أبوكَ -رَحِمَهُ اللهُ- فَعَلَ معي، وأبوك فَعَلَ) يذكر هذا من قلبه، لأنَّ الحبيبَ الصادقَ في محبتِهِ يذكرُ مآثرَ إخوانِهِ وأحبابِهِ بصدقٍ، ما يذكرُها هكذا.

اثنانِ لو بَكِتِ الدِّماء عليهما عيناكَ حتى يُؤذَنَا بذهابِ

لم يبلغِ المعشارَ من حقَّيهِمَا: فَقْدُ الشَّبَابِ، وفُرْقَةُ الأَحْبَابِ

الحبيبُ الذي تحبُّهُ خاصةً إذا كانَتِ المحبةُ لله وفي الله، تَجِدُ من يذكرُ الوالدَ يذكرُهُ بصدقٍ، ويذُكرُهُ ولو ذَكَرَ موقفًا واحدًا، فهذا كلُّه من الْبِرِّ، جعلَهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وِدِّ أبيه، وإذا أحسنَ إلى صديقٍ من أصدقاءِ والدِهِ، فقضى له حاجتَهُ، وأَجَابَ له شفعتَهُ، كانَ أولَّ ما يقولُ هذا الصديقُ:(رَحِمَ اللهُ فلانًا)، فيذكرُ صديقَهُ، فهذا يُحَرِّكُ على ذكرِ محاسنِ الموتى.

إنَّ ذكرَ محاسن الموتى ومآثرِهم صدقةٌ على أمواتِ المسلمين، وقد جَعَلَ اللهُ أهلَ الإسلامِ أهلَ الرحمةِ؛ لأنَّ اللهَ بَعَثَ نبيَّهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- رحمةً للعالمين، والمسلمون يتراحمون، واللهُ يرحمُهُم بما يكونُ بينهم من الرحمةِ، فمن رحمةِ الأحياءِ بالأمواتِ أن يَذْكُرُوا محاسنَ أمواتِهم، وأن يكفُّوا عن مساوئِهم.

وبناءً على ذلك يَمْتَنِعُ الإنسانُ من ذكرِ السوءِ، ويَمْنَعُ الغيْرَ، فإذا كنتَ في مجلسٍ، ورأيتَ رجلاً ذَكَرَ سوءًا لميتٍ زَجَرْتَهُ وخوفْتَهُ، والأفضلُ والأعظمُ في أجرِكَ أن تَذْكُرَ حسنةً من محاسنِ الميتِ كأن تقولَ له: (اسكتْ، اذكرْ محاسنَهُ، رحمه الله، أفضى إلى ما صار إليه، فلانٌ وإن كان فيه كذا، فإنَّه كانَ يفعلُ كذا وكذا)، فتذكُرُ حسنةً من محاسنِهِ، والناسُ فيهم جُرْأةٌ على الدُّخُولِ بين العبدِ وربِّهِ، حتى أُثِرَ عن الحسنِ البصريِّ لما قِيلَ إنَّه قال: غُبِطَ الحجاجُ على أمرينِ:

الأمر الأول: أنَّه كان معتنيًا بكتاب الله، وهذا مشهودٌ له به، أنَّه كان معتنيًا بالقرآنِ، وشديدَ العنايةِ به، والاحتفاءِ به، وتتبع القُرَّاءِ، ومعرفته بهم، حتى في القصة المشهورة أنَّه وَضَعَ المصحفَ بين يديه يراجعُهُ، فالْتَبَسَتْ عليه: **{وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ}**، وكان فيها إشكالٌ: إمَّا في الرسم، أو في القراءة، فسألَ مَنْ يُحْضِرُ له من القراء أجودَهم، فأحضروا له قارئًا، ولما أحضروه، أحضروه بعد أن رَفَعَ المصحفَ، وجاءَ وقتَ العملِ -كما يقولون-، فلما جاءوا به أُخِذَ إلى السجنِ، فمكثَ في السجنَ إلى أن جاءَ وقتٌ يستعرضُ المساجين، فقال: فيم حُبِسْتَ؟، قال: في نوحٍ وابنه، لماذا؟ لأنَّكَ أحضرتَني من أجل أن تسألني عن هذا، فانتهى الأمرُ إلى سجنه -رَحِمَهُ اللهُ-.

فالمقصود أنَّهُ كانَتْ فيه عنايةٌ -رَحِمَهُ اللهُ- بالقرآن.

والثانية: أنَّه قالُ عند موته: (اللهم، اغفرْ لي؛ فإنَّهم يزعمون أنَّكَ لا تغفرُ لي).

فقالوا: إنَّه غُبِطَ على هذه الكلمة، واللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لا يُعجِزُهُ شيءٌ، -رحمه الله، وغَفَرَ له ولأمواتِ المسلمين أجمعين-.

فالمقصودُ من هذا أنَّه ينبغي الحرصُ على ذِكْرِ محاسنِ الموتى، والكفِّ عن مساوئِهم، وزَجْرِ الناسِ بزواجرِ التنزيلِ في هذا.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[باب ما جاءَ في الجلوسِ قبلَ أنْ توضعَ]**

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ، حدثنا صفوانُ بنُ عيسى عن بشرِ بنِ رافعٍ عن عبدِاللهِ بنِ سُليمانَ بنِ جُنادةَ بنِ أبي أُميَّةَ عن أبِيهِ عن جدِّهِ عن عُبادةَ بنِ الصَّامتِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: ((**كانَ رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **إذا اتَّبَعَ الجنازةَ لَمْ يقعُدْ حتىّ توضعَ في اللُّحدِ، فَعَرَضَ لهُ حَبْرٌ فقالَ: هكذا نصنعُ يا مُحَمَّدُ، قال: فجلسَ رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وقالَ: خَالِفُوهُمْ**)).

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حدِيثٌ غَريبٌ، وبشرُ بنُ رافعٍ ليسَ بالقويِّ في الحديثِ

الشرح:

ترجم المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه الترجمة، والتي تتعلقُ بجلوس المشيّعين للجنازة قبل وضعها.

قيل: قبل أن توضع، أي في اللَّحد.

وهذا مذهبُ طائفةٍ من العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وهذا القولُ أنَّه لا يُجلَسُ حتى تُنْزَلَ الجنازة، ويُنْزَلُ الميت في لحدِهِ أو في شقِّهِ، هو قولُ طائفةٍ من السلف، قال به أبو هريرة، والحسنُ بن علي بن أبي طالب، وعبدُ الله بن الزبير، وعبدُ الله بن عمر، وأبو سعيد الْخُدْرِيّ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الجَمِيعِ-، وحُكِيَ عن أبي هريرة القولَ خلافَه، وهذا هو مذهبُ الأوزاعي، وأهل الشام، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وطائفة من أهل الحديث، أنَّه لا يُجْلَسُ حتى تُوضَعَ الجنازة، أو يُوضَعَ الميت في لحدِهِ.

فالوضع وضعان:

الأولى: أن تُوضع من على أعناق الرجال، يُوضع السرير قبل تَنْزِيل الميت إلى القبْرِ.

والحالة الثانية: أن يُرفَعَ من السرير، ويوضع في اللحد، وهي الأكمل.

وقال بِها بعضُ العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-، ونَصُّوا على اللَّحد.

وقد أَنْكَرَ أبو سعيد الخدريّ -كما في صحيح البخاري- هذا الحديث، وإن كان ضعيفَ الإسناد لكن أصل مسألته في الصحيح، وهو أنَّ أبا سعيد الخدري -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، جاء ووَجَدَ مروانَ بنَ

الحكم وأبا هريرة معه وبعضَ الناس في جنازة، فأنكر على مروان جلوسه قبل وضعِ الميتِ في اللحدِ وأسند ذلك إلى رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أنَّه نَهَى أن يُقْعَدَ حتى يُوضَعَ الميت**)).

فقالوا: هذا أصل في المنع من الجلوس حتى توضع الجنازة في اللحد.

والميت إذا شيَّعَهُ المشيعون، وانتهوا إلى قبره قد يحتاجون إلى الجلوس، والحاجة إلى الجلوس بسببِ طولِ القيامِ، خاصةً في القديم، في القديم ليس كزماننا في كثير من الأحيان والحمد لله أنَّنا نأتي ونجد اللَّحدَ مهيَّأً، وإلا في زمان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الأزمنة الماضية كان يُحفَرُ له بعد مجيئه، كما في الحديث الصحيح حديث البَراء بن عازب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في مسندِ أحمدَ أنَّه قال: ((**خرجْنَا في جنازةٍ، فَجَلَسَ النبيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وتَحَلَقْنَا حَولَهُ في جنازةِ رجلٍ حتى يُحْفَرَ له**))، وهذا يدلُّ على أنَّه لم يهيأْ قبرُهُ بعدُ، ثم سَاقَ الحديثَ الطويلَ في قصة نزع روح المؤمن والكافر.

فالمقصود أنَّ هذا كان معروفًا في القديم أنَّهم يحفرون له، وتارة يكون القبرُ مهيأً، فإذا كان القبرُ مهيأً فالأمرُ أخفُّ.

وأمَّا إذا كانَ غيرَ مهيأٍ، فإنَّ بعض العلماء يقولون: العبرةُ بوضعِها من على أعناق الرجال، فحينئذٍ إذا وُضِعَتْ من على أعناق الرجال جَازَ الجلوسُ.

ويُقَوَّى هذا: بحديث البراء بن عازب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

وذهب طائفةٌ من العلماء من أنَّ المنع من الجلوس قبل أن توضع منسوخٌ.

ومنهم من قال -كما سَلَكَهُ الإمامُ ابنُ حَزْمٍ وغيرُهُ- أنَّه لا حاجة إلى القول بالنسخ، ولكن يُحمَلُ على النَّدبِ والاستحبابِ، لا على الحتمِ والإيجابِ، وأنَّ الأفضلَ والأكملَ أنَّه لا يجلس حتى تُوضَعَ الجنازة في القبر، وهذا أكملُ وأفضلُ.

ويُنَبَّهُ على: أنَّ ما يفعله بعض الناس من التزاحم على القبر، وأذية حتى من يقبر الميت، هذا كُلُّه خلافُ الشرع، والمنبغي الانتباه لمثل هذه الأمور، وعدم التزاحم بالشكل المزعج الذي قد يُفَوِّتُ بعض السنن، وقد يُفَوِّتُ المقصودَ الشرعيّ؛ لأنَّ المقصودَ الشرعيَّ من دُنُوِّ الإنسان من القبر أن ينظرَ ويعتبرَ ولذلك شهودُ الجنازة كان فيه عظيم الأجر، لماذا؟ لأنَّ فيه من عظم الآيات ما يعودُ بالخيرِ على المؤمنِ في دينِهِ، فإنَّ الإنسانَ إذا شَيَّعَ الجنازةَ، ونَظَرَ إلى دخولِ الميتِ إلى قبرِهِ يدخلُهُ أحبُّ الناس إليه، ابنُه أو أبوه أو أخوه أو صديقُه ومن يعزُّه أو ذي قرابة منه من عصبته ونحوهم، يدخلُهُ أعزُّ الناس إليه، وإذا

به لا يَمْلِكُ له نفعًا ولا ضرًا، يُسْلِمُهُ إلى هذه النهاية، وهو من أفقرِ ما يكونُ إلى رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- لقريبه، لا يستطيعُ أن يغنيَ له من الله شيئًا.

وأعجبُ من هذا إذا وجدتَهُ من أهل الثراء والغناء وأهل الجاه في الدنيا، فتجدُ من كان يقومُ عليه ويحفظُهُ وكذا، يقفُ ساكنًا يبكي، ما يستطيعُ أن يدخلَ معه في قبره، ولا يستطيعُ أن يدفعَ عنه من أمرِ اللهِ شيئًا، وهو لا يستطيعُ ذلك حتى في الدنيا، ولكنها عِبْرَةٌ، أن ترى أقربَ الناسِ إلى الإنسانِ وأن ترى عمالَهُ وأهلَ صنعتِهِ وأحبابَهُ والملتصقين به وأعوانَهُ وخدمَهُ وحشمَهُ، كُلُّ هؤلاءِ يقفون لا يستطيعُ أحدٌ منهم أن يغنيَ له من اللهِ شيئًا: **{وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** ، **(قَد)**: التي تفيد التحقيق ، واللام: زيادة تحقيق: **{وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا}**؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَ بمجيئهم إليه، ورجوعِهم إليه: **{ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}** ليسَتْ حياةَ لعبٍ ولا عبثٍ، أمورٌ تَهُزُّ القلوبَ في تشييع الموتى، حينما ترى أقربَ الناسِ منهم وأعظمَ الناسِ وأكبرَ الناس، وغير ذلك، لا يَمْلِكُ لنفسه شيئًا.

عَلَى سَرِيْرٍ لِلْبِلَى يُزَجَّى .....

(لِلْبِلَى): إلى التراب، وليس إلى النعيم، ولا إلى الترف، ولا إلى الحشم، ولا إلى الخدم، إلا إذا كان صالحًا.

عَلَى سَرِيْرٍ لِلْبِلَى يُزَجَّى .....

إلى البلى، إلى الفناء، إلى الدود، إلى مساكن اللحود، لا أبَ، لا أمَّ.

في ظلمةِ القبرِ لا أمٌّ هناكَ ولا أبٌ ولا أخٌ ولا صديقٌ ثَمَّ يُؤْنِسُنِي

ليس هناك إلا العمل الصالح، تَعجَبْ حينما تجدُهُ يُقَبَّلُ إلى الْقِبْلَةِ، فتنظرُ إلى عظمةِ الدِّينِ، إلى عظمة الإسلام، تقفُ على شفيرِ القبرِ، فتجدُ المسلمين على اختلاف أجناسهم ، وخاصةً في جنائز الفقراءِ والضعفاءِ، عَوِّدْ نفسَكَ أن تَخرَجَ فيها، فترى من يخرُجُ في جنازةِ الإنسانِ بل حتى في جنازةِ قريبِكَ، ترى أقوامًا لا يعرفون ميتَكَ إلا أنَّه مسلمٌ، صَلّوا عليه، فيأتون فيشهدون جنازةَ قريبِكَ، فتحسُّ بوشيجةِ الإسلامِ، تُحِسُّ بإخوة الإسلام، ولذلك أُمِرَ المسلمون أن يُشَيِّعُوا الجنائزَ فتشييعُ الجنائز فيه أمورٌ عظيمةٌ. فإذا أُدْنِيَ الميتُ إلى قبرِهِ، وجَلَسَ الإنسانُ، يجوزُ له أن يجلسَ، لكن التزاحم الذي يفعلُهُ الناسُ الذي يفوِّتُ التفكرَ والتدبرَ والاتعاظَ والاعتبارَ، لا خَيْرَ فيه، البعضُ يأتي يُزَاحِمُ حتى يُزَاحِمَ قرابةَ الميتِ، ما تسطيع حتى الذي يريدُ أن يُنْزِلَ مع ميتِهِ فيقبره، لا يستطيع من زحامِ مَنْ لا صلةَ بالميت، فمثل هذا

الزحام لا يترتبُ عليه غرضٌ شرعيٌّ، وقد يُفَوِّتُ الغرضَ الشرعيَّ، مثل ما ذكرنا من الاتعاظ والاعتبار.
ثم ترى الإنسانَ الذي هو في نعمتِهِ وفي خيرِهِ يأتي بثوبِهِ، وهو قد يكونُ من أرفعِ الناسِ في وظيفتِهِ ومنْزِلِهِ ومكانتِهِ، فينْزلُ إلى التراب مع أبيه، مع أخيه، مع ابنه، مع قريبه؛ لكي يواريَهُ؛ لكي يدفنَهُ، فيتمرغُ بترابِ أبيه الذي يُدْفَنُ فيه، ويخرُجُ من عزِّ الدنيا إلى ذُلٍّ يُذَكِّرُ بربِّ الدنيا والآخرة.
القربُ والشهودُ إذا كان الجلوسُ يمنعُ الإنسانَ من القربِ والشهودِ، فيحولُ بينه وبين كثيرٍ من العِبَرِ، بمجرد أن يُنْتَهَى من لحدِ الميتِ يُهَالُ عليه التراب، مَنِ الذي يُهِيلُ عليه التراب؟ مَنِ الذي يسكبُ عليه التراب؟ أقربُ الناسِ منه، ابنُه الذي أَنْجَبَهُ، وفلذةُ كبدِهِ، وأخوه، وأمه، وقريبه وابن عمِّهِ، كُلُّ هؤلاءِ، وعصبتُه الذين يقفون معه، ويتعصبون له، إذا بِهم هم الذين يُهِيلُون عليه التراب.

وَقَالَ: أَهِيلُوا عَلَيهِ التُّرْبَ وَاغْتَنِمُوا حُسْنَ الثَّوَابِ مَنَ الْجَبَّارِ ذِي الْمِنَنِ

فهذه عِبَرٌ تُحَرِّكُ القلوبَ، الجلوسُ قد يَحُولُ بين الإنسانِ وبين رؤيةِ هذه المواقف التي يتعظُ بِهَا ويَعْتَبِرُ بِهَا.
فالأفضل أنَّ الإنسانَ لا يجلسُ، ويكونُ قريبًا من القبر؛ حتى يَنْظُرَ إلى تدليةِ الميتِ، وإلى هذه المواقفِ التي تُذَكِّرُهُ بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، وتُقَوِّي إيمانَهُ بالله، وكذلك أيضًا تُورثُهُ الخوفَ والخشيةَ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، هذا ابنُك عن يمينك، وهذا ابنُك عن شمالك، وكما رأيتَ في أبيك وأمَّكَ وأخيكَ وأختِكَ وقريبِكَ وصاحبِكَ أنَّه أدناه ابنُكَ، سيدنيكَ ابنُكَ وقريبُكَ، وسيكونُ مثلَ ما رأتْ عيناك هذه كلُّها عِبَرٌ تُذَكِّرُ بالله -عَزَّ وَجَلَّ-.
الأفضلُ والأكملُ أنْ لا يجلسَ، وأنْ يَرَى، وأنْ يَعْتَبِرَ، وإذا جَلَسَ يأخُذُ بالسُّنَّةِ، بالأفضل، ويخرُجُ من الخلاف، فلا يجلس إلا إذا قُبِرَ الميتُ.
وإذا كان البعدُ عن القبر يُعِيْنُ على التَّذَكُرِ أكثرَ، لكن ليس البعدُ الذي يُفَوِّتُ الشهودَ، البعد الذي يُفَوِّتُ الشهودَ أن ينقطعَ عن القبر، وتكون هناك مفاسد، لكن الشهودَ أن يكونَ حاضرًا قريبًا من القبر، والمزاحمة كما ذكرنا التي تُؤذِي الناسَ، ويتأذى بِهَا المسلم، أو يُؤذِي بِهَا غيْرَهُ لا خيْرَ فيها، خاصةً إذا حَصَلَ فيها وُطْءٌ للقبور، ووقوفٌ على القبور، وقد يجلسُ على القبر، وقد نَهَى النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عن ذلك، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وأنَّه قد يُؤذِي صاحبَ القبرِ مَنْ جَلَسَ عليه، قال: ((**لا تؤذِ صاحبَ القبرِ، ولا يُؤْذِيكَ**))، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**لأَنْ يَجْلِسَ أحدُكُم على جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ**))، وفيه وعيدٌ شديدٌ،

ونصَّ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- والأئمة، وهو مذهب الجمهور -كما سيأتي- على حرمةِ ذلك، أنَّه لا يجوزُ تَوَسُّدُ القبورِ والجلوسُ عليها.

فالمقصود أنَّه يجلسُ إذا كان يعينُهُ ذلك على التفكر والتدبر والاتعاظ بصورة أكمل وأفضل.

وأمَّا متى ينصرفُ؟

فقال بعض العلماء: يستأذنُ بعد انتهاءِ دفنِ الميتِ من أهلِ الميتِ، وهو مذهبُ طائفةٍ من السلف أنَّهم كانوا لا ينصرفون من الجنازة إلا إذا استأذنوا أهلَها.

وقال بعض العلماء، وهو مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس، أنَّه إذا أُلْحِدَ الميتُ، ووُضِعَ في قبره فإنَّه ينصرفُ، ولا شيءَ عليه، أنَّه لا يحتاج إلى استئذانٍ.

والأفضل والأكمل في حصول القيراطين أن يشهدَها حتى يُنْتَهَى من دفنِهَا.

وأمَّا الأكمل والأفضل في الأجر أنَّه يدفِنُهَا ويدعو لَهَا؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كان إذا فَرَغَ مِنْ دفنِ الميتِ، يقول: ((**اِسْتَغْفِرُوا لأَخِيْكُم، واسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِتَ؛ فإنَّه الآنَ يُسْأَلُ**))، فهذه هي السُّنَّة أن يُستغفَرَ للميت، وأن يُسأَلَ له التثبيت، وأن يُدعَى له بخيرٍ، ثم يضيفُ إلى ذلك تعزيةَ قريبِ الميت، ونحوه ممن يُعَزَّى في ميتِهِ، هذا هو الأفضل والأكمل، والأعظم أجرًا، ثم ينصرفُ بعد ذلك، ولا يلزمُهُ استئذانٌ.

نسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يرزقَنا العلمَ النافعَ، والعملَ الصالحَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

رقم الدَّرس ٤٢٠

الأربعاء ٢١-٥-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ فضلِ المصيبةِ إذا احتُسبَ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا سويدُ بنُ نصرٍ، حدثنا عبدُاللهِ بنُ المباركِ عن حَمَّادِ بنِ سلمةَ عن أبي سنانٍ قال: دفنْتُ ابنَ سنانٍ، وأبو طلحةَ الخولانيُّ جالسٌ على شفيرِ القبرِ، فلمَّا أردتُ الخروجَ أخذَ بيدي فقال: ألاَ أبشّرك يا أبا سنانٍ؟ قلتُ: بلى، فقال: حدثَّني الضَّحَّاكُ بنُ عبدِالرحمن ابنِ عرزَبَ عن أبي موسى الأشعريّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أنَّ رسولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**إذَا مَاتَ ولدُ العبدِ قال اللهُ لملائكتهِ: قبضتُمْ ولدَ عبدِي؟ فيقولونَ: نعمْ، فيقولُ: قبضتُمْ ثمرةَ فؤادِهِ؟ فيقولونَ: نعمْ، فيقولُ: ماذا قال عَبدي؟ فيقولونَ: حَمِدَكَ واسترجعَ، فيقولُ اللهُ: ابنوا لِعبدي بيتًا في الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بيتَ الحمدِ**)).

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حدِيثٌ حسنٌ غَريبٌ.

الشَّرح:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ الأتمانِ الأكملانِ على خيرِ خلقِ اللهِ أجمعين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على سبيله ونهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ: فقد ترجمَ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه الترجمة، والتي تتعلقُ بفضل المصيبة إذا احتسبها الإنسانُ عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

والمراد بذلك: بيان ما وَرَدَ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الأجر والثواب لمن احتسب عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- البلاء والمصيبة إذا نزلت به.

والمصيبة تكون: بفقد المال، بفقد الولد، والمال، وقد تكون في النفس، وقد تكون فيما يحب الإنسان من عزيزٍ، وأخ وصديق، ونحو ذلك.

قد بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ العبدَ المؤمنَ يُبْتَلَى في نفسه، يبتلى في أهله وماله وولده وحِبِّهِ، ويبتلى في كلِّ شيء، وأنَّ خيارَ الناس من احتسب الأجر عند ربِّ الجنة والناس، وَوَثِقَ بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، واللهُ لا يَخيبُ عبده، فمن أحسن الظن بالله، كان الله عند حسن ظنه، كما قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في

الحديث الصحيح الذي يرويه عن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنَّه قال: ((**أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبدِي بِي، فَمَنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا كَانَ لَهُ، وَمَنْ ظَنَّ بِي شَرًّا كَانَ لَهُ**))، فنسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنْ يُعِيْنَنَا على إحسانِ الظَّنِّ به على أتَمِّ الوجوهِ وأكملِها وأعظمِها أجرًا عند الله وأجزلِها.

مناسبةُ هذا البابِ لكتاب الجنائز: واضحة، وذلك أنَّ كتابَ الجنائزِ يشتملُ على مصيبة الموت والفقد، سواء كان للقريبِ أو غير القريبِ، **ومن هنا يرد السؤال**: عن هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنته في تسلية المصاب وجبر خاطره؟

وقد عَقَدَ المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الباب بصيغة العموم، مع أنَّ الواردَ فيه من هذا الحديث خاصٌّ؛ لأنَّه يتعلقُ بفقدِ الولدِ، ولكن مضمونَ الحديث ومَتْنَ الحديث يشيرُ إلى ما عند الله من الكرم والجود والفضل والإحسان، وجبر الكسر لعبده، وهذا معنى عامٌّ، سواء فقد الإنسان قريبه وحبيبه، أو فقد غير القريب.

وذَكَرَ -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الحديث الشريف عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في تسلية المصاب بولده، ولا شَكَّ أنَّ الإنسانَ فُتِنَ بمحبة الولد، وقد ذَكَرَ اللهُ في كتابه أنَّ المؤمنين سألوه وضرعوا إليه أنْ يهبَهم قُرَّةَ أعينٍ، وأنْ يجعلَهم للمتقين إمامًا، كما قال سبحانه: **{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً}**.

وبَيَّنَ أنَّ هذه المنحة الربانية، والعطية الإلهية، وهي نعمة الولد تمناها على أتم وجوهها وأكملها أنبياء الله، كما قال سبحانه عن عبده زكريا: **{قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}** فَبَيَّنَ أنَّ الأنبياءَ سألوه وضرعوا إليه سبحانه أن يهبَهم الذرية الطيبة.

ولا تطيبُ الذرية إلا إذا كانت صالحةً، تطيعُ الله ولا تعصيه، وتتقي اللهَ وتخافُ منه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-فإذا رُزِقَ الإنسانُ هذه الذرية فإنَّه يُفْتَنُ بحبِّها؛ لأنَّ النفوسَ جُبِلَتْ على ذلك.

وهذه المحبة أصلُها رحمةٌ من الله أَوْدَعَهَا في قلوب عباده، ولذلك يتأثرُ الإنسانُ عند فقدِهِم بسبب هذه الرحمة التي أسكنها الله في قلبه، كما في الحديث الصحيح أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لما دَمَعْتَ عيناهُ، وسئل عن ذلك عند فقده لإبراهيم، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**رَحْمَةٌ أَسْكَنَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ**)).

فإذا أرادَ اللهُ أنْ يختبرَ عبدَهُ ويبتليَهُ، فإنَّ ابتلاءاتِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- واختباراتِهِ تكونُ بأحبِّ الأشياءِ

إلى الإنسانِ، وإذا عظُمَتْ مَنْزِلَةُ العبدِ عندَ اللهِ، وارتفعَ مقامُهُ، فإنَّ الله يبتليه بأعظمِ الأشياءِ وأحبِّ الأشياءِ إليه، كما ابتلى الأنبياءَ والرسلَ وخيرةَ خلقِهِ، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الصحيح يشيرُ إلى هذا المعنى: ((**أشدُّكم بلاءً: الأنبياءُ، ثم الأمثلُ، فالأمثلُ**)).

فإذا جاءَ البلاءُ للعبد لا يأتيه بما يحبُّ، بل يأتيه بما يكرهُ، وإذا جاءَهُ فيما يكرهُ جاءَهُ في أحبِّ الأشياءِ إليه، فابتُلِي في ولده، وابتُلِي في نفسه، ويُبْتَلَى في جسده، ويُبْتَلَى في ماله، ويُبْتَلَى في كلِّ شيءٍ، فإذا ابتُلِي في ولده فإنَّ البلاءَ يكونُ أليمًا، ووقعُهُ على النفس شديدًا؛ لأنَّنَا رأينَا وسمعْنَا من هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنته وما قصَّ اللهُ في كتابه عن أنبيائِهِ وخيرتِهِ من رسلِهِ، أنَّهم تفطرَتْ قلوبُهُم لفراقِ الأبناء، كما قال تعالى عن نبيه يعقوب: **{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}**، فهذا البلاء، وهو -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- فقد ابنه الذي أحبَّه محبةً دينيةً شرعيةً، مع وجود المحبةِ المبنيةِ على العاطفةِ من محبةِ الوالدِ لولدِهِ، فَقَدَ ابنَهُ يوسفَ -عَلَيهِ السَّلامُ-، وهو يعلمُ أنَّه سيعودُ إليه، ومع علمِهِ أنَّه سيعودُ إليه؛ لأنَّه أخبَرَهُ بالرؤيا، وعَلِمَ أنَّ ابنَهُ سيؤولُ إلى أمرٍ عظيمٍ، وأنَّه سيؤولُ إلى مقامٍ كريمٍ، ولذلك قال: **{يَا بَنِي اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ}**، فهذا يدلُّ على أنَّه كانَ يعلمُ أنَّه كانَ موجودًا، ومع هذا فَقَدَ عينَيْهِ من شدةِ البكاءِ، وكثرةِ الحزنِ، وشَكَا إلى الله ما يجدُه، ففراقُ الأبناءِ عزيزٌ، فإذا كانَ هذا النبيُّ يفقدُ ابنًا سيرجعُ إليه، فما بالُكَ بمن يفقدُ ابنًا لا يرجعُ إليه، فالمصابُ أشدُّ، ولذلك كان من أشدِّ ما يكونُ، ومن الروع العظيم الذي ينْزِلُ على الإنسانِ أنْ يفقدَ حِبَّه وولدَهُ، وهكذا الأم، حتى إنَّ الأخيارَ والصالحين كانوا يبُثُّون ويقولون ويذكرون في مثل هذه المصائب والفجائع الشيءَ الكثيرَ. ومن أروع ما ذكر في الرثاء والفقد من الشعراء ما كان في فقد الولد، حتى إنَّ قصيدة أبي ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيّ الشاعرِ المعروفِ الذي كان في زمانَ الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- والتابعين، وكان من الفرسان المشهورين -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فَقَدَ أربعةً من ولدِهِ في الجهاد في سبيل الله، وكانَتْ قصيدتُهُ في فراقِهم شديدةً، حتى إنَّ ابنَ عباسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- ومعاويةَ وغيْرَهم من الصحابة كانوا يتمثلون بها، وهكذا الخليفة أبو جعفر المنصور لما فَقَدَ أخاه أبا العباس السَّفاح الخليفة من قبله، قال: التمسوا لي من يحفظُ قصيدةَ أبي ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيّ، وكان بنو هُذَيْلٍ من أفصحِ العرب، وباديتُهُم أفصحُ البوادي لسانًا، وهذا معروفٌ ومشهورٌ، ومنهم الصحابيُّ الجليلُ عبد الله بن

مسعودٍ.

فقال أبي ذُؤَيْبٍ في أبياتِهِ المشهورةِ يخاطبُ زوجتَهُ أُمَيْمَةَ:

أَمِـــــنَ الْمَنُوْنِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ والْــدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمَيْمَةُ: مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا مُنْذُ ابْتَذَلْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ
أَمْ ما لِجِسْمِكَ لا يُلائِمُ مُضْجَعًا إلا أَقَضَّ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ
فَـــــقُلْتُ لَهَا: أَمَّا لِجِسْمِي أَنَّه أَوْدَى بَنِيَّ مِــنَ الْبِلادِ فَوَدَّعُوا
أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْـــقَبُونِي حَسْرَةً بَـــعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لا تُقْلِعُ
وَلَقَـــدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ سَفَاهَةٌ وَلَسَوْفَ يُوْلَعُ بِالْبُكَا مَنْ يُفْجَعُ
وَتَجَـــــلُّدِي لِلشَّامِتِيْنَ أُرِيْهُمُ أَنِّي لِــرَيْبِ الْدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ
وَإِذَا الْمَـــنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُـــلَّ تَمِيْمَةٍ لا تَنْفَعُ

وكانت من أروع القصائد لشدة الحزن بفقد الولد، ففقد الأولاد أمرُهُ عظيمٌ.

وَمِمَّا يَدُلُّ على ذلك: أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لما سألَهُ النساءُ، وقالوا: يا رسول الله، ذَهَبَ الرِّجَالُ بحديثك، فاجعل لنا يومًا تحدثنا فيه، فقال: ((**اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا**)) فاجتمعن، فلما اجتمعن ذكَّرَهُنَّ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- بفقد الولد وقال: ((**مَا مِنِ امْرَأَةٍ يَمُوتُ لَهَا ثَلاثَةٌ إلا كُنَّ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ، قالت امرأة: واثنين، يا رسول الله؟ قال: واثنين**)).

وهذا يدلُّ على شدة الأمر وأنَّ المصاب بفقد الولد أليمٌ، وفي صحيح الترغيب: أنَّ رجلاً من الصحابة كان يغشى مجلسَ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكان يُحْضِرُ معه ولدَهُ، وكان يتعلق به الولد، ثم إنَّه فَقَدَ هذا الولد، فمات، فانقطع عن مجلسِ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الحزن؛ حتى لا يتذكرَ ولدَهُ ، فَفَقَدَهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ، فسألَ عنه ، فأخبروه ، فجاء إليه، فَعَزَّاهُ، ثم قال له : ((**أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ فِي الدُّنْيَا تَتَمَتَّعُ به، أَوْ يَكُونَ لَكَ فِي الآخِرَةِ كُلَّمَا أَتَيْتَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ تَلَقَّاكَ مِنْهُ**))، قال: يا رسولَ الله، يسرني أن يتلقاني في الجنة.

والأحاديث صحيحة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ الجزاءَ عند الله عظيمٌ، وأنَّ الثوابَ عند الله كريمٌ لمن احتسب عند الله في أي شيءٍ يفقدُهُ، خاصةً إذا كان من الولد، ومَنْ يَعُزُّهُ مِنْ فَلَذَةِ كَبِدِهِ.

وفي الحديث الصحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه سَأَلَهُ رجلٌ عن حالِ الآباءِ مع أبنائِهم وما يفقدونَهم -كما في الصحيح- فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أولئكَ دَعَامِيْصُ الْجَنَّةِ، لا يَزَالُ أَحَدُهُم يَأْخُذُ بِيَدِ أَبِيْهِ حَتَّى يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**))، **والدَّعاميص**: هم الذين يكثرون الدخول على الملوك، وإذا دخلوا لا يمنعون، وهم الناس المعروفون عند الملوك وأهل الجاه، فإذا دخلوا لم يمنعوا، فقال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أولئكَ دَعَامِيْصُ الْجَنَّةِ**)) أي يدخلون في الجنة ويذهبون ويأتون دون أن يسألوا، ودون أن يكون منهم أمرٌ يضيّقُ عليهم فيه، لعظيمِ مكانِهِم وشأنِهِم، حتى يأخذُ الواحدُ منهم بيدي أبيه في الْمَحْشَرِ، فيقودُهُ إلى الجنة.

فهذه كلُّها سلوةٌ للعبد المؤمن الصالح الذي آمن بالله، ورضي بقضاء الله، وعلم أنَّ ما عند الله خيْرٌ من كُلِّ شيءٍ، وأنَّ اللهَ يُعَوِّضُهُ عمَّا فَقَدَ إذا أَحْسَنَ الظنَّ بالله.

وَقَالَ: هِيْلُوا عَلَيْهِ التُّرْبَ وَاغْتَنِمُوا حُسْنَ الثَّوَابِ مِنَ الْجَبَّارِ ذِي الْمِنَنِ

فلا أَمَنَّ مِنَ الله، ولا أكرمَ من الله، وأيُّ قلبٍ انكسر وهو يؤمنُ بالله -جَلَّ جَلالُهُ-، ويتوجه إلى الله أنْ يجبُرَ كسرَهُ، وأنْ يُعْظِمَ أجرَهُ إلا فاز بما يرجو وزيادة من كرم الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فإنَّ كَرَمَ اللهِ عظيمٌ، فإنَّ العبدَ إذا أصابتْهُ المصيبةُ ليس في فقدِ الولد، ولا الوالدين، ولا غيرهما، أيّ مصيبةٍ تَنْزِلُ بالعبد، فتضيقُ بِهَا نفسُهُ، ويضيق بِهَا صدرُهُ، فيتوجه إلى الحيِّ القيومِ، ويتوكلُ على الحيِّ القيومِ الذي لا تأخذُهُ سنةٌ ولا نومٌ، ويسبحُ بحمده، إلا جَبَرَ اللهُ كَسْرَهُ، وأَعْظَمَ أَجْرَهُ، وأَحْسَنَ الخلفَ عليه.

وهذا الحديث شاهدٌ من هذه الشواهد، حيث بيَّنَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ العبدَ إذا فَقَدَ ولدَهُ سَأَلَ اللهُ الملائكةَ، وهو أعلمُ بحالِ عبادِهِ، فهو سبحانه عليمٌ بذاتِ الصدورِ، وعليمٌ بما كانَ وما يكونَ وما لم يكنْ أَنْ لو كانَ كيف يكونُ، ولكنه يسألُ تشريفًا وتكريمًا، وإظهارًا لعلوِّ مقامِ هذا العبد بالإيمان؛ لأنَّ الصَّبْرَ مَنْزِلَةٌ عظيمةٌ، تعلو بقوة الإيمان، فإذا كان الإيمانُ قويًّا كان الصَّبْرُ تامًّا كاملاً، فيسألُ الله: ((**فيقولُ لملائكتِهِ: أقبضْتُمْ ولدَ عبدي؟ فيقولونَ: نَعَمْ، فيقولُ اللهُ** -عَزَّ وَجَلَّ- **وهو أعلمُ: قبضْتُمْ ثمرةَ فؤادِهِ؟ فيقولونَ: نَعَمْ**)).

هذا يدلُّ على أنَّ البلاءَ عظيمٌ؛ لأنَّه وَصَفَ هذا الولد بِهذه الصفة، وهذا يدلُّ على أنَّ للأولاد مَنْزِلَةٌ عظيمةٌ في قلوب الآباء والأمهات، وإذا قلنا: إنَّ لَهُم مَنْزِلَةً، والشرعُ يُنَبِّهُ على هذه المنْزِلَة فهذا يُرَاعَى في التشريعات والأحكام، ولذلك يراعي القاضي عاطفةَ الوالدِ لولدِهِ، فلو أنَّ شخصًا أعانَ شخصًا على أذيةٍ، وكان الْمُعِيْنُ والدًا يُعِيْنُ وَلَدَهُ، فإنَّه ليس كما لو أعَانَ غريبٌ غريبًا، وكما لو أعَانَ صديقٌ

صديقًا؛ لأنَّ العاطفةَ من الوالدين تدفعُ وتعمي وتصم، ولذلك بَيَّنَتِ السُّنَّةُ هنا أنَّه فلذةُ كبدِهِ، وهذا يدلُّ على عظيم الفتنة، ويعبر بالكبدِ وتألُّمِها وانصداعِها عند المعزة والمحبة والشوق والحنين، ولذلك عبَّر بهذا التعبير المألوف في لسان العرب، كما قال الشاعر، وهو الصُّمَّة بن عبد الله القُشَيْرِيُّ من فرسان التابعين، وكان من قواد الصحابة في الجهاد في الشام قال قصيدته المشهورة، وفيها يقول:

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحِمَى ثُمَّ أَنْثَنِي عَلَى كَبِدِي خَشْيَةَ أَنْ تَصَدَّعَا

فالشيء إذا أحبَّه الإنسانُ، وأعزَّه، أسكنه في فؤاده، وفي قلبه، وفي أحشائه، ولذلك تعبر الأمُ والأبُ بأنَّ الابنَ في أحشائها، بمعنى أنَّه سَكَنَ روحَها، وسَكَنَ جسدَها كالروح التي سكنَتِ الجسدَ، فلا يمكنُ أن ينفصلَ عنها، ولا يمكنُ أن تنفصلَ عنه، وهذا كلُّه إشارة إلى ما وُضِعَ للأبناء من المحبة، وهذا يدلُّ على أنَّه ينبغي للولد أنْ يتقيَ اللهَ في والديه، وأنْ يعلمَ أنَّ الوالدَ إذا قسا، والأمَ إذا قسَتْ، أنَّ هذا من شدةِ الحبِّ والعاطفةِ، ولا يستطيعُ الإنسانُ أن يتهمَ والديه، فهذا ربُّ العزة والجلال يصفُ منْزِلةَ الولد عند والده بهذه الصفة، ولذلك من شكَّكَ في حُبِّ أبيك، ومن أساء ظنَّك بأبيك، فقد خانك، وكذب عليك، وأساسُهم ورأسُهم إبليسُ؛ لأنَّه يحرصُ دائمًا على أنْ يفسِّرَ تصرفاتِ الأبِ بأنَّها تسلُّطٌ وتَجَبُّرٌ وأذيةٌ، ولكنَّ الشرعَ يبيّنُ أنَّها محبةٌ تعمي وتصم، وأنَّك في حشاشة قلبه وفؤاده، وأنَّك في منْزلةٍ عظيمةٍ، ولذلك لا يستطيعُ أنْ يجزيَ الولدُ والدَهُ ووالديه إلا أنْ يتوجَّهَ بالدعاءِ إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأنْ يُكْثِرَ من سؤال الله لهما من خيري الدنيا والآخرة، فمحبة الوالدين لا شكَّ فيها ولا مرية، ولذلك يمكنُ أنْ يشكَّ الإنسانُ في محبة الناس، لكن لا يمكنُ أن يشكَّ في محبة الوالد والوالدة، وما حَرِصَ الشيطانُ على شيءٍ بعد إبعاد الإنسان عن القيام بحقِّ الله مثل حرصِهِ على أنْ يبعدَ الإنسانَ عن بِرِّهِ بوالديه، بالتشكيك والتخوين والتكذيب، كانت المرأة يقول لها أبوها: إنِّي اخترْتُ لك فلانًا، فتقول: سمعًا وطاعةً لأنَّها تعلمُ أنَّ الأبَ لا يغشُّها، وأنَّ الأبَ لا يكذبُها، ولما مُلِئَتِ القلوبُ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- ممن لا يحسنُ النظرَ في حقيقة الوالد مع ولده، أصبحَتِ البنتُ تشكُّ في أمِّها، والابنُ يشكُّ في أبيه، والابن يقول: أبي دَمَّرَ حياتي، ودَمَّرَ مستقبلي، فإذا جئْتَ تُنَبِّشُ عن هذا التدمير، وَجَدْتَهُ كان يأمرُهُ بالصلاة، وكان يضربُهُ ليقومَ إليها، أو ينهاهُ عن الحرام، أو ينهاهُ عن الآثام، حتى أساء الظَّنَّ به -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، فهذا كلُّهُ بسببِ البعدِ عن هدي الشرع، هدي الشرع يُنَبِّهُ الناس بهذه الكلمات، وهذه الأوصاف، فاللهُ لا يجاملُ أحدًا، وهذا الوصف من الله -جَلَّ جَلالُهُ- الذي وَصَفَ نفسَهُ فقال: **{وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}**، ولو كان الوالدُ عدوًّا للولد ما جاملَ

اللهُ والدًا في ولده ولا ولدًا في والده، ولذلك قال تعالى: **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ}**، فجاءَتْ نصوصُ الكتاب والسنة تُبَيِّنُ أنَّ في قلب الوالدين من الحبِّ للولد ما الله به عليمٌ، فنسألُ اللهَ بأسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العلى أنْ يغفرَ لنا كُلَّ ما قَصَّرْنَاهُ في حقِّ الوالدين، وأنْ يعينَنَا على إحسانِ الظَّنِّ بِهما والقيامِ بحقِّهما على الوجه الذي يرضيه، اللهم اجْبُرْ الكسرَ، وأعظمْ لَهما في ذلك الأجرَ. فالمقصودُ أنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ الولدَ بهذه الصفة.

قال: ((إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ، قَالَ اللهُ لملائكتِهِ: قبضْتُمْ وَلَدَ عبدي؟ فيقولونَ: نعمْ))، **((إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ))**: الولدُ يشملُ الذَّكرَ والأنثى، ولذلك قال تعالى: **{يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}**، أمَّا الابنُ فخاصٌّ بالذَّكَرِ، والبنتُ خاصةٌ بالأنثى، **((فيقولُ: قبضْتُمْ ثمرةَ فؤادِهِ؟ فيقولونَ: نعمْ))**، **((فيقولُ: قبضْتُمْ ثمرةَ فؤادِهِ؟))** وَصْفٌ عظيمٌ لِمَنْزِلَةِ الابنِ والبنتِ في نفسِ الوالدِ والوالدةِ؛ لأنَّ اللهَ هو المطلعُ على الأفئدةِ، وهو المطلعُ على الضمائرِ، نعم إذا صَاحَ أبوك في وجهِكَ وضَرَبَكَ، فعَلِمَ أنَّ وراءَ هذا الضربِ، ووراءَ هذا الصياحَ قلبًا يحبُّك، وأنَّه يريدُ لك كُلَّ خَيْرٍ، وأنَّه رُبَّمَا من شدةِ العاطفةِ أنَّه هذه العاطفة تُعْمِيهِ وتُصِمُّهُ، ولكن لا تستطيعُ أن تصلَ إلى قرارةِ القلبِ، فتشكُّ في محبتِهِ وإرادةِ الخيرِ لَكَ، جَزَاهُم اللهُ عنا خَيْرَ الجزاءِ.

((فيقولُ: ماذا قال عَبدي؟))، **((ماذا قال عَبدي؟))**: مراقبةٌ من اللهِ -جَلَّ جَلالُهُ-، وفيه دليلٌ على أنَّ البلايا إذا نزلَتْ بالعبد ينبغي عليه أنْ يراقبَ قولَهُ وعملَهُ، فإنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مطَّلِعٌ عليه، وأنْ يُرِيَ اللهَ منه خَيْرًا، وأنْ يُسْمِعَ اللهُ منه خَيْرًا، أسعدُ الناسِ في البلايا من إذا نزلَ به البلاءُ وحلَّتْ به المصيبةُ، وأَحَاطَ به العناءُ، قال خَيْرًا، وعملَ خَيْرًا، ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حينما دَخَلَ على أبي سَلَمَةَ، وقد قُبِضَ، وسَمِعَ الصوتَ، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((لا تقولوا إلا خَيْرًا؛ إنَّ الملائكةَ تُؤَمِّنُ على ما تقولون...))** الحديث، فهذا يدلُّ على أنَّه عند نزول المصيبة يقولُ الإنسانُ الخيرُ: (إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون)، لعلَّه أنْ يكونَ من الصابرين، يقولُ ما يرضي الله، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **((ولا نقولُ إلا ما يرضي اللهَ))**، ويعمل بما يرضي الله.

وهناك أمران أوصاك الله بِهما في البلاء: الصبر، والصلاة.

أُثِرَ عن حَبْرِ الأمةِ وترجمانِ القرآنِ عبدِ الله بنِ عباسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنَّه كان في سَفَرٍ، فجاءَهُ الخَبَرُ بوفاةِ ابنٍ من أبنائِهِ، فَنَزَلَ من على الدَّابةِ، وصَلَّى ركعتين، ثم قال: (إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون، عملْنَا بما أمرنا ربُّنا: **{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}**).

إذا نزلَتِ المصيبةُ يتوضأُ الإنسانُ، ويصلي ركعتين، يشكو إلى الله أمرَهُ، ويَبُثُّ إليه حزنَهُ، واللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يَثَبِّتُ أولياءَهُ وأصفياءَهُ، فلا يقولُ إلا خيْرًا.

وصَحَّ عنه -أيضًا- أنَّه لما جاءَهُ الخَبَرُ بوفاةِ أخيهِ قُثَم بنِ عباسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ أيضًا.

فهذه هي السنةُ أنَّ الإنسانَ يقولُ الخيْرَ، مثل: (إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون)، الاسترجاع، ويعملُ خيْرًا، كأن يصلي، ويسأل الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الثبات، وأنْ يأجرَهُ على المصيبة، وأنْ يُحْسِنَ لَهُ الخَلَفَ فيها، فهذا كلُّه من توفيق الله، ومن دلائل حبِّ الله للعبد، وإذا أرادَتْ عيناكَ أنْ تَرَى العبدَ الصالحَ الذي اصطفاه اللهُ واجتباهُ، فانظرْ إليه إذا نزلَتْ به المصيبةُ، وحلَّتْ به النكبةُ، هل يتسخط؟ هل يتفجع؟ أبدًا، تجدُهُ ثابتَ الجَنَانِ، وقويَ الأركانِ، مشيدَ البنانِ، لا يقولُ إلا خيْرًا، أسوةً وقدوةً، خاصة إذا كنتَ في بيتك وأسرتك ينظرُ إليك كقدوةٍ، فحينئذٍ يكونُ الأمرُ أشدَّ، كالوالد أمام أولاده، والأخ الكبير أمام إخوانه، ليصبر ويصابر ويحتسب، ولن يرى من اللهِ إلا خَيْرًا.

((**فيقولونَ: حَمِدَكَ، واسْتَرْجَعَ**))؛ لأنَّ أقوالَ العباد محفوظةٌ، حفظَها ملائكةٌ كرامٌ، يعلمون ما تفعلون، لا يغشون، ولا يكذبون، ولا يغيرون، ولا يبدلون.

((**فيقولونَ: حَمِدَكَ**))، قال: (الحمدُ لله)، والسنةُ أنْ يقولَ الإنسانُ في البلاء: (الْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ حَالِ أَهْلِ النَّارِ).

((**وَاسْتَرْجَعَ**)): قال: (إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون)، هذه نعمةٌ عظيمةٌ من الله على العبد.

أُثِرَ عن عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّه لما فَقَدَ ابنَهُ، دَخَلَ عليه أحدُ الأخيار والصالحين، وذَكَّرَهُ بقصةٍ سَلَّتْهُ وعَزَّتْهُ -رَحِمَهُ اللهُ-، مع أنَّه كان من خيار العلماء، ومن خيار الخلفاء، فالإنسانُ مهما عَلَتْ مرتبتُهُ؛ لأنَّه كان ابنُه عبدُ الملك، وكان عبدُ الملك هذا من أصلحِ الأولادِ كان يحبُّ أباهُ، ويأمرُ أباهُ بالمعروف، وينهاهُ عن المنكر، مع أنَّه خليفةٌ، ولما صارَتْ قضيةُ حِصْنِ فَدَكٍ، وكان عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ لا يرى فيها ما رآهُ من قبلَهُ؛ لأنَّها مُنِحَتْ لبعض خلفاء بني أمية، فَدَخَلَ عليه ابنُه عبدُ الملكِ، فقال: (يا أبتاهُ، حِصْنُ فَدَكٍ رُدَّهُ حيثُ رَدَّهُ رسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فقال: يا بُنَيَّ، أَنْظِرْنِي إلى أنْ أَنَامَ)، جاء في شدةِ الظُّهرِ (القيلولة) متعبًا منهكًا، فقال: (أَنْظِرْنِي حَتَّى أَنَامَ، فَإِذَا نِمْتُ استيقظْتُ فَرَغْتُ لهذا الشأن، فقال: أي أبتاهُ، أو تضمنُ لي أنْ يحييك اللهُ، أو تقومَ من نومتِكَ)، فقام -رَحِمَهُ اللهُ- فزعًا، وطار عنه النومُ، وقال: (الحمدُ للهِ الذي رزقني من ولدي من يذكرني بالله)، ثم

خَطَّ -رَحِمَهُ اللهُ- كتابَهُ المشهورَ الذي عُدَّ من حسناتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ-.

وفَقَدَ هذا الابنَ في حياته، وتَأَثَّرَ أَثَرًا عظيمًا، وسُلِّيَ وعُزِّيَ، دَخَلَ عليه أحدُ العلماء الصالحين حَدَّثَهُ عن محمدِ بنِ كعبٍ القُرَظِيِّ، أنَّ رَجُلاً من بني إسرائيلَ كانَتْ له امرأةٌ جميلةٌ، يحبُّها حُبًّا جَمًّا، وكان هذا الرجل من أعبد بني إسرائيل، ثم فَقَدَ هذه المرأةَ التي كان يحبُّها في جَمَالِها وأدبِها وكمالِها وحسن حالِها، فَحَزِنَ عليها حُزْنًا عظيمًا، وانقطعَ عن الناسِ، وقَفَلَ صومعتَهُ، فقالت امرأةٌ من بني إسرائيل: إِنِّي أريدُهُ، أريدُ هذا الراهبَ، عندي مسألةٌ، لا يحلُّها إلا هو، فقالوا له: إنَّ هنا امرأةً تقول: إنَّها تريدُك في مسألةٍ، لا يجيبُ عنها ولا يحلها إلا أنت، فَنَزَلَ لها من صومعتِهِ، وقالت له: أريدُكَ، وليسَ معك أَحَدٌ، فلما دَخَلَتْ عليه، قالت له: إنَّ أقوامًا أعطوني عاريَّةً، وهذه العارية أخذتُهَا وانتفعْتُ بِها ما شاء الله، ثم إنَّهم جاءوا وسألوني إياها، وهذه القصةُ شبيهةٌ بقصةِ أبي طلحةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في الصحيح لكن هذه كانَتْ مشهورةً، ومحمدُ بنُ كعبٍ القُرَظِيُّ من بني قُرَيْظَةَ من اليهود، وكانت مشهورةٌ في بني إسرائيل، فقالت له: أرأيتَ لو أنَّهم سألوني هذه، فجاءوا يسألوني هذه العارية، فقال: رُدِّيْهَا إليهم، فقالت: إنَّهم أَنْظَرُوني وأعطوني أمدًا طويلاً، فقال: هذا أحرى أنْ تَرُدِّيْهَا إليهم، فقالت له: هكذا زوجتُكَ، فإنَّ الله خلقَكَ وخلقَهَا، وجعلَها عاريَّةً عندك، ثم قبضَها، فذهبَ عنه جميعُ ما يجدُهُ من الحزن، وتسلَّى وتعزَّى.

قال عُمَرُ: فذهبَ عني بعد أنْ ذَكَّرَهُ بهذه القصة، قال: رَحِمَكَ اللهُ، أذهبْتَ عني ما أجدُ في نفسي. فالعبدُ المؤمنُ حينما يحسُّ أنَّ العطايا أنَّ هذه كلُّها عطايا من الله، وأنَّ ما عند الله خَيْرٌ وأبقى، وأنَّ اللهَ وَعَدَ بِحُسْنِ الخَلَفِ، فإنَّه يتسلَّى ويتعزَّى، وهذا الأمر لا يقتصرُ على المصائب العظيمة كان السلفُ الصالحُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- يسترجعون ولو في الشوكة، ولو في الدبوس، كالشوكة تضربُ طرفَ القدمِ، يقول: (إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون)، وكان الرجلُ منهم إذا انقطع شَسْعُ نعلِهِ، قال: (إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون)، يحتسبون عند الله كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، ولذلك قال: **[فضل المصيبة إذا احتسب]**، أي احتسب عند الله الأجر، فتحتسب عند الله كلَّ ما يسوؤك وكلَّ ما تكرُهُ، فإذا عشْتَ على هذا الحال عشْتَ حميدًا، فلا ترى شيئًا يسرُّكَ إلا حَمِدْتَ الله، ولا ترى شيئًا يضرُّكَ إلا استرجعْتَ، وسألْتَ الله أن يحسنَ لك الخَلَفَ، إلا كان لك من الله ما لم يخطرْ لك على بالٍ.

((**فيقولُ اللهُ: ابنوا لِعبدي بيتًا في الجَنَّةِ، وسَمُّوهُ بيتَ الحمدِ**))، ((**ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة**)): فيه دليلٌ على أنَّ الأعمالَ الصالحةَ يكونُ جزاؤها بالمنازل في الجنات، كما وردَتْ بذلك النصوصُ في

كتاب الله، وصحَّتْ به الأحاديثُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فيُبْنَى للعبد البيتُ، ويُبْنَى للعبد القصرُ، ولكن شتَّانَ بين بيوتٍ تُبْنَى لتهدم، وبين بيوتٍ تُبْنَى لتبقى، شتَّانَ بين بيوتٍ تُبْنَى من الذَّهَبِ، وهي عاليةٌ في منازلَ ساميةٍ، وبين بيوتٍ لا تلبثُ قليلاً حتى تَرَاهَا خاويةً: **{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا}**، فلا يبقى منها شيءٌ، ولكن ما بُنِيَ في الجنة فهو باقٍ، ومن هنا هذا البيتُ يُبْنَى للعبد، فإذا قيل: (ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة)، فهو بيتٌ غير البيت الذي تعرفُهُ، ومسكنٌ غير المسكن الذي تألفُهُ، فبيوتُ الجنة بيوتٌ عظيمةٌ، وهذه البيوتُ فيها من النعيمِ المقيمِ والخيرِ العميمِ ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ، وأهلُها يتراءونَ كما يتراءون الكوكبَ الغابرَ في الأفق ومع ذلك لا يتحاسدون، ولا يتضاغنون، وكم من بيتٍ بناه الإنسانُ في الدنيا فجاءَتْهُ مصائبُ الدنيا من نظر الناس، وحسد الحاسدين، وغير ذلك من بلاء هذه الدنيا، ولكن قصورَ الجنة ومنازلها تختلفُ فليس في الجنة إلا الأسماء، البيتُ شيءٌ آخرُ، وإذا كان البيتُ بأمرِ ملكِ الملوكِ وجبَّارِ السماواتِ والأرضِ في مصيبةٍ انكسر فيها قلبُ عبدِهِ المؤمنِ في هذه الدنيا، وأحبَّ سبحانه أنْ يُفْرَحَهُ كما أصابَتْهُ وأساءَتْهُ الدنيا، وأحبَّ سبحانه الكريمُ الرحيمُ الحليمُ الودودُ، وَصَفَ نفسَهُ بأنَّه ودودٌ، بأنَّه يُودُّ عبادَهُ بالخير والبر في الدنيا والآخرة، فهذا من ودِّهِ سبحانه بعباده، وإلا فالأولادُ عطيتُهُ، وإذا قَبَضَهَا فهي أمرُهُ وحكمتُهُ،ومع ذلك يثيبُ ويحسنُ الجزاءَ لكن بشرط: الإيمان، واحتساب الأجر عند الرحمان ((**قَالَ: ابنوا لعبدي بيتًا في الْجَنَّةِ**)) : وهذا يدلُّ على البشارة بالجنة لمن صبر واحتسب ، إذا صبر واحتسب أنَّه يبشرُ بالجنة ، وأنَّ له جزاءً في الجنة ، وهذا ما عناه التابعي -رَحِمَهُ اللهُ- بقوله : (أبشرْ أبا سنانٍ)، فقد بشَّرَهُ بما يظهرُ من الحال إن هو صبر واحتسب.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ ما جاءَ في التكبيرِ على الجنازةِ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أحمَدُ بنُ منيعٍ، حَدَّثنا إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ، حدثنا معمرٌ عن الزُّهريِّ عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ عن أبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أنَّ النَّبيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **صَلَّى عَلَى النَّجاشيِّ فَكَبَّرَ أَرْبَعًا**)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن ابنِ عبَّاسٍ وابنِ أبي أوفَى وجابرٍ ويزيدَ بنِ ثابتٍ وأنسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: ويزيدُ بنُ ثابتٍ هو أخو زيدِ بنِ ثابتٍ، وهو أكبرُ منهُ، شهدَ بدراً، وزيدٌ لم يشهدْ بدراً.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ أبي هُريرَةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرح:

بيَّن المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بهذه الترجمة ما يتعلق بصفة الصلاة على الميت، فالصلاة على الميت تشتمل على صفةٍ مخصوصةٍ محفوظةٍ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وشَرَعَ في هذا الباب وما بعدَهُ في بيان الصفة المتعلقة بهذه الصلاة.

والصلاةُ على الجنازة من فروض الكفاية، فرضُ كفايةٍ إذا قام به البعضُ سَقَطَ الإثمُ عن الباقين.

والأصلُ في وجوبِها ولزومِها وفرضيتِها: أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَمَرَ بذلك، فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**))، وهذا أَمْرٌ، ((**صَلُّوا**)): أَمْرٌ، والأمرُ للوجوب، فدلَّ على أنَّه يجبُ على الحيِّ أن يصليَ على الميت، ولكن هذا الوجوب كما ذكرنا فرضُهُ كفائي إذا قامَ به البعضُ سقطَ الإثمُ عن الباقين.

ورغَّبَ الشرعُ في الصلاة على الميت، وحثَّ عليها، وحضَّ عليها، وبيَّن أنَّ من صلَّى على الميت كان له قِيْرَاطٌ، وأنَّه إذا شهدَ جنازتَهُ حتى تدفنَ كان له قِيْرَاطَانِ، وهذا يدلُّ على فضل الصلاة على الميت.

ثم هذه الصلاة فيها خيْرٌ للمؤمن المصلي -كما ذكرنا- من كونه يكونُ له قِيْرَاطٌ.

ويكونُ فيه أيضًا أداءٌ لحقِّ أخيه المسلم.

وأيضًا فيه خَيْرٌ للميت؛ لأنَّه إذا صَلَّى عليه أربعون من أهل التوحيد والإيمان ويشفعون له إلا شفعوا، وَوَرَدَ:((**الصَّفَّان والثلاثة صفوف**)) ولذلك كان بعضُ الصحابة إذا قَلَّ العددُ يقسمُهُم على الصفوف طلبًا لهذا الفضل، أنَّه حتى يشفعوا في الميت.

والصلاة على الميت رَحْمَةٌ من الله -عَزَّ وَجَلَّ-، شَرَعَهَا لخيْرٍ للميت، ولمن يُصَلِّي عليه. وتتأكد هذه الصلاة، ويتأكد لزومُها إذا كان الذي تُصَلِّي عليه له حقٌّ عليك كالوالدين وذي القرابة، ومن له فضلٌ، كأهل العلم، ونحوهم ممن له بلاءٌ عظيمٌ على الإسلام والمسلمين، فهؤلاء الصلاة عليهم آكدُ، ولكن مع هذا كلِّه فإنَّه يصلى على كلِّ بَرٍّ وفاجرٍ، يصلى على أموات المسلمين بَرِّهِم وفاجرِهِم، بل إنَّ عصاةَ المسلمين أحوجُ إلى صلاتك من مطيعيهم، والبعض يُحَقِّرُ من الصلاة على أصحاب المعاصي والذنوب، وهذا لا يجوزُ، لا يجوزُ للمسلم أنْ يحتقرَ الصلاةَ على الميت بَرًّا كان أو فاجرًا، فقد أفضوا إلى ما عملوا، وإذا كان يقول لك: إنَّه عاصٍ، قُلْ له: إنَّه أخوك في الإسلام، والعاصي أحوجُ إلى الدعاء، وأحوجُ إلى أنْ تسألَ اللهَ له.

فإذا شفعْتَ لأخيك وهو عاصٍ، تسألُ اللهَ له الرحمةَ كان أجرُك أعظمَ؛ لأنَّك في هذه الحالة تجدُ شدةَ حاجة أخيك إليك،ولذلك أعظمُ الناسِ ثوابًا في المسلمين من سَدَّ حاجتَهم، فإذا كانت الحاجةُ أعظمَ كان الأجرُ أعظمَ، ولذلك الأرملةُ لا أحدَ يقومُ عليها، فإذا سعى عليها الإنسانُ كان أجرُها أعظمَ.

فإذا كان مذنبًا عاصيًا، وأردْتَ بشفقة الإسلام وشفقة الإخوة، إخوة الإسلام أنْ تصليَ عليه، وأنْ تترحمَ عليه، وأن تسألَ الله أنْ يغفرَ له، وأن يرحمَهُ، وأنْ يتجاوزَ عنه، فقد مضى ما مضى وحينئذٍ إذا فعلْتَ ذلك أعظمَ اللهُ أجرَكَ، وأجزلَ مثوبتَكَ.

لكنَّ العلماءَ قالوا: إنَّه إذا كان الشخصُ من العصاةِ المتمردين على اللهِ، بحيثُ إذا امتنعَ أهلُ الفضلِ من الصلاةِ عليهم، انزجَرَ الناسُ،وانكفوا،شَرَعَ أنْ يتخلفَ أهلُ الفضلِ كما ذكروا ذلك وبينوه في أكثر من موضع.

هذا في حالة إذا ما كان امتناعُ الشخص من الصلاة عليه يردعُ غيْرَهُ ويزجرُ غيْرَهُ ويخوفُ غيْرَهُ، فهذا غيْر،هذا من بابِ طلبِ ما هو أصلحُ،لكن مع هذا لا يمنعُ أنْ يستغفرَ له،وأن يترحمَ عليه في خاصتِهِ، كما نَبَّهَ عليه بعضُ أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

ومن هنا الصلاة فيها شفاعةٌ، ودعاءٌ للميت، وترحُمٌ عليه، وهو يحتاجُ إلى هذا الدعاء، ويحتاُج إلى هذه الصلاة، وقد يكون الإنسانُ في حالٍ قريبٍ من اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وإذا كان قريبًا من الله، فإنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يقبلُ شفاعتَهُ، فإذا سألَه أعطاه، وإذا استعاذَ به لنفسه ولغيره أعاذَهُ، كما ثبتَ في الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قال: ((**رُبَّ أشعثَ أغْبَرَ، ذي طِمْرَيْنِ مدفوعٍ بالأبوابِ، لو أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأبَرَّهَ**)).

والصلاة على الميت تستفتحُ بالتكبير، ولذلك عَقَدَ المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الباب بالتكبير على الجنازة على الميت.

التكبير في الصلاة على الميت وَرَدَتْ فيه صفاتٌ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **أصحُّها وأقواها** هذا الذي ثبتَ في الصحيحين من صلاته على النجاشي أَصْحَمَةَ أنَّه صَلَّى عليه فَكَبَّرَ عليه أَرْبَعًا، كما في الصحيح من حديث أمِّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**أنَّ النبيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **نَعَى النَّجَاشِيَّ يومًا، فقال: إنَّه مَاتَ اليومَ عَبْدٌ صَالِحٌ**)).

وهذا من معجزاتِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، حيثُ أطلعَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- على موتِ النجاشيِّ، والنجاشيُّ في الحبشة، والنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في المدينة، ولم يكنْ هناكَ وسائلُ يمكنُ بها معرفةَ الخبر في حينه، ولكن ليعلمَ الناسُ، وليعلمَ الخلقُ عظمةَ الرَّبِّ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، مع أنَّ هذه الوسائل الموجودة كلَّها لا تساوي قطرةً من عشر معشار العشير من رحمته ومنته على خلقه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-فأطلع اللهُ نبيَّهُ على أنَّه مات في ذلك اليوم، فأخبرَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أصحابَهُ، وقام فصلَّى بِهم، فَكَبَّرَ عليه أربعًا،وهذا التكبير أربعًا، هو مذهبُ جماهير السلف والخلف -رَحِمَهُ اللهُ-، أنَّ الأفضلَ في التكبير على الميت أنْ يكبرَ أربعًا.

وبهذا القول، قال أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله، وزُرَارة بن أبي أوفى، والبراء بن عازب، والحسن بن علي بن أبي طالب، وأبو هريرة، من أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، و-رضي الله عنهم أجمعين-.

واختاره الأئمة، فهو مذهب الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، أنَّ الأفضلَ أنْ يكبرَ على الجنازة أربعًا.

وثبتَتِ السُّنَّةُ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في حديث أبي أُمَامَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- أنَّه قرأ في التكبيرة الأولى بفاتحة الكتاب، يُسِرُّهَا ولم يجهرْ بها -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

وأصحُّ القولين أنَّه يشرعُ قراءةُ الفاتحة في الصلاة على الميت.

والدليلُ على ذلك هذا: الحديثُ الذي رواه الشافعيُّ وغيرُهُ من طريق رواه البيهقي، وأيضًا عمومُ قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كما في الصحيح: ((**لا صلاةَ لمنْ لم يقرأْ بفاتحةِ الكتابِ**)) فقال: ((**لا صلاةَ**))، وسَمَّى الصلاةَ على الميت صلاةً، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**)) فسَمَّى الصلاةَ على الجنازة صلاةً، فدلَّ على أنَّه يشرعُ في الصلاة على الميت أنْ يقرأَ بفاتحة الكتاب، وهذا مذهبُ الشافعية والحنابلة وطائفة من أهل الحديث -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

أمَّا التكبيرةُ الثانيةُ: فيصلي فيها على النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ لحديثِ أبي أمامة المتقدِّم، يصلي فيها على رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وأمَّا الثالثةُ: فإنَّه يدعو فيها للميت؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ثبتَ عنه ذلك كما في الحديث الصحيح عن عوف بن مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أنَّه سَمِعَ من دعائه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه قال وهو يصلي على الميت: ((**اللهم، اغفرْ له، وارحَمْهُ، وعافِهِ، واعفُ عنه، وأكرِمْ نزلَهُ، ووسِّعْ مدخلَهُ واغسلْهُ بالماءِ والثلجِ والبردِ، ونقيهِ من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ**)).

وفي رواية: ((**كما نقيْتَ الثوبَ الأبيضَ من الدَّنَسِ، وأبدلْهُ دارًا خيْرًا من دارِهِ، وأهلاً خَيْرًا من أهلِهِ، وزوجًا خيْرًا من زوجِهِ**))، وفي بعضها: ((**وزوجةً خيْرًا من زوجتِهِ**)).

والبعض يضعِّفُ الوجه هذا في اللغة، ويحملُهُ على أنَّه من الرواية بالمعنى.

((**وزوجًا خيْرًا من زوجِهِ، وقِهِ عذابَ القبرِ، وأعذْهُ من عذابِ القبرِ**)).

وفي لفظٍ: ((**وقِهِ من عذابِ القبرِ وعذابِ النارِ، وقِهِ من عذابِ القبرِ، وقِهِ عذابَ النَّارِ**))

قال عَوْفٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: (فتمنيْتُ أنْ أكونَ أنا ذلك الميت)؛ لأنَّ هذا الدعاء من جوامع دعائه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الدعاء للميت، فيدعو له.

هذا الأصل في الصلاة للميت، فإذا عَجِزَ عن حفظِ هذا الدعاء، فإنَّه أقلّ ما يدعى من حيٍّ لميتٍ فيقول: (اللهم اغفرْ له، اللهم ارحَمْهُ) يجزيه.

ولو دَعَا بأيِّ دعاءٍ آخرَ، لا يحفظُ هذا الدعاء، ولم يتمكنْ من حفظِهِ صحَّ أنْ يدعو بما تيسر له لكنَّ السنةَ وهديَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- والأفضل والأكمل أنْ يدعو بهذا الدعاء.

وفي قوله: ((**زوجًا خيْرًا من زوجِهِ**))، يقول: ((**أبدلْهُ دارًا خيْرًا من دارِهِ**))، والدَّار التي سيبدلُ هي دارُ الآخرةِ، وهي خيْرٌ من دارِ الدنيا.

ودار الآخرة، قال بعض العلماء: إنَّها تبدأُ بقبضِ الرُّوحِ، ويعدُّون البَرْزَخَ أوائل مراحل الآخرة وحينئذٍ لا إشكال.

وقوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**وأهلاً خيْرًا من أهلِهِ**))، المرادُ به أنْ يبدلَ أهلاً خيْرًا من أهل الدنيا، وهذا إمَّا خاصٌ، وإمَّا عامٌّ:

إن كان على الخصوص: فما يكونُ له من الحورِ العينِ.

وإن كان على العموم: فما يكونُ له من رفقةِ الصالحينِ، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عند قبض روحه: ((**اللهم، الرفيق الأعلى**))، فهؤلاء خير، الرفيق الأعلى، وسأل جوارَ الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهو خير من جوار أهل الدنيا.

جاورْتُ أعدائي وجَاوَرَ رَبَّهُ شَتَّانَ بيْنَ جِوَارِهِ وِجَوَارِي

فالعبد إذا تُوُفِّيَ انتقلَ إلى رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

فقال: ((**أبدلْهُ دارًا خيْرًا من دارِهِ، وأهلاً خيْرًا من أهله، وزوجًا خيْرًا من زوجِهِ**))، إذا كان رجلاً.

أمَّا إذا كان امرأة: فلا يجوز أن يقول: (وزوجًا خيْرًا من زوجِهَا)؛ لأنَّه وَرَدَ في الحديث عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّ أزواجَ الدنيا هم أزواجُ الآخرةِ.

وإن ثبت في الحديث الصحيح الذي صحَّحه غيْرُ واحدٍ، وبعضهم يقول: إنَّه حَسَنٌ، أنَّ بعض أمهات المؤمنين، وهي أمُّ سلمة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- سألت النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنَّها ابتُلِيْتَ بِهذه المسألة وقالت: يا رسول الله، المرأة يكون لها أكثرُ من زوجٍ، لمن هي له يوم القيامة؟ فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**هي لأحسنِهِم خُلُقًا**)).

وهذا يدلُّ على فضل حسن الخلق مع الزوج والأهل، فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**هي لأحسنِهِم خُلُقًا**)).

فالمقصود أنَّ المرأةَ لا يقال: (زوجًا خيْرًا من زوجِهِا)، وإنَّما يقالُ: (أبدلْهَا دارًا خيْرًا من دارِهَا، وأهلاً خيْرًا من أهلِهَا)، وأمَّا الرجل فيضاف له: (وزوجًا خيْرًا من زوجِهِ).

وهذا الحديث بيَّن فيه أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كَبَّرَ أربعَ تكبيراتٍ، مذهب جمهور العلماء على أنَّ هذه الأربع لا ينقصُ منها، وأنَّه إذا كَبَّرَ ثَلاثًا متعمدًا بطلت صلاتُهُ في قول طائفةٍ من أئمة العلم، أنَّه لا بدَّ وأن يكبِّرَ أربعًا، ولا ينقصُ عن الأربع فيكبر ثلاثًا.

وأمَّا الزيادة فخمسٌ ثبتت، وسيشيرُ المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- إليها في حديث زيدٍ، ونؤخرُ الكلامَ عن الزيادة إلى موضعها.

نسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

رقم الدَّرس ٤٢١

الأربعاء ٢٨-٥-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا مُحَمَّد بنُ المثنىَّ، حدثنا مُحَمَّدُ بنُ جعفرٍ أخبرنا شعبةُ عن عمرِو بنِ مُرَّةَ عن عبدِالرحمن بنِ أبي ليلى قال: ((**كَانَ زَيْدُ بنُ أرقمَ يُكَبِّرُ على جنائِزِنَا أَرْبَعًا، وإنَّهُ كَبَّرَ على جَنَازةٍ خَمْسًا، فَسَأَلْنَاهُ عَن ذَلِكَ، فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يُكَبِّرُهَا**)) .

قال الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: حديثُ زيدِ بنِ أرقمَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرح:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ الأتمانِ الأكملانِ على خيرِ خلقِ اللهِ أجمعين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على سبيله ونهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ:

فقد تقدَّم معنا ما ثَبَتَ في الصحيحِ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في صفةِ التكبيرِ على الجنازةِ، وهو حديثُ النجاشيِّ الثابتُ في الصحيحين: ((**أنَّ النبيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **لَمَّا صَلَّى عَلَيْهِ كَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا**))، وبينا أنَّ هذا هو مذهبُ جمهورِ العلماءِ والأئمةِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- من الحنفيةِ والمالكيةِ والشافعيةِ والحنابلةِ، وغيْرِهم من أئمةِ السلفِ من الصحابةِ والتابعين.

وهذا هو الذي يُحَافَظُ عليه، ويُدَاوَمُ عليه؛ لأنَّه هو الأغلبُ والأشهرُ، حتى إنَّ حديثَ زَيْدِ بنِ أرقمَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الذي معنا هنا بيَّن أنَّ من عادتِهِ أنَّه كَانَ يُكَبِّرُ أَرْبَعًا، وأنَّه فَعَلَ الْخَامِسَةَ في حالةٍ خاصةٍ، ولذلك السنةُ التي يُحَافَظُ عليها، ويُدَاوَمُ عليها إنَّمَا هي التكبيْرُ أَرْبَعًا.

وَهَلِ التَّكبيْرُ خَمْسًا أصلٌ، بحيثُ يُفْعَلُ في بعضِ الأحيانِ، وَيُتْرَكُ، فحينئذٍ يكونُ الخلافُ فيه خَلافَ تنوعٍ، بمعنى إِنْ أَرَادَ أنْ يُكَبِّرَ أَرْبَعًا، أَوْ يُكَبِّرَ خَمْسًا؟

وقد ضيَّق بعضُ العلماء، وهم الجمهورُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- في الزِّيادةِ على الأربعِ؛ لأنَّها هي المحفوظةُ وهي التي دُومَ عليها، ولذلك المحافظةُ عليها هي الأفضلُ والأكملُ.

وأمَّا الزِّيَادَةُ بِالْخَامِسَةِ:

فقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّه إذا كَبَّرَ خَمْسًا لا يُتَابِعُ المأمومُ الإمامَ، ونصَّ على ذلك طائفةٌ من الأئمةِ من

الحنفيةِ والمالكيةِ والشافعيةِ والحنابلةِ.

ولكن هذا مُشْكِلٌ؛ لأنَّه قد صحَّتْ السنةُ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه كَبَّرَ خَمْسًا، وقد فَعَلَ هذا الصحابيُّ الجليلُ زيدُ بنُ أرقمَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

ولكنَّ بعضَ العلماءِ يقولُ: إنَّه إذا كَبَّرَ الإمامُ خَمْسًا، قال بعضُهم: لا يُكَبِّرُ معه الخامسةَ، وإنَّما ينتظرُ تسليمَه، ويُسَلِّمُ معه.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّه يقطعُ المتابعةَ، ويُسَلِّمُ مباشرةً.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّه يتابعُهُ في التكبيرةِ الخامسةِ، ويسلِّمُ معه، **وهذا هو أصحُّ الأقوالِ وأقواها** أنَّ الإمامَ إذا زادَ تكبيرةً خامسةً يعتقدُ ثبوتَها عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فإنَّ المأمومَ يتابعُهُ.

والعجيبُ أنَّ بعضَ الفقهاءِ يقول: إنَّه لا يتابعُهُ، مع أنَّ المقرَّرَ في كتبِ العلماءِ على اختلافِ المذاهبِ، كما نصَّ عليه أئمةُ الحنفيةِ والمالكيةِ والشافعيةِ والحنابلةِ: **"أنَّ الْخِلافَ في الفُرُوعِ يرتفعُ في مسألةِ الائتِمَامِ والاقتداءِ في صلاةِ الجماعةِ "**، فهذا منصوصُهُم :

حيثُ نصَّ على ذَلِكَ الإمامُ الكَاسَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ- في (البدائع)،وابنُ الْهُمَامِ، وغيْرُهُمَا من أئمةِ الحنفيةِ.

ونصَّ عليه من أئمةِ المالكيةِ: الحافظُ ابنُ عبدِ البَرِّ، وقرَّره في أكثرَ من موضعٍ: أنَّ الاقتداءَ بالمخالفِ في الفُرُوعِ لا يوجبُ بطلانَ الصلاةِ،وأنَّه إذا صَلَّى الحنبليُّ وراءَ الشافعيِّ الذي يقنتُ في صلاةِ الفجرِ، أنَّ هذا لا يوجبُ بطلانَ صلاةِ الحنبليِّ الذي لا يَرَى أنَّ القنوتَ مشروعٌ في صلاةِ الفجرِ؛لأنَّ المسألةَ مسألةُ ائتِمَامٍ،وقد قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الإمامةِ: ((**يصلُّون لكم، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**))، أي لكم صلاتُكم، وعليهم خطؤُهم.

فالمنصوصُ عند العلماءِ والمقرَّرُ على اختلافِ مذاهبِهم، كما ذكرنا من الحنفيةِ والمالكيةِ والشافعيةِ حيث نصَّ الإمامُ النوويُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، وكذلك الإمامُ الماورديُّ في (الحاوي)، والنَّووي قرَّره في (روضةِ الطالبين)، وأشارَ إليه في أكثرَ من موضعٍ، ومنها في (المجموع) أيضًا: أنَّ الاختلافَ في الفُرُوعِ يرتفعُ في مسألةِ الائتِمَامِ والاقْتِدَاءِ بالإمامِ المخالفِ في الفُرُوعِ.

وهكذا بالنسبة لأئمة الحنابلة: حيث قرَّرَ هذا الأصلَ الإمامُ ابنُ قدامةَ، وكذلك شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ، والإمامُ ابنَ القيمِ، وغَيْرُهُم -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّه إذا اختلفَ المأمومُ مع الإمامِ في مسألةٍ فرعيةٍ فإنَّ

متابعةَ المأمومِ للإمامِ لا تُوجبُ بطلانَ صلاةِ المأمومِ، وإِنْ كانَ لِهَذا الأصلِ مُسْتَثْنَيَاتٌ لا تَدْخُلُ فيها مسألتِنَا.

فكيفَ يُقالُ: إنَّه إذا كَبَّرَ معه الخامسةَ بَطَلَتْ صلاتُهُ؟!

والصحيح أنَّها لا تَبْطُلُ صلاتُهُ، وأنَّه إذا تَابَعَهُ فصلاتُهُ صحيحةٌ؛ لأنَّ هذا الفعلَ له وَجْهٌ من السنة وقد فَعَلَهُ هذا الصحابيُّ الجليلُ، أيعقلُ أنْ يُقَالَ: إنَّ صلاةَ زيدٍ باطلةٌ؟! وقد فَعَلَ ذلك بعدَ وفاةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وأسندَ ذلك إلى رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهذا يدلُّ على أنَّه مُحْكَمٌ وغَيْرُ مَنْسُوْخٍ.

وبناءً على ذلك، فإنَّه إذا كَبَّرَ الإمامُ الخامسةَ، فإنَّه يُكَبِّرُ المأمومُ وراءَهُ، ولو كانَ لا يَرَى أنَّ الخامسةَ تُفْعَلُ، فإنَّه يفعلُهَا وراءَهُ ائتِمَامًا بالإمام، ومتابعةً له، وهذا على ما تقدَّم بيانُه أصلٌ مقرَّرٌ عند العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

قَالَ بعضُ العلماءِ: تُشْرَعُ الزِّيادةُ على أربعٍ لأصحابِ الْحَقِّ، كما وَرَدَ في تكبيْرِ عليٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- على أهل بَدْرٍ، وزيادتِهِ على أربعِ تكبيراتٍ، وَوَرَدَ عن غَيْرِهُ من الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- لشرفِ الإسلامِ، والحقِّ في الدِّيْنِ، فهذا يستثنيهِ بعضُ العلماءِ في مسألة الزِّيادة.

وَمِنْ فِقْهِ الإِمَامَةِ: أنَّ الإمامَ إذا كانَ الأمرُ فيه خِلافٌ، بحيثُ يُظَنُّ أنَّه سيبطلُ الصلاةَ، ويشوشُ على المأمومين، فإنَّه يَلْزَمُ السنةَ التي لا تشويشَ فيها، ويقتصرُ عليها، ويمكنُهُ أنْ يُعَلِّمَ الناسَ بالتوجيه، فهذا أفضلُ وأسلمُ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد ذَهَبَ بعضُ أهلِ العلمِ إلى هذا من أصحابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغَيْرِهِمْ رأوا التكبِّيرَ على الجنازةِ خَمْسًا.

وقالَ أحمَدُ وإسحاقُ: إذا كبَّرَ الإمامُ على الجنازةِ خَمْسًا، فإنَّهُ يُتَّبَعُ الإمامَ.

الشَّرْح:

هذه إحدى الروايات عن الإمام أحمد، **وعنه روايةٌ أُخْرَى:** أنَّه لا يتابعُهُ، وما ذكره الإمام الترمذي -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّه مذهبُ بعضِ الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- في الزِّيادة على الأربعِ، أي أنَّه تُشْرَعُ الزِّيادةُ على أربعٍ، وهو مذهبُ بعضِ الصحابة، وبعضِ أئمةِ العلمِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ ما يقولُ في الصلاةِ على الْمَيِّتِ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا عَليّ بنُ حجرٍ أخبرنا هِقلُ بنُ زيادٍ، حدثنا الأوزاعيُّ عن يحيى أبي كثيرٍ حدثَّني أبو إبراهيمَ الأشهليُّ عن أبِيهِ قالَ: كانَ رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إذا صَلَّى على الجنازةِ قالَ: ((**اللَّهُمَّ اغفرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا، وَصَغِيْرِنَا وَكَبِيْرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا**)).

قال يحيى: وحدثَّني أبو سلمةَ بنُ عبدِالرحمن عن أبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مثلَ ذلكَ وزادَ فيهِ: ((**اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيْمَانِ**))

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن عبدِالرحمن، وعائشةَ، وأبي قتادةَ، وعوفٍ بنِ مالكٍ، وجابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: حديثُ والدِ أبي إبراهيمَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرح:

بَعْدَ أنْ بيَّنَ -رَحِمَهُ اللهُ- ما يَلْزَمُ في حَقِّ الْمَيِّتِ بالنسبةِ لتغسيلِهِ وتكفينِهِ، وعددِ التكبيراتِ التي تُكَبَّرُ في الصلاةِ عليه، شَرَعَ في تفصيلِ ما يُقَالُ في هذه التكبيْراتِ.

والواردُ في سنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: أنَّه يَبْتَدِئُ بقراءةِ الفاتحةِ، كما في حديثِ أبي أمامةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فيجعلُ **التكبيرةَ الأولى**: لقراءةِ القرآنِ، وهي قراءةُ الفاتحةِ، وعَقَدَ لَهَا المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بابًا، سيأتي تفصيلُهُ، وبيانُ أقوالِ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- في مسائلِهِ الخلافيةِ.

وأمَّا التكبيرةُ الثانيةُ: فإنَّه يصلِّي فيها على النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، والأفضلُ أنْ يُصَلِّيَ عليه الصلاة الإبراهيمية الواردة؛ لأنَّها أفضلُ وأكملُ، وأعظمُ أجرًا، وهي الصلاةُ المشروعةُ في الصلاةِ.

والتكبيرةُ الثالثةُ: يدعو فيها بِمَا وَرَدَ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ومن ذلك هذا الدُّعاءُ.

وصَدَّرَ المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بالدُّعاءِ، **وحينئذٍ يَرِدُ الإشكالُ**: لِمَاذَا صَدَّرَ المصنفُ بالدُّعاء، ولَمْ يبدأْ بأبوابِ الفاتحةِ، ثم بعد ذلك يُثَنِّي بالدُّعاء؟

وهذا لَعَلَّ العذرَ فيه دَالٌّ على فِقْهِ الإمامِ الترمذيِّ -رَحِمَهُ اللهُ-؛ لأنَّهم كُلُّهم مُجْمِعُونَ على أنَّ صلاةَ

الْميّت يُشْرَعُ فيها الدُّعاءُ، وأمَّا الفاتحةُ فَمَحَلُّ خِلافٍ، ولذلك قَدَّم الْمُجْمَعَ عليه والمتفقَ عليه، وهو الدُّعاءُ للمَيِّتِ، وأَوْرَدَ فيه ما وَرَدَ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من دعائه، وَثَنَّى بعد ذلك بالمختلفِ فيه من قراءةِ الفاتحةِ، وغيْرِ ذلك مما سنتكلمُ عليه في موضعِهِ.

وهذا كما ذكرنا تفصيلٌ لإجمالِ التكبيْراتِ؛ لأنَّه بعدَ بيانِ عددِ التكبيْراتِ التي يُكَبَّرُ فيها للصلاةِ على الْمَيِّتِ، **يَرِدُ السؤالُ: ماذا يُقَالُ في هذه التكبيْرات؟**

فبيَّن -رَحِمَهُ اللهُ- ما وَرَدَ في سنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وصدَّر البابَ: **[بابُ مَا يقولُ]**، أي في هذا الموضع سأذكرُ لك ما وَرَدَ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مِمَّا يُشْرَعُ من الدُّعاءِ للميت.

والدُّعاءُ للمَيِّتِ لازمٌ في الصلاةِ على الْميّتِ، ولا يجوزُ تركُهُ، ولذلك هذا اللازمُ والواجبُ حَدُّه والقدرُ المجزئُ فيه **لَهُ صِفَتَانِ:** صفةُ إجْزَاءٍ، وصفةُ كَمَالٍ.

فالدُّعاءُ للمَيِّتِ صفةُ الإجزاءِ فيه: أنْ يقولَ أَقَلَّ دُعاءٍ من حَيٍّ لِمَيِّتٍ، فلو أنَّه صَلَّى على مَيِّتٍ فقالَ: (اللهم ارْحَمْه، اللهم تُبْ عليه، اللهم تَجَاوَزْ عنه)، فدعا له بأيِّ دعاءٍ، وبأقلَّ ما يَصْدُقُ عليه أنَّه دعاءٌ من حَيٍّ لِمَيِّتٍ أَجْزَأَهُ.

والأفضلُ وهي صفةُ الكمالِ: أنْ يقولَ ما وَرَدَ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تَحَرَّى الواردَ في سنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **كانَ له أَجْرَانِ:**

الأجرُ الأولُ: أجرُ المتابعةِ لرسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

والأجرُ الثاني: أجرُ الدُّعاءِ نفسِهِ.

ولاشك أنَّ مَنْ تَابَعَ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حَازَ خَيْرَي الدُّنيا والآخرةِ، وقد شَهِدَ اللهُ بأنَّ الهدايةَ مقرونةٌ باتِّبَاعِهِ، فقالَ سبحانه: **{وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** فاتِّبَاعُ سنتِهِ ولزومُ ما وَرَدَ عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- من الدُّعاءِ هو الأفضلُ والأكملُ.

وهذا الدُّعاءُ السُّنَّةُ فيه: أنَّه يُقَالُ في موضعِهِ، ثُمَّ يُشْرَعُ أنْ يَرْفَعَ الإنسانُ بِهِ صوتَهُ إذا كانَ هناكَ من يجهلُهُ من بابِ التعليمِ، إذا كانَ معه أناسٌ لا يعرفونَ السنةَ، أو لا يعلمونَ ماذا يُقَالُ في الدُّعاءِ للمَيِّتِ في الصلاةِ عليه، فإنَّه يُشْرَعُ له أنْ يرفعَ صوتَهُ.

والدليلُ على مشروعيةِ ذَلِكَ: أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- رَفَعَ صوتَهُ؛ إِذْ لو لَمْ يرفعْ صوتَهُ لَمَا عَلِمَ الصحابةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- ماذا قَالَ في دعائِهِ.

وهذا أصلٌ عند العلماءِ: أنَّه يُشْرَعُ الْجَهْر بِمَا يُسَرُّ به عندَ وجودِ الحاجةِ للتعليمِ.

ومنه: ما صَحَّ عن عُمَرَ بنِ الخطابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه جَهَرَ بدعاءِ الاستفتاحِ؛ من أجلِ أنْ يُعَلِّمَ الناسَ سنةَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديَهُ.

والصلاةُ على الجنازةِ يُدْعَى فيها بِهذا الدُّعاءِ.

وينبغي لِلدَّاعِي: أنْ يُخْلِصَ للدعاء، وأنْ يَعْلَمَ أنَّ هذا الْميِّتَ أحوجَ ما يكونُ إلى دعاءٍ مقبولٍ، فلا ينبغي للمسلمِ أنْ يصليَ على إخوانِهِ المسلمين وهو في قلبٍ ساهٍ لاهٍ، ويقولُ هذه الأدعيةَ؛ لأنَّها جَرَتْ على لسانِهِ، عليه أنْ يتصورَ لو أنَّه مكانُ هذا الْميِّتِ، وماذا ينتظرُ من إخوانِهِ، فهذا من النصيحةِ لعامةِ المسلمين.

فحضورُ صلاةِ الجنازةِ بقلوبٍ خاويةٍ، وقراءةُ هذه الأدعيةِ خاليةً عن الاستشعارِ والتدبرِ والتفكرِ، ألا تَعْلَمُ -رحمك الله- أنَّه ما تفوَّهْتَ بكلمةٍ فيها دعوةُ خَيْرٍ لمسلمٍ، إلا آجَرَكَ اللهُ؟!

ألا تَعْلَمُ أنَّك مَا دَعَوْتَ من دعوةِ خَيْرٍ لإخوانِكَ المسلمين فأصابَتْهُم هذه الدعوةُ، إلا كَتَبَ اللهُ لك أجرَها تامًّا كاملاً، وكان لكَ خَيْرُها وبركتُها، فَمَنْ كانَ سببًا في الخَيْرِ على المسلمين

فَتَحَ اللهُ في وجْهِهِ أبوابَ الخيْرِ، ومَنْ حَرِصَ على أنْ يكونَ مفتاحَ خيْرٍ على إخوانِهِ المسلمين من الأحياءِ والأمواتِ، سَهَّلَ اللهُ له طريقَهُ إلى الجنةِ؛ لأنَّ اللهَ في عونِ العبدِ ما كانَ في عونِ أخيه المسلمِ، وأشدُّ ما يكونُ العَونُ في مثلِ هذه المواطنِ، وهي التي تُزَلْزَلُ فيها القلوبُ.

حالة قبضِ روحِ الْميِّتِ؛ لأنَّ الملائكةَ تُؤَمِّنُ ساعتَها كما في حديثِ أبي سلمةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حينما قُبِضَ وحالةَ الصلاةِ عليه، وحالةَ تشييعِهِ، وحالة الدُّعاءِ له بالثباتِ بعد قبْرِهِ ودفنِهِ، هذه أحوالُ ينبغي للإنسانِ إذا دَعَا أنْ يدعوَ بقلبٍ حاضرٍ، وأنْ يستشعرَ أنَّه يناجي ربَّه، وأنَّه يشفعُ لأخيهِ المسلمِ، وأنَّ أخاهُ المسلمَ محتاجٌ إلى هذه الشفاعةِ، وأنَّ اللهَ إذا استجابَ منه هذه الدعوةَ سَيَرْفَعُ بِهَا درجتَهُ ويُعْظِمُ بِهَا أجرَهُ، فهذه هي التجارةُ الرابحةُ مع اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وكم من مُنْصَرِفٍ من الصلاةِ على الجنازةِ بِمثاقيلِ الحسناتِ.

وكم من مُنْصَرِفٍ من الصلاةِ عليها، ومن تشييعِهَا بلا أجرٍ ولا مثوبةٍ، يحضرُها غافلَ القلبِ ساهيًا، حَضَرَهَا عادةً، حَضَرَهَا من أجلِ ألا يُفْقَدَ، حَضَرَهَا مُجَامَلَةً، ويدعو بدونِ أنْ يستشعرَ عند دعائِهِ حاجةَ أخيهِ المسلمِ لهذا الدُّعاءِ.

فالدُّعاءُ في الصلاةِ ينبغي أنْ يكونَ بقلبٍ حاضرٍ.

أنْ تَعْلَمَ: ما معنى قولك: (اللهم، اغفرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا، وَصَغِيْرِنا وَكَبِيْرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا).

أنْ تَعْلَمَ: ما معنى قولك: (اللهم، اغفرْ له، وارحَمْهُ، وعَافِهِ، واعْفُ عنهُ).

أنْ تَحُسَّ لو أنَّها فُتِّحَتْ أبوابُ السماواتِ لقولك: (اللهم، اغفرْ له، وارحَمْهُ، وعَافِهِ، واعْفُ عنهُ).

أنْ تَحُسَّ وتستشعرَ لو أنَّها فُتِّحَتْ أبوابُ السماواتِ لقولك: (واعْفُ عنهُ)، فَعَفَا اللهُ عنه، فمَنْ كانَ سببًا في الْخَيْرِ لإخوانِهِ المسلمين وأمواتِ المسلمين رَفَعَ اللهُ قَدْرَهُ، وأَعْظَمَ اللهُ أَجْرَهُ، وهكذا ينبغي أنْ يكونَ المسلمُ.

وينبغي للأئمةِ والخطباءِ أنْ ينصحوا الناسَ، وأنْ يوجِّهُوهم في مثلِ هذه الأمورِ التي يحتاجُها عامةَ المسلمين، أنَّه ينبغي الدُّعَاءَ بقلوبٍ حاضرةٍ خاشعةٍ منيبةٍ.

من الناسِ مَنْ إذا صَلَّى على الْمَيِّتِ أَحَسَّ كأنَّه على شفيْرِ القبْرِ.

ومن الناسِ مَنْ إذا قَبَرَ مَيِّتًا حَسَّ لو أنَّه وَدَّعَ الدُّنيا، وهذا هو الذي ينبغي.

كانَ عثمانُ بنُ عفانَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– إذا وَقَفَ على القبْرِ أصابَهُ من الْهَوْلِ والفَزَعِ، فقيل له: ما الذي يعترِيكَ على القبْرِ؟ تذكرُ الجنةَ والنارَ، ولا يكونُ لكَ مثلُ ذلك، قال: (إنَّ القبْرَ أَوَّلُ منازِلِ الآخرةِ).

فإذا استشعرَ أنَّه يُنْزِلُ أخاهُ المسلمَ أولَ منازِلِ الآخرةِ، وأنَّ أخاهُ المسلمَ مُنْتَظِرٌ منه دعوةً صالحةً، مُنْتَظِرٌ منه الإخلاصَ والصدقَ في الدُّعاءِ، عَارٌ على المسلمِ أنْ يشهدَ مثلِ هذه المواطنِ بقلبٍ ساهٍ لاهٍ، وَعَارٌ عليه أنْ يشهدَ هذه المشاهدَ أمامَ أهلِ الْميِّتِ يجاملُهم، وفي قرارةِ قلبِهِ يدعو دعوةَ الساهي اللاهي، فنسألُ اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– أنْ لا يجعلَنا من المحرومين، وأنْ يغفرَ لنا، وأنْ يجبُرَ كسرَنا، وأنْ يرزقَنا النصيحةَ للمسلمين، وأنْ يرزقَنا الصدقَ في دعائِهِ وفي سؤالِهِ، وأنْ يجعلَنا ممن قُبِلَتْ دعوتُهُ، واسْتُجِيْبَتْ شفاعتُهُ، نسأل اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ، وأنْ يعظمَ لنا ولكم بذلكم الأجرَ.

بَيَّنَ المصنفُ –رَحِمَهُ اللهُ– في هذا البابِ ما وَرَدَ عن رسولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– من الدُّعاءِ للمَيِّتِ، ومنها هذه الصيغة.

((**قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ** –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– **إذا صَلَّى عَلَى الْجَنَازَةِ قَالَ**)): هذه الصيغة تقدَّم معنا أنَّها تكونُ قبلَ الفعلِ، وأثناءَ الفعلِ، وقبلَ الفعلِ.

فهنا ((**كَانَ إِذَا صَلَّى**)): أثناءَ الفعلِ، أي أنَّه يقولُ هذا الفعلَ أثناءَ الصلاةِ.

((**كَانَ إِذَا صَلَّى**)): أي أثناءَ صلاتِهِ يقولُ، وليس: ((**كَانَ إِذَا صلَّى**)) أي قبل أنْ يصليَ، أو بعدَ أنْ يصليَ؛ لأنَّك تقولُ: (إِذَا فَعَلْتَ كذا فَافْعَلْ) وتريدُ ما قبلَ، وما هو أثناء، وما هو بعد، كما تقدَّم معنا غيْر مرَّةٍ.

وقوله: ((**كَانَ**)) يدلُّ على الدوامِ والاستمرارِ، أي أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فَعَلَ هذا أكثرَ من مرَّةٍ، ولذلك قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّه لا بأسَ برفع الصوت قليلاً بِهَذا الدُّعاء؛ حتى يسمعَهُ الغَيْرُ ويتعلمَ سنةَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الدُّعاء للمَيِّتِ والترحمِ عليه.

وقُالَ بعضُ العلماءِ: إنَّه يَشْرَعُ الْجَهْرُ في الليلِ في صلاةِ الجنازةِ، فيَجْهَرُ بالفاتحةِ وما فيها من الأذكارِ، ويُسِرُّ في النَّهَارِ.

والأقوى أنَّه يُسِرُّ في الجميعِ، ويَجْهَرُ عندَ وجودِ الحاجةِ.

((**قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **إذا صَلَّى عَلَى الْجَنَازَةِ قَالَ**))، قوله: ((**إِذَا صَلَّى**)) يدلُّ على أنَّ الصلاةَ على الجنازةِ صلاةٌ، وهذا تقدَّم معنا أنَّه يُسْتَفَادُ منه أنَّنا نقولُ: يُشْتَرَطُ في الصلاةِ على الجنازةِ ما يُشْتَرَطُ في الصلاةِ، من وجوبِ الطهارةِ: طهارةِ الحدثِ، وطهارة الخبثِ واستقبالِ القبلةِ، وسَتْرِ العورةِ، والنيةِ، ونحو ذلكَ مِمَّا يُشْتَرَطُ لصحةِ الصلاةِ قبلَها وأثناءَها.

فهذا التَّعْبِيْرُ من الصحابةِ: ((**إِذَا صَلَّى**)) يدلُّ على أنَّهم كانوا يَرونَ أنَّ هذا الفعلَ وهذا القولَ المرادُ به الصَّلاةُ الشرعيةُ، وأنَّ الصلاةَ على الْمَيِّتِ صلاةٌ شرعيةٌ.

ويدلُّ على هذا: دليلُ الكتابِ، والسنةِ:

أمَّا الكتاب: فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: **{وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}**، فنصَّ على أنَّ الصلاةَ على الْمَيِّتِ صلاةٌ.

والسنةُ: ثَبَتَ في الصحيح عنه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه قال في الرَّجُلِ الذي عليه الدَّيْنُ: ((**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**))، فقال: ((**صَلُّوا**)) فهذا يدلُّ على أنَّ الصَّلاةَ على الْمَيِّتِ صلاةٌ، ومن هنا **يَتَرَجَّحُ** مذهبُ الجمهورِ أنَّه يُشْتَرَطُ لَهَا الطهارةُ؛ لقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ}**.

فإذا ثَبَتَ بدليلِ الشَّرعِ أنَّ الصَّلاةَ على الجنازةِ صلاةٌ، والشرعُ بَيَّنَ لنا دليلُ الشرعِ الآخرِ أنَّه لا يجوزُ للمسلمِ أنْ يصليَ إلا وهو متطهرٌ، كما في قولِهِ تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ}**

دلَّ على وجوبِ الطهارةِ، وأنَّها شَرْطٌ في صحةِ الصلاةِ على الْمَيَّتِ، فلا تصحُّ الصلاةُ على الْمَيِّتِ إذا كان مُحْدِثًا حَدَثًا أصغرَ أو أكبرَ.

وأنَّه ينبغي عليه أنْ يكونَ متطهرًا: في بدنِهِ، وثوبِهِ، والمكانِ الذي يصلي فيه، على الأصلِ المقرَّرِ في الصلاةِ.

وأنَّه ينبغي عليه أنْ يكونَ ساترًا لعورتِهِ، فلا تصحُّ الصلاةُ على الْمَيِّتِ إذا انكشفَتْ عورتُهُ. وهكذا بالنسبةِ لبقيةِ الشروطِ وتَلْزَمُ النِّيَّةُ، فلا تصحُّ الصلاةُ على الْمَيِّتِ بِدُونِ نِيَّةٍ؛ لأنَّ النبيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِئٍ مَا نَوَى**))، فقوله: ((**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**)) أي إنَّما صحةُ الأعمالِ بالنِّيَّاتِ، وقد سَمَّى النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الصَّلاةَ عَمَلاً، فقال: ((**استقيموا، ولنْ تُحصُوا، واعْلَمُوا أنَّ خَيْرَ أعمالِكم الصلاةُ**)) فدلَّ على أنَّ الصلاةَ لا تصحُّ بدونِ نِيَّةٍ.

وبناءً على ذلك فائدةُ هذه المسألةِ: لو أنَّه وُضِعَ الْمَيِّتُ بين يدي الإمام، ثُمَّ غَفَلَ الإمامُ أو الْتَفَتَ، فَجِيءَ بِمَيِّتٍ آخرَ، ووُضِعَ، أو كانَ الإمامُ كفيفَ البصرِ، فقِيْلَ له: أحضرْنَا فلانًا، فَكَبَّرَ نَاوِيًّا الصَّلاةَ على فلانٍ، والذي حَضَرَ فلانٌ وفلانٌ، فهو لَمْ ينوِ الصلاةَ على الثاني والثالثِ فيُعِيْدُ الصلاةَ ثانيةً على الثاني والثالثِ.

إذًا لا بُدَّ من النِّيَّة لصحةِ الصلاةِ على الْمَيِّتِ، ولا تُجْزِئُ الصلاةَ بالنِّيَّة للأولِ دونَ الثاني، بل لا بُدَّ وأنْ ينويَ الصلاةَ على الْمَيِّتِ؛ لأنَّه أصلٌ كما دلَّ عليه دليلُ السنةِ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

((**قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **إذا صَلَّى عَلَى الْجَنَازَةِ**)):

الْجَنَازَةُ تُطْلَقُ، ويُرادُ بِها الشخصُ نفسُهُ.

تُطْلَقُ ويُرادُ بِها السريرُ وما عليه، فيقال: (تُحْمَلُ الجنازةَ)، أي يُحْمَلُ السريرُ الذي فيه الْمَيِّتُ أو عليه الْمَيِّتُ.

وتُطْلَقُ على الجنازةِ نفسِها، يعني الشخصَ نفسَهُ، سواءً كان ذكرًا أو أنثى؛ لأنَّ المرادَ بِهَا جنسُهَا، جنس الجنازة ذَكَرًا كَانَ أو أُنثى.

ولذلك يقُولُ بعضِ العلماءِ: إنَّ هذا الدُّعاءَ للذَّكَرِ والأنثى فيقولُ: (اللهم اغفرْ له، وارحَمْهُ) في الذَّكَرِ والأنثى؛ لأنَّ الصيغَ التي وَرَدَتْ في صلاتِهِ على الجنازةِ أو على الْمَيِّتِ المرادُ بِها الجنس، جنسَ الجنازة،

وجنسَ الْمَيِّت، فقالوا: لا يُغَيَّرُ اللفظُ، فلا يقولُ: (اللهم، اغفرْ لَهَا، وارحَمْهَا وعافِهَا)، فلا يَجْعَلِ الصيغةَ بالأنثى والذَّكَرِ.

وقُالَ بعضُ العلماءِ: إنَّه يُغَيِّرُ في الصيغة.

والأمرُ في هذا واسعٌ؛ لأنَّه إذا قَالَ: (اللهم اغفرْ له، وارحَمْهُ) ونَوَى جنسَ الْمَيِّتِ أَجْزَأَهُ، وهكذا إذا غَيَّرَ الصيغةَ.

ولكنَّ لزومَ الصيغةِ الواردةِ، وظاهرَ قولِهِ: ((**إذا صَلَّى عَلَى الْمَيِّتِ**)) **يقوّي** أنَّه يقعُ على اللفظِ نفسِهِ.

((**قالَ: اللَّهُمَّ اغفرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا**))، ((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ**)): تقدَّم أنَّ الْغَفْرَ أصلُهُ السِّتْرُ، ومنه الْمِغْفَرُ؛ لأنَّه يَسْتُرُ الرَّأسَ من ضَرَبَاتِ السيوفِ، وفي الصَّحيح: ((**أنَّ النبيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **دَخَلَ مَكَّةَ، وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ**))، وسُمِّيَ صَفْحُ اللهِ عن عبدِهِ وتجاوزُهُ سبحانه عنه مغفرةً؛ لأنَّه إذا سُتِرَ هذا الأمرَ كأنْ لَمْ يكنْ، وكأنْ لَمْ يقعْ من صاحبِهِ.

وفي حديثِ ابنِ عُمَرَ في الصحيحِ عنه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في حديثِ النَّجْوَى: ((**أنَّ اللهَ يُدْنِي الْعَبْدَ فيقولُ: عبدِي، أَلَمْ تَسْمَعْ كَذَا يومَ كَذا؟ فيقوُل: بَلَى يا رَبُّ، فيقول: أَلَمْ تفعلْ كَذَا وَكَذَا يومَ كَذَا وَكَذَا؟ فيقولُ: بَلَى، يَا رَبُّ، فَيُقَرِّرُهُ بذنوبِهِ حَتَّى يَظُنُّ أنَّه منَ الْهَالِكِيْنَ، فيقولُ اللهُ تعالى: عَبْدِي، سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنيا، وهَا أَنَا أَسْتُرُهَا عَلَيْكَ اليومَ**)).

الْغَفْرُ: هو السِّتْرُ، فإذا حَصَلَ السَّتْرُ للذَّنْبِ والإساءةِ كأنْ لَمْ تكنْ.

وقولُهُ: ((**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنا**))، هذا من بابِ المقابلةِ؛ لأنَّ الحياةَ يقابلُها الموتُ، والموتُ تقابلُه الحياةُ، وهذا من بليغِ قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وجوامعِ كَلِمِهِ.

((**لِحَيِّنَا**)): الحياةُ معروفةٌ، وهي ضِدُّ الموتِ.

وقولُهُ: ((**حَيِّنَا**)): الإضافةُ تقتضي التخصيصَ، والمرادُ بِـ((**حَيِّنَا**)): أي المسلمين والمؤمنين لأنَّ الكفار لا يجوزُ الدُّعاءُ لَهُم، ولا التَّرَحُّمُ عليهم، ولا يُصَلَّى عليهم، لا تجوزُ الصلاةُ على الكافرِ، ولذلك خَصَّ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في دعائِهِ المسلمين، وقال: ((**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنا**))، أمَّا الكافرُ: فإنَّه لا يُدْعَى له، و لا يُتَرَحَّمُ عليه، إذا ماتَ على كُفْرِهِ، كما قالَ تعالى: **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}**، فلا يجوزُ التَّرَحُّمُ على الكفارِ بِحَالٍ، ولا يجوزُ الدُّعاءُ لهم، ولا يقالُ في الكافرِ: (فَلانٌ الكافرُ رَحِمَه

اللهُ)؛ لأنَّ الإجماعَ منعقدٌ بين العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّه لا يجوزُ الاستغفارُ للمشركين، ولا التَّرَحُّمُ عليهم، ولا الصلاةُ عليهم.

وهذا هو صريحُ كتابِ اللهِ في قولِهِ تعالى:**{وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}**.

وكانَ أبو طالبٍ مع النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يُؤَازِرُهُ ويذودُ عنه، واللهُ حافظٌ نبيَّهُ من دُوْنِ أبي طالبٍ، ولكنَّهَا حِكَمٌ إلهِيَّةٌ جَعَلَهَا عِبْرَةً لِخَلْقِهِ، فمع مقامِهِ مع النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ودفاعِهِ عنه لما حَضَرَتْهُ الوفاةُ، وَقَفَ رسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عليه، وقال: ((**يَا عَمُ، قُلْ كلمةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا بَيْنَ يَدَي اللهِ، قُلْ: لا إلهَ إلا اللهُ**))، فقالَ الحاضرون من المشركين: (أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلبِ؟!) وهم أشياخٌ من الكُفَّار، وإذا قِيْلَ في الرِّواية: ((**أشياخٌ من قريشٍ، وأشياخٌ من الكُفَّارِ**)) المرادُ بِهم كبارُ السِّنِّ وليس المرادُ بِه إكرامُهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: **{وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ}**، الكافرُ لا يُكْرَمُ بإجماعِ العلماءِ.

فالمرادُ بالمشيخةِ هنا كِبَرُ السِّنِّ، وليسَ المرادُ بالمشيخةِ مشيخةَ الفضلِ والإعزازِ والإكرامِ.

فقالوا: ((**أترغبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلبِ؟! فَقَالَ: هو عَلَى مِلَّةِ عبدِ المطلبِ**))، فماتَ كافرًا -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، فلما ماتَ على هذه الحالةِ أَمَرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَلِيًّا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنْ يُوَارِيَهُ، ولَمْ يُصَلِّ عليه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ولَمْ يَتَرَحَّمْ عليه، ولَمْ يستغفرْ له؛ لأنَّه نُهِيَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عن الاستغفارِ للمشركين.

فالمقصودُ من هذا: أنَّ هذا يدلُّ على أنَّه لا يجوزُ أنْ يُقَالَ لكافرٍ: (رَحِمَهُ اللهُ) أيًّا كان سواءً كانَ من ملَّةِ أهلِ الكتابِ، كاليهودِ والنصارى، أو مِنْ غَيْرِهِم كالبُوذِيين وغَيْرِهِم من مِلَلِ الكفرِ على اختلافِها.

وهذا مَحَلُّ إجماعٍ بينَ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وقد قالَ اللهُ تعالى: **{وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}**، ونصَّ سبحانه على أنَّ الكفرَ فاصلةٌ بينَ المسلمِ وغَيْرِ المسلمِ، وأنَّه لايُدْعَى، ولا يُتَرَحَّمُ على غَيْرِ المسلمِ.

((**فقال: اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنا**))،((**اغْفِرْ لِحَيِّنَا**)) أي أحياء المسلمين،((**وَمَيِّتِنا**)) أموات المسلمين، وهذا فضلٌ عظيمٌ أنَّ الإنسانَ إذا قالَ:(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لموتى المسلمين، اللهم اغْفِرْ لِمَوْتَانَا وموتى المسلمين اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأموات المسلمين، اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمسلمين)، ونَوَى بِهِم أحياءَهم وأمواتَهم، كانَ أجرُهُ على عددِ مَنِ استغفرَ لَهُم من أمواتِ المسلمين وأحيائِهم، كما وَرَدَ في السنةِ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- .

فهذا يدلُّ على عِظَمِ الأجرِ الذي يكونُ في هذه الصلاةِ.

((**اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا**))، ((**وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا**)): الشَّاهِدُ: هو الحاضِرُ، والغَائِبُ: هو غَيْرُ الحاضِرِ.

ثم عدمُ الحضورِ يُطْلَقُ على عدمِ الحضورِ في المجلسِ، ويكون خاصًّا.

أو عدمِ الحضورِ بمعنى السَّفَرِ، فيُقَالُ: (الشَّاهِد) بمعنى المقيم، والغَائِبُ بمعنى الْمُسَافِر.

ومنه قوله تعالى: **{فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}** أي كانَ مقيمًا، ولذلك قال بعده: **{وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}**، فَجَعَلَ السَّفَرَ مقابلاً لقوله: **{فَمَنْ شَهِدَ}**.

فالشُّهُود **يُطْلَقُ** بمعنى الإقامةِ، وضدُّهُ السَّفَرُ.

ويُطْلَقُ بمعنى الحضورِ في المكانِ، وضدُّهُ الغَيْبَةُ، ويُقالَ: (شَهِدَ الواقِعَةَ) إذا حَضَرَهَا، ويُقالُ: "غَابَ عَنْهَا": إذا لَمْ يَحْضُرْهَا.

فالمقصود: أنَّ قولَهُ: ((**وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا**)) يفيدُ العمومَ في الشُّهُودِ والغَيْبَةِ.

((**وَصَغِيْرِنَا وَكَبِيْرِنَا**)) فيه وَجْهَانِ:

إمَّا أنْ يُقَالَ في قوله: ((**كَبِيْرِنَا**)) أي من كَبُرَ سِنُّهُ، و((**صَغِيْرِنَا**)) هو الشَّبَاب، أي اغْفِرْ لشبابِنَا وشيبِنَا، وعلى هذا الوجهِ لا إشكالَ؛ لأنَّ الشَّبابّ المرادُ بِهم المكلفون، فيكونُ ((**صَغِيْرِنَا**)) المرادُ به المكلفُ من المسلمين، على هذا الوجهِ لا إشكالَ.

أمَّا الوجهُ الثاني: فيكونُ المرادُ بقولِهِ: ((**صَغِيْرِنَا**)) مَنْ كَانَ دُوْنَ الْحُلُمِ، ((**وَكَبِيْرِنَا**)) مَنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ الْحُلُمَ، فيُقالُ: إنَّ الصِّغَرَ والصِّبَا مَا كَانَ دُوْنَ الْحُلُمِ وَدُوْنَ البُلُوْغِ، ويكونُ الكِبْرُ حينئذٍ المقابلةُ فيه بِمَنْ بَلَغَ.

بناءً على هذا الوجهِ الثاني **يَرِدُ الإشكالُ**: كيفَ يستغفرُ للصغِيْرِ وَقَدْ رُفِعَ عنه القَلَمُ إذا كانَ حَيًّا، أو لَمْ يحصلْ منه شيءٌ، ولَمْ يُكَلَّف إذا كانَ مَيِّتًا؟

وَقَدْ أَجَابَ بعضُ العلماءِ بأجوبةٍ:

منها: أنَّ اللهَ تعالى أَعْلَمُ بِمَا يكونُ عليه حالُ الصَّبِيِّ، ولذلك استغفرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- للصغِيْرِ وصَلَّى عليه، وشُرِعَتِ الصلاةُ على الصغِيْرِ من أمواتِ المسلمين الذي لَمْ يَبْلُغْ، وإذا كانَ الأمرُ كذلك، فهذا مبنيٌّ على أنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-عَالِمٌ بِمَا يكونُ من أمرِهِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا الدَّلِيْلُ الْعَامّ، وَالْخَاصّ:

أمَّا الدَّلِيْلُ الْعَامّ: فَعِلْمُهُ سبحانه وإحاطتُهُ بِكُلِّ شيءٍ -جَلَّ جَلالُهُ-، فلا تَخْفَى عليه خَافِيَةٌ، فهو يَعْلَمُ مَا كَانَ ومَا لَمْ يكنْ أَنْ لو كَانَ كيفَ يكونُ، فاللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-عَالِمٌ بِمَا يَؤُوْلُ إليه حالُ هذا الصَّبِيِّ، وحالُ هذا الصغِيْرِ، وحالُ هذا السِّقْطِ، إذا كانَ بَعْدَ تَمَامِ خَلْقِهِ ونفخِ الرُّوحِ فيه.

فإذا كانَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عَالِمًا بذلك، فإنَّه حينئذٍ يُتَرَحَّمُ ويُستغفرُ له أَنْ لو كانَ قد وقعَتْ منه إساءةٌ أو كانَ منه تقصِيْرٌ، **هذا أحدُ الأوجهِ**، وبَنَوهُ على الأصلِ العامِّ الذي ذكرناه.

والأصلُ الخاصُّ: في قصةِ الْخِضْرِ مع مَوسَى -عَلَيهِ السَّلامُ- حيثُ قَالَ: **{وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً}**، فهذا من عِلْمِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-الذي أَطْلَعَ عليه الْخِضْرَ على أنَّ هذا الصَّبِيّ لو عَاشَ سيكونُ سببًا في شقاءِ والديهِ وبلائِهِ عليهم، فهو صغِيْرٌ ولَمْ يَبْلُغْ، ومع ذلك عَلِمَ اللهُ ما يُؤُوْلُ إليه في حالِهِ.

فَالْمَقْصُودُ: أنَّ الاستغفارَ بناءً على هذا الوجهِ لا إشكالَ فيه.

وقَالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ الأصلَ في الاستغفارِ أنَّه إذا استغْفَرَ المسلمُ لأخيهِ، أو استغفرَ لنفسِهِ ولَمْ يكنْ عندَهُ ذُنُوبٌ، مثل: أَنْ يغفرَ اللهُ له ذنوبَهُ، ثُمَّ يستغفرُ مرَّةً ثانيةً بعد المغفرةِ، فإنَّه حينئذٍ تكونُ درجةً له، ويُبَدَّلُ هذا الاستغفارُ بِمَا يُقَابِلُهُ من الْخَيْرِ له.

فحينئذٍ إذا قلنا: إنَّ الصَّبِيَّ لا ذَنْبَ له فإنَّه يكونُ كَمَنْ استغفرَ ولا ذَنْبَ عندَهُ، وقد عَهِدْنَا أَنَّ هذا لا يَمْنَعُ الاستغفارَ فيمَنْ كَانَ مُكَلَّفًا، فإنَّه كذلك لا يَمْنَعُ في غَيْرِ الْمُكَلَّفِ، **هذا هو الوجهِ الثاني**.

وأيًّا مَا كَانَ فالسنةُ قد وَرَدَتْ عَلَى هذا الوجهِ، واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يكونُ عليه حالُ عبادِهِ، لا تَخْفَى عليه خَافِيَةٌ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

((**وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا**)): أي واغفِرْ لِذَكَرِنَا وأُنْثَانَا، وهذا من العمومِ، فيه المقابلةُ، وكُلُّهُم ذَكَرَ أفرادَ العامِّ في قولِهِ؛ لأنَّه إذا قَالَ:((**اِغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا**)) شَمِلَ الجميعَ، شَمِلَ الذَّكَرَ والأُنْثَى وغَيْرَهُم، ولكنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كَرَّرَ المغفرةَ بِهذه الأنواعِ؛ تأكيدًا لَهَا-صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- وحِرْصًا على استجداءِ واسترحامِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-واستغفارِهِ وسؤالِهِ العفوَ والصفحَ عن المسلمين والمسلمات، ولذلك تَجِدُ الإنسانَ إذا استغفرَ، فقالَ: ((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا**)) فإنَّه رُبَّمَا خَشَعَ في قوله: ((**حَيِّنَا وَمَيِّتِنَا**))، ثُمَّ إذا قَالَ: ((**شَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا**)) استدرَّ الخشوعَ أكثرَ، ثُمَّ إذا قال: ((**وَصَغِيْرِنَا وَكَبِيْرِنَا**))،كذلك ازدادَ، فهو يعيدُ الشيءَ كأنَّه يكرِّرُ المغفرةَ، فهذا يعينُهُ ويزيدُهُ إصرارًا في

استجداءِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- واسترحامِهِ واستغفارِهِ ، وهذا هو المنبغي، وهو من الإلحاحِ في المسألةِ على اللهِ

-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، أنَّ الإنسانَ يُكَرِّرُ سواءً بالصيغةِ نفسِهَا أو بِمَعَانٍ يتضمنُ التِّكْرَارَ مِنَ ذِكْرِ الصُّورِ على اختلافِهَا مع إنَّها تَؤُوْلُ إلى شيءٍ واحدٍ.

قال يحيى: وحدثَّني أبو سلمةَ بنُ عبدِالرحمن عن أبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مثلَ ذلكَ، وزادَ فيهِ: ((**اللَّهُمَّ من أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ**)).

الشَّرح:

((**اللَّهُمَّ من أَحْيَيْتَهُ مِنَّا**)): يُلاحَظُ في الدُّعاءِ للميِّتِ أنَّه جَامِعٌ ما بيْنَ الدُّعاءِ للشخصِ نفسِهِ ولغَيْرِهِ، ولذلك قال: ((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا**))؛ لأنَّه مرادُهُ أنْ تكونَ المغفرةُ للداعي نفسِهِ ولجميعِ أحياءِ المسلمين وأمواتِهم، وهكذا بالنسبةِ لبقيةِ الصيغِ الواردةِ في الدُّعاءِ.

وهنا زَادَ وقَالَ: ((**اللَّهُمَّ من أَحْيَيْتَهُ مِنَّا**))، فهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ به التشريكُ للجميعِ بالنسبةِ للداعي نفسِهِ ولغَيْرِهِ.

وقولُهُ: ((**اللَّهُمَّ من أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ**)) المرادُ بالحياةِ على الإسلامِ أنَّه يَحْيا عَلَى التوحيدِ، والإسلامُ: الاستسلامُ للهِ بالطاعةِ، الاستسلامُ له -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-بتوحيدِهِ والإخلاصِ له وإفرادِهِ بالعبوديةِ، والتسليمِ له بالطاعةِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وهي أعلى المراتبِ التي ينالُ بِهَا الإنسانُ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّ العبدَ شَقِيٌّ إلا أَنْ يُسْعَدَهُ اللهُ بالإسلامِ، ومُعَذَّبٌ إلا أَنْ يَرْحَمَهُ اللهُ بالإسلامِ وخَاسِرٌ إلا أَنْ يَرْبَحَ بالإسلامِ، ولذلك لا يُزَحْزَحُ عن النَّارِ إلا بالإسلامِ، ولا يفوزُ بالجنَّةِ إلا بالإسلامِ، فالإسلامُ هو أساسُ الْخَيْرِ كُلِّهِ، ولذلك قَالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إلهَ إلا اللهُ، فَإِذَا قَالُوا ذَلَكَ فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دَمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**)) فَبَيَّنَ أنَّ الإسلامَ هو عِصْمَةُ المسلمِ وسلامتُهُ.

((**فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ**)): على التوحيدِ، وعلى الإخلاصِ، وعلى الاستسلامِ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بالطاعةِ والخلوصِ له من الشركِ والإنابةِ إليه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وهي السَّعَادةُ الحقيقيةِ.

((**فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ**)): وَمَنْ حَيِيَ على الإسلامِ فُرِّجَتْ هُمُومُهُ، الْهَمُّ لا يُفْرَجُ والْغَمُّ، ولا يَذْهُبُ البلاءُ إلا بالإسلامِ، ولذلك قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عن نبيِّهِ إبراهيمَ حينما ابتلاهُ البلاءَ العظيمَ الذي شَهِدَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاواتٍ أنَّه البلاءُ العظيمُ، حينما أَمَرَهُ أَنْ يَذْبَحَ ابنَه قال سبحانه: **{فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}** فقال: **{فَلَمَّا أَسْلَمَا}** أي أَسْلَمَ الابنُ، وأَسْلَمَ الأبُ، جَاءَ الفَرَجُ من اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَفَدَاهُ بالذِّبْحِ العظيمِ، وهذا يدلُّ على أنَّ الإسلامِ هو النَّجَاةُ، وهو الْعِصْمَةُ، ولذلك أهلُ الشِّرْكِ -كَمَا حَكَى اللهُ عنهم- إذا أصابَتْهُم الضائقةُ، وهم في لُجَجِ البحرِ دَعَوَا اللهَ مُخْلِصِيْنَ له الدِّيْنَ، فنجَّاهُم اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، فالإسلامُ نَجَاةٌ وعِصْمَةٌ، ولذلك سَأَلَ اللهَ أنْ يُحْيِيا أحياءَ المسلمين على هذا الأصلِ العظيمِ الذي فيه سعادتُهم.

((**اللَّهُمَّ من أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ**)): وينبغي للمسلمِ دائمًا أنْ يسألَ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الحياةَ على الإسلامِ، والحياةَ على الفطرةِ، وعلى الإخلاصِ، وعلى التوحيدِ؛ لأنَّه لا نَجَاةَ للعبدِ إلا بفضلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ورحْمَتِهِ ثُمَّ بذلك، فليسَ بيْنَ العبدِ وربِّهِ حَسَبٌ ولا نَسَبٌ ولا جَاهٌ، ليس بينَهُ وبَيْنَ اللهِ إلا أنْ يُخْلِصَ له -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فقال: ((**اللَّهُمَّ من أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ**)).

الإسلامُ: هو الدِّيْنُ الذي لا يَقْبَلُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- دِيْنًا سِوَاهُ، كما قال تعالى: **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ}**، والمرادُ به التوحيدِ.

ويُطْلَقُ الإسلامُ على التوحيدِ مع شرائعِهِ تامةً كاملةً.

وإذا اجتمعَ الإسلامُ والإيمانُ افترَقَا، وإذا افترَقَا اجتَمَعَا، كما هو مذهبُ الْمُحَقِّقِيْنَ -رَحِمَهُمُ اللهُ- في مسألةِ: (**الفرْقِ بيْنَ الإسلامِ والإيمانِ**).

وظاهرُ حديثِ جِبْرِيل أنَّ الإسلام على الشَّرَائعِ، والإيمانُ أساسُ الدِّيْنِ.

((**وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فتوفَّهُ عَلَى الإِيْمَانِ**)): هذا هو روايةُ أكثرِ الرواةِ: ((**من أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ**)).

وفي بعضها: ((**من أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِيمان، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فتوفَّهُ عَلَى الإِسْلامِ**)) فالمرادُ أنْ يُتَوَفَّى على التوحيدِ، ولكن روايةَ الأكثرِ: ((**من أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فتوفَّهُ عَلَى الإِيْمَانِ**))، ومرتبةُ الإيمانِ أعظمُ وأعلى.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وروى هشامٌ الدَّستوائيُّ وعَليُّ بنُ المباركِ هذا الحديثَ عن يحيى بنِ أبي كثيرٍ عن أبي سلمةَ بنِ عبدِالرحمن عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مُرْسَلاً.

وروى عِكرمةُ بنُ عمَّارٍ عن يحيى بنِ أبي كثيرٍ عن أبي سلمةَ عن عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وحديثُ عكرمةَ بنِ عمَّارٍ غيرُ محفوظٍ، وعكرمةُ ربمَّا يُهِمُّ في حديثِ يحيى.

ورُوِيَ عن يحيى بنِ أبي كثيرٍ عن عبدِاللهِ بنِ أبي قتادةَ عن أبِيهِ عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وسمعتُ مُحَمَّداً يقولُ: أصحُّ الرِّواياتِ في هذا حديثُ يحيى بنِ أبي كثيرٍ عن أبي إبراهيمَ الأشهليِّ عن أبِيهِ، وسألتهُ عن اسمِ أبي إبراهيمَ فلَمْ يعرفْهُ.

الشَّرح:

خَتَمَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- دعاءَهُ بسؤالِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- حسنَ الخاتمةِ؛ لأنَّ في قوله: ((**فتوفَّهُ عَلَى الإِيْمَانِ**)) سؤالٌ يتضمنُ الابتهالَ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بحسنِ الخاتمةِ، وهذا من أهمِّ ما ينبغي أنْ يُعْنَى به المسلمُ، أَنْ يسألَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- حُسْنَ الختامِ؛ لأنَّه رُبَّمَا عَاشَ الإنسانُ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- مسلمًا، وَمَاتَ كافرًا، فهذا من سوءِ الخاتمةِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، والأمورُ بخواتِمِهَا.

ولذلك قال تعالى يُوْصِي عبادَهُ المؤمنين: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}**، قالَ بعضُ العلماءِ والأئمةِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- في تفسِيْرِهَا: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** أي كونُوا على تقوى، والتزموا بتقوى اللهِ، حتى إذا جاءَكُم الموتُ جاءَكُم على الإسلامِ، فَخُتِمَ لكم بِخَاتِمَةِ السَّعَادَةِ، ولذلك يُخْشَى على العبدِ في حالِ معصيتِهِ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، والذي جَعَلَ الْخِيَارَ والصالحين فائزين بِحُسْنِ الختامِ أَنَّهم لَزِمُوا تقوى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وخَافُوا من المعاصي، وكانَ الرَّجُلُ منهم إذا تَعَلَّقَ بمعصيةٍ في السَّمْعِ أو في البصرِ أو في غَيْرِ ذلك من جوارحِهِ، يَخَافُ أنْ تأتِيَهُ الخاتمةُ وهو على ذلك الذَّنْبِ، وعلى تلك المعصيةِ، وكانوا يَخافونَ من المعاصي أنْ تكونَ بَرِيْدًا للكفرِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- وسوءِ الخاتمةِ.

ومِنْ هُنَا دَعَا النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- رَبَّهُ، وسَأَلَهُ أنْ تكونَ الوفاةُ حسنةً، ولا تَحْسُنُ الخاتمةُ إلا بالإسلامِ وبالإيمانِ، وبطاعةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فإذا أَرَادَ اللهُ أنْ يُسْعَدَ عبدَهُ أَوْقَفَهُ في آخرِ أعتابِ هذه الدُّنيا على أعلى مراتبِ الطَّاعةِ.

فأسعدُ الناسِ في هذه الدُّنيا مَنْ كانَ مِنْ طاعةٍ إلى طاعةٍ، حتى إذا خُتِمَ له خُتِمَ له بِعُلُوِّ الدَّرَجَاتِ، والفوزِ بالرَّحْمَةِ والْمَرْضَاةِ.

وأشقى الناسِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- مَنْ تَرَدَّى في الدَّرَكَاتِ، واغْتَرَّ بالطاعاتِ، ولا يَهْلِكُ على اللهِ إلا هَالِكٌ، فَنَظَرَ إلى استقامتِهِ والتزامِهِ، وَجَعَلَ يُزَكِّي نفسَهُ بنفسِهِ، ولا يُزَكِّي نفسَهُ بقولِهِ وعملِهِ وسرِّهِ وظاهرِهِ، حتى -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- يَغْتَرُّ فيَهْلَكُ، ولذلك ينبغي للإنسانِ دائمًا أنْ يَخافَ ويَحذرَ من سوءِ الخاتمةِ.

والنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يُذَكِّرُ في أدعيتِهِ بالمناسبةِ؛ لأنَّ الموتَ هو الخاتمةُ، ولذلك خَتَمَ دعاءَهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بِمَا ينبغي للمسلمِ أنْ ينتبَهُ له، وأنْ يحذرَ منه، وأنْ يُحَذِّرَ منه غَيْرَهُ، وهو سوء الخاتمة -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

وسوءُ الخاتمةِ أعلى ما يكونُ بالكُفْرِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يأتي السُّوءُ النسبيُّ، فإنَّه قد يكونُ مسلمًا، ويُخْتَمُ له بسوءِ الخاتمةِ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ- بِمَا يُحْرَمُ به من عُلُوِّ الدَّرَجَاتِ، أو يكونُ سببًا -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- في دخولِهِ النار تطهيرًا، فهذا نوعٌ من الشَّقَاءِ.

فينبغي للمسلمِ دائمًا أنْ يَعُوْذَ من سوءِ الخاتمةِ، وأنْ يأخذَ بالأسبابِ التي تعينُهُ على حسنِ الخاتمةِ.

في دعائِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بِهذا الدُّعاءِ تَنْبِيْهٌ ومنهجٌ نبويٌّ، أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ لا يأمنَ من سوءِ الخاتمةِ، وأنْ يُحَاسِبُ نفسَهُ حسابًا عسيرًا، وأنْ لا يَغْتَرَّ بطاعته؛ لأنَّه لا يموتُ على الإسلامِ إلا مَنْ شَاءَ اللهُ له أنْ يَمُوتَ عليه، ولا يَمُوتُ على الإيمانِ إلا مَنْ شَاءَ اللهُ أنْ يَمُوتَ عليه فلا يَغْتَرَّ بطاعتِهِ، ولا يَغْتَرَّ باستقامتِهِ، ولا يُطْلِقُ لنفسِهِ العِنَانَ، ولا يُزَكِّي نفسَهُ، بل دائمًا يَتَّهِمُهَا بالتقصيرِ، ويحملُها على الطاعةِ، ويجعلُها في خَوْفٍ وَوَجَلٍ من اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- حتى يَسْلَمَ، وإذا خَافَ في الدُّنيا أَمَّنَهُ اللهُ في الآخرةِ، ولا يَجْمَعُ اللهُ لعبدٍ بين خوفينِ وأمنينِ، فإمَّا خَوْفٌ في الدُّنيا، وأَمْنٌ في الآخرةِ، وإمَّا أَمْنٌ في الدُّنيا، وخَوْفٌ في الآخرةِ.

فنسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ أنْ يلزمَنا تقواه، وأنْ يجنبَنَا معصيتَهُ؛ إنَّه وليُّ ذلكَ والقادرُ عليه.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ، حدثنا عبدُالرَّحمَنِ بنُ مهديّ، حدثنا معاويةُ بنُ صالحٍ عن عبدِالرحمن بنِ جُبَيْرِ بنِ نُفَيْرٍ عن أبيهِ عن عوفِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يُصَلِّي عَلَى مَيِّتٍ، فَفَهِمْتُ مِنْ صَلاتِهِ عَلَيْهِ: ((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، واغْسِلْهُ بَالْبَرَدِ، وَاغْسِلْهُ كَمَا يُغْسَلُ الثَّوبُ**)).

قالَ الإمامُ أبو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قال مُحَمَّدُ: أصحُّ شيءٍ في هذا البابِ هذا الحديثُ.

الشَّرح:

تقدَّمَتْ معنا الإشارةُ لهذا الحديثِ، وما تضمَنَهُ من الصيغِ والألفاظِ.

قولُهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يُصَلِّي عَلَى مَيِّتٍ فَفَهِمْتُ مِنْ صَلاتِهِ**))

((**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-... **فَفَهِمْتُ**))، قالوا: قوله: ((**فَفَهِمْتُ**)) أي حَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ.

وَقِيْلَ: ((**فَفَهِمْتُ**)) أي وَعَيْتُ وَفَقَهْتُ؛ لأنَّ الفهمَ يُطْلَقُ بمعنى الفقهِ، والفقهُ يُطْلَقُ بمعنى الفهمِ وإنْ كانَ بعضُ العلماءِ يَرَى أنَّ الفقهَ لا يُطْلَقُ بمعنى الفهمِ إلا لدقيقِ المسائلِ وعويصِهَا، فيقولُ: (فَقِهْتُ المسألةَ)، ولا يقولُ: (فَقِهْتُ أنَّ الواحدَ نصفُ الاثنينِ) إنَّما يكونُ في المسائلِ الدقيقةِ التي تُحْتَاجُ إلى إعمالِ فِكْرٍ وفَهْمٍ.

وهذا يدلُّ على أنَّه في قولِهِ: ((**سَمِعْتُ**)) على أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- جَهَرَ بالدُّعَاءِ -كما ذكرنا- حتى سَمِعَهُ عَوْفٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ**)): تَقَدَّمَ معنا الْمَغْفِرَة.

وقولُهُ: ((**ارْحَمْهُ**)) من الرَّحْمَة، وهي ضِدُّ العذابِ، ورحْمَةُ الله -عَزَّ وَجَلَّ- واسعةٌ، وليسَ لَهَا مُنْتَهَى، وقد يَرْحَمُ اللهُ عبدَهُ رحْمَةً يَسْعَدُ بِهَا سَعَادَةً لا يَشْقَى بَعْدَهَا أبدًا، وأَتَمُّ ما تكونُ الرَّحمةُ إذا كانَتْ على هذا الوجهِ أنْ يَرْحَمَ اللهُ عبدَهُ رحمةً يُصِيْبُ بِهَا سَعَادَةَ الدُّنيا والآخرةِ، جَعَلَنَا اللهُ وإياكم ذلك الرَّجُل.

فهذه الرَّحْمَةُ التامةُ الكاملةُ تشملُ: رحمةَ الدُّنيا، والآخرةِ، ثم الرَّحَمَاتُ تَخْتَلِفُ.

وفي قولِهِ: ((وَارْحَمْهُ))، سؤالٌ من العبدِ لرَبِّهِ أنْ يَرْحَمَ أخاهُ المسلمَ.

((واغْسِلْهُ بَالْبَرَدِ)): الْبَرَدُ نَوْعٌ من الثَّلْجِ، وهو يأتي على أجزاءٍ، خلافَ الثَّلْجِ الذي يكونُ أخفُّ. وهو يأتي على أجزاءٍ، حتى إنَّهُ إذا قذفتْهُ السَّمَاءُ يكونُ كالحجارةِ، رُبَّمَا يَقْتُلُ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- في بعضِ الأحوالِ.

والغَسْلُ بَالْبَرَدِ استدلَّ به بعضُ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- على مسائلَ فقهيةٍ:

منها: أنَّه لو تَوَضَّأَ، أَخَذَ الْبَرَدَ، فأَمَرَّهُ على أعضاءِ الوضوءِ، صَحَّ وُضُوؤهُ؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: **((وَاغْسِلْهُ بِمَاءٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ))**، وهنا قال: **((وَاغْسِلْهُ بَالْبَرَدِ))** فدلَّ على أنَّ الْبَرَدَ يكونُ به الغَسْلُ، وهذا مبنيٌّ على أنَّه تتحللُ أجزاءُ الْبَرَدِ، بحيثُ يجري الماءُ على ظاهرِ العضوِ.

أمَّا إذا كانَ في جَوٍّ بَارِدٍ، ولَمْ يتحللْ: فإنَّه لا يجزيهِ، وإنَّما المرادُ أنْ تتحللَ أجزاءُ الْبَرَدِ.

وَفِيْهِ دَلِيْلٌ -أيضًا- على أنَّه لو أَخَذَ الْبَرَدَ، وَأَسَاحَهُ بالماءِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ بِمَائِهِ، أنَّه يجزيهِ، وهذا لا خلافَ فيه، أنَّه لو أَخَذَ الثَّلْجَ أَوِ الْبَرَدَ، فَأَسَاحَ مَاءَهُ، ثُمَّ تَوَضَّأَ به أو اغتَسَلَ به من الجنابة، أجزأَهُ وارتفعَ حدثُهُ، **وَجْهًا وَاحِدًا**.

لكن لو أنَّه تَوَضَّأَ، وَنَقَصَ عليه الماءُ، ولَمْ يبقَ عليه إلا غَسْلُ رجليه، فَوَجَدَ بَرَدًا، فَأَدَارَهُ على رجليه أجزأَهُ، مادام أنَّه قد أَسَاحَهُ على كاملِ العضوِ المأمورِ بغسلِهِ.

وقولُهُ: ((وَاغْسِلْهُ بَالْبَرَدِ)) في اللفظِ الآخرِ: **((اِغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ))**.

في قولِهِ: ((اِغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالْثَّلْجِ وَالْبَرَدِ)) في صيغةِ الدُّعاءِ الأخرى دليلٌ على أنَّ الماءَ هو الأصلُ في التطهير، أنَّ الماءَ هو الأصلُ في الْمُطَهِّرَاتِ، ولذلك لا يُجْزِئُ أنْ يَتَطَهَّرَ بِغَيْرِ الماءِ، كالْخَلِّ، والنَّبِيْذِ، خِلافًا للحنفيةِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وقد تقدَّمت معنا هذه المسألةُ في (كتاب الطهارة).

وقولُهُ: ((وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالْثَّلْجِ وَالْبَرَدِ)) فيه دليلٌ على أنَّ الْمَيِّتَ يُغْسَلُ بِأَمْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بالماءِ والثلجِ والْبَرَدِ، أمَّا كيف يغسل؟ وما هي صفةُ التغسيلِ؟ وما هو المقصودُ بِهذا التغسيل؟ فَعِلْمُ غيبٍ لا يعلمُهُ إلا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، ولم تأتِ النصوصُ بتفسِيْرٍ في ذلك، وهل هذا التغسيلُ المرادُ به المغفرةُ، أَمِ المرادُ به النَّعِيْمُ، نوعٌ من أنواعِ النَّعِيْمِ، أنَّ الْمَيِّتَ إذا غُسِّلَ يُنَعَّمُ؟ هذا أَمْرٌ لَمْ تُبَيِّنِ النصوصُ حقيقتَهُ.

لكن الذي وَرَدَ أنَّ الْمَيِّتَ يُغَسَّل، وقد ثَبَتَ كما في حديث حَنْظَلَة الغَسِيْل، أنَّه غُسِّلَ تَغْسِيْلاً خَاصًّا، وعلى كُلِّ حَالٍ من حيثُ الأصلِ ثَبَتَتْ به السنةُ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

((**وَاغْسِلْهُ كَمَا يُغْسَلُ الثَّوبُ**))، ((**وَاغْسِلْهُ**)): المرادُ أَنْ يَأْمَرَ بِغَسْلِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وهذا كما يُقَالُ: "بَنَى الأميْرُ الْقَصرَ".

وقولُهُ: ((**وَاغْسِلْهُ كَمَا يُغْسَلُ الثَّوبُ**))، وقد فَسَّرَتِ الرِّوَايَةُ الأخرى معنى قولِهِ: ((**وَاغْسِلْهُ كَمَا يُغْسَلُ الثَّوبُ**)) بقولِهِ: ((**وَنَقِّهِ مَنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأبيضُ مِنَ الدَّنَسِ**)).

والمرادُ بِغَسْلِ الثَّوبِ: أنَّ هذا من التَّشْبِيْهِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا غَسَلَ ثَوْبَهُ حَرِصَ على نقائِهِ من الدَّنَسِ، وهذا **يقوّي** أنَّ هذا التغسيلَ ليسَ المرادُ به النَّعيْمَ، وإنَّما المرادُ به التطهيرُ من الذُّنُوبِ؛ لأنَّه لَمَّا شَبَّهَ غَسْلَهُ بِغَسْلِ الثوبِ، أنَّ هذا التغسيلَ المرادُ به إنقاؤهُ من الذُّنُوبِ والخَطَايَا، وهذا يدلُّ على شُؤْمِ المعاصي وبلائِهَا، وأنَّها لا تُفَارَقَ العبدَ لا في الدُّنيا، ولا في الآخرةِ، إلا إذا تَابَ منها توبةً نصوحًا، فطُوْبَى لِمَنْ اغتسلَ بِمَغْفِرَةِ اللهِ في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ، ولَقِيَ اللهَ وهو نَقِيُ الثوبِ من الدَّنَسِ، ومن الذُّنُوبِ، ولذلك أسعدُ الناسِ في هذه الدُّنيا من لَزِمَ الاستغفارَ، واستشعرَ عظمة القَهَّارِ، وسطوةَ الجبَّارِ، وأَنَابَ إليه أناءَ الليلِ والنَّهارِ، ونسأل الله بعزتِهِ وجلالِهِ أنْ يجعلَنا ذلك الرَّجُل.

وَرَدَ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه لَمَّا سَمِعَ دُعَاءَ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- للمَيِّتِ: ((**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، وعَافِهِ، واعْفُ عَنْهُ، وأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وأَوْسِعْ مُدْخَلَهُ، واغْسِلْهُ بِمَاءٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ، وَنَقِّهِ مِنَ الخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيضُ مَنَ الدَّنَسِ**))، وفي لفظٍ، ((**كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوبَ الأبيضَ مِنَ الدَّنَسِ**)) قال: (وَدِدْتُ أَنِّي ذَلِكَ الْمَيِّتُ)، تَمَنَّى أنَّه ذَلِكَ الْمَيِّتُ الذي دَعَا له الرسولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

اللَّهُمَّ، إنَّا نسألُكَ بأسمائِكَ الْحُسْنَى وصفاتِكَ العُلَى أنْ تغفرَ لنا ولأمواتِ المسلمين.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لنا ولهم، وارْحَمْنا وارْحَمْهم.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لنا أجمعين مغفرةً لا تحاسبُنا بعدَها عن صغيرٍ ولا كبيرٍ ولا جليلٍ ولا حقيرٍ، يا أرحم الراحمين.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذنوبَنا، واسْتُرْ عيوبَنا، وفَرِّجْ كروبَنا.

اللهم ثَبِّتْنَا على الحقِّ حتى نَلْقَاكَ غَيْرَ خَزَايَا ولا مفتونين.

اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بك من فِتَنِ المفتونين، ومن ضلالِ المضلين، ومن إلحادِ المبطلين، ثَبِّتْنَا على الحقِّ حتى نَلْقَاكَ وأنتَ رَاضٍ عنا، يا رَبَّ العالمين.

اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بك من الفتنِ ما ظهرَها منها وما بطنَ، ونعوذُ بك من الْمِحنِ ما ظهرَ منها وما بطنَ،

ونعوذُ بك من فِتَنِ المفتونين، ومن إضلالِ المضلين، ومن إرجافِ المرجفين.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات.

اللَّهُمَّ نَوِّرْ على أهلِ القبورِ قبورَهم.

اللَّهُمَّ نَوِّرْ على أهلِ القبورِ قبورَهم.

اللَّهُمَّ نَوِّرْ على أهلِ القبورِ قبورَهم، واغْفِرْ ذنوبَهم، وفَرِّجْ كروبَهم.

اللَّهُمَّ اجعلْهم في حِلٍّ من حقوقِك وحقوقِ خلقِكَ، يا رَبَّ العالمين.

اللَّهُمَّ لا تَدَعْ منهم معذَّبًا إلا أَزَلْتَ عنه عذابَهُ، ولا مهمومًا ولا مغمومًا إلا فَرَّجْتَ هَمَّهُ وغَمَّهُ، ولا مرهونًا إلا فَكَكْتَ رَهْنَهُ، يا أرحمَ الراحمين، يا أرحمَ الراحمين، اغْفِرْ لنا ولإخواننا.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات.

اللَّهُمَّ فَرِّجْ هَمَّ المهمومين، ونَفِّسِ الكربَ عن المكروبين، واشْفِ مرضَنَا ومرضى المسلمين، وارْحَمْ مَوْتَانَا وموتَاهم أجمعينَ، برحمتك يا أرحمَ الراحمين.

وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمَّدٍ.

رقم الدَّرس ٤٢٢

الثلاثاء ٥-٦-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقُولُ الإِمامُ الْحَافِظُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الْقِرَاءةِ عَلَى الْجَنَازَةِ بفاتِحَةِ الْكِتَابِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أحمَدُ بنُ منيعٍ حدثنا زيدُ بنُ حُبابٍ حدثنا إبراهيمُ بنُ عثمانَ عن الحكمِ عن مِقْسَمٍ عن ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قَرَأَ عَلَى الْجَنَازَةِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أمِّ شَرِيكٍ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ ابنُ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- حديثٌ ليسَ إسنادهُ بذلكَ القويِّ إبراهيمُ بنُ عثمانَ هو أبو شيبةَ الواسطيِّ منكرُ الحديثِ.

والصَّحيحُ عن ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قولُهُ: من السُّنَّةِ القراءةُ عَلَى الْجَنَازَةِ بِفَاتِحَةِ الْكُتَابِ.

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الْحمدُ للهِ ربِّ العالَمِيْنَ، والصلاةُ والسلامُ الأتمانِ الأكملانِ عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللهِ أجمعين، وعَلَى آله وصحبه، ومن سار عَلَى سبيله ونهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بَعْدُ:

فقدْ ترجمَ الإمامَ التِّرمذِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهَذِهِ التَّرجمةِ، والَّتِي تتعلقُ ببيانِ مَا يُقْرَأُ في الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَة ، وأَوْرَدَ السُّنَّة عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في القراءةِ بفاتِحةِ الكتابِ.

وهذا الحديثُ وإِنْ كَانَ مُتَكَلَّمًا في سندِهِ إلا أَنَّ متنَهُ صحيحٌ، فقدْ جاءَ في حديثِ سَهْلِ بنِ حُنَيْفٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وكذلكَ حديثُ أَبِي أُمَامَةَ اللَّذَيْنِ تقدَّمَتِ الإشارةُ إليهمَا، مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَة أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ بفاتِحةِ الكتابِ.

وهذا هُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ والْحَنَابِلَةِ، وطائفةٍ من أهلِ الحديثِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

وهذا الْمَذْهَبُ **هُوَ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ** في الْمَسْأَلَةِ.

ومِمَّا يُقَوِّيهِ: عمومُ قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الصَّحِيْحَيْنِ: ((**لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**))، وقدْ سَمَّى الصَّلاةَ عَلَى الْجَنَازَة صَلاةً، فدَلَّ عَلَى أَنَّهَا لا تَصِحُّ بِدُوْنِ قِرَاءَةِ فاتِحةِ الكتابِ.

و[فَاتِحَةُ الكتابِ]: تقدَّمَ معنَا في (صفةِ الصَّلاةِ ومَا يُقْرَأُ فيهَا) سَبَبُ تسميتِهَا بفاتحةِ الكتابِ: وهو

أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- استَفْتَحَ بِهَا كتابَهُ.

و(**أَلْ**) في (الْكِتَاب) للعهدِ الذِّهِنِيّ، أي القرآن؛ لأَنَّهُ هو الْمَعْهُودُ.

وقولُهُ: **[بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ]** أَنَّهُ يُسْتَفْتَحُ بِهَا القرآنَ العظيمَ، إِنَّما هو في الْعَرْضَةِ الأَخِيْرَةِ الّتي عَرَضَهَا رسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَلَى جِبْرِيْلَ في آخِرَ سِنِيّ حياتِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وهي التي رُتِّبَ عليها الْمُصْحَف الإِمَام، وهو مصحفُ عثمانَ بنِ عفَّانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، التي تَلَقَّتْهُ الأمةُ بالقَبُولِ، وجَرَى عليهِ العملُ، وإِلا فالأصلُ أَنَّ الفاتِحَةَ لَيْسَتْ هي أَوَّلُ مَا نَزَلَ من القُرْآنِ، وكَمَا هوَ معلومٌ أنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ قولُهُ سبحانه: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}**.

وإِنَّمَا سُمِّيَتْ فاتِحَةَ الكتابِ؛ لأَنَّ اللهَ استَفْتَحَ بِهَا كتابَهُ عَلَى الترتيبِ الذي ذَكَرْنَاهُ، وهو ترتيبُ الْعَرْضَةِ الأَخِيْرَةِ من القرآنِ.

وعمومُ قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**)) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّلاةَ لا تَصِحُّ إِذَا لَمْ يَقْرَأِ الْمُصَلِّي فيها فاتحةَ الكتابِ، وقدْ سَمَّى الشَّرْعُ الصَّلاةَ عَلَى الْجَنَازَةِ صَلاةً، كَمَا قَالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الحديثِ الصَّحيحِ عن عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في الصَّحِيْحَيْنِ أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في حديثِ النَّجَاشِيّ: ((**أَنَّهُ صَلَّى عَلَى النَّجَاشِيّ**)).

وكذلكَ -أيضًا- قولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كَمَا في الصَّحِيْحِ في الرَّجُلِ الذي كَانَ عليهِ دِيْنَارَانِ، قَالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُم**)) فهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّلاةَ عَلَى الْجَنَازَة صَلاةً، وإِذَا كَانَتْ صَلاةً فإِنَّهَا لا تَصِحُّ بِدُوْنَ فاتِحَةِ الكتابِ؛ لعمومِ الحديثِ الذي ذَكَرْنَاهُ.

وذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- إلى أَنَّ الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَة إِنَّمَا هي شَفَاعَةٌ ودعاءٌ واستغفارٌ للميّتِ وتَرَحُّمٌ عليهِ، فالْمُصَلِّي يسألُ اللهَ للميّتِ أَنْ يغفرَ اللهُ ذَنْبَهُ، وأَنْ يَرْحَمَهُ، وأَنْ يَقِيَهُ عذابَ النَّارِ وعذابَ الْقَبْرِ، ونَحْوِ ذلكَ مِمَّا ثَبَتَتْ بِهِ السُّنَّةُ في الأحاديثِ الصَّحِيْحَةِ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الأدعيةِ.

قَالُوا: هذا هو الْمقصودُ من الصَّلاةِ، وأَنَّهَا شفاعةٌ، وأَنَّهَا دعاءٌ، وبناءً عَلَى ذلكَ لا يَفْرِضُونَ ولا يوجبونَ قراءةَ الفاتِحَةِ.

وقَالَ بعضُ فقهاءِ الحنفيةِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- وأَفْتَوا: بأَنَّهُ إِذَا قَرَأَ الفاتِحَةَ عَلَى سبيلِ الدُّعاءِ للمَيِّتِ صَحَّ وأَجْزَأَ، أي أَنَّ هذا لا بَأْسَ بِهِ، ولا حَرَجَ عندَهُم أَنْ تكونَ قراءةُ الفاتِحَةِ من الْمُصَلِّي عَلَى سبيلِ

الدُّعَاءِ.

وأَصَحُّ الْوَجْهَيْنِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ قراءةَ الفاتِحَةِ لا بُدَّ منهَا في الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ حدثنا عبدُ الرَّحمَنِ بنِ مهديّ حدثنا سُفيانُ عن سعدِ بنِ إبراهيمَ عن طلحةَ بنِ بنِ عوفٍ: ((**أَنَّ ابنِ عبَّاسٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- **صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مِنَ السُّنَّةِ، أَوْ مِنْ تَمَامِ السُّنَّةِ**)).

قَالَ الإمامُ أبو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

قولُ الصَّحابيّ: (مِنَ السُّنَّةِ، أو هذا من السُّنَّةِ)، **للعلماءِ فيه قولانِ:**

قَالَ جَمْهُور العُلَمَاءِ: إذا قَالَ الصَّحابيُّ (مِنَ السُّنَّةِ كَذَا، أو هَذَا من السُّنَّةِ)، فإِنَّهُ يكونُ حكمُهُ حكمَ الْمَرْفُوعِ إلى رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وَهُوَ مَذْهَبُ الْحَنَفِيَّةِ والْمَالِكِيَّةِ والشَّافِعِيَّةِ والْحَنَابِلةِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

وذَهَبَ طائفةٌ من أئمةِ الأصولِ إلى أَنَّهُ إِذَا قَالَ الصحابيُّ: (مِنَ السُّنَّةِ كَذَا، أَوْ أُمِرْنَا، أَوْ نُهِيْنَا عَنْ كَذَا) أَنَّهُ لا يأخذُ حكمَ الْمَرْفوعِ إلى رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وقَالُوا: إِنَّ السَّبَبَ في ذلكِ أَنَّ الصحابيّ إِذَا قَالَ: (مِنَ السُّنَّةِ)، ولَمْ يَقُلْ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)، ولَمْ يَقُلْ: (سَمِعْتُ رسولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقولُ)، فنحنُ عَلَى شَكٍّ: هَلْ مُرَادُهُ سُنَّةُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، أَمْ مُرَادُهُ سُنَّةَ غَيْرِهِ، كَالْخُلَفَاء الرَّاشدين؟

فَإِذًا نَحْنُ عَلَى شَكٍّ، وإِذَا كُنَّا عَلَى شَكٍّ، فاليقيْنُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَرْفُوعٍ إلى رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وقَالُوا أَيْضًا: إِنَّ السُّنَّةَ تُطْلَقُ عَلَى مَا كَانَ مَرْفُوعًا إلى رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من هديهِ القَوليّ والفِعْليّ، ونَحوِهِ.

وتُطْلَقُ عَلَى سُنَّةِ الْخلفاءِ الرَّاشدينَ، كَمَا قَالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الحديثِ الصَّحيحِ عن العِرْبَاضِ بنِ سَارِيةَ -س وأرضاه- قَالَ: قَالَ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**عَلَيْكُم بِسُنَّتِي**

وسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ الْمَهْدِيِّيْنَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالْنَوَاجِذِ، وَإِيَاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ))

قَالُوا: فَسَمَّى النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مَا يكونُ من الخلفاءِ الراشدينَ سُنَّةً، فهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ تشملُ مَا كَانَ مرفوعًا، وما كَانَ موقوفًا.

فَحِيْنَئِذٍ نحنُ لا نستطيعُ أَنْ نَجْزِمَ، قَالُوا: وَلَوْ كَانَ مُرَادُ الصَّحَابِيِّ سُنَّةَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، لَقَالَ: (سَمِعْتُ)، أو قَالَ: (قَالَ رسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-).

وهذا الْقَوْلُ مَرْجُوْحٌ.

وَوَجْهُهُ: أَنَّ قولَ الجمهورِ اعتمدَ الأصلَ، وهو أنَّ الصحابيَّ حينمَا قَالَ: (مِنَ السُّنَّةِ)، وسَكَتَ ولَمْ يُضِفْهَا، فإِنَّ السُّنَّةِ إِذَا أُطْلِقَتْ إِنَّمَا هي سُنَّةُ الشَّارِعِ، وهي السُّنَّةُ التي أُوْحِيَتْ إلى رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فحينمَا يقولُ: (مِنَ السُّنَّةِ) ولا يُقَيِّدُهَا، ولا يقولُ: (مِنَ سُنَّةَ الْخُلَفَاءِ) فَهِمْنَا أَنَّهُ يريدُ السُّنَّةَ المعهودةَ المعروفةَ، وهي سُنَّةُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولو أَرَادَ غَيْرَهَا لَقَالَ: (سُنَّةَ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ سُنَّةَ عُمَرَ، أَوْ سُنَّةَ الْخُلَفَاءِ)، فلَمَّا لَمْ يُقَيِّدْهَا، وأَطْلَقَهَا، فإِنَّ هذا الْمُطلقَ مُقَيَّدٌ بالمعهودِ المعروفِ، وهو سُنَّةُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ثَانِيًا: قَالُوا: إِنَّ الصَّحابيَّ لا يقولُ: (مِنَ السُّنَّةِ) إلا وهو مُحْتَجٌّ ومُسْتَدِلٌّ، وإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ في الأصلِ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ولذلك في حديثِنَا لَمَّا قَالَ مِقْسَمٌ مَا قَالَهُ هو، وكَأَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى ابنِ عَبَّاسٍ، أَخْبَرَهُ ابنُ عَبَّاسٍ: (أَنَّهُا مِنَ السُّنَّةِ)، فَسَاقَهَا في سِيَاقِ الْمُحْتَجِّ والْمُسْتَدِلِّ، ولا تُسَاقُ السُّنَّةُ ولا يقَالُ: (السُّنَّة) في سياق الاحتجاجِ والاستدَلالِ إلا إِذَا كَانَتْ سُنَّةَ الشَّرْعِ الَّتِي هي حُجَّةٌ، وهي سُنَّةُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهذا لا يَمْنَعُ أَنَّ سُنَّةَ الْخُلَفَاءِ حُجَّةٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وأرضَاهم-، وإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّهُ خَصَّهَا بِهَذا؛ لكونِهَا هي الْمَعْنِيَّةُ بالاحتجاجِ والاستدَلالِ.

<u>وهذا هو أَرْجَحُ الْقَوْلَيْنِ</u> أَنَّهُ إِذَا قَالَ الصَّحَابِيُّ: (مِنَ السُّنَّةِ، أَوْ أُمِرْنَا، أَوْ نُهِيْنَا)، كُلُّ ذَلِكَ لَهُ حكمُ الْمَرفوعِ، كما قَالَ صَاحِبُ (الطَّلْعَةِ):

أُمِرْتُ أَوْ نُهِيْتُ قُلْ وَأُمِرَا الرَّفْعُ حُكْمُهُ عَلَى مَا شُهِّرَا

فقولُـهُ: (الرَّفْعُ حُكْمُـهُ) أي أَنَّـهُ يأخُـذُ حكمَ الْمرفوعِ إلى النَّبِيِّ -صَـلَّى اللهُ عَلَيـهِ وَسَـلَّمَ-. فإِذَا قَالَ الصَّحَابِيُّ: (مِنَ السُّنَّةِ كَذَا أو هَذَا مِنَ السُّنَّةِ) كَأَنَّهُ قَالَ: (سَمِعْتُ رسولَ اللهَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ

وَسَـــلَّمَ-) وهكذا إذا قَالَ: (أُمِرْتُ، أَوْ نُهِيْتُ، أَوْ أُمِرَنَا، أَوْ نُهِيْنَا)، فكَأَنَّهُ قَالَ: (أَمَرَ رســـولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ونَهَى رسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: والعملُ عَلَى هذا عِندَ بعضِ أهلِ العلمِ من أصحابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغيرِهِم، يختارونَ أنْ يُقْرَأَ بفاتِحَةِ الكتابِ بعدَ التَّكبيْرَةِ الأُولى، وهو قولُ الشَّافِعيِّ، وأحمَدَ وإسحاقَ.

وقَالَ بعضُ أهلِ العلمِ: لا يُقْرَأُ في الصلاةِ عَلَى الْجَنَازَة، إِنَّمَا هو الثَّناءُ عَلَى اللهِ، والصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- والدُّعاءُ للمَيِّتِ، وهو قولُ الثَّوريِّ، وغيرِهِ من أهلِ الكوفةِ.

وطلحةُ بنُ عبدِاللهِ بنُ عَوْفٍ هو ابنُ أخي عبدِالرحمن بنِ عَوْفٍ، رَوَى عَنْهُ الزُّهْرِيُّ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ، والشَّفاعةِ لِلمَيّتِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أبو كُريبٍ حدثنا عبدُاللهِ بنُ المباركِ ويونسَ بنُ بكيرٍ عن مُحَمَّدِ بنِ إسحاقَ عن يزيدَ بنِ أبي حبيبٍ عن مرثدِ بنِ عبدِاللهِ اليزنيّ قَالَ: كَانَ مالكُ بنُ هُبيرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إذا صلَّى عَلَى جنازةٍ، فتقَالَ النَّاسَ عليها، جزَّأهُم ثلاثةُ أجزاءٍ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ((**مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ ثَلاثَةُ صُفُوْفٍ فَقَدْ أَوْجَبَ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن عائشةَ، وأمِّ حبيبةَ، وأبي هُريرَةَ، وميمونةَ زوجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدِيْثُ مَالِكِ بنِ هبيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حديثٌ حسنٌ.

الشَّرْح:

ترجمَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهَذِهِ التَّرجَمَةِ، والَّتِي تتعلَقُ بفضلِ كثرةِ العَدَدِ، أو كثرةِ الصُّفُوفِ **وهَمَا وَجْهَانِ عندَ العلماءِ** في الصَّلاةِ عَلَى الْمَيِّتِ.

ويُلاحَظُ أنَّ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- ابتَدَأَ بابِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ ثَنَّى بابِ قراءةِ الفاتِحةِ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِهَذَا البابِ.

فبَدَاءَتُهُ بابِ الدُّعاءِ؛ لأَنَّهُ مُجْمَعٌ ومُتَفَقٌ عليهِ أَنَّ الْمَيِّتَ يُدْعَى لَهُ في الصَّلاةِ عليهِ.

وثَنَّى بفاتِحةِ الكتابِ، وهي مُخْتَلَفٌ فيهَا، وإِنْ كَانَ **الصَّحِيْحُ والأَرْجَحُ** أَنَّهَا تُقْرَأُ، فقدَّمَ الْمُجْمَعَ عليهِ، وقدَّمِ المقصودَ من الصَّلاةِ وهو الدُّعاءُ عَلَى قراءةِ الفاتِحةِ كَمَا سَبَقَ التَّنْبِيْهُ عليهِ.

ثُمَّ ثَنَّى بِهَذا؛ لأَنَّهُ مُتَّصِلُ بالدُّعَاءِ، وهو أَنَّ الْمَيِّتَ إِذَا صَلَّى عليهِ إخوانُهُ فإِنَّهُم شُفعاءُ، ويَسْأَلُون اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- في شفاعتِهِم أَنْ يغفرَ ذنبَهُ، وأَنْ يَغْسِلَهُ بالْماءِ والثَّلجِ والْبَرَدِ، ونحوِ ذلكَ من الأدعيةِ التي وَرَدَتِ السُّنَّةُ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بِهَا.

هَذِهِ الشَّفَاعَةُ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ اختلافِ العَدَدِ، وبِحَسَبِ اختلافِ الصِّفَةِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُنَبِّهَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- عَلَى مَا وَرَدَ من هدي النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنتِهِ في ذلِكَ، وهذا مُتَّصِلُ بالصَّلاةِ نفسِهَا.

وجَاءَتِ السُّنَّةُ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالثَّلاثَةِ الصُّفُوفِ، وترجَمَ الإمامُ البُخَارِيُّ:

[الصَّفَّ والصَّفَيْنِ] كما في صَحِيْحِهِ، وأَوْرَدَ حديثَ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في صلاتِهِ معَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَلَى النَّجَاشِيِّ.

وأصلُ هذا الحديثِ فيهِ روايةُ النَّسَائِيِّ، حتى إِنَّ الإمامَ الْحافظَ ابنَ حَجَرٍ يقولُ كَأَنَّهُ يشيْرُ إليهَا، فإِنَّهَا جاءَتْ في البُخَارِيِّ بالشَّكِ، قَالَ: ((**فَكُنْتُ فِي الصَّفِّ الثَّانِي، أَوِ الأَوَّلِ**)).

وجاءَتْ روايةُ النَّسَائِيِّ بالْجَزْمِ: ((**أَنَّهُ كَانَ فِي الصَّفِّ الثَّانِي**)).

قَالُوا: إِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا نَزَلَ عليهِ الْوَحْيُ: أَنَّ النَّجَاشِيَّ تُوُفِّيَ، نَعَى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- النَّجَاشِيَّ، كَمَا في الصَّحِيْحَيْنِ من حديثِ أُمِّ الْمُؤمنِيْنَ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، وخَرَجَ بالصَّحَابَةِ إلى الْمُصَلَّى.

والْمُصَلَّى: بِحذَاءِ مَجْرَى وَادِي بُطْحَان، وموضعُهُ الآنَ (مَسْجِدُ الغَمَامَة) الذي يُسَمَّى بِـ(مَسْجِدِ الغَمَامَة)، هذا هو مُصَلَّى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- للعِيْدَيْنِ، كَانَ يَخْرُجُ إليهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- لِصَلاةِ الْعِيْدَيْنِ، فإِذَا أُطْلِقَ الْمُصَلَّى اِنْصَرَفَ إليهِ.

وقَالَ بعضُ العلماءِ: يُحتمَلُ أَنَّهُ الْمُصَلَّى الذي بَيْنَ الْمَسْجِدِ وبَيْنَ البَقِيْعِ.

وأيًّا مَا كَانَ فالْمُصَلَّى فَضَاءٌ.

قَالُوا: كونُ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يقولُ: ((**وَكُنْتُ فِي الصَّفِّ الثَّانِي**)) مع أَنَّهُ في الفضاءِ يَتَسِعُ لعَدَدٍ كبيْرٍ من الْمُصَلِّيْنَ، هو يُمكِنُ أَنْ يكونَ الصَّفُّ الواحدُ مستغرقًا، خَاصَّةً وأَنَّ العَدَدَ نَعَاهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، يُمكِنُ أَنْ يكونَ بِهِ الصَّفُّ الواحدُ في الفضاءِ الواسعِ الرَّحْبِ.

فقَالُوا: كونُهُ يكونُ في الصَّفِّ الثَّاني والثَّالِثِ حِرْصٌ من النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَلَى تَقْسِيْمِ الصَّحَابَةِ إلى الصُّفُوف في الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ، وهذا مَا رَاعَاهُ مَالِكٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كَمَا في حديثِنَا.

وظاهرُ حديثِنَا أَنَّهُ إِذَا صَلَّي عليهِ الثَّلاثَةُ الصُّفُوفُ أَنَّهُ قَدْ أَوْجَبَ، **وللعلماءِ في قولِهِ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**قَدْ أَوْجَبَ**)) **وَجْهَانِ**:

أَنَّهُ أَوْجَبَ الْجَنَّةَ، أي وَجَبَتْ لهُ الْجَنَّةُ، **وقِيْلَ**: وَجَبَتْ لهُ الْمَغْفِرَةُ بشفاعةِ إخوانِهِ المسلمينَ لهُ.

وهذا فضلٌ من اللهِ عظيمٌ.

وفيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ ينبغي عَلَى المسلمِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ وشهودِهَا، وأَنَّ هذا فيهِ خَيْرٌ كَثِيْرٌ.

وكَمَا وَرَدَتِ السُّنَّةُ بالصُّفُوفِ، قَالُوا: فهذه السُّنَّةَ الَّتِي معنَا أَنَّهُ جَزَّأَهُم ثلاثةَ صُفُوفٍ، قَالُوا: فيُستحبُّ ويُشرعُ عندَ قِلَّةِ العددِ أَنْ يُجَزِّئَ الْمُصَلِّيْنَ إلى الثلاثةِ الصُّفُوفِ.

وجاءَ في السُّنَّةِ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ الشفاعةَ تَنْبَنِي عَلَى العَدَدِ، وأَنَّهُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَلِّي عليهِ أُمَّةٌ مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله، ولا يشركُ باللهِ شيئًا إلا قُبِلَتْ شفاعتُهُم.

وهذا الحديثُ ثَبَتَ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ، وفيهِ روايةٌ عنِ ابنِ عَبَّاس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**أَنَّهُ لَمَّا تُوُفِّيَ ابنُهُ بِقُدَيْدٍ، أو بِعُسْفَانَ** -الشَّكُّ من الرَّاوي-، **تُوُفِّيَ لهُ ابنٌ بِقُدَيْدٍ أَوْ بِعُسْفَانَ، قَالَ لِمَوْلاهُ كُرَيْبٍ: اخْرُجْ وانظُرْ النَّاسَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَنَظَرْتُ فيهِم، فإِذَا هُم كَثِيْرٌ، فَدَخَلْتُ عليهِ، فقَالَ لِي: تقولُ: إِنَّهُم أَرْبَعُوْنَ؟ قُلْتُ: نَعَم، قَالَ: اخرُجُوا، فَأَخْرَجَهُ، فَصَلَّى عليهِ**))، ثُمَّ ذَكَرَ الْحديثَ، قَالُوا: هذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ العَدَدَ مُؤَثِّرٌ.

والأَوَّلُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِبْرَةَ بالصُّفُوفِ، وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْعَدَدِ.

وعن بعضِ أُمَّهَاتِ الْمُؤمنيْنَ -رضيَ اللهُ عنهُنَّ وأرضَاهنَّ أجمعينَ- ما يَدُلُّ أيضًا عَلَى العَدَدِ، وهو بقريبٍ من حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ، وأصلُهُ في الصَّحِيْحِ: ((**أَنَّهُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ**)) وقدْ فسَّرَتْ هذِهِ الأُمَّة بالأربعيْنَ، وهو موافقٌ لِمَا وَرَدَ في حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

وَأَيًّامَا كَانَ، فالْحديثَانِ لا تعارضَ بينَهُمَا، ولذلك يُعْتَبَرُ كُلُّ وَاحِدٍ منْهُمَا نُوْعٌ منِ فضلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنَّ اللهَ يَتَفَضَّلَ بالعددِ، فإِذَا بَلَغُوا أربعيْنَ وشَفَعُوا قُبِلَتْ شفاعتُهُم.

وقَالَ بعضُ العلماءِ: أَنَّهُ سُئِلَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عن ذَلِكَ، فَذَكَرَ الأربعيْنَ، فَعَدَدُ الأربعيْنَ جَاءَ جَوَابًا للسُّؤَالِ، وعندَ علماءِ الأصولِ: "**أَنَّهُ إِذَا جَاءَ النَّصُّ جَوَابًا للسُّؤَالِ لَمْ يُعْتَبَرْ مفهومُهُ** ".

وبناء عَلَى ذلكِ، لا يُقَالُ: إِنَّهُم إِذَا نَقَصُوا عن أربعيْنَ يكونُ الحكمُ مُخْتَلِفًا؛ لأَنَّ مفهومَ المخالفةِ لا يُعْتَبَرُ في جوابِ السُّؤَالِ، وهذا لَهُ مسلكٌ أُصُوليٌّ يَحتاجُ إلى بَحْثٍ وبيانٍ، ليسَ هذا موضعُهُ.

لكن إِذَا قلنا: إِنَّهُ جَوَابٌ لِسُؤَالٍ، كَمَا اختَارَهُ صَاحِبُ (الْمُفْهِم) -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّ فضلَ اللهِ واسعٌ، وقَالَ: إِنَّهُ لَرُبَّمَا لَوْ سُئِلَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عن أَقَلَّ من أربعيْنَ لأَجَابَ؛ لأَنَّهُ رُبَّمَا صَلَّى الجماعةُ وهم أقلُّ من الأربعيْنَ، فشَفَعَ أحدُهُم، وكَانَ مستجابَ الدُّعَاءِ، فتُقْبَلُ شفاعتُهُ، وهذا عَلَى كُلِّ حَالٍ لا يُعارِضُ الأصلَ ؛ لأَنَّ وُرُوْدَ العَدَدِ في الشَّرْعِ والتَّحْدِيْدِ في الشَّرْعِ مُعْتَبَرٌ، وإِذَا كَانَ مُعْتَبَرًا فمعناهُ أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ هذا العَدَدُ قُبِلَتِ الشَّفَاعَةُ سَوَاءً كَانَ فيهم مستجابُ الدُّعاءِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وأَمَّا إِذَا وُجِدَ فيهِم

مستجابُ الدُّعَاءِ، فلو صَلَّى عليهِ شخصٌ واحدٌ مستجابُ الدُّعَاءِ فلا إشكالَ أَنَّهُ قَدْ فَازَ إِذَا استجابَ اللهُ دُعَاءَهُ.

فإِذًا كلامُ العلماءِ والأئمةِ بتحديدِ العددِ ووُرُودِ الشَّرعِ بِهِ مُعْتَبَرٌ، والأصلُ التَّقَيُّدُ بِمَا وَرَدَ؛ لأَنَّ هذا من عِلْمِ الغيبِ الذي لا يَجوزُ فيهِ الاجتهادُ، ولا مجالَ فيهِ للاجتهادِ. أَمَّا مَا ذَكَرَهُ العلماءُ من فضلِ اللهِ: فهذِهِ أُصُولٌ عامَّةٌ لا يُشَكُّ فيهَا، ولا يُخْتَلَفُ فيهَا. وفيهِ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ كثرةِ العددِ، ولذلك قَالَ بعضُ العلماءِ: إِنَّهُ إِذَا لَمْ يُخْشَ عَلَى الْمَيِّتِ أَنْ يَتَغَيَّرَ، وأَخَّرَهُ قليلاً لزيادةِ العددِ، فإِنَّ السُّنَّةَ تُقَوِّي ذلِكَ، وتَدَلُّ عليهِ، أَنَّ الْمُسْلِمَ يَطْلُبُ لِمَيِّتِهِ العددَ الأكثرَ والأكبرَ.

لكن بشرطِ: أَنْ لا يُؤَثِّرَ عَلَى الْجَنَازَةِ.

وهذا قدْ يُخَالِفُ ظاهرَ قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ**))، وقولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا يَحِلُّ لِجِيْفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تُحْبَسَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِهِ**))، ولذلكَ الاحتياطُ بالمبادرةِ بالْجَنَازَة أولى وأَحْرَى.

وكثرةُ العددِ فيهَا بِشَارَةُ خَيْرٍ؛ لأَنَّ الإنسانَ إِذَا كَانَ عَلَى صَلاحٍ، أَوْ كَانَ عَلَى خَلَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ والنَّاسُ تُحِبُّهُ، كَانَ هذا من عاجلِ الْبُشْرَى لَهُ، ولذلك قَالَ الإمامُ أحمدُ مقَالَتَهُ الْمَشْهُوْرَةَ: (بَيْنَنَا وبَيْنَكُم الْجَنَائِزُ).

فلذلكَ إِذَا تُوُفِّيَ أهلُ الفضلِ، وتُوُفِّيَ أهلُ العلمِ، وتُوُفِّيَ أهلُ الْخَيْرِ عَلَى الإسلامِ والمسلميْنَ عَظُمَ بلاؤُهُم في المسلميْنَ وكَثُرَ شُهُوْدُ النَّاسِ لِجَنَائِزِهِم ودعائِهِم لَهُم وترحُّمِهِم عليهِم، فهذا كُلُّهُ من الْخَيْرِ الذي جَعَلَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لعبادِهِ.

وفيه دَلِيلٌ عَلَى فضلِ الأعمالِ الصَّالِحَةِ.

وفيه دَلِيلٌ عَلَى فضلِ الْخَيْرِ، وأَنَّهُ لا يَجُرُّ للإنسانِ في دينِهِ ودنياهُ وآخرتِهِ إلا خَيْرًا، ولذلكَ يَحْرِصُ الإنسانُ في هذهِ الدُّنيا عَلَى أَنْ يَزْرَعَ مَا يُرْضِي اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- حَتَّى يَجْنِيَ الفوزَ العظيمَ، وحُسْنَ العاقبةِ من اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فلا أفضلَ ولا أكملَ من المعاملةِ معَ اللهِ -جَلَّ جَلالُهُ-، وهي التِّجَارَةُ الرَّابِحَةُ، فمنْ أَصْلَحَ وأَفْلَحَ وأَنْجَحَ جَمَعَ اللهُ القُلُوبَ عَلَى حُبِّهِ، وسَاقَهُم لهُ حَيًّا ومَيِّتًا بصالِحِ الدَّعَواتِ.

مَنْ جَادَ سَادَ وَأَحْيَا الْعَالَمُوْنَ لَهُ بَدِيْعَ حَمْدٍ بِمَدْحِ الْفِعْلِ مُتَّصَلِ

وكَمْ منْ أقوامٍ ماتُوا وهُم في النَّاس أحياءُ، وكَمْ منْ أناسٍ أمواتٌ وهم في الناسِ أحياءُ. فنَسأَلُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ وعظمتِهِ وكمالِهِ أَنْ يَسُوْقَنَا إلى الْخَيْرِ، وأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هكذا رواهُ غَيْرُ واحدٍ عن مُحَمَّدِ بنِ إسحاقَ.

وروى إبراهيمُ بنُ سعدٍ عن مُحَمَّدِ بنِ إسحاقَ هذا الحديثَ، وأَدْخَلَ بيْنَ مرثدٍ ومالكِ بنِ هبيرةَ رجُلاً. وروايةُ هؤلاءِ أَصَحُّ عِندَنا.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا ابنُ أبي عمرَ حدثنا عبدُالوهَّابِ الثَّقفيُّ عن أيُّوبَ وحَدَّثنا أحمَدُ بنُ منيعٍ وعَليُّ بنُ حجرٍ قَالا حدثنا إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ عن أيُّوبَ عن أبي قِلابةَ عن عبدِاللهِ بنِ يزيدَ -رضيعٍ كَانَ لعائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عن عائشةَ عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((لا يَمُوْتُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ، فَتُصَلِّي عَلَيهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ يَبْلُغُونَ أَنْ يَكُونُوا مِئَةً فَيَشْفَعُوا لَهُ، إلا شُفِّعُوا فِيْهِ))

وقَالَ عَليٌّ بن حجر في حديثِهِ: **((مئةً فَمَا فَوْقَهَا))**.

قَالَ الإمامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ عائشةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقد أوقفَهُ بعضهُم، ولَمْ يرفعْهُ.

الشَّرْح:

هذا نوعٌ ثانٍ من العَدَدِ، وهو الْمِئَةُ، والأربعونَ أَقَلُّ من الْمِئَةِ، فدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمِئَةَ لا مفهومَ لهُ وأَنَّهُم إنْ قَلُّوا عن الْمِئَةِ حتَّى بَلَغُوا أربعيْنَ، فإِنَّهُم تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُم، فمَا بَيْنَ الْمِئَةِ والأربعيْنَ دَالٌّ النَّصُّ عَلَى أَنَّهُم تُقْبَلُ شفاعتُهُم.

وفي قولِهِ: **((أُمَّةٌ))** أي جَمَاعَة، والشَّفَاعَةِ: أي سؤالُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- الْمَغْفِرَةَ، أَنْ يَشْفَعُوا للمِيِّتِ وهذا صادِقٌ بدعائِهِم لهُ بالْمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ، وأَنْ يُفْسِحَ لهُ في قبْرِهِ، وأَنْ يُنَوِّرَ لهُ فيهِ، ونَحْوِ ذلكَ من الأدعيةِ الواردةِ، هذِهِ الشَّفَاعَةُ؛ لأَنَّهُم **يَشْفَعُونَ** لهُ بمغفرةِ الذُّنوبِ، **ويَشْفَعُونَ** لهُ برفعةِ الدَّرَجَةِ، **ويَشْفَعُون** لهُ بِأَنْ يَقِيَهُ عذابَ النَّارِ، وأَنْ يَقِيَهُ عذابَ القبْرِ.

وهذه من جَوَامعِ كَلِمِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-؛ لأَنَّ هذهِ الأربعةَ الأمورَ، هي أفضلِ مَا ينبغي أَنْ يَحْرِصَ عليهِ المسلمُ في دعائِهِ للأمواتِ:

أَنْ يَسْأَلَ اللهِ للمَيِّتِ الْمغفرةَ، **وأَنْ يَسْأَلَ** لهُ رفعةَ الدَّرَجَةِ، ومضاعفةَ الْحَسَنَةِ، **وأَنْ يَسْأَلَ لَهُ ثَالِثًا**: أَنْ يَقِيَهُ اللهُ من عذابِ القَبْرِ، وأَنْ يَقِيَهُ اللهُ من عذابِ النَّارِ.

وإِذَا دَعَا الإنسانُ لنفسِهِ يدعو بِهَذِهِ الدَّعَواتِ:

فَيَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُطَهِّرَهُ من الذُّنُوبِ والْخَطَايَا، وأَنْ يُنَقِّيَهُ منهَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ، كَمَا صَحَّ عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حينمَا كَانَ يستفتحُ الصَّلاةَ في حديثِ أبي هريرةَ في صحيحِ مُسْلِمٍ عنهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

وَيَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِيْذَهُ من عذابِ القبْرِ، ومن عذابِ النَّارِ، كَمَا ثَبَتَ في حديثِ التَّعَوُّذُ بالأربعِ الكلماتِ في آخرِ الصَّلاةِ، وفي دُبُرِ الصَّلاةِ.

وَيَسْأَلُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- رفعةَ الدَّرَجَةِ.

ورفعةُ الدَّرَجَةِ: أَنْ يسألَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يَتَقَبَّلَ منهُ العملَ الصالِحَ، كَمَا حَكَى اللهُ عن الْخَلِيلِ وابنِهِ إسماعيلَ: **{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**.

وإِذَا تَقَبَّلَ اللهُ من العبدِ العملَ، فقدْ فَازَ فوزًا عظيمًا؛ لأَنَّهُ لا يَتَقَبَّلُ إلا من الْمُتَّقِيْنَ، ولذلكَ قَالَ ابنُ عُمَرَ: (لو أَعلمُ أَنَّ لي صلاةً واحدةً مقبولةً لاتَّكَلْتُ؛ إنَّ اللهَ يقُولُ: **{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ}**.

فهذِهِ من السَّعَادَةِ العظيمةِ أَنَّ الإنسانَ تُرْفَعُ درجتُهُ، وترفعُ درجتُهُ بسؤالِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يَقْبَلَ منهُ العملَ الصالِحَ؛ لأَنَّهُ إِذَا قُبِلَ العملُ رُفِعَتْ درجةُ العبدِ، وإِذَا قُبِلَ العملُ نَالَ العبدُ بركةَ ذَلِكَ العملِ من الصَّلاحِ والفلاحِ والحفظِ والتوفيقِ للخيْرِ، فمَا من عَبْدٍ تَقَبَّلَ اللهُ منهُ طاعةً إلا يَسَّرَهُ للْيُسْرَى، قَلَّ أو كَثُرَ، فمنْ تَقَرَّبَ إلى اللهِ بالطَّاعةِ العظيمةِ يَسَّرَهُ اللهُ للْيُسْرَى تيسيْرًا عظيمًا، وفَتَحَ في وجْهِهِ من أبوابِ الْخَيْرِ مَا لَمْ يَخْطُرْ لهُ عَلَى بالٍ، ولذلكَ لو بَرَّ والديهِ، وأَخْلَصَ في بِرِّهِ فتَقَبَّلَ اللهُ منهُ بِرَّهُ تَقَبَّلَ اللهُ منهُ أعمالَهُ الصالِحَةَ: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ}**، فَجَمَعَ اللهُ بَيْنَ الأمرينِ العظيمينِ، وهما: غُفْرَان الذَّنْبِ، فقَالَ: **{نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ}**، ورفعة الدَّرجةِ: **{نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا}**.

ومَا الفائدةُ إِذَا كَانَ الإنسانُ يصومُ النَّهَارَ، ويقومُ الليلَ، ولا يَقْبَلُ اللهُ عملَهُ؟! إِمَّا بقطيعةِ رَحِمٍ، أو عقوقِ والدين، أو فُحْشٍ أو خَنَى، أو سَبٍّ للمسلمين، أو شتمِهِم، أو سوءِ ظَنٍّ بِهِم، أو غَيْرِ ذلكَ مِمَّا يَحولُ بيْنَ العبدِ وبيْنَ القبولِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

فهذِهِ الأمورُ التي يشفعُ فيها الْحَيُّ للمَيِّتِ أَنْ يسألَ اللهَ هذه الأربعَ التي هي جَوَامِعُ دعائِهِ -عَلَيهِ

الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- للأمواتِ.

وظاهر قوله: ((**إلا شُفِّعُوا فِيْهِ**)) إنْ قُبِلَتْ الشَّفَاعَةُ بِحَيْثُ استُجِيْبَتْ هذه الدَّعواتُ، فهذا خَيْرٌ عظيمٌ، أَنْ يُسْتَجَابَ للمَيِّتِ، فلا يُعَذَّبُ في قَبْرِهِ، ولا يُعَذَّبُ في حَشْرِهِ ونَشْرِهِ، ولا يُعَذَّبُ في آخرتِهِ؛ لأَنَّهُ وُقِيَ عذابَ النَّارِ وعذابَ القبْرِ، ثُمَّ يُغْسَلُ من ذنوبِهِ وخطاياهُ، فيُنَقَّى كَمَا يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ، فماذَا بَقِيَ؟ ثُمَّ تُرْفَعُ لهُ الدَّرَجَةُ، فيَتَقَبَّلُ اللهُ منهُ أعمالَهُ الصالِحَةَ، ويُثِيْبُهُ عليهَا، فنسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ أَنْ يَجْعَلَنَا وإيَّاكُم ذَلِكَ الرَّجُلَ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَّةِ الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وعِنْدَ غُرُوْبِهَا]**

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا هَنَّادٌ حدثنا وكيعٌ عن موسى بنِ عَليٍّ بنِ رباحٍ عن أبِيهِ عن عقبةَ بنِ عامرٍ الْجُهَنِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: ((**ثَلاثُ سَاعَاتٍ كَانَ رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّيَ فِيْهِنَّ، أَوْ نَقْبُرَ فِيْهِنَّ مَوْتَانَا: حِيْنَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ بَازِغَةً حتَّى تَرْتَفِعَ، وحِيْنَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيْرَةِ حَتَّى تَمِيْلَ، وحِيْنَ تَضَيَّفُ للغُرُوبِ حَتَّى تَغْرُبَ**))

قَالَ الإمامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

ترجمَ الإمامُ الحافظُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ التَّرجَمَةِ، والتي تتعلقُ بتوقيتِ الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ ، وكَمَا يُمْنَعُ من الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَة في هذا الوقتِ، كذلكَ يُمْنَعُ من قَبْرِ الْمَوْتَى في هذهِ السَّاعَاتِ الثلاثِ؛ لأَنَّهُ: ((**ثَلاثُ سَاعَاتٍ نُهِيْنَا أَنْ نُصَلِّي فِيْهِنَّ، أَوْ نَقْبُرَ مَوْتَانَا**))، ولذلكَ هذهِ الثَّلاثُ السَّاعاتُ مَنْهِيٌّ عن الصَّلاةِ فيهَا.

وعَبَّرَ الْمُصَنِّفُ هنا بـ(**الْكَرَاهِيَّةِ**)، والكراهيةُ هنا كراهيةُ تَحْرِيْمٍ، وليستْ بكراهيةِ تَنْزِيْهٍ؛ لأَنَّ النَّهيَ الأصلُ فيه أَنَّهُ للتحريمِ.

ونُهِيَ عن الصَّلاةِ عندَ طلوعِ الشَّمْسِ، وعندَ غروبِهَا ((**حِيْنَ تَتَضَيَّفُ**)): أي تَمِيْلُ، و"ضَافَ فُلانٌ فُلانًا": إذا مَالَ إليهِ من أجلِ أَنْ يُضِيْفَهُ.

((**وحِيْنَ يَقُوْمُ قَائِمُ الظَّهَيْرَةِ**)): وهو منتصفُ النَّهارِ.

السَّاعَةُ الأُوْلَى: وهي عندَ طلوعِ الشَّمْسِ، **والسَّاعَةُ الثَّانِيَةُ**: وهي عند غروبِهَا.

بَيَّنَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الْعِلَّةَ في تحريمِ الصَّلاةِ فيهِمَا، وهي: أَنَّ عَبَدَةَ الشَّمْسِ والمشركيْنَ يسجدُون للشمسِ عند طلوعِهَا وقتَ الطلوعِ، ويسجدُون لَها وقتَ الغروبِ، وفي الحقيقةِ هُم لا يسجدُون للشمسِ، ولكنَّهم يسجدُون للشَّيطانِ، فيأتي الشيطانُ بيْنَ الشَّمْسِ وبينَهُم، ويكونُ قَرْنَاهُ متوسطًا بِحيثُ تغيبُ الشَّمْسُ، لو أَنَّ ناظرًا ينظرُ مِنْ هؤلاءِ، لَغَابَتِ الشمسُ بيْنَ قرنيهِ.

وهذا معنى قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**فإِنَّهَا تَغِيْبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، فَيُسْجَدُ لَهَا**))، فهم يعبدُون الشمسَ، ويختارُون هذين الوقتَيْنِ لشركِهِم باللهِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، فنُهِيْنَا عن ذلكِ؛ لِئَلا نُشَابِهَ أهلَ الشِّركِ وعَبَدَةِ الشمسِ، وصَانَ اللهُ أهلَ التَّوحيدِ والإيمانِ عن مُشَاكَلَةِ ومشابَهَةِ عَبَدَةِ الأوثانِ، وطَهَّرَهُم من هذا الرِّجْسِ، ومن هذِهِ الأدرانِ.

فمُنِعُوا من الصَّلاةِ: في هذا الوقتِ.

ومُنِعُوا من الصَّلاةِ: بعدَ صلاةِ العصرِ إلى الغروبِ، وبعدَ صلاةِ الفجرِ إلى الطلوعِ؛ صِيْانَةً لِهذَا لأَنَّ هناكَ الأصلَ، وهناكَ حِمًى يُحْمِي من الوقوعِ في الأصلِ، وقدْ قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى**))، فإذا نُهِي عن هذا الوقتِ، فإِنَّ هذا الوقتَ يَحتاجُ إلى حِمًى، وهذا الْحِمَى هو ما بيْنَ صلاةِ الفجرِ إلى أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، وما بيْنَ صلاةِ العصرِ إلى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ، ولذلكَ لا يُصَلَّى في هذا الوقتِ.

وثَبَتَ في الصَّحِيْحَيْنِ من حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ ما يَدُلُّ عَلَى ذلكَ من قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا صَلاةَ بعدَ صلاةِ الفجرِ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ولا صَلاةَ بعدَ صلاةِ العصرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ**))، وهو مثلُ قولِهِ ونَهْيِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- هُنَا عن الصَّلاةِ أثناءَ الطلوعِ، وأثناءَ الغُروبِ.

ولذلك مذهبُ الجمهورِ التزامُ هذا الأصلِ، أَنَّهُ لا تُصَلَّى فيهِ النافلةُ، ولو كَانَت سَبَبِيَّةً، وقدْ تَقَدَّمَ بَسْطُ هذه الْمَسْأَلَةِ وبيانُها.

فالنَّهيُ في هذينِ الوقتيْنِ بَيَّنَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- سَبَبَهُ، وقَالَ: ((**فَإِذَا طَلَعَتْ فَأَمْسِكْ عَنِ الصَّلاةِ؛ فإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِيْنَئِذٍ يُسْجَدُ لَهَا**))، ثم قَالَ له: ((**فَإِذَا صَلَّيْتَ العصرَ**

فَأَمْسِكْ عَنِ الصَّلاةِ حَتَّى تَغْرُبَ؛ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، فَيَسْجُدُ لَهَا)) فَجَعَل الْحِمَى والأصلَ حكمَهُمَا واحِدًا، وصَرَّحَ بذلكِ كَمَا في الحديثِ الصَّحِيْحِ.

وأَمَّا انتصافُ النَّهارِ: فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بَيَّنَ فيهِ الْعِلَّةَ، وهو أَنَّهُ سَاعَةٌ لا رَحْمَةَ فيهَا. ولذلك قَالُوا: إِنَّهَا لَيْسَتْ بِسَاعَةِ رَحْمَةٍ.

وثَبَتَ في الحديثِ الصَّحَيْحِ عنهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أَنَّهُ قَالَ: ((**إِنَّهَا سَاعَةٌ تُسَجَّرُ فِيْهَا أَبْوَابُ جَهَنَّمَ**)) -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، ونُهِيَ عن الصَّلاةِ في هذا الوقت.

وهذا مَا صَرَّحَ بِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ونُهِيَ عن دَفْنِ الْمَوْتَى فيهَا، فلا يُصَلَّى عَلَى الْمَيِّتِ، ولا يُدْفَنُ في هذِهِ السَّاعَةِ، وهذِهِ هي الثَّلاثُ السَّاعَاتُ.

والْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- اعتَنَى ببيانِ هذا البابِ الْمُهِمِّ، وهو أَشْبَهُ ببابِ مواقيتِ الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ فَكَمَا أَنَّ الصَّلاةَ الْمفروضةَ لَهَا مواقيتُ، كذلكَ الصَّلاةُ عَلَى الْجَنَازَةِ لَهَا ميقاتٌ، ولا يُصَلَّى عليهَا في هذا الوقت.

وأَمَّا مَا بَيْنَ صَلاةِ الصُّبْحِ إِلى قَبْلَ الطُّلُوعِ، ومَا بَيْنَ صَلاةِ العصرِ إلى الغُرُوبِ فاستُثْنِيَتِ الصَّلاةُ من عمومِ قولِهِ: ((**لا صَلاةَ**))؛ لأَنَّهُ لا ركوعَ فيهَا ولا سجودَ؛ لأَنَّ الصَّلاةَ عَلَى الْجَنَازَةِ لَيْسَ فيهَا ركوعٌ ولا سجودٌ، ولَمَّا كَانَتْ هذِهِ الصَّلاةُ لا ركوعَ فيهَا ولا سجودَ تَسَامَحَ العلماءُ؛ لأَنَّ الْعِلَّةَ غَيْرُ موجودةٍ، كَمَا لو إِذَا صَلَّى الصَّلاةَ الْمعهودةَ فريضةً أو نافلةً، وهي مشتملةٌ عَلَى الركوعِ والسجودِ، فَحِيْنَئِذٍ تَحْصُلُ الْمُشابَهَةُ.

وأَمَّا صَلاةُ الْجَنَازَةِ فَلا مُشَابَهَةَ فيهَا؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فيهَا ركوعٌ ولا سجودٌ، فتُصَلَّى بعدَ صلاةِ العصرِ وبعدَ صلاةِ الصبحِ، مَا لَمْ يَضِقِ الوقتُ، عَلَى التفصيلِ الذي ذَكَرْنَاهُ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: والعملُ عَلَى هذا عِندَ بعضِ أهلِ العلمِ من أصحابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغيْرِهِم يكرهونَ الصَّلاةَ عَلَى الْجَنَازَةِ في هذهِ الساعاتِ.

وقَالَ ابنُ المباركِ: معنى هذا الحديثِ ((**أَنْ نقبُرَ فيهِنَّ موتانا**)) يَعْني الصَّلاةَ عَلَى الْجَنَازَة، وكَرِهَ الصَّلاةَ عَلَى الْجَنَازَةِ عِندَ طُلوعِ الشَّمسِ، وعِندَ غُرُوبِها، وإذَا انتَصَفَ النَّهارُ حتَّى تزُولَ الشَّمسُ وهوَ قولُ أحمَدَ، وإسحاقَ.

وقَالَ الشَّافِعِيُّ: لا بأْسَ في الصلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ في السَّاعاتِ التي تُكْرَهُ فيهنَّ الصَّلاةُ.

الشَّرْح:

كَمَا تَقَدَّمَ، أَمَّا قولُهُ: ((**أَنْ نَقْبُرَ فِيْهِنَّ مَوْتَانَا**)) عَلَى أنَّ الْمُرادَ بهِ الصَّلاةُ، الحقيقةُ الصَّلاةُ مرادُهُ بقولِهِ: ((**ثَلاثُ سَاعَاتٍ نَهَانَا أَنْ نُصَلِّيَ فِيْهِنَّ**))، فهذا عامٌّ يشملُ الصَّلاةَ عَلَى الْجَنَازَةِ، فلا حَاجَةَ أَنْ نأخُذَ بقولِهِ: ((**أَنْ نَقْبُرَ**))؛ لأَنَّنَا إذَا أَخَذْنَا بقولِهِ: ((**أَنْ نَقْبُرَ**)) صَارَ مَجَازًا، والأصلُ حَمْلُ اللفظِ عَلَى الحقيقةِ، أَنَّ قولَهُ: ((**ثَلاثُ سَاعَاتٍ نَهَانَا رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَنْ نُصَلِّي فِيْهِنَّ**)) كَمَا لفظُ الصَّحيحِ أيضًا، هذا عَامٌّ شاملٌ للصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ، وصلاةِ النَّافلةِ.

ثُمَّ قولُهُ بعدَ ذلكَ: ((**أَنْ نَقْبُرَ فِيْهِنَّ مَوْتَانَا**)) الْمُرادُ به قَبْرُ الْمَيِّتِ، فلو صُلِّيَ عَلَى الْمَيِّتِ بعدَ صلاةِ العصرِ، أو بعدَ صلاةِ الفجرِ، ثُمَّ مَا بَلَغُوا موضعَ الدَّفْنِ إلا عَلَى غروبِ الشَّمْسِ، أو عَلَى طلوعِهَا، فإنَّهُم يَقِفُونَ وينتظرُونَ حتَّى تغربَ الشَّمسُ، وحتَّى تطلُعَ؛ تَحقيقًا لِهَذا النَّهي من رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، هذا معنى الحديثِ، أَنَّهُ إذَا وَافَقَ بلوغُهُم إلى القبْرِ ساعةَ الطُّلُوعِ، أو ساعةَ الغروبِ، أو ساعةَ انتصافِ النَّهارِ، فإنَّ عليهم أَنْ يُمْسِكُوا.

وقد سَبَقَ بيانُ ساعةِ قَائِمِ الظَّهَيْرَةِ، وبَيَّنَّا مَا مَعْنَى قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**حِيْنَ يَقُوْمُ قَائِمُ الظَّهَيْرَةِ**)) وأَنَّ الْمُرَادَ بهِ وُقُوفُ الظِّلِّ، وبَيَّنَّا الْمُرَادَ بالحديثِ، وفَصَّلْنَا فيهِ في الْمَوَاقِيْتِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابَ مَا جَاءَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الأَطْفَالِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا بشرُ بنُ آدَمَ بنِ بنتِ أَزْهَرَ السَّمَّانُ البصري حدثنا إسماعيلُ بنُ سعيدِ بنِ عُبَيدِ اللهِ حدثنا أبي عن زيادِ بنِ جُبَيرِ بنِ حَيَّةَ عن أبيهِ عن المُغِيْرَةِ بنِ شُعْبَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**الرَّاكِبُ خَلْفَ الجَنَازَة، والمَاشِي حَيثُ شَاءَ مِنها، والطِّفْلُ يُصَلَّى عَلَيهِ**)).

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

ترجمَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهَذِهِ التَّرجَمَةِ، والَّتِي تتعلقُ بحكمِ الصَّلاةِ عَلَى الأَطْفَالِ.

وهذِهِ الْمَسْأَلَةُ فيهَا نوعُ تفصيلٍ حَاصِلُهُ:

أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا وَلَدَتْ:

فَإِمَّا أَنْ تَلِدَ الطِّفْلَ حَيًّا، وإِمَّا أَنْ تَلِدَهُ مَيِّتًا، **والْحَالَةُ الثَّانِيَةُ**: أَنْ تُسْقِطَ الطِّفْلَ قَبْلَ تَمَامِهِ، فلا تَحْصُلُ الوِلادَةُ الطَّبِيْعِيَّةُ.

فالأصلُ عندَنَا أَنَّ الْمَرْأَةَ لَهَا حَالَتَانِ:

الْحَالَةُ الأُوْلَى: أَنْ تُسْقِطَ مَا فِي بَطْنِهَا، **والْحَالَةُ الثَّانِيَةُ**: أَنْ تُخْرِجَهُ خُرُوْجًا طَبِيْعِيًّا.

فَإِذَا أَخْرَجَتْهُ بعدَ تَمامِ مُدَّةِ الْحَمْلِ وكمالِهَا لا يخلو:

إِمَّا أَنْ يَخْرُجَ مَيِّتًا، وإِمَّا أَنْ يَخْرُجَ حَيًّا.

فَأَمَّا بالنِّسبةِ للحَالَةِ الأُوْلَى: وهي إِذَا أَسْقَطَتِ الْمَرْأَةُ مَا فِي بَطْنِهَا قبلَ تَمامِ مُدَّةِ الْحَمْلِ، **فلا يَخْلُو من صُورَتَيْنِ:**

الصُّورَةُ الأَوْلَى: أَنْ يكونَ إسقاطُها قبلَ تَمامِ الْخِلْقَةِ، أي قبلَ أربعةِ أشهرٍ، فتُسْقِطُ قطعةً من الدَّمِ مُتَجَلِّطَةً، ولَيْسَ فيهَا صُورةُ الْخِلْقَةُ، ولا فيهَا صُورةُ الإنسانِ.

فَإِذَا حَصَلَ الإسقاطُ قبلَ الأربعةِ الأشهرِ: فهذَا بالإجْماعِ لا يُغَسَّلُ، ولا يُصَلَّى عَلَيْه، ولا يأخُذُ حكمَ الطِّفْلِ.

أَنَّ مَا كَانَ قبلَ مُدَّةِ التَّخَلُّقِ، وهو قبلَ الأربعةِ الأشهرِ، فَإِنَّهُ لا خَلافَ بَيْنَ أهلِ العِلْمِ كَمَا يُعَبِّرُ

بعضُهم، وفَسَّرَهُ بعضُهم كَالْعَيْنِيّ وغَيْرِهِ أَنَّهُ بالإجْماعِ لا يأخُذُ حكمَ الْمُتَخَلِّقِ. وهَكَذَا لو أَنَّ الأطباءَ استَخْرَجُوهُ بالعمليَّاتِ الْجِرَاحِيَّةِ القَيْصَرِيَّةِ، فإذَا حَصَلَ قبلَ الأربعةِ الأشهرِ، لأَنَّهُ يُجْمَعُ خَلْقُ الإنسانِ في بَطْنِ أُمِّهِ أربعيْنَ يومًا نُطْفَةً، ثُمَّ يكونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يكونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فيهِ الرُّوْحَ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بأربعةِ كلماتٍ التي فيهَا أَجَلُ الإنسانِ، وعُمْرُهُ، وعملُهُ، وشَقِيٌّ هو أَوْ سَعِيْدٌ.

فَهَذَا الْحَدِيثُ حديثُ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في الصَّحِيْحِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّخَلُّقَ لا يكونُ قبلَ الأربعةِ الأشهرِ، وأَنَّ نَفْخَ الرُّوْحِ لا يكونُ قبلَ الأربعةِ الأشهرِ.

وبناءً عَلَى ذلكَ، فمَا كَانَ قبلَ الأربعةِ الأشهرِ فإنَّهُ لا يأخُذُ حكمَ الْمُتَخَلِّقِ.

وهَكَذَا لو أَسْقَطَتْ هذِهِ القطعةَ من الدَّمِ، وجَرَى معَهَا دَمٌ، فَإِنَّنَا لا نُعطيهَا حكمَ النِّفاسِ، ولا تأخُذُ حكمَ الْمَرْأَةِ النُّفُسَاءِ.

ولو سَأَلَتْكَ امْرَأَةٌ: أَنَّهَا حَمَلَتْ، ثُمَّ أَسْقَطَتْ لشهرٍ، أو شهريْنَ، أو ثلاثةِ شهورٍ، ثُمَّ جَرَى معَهَا الدُّمُ؟

تقُولُ: هذا لَيْسَ بِدَمِ نِفَاسٍ، ولا يأخُذُ حكمَ دمِ النِّفَاسِ.

أَمَّا إذَا استَتَمَّ مُدَّةَ التَّخَلُّقِ، وأَتَمَّ الأربعةِ الأشهرِ، فإنَّهُ يُنْفَخُ فيهِ الرُّوْحُ، عَلَى ظاهرِ الحديثِ.

ثُمَّ إذَا نُفِخَتْ فيهِ الرُّوْحُ عَلَى ظَاهِرِ الحديثِ: إمَّا أَنْ تَبْقَى، **وإمَّا** أَنْ تَزُوْلَ.

ومن هنا، مذهبُ طائفةٍ من السَّلَفِ أَنَّهُ بعدَ الأربعةِ الأشهرِ سواءً خَرَجَ حَيًّا، أو خَرَجَ مَيِّتًا أَنَّهُ يُغَسَّلُ، ويُكَفَّنُ، ويُصَلَّى عليهِ، **لِمَاذَا؟**

لأَنَّ النَّصَّ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ؛ لأَنَّهُ يُنْفَخُ فيهِ الرُّوْحُ، فإذَا خَرَجَ مَيِّتًا فمعناهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، والصَّلاةُ تُشْرَعُ لِمَنْ مَاتَ.

أَمَّا قَبْلَ التَّخَلُّقِ: فإنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ حَيَاةٌ حَتَّى يُقَالَ: إنَّهُ مَيِّتٌ، ثُمَّ يُقَالَ بالصَّلاةِ عَلَى الْمَيِّتِ، وهذا لَهُ فِقْهٌ، ولذلك إذَا لَمْ يُوْصَفْ بكونِهِ مَيِّتًا لَمْ يُصَلَّ عليهِ، ولذلكَ الشَّهِيْدُ، قَالَ تعالى: **{وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً}**، فلا يُصَلَّى عَلَى الشَّهَيْدِ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ بِمَيِّتٍ، وأَمَّا غَيْرُهُ فإنَّهُ مَيِّتٌ.

ومن هنا، هَذِهِ القطعةُ من اللَّحْمِ لَمْ تَكُنْ حَيَّةً حَتَّى تُوصفَ بعدَ ذلكَ بكونِهَا مَيِّتَةً، صَحِيْحٌ أَنَّ شَكْلَهَا وحالَهَا كَحَالِ الْمَيِّتِ.

وعَلَى هذا، فإنَّ مَا كَانَ قبلَ الأربعةِ الأشهرِ: فإنَّهُ كَمَا ذَكَرْنَا بالإجْماعِ لا يُصَلَّى عليهِ.

وأَمَّا مَا بعدَ الأربعةِ الأشهرِ **فمذهبُ طائفةٍ من السَّلَفِ**، وهو قولُ الإمامِ أحمدَ -رَحِمَهُ اللهُ- في المشهور عنهُ، وعليهِ الْمذهبُ، أَنَّهُ بعدَ الأربعةِ الأشهرِ يُعَامَلُ معاملةَ الْحَيِّ، فيُغَسَّلُ، ويُكَفَّنُ ويُصَلَّى عليهِ.

وهذا القولُ مَأْثُورٌ عن ابنِ سيْرينَ، وكذلكَ -أيضًا- قَالَ به سعيدُ بنُ الْمَسَيَّبِ وإسحاقُ بنُ راهويه، وهو أحدُ قولَيِ الإمامِ الشافعيِّ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-، أَنَّهُ يُغَسَّلُ، ويُكَفَّنُ، ويُصَلَّى عليهِ، ووَافَقَ الإمامَ أحمدَ داودُ الظَّاهرِيُّ أيضًا، فقَالَ بقوله: إِنَّهُ بعدَ الأربعةِ الأشهرِ يأخُذُ حكمَ الْحَيِّ.

أمَّا بالنِّسبة للجمهورِ فقَالُوا: إِنَّهُ إِذَا أَسْقَطَتْهُ بعدَ الأربعةِ الأشهرِ، أو أَخْرَجَتْهُ بعدَ الأربعةِ الأشهرِ مَيِّتًا، فإِنَّهُ لا يُغَسَّلُ، ولا يأخُذُ حكمَ الْمَيِّتِ، ولا تَجْرِي عليهِ الأحكامُ، فلا يُصَلَّى عليهِ.

هذا مذهبُ الجمهورِ، وهو أَحدُ قولَيِ الإمامِ الشَّافِعِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ-.

بَقِيَ السُّؤَالُ: لو أَنَّهَا أَخْرَجَتْهُ حَيًّا.

وهذِهِ الْحَيَاةُ تُعْرَفُ بـ(**الاسْتِهْلالِ**) أَنْ يَصْرُخَ، أو يَخْتَلِجَ ويُحَرِّكُ أعضاءَهُ، أو يكونُ فيهِ صفةُ الْحَيِّ، كالرَّضَاعَةِ، لو أَخَذَتْهُ امرَأَةٌ فأَرْضَعَتْهُ فالْتَقَمَ ثَدْيَهَا ورَضَعَ، قَالُوا: هذِهِ كُلُّهَا صِفَاتُ الْحَيَاةِ.

وهذا الاستهلالُ تَتَرَتَّبُ عليهِ الأحكامُ الشَّرعيّةُ، التي منها: ثُبُوتُ الْمِيْرَاثِ؛ لأَنَّهُ يُشْتَرَطُ ثُبُوتُ حَيَاةِ الوَارِثِ، فَتَثْبُتُ بالاستهلالِ، أَنْ يَسْتَهِلَّ صَارِخًا، أَنْ يَصْرُخَ، أو يَحْصُلَ منهُ ما يَدُلُّ عَلَى الْحَيَاةِ، وقَدْ فَصَّلْنَا هذا في (دورةِ الْمَوَارِيْثِ في الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ).

فالْمقصود من هذا، أَنَّهُ إِذَا خَرَجَ حَيًّا، ثُمَّ مَاتَ:

فالْجمهورُ عَلَى أَنَّهُ يُصَلَّى عليهِ.

وقَالَ سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وهذا القولُ يُحْكَى عن بعضِ أصحابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كَسَمُرَةَ بنِ جُنْدَبٍ وسُوَيْدِ بنِ غَفْلَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وأرضَاهما-، قَالا: إِنَّهُ لا يُصَلَّى عليهِ مَا لَمْ يَبْلُغْ.

وعن عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّهُ إِذَا صَلَّى يعني لِسَبْعِ سِنِيْنَ أُمِرَ بالصَّلاةِ فَصَلَّى، ثُمَّ مَاتَ يُعَامَلُ معامَلَةَ الكَبِيْرِ، فيُغَسَّلُ، ويُكَفَّنُ، ويُصَلَّى عليهِ.

والجمهورُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا خَرَجَ واسْتَهَلَّ صَارِخًا، وَوُجِدَ فيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى حياتِهِ أَنَّهُ يُغَسَّلُ ويُكَفَّنُ ويُصَلَّى عَلَيهِ.

والحقيقةُ مذهبُ مَنْ يقُولُ: إِنَّ الْعِبْرَةَ بالأربعةِ الأشهرِ **هو أقوى الْمَذَاهِب**؛ لظاهرِ السُّنَّةِ التي دَلَّت عَلَى وجودِ الْحَيَاةِ بتمامِ هذِهِ الْمُدَّةِ، فإِذَا دَلَّت عَلَى ثبوتِهَا، فإِنَّهُ إِذَا مَاتَ بعدَ ذَلِكَ شُرِعَتِ الصَّلاةُ

عليهِ.

وأَمَّا اسْتِشْكَالُ: كيفَ يُصَلَّى عَلَى الطِّفْل، ونَحْنُ لا نَعْلَمُ إِسلامَهُ وموتَهُ؟

فهذا راجعٌ إلى أَصْلَيْنِ:

الأصلُ الأولُ: قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الصَّحِيْحِ: ((**كُلُّ مَوْلُوْدٍ يُوْلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ**))، فهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأصلَ في المولودِ أَنَّهُ عَلَى الفطرةِ.

والفطرةُ المرادُ بِهَا: الدِّيْنُ، **قِيْلَ**: هو الإسلامُ والتَّوحيدُ، وهو ما يَدُلُّ عليهِ السِّيَاقُ.

وبناءً عَلَى ذلك، فهو عَلَى الأصلِ، وهو الفطرةُ، فيُشْرَعُ الصَّلاةُ عليهِ كسائرِ المسلمينَ.

والأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا يكونُ منهُ، كَمَا بَيَّنَ اللهُ خَبَرَ ذلكَ في قصةِ موسى -عَلَيهِ السَّلامُ- مع الْخِضْرِ.

وأَمَّا الأصلُ الثَّانِي: وهو النَّظَرِيُّ.

الأَوَّلُ: وهو الأَصْلُ الأَثَرِيُّ، كَمَا ذَكَرْنَا من الْحَديثِ، وعِلْمِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِمَا يَؤُولُ إليهِ أَمْرُهُ. **بقي الأصلُ النَّظَرِيُّ**:

الأصلُ النَّظَرِيُّ: يقومُ عَلَى أَنَّهُ وإِنْ كَانَ هذا الطِّفْلُ لَمْ يَحْصُلْ منهُ شَيْءٌ من الإسلامِ والإيمانِ وشرائعِ الإسلامِ، وما يُحكَمُ بِهِ بكونِهِ مسلمًا، إلا أَنَّ هذا مُقَدَّرٌ وجودُهُ فيهِ.

ولذلكَ ذَكَرَ العلماءُ من أمثلةِ التَّقديرِ: هذِهِ الْمَسْأَلَةَ، أَنَّ أَطْفَالَ المسلميْنَ وأطفالَ غَيْرِ المسلميْنَ **في أصحِّ القولَيْنِ** أَنَّهُم يُقَدَّرُ فيهم الإسلامُ والإيمانِ.

ولذلك قَالُوا: **التَّقْدِيْرُ**: "**تَنْزِيْلُ الْمَعْدُوْمِ مَنْزِلَةَ الْمَوْجُوْدِ** ".

ولذلكَ لو أَنَّ إنسانًا كَانَ عَلَى الإسلامِ، ثُمَّ ضُرِبَ عَلَى رأسِهِ، فارتُجَّ دماغُهُ، فأصبحَ مَجْنُونًا، **نَقُولُ**: هذا مُسْلِمٌ، وإِنْ كَانَ بعدَ جنونِهِ لا يَفْعَلُ أفعالَ المسلميْنَ؛ لأَنَّهُ قدْ سَقَطَ عنهُ التَّكْلِيْفُ، لكن نُزِّلَ الْمَعْدُوْمُ مَنْزِلَةَ الْمَوْجُوْدِ؛ استِصْحَابًا للأصلِ الذي فيهِ، ولذلكَ لَمَّا كَانَ هذا الأصلُ فيهِ الفطرةُ والإسلامُ، يُسْتَصْحَبُ هذا الأصلُ، ويُقَدَّرُ فيهِ، ويُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الْمُسْلِمِ والذي بَلَغَ وعَمِلَ بشَّرائعِ الإسلامِ، فيُكَفَّنُ، ويُغَسَّلُ، ويُصَلَّى عليهِ.

ظاهرُ هذا الحديثِ بَيَّنَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيهِ أَنَّهُ يُصَلَّى عَلَى الطِّفْلِ.

وأَمَّا مسألةُ التَّقَدُّمِ عَلَى الْجَنَازَة والتَّأَخُّرِ في الرَّاكِبِ والْمَاشِي: فقدْ تَقَدَّمَ بيانُهَا في بابِهِ، وبَيَّنَّا مسألةَ السَّيْرِ أمامَ الْجَنَازَةِ وخلْفَهَا.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، رَوَاه إسرائِيلُ وغَيْرُ وَاحِدٍ عن سَعيدِ بنِ عُبَيدِالله، والعملُ عليهِ عِندَ بعضِ أهلِ العِلمِ مِنْ أصحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغيْرِهِم، قَالُوا: يُصَلَّى عَلَى الطِّفْلِ وإِنْ لَمْ يَسْتَهِلَّ بعدَ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ خُلِقَ، وهو قولُ أحمَدَ، وإسحاقَ.

الشَّرْح:

((**بَعْدَ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ خُلِقَ**)): وهذا بعدَ أربعةِ أشهرٍ كَمَا ذَكَرْنَا.

وهو قولُ الإمامِ أحمدَ وإسحاقَ بنِ راهويه، وقَالَ به بعضُ السَّلَفِ كسعيدِ بنِ الْمَسَيَّبِ، وهو أَحَدُ قولَيِ الشَّافِعِيِّ كَمَا تَقَدَّمَ، وهو مذهبُ داودَ الظَّاهِرِيِّ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ مَا جَاءَ فِي تَرْكِ الصَّلاةِ عَلَى الْجَنِيْنِ حَتَّى يَسْتَهِلَّ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أبو عمَّارٍ الحسينُ بنُ حُريثٍ حدثنا مُحَمَّدُ بنُ يزيدَ الواسطيّ عن إسماعيلَ بنِ مسلمٍ المكي عن أبي الزُّبيرِ عن جابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: **((الطِّفْلُ لا يُصَلَّى عليهِ، ولا يَرِثُ، ولا يُوْرَثُ حَتَّى يَسْتَهِلَّ))**

قَالَ الإمامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حديثٌ قد اضْطَرَبَ النَّاسُ فيهِ، فرواهُ بعضُهُمْ عن أبي الزُّبيرِ عن جابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مرفوعاً.

وروى أشعثُ بنُ سوَّارٍ وغيْرُ واحدٍ عن أبي الزُّبيرِ عن جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- موقوفًا.

ورَوَى محمدُ بنُ إسحاقَ عن عَطَاءَ بنِ رَبَاحٍ عن جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- موقوفًا، وكَأنَّ هذا أصحُّ من الحديثِ الْمَرفوعِ.

الشَّرْح:

هذا الحديث سيأتي -إِنْ شَاءَ اللهُ- تفصيلُ أحكامِهِ، وهو يشتَمِلُ عَلَى مسألتَيْنِ:

الْمَسْأَلَةُ الأُوْلَى: مَا يَتَعَلَّقُ بالصَّلاةِ عَلَى الأَطْفَالِ، وقدْ تَقَدَّمَتْ.

والْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:وهي مَسْأَلَةُ مِيْرَاثِ الطِّفْلِ، وهذه سيأتي بيانُها -إِنْ شَاءَ اللهُ- في (كتاب الْمَوَارِيْثِ).

ونسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ أَنْ يرزُقَنَا العملَ الصالِحَ، والعلمَ النَّافعَ.

وآخرُ دعوانا أنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِيْنَ، وصَلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا محمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصحبِهِ.

رقم الدَّرس ٤٢٣

الأربعاء ١٢-٦-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الْمَيِّتِ فِي الْمَسْجِدِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا عَليُّ بنُ حُجرٍ أخبرنا عبدُ العزيزِ بنُ مُحَمَّدٍ عن عبدِالواحدِ بنِ حمزةَ عن عبَّادِ بنِ عبدِاللهِ بنِ الزُّبيرِ عن عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالت: ((**صَلَّى رَسُوْلُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **على سُهَيْلِ بْنِ بَيْضَاءِ فِي الْمَسْجِد**)).

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حديثٌ حسنٌ.

الشَّرْح:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام الأتمانِ الأكملانِ على أشرف الأنبياء والمرسلين وخير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على سبيله ونَهجه، واستَنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ:

فقد ترجم الإمامُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذه الترجمة، والتي تتعلقُ بالصلاةِ على الْمَيِّتِ داخلَ الْمَسْجِد. **ومناسبةُ هذا الباب لِمَا قبله من الأبوابِ**: واضحةٌ، حيث إنَّه يرد السؤال عند بيان صفة الصلاة على الْمَيِّتِ، وبعد بيانِها أو قبل بيانِها عن موضع الصلاة، وهل يجوز أَنْ يُصَلَّى على الْجَنَائِزِ في المساجدِ أو لا يجوزُ؟

وهذه الْمَسْأَلَةُ وقعَ الخلافُ فيها في الصَّدرِ الأولَ، **واستقرَّ الْخِلافُ فيها على قولَيْن**:

فَذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- إلى جواز الصلاة على الْمَوْتى في الْمَسَاجِدِ، وأنَّه لا حرجَ ولا بأسَ بإدخالِ الْجَنَائِزِ إلى الْمَسْجِد والصلاةِ عليها فيه.

وهذا القول هو مذهب الشافعية والحنابلة، وهو قول أمِّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- وطائفة من أصحاب النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- و-رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-.

وَذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إلى الْمَنْعِ من ذلك، وهو مذهب الحنفية والمالكية:

إلا أَنَّ الْحَنَفِيَّةَ: بَنَوا ذلك على الأصلِ عندهم أنَّ الْمَوْتَ يقتضي التنجيس.

وَأَمَّا بَالنِّسْبَةِ لِلمَالِكِيَّةِ: فالمنع عندهم مبنيٌّ على أصل سَدِّ الذَّرَائِعِ، وهو خشيةُ أَنْ يَخْرَجَ من الْمَيِّت شيءٌ، فيؤذي الْمَسْجِد، وقالوا: إنَّ فتحَ الباب في هذا الأمر يُضِرُّ بالْمَسَاجِدِ، فبنوه على أصلِ مَالِكٍ

المشهور من قاعدة: "**سَدِّ الذَّرَائِع**".

وَاسْتَدَلَّ الْقَائِلُونَ بِالْجَوَازِ: بِهذه السنةِ الصحيحةِ من حديثِ أمِّ المؤمنين عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-.

وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيْثِ: أنَّ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لما تُوُفِّيَ أرسلَتْ أمُّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- إلى أهلِهِ، وقالَتْ لَهم: مُرُّوا به علينا في الْمَسْجِد حتى نُصَلِّيَ عليه، فلما أُدْخِل الْمَسْجِد صَلَّتْ عليه أمُّ المؤمنين عائشة ومعها أمهات المؤمنين -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ أَجْمَعِيْنَ-، فلما انتهتِ الصلاةُ أَنْكَرَ بعضُ الناس ذلك، وبَلَغَ الْخَبَرُ أمَّ المؤمنين عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- فقالت: (**أَلا تَعْجَبُون مِنَ النَّاسِ يُنْكِرُونَ هَذَا، فَوَاللهِ مَا صَلَّى رَسُوْلُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **عَلَى سُهَيْلِ بْنِ بَيْضَاءَ إلا في الْمَسْجِد**).

وهذا الحديث اسْتَدَلُّوا به، حيثُ إنَّه نَصٌّ في موضع النزاع.

حَاصِلُهُ: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صَلَّى على الْجَنَازَةِ داخلَ الْمَسْجِد، ولو كانتِ الصلاةُ على الْجَنَائِزِ داخلَ الْمَسْجِد ممنوعةً ما فَعَلَ ذلك رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فاستدَلَّتْ أمُّ المؤمنين -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- بِهذا الأصلِ من السنةِ.

ثُمَّ كونُها تعملُ بالحديثِ بعدَ وفاةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- هَذِهِ مَزِيَّةٌ وَمِيْزَةٌ أُخْرَى تَدُلُّ على أَنَّ الْحديثَ غَيْرُ منسوخٍ؛ لأنَّها عَمِلَتْ به بعدَ وفاةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وَمِنْ أَدِلَّةِ أَصْحَابِ هَذَا الْقَوْلِ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- صَلَّى على أبي بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في الْمَسْجِد، كما رَوَى ابنُ أبي شيبةَ في مصنفه، والأثرُ ثابتٌ، حيثُ صَلَّى عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- على أبي بكرٍ في الْمَسْجِد، وصَلَّى صُهَيْبٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- على عُمَرَ في الْمَسْجِد.

وبناءً على ذلك، يكون الأمرُ كالإجماعِ؛ لأنَّ الصحابةَ لَمْ ينكروا ذلك، فدَلَّ على أَنَّ الصلاةَ على الْجَنَائِزِ في الْمَسْجِد سُنَّةٌ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالْحديثِ المرفوعِ عن أمِّ المؤمنين عائشةَ، وأنَّها سُنَّةٌ غَيْرُ منسوخةٍ، وأنَّ الصحابةَ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- لَمْ ينكرُوها.

وكل هذا يَدُلُّ على أنَّه يجوزُ ويشرعُ إدخالُ الْجَنَائِز في الْمَسْجِد، وأنَّه لا بأسَ ولا حرجَ في ذلك.

وَأَمَّا الَّذِيْنَ قَالُوا بِالْمَنْعِ فَاسْتَدَلُّوا: بِحديثِ أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عند أبي داودَ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**مَنْ صَلَّى عَلَى الْجَنَازَةِ فِي الْمَسْجِد فَلا شَيْءَ لَهُ**)).

وَوَجْهُ الدِّلالَةِ من هذا الْحديث: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بَيَّنَ أَنَّ مَنْ صَلَّى على الْجَنَازَةِ في

الْمَسْجِد مَحْرُوْمٌ من الأجر، وهذا نوعٌ من العقوبة، والعقوبة لا تأتي إلا على فِعْلٍ مُحَرَّمٍ، أو تركِ واجبٍ، فدَلَّ على أَنَّ الصلاةَ على الْجَنَائِزِ في الْمَسَاجِدِ مَمْنُوْعَةٌ، ولا تجوزُ.

وكذلك قالوا: إِنَّهُ تَخْشَى -كما يقول المالكية- يقولون: إِنَّهُ يُخْشَى أَنْ يَخْرُجَ من الْمَيِّت شَيْءٌ فيؤذي الْمَسْجِدَ.

ثُمَّ أَكَّدُوا مَذْهَبَهُمْ: بِمَا ثبتَ في الصحيحِ من حديثِ أُمِّ المؤمنين عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في قصة النجاشيِّ، وهي في الصحيحِ، وفي بعضِ الرواياتِ: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **لَمَّا نَعَى النجاشي للصحابةِ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- **قام إلى الْمُصَلَّى، فصَلَّى على النجاشيِّ في الْمُصَلَّى**))، قالوا: فدَلَّ على أَنَّ الْجَنَائِزَ لا يُصَلَّى عليها في الْمَسْجِد، وإِنَّما يُصَلَّى عليها في الْمُصَلَّى.

فهذه حاصلُ أدلةِ القولين، وحججِ الطائفتين.

والذي يترجَّحُ في نظري -وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ- هو القول بِجواز الصلاة على الْمَيِّتِ في الْمَسْجِد، وذلك لِمَا يلي:

أولاً: لصحةِ ما ذَكَرُوهُ من هذه السنةِ الصحيحةِ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ولعملِ الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- بِهذه السنةِ، وعدمِ وجودِ الْمُخَالِفِ لِعُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وصُهَيْبٍ في صلاتِهما على الْجَنَازَةِ في الْمَسْجِد، خَاصَّةً وأَنَّ عُمَرَ من الْخُلفاء الراشدينَ الْمَهْدَيِّيْنَ الْمَأْمُوْرِ باتِّباعِ سنتهم.

ثُمَّ ما ذَكَرُوهُ من حديث أبي هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **يُجَاب عنه من وجهيْن:**

الوجه الأول: ضعف إسناده، فإِنَّ الْحديثَ ضعيفٌ.

وهذا الوجه فيه أَمْرٌ نُحِبُّ أَنْ نُنَبِّهَ عَلَيْهِ: وهو ما ذَكَرَهُ بعضُ العلماء والحفاظ أَنَّ الحديثَ في النسخِ الْمَحْفُوْظَةِ من سننِ أبي داودَ الموصولةِ بالسماعِ عن أبي داودَ، وفيها: ((**مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فِي الْمَسْجِد فَلا شَيْءَ عَلَيْهِ**)) هذا هو اللفظ الموجود، وليس اللفظ: ((**فَلا شَيْءَ لَهُ**)).

وبناءً على ذلك، لو فُرِضَ أَنَّ الْحديثَ حَسَنٌ، فإِنَّ الْحديثَ لا يُعَارِضُ؛ لأَنَّ قولَهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**فَلا شَيْءَ عَلَيْهِ**)) يَدُلُّ على صحةِ مذهبِ من قالَ بجوازِ الصلاةِ على الجنازةِ.

وبناءً على ذلك، يكون مُعَزِّزًا مُقَوِّيًا لِمَذهب من يقولُ بالجواز، وليسَ معارضًا.

وأَمَّا الوجه الثاني: فإِنَّنَا نقولُ: لو أَنَّ الْحديثَ حَسَنٌ، فإِنَّهُ يُجَاب عن متنه بأَنْ قولَهُ: ((**مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَلا شَيْءَ لَهُ**))، أَنَّ قولَهُ: ((**فَلا شَيْءَ لَهُ**)) اللام بِمَعْنَى: (عَلَى)، أي فلا شَيْءَ عَلَيْهِ،

وهذا مَعْنًى مَعْرُوْفٌ في لِسَانِ العرب أَنْ تأتيَ اللامُ بِمَعْنَى (عَلَى).

وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ فِي التَّنْزِيْلِ:قولُهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: **{إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}** أي فعليها.

وبناءً على ذلك، يكون قولُهُ: ((**فَلا شَيْءَ لَهُ**)) أي: فَلا شَيْءَ عَلَيْهِ.

وبِهذا تجتمعُ النصوصُ في الدِّلالةِ على جوازِ الصلاةِ على الْمَيِّتِ في الْمَسْجِدِ.

وأَمَّا ما ذَكَرُوهُ من الصلاة على النجاشيِّ في الْمُصَلَّى **فيُجَابُ من وجهيْن**:

الوجه الأول: عَامٌّ لِهذا الْمذهب، حيثُ يقالُ بأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إِنَّما صَلَّى على النجاشيِّ في الْمُصَلَّى؛ لأنَّ الصلاةَ في الْمُصَلَّى يَتَدَاعَى لَها الناسُ، وهذا أبلغُ في معرفةِ الناسِ بالمعجزةِ التي كانَتْ لرسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فخُرُوجُهُم إلى الْمُصَلَّى يَجعلُ الأمرَ ظاهرًا معروفًا، وَحِيْنَئِذٍ تشتهرُ المعجزةُ من إطلاعِ اللهِ لنبيهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على موتِ النجاشيِّ، وبَيْنَهُ البحور، وبَيْنَهُ وبَيْنَ أرض النجاشي المسافةُ الشاسعةُ، وعلى هذا الوجه يكونُ اختيارُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- للمُصَلَّى لا يقتضي أَنَّه تَارِكٌ للصلاة في الْمَسْجِد لِحرمة الصلاة على الْجَنَائِز فيه.

وَكَذَلِكَ -أَيْضًا- يُجَابُ مِنْ وَجْهٍ ثَانٍ: بأَنَّهم قالوا -أعني المالكية-، وهم بعضُ من يقولوا بِهذا القول قالوا: إِنَّه يُخْشَى منه تلويثُ الْمَسْجِد، والْمُصَلَّى له حرمةٌ كحرمةِ الْمَسْجِد من جهةِ التلويثِ، ولذلك قالت أُمُّ عطيةَ -كما في الصحيحِ- حينما بَيَّنَتْ صلاةَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- للعيدين، قالت: ((**أَمَرَنَا رَسُوْلُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَنْ نُخْرِجَ الْعَوَاتِقَ وَذَوَاتِ الْخُدُوْرِ وَالْحُيَّضِ، وقال: أَمَّا الْحُيَّضُ فَلْيَعْتَزِلْنَ الْمُصَلَّى**)) وفي لفظٍ: ((**فَلْيَعْتَزِلْنَ الصَّلاةَ**)).

فقولُهُ: ((**فَلْيَعْتَزِلْنَ الْمُصَلَّى**)) يَدُلُّ على أَنَّهُنَّ أُمِرْنَ بذلك؛ صيانةً للمُصَلَّى مِمَّا يكون من الحائض، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ الْمُصَلَّى والْمَسْجِدَ في هذا الْمَعْنَى سَوَاء.

وبناءً على ذلك، لا وَجْهَ لِمَا ذَكَرُوهُ، أعني المالكية -رَحِمَهُمُ اللهُ- في تعليلهم.

وعلى كُلِّ حَالٍ، فقد ثَبَتَتِ السنة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالصلاة على الْمَيِّت في الْمَسْجِد، **وهو أسعدُ القوليْن وأرجحُهما وأولاهُمَا بالصواب في نظري** -والعلمُ عندَ اللهِ تعالى-.

بينت أُمُّ المؤمنين -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صَلَّى على سُهَيْلٍ في الْمَسْجِدِ، وهذا يَدُلُّ على ما ذَكَرْنَاهُ من جوازِ الصلاةِ على الْمَيِّتِ داخلَ الْمَسْجِدِ.

والعملُ على هذا عِندَ بعضِ أهلِ العلمِ.
قال الشَّافِعِيُّ: قال مالكٌ: لا يُصلَّى على الْمَيِّت في الْمَسْجِد.
وقال الشَّافِعِيُّ: يصلَّى على الْمَيِّت في الْمَسْجِدِ، واحتجَّ بِهذا الحديثِ.

الشَّرْح:

((**قَالَ الشَّافِعِيُّ، قَالَ مَالِكٌ: لا يُصَلَّى عَلَى الْمَيِّتِ فِي الْمَسْجِدِ**)): هذا من توثيقِ نسبةِ القولِ الأئمةُ الأربعةُ تَرِدُ عنهم أقوالٌ وروايات، والإمامُ الشافعيُّ تلميذُ الإمامِ مالكٍ، ولذلك قال قولتَهُ المشهورةَ: (رَضِيْتُ بِمَالِكٍ حُجَّةً بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ)، وقال: (إِذَا ذُكِرَ الْعُلَمَاءُ فَمَالِكٌ النَّجْمُ)؛ لأَنَّه تَتَلْمَذَ عليه، وقرأ عليه الْمُوَطَّأَ -رَحِمَهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-.

فَإِذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ: ((**قَالَ مَالِكٌ**))، فمعناه أَنَّ قَولَ مالكٍ مُوَثَّقٌ، فإذا حكى عن مَالِكٍ في كتابه أَنَّه يقولُ، فَحِيْنَئِذٍ يَصِحُّ نسبةُ هذا القول إلى الإمام مَالِكٍ.

ثُمَّ إذا نُسِبَ القولُ إلى الإمام مالكٍ يَعْتَنِي طالبُ العلم بعد ذلك بالرجوعِ إلى كتبِ المالكيةِ في بيانِ ما استقرَّ عليه مذهبُهُ؛ لأَنَّه رُبَّمَا يكونُ قولاً للإمام مالكٍ في أَوَّلِ الأمر، فيحفظُه الإمام الشافعيُّ عنه، ثُمَّ يرجعُ عنه الإمامُ مالكٌ بعد ذلك، وقد يكونُ قولاً للإمام، ثُمَّ يخالفُهُ أصحابُهُ لأصولٍ اعتبَرُوها، فتكونُ الفتوى أو المعتمد في الفتوى على خِلافِ قولِ الإمامِ.

وهذا أَمْرٌ يَحصُلُ فيه الْخَلْطُ عند المتأخرين، أَنَّهم لا يُحسنون التفريق بين نسبة القول للإمام، ونسبة المذهب، فالقولُ شَيْءٌ، والْمذهب شَيْءٌ آخَرُ؛ لأَنَّه رُبَّمَا يكونُ عن الإمامِ مالكٍ في الْمَسْأَلَة ثلاثة أقوالٍ أو أربعة أقوالٍ، والْمذهب على أَحَدِهَا، فلا يكفي أَنْ يُنْسَبَ القولُ إلى مَالِكٍ، ولذلك يُخْطِئُ المتأخرون، فبعضُ مَنْ يشتغلُ بالخلاف بَيْنَ الْمَذاهب، ويأتي إلى الأقوال، يقول: (القولُ الأولُ قال به المالكيةُ)، ثُمَّ يعزو هذا القولَ إلى الاستذكارِ مثلاً، وفي الاستذكار: (قَالَ مَالِكٌ)، وهذا غَيْرُ صَحِيْحٍ، هناك فَرْقٌ بَيْنَ نسبةِ القولِ إلى الإمامِ، ونسبةِ القولِ إلى مذهبِ الإمامِ فإذا قيل: (مذهب المالكية) شَيْءٌ، و(قَالَ بِهِ مَالِكٌ) شَيْءٌ، وإذا قيل: (مذهب الحنفية) شَيْءٌ وإذا قيل: (قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ) شَيْءٌ آخَرُ.

ولذلك ينبغي أَنْ يَنْتَبِهَ طلبةُ العلم لِمثل هذه الْمَسْأَلَةِ، ومن هنا لا ينبغي لطالب العلم أَنْ يعزوَ الأقوالَ إلى الْمذاهبِ أو إلى أئمتِها إلا بتحريرٍ وتوثيقٍ، وهو الرجوعِ إلى الكتب.

هناك كُتُبٌ تَعْتَنِي بالْخلاف بنسبةِ الْخلافِ إلى الأئمةِ كـ(الاستذكار) و(الْمُحَلَّى) ونحوها من مطولات الْخلاف.

وهناك كُتُبٌ تَعْتَنِي بنسبةِ الْخلافِ إلى الْمذاهبِ.

فينبغي التفريق بَيْنَ النوعيْن من هذه الْمصادر، وعلى طالب العلم أَنْ يَتَحَرَّى الصوابَ.

فَنَسَبَ الإمامُ الشافعيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- إلى الإمامِ مَالِكٍ قولَهُ أَنَّه لا يجوزُ أَنْ يُصَلَّى على الْجَنَائِزِ في الْمَسْجِدِ، وهذا هو قولُهُ.

وبَيَّنَ أصحابُهُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أَنَّه بَنَى ذَلِكَ على أصلِ سدِّ الذرائع؛ لأَنَّه خَشِيَ أَنَّ الناسَ يتوسعون في هذا، ثُمَّ إذا توسَّعُوا فيه فإِنَّه لا يؤمنُ أَنْ يَخْرُجَ من الْمَيِّت شَيْءٌ فيُؤْذِي الْمَسْجِدِ. وعلى كُلِّ حَالٍ، فالسنةُ دَالَّةٌ على الجواز، وإذا دَلَّت السنةُ على الجوازِ، فقاعدة سَدِّ الذرائعِ لا تَقْوَى على معارضةِ السنةِ، وإِنَّمَا يُقَالُ بقاعدة سَدِّ الذرائعِ في بعضِ الأحوالِ تخصيصًا، وفي بعض العصورِ وبعض الأزمنةِ وبعض الأمكنةِ، هذه لَهَا عَمَلٌ في غَيْرِ هذا الْموضع.

والذي يَتَرَجَّحُ مذهبُ مَنْ قال بالجواز، ولَعَلَّ مَالِكًا لَمْ يبلغْهُ حديثُ عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-.

يقولُ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ أَيْنَ يَقُوْمُ الإِمَامُ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا عبدُاللهِ بنُ منيرٍ عن سعيدِ بنِ عامرٍ عن هَمَّامٍ عن أبي غالبٍ قال: "صَلَّيتُ مع أنسِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- على جنازةِ رجلٍ، فقامَ حِيَالَ رأسهِ، ثُمَّ جاءوا بِجنازةِ امرأةٍ من قريشٍ فقالوا: يا أبا حمزةَ، صلِّ عليها، فقامَ حِيَالَ وسطِ السَّريرِ، فقالَ لهُ العلاءُ بنُ زيادٍ: هكذا رأيتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قامَ على الْجَنَازَةِ مقامكَ مِنها ومن الرَّجُلِ مقامكَ منهُ؟ قال: نعمْ، فلمَّا فرَغَ قالَ: احفظوا".

قَالَ الإِمْامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن سَمُرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قَالَ الإِمْامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ أنسٍ حديثٌ حسنٌ.

الشرح:

ترجم الإمامُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذهِ الترجمةِ، والتي تتعلقُ بمقامِ الإمامِ من الْجنازةِ إذا صَلَّى عليها، وهذه الْمَسْأَلَةُ من الْمسائلِ التي وقع الْخلافُ فيها بَيْنَ العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ-: أين يقفُ الإمامُ إذا صَلَّى على الْجَنَازَةِ؟

وجُمْهُوْرُ الْعُلَمَاءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- من الْخَلَفِ والسَّلَفِ على أَنَّ الْموقف مُعَيَّنٌ، بِمَعْنَى أَنَّه إذا صَلَّى على الْجَنَازَةِ فإنَّه يَتَعَيَّنُ عليه أَنْ يَقِفَ بِمَكانٍ مُعَيَّنٍ، سواءً للذُّكُورِ أو للإناث.

وذَهَبَ بعضُ السَّلَفِ إلى أَنَّ الإمامَ يقفُ حيثُ شَاءَ، وهذا مَأْثُوْرٌ عن الْحَسَنِ البصريِّ -رَحِمَهُ اللهُ-، قَالَ حُمَيْدُ الطويلُ -رَحِمَهُ اللهُ-: (صَلَّيْتُ وَرَاءَ الْحَسَنِ عَلَى جَنَائِزَ لا تُحْصَى مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، فَرَأَيْتُهُ لا يُبَالِي أَيْنَ يَقِفُ عِنْدَ رَأْسِ الْجَنَازَةِ، أَوْ صَدْرِهَا، أَوْ عَجِزِهَا).

وهذا يَدُلُّ على أَنَّ الأمرَ عنده على السِّعَةِ، وأَنَّهُ يَقِفُ حيثُ شَاءَ.

وجُمهور العلماء والأئمة، ومنهم الأئمة الأربعة -رَحِمَهُمُ اللهُ- أَنَّهُ لا بُدَّ من التَّعْيين في موقف الإمامِ على الْجَنَازَةِ.

فَاخْتَارَ الإِمَامُ أَبُو حَنِيْفَةَ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّه يقفُ في وسَطِ الْجَنَازَةِ، وهذا القولُ مَرْوِيٌّ عن عبدِ الله ابنِ مسعودٍ من أصحابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- و-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ أَجْمَعِيْنَ-، وهو قولُ إبراهيم النخعي، وعطاء بن أبي رباح، قالوا: إِنَّه يقفُ في وَسَطِ الْجَنَازَةِ.

وَذَهَبَ الإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ- إلى أَنَّه يقفُ عِنْدَ رَأْسِهِ.

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إلى التفريقِ، فقالُوا:إِنَّهُ يقفُ عِنْدَ رَأْسِ الرَّجُلِ، وعِنْدَ عجيزةِ الْمَرْأَةِ أَوْ وَسَطِ الْمَرْأَةِ، وهذا الْمذهب هو مذهب الشافعية والْحنابلة، وهو إحدى الروايات المشهورة عن الإمام أحمد -رِضَيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-.

وَاسْتَدَلَّ الذين قالُوا: إِنَّهُ يُفَصِّلُ بِالْوُقُوْفِ: بِهَذا الحديث الذي معنا، حيثُ دَلَّ بالتفريق بَيْنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ.

وَعَلَّلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ ذَلِكَ بِأَنَّ فتنةَ الرَّجُل في صدرِهِ، ولذلك كان الْمقام عند أعلاه، وفتنة المرأة في فرجِها، فكان الْمقام في وسطها.

وَعَلَّلَ الْحَنَفِيَّةُ الوقوفَ عند الصدرِ والوسطِ بأَنَّهُ موضعُ القلبِ، وهو موضعُ الإيمانِ.

وَأَيًّامَا كَانَ، كُلُّ هذه التعليلات لا وَجْهَ لَهَا، ولا عِبْرَةَ بِهَا؛ لأَنَّها تحتاجُ إلى دليلٍ يَدُلُّ على أَنَّ هذا الوقوف لِهَذِهِ الْعِلَّةِ، ولا دليلَ؛ لأَنَّ هذه الأمور أشبهُ بالتعبد منها بِمَعْقُوْلِ الْمَعْنَى، ولذلك الإمساكُ عن الخوضِ في عِلَّةِ ذلك وسببِ ذلك هو أفضلُ وأولى.

وَأَيًّامَا كَانَ، فَإِنَّ **أَسْعَدُ هَذِهِ الأقوال وأقواها وأولاها بالصواب** القول بالتفريق، وهي روايةٌ عن الإمام أبي حنيفة -رَحِمَهُ اللهُ- اختارها الإمام الطحاوي وغَيْرُهُ من أصحابه، كالقاضي أبو يوسف إبراهيم بن يعقوب الأنصاريّ، قالوا: إِنَّهَا أشبهُ بالأثرِ والْمَرْوِيِّ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وبناءً على ذلك، فَإِنَّ القولَ الراجحَ هو ما دَلَّ عليه هذا الْحديث، أَنَّهُ يُفَرَّقُ بَيْنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ في مقامِ الإمامِ عند صلاتِهِ على جنائزِهِم.

((صَلَّيتُ مع أنسِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **على جنازةِ رجلٍ، فقامَ حِيَالَ رأسهِ))**:

((قَامَ حِيَالَ رَأْسِهِ)): وهذا يَدُلُّ على أَنَّ مقامَه في أعلى البدن من جهة الرأس، مقابلاً لرأس الرَّجُلِ الذَّكَرِ.

((ثُمَّ جاءوا بِجنازةِ امرأةٍ من قريشٍ، فقالوا: يا أبا حَمْزَةَ، صلِّ عليها، فقامَ حِيَالَ وسطِ السَّريرِ))،

((يَا أَبَا حَمْزَةَ)): كنية أنس بن مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

((فَقَامَ فِي وَسَطِهَا)): ويُؤَكِّدُ هذا حديثُ سَمُرَةَ بن جُنْدَب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في صحيح مُسْلِمٍ، حينما تُوُفِّيَتْ أُمُّ كَعْبٍ وهي نفساءُ، فقام النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في وَسَطِهَا، فهذا يَدُلُّ على أَنَّ المقامَ من المرأة يكون في الوسط، وهو مذهب من ذكرنا.

والحنفيةُ أَخَذُوا بِهذا الْحديثِ على الْمذهب بأَنَّهُ أَصْلٌ عَامٌّ أَنَّهُ يقوم في وسطِ الرجلِ والمرأة؛ بناءً على هذا الْحديثِ ولَمْ يفرِّقُوا بين الرجلِ والمرأةِ.

((**فقالَ لهُ العلاءُ بنُ زيادٍ: هكذا رأيتُ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قامَ على الْجَنَازَةِ مقامكَ مِنها، ومن الرَّجُلِ مقامكَ منهُ؟ قال: نعمْ**)): هذا السؤال يَدُلُّ على حِرْصِ السَّلَفِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- من التابعين حينما صَحِبُوا الصَّحَابَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- فكانوا إذا رَأَوا أَمْرًا من الصحابيّ يسألونه، هل هذا الذي فعله، وهل هذا الذي قالَه، هل من هدي النَّبِيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟ وهل رَأَى رسولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يفعل ذلك؟ وقد تَكَرَّرَ هذا.

وَمِنْهُ: حديثُ مُحَمَّدِ بن سِيْرِيْنَ -رَحِمَهُ اللهُ- قال: ((**خَرَجْنَا إِلى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ حِيْنَمَا قَدِمَ إِلَى الْعِرَاقِ، قَالَ: فَتَلَقَّيْنَاهُ بِعَيْنِ التَّمْرِ**)) وَهُوَ مَوْضِعٌ قَبْلَ الْبَصرَةِ مَشْهُوْرٌ ((**قَالَ: فَرَأَيْنَاهُ يُصَلِّي عَلَى حِمَارٍ، وَوَجْهُ مِنْ ذَا الْجَانِبِ**)) يَعْنِي عَلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ ((**فَلَمَّا انْتَهَى مِنْ صَلاتِهِ سَأَلْوْهُ، فَقَالَ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: **لَوْلا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَفْعَلُهُ مَا فَعَلْتُهُ**)) كما في الصحيحين، فهذا يَدُلُّ على أَنَّ الصحابةَ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- أخذوا السنن وهدي رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكانوا يقولون ويعملون بالسنة، ولذلك كان التابعون -رَحِمَهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ- يسألون الصحابةَ كثيرًا؛ حتى يعلموا هذه السنن، ويعلموا مصدرَها.

ففي بعض الأحيان يُجْمِلُ الصحابيُّ ويقولُ: (رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يَفْعَلُ كَذَا)، وفي بعض الأحيان يذكرُ الحادثةَ، ويُبَيِّنُ ماذا فَعَلَ، كقول أُمِّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**مَا صَلَّى عَلَى سُهَيْلِ بْنِ بَيْضَاءَ إِلا فِي الْمَسْجِدِ**))، فهذا من ذكر الحادثة من باب التوثيق.

وأيضًا فائدةُ ذِكْرِ الحادثةِ: أَنَّهَا رُبَّمَا كانت متأخرةً في آخر زمان النَّبِيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وَحِيْنَئِذٍ يكون القول فيها إذا كان معارضًا مع غَيْرِهِ من الأحاديث التي هي من قَبْلُ يكونُ كالناسخ، وهذه من الفوائدِ التي كانت تُسْتَفَادُ من الصحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- إذا احتجُّوا.

وَأَخَذَ الْعُلَمَاءُ مِنْ هَذَا دَلِيْلاً على أَنَّ طالبَ العلمِ إذا كان مع الْعَالِمِ أَنَّهُ يستفيدُ من أفعالِهِ وأقوالِهِ ويسألُهُ: هل ما قاله وعمله، هل له أصل من السنة؟

وهذا يَدُلُّ على الْحِرْصِ على الدليل في الحكم الشرعي؛ لأَنَّ أبلغَ ما يكون في العلم أَنْ تَأْخُذَ الحكم بدليله، ولكن ينبغي أَنْ يكونَ طالب الدليل بِأَدَبٍ وَبِمُرَاعَاةٍ للحرمةِ، ولا يكون على صورة التشكيك، وعلى طريقة تَدُلُّ على أَنَّهُ يُوَهِّنُ القول، أو يَشُكُّ فيه ونحو ذلك، بل عليه أَنْ يُرَاعِيَ الأدبَ، فَإِنَّ

لأهل العلم حُرْمَةً ينبغي حفظُها وعدمُ تضييعها.

فالْمقصود أَنَّ صحبةَ العلماء وصحبةَ مَنْ لَهُ معرفةٌ بالسنن وبالأحكام ينبغي أَنْ تكونَ قائمةً على السؤال والمعرفة، ولذلك لَمَّا كان السَّلفُ الصالِحُ من التابعين وتابعيهم بإحسانٍ إذا صحبوا أهلَ العلمِ استفهموا منهم، وهذا كَثِيْرٌ في تَرَاجِمِ العلماء، كَثِيْرٌ في مروياتِهم أَنَّهم كانوا يسألون ويستخبرون، وما كانوا إذا جلسوا مع أحدٍ من أهلِ العلمِ إلا سألوه، ونَثَرُوا ما عندَه من العلم، ولذلك العلمُ عند العلماء كالْعَيْنِ كُلَّمَا نَزَحْتَ مِنْهَا ازْدَادَتْ، وَكَثُرَ مَاؤُهَا، فالذي يُثَوِّرُ عِلْمَ العالِمِ ويسألُه ويستوضحُ منه فَإِنَّهُ ينالُ العلمَ، كما قَالَ ابنُ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- حينما سُئِلَ: كيف صِرْتَ عَالِمًا، وكيف بَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ من العلم؟ قال: (إِنَّه كَانَ لِي لِسَانٌ سَؤُولٌ، وَقَلْبٌ عَقُوْلٌ).

فسؤالُ أهلِ العلمِ والاستيضاحُ منهم أَمْرٌ مَطْلُوْبٌ، وهذه فائدةُ صحبةِ أهلِ العلمِ، ولذلك كَمْ من أقوامٍ صحبوا العلماءَ وما انتفعوا، وكَمْ من أقوامٍ صحبوا العلماءَ فانتفعوا ونفعوا وارتفعوا، وهؤلاء هم الذين لهم اللسان السَّؤول والقلب العقول.

من جلس مع عَالِمٍ بالسنة وأَحَسَّ أَنَّ الله سائلُهُ عن مجلسه، أو لقي أحدًا من أهل العلم، واستشعرَ وهو طالبُ علمٍ أَنَّ الله سائلُهُ عن مجلسِهِ مع ذلك العالم، فأَخَذَ يسألُه عَمَّا أَشْكَلَ عليه من أَمْرَ دينِهِ ويستوضحُه عمَّا التبس عليه من أحكام الشريعة، فَإِنَّهُ بِخَيْرِ المنازل عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وأَمَّا من جلسَ مع العلماءِ؛ لكي يضاحَكهم ويُمَازحَهم، ولكي يتحدثَ معهم في فضول الدُّنيا، ويخوضَ معهم في أمور لا خَيْرَ فيها، فَإِنَّهُ يَؤُولُ بالخسرانِ والحرمانِ، والْمُوَفَّقُ من وَفَّقَهُ اللهُ، فمجالس العلم ومجالس أهل الفضل ينبغي أَنْ تَقُوْمَ على السؤالِ، وأي شَيْءٍ يصدرُ من العالِمِ ينبغي على الإنسان أَنْ يسألَ عنه ويتحرى عنه، ولذلك كَثِيْرًا ما تَجِدُ في أقوال التابعين أَنَّهم قالوا: (رَأَيْتُهُ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا، وَسَأَلْتُهُ عَنْ كَذَا وَكَذَا، رَأَيْتُهُ قَامَ)، بل كانوا يسألون حتى عن أي صفة تقعُ؟ خاصة في العبادات، حينما حَجَّ بعضُهم مع بعضٍ، وكانوا يسمعون أو يرون من الصحابيِّ قولاً أو عملاً سُرْعَانَ ما يسألُونه عن السُّنَّةِ في ذلك، وهذا هو هديُ الصحابةِ مع النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهو الذي وَرِثَهُ سلفُ هذه الأمة من الصالِحِين من العلماء العاملين، وَيَرِثُهُ من بعدهم جعلنا الله وإياكم منهم بفضله.

واندرستْ معالِمُ العلم، واندرستْ معالِمِ السنن حينما ضاعتْ مجالسُ العلماء، فلا يُسْأَل، ولا يُنَاقَشُ، ولا يُبْحَثُ معه في المسائل، ولَمَّا أصبحتِ المجالسُ قَفْرًا من ذلك ذَهَبَ العلمُ، وذهبتْ حرمتُهُ وأهلُهُ.

وَإِنَّك واللهِ لَتَعْجَبُ أَنْ يأتيَ الطبيبُ، فيجلس في مجلس العامة، فيتناوله كلُّ شَخْصٍ يسأله عن دَاءٍ به وعن مشـــكلةٍ به، فإذا جلس العالمُ الربانيُّ بينهم، أو جلس طالبٌ علمٍ محافظٍ على مجالس الذِّكْرِ تَجِدُهم لا يعبأون به، ولا يلتفتون إليه، ولا شَـــكَّ أَنَّ طالب العلم لو بَادَرَ الناسَ بذلك، فجعل بينه وبَيْنَ الناس فيصـلاً يَحْتَكِمُ به، وهو أَنْ يقيمَهم على السـنةِ، فَإِمَّا مجلسٌ يعلِّمُهم، وإلا فلا، فبمجردِ أَنْ يجلسَ طالبُ العلم مع العَامَّةِ أو مع إخوانه وقرابته يبدأُ ببيان الســـنن لانتفع الناسُ، وحصـــلَ الخيرُ الكثيرُ.

وأَذْكُرُ من بعض أهل العلم أَنَّهُ كان إذا جلس في المجلس قَلَّ أَنْ تجلسَ معه مجلسًا إلا وخرجْتَ بالآثار والسنن، ومن عجيبِ هذا العالِم -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّهُ كان إذا جلس في المجلس في بعض الأحيان ويرى في المجلس رجلاً كَثِيْرَ السؤال والخوض في الدنيا، فيقول: يا فلان، قُمْ وَصِفْ لنا صفةَ وضوءِ النَّبِيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فيُحْرِجُهُ، فيقول: إذًا سَأَصِفُهُ بِكَ، كان رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يبدأُ وضوءَهُ بغسل كفَّيه، أين كفَّاك يا فلان؟ ثُمَّ يبدأ معه، حتى مَرَّةً من الْمَرَّات أذكر قال: نُرِيْدُ أَنْ نُصَلِّيَ على الْجَنَازَةِ، ومَرَّةً قال: (نُرِيْدُ أَنْ نُكَفِّنَ الْمَيِّتَ، هَاه يا فلان، ما رأيك أَنْ تكونَ أنت الْمَيِّت، فنبدأ بتغسيلك وتكفينك؟) فتجدُ من الفوائدِ والسننِ والْخَيْرِ ما لا يُحْصَى كثرةً.

ولو أَنَّ الإنسانَ إذا جلس بَيْنَ أهلِهِ وأولاده بَدَأَ بِمثل هذا بَدَأَ بتعليمهم الوُضُوءَ، وصفةَ صلاة النَّبِيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكيف كان -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ينثر لَهم السنن في كُلِّ شَيْءٍ، هذا هو حَالُ السَّلَفِ.

سألوه: هل النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قام هذا المقام؟ وهل هذا التفريق حفظْتَهُ من رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟

فهَنِيْئًا للسائل وهَنِيْئًا للمسؤول -رَحِمَهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ وأنار قبورهم وقبور كلِّ مَنْ نَفَعَ هذه الأئمة بأنواره الساطعة، وجَمَعْنَا بِهم وبكم في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ-.

((**فلمَّا فرَغَ قالَ: احفظوا**))، ((**قال: احْفَظُوا**)): هذه فائدةٌ، وهي أَنَّه ينبغي رَفْعُ قَدْرِ العلماء، وقَدْرِ العلمِ والسنةِ، فمن عَلَّم علمًا يُرْزَقُ مَنْ يَحفظُ هذا العلم، **وحفظ هذا العلم الناس فيه على مراتب:**

منهم من يأخذُ العلم، ولا يحفظ حرمةَ مَنْ عَلَّمَهُ، **ومنهم** من يحفظُه، ولا ينسى حرمةً مَنْ عَلَّمَهُ. وكان السلفُ الصالحُ من الصحابة والتابعين في أعلى المراتب، فهو سَأَلَ عن السنة، ثُمَّ نَبَّهَ الناسَ

وإخوانَه ومن معه أَنَّها سنةٌ بعد أَنْ أثبتَها أَنَسٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فقال لهم: ((**احْفَظُوا**))، وهذا تزكيةٌ لِهذا العلم، وبيان أَنَّه ينبغي حفظُ السنن، وعدم تضييعها، من جلس مجلسًا يُتْلَى فيه كتابُ الله ويُبَيَّنُ فيه شَرْعَ الله، أو سمع حديثًا أو سنةً، وفيها حُكْمٌ شَرْعِيٌّ، فواللهِ لنْ تزولَ قدماه بَيْنَ يدي الله حتى يُسْأَلَ عن هذه السنة، هل عَمِلَ بِهَا؟ وهل علَّمَهَا الناسَ؟ يُحَاسِبُ عن ذلك بَيْنَ يدي الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وقد تسمعُ الحكَم الشرعيَّ من العالم، وهو مفقودٌ بَيْنَ أمتك وبَيْنَ جماعتك وبَيْنَ قرابتك وأنت مسؤول أمام الله أَنْ تُبَلِّغَهُ، لم يكنِ الدِّيْنُ ومجالسُ العلم للناس نُزْهَةً يَتَنَزَّهُوْنَ بِهَا ويتفكَّهون بأحاديثها، ولكنَّها حُجَجٌ، ولذلك جَاءَ الأسودُ إلى أُمِّ المؤمنين، فسَأَلَهَا، ثُمَّ جلس معها فسَأَلَهَا، ثُمَّ جلس معها فسَأَلَهَا، فقالَتْ له بعد مجالس: أَيْ بُنَيَّ، أَكُلَّ مَا سألتني عنه عَمِلْتَ به؟ فقال: يا أماه، يا أماه، وجلس يشتكي التقصير، فقالَتْ: يا بُنَيَّ لِمَ تستكثرِ من حُجَجِ الله عليك.

هذه السنن تُحفظُ، وحفظُها أعلى الناسِ في العلمِ مَنْ حَفِظَهُ، وإذا حَفِظَ العلمَ يبالغُ في ضبطِ ما يسمعُ من السننِ والآثارِ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولا يستهيْنُ بالكلمةِ، فضلاً عن الجملةِ، فضلاً عن الحديثِ التامِ، بل إِنَّهُ يحفظُ كُلَّ شاردةٍ وواردةٍ وصغيرةٍ وكبيرةٍ.

الأمر الثاني: أَنْ يسألَ عن معناها، فإذا سمع أهلَ العلم في تفسيرها وبيانها ضَبَطَ ما قالُوه، وحَفِظَ ما بينوه، ولَمْ يزدْ في ذلك شَيْئًا ولَمْ ينقصْ منه.

ثُمَّ الأمرُ الثَّالِثُ: حَرِصَ أَنْ يُبَلِّغَ ذلك كما سمعه، وهذا هو عَيْنُ قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا، فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**)).

فقد دعا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالرحمة، فقال: ((**رَحِمَ اللهُ**)) وفي لفظٍ: ((**نَضَّرَ اللهُ**))، وهو خَبَرٌ بِمَعْنَى الإنشاء، وفيه دعوةٌ، قال بعض العلماء: ((**نَضَّرَ اللهُ**)) أَنَّها دعاء له أَنَّه يكونُ من أصحاب الوجوه الناظرة وهم أهل الجنة: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** والنضرةُ نضرةُ الوجه.

فالمقصود أَنَّ حفظَ السنن وضبطَها على الوجهِ المعتبرِ وأداءَها بكلِّ أمانةٍ هو ما ينبغي أَنْ يكونَ عليه طلبة العلم، وهو هدي السَّلف الصالح.

((**قَالَ: احْفَظُوا**)): أي أَنَّ هذه السنن تُحفظ، ولا تضيَّعُ، وتُبَلَّغُ، ولا يُتْرَكُ بلاغُها؛ لأَنَّها حُجَّةٌ على العباد، ويُسْأَلُ أمام الله عن تبليغِها إلى الناس.

وقد رَوى غيرُ واحدٍ عن هَمَّامٍ مثلَ هذا، وروى وكيعٌ هذا الحديثَ عن هَمَّامٍ فوهِمَ فيهِ فقال: عن غالبٍ عن أنسٍ، والصَّحيحُ عن أبي غالبٍ.

وقد رَوى هذا الحديثَ عبدُالوارثِ بنُ سعيدٍ وغيرُ واحدٍ عن أبي غالبٍ مثلَ روايةِ هَمَّام.

واختَلفوا في اسمِ أبي غالبٍ هذا، فقال بعضهُمْ: اسمهُ نافعٌ، ويقالُ: رافعٌ.

وقد ذهبَ بعضُ أهلِ العلمِ إلى هذا، وهو قولُ أحمَدَ -رَحِمَهُ اللهُ- وإسحاقَ -رَحِمَهُ اللهُ-.

قَالَ الإِمْامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا عَليُّ بنُ حجرٍ أخبرنا ابنُ المباركِ والفضلُ بنُ موسى عن الحسينِ المعلّمِ عن عبدِاللهِ بنُ بُريدةَ عن سَمُرَةَ بنِ جندبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **صَلَّى على امْرَأَةٍ فَقَامَ وَسَطَهَا**)).

قَالَ الإِمْامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقد رَوى شعبةُ عن الحسينِ المعلّمِ نحوهُ.

رقم الدَّرس ٤٢٤

الأربعاء ١٩-٦-١٤٣١هـ

شرح سننِ الترمِذِي

كِتَابُ الجَنَائِز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطي

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَين

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي تَرْكِ الصَّلاةِ عَلَى الشَّهِيْدِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ بنُ سعيدٍ أخبرنا اللَّيثُ عن ابنِ شهابٍ عن عبدِالرحمن بنِ كعبِ بنِ مالكٍ أنَّ جابرَ بنَ عبدِاللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَخْبَرَهُ: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي الثَّوبِ الْوَاحِدِ، ثُمَّ يَقُوْلُ: ((**أَيُّهُمَا أَكْثرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟**))، فَإِذَا أُشِيْرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحدِ، وَقَالَ: ((**أَنَا شَـهِيْدٌ عَلَى هَؤُلاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**))، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِم، وَلَمْ يُغَسَّلُوا.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أنسِ بنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ جابرٍ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَالصَّلاة وَالسَّلامُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ تَرْجَمَ الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ، وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِتَرْكِ الصَّلاةِ عَلَى الشَّهِيْدِ، فَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَ -رَحِمَهُ اللهُ- الأَبْوَابَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِصِفَةِ الصَّلاةِ عَلَى الْمَوْتَى، شَرَعَ فِي بَيَانِ مَا يُسْتَثْنَى مِنْ هَذِهِ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، حَيْثُ دَلَّتِ النُّصُوْصُ عَنْهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أَنَّ الشُّهَدَاءَ لا يُصَلَّى عَلَيْهِم.

فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْبَابُ بِمَثَابَةِ الْمُسْتَثْنَى مِنَ الأَبْوَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الصَّلاةِ عِلَى الْمَيِّتِ، ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفَ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَحَدِيْثُ جَابِرِ بْنِ عبدِاللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- **اشْتَمَلَ عَلَى مَسَائِلَ:**

مِنْهَا مَا تَقَدَّمَ، **وَمِنْهَا** مَا يَتَعَلَّقُ بِتَرْجَمَةِ الْبَابِ، **وَمِنْهَا** مَا هُوَ زَائِدٌ عَلَى ذَلِكَ.

فَفِيْهِ (**مَسْأَلَةُ تَغْسِيْلِ الشَّهِيْدِ**): حَيْثُ دَلَّ هَذَا الْحَدِيْثُ الصَّحِيْحُ عَلَى أَنَّ الشَّهِيْدَ لا يُغَسَّلُ.

وَهَذَا هُوَ قَوْلُ أَئِمَّةُ جَمَاهِيْرُ الْعِلْمِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِح وَالْخَلَفِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-، قَالُوا: إِنَّ

الشَّهِيْدَ لا يُغَسَّلُ، حَتَّى حُكِيَ هَذَا الْقَوْلُ بِصِيْغَةٍ: (لا خَلافَ) أَنَّ الشَّهِيْدَ لا يُغَسَّلُ.

وَخَالَفَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَسَعِيْدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ مِنْ أَئِمَّةِ التَّابِعِيْنَ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ- فَقَالا: إِنَّ الشَّهِيْدَ يُغَسَّل كَمَا يُغَسَّلُ غَيْرُه مِنَ الْمَوْتَى.

وَهَذَا الْقَوْلُ بَنَوْهُ عَلَى: أَنَّه مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوْتُ إِلا وَيُجْنِبُ.

وَهُوَ قَوْلٌ ضَعِيْفٌ مُصَادِمٌ لِمَا ثَبَتَتْ بِهِ السُّنَّةُ الصَّحِيْحَةُ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: أَنَّ الشَّهِيْدَ لا يُغَسَّلُ وَأَنَّهُ يُزَمَّلُ بِثِيَابِهِ، وَهَذَا مِنْ مَنَاقِبِ الشَّهَادِةِ، فَإِنَّ الدَّمَ الَّذِي عَلَى الشَّهِيْدِ فَضْلَةُ طَاعَةٍ، وَلِذَلِكَ لا يُزَالُ.

وَقَدْ ثَبَتَ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الأَصْلِ مِنْ فَضْلِ دَمِ الشَّهِيْدِ، كَمَا فِي الصَّحِيْحِ عَنْهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أَنَّهُ قَالَ: ((**مَا مِنْ كَلْمٍ**)) وَالْكَلْمُ: هُوَ الْجُرْحُ ((**مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيْلِ اللهِ إِلا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجُرْحُهُ يَثْعُبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيْحُ رِيْحُ مِسْكٍ**)).

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ قَالَ جَمَاهِيْرُ الْعُلَمَاءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-: إِنَّ هَذِهِ فَضْلَةُ طَاعَةٍ، وَلِذَلِكَ دَلَّتِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بِعَدَمِ إِزَالَتِهَا، وَالتَّغْسِيْلُ يُزِيْلُهَا.

وَمَا ذُكِرَ عِنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَسَعِيْدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ -رَحِمَهُمَا اللهُ- **يُجَابُ عَنْهُ**: بِأَنَّهُ اجْتِهَادٌ فِي مُقَابِلِ النَّصِّ، حَيْثُ إِنَّ السُّنَّةَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ثَبَتَتْ بِعَدَمِ تَغْسِيْلِ الشُّهَدَاءِ، وَلِذَلِكَ الْعَمَلُ عَنْدَ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ وَالْفَتْوَى عَلَى أَنَّ الشَّهِيْدَ لا يُغَسَّلُ.

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الْبَابِ، وَهِيَ (الصَّلاةُ عَلَى الشَّهِيْدِ):

فَجُمْهُوْرُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ عَلَى أَنَّ الشَّهِيْدَ لا يُصَلَّى عَلَيْهِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ قُوْلُ الْجُمْهُوْرِ اعْتَمَدَ: هَذَا الْحَدِيْثَ حَدِيْثَ جَابِرِ بْنِ عبدِاللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، وَأَصْلُهُ فِي الصَّحِيْحَيْنِ، حَيْثُ بَيَّنَ فِيْهِ أَنَّ النَّبِيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يُصَلِّ عَلَى شُهَدَاءِ أُحُدٍ، وَأَنَّهُ زَمَّلَهُمْ بِثِيَابِهِمْ، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ عَلَى حَالِهِمْ.

وَجَابِرُ بْنُ عبدِاللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- لَمْ يَشْهَدْ وَقْعَةَ أُحُدٍ؛ لأَنَّ أَبَاهُ عَبْدَ اللهِ بْنَ حَرَامٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-أَمَرَهُ أَنْ يَبْقَى مَعَ أَخَوَاتِهِ، وَقَالَ -كَمَا فِي الصَّحِيْحِ- لابْنِهِ:(مَا أُرَانِي إِلا مَقْتُوْلاً غَدًا، فَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا)، وَجَاءَ فِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى عَنْ أَبِيْهِ: ((**أَنَّهُ لَوْلا خَشْيَةَ الضَّيْعَةِ عَلَى بَنَاتِهِ لَتَمَنَّى أَنْ يُقْتَلَ جَابِرٌ بِيْنَ يَدَيْهِ، فَيَحْتَسِبُهُ عِنْدَ اللهِ**)).

وَوَالِدُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ حَرَامٍ كَانَ مِنَ الَّذِيْنَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، وَشَهِدَ جَابِرٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَا وَقَعَ بَعْدَ الْوَقْعَةِ، حَيْثُ كَانَ فِي نَخْلِهِ، ثُمَّ جَاءَهُ الْخَبَرُ بِالْقَتْلَى، فَانْتَزَعَ إِلَى أُحُدٍ، وَشَهِدَ مَا وَقَعَ بَعْدَ الْوَقْعَةِ، وَأَحَادِيْثُهُ صِحَاحٌ ثَابِتَةٌ، وَصَفَتْ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مَعَ الْقَتْلَى، فَلِذَلِكَ خَبَرُهُ مِنَ الْقُوْةِ بِمَكَانٍ.

وَلِذَلِكَ اعْتَمَدَ جُمْهُوْرُ الْعُلَمَاءِ رِوَايَةَ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بِعَدَمِ صَلاةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ.

وَبِمِثْلِ حَدَيْثِ جَابِرٍ حَدِيْثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فِي السُّنَنِ وَفِي الْمُسْنَدِ: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يُصَلِّ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ.

وَهَذَانِ الْحَدِيْثَانِ أَصْلٌ عِنْدَ الْجُمْهُوْرِ بِتَرْكِ الصَّلاةِ عَلَى الشَّهِيْدِ.

وَقَالُوا: إِنَّهُ كَمَا دَلَّ الأَثَرُ عَلَى تَرْكِ الصَّلاةِ عَلَى الشَّهِيْدِ، **كَذَلِكَ دَلَّ النَّظَرُ**؛ لأَنَّ الصَّلاةِ عَلَى الشَّهِيْدِ شَفَاعَةٌ، وَالشَّهِيْدُ قَدْ غُفِرَ ذَنْبُهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيْحِ عَنْهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أَنَّهُ قَالَ: **((يُغْفَرُ لِلشَّهِيْدِ عَنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ))**

وَهُوَ شَافِعٌ، وَلا يَحْتَاجُ إِلَى شَفَاعَةٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ عَنْهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((أَنَّهُ يُشَفَّعُ الشَّهِيْدُ فِي سَبْعِيْنَ مِنْ أَهْلِهِ))**، وَكُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوْبِ، أَي الَّذِيْنَ اسْتَوْجَبُوا دُخُوْلَ النَّارِ وَهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيْدِ، فَتَسْتَوْجِبُ الذُّنُوْبُ دُخُوْلَهُمْ النَّارِ، فَيَشْفَعُ الشَّهِيْدُ فِيْهِمْ، فَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِيْنَ مِنْ أَهْلِهِ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ تَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَلِذَلِكَ اُخْتُصَّ بِهَذِهِ الْخَصِيْصَةِ أَنَّهُ لا يُصَلَّى عَلَيْهِ؛ لِعِظَيْمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَذَهَبَ الإِمَامُ أَبُو حَنِيْفَةَ-رَحِمَهُ اللهُ-،**وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ** إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الشَّهِيْدَ يُصَلَّى عَلَيْهِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ اعْتَمَدَ: حَدِيْثَ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- فِي صَحِيْحِ الْبُخَارِيِّ: **((أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **صَلَّى عَلَى شُهَدَاءِ أُحُدٍ كَالْمُوَدِّعِ لِلأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، وَأَنَّهُ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- **بَعْدَ مَا صَلَّى عَلَى شُهَدَاءِ أُحُدٍ رَجَعَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ، فَرَقَى الْمِنْبَرَ، وَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَإِنِّي لا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مِنْ بَعْدِي، وَلَكِنِّي أُوْتِيْتُ مَفَاتِيْحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ، وَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوْهَا))**.

قَالُوا: إِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صَلَّى، وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَقُوْلُ: **((صَلَّى عَلَى شُهَدَاءِ أُحُدٍ))**، وَالصَّلاةُ الأَصْلُ فِيْهَا أَنَّهَا صَلاةُ الْجَنَازَةِ.

وَقَدْ أَجَابَ الْجُمْهُوْرُ عَلَى هَذَا الْحَدِيْثِ مِنْ وُجُوْهٍ:

أَوَّلُهَا: أَنَّ هَذَا الْحَدِيْثَ وَقَعَ بَعْدَ سَبْعِ سِنِيْنَ إِلَى ثَمَانِ سَنَوَاتٍ مِنَ الْوَقْعَةِ، أَي أَنَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- صَلَّى عَلَيْهِمْ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، وَالرِّوَايَةُ فِي الصَّحِيْحِ: ((**كَالْمُوَدِّعِ لَهُمْ**))، أَي كَالْمُوَدِّعِ لِلأَمْوَاتِ وَالأَحْيَاءِ.

وَجَاءَ فِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى -أَيْضًا- وَصَحَّحَهَا غَيْرُ وَاحِدٍ: ((**أَنَّهُ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- **بَعْدَ مَا خَطَبَ عَلَى مِنْبَرِهِ، دَخَلَ بَيْتَهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ مَرَضُهُ، فَلَمْ يَخْرُجْ** -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- **بَعْدُ**)).

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّلاةِ الدُّعَاءُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا أَنَّهُ صَلَّى الصَّلاةَ الْمَعْرُوْفَةَ عَلَى الْجَنَازَةِ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْحَدِيْثَ الْقَائِلُوْنَ بِهِ يُخَالِفُوْنَهُ؛ لأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُوْنَ عَلَى عَدَمِ مَشْرُوْعِيَّةِ الصَّلاةِ عِلَى الْمَيِّتِ بَعْدَ دَفْنِهِ بِسَنَوَاتٍ؛ إِذْ لَوْ فُتِحَ هَذَا الْبَابُ لَكُنَّا نُصَلِّي عَلَى أَمْوَاتِ الْمُسْلِمِيْنَ مِنَ الأَوَّلِيْنَ، وَلَشُرِعَ لَنَا أَنْ نُصَلِّيَ عَلَى السَّابِقِيْنَ.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيْثَ الْمُرَادُ بِالصَّلاةِ فِيْهِ الدُّعَاءُ.

وَهَذَا الْمَسْلَكُ سَلَكَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الأَئِمَّةِ، وَمِنْهُمُ الإِمَامُ ابْنُ خُزَيْمَةَ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي صَحِيْحِهِ، حَيْثُ أَنَّهُ بَيَّنَ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَلُغَةَ الْعَرَبِ تُطْلِقُ الصَّلاةَ بِمَعْنَى الدُّعَاءِ، وَهَذَا صَحِيْحٌ، وَاللهُ تعالى يَقُوْلُ فِي التَّنْزِيْلِ: **{وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ}** أَي ادْعُ لَهُمْ.

وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

تَـــــقُوْلُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَّبْتُ مُرْتَحَلاً يَا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا

عَلَيْكِ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضِي عَيْنًا؛ فَـــإِنَّ لِجَنْبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعَا

وَهَذَا الْبَيْتُ، بَيْتُ الأَعْشَى، وَهُوَ مِنْ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ الَّذِيْنَ يُحْتَجُّ بِشِعْرِهِمْ

فَقَالَ: (**عَلَيْكِ مِثْلُ الَّذِي صَـــلَّيْتِ**)، فَهِيَ لَمَّا رَأَتْهُ يُرِيْدُ السَّـــفَرَ دَعَتْ وَقَالَتْ: (**يَا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا**)، فَقَالَ: (**عَلَيْكِ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتِ**)، أَي مِثْلُ الَّذِي دَعَوْتِ.

فَالصَّلاةُ بِمَعْنَى الدُّعَاءِ، فَيَكُوْنُ صَلاتُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عَلَى شُهَدَاءِ أُحُدٍ الْمُرَادُ بِهَا الدُّعَاءُ وَمِنْ هُنَا يَضْعُفُ الاسْتِدْلالُ بِحَدِيْثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

وَنَازَعَ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ فِي تَرْكِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **الصَّلاةَ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ:**

وَقَالُوا: إِنَّهُ حَدِيْثُنَا مُعَارَضٌ بِحَدِيْثِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، وَالَّذِي رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ رَجُلٍ عَنْ مِقْسَمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَمَرَ بِحَمْزَةَ،**

فَسُجِّيَ بِبُرْدَةٍ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، فَكَبَّرَ سَبْعَ تَكْبِيْرَاتٍ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْقَتْلَى فَوُضِعُوا إِلَى حَمْزَةَ، فَصَلَّى عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ، حَتَّى صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعِيْنَ مَرَّةً))، وَفِي بَعْضِ الأَلْفَاظِ: **((اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ))**.

وَرِوَايَةُ: **((اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ))** ضَعِيْفَةٌ مَتْنًا، كَمَا أَشَارَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ؛ لأَنَّ قَتْلَى أُحُدٍ سَبْعُوْنَ، وَهُمْ نِصْفُ الْعَدَدِ الَّذِي قُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ اللهُ تعالى بِقَوْلِهِ: **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**.

فَقَالَ: **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ}** وَهِيَ مُصِيْبَةُ يَوْمِ أُحُدٍ حَيْثُ قُتِلَ سَبْعُوْنَ، **{قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا}**: أَي مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، حَيْثُ قُتِلُوا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ مِئَةٌ وَأَرْبَعُوْنَ.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، لا يَسْتَقِيْمُ قَوْلُهُ: **((اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ صَلاةً))**؛ لأَنَّ الشُّهَدَاءَ كَانُوا سَبْعِيْنَ.

وَثَانِيًا: أَنَّ هَذَا الْحَدِيْثَ رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ رَجُلٍ لَمْ يُسَمِّهِ:

قِيْلَ: إِنَّهُ الْحَسَنُ بْنُ عُمَارَةَ، وَهُوَ ضَعِيْفٌ، **وَقِيْلَ:** غَيْرُهُ، وَيَكُوْن مَجْهُوْلاً.

وَالْحَسَنُ بْنُ عُمَارَةَ جَزَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّهُ الْحَسَنُ بْنُ عُمَارَةَ؛ بِنَاءً عَلَى رِوَايَةِ شُعْبَةَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عُمَارَةَ عَنْ مِقْسَمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

وَأَيًّامَّا كَانَ، فَهَذَا الْحَدِيْثُ ضَعِيْفٌ.

وَثَانِيًا: اسْتَدَلُّوا بِحَدِيْثِ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- الَّذِي أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ: **((أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **افْتَقَدَ حَمْزَةَ** -أَي يَوْمَ أُحُدٍ- **فَقَالَ رَجُلٌ: إِنِّي رَأَيْتُهُ عِنْدَ تِلْكَ الشَّجَرَاتِ))**.

وَكَانَ حَمْزَةُ قَدْ بُقِرَتْ بَطْنُهُ، وَأُخْرِجَتْ أَحْشَاؤُهُ، وَمُثِّلَ بِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، فَكَانَ مَنْظَرُهُ بَشِعًا مِنْ شِدَّةِ مَا أَصَابَهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، حَتَّى إِنَّ صَفِيَّة لَمَّا دَفَعَتْ وَهِيَ أُخْتُهُ عَمَّةُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا دَفَعَتْ أَمَرَ النَّبِيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنْ تُرَدَّ؛ حَتَّى لا تَرَاهُ، وَلِذَلِكَ اسْتَقْبَلَهَا الزُّبَيْرُ، وَدَفَعَهَا فِي صَدْرِهَا لَمَّا قَالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- **((الْمَرْأَةَ))**.

قَالَ: **((فَمَضَى** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، **فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِ شَهَقَ فَبَكَى** -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- **ثُمَّ أَمَرَ بِهِ، فَسُجِّيَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ))**.

وَهَذَا الْحَدِيْثُ ضَعِيْفٌ؛ لأَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي حَمَّادٍ الْحَنَفِيِّ، وَهُوَ مَتْرُوْكٌ.

وَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيْثٍ آخَرَ، وَهُوَ حَدِيْثُ النَّسَائِيِّ فِي سُنَنِهِ: **((أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَابِ أَتَى رَسُوْلَ اللهِ**

-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-**وَهَاجَرَ مَعَهُ، ثُمَّ خَرَجَ مَعَهُ إِلَى الْغَزْوِ، فَأُتِيَ لَهُ بِقَسْمٍ** -أَي قَسْمَهُ مِنَ الْغَنِيْمَةِ- **فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا قَسْمُكَ بَعَثَهُ رَسُوْلُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **إِلَيْكَ، فَقَالَ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: **مَا لِهَذَا قَاتَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ، إِنَّمَا قَاتَلْتُ لأُضْرَبَ بِسَهْمٍ هَاهُنَا، فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ لَقِيَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَأَصْحَابُهُ الْعَدُوَّ، فَرُمِيَ بِسَهْمٍ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ، وَقَدْ قَالَ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- **بَعْدَ مُضِيِّهِ: ((إِنْ يَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْهُ)). قَالَ: فَلَقِيَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وَأَصْحَابُهُ الْعَدُوَّ فَرُمِيَ الرَّجُلُ بِسَهْمٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ، فَمَاتَ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، **فَحُمِلَ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **فَقَالَ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((أَهُوَ هُوَ؟))، قَالُوا: نَعَمْ، فَأَمَرَ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- **أَنْ يُكَفَّنَ، فَأَعْطَاهُمْ بُرْدَهُ، فَكُفِّنَ فِيْهِ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، وَحُفِظَ مِنْ صَلاتِهِ: ((اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ قَدْ هَاجَرَ إِلَيْكَ.....))** الحديث ، وَهَذَا الْحَدِيْثُ مُرْسَلٌ.

وَثَانِيًا: أَنَّ هَذَا الْحَدِيْثَ مَحْمُوْلٌ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ الَّذِي حَصَلَتْ فِيْهِ الْوَقْعَةُ، وَالشَّهِيْدُ الَّذِي لا يُغَسَّلُ إِنَّمَا هُوَ الشَّهِيْدُ الَّذِي تَفِيْضُ رُوْحُهُ فِي مَكَانِ الْوَقْعَةِ فَلا يُحْمَلُ مِنْ مَكَانِ الْوَقْعَةِ.

وَهَذَا الْمَسْلَكُ مَالَ إِلَيْهِ الإِمَامُ الْبَيْهَقِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ فِي نَفْسِ الْوَقْعَةِ، وبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، **فَأَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ وَأَرْجَحُهُمَا فِي نَظَرِي** -وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ- هُوَ الْقَوْلُ بِأَنَّ الشَّهِيْدَ لا يُصَلَّى عَلَيْهِ؛ لِقُوَّةِ دِلالَةِ السُّنَّةِ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: (جَاءَتِ الأَخْبَارُ كَالْعِيَانِ مِنْ وُجُوْهٍ مُتَوَاتِرَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يُصَلِّ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ).

وَهَذَا هُوَ الأَقْرَبُ لِلصَّوَابِ أَنَّ الشَّهِيْدَ لا يُغَسَّلُ، وَلا يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ يُزَمَّلُ بِثِيَابِهِ، ثُمَّ يُدْفَنُ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيْثِ مِنَ الْمَسَائِلِ:

فَضْلُ حِفْظِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ حِفْظًا لِلقُرْآنِ مُقَدَّمٌ عَلَى مِنْ كَانَ أَقَلَّ حِفْظًا مِنْهُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَرْفَعُ اللهُ بِهْ صَاحَبَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، إِذَا عَمِلَ بِهِ، وَإِذَا تَلاهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَعَمِلَ بِهِ، بَوَّأَهُ اللهُ بِهِ مُبَوَّأَ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَهُوَ شَفِيْعٌ لأَصْحَابِهِ، وَنُوْرٌ لَهُمْ بَيْنَ يَدَي اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَلِهَذَا بَيَّنَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فِي هَذِهِ السُّنَّةِ فَضْلَ حِفْظِ الْقُرْآنِ، وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ فَضْلاً

وَشَرَفًا أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-قَدَّمَ الْحَفَظَةَ لِكِتَابِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي أَشْرَفِ الْمَوَاطِنِ وَأَعَزِّهَا، وَهِيَ الْوُقُوْفُ بِيْنَ يَدَيْهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-فِي الصَّلاةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيْحِ عَنْهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- مِنْ حَدِيْثِ أَبِي مَسْعُوْدٍ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْبَدْرِيُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَأُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ**))، فَجَعَلَ الْحَظَّ فِي التَّقَدُّمِ للصَّلاةِ بِالنَّاسِ وَهِيَ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الإِسْلامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ الَّتِي هِيَ عَمُوْدُ الإِسْلامِ، قُدِّمَ لَهَا حَفَظَةُ كِتَابِ اللهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلمُسْلِمِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ، وَالزِّيَادَةِ مِنْ حِفْظِهِ، وَتَعَاهُدِ مَا حَفِظَهُ، وَأَنَّ هَذَا مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيْمِ الَّذِي لا يَقْتَصِرُ عَلَى الدُّنْيَا.

فَهَؤُلاءِ مَعَ أَنَّهُمْ نَالُوا الشَّهَادَةَ كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يُقَدِّمُ الْحَافِظَ فِيْهُمْ عَلَى مَنْ كَانَ دُوْنَهُ حِفْظًا، وَكَانَ يُنْزِلُهُ فِي الْقَبْرِ قَبْلَ غَيْرِهِ وَيُقَدِّمُهُ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ الْقُرْآنِ فِي الآخِرَةِ؛ لأَنَّهُمْ قَدْ قُتِلُوا وَمَاتُوا، فَلَمْ يَقْتَصِرْ فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى كَوْنِهِمْ أَحْيَاءَ يُقَدَّمُوْنَ فِي الصَّلاةِ، بَلْ قُدِّمُوا حَتَّى وَهُمْ فِي الْبَرْزَخِ فِيْمَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَوْقِفِ الآخِرَةِ، وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ الْقُرْآنِ.

وَفِي الْحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((**أَعْرِفُ فِي الْقُرْآنِ سُوْرَةً مِنْ ثَلاثِيْنَ آيَةً، لَمْ تَزَلْ بِصَاحِبِهَا حَتَّى وَقَتْهُ عَذَابَ الْقَبْرِ: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}**)) يَعْنِي أَنَّهَا شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا؛ لأَنَّهُ يَقْرَأُهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الْقُرْآنِ.

وَالنُّصُوْصُ فِي فَضْلِ كِتَابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَفَضْلِ أَهْلِهِ كَثِيْرَةٌ مَشْهُوْرَةٌ، وَسَيَأْتِي بَيَانُهَا -إِنْ شَاءَ اللهُ- فِي الأَبْوَابِ الَّتِي عَقَدَهَا الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِإِذْنِ اللهِ تعالى.

وَفِي هَذَا الْحَدِيْثِ بَيَّنَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يُصَلِّ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ، بِإِيْرَادِهِ لِهَذَا الْحَدِيْثِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الشُّهَدَاءَ يُسْتَثْنَوْنَ مِنَ الصَّلاةِ عَلَى الْمَيِّتِ.

وَالْمُرَادُ بِالشَّهِيْدِ: الشَّهِيْدُ الَّذِي يَمُوْتُ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ كَمَا ذَكَرْنَا.

أَمَّا لَوْ أَنَّهُ حُمِلَ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ وَعُوْلِجَ، أَوْ حُمِلَ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، أَوْ حُمِلَ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، ثُمَّ فَاضَتْ رُوْحُهُ بَعْدَ سَاعَاتٍ، أَوْ بَعْدَ وَقْتٍ، فَإِنَّهُ شَهِيْدٌ، وَلَكِنْ لا يُعَامِلُ مُعَامَلَةَ الشُّهَدَاءِ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ تَرْكِ التَّغْسِيْلِ وَتَرْكِ الصَّلاةِ، فَمَحَلُّ تَرْكِ التَّغْسِيْلِ وَالصَّلاةِ أَنْ تَفِيْضَ رُوْحُهُ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، فَيُضْرَبُ وَيَمُوْتُ مِنَ الضَّرْبَةِ فِي مَوْضِعِهِ، فَحِيْنَئِذٍ يُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الشَّهِيْدِ وَأَمَّا فَضْلُ الشَّهَادَةِ فَإِنَّهُ لا شَكَّ أَنَّهُ حَتَّى وَلَوْ نُقِلَ، وَلَوْ بَقِيَتْ جِرَاحُهُ بِهِ شُهُوْرًا أَوْ مُدَّةً، فَهُوَ شَهِيْدٌ مَا دَامَ أَنَّهَا تَسَبَّبَتْ فِي قَتْلِهِ، وَلَكِنَّ الشُّهَدَاءَ عَلَى مَنَازِلَ عِنْدَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ فَضْلِ اللهِ -

عَزَّ وَجَلَّ- عَلَى عِبَادِهِ.

وَفِيْهِ دَلِيْلٌ عَلَى فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيْلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَسَيَأْتِي مَزِيْدُ بَيَانِ ذَلِكَ -إِنْ شَاءَ اللهُ- فِي كِتَابِ الْجِهَادِ.

وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيْثُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وَرُوِيَ عِنِ الزُّهْرِيِّ عِنْ عبدِاللهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَبِي صُعَيْرٍ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَهُ عَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الصَّلاةِ عِلى الشَّهِيْدِ:

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لا يُصَلَّى عَلَى الشَّهِيْدِ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْمَدِيْنَة، وَبِهِ يَقُوْلُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ.

الشَّرْح:

((**قَوْلُ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ**)): أَي فُقَهَاءَ الْمَدِيْنَةِ، كَانَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الصَّدْرُ الأَوَّلُ الْقُرُوْنُ الأُوْلَى أَئِمَّةُ الْفَتْوَى فِي الْمَدِيْنَة، وَمِنْهُمُ الْفُقَهَاءُ السَّبْعَةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

فَإِذَا قِيْلَ: ((**قَوْلُ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ**)) يَعْنُوْنَ بِهِ الإِمَامَ مَالِكًا، وَيَعْنُوْنَ بِهِ الْفُقَهَاءَ السَّبْعَةَ، وَكَثِيْرًا مَا يُعْنَى بِهِ الإِمَامُ مَالِكٌ مَعَ أَئِمَّةِ الْفَتْوَى الَّذِيْنَ أَدْرَكَهُمْ، وَهُمْ أَئِمَّةُ التَّابِعِيْنَ الَّذِيْنَ كَانُوا يُفْتُوْنَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ لأَنَّهُ أَدْرَكَ مَا لا يَقِلُّ عَنْ سَبْعِيْنَ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ كُلُّهُمْ أَهْلٌ لِلْفَتْوَى، وَهَذَا عَدَدٌ كَبِيْرٌ جِدًّا، وَلا زَالَ عَهْدُ الإِمَامِ مَالِكٍ لا زَالَ الْعَهْدُ غَضًّا طَرِيًّا، وَلا زَالَ الأَئِمَّةُ وَالْعُلَمَاءُ مُتَوَاجِدِيْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ، فَهُمْ يَقُوْلُوْنَ: ((**أَهْلُ الْمَدِيْنَةِ**))؛ لأَنَّهَا كَانَتْ مَشْهُوْرَةً بِالْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ، وَمِنْهَا صَدَرَ الْعِلْمُ.

وَيُقَالُ: ((**أَهْلُ الْمَدِيْنَةِ**))، وَيُقَالُ: ((**فِقْهُ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ**))، وَيُرَادُ بِهِ فِقْهُ الإِمَامِ مَالِكٍ وَفِقْهُ الأَئِمَّةِ، مِثْلُ مَا ذَكَرْنَا كَسَعِيْدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَعبدِالرحمن الْمَخْزُوْمِي، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ، كَالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ، وَهَؤُلاءِ كُلُّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمَشْهُوْرِيْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ وَكَانَ يَشْتَهِرُ الْقَوْلُ فِي الْمَدِيْنَة، وَيَصْدُرُ إِلَى الآفَاقِ؛ لأَنَّهُ مِنْهَا انْتَشَرَ الإِسْلامِ، وَمِنْهَا انْتَشَرَ الْعِلْمُ وَلِذَلِكَ لَمَّا أَلَّفَ الإِمَامُ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ كِتَابَهُ (الْكَافِي فِي فِقْهِ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ)، مُرَادُهُ فِقْهَ الإِمَامِ مَالِكٍ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ

الْمَدِيْنَةِ، فَيُقَالُ: (هَذَا قَوْلُ الْمَدَنِيِّيْنَ، وَقَوْلُ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ، وَقَوْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ) قَدْ يُضَافُ إِلَيْهِمْ أَهْلَ مَكَّةَ، لَكِنْ كَانَتِ الشُّهْرَةُ فِي الْفَتْوَى وَالْعِلْمِ فِي الْمَدِيْنَةِ.

وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الإِسْلامِ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي (الْمَجْمُوْعِ) فِي مَسْأَلَةِ إِجْمَاعِ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ: أَنَّ الْمَدِيْنَةِ إِلَى عَهْدِ الإِمَامِ مَالِكٍ لَمْ تَدْخُلْهَا بِدْعَةٌ قَطُّ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ مَشْهُوْرَةً بِالْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ، وَإِلَى زَمَانِهِ كَانَتْ زَاخِرَةً بِالْخَيْرِ الْكَثِيْرِ مِنَ الْعِلْمِ، وَمِنْهَا انْتَشَرَ الْعِلْمُ، وَلِذَلِكَ حَمَلُوا قَوْلَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كَمَا فِي صَحِيْحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ: ((**أَمِرْتُ بِقَرِيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرى**))، ((**أُمِرْتُ**)) أَي أُمِرْتُ بِالْهِجْرَةِ إِلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ الْمَدِيْنَةُ، ((**تَأْكُلُ الْقُرَى**)) قَالُوا: لأَنَّ الإِسْلامِ مِنْهَا انْتَشَرَ، فَانْتَشَرَ مِنَ الْمَدِيْنَةِ، وَشَعَّ شُعَاعُهُ مِنَ الْمَدِيْنَةِ بَعْدَ أَن كَانَ فِي مَكَّةَ، لَكِنَّهُ اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِيْنَةِ، فَكَانَتِ التَّشْرِيْعَاتُ وَالأَحْكَامُ كُلُّهَا فِي الْمَدِيْنَةِ، فَيَعْبُرُوْنَ بِ(فِقْهِ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ)، وَيُقَالُ: (فِقْهُ الْمَدَنِيِّيْنَ، قَوْلُ الْحِجَازِيِّيْنَ، قَوْلُ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ)، الْمُرَادُ بِهِ الإِمَامُ مَالِكٍ -رَحِمَهُ اللهُ- وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْفَتْوَى مِمَّنِ اُشْتُهِرَ بِالْفَتْوَى فِي عُصُوْرِ التَّابِعِيْنَ وَأَتْبَاعِ التَّابِعِيْنَ، وَحُفِظَ قَوْلُهُمْ، وَتُنْسَبُ إِلَيْهِمْ الْمَسَائِلُ وَالأَحْكَامُ عَلَى أَنَّهُمْ أَفْتَوا بِهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُصَلَّى عَلَى الشَّهِيْدِ، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيْثِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ صَلَّى عَلَى حَمْزَةَ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَأَهْلِ الْكُوْفَةِ، وَبِهِ يَقُوْلُ إِسْحَاقُ.

الشَّرْح:

((**قَوْلُ الثَّوْرِيِّ**)): سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَالثَّوْرِيُّ: نِسْبَةً إِلَى ثَوْرِ بْنِ أُدِّ بْنِ طَابِخَةَ، وَيُقَالُ: الثَّوْرِيُّ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، ثَوْرُ: جَدُّهُ الأَعْلَى، وَالْجَبَلُ الَّذِي تَوَارَى فِيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فِي الْهِجْرَةِ هُوَ جَبَلُ ثَوْرٍ، سُمِّيَ جَبَلُ ثَوْرٍ؛ لأَنَّ ثَوْرٌ هَذَا **قِيْلَ**: وُلِدَ عِنْدَه، كَمَا نَقَلَهُ الأَزْهَرِيُّ عِنْ بَعْضِ الأَئِمَّةِ، **وَقِيْلَ**: إِنَّ ثَوْرًا كَانَ يَنْزِلُ فِي هَذَا الْجَبَلِ الَّذي هُوَ جَدُّ سُفْيَانِ الثَّوْرِيِّ، وَجَدُّ الرَّبِيْعِ بْنِ خَيْثَمِ الْعَابِدِ الْمَشْهُوْرِ، فَقَالُوا: كَانَ يَنْزِلُ عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ، **وَقِيْلَ**: وُلِدَ عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ، فَقِيْلَ لَهُ: جَبَلُ ثَوْرٍ.

وَإِلا فَالأَصْلُ الْجَبَلُ يُقَالُ لَهُ: (جَبَلُ أَطْحَلَ)، وَقِيْلَ لَهُ: جَبَلُ ثَوْرٍ؛ لِنُزُوْلِ هَذَا الْجَدِّ، جَدِّ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عِنْدَه، كَمَا ذَكَرَ الأَئِمَّةُ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ثَوْرُ أَطْحَلَ، وَيُقَالُ: جَبَلُ ثَوْرٍ، وَيُقَالُ: جَبَلُ أَطْحَلَ، هَذَا مَشْهُوْرٌ، وَهُوَ الْجَبَلُ الْمَعْرُوْفُ بِمَكَّةَ، فَالثَّوْرِيُّ: نِسْبَةً إِلَى ثَوْرٍ، جَدُّهُ ثَوْرُ بْنُ أُدِّ بْنِ طَابِخَةَ.

رقم الدَّرس ٤٢٥

الأربعاء ٩-٨-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطي

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الْقَبْرِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أحمَدُ بنُ منيعٍ حَدَّثنا هُشَيمٌ أخبرنا الشَّيبانيُّ حَدَّثنا الشَّعبيُّ قال: أَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وَرَأَى قَبْرًا مُنْتَبَذًا، فَصَفَّ أَصْحَابَهُ، فَصَلَّى عَلَيهِ، فَقِيْلَ لَهُ: مَنْ أَخْبَرَكَهُ؟ فَقَالَ: ابْنُ عبَّاسٍ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أنسٍ، وبريدةَ، ويزيدَ بنِ ثابتٍ، وأبي هُريرَةَ، وعامرِ بنِ ربيعةَ، وأبي قتادةَ، وسهلِ بنِ حنيفٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جَمِيعًا-.

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ ابنِ عبَّاسٍ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الْحمدُ للهِ ربِّ العالَمِيْنَ، والصلاةُ والسلامُ الأَتَمَّانِ الأكملانِ على خَيْرِ خلقِ اللهِ أجمعِيْنَ، وعلى آله وصحبه ومَنْ سار على سبيله ونَهجه واستن بسنته إلى يوم الدِّين، أمَّا بعدُ:

فَقَدْ تَرْجَمَ الإِمَامُ الحافظ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ والتي تتعلقُ بالصلاةِ على القَبْرِ.

وقولُهُ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الْقَبْرِ]**، أي على الْمَقْبُوْرِ (فَعْلٌ) بِمعنى (مَفْعُوْل)؛ لأنَّ الصلاةَ لا تكونُ للقَبْرِ بذاتِهِ، وإِنَّما تكونُ للميّتِ الْمَقْبُورِ فيهِ، وهذا من بابِ إطلاقِ الْمَحَلِّ، وإرادةِ الْحَالِّ فيهِ.

وقولُهُ -رَحِمَهُ اللهُ -: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الْقَبْرِ]** أي في هذا الموضعِ سأذكُرُ لكَ ما وَرَدَ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الصلاةِ على الْمَيّتِ بعدَما يُقْبَرُ.

فالأصلُ الَّذِي دَلَّتْ عليهِ السنةُ الصحيحةُ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهو هديُهُ الْمُطَّرِدُ أنَّه كانَ يصلِّي على الْمَيّتِ قبلَ دفنِهِ وقَبْرِهِ، وهذا هوَ الَّذِي دَلَّتْ عليهِ الأحاديثُ الْمُتَوَاتِرَةُ عنهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّه صلَّى عَلى الْمَيّتِ قبلَ ما يُقْبَرُ.

وقد اتَّفَقَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- على أنَّ ذلكَ هوَ الأصلُ، أنَّهُ يغسَّلُ الْمَيّتُ، ويُكَفَّنُ، ثُمَّ يُصلَّى عليهِ، ثُمَّ يُقْبَرُ، ونَصُّوا على أنَّه إذا قُبِرَ قبلَ أن يُصلَّى عليه أنَّ من حقوقِهِ أنْ يُصلَّى عليه.

فإذَا كانَ حديثًا بِمعنى أنَّه اطَّلعَ على ذلكَ في وقتٍ قريبٍ بعدَ دفنِهِ مباشرةً فإنَّه يُنبشُ القَبْرُ، ثُمَّ يُخرَجُ، ويُصلَّى عليهِ الصلاةُ الشرعيةُ؛ لأنَّ هذا الأمرَ توقيفيٌّ واردٌ عن رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وقالُوا: إنَّهُ إذا دُفِنَ قبلَ الصلاةِ عليهِ فقدْ ضُيِّعَ حقُّه، وحقُّ اللهِ في الصلاةِ عليهِ، ولذلك يُشرَعُ نبشُهُ وإخراجُهُ، ثُمَّ الصلاةُ عليهِ، ثُمَّ دفنُهُ مرةً ثانيةً، خاصةً على مذهبِ من يقولُ بعدمِ جوازِ الصلاةِ على الْمَيِّتِ بعد دفنِهِ، كما هوَ مذهبُ الحنفيةِ والمالكيةِ وطائفةٍ من السَّلفِ، وهو قولُ بعضِ أصحابِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كابنِ عمرَ وغيْرِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-.

وأمَّا إذا دُفِنَ الْمَيِّتُ، وقد صُلِّيَ عليهِ بِمعنى أنَّه جَرَى عليهِ ما يَجرِي على أمواتِ المسلمينَ من تكفينِهِ وتغسيلِهِ والصلاةِ عليهِ، **فقدِ اختلفَ العلماءُ** -رَحِمَهُمُ اللهُ-: هل يجوزُ أن يُصلِّي عليهِ الإنسانُ بعد دفنِهِ أو بعدَ صلاةِ جماعةِ المسلمينَ عليه مرةً ثانيةً؟

وقد تقدَّم معنَا الإشارةُ إلى هذهِ المسألةِ، **وحَاصلُ ما فيها**: أنَّ مذهبَ طائفةٍ من السَّلفِ أنَّه لا يُشرَعُ أنْ تُكُرَّرَ الصلاةُ، وأنَّ الصلاةَ على الْمَيِّتِ إنَّما هي مرةٌ واحدةٌ.

فإذا صُلِّيَ عليهِ، أو صَلَى عليهِ إمامُ المسلمينَ أو جماعةُ المسلمينَ فإنَّه لا يُشرَعُ تِكْرَارُ الصلاةِ عليهِ، وقد صَحَّ ذلكِ عن عبدِاللهِ بنِ عمرَ كمَا رواهُ عبدُ الرزاقِ عن مَعمرٍ عن أيوبَ بنِ أَبِي تَمِيْمٍ السختيانيِّ عن نافعٍ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ لَمَّا تُوُفِّيَ أخوهُ عاصمُ بنُ عمرَ، جاءَ بعدَ وفاتِهِ ودفنِهِ والصلاةِ عليهِ، قالَ: أينَ قَبْرُ أَخِي؟ فدلُّوه على القَبْرِ، فَوَقَفَ على الْقَبْرِ فَدَعَا له وَتَرَحَّمَ عليهِ وأستغفر لهُ ثُمَّ مَضَى وَلَمْ يُصَلِّ عليهِ.

ومذهبُ طائفةٍ من السَّلفِ أيضًا، وهو قولُ بعضِ الصحابةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- أنَّه إذا صَلَّتِ الجماعةُ الأولى وهي الجماعةُ الأصل التي تُصلِّي على الْمَيِّتِ أنَّه لا يُصَلَّى عليهِ بعدَ ذلِكَ.

وهذا هو مذهبُ عبدِاللهِ بنِ عمرَ أيضًا، وهو قولُ الحسنِ البصريِّ، وكان إذا انتهتِ الصلاةُ أي الجماعةُ الأولى فإنَّه يَمضِي ولا يُعِيْدُ الصلاةَ عليه ثانيةً:

لأنَّ هذا هوَ هديُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الْمَحفوظُ، ولذلك لَمْ يأمرِ الصحابةَ الَّذِين لَمْ يشهدُوا الجماعةَ الأولى أنْ يُعيدُوا الصلاةَ، أو يُحدِثُوا جماعةً ثانيةً، ولَمْ يكنْ يُوقِفُ الجنائزَ قبلَ دفنِهَا، بحيثُ يأمرُ مَنْ لَمْ يُصَلِّ أنْ يُعيدَ الصلاةَ أو يُصلِّي عليهِ.

ولأنَّه إذا اختصَّتِ الجماعةُ الأمُّ كانَ في ذلكَ حافِزًا للمسلمينَ أنْ يُبادِرُوا بالمحافظةِ على هذه الشريعةِ، وأنْ يبادِرُوا بحفظِ حقوقِ إخوانِهِم المسلمينَ ولا يتقاعَسُوا؛ لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ هناكَ جماعةً ثانيةً، أو أنَّه

سَيُصَلَّى عليهِ مرةً ثانيةً تَهَاوَنَ في الجماعةِ الأصليةِ التي هي الأصلُ في الصلاةِ على الْمَيِّتِ، وتَهَاوَنَ في جماعةِ الإمامِ العامِّ.

ومنْ هُنا قالُوا: إنَّ الأصلَ أنْ يُصَلَّى على الْمَيِّتِ مرةً واحدةً، وهذا هوُ هديُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الْمَحفوظُ عنه.

وهذا القولُ -كما قُلنا- هوَ مأثورٌ عنْ عبدِاللهِ بنِ عمرَ، والحسنِ البصريِّ، وإبراهيمَ النخعيِّ وسفيانَ الثوريِّ، والأوزاعيِّ، وهو مذهبُ الحنفيةِ والمالكيةِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

وذهبَ بعضُ أصحابِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، كعليٍّ وعائشةَ وقبيصةَ وعبدِاللهِ بنِ مسعودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-، وهوَ مذهبُ الشافعيةِ والحنابلةِ وأهلِ الحديثِ وداودَ الظاهريِّ وأصحابِهِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ- قالوا: إنَّه يُشرَعُ أنْ يُصَلَّى على الْمَيِّتِ مرة ثَّانيةً، وأنَّه يجوزُ أنْ يُصَلَّى على الْمَيِّتِ بعدَ دفنِهِ، **على تفصيلٍ وخلافٍ**:

فمنهم مَنْ يُجيزُ تكرارَ الجماعةِ، بحيثُ يُصَلَّى على الْمَيِّتِ مرةً ثانيةً مَنْ لَمْ يُصَلَّ عليه، ويقولون: إنَّه يجوزُ أنْ يُصَلِّي عليهِ مَنْ فَاتَتْهُ الجماعةُ الأولى، ولا حرجَ في ذلكَ.

وهذا قولٌ لبعضِ أصحابِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ومنْهُم مَنْ كانَ يفعلُهُ.

واستدلَّ الَّذِينَ قَالُوا بالمنعِ: بأنَّ الأصلَ من هديِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما تقدَّم ما ذكرْنَاهُ: أنَّه ما كانَ يُكَرِّرُ الصلاةَ على الْمَيِّتِ أكثرَ من مرةٍ، ومَا كانَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يأمرُ مَنْ فاتَتْهُ جماعةُ الجنائزِ أنْ يُعيدَ الصلاةَ على الْمَيِّتِ مرةً ثانيةً، فقالوا: هذا هوَ الأصلُ.

وما وَرَدَ عنهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- **أنَّه صَلَّى عَلَى الْمَيِّتِ بعدَ دفنِهِ، وبعدَ قَبْرِهِ**:

فأمَّا المرأةُ: فإنَّها دُفِنَتْ بالليلِ، وكانَ في أولِ الإسلامِ مَنْ دُفِنَ بالليلِ لا يُصَلَّى عليهِ، وهذا حكاهُ غَيْرُ واحدٍ من أئمةِ العلمِ، وأسندَهُ إلى النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وأنَّه نَهَاهُم عَنِ الدَّفنِ ليلاً من أجلِ ذلكَ، من أجلِ صلاتِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على الْمَيِّتِ، وقالَ كما في الحديثِ الصحيحِ: ((**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُوْرَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلاتِي عَلَيْهِمْ**))، كما في الصحيحِ من حديثِ المرأةِ التي كانَتْ تَقُمُّ المسجدَ، وأنَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- لَمَّا قالَ: ((**دُلُّوْنِي عَلَى قَبْرِهَا**))، ثُمَّ قامَ على قَبْرِهَا فَصَلَّى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، قالَ مُعَلِّلاً تَكْرَارَ هذهِ الصلاةِ، قالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- : ((**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُوْرَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلاتِي عَلَيْهِمْ**))، فهذا من دلالةِ السنةِ

القوليةِ يدلُّ على اختصاصِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وأنَّ صلاتَهُ على الْمَيِّتِ لَهَا مَزِيَّةٌ، ولَهَا فَضْلٌ، ولَهَا خُصوصيةٌ تُخَالِفُ غَيْرَهُ.

وأمَّا الأمر الثاني: فإنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا كانَ لهُ الْحَقُّ أنْ يَلِيَ الصلاةَ على الْمَيِّتِ، ودُفِنَتِ المرأةُ وَلَمْ يُؤْذَنْ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، فُوِّتَ حَقُّهُ، وَلَمَّا فَاتَ حَقُّهُ شُرِعَ أنْ يَقْضِيَ ذلكَ الْحَقَّ، وأَنْ يَأْخُذَ بِهِ، **وهذا وجهٌ في الجوابِ عن حديثِ المرأةِ التي كانَتْ تَقُمُّ المسجدَ.**

وأيًّا ما كانَ فقالُوا: إنَّ قولَهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**يُنَوِّرُهَا بِصَلاتِي عَلَيْهِمْ**)) واضحٌ في الدِّلالةِ على الخصوصيةِ، والقاعدةُ عندهم: "**أَنَّ قَضَايَا الأَعْيَانِ لا تَصْلُحُ دَلِيْلاً عَلَى الْعُمُوْمِ**"، **وقضيةُ العَيْنِ:** هي التي تأتي على خلافِ الأصلِ الْمُطَرِدِ منْ هديِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنتِهِ. فإذَا كانَ الأصلُ الْمُطَرِدِ على حالٍ، ثُمَّ جاءَتْ في شخصٍ بخصوصِهِ فإنَّه لا يُحكمُ بعمومِهَا: **كما في** شهادةِ خُزَيْمَةَ حينمَا عَدَلَهَا النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بشهادةِ رجلينِ، فإنَّهَا لا تصلحُ دليلاً للعمومِ بحيثُ تُعَمَّمُ على غَيْرِهِ.

ومثل: كما في حديث أَبِي بُرْدَةَ بْنِ نِيَارٍ في الأضحيةِ بالْعَنَاقِ، ونحوِ ذلكَ، قالوا: إنَّ كُلَّ هذا منْ قضايَا الأعيانِ.

ومثلُها: قضيةُ سالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ في رَضَاعِ الكبيرِ، ونحوِ ذلكَ مِمَّا هوَ معلومٌ عندَ العلماءِ ومستقرٌّ أنَّ ما جاءَ على خلافِ الأصلِ الْمُتواترِ الْمُحفوظِ من هديِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في شخصٍ بخصوصِهِ، فإنَّه لا يُعَمَّمُ، خاصةً إذا جاءَ من منطوقِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ما يدلُّ على التخصيصِ

فهذا كُلُّهُ مَجْمَعُ مَا استدلَّ بِهِ مَنْ قالَ: إنَّه لا يُشرَعُ أنْ يُصَلَّى على الْمَيِّتِ بعد قَبْرِهِ، أو بعدَ صلاةِ الإمامِ الأولى.

وأمَّا الَّذِين قالُوا: إنَّه يُصَلَّى عليهِ فقدِ احتجُّوا بأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صَلَّى على القَبْرِ: **كما في** قصةِ المرأةِ السوداءِ التي كانَتْ تَقُمُّ المسجدَ.

وكمَا في حديثِنَا حديثِ ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في صلاتِهِ -بأبي وأمي- في صلاتِهِ عَلى هذا القَبْرِ الْمُنْتَبِذِ، وهو الْمُفْرَدِ.

وغيْرُهَا: كصلاتِهِ على أُمِّ سَعْدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَعَنْهُ-.

ونحوِ ذلكِ منَ الأحاديثِ التي وَرَدَتْ من صلاتِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على الْمَيِّتِ بعدَ دفنِهِ،

قالُوا: فهذا يدلُّ على أنَّهُ يجوزُ أنْ يُصَلَّى على الْمَيِّتِ بعدَ دفنِهِ، خاصةً لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ وَلَمْ يَحْضُرْ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فَعَلَ ذلكَ لِمُوجبِهِ.

وأيًّا ما كانَ فإنَّ الأصلَ **يقوّي** ما ذكرَهُ أصحابُ القولِ الأولِ.

ولكنَّ الصلاةَ على الْمَيِّتِ كُلُّها خَيْرٌ، وَكُلُّهَا بركةٌ، وكُلُّهَا رحمةٌ، فإذا صَلَّى الإنسانُ معتقدًا قولَ مَنْ يقولُ بالجوازِ، فإنَّه لا تثريبَ عليهِ، وحاصلُ ما فعلَهُ أَنَّه فَعَلَ خَيْرًا بأخيهِ المسلمِ، ولا يُنْكَرُ عليهِ؛ لأنَّهُ قولُ مَنْ ذكرْنَا من السَّلفِ، ولهُ أصلٌ ووجهٌ من السنةِ.

ولو أنَّه امتنعَ منَ الصلاةِ على الْمَيِّتِ؛ عَمَلاً بالقولِ الَّذِي يقولُ بعدمِ مشروعيةِ تكرارِ الصلاةِ، فلَهُ وجهٌ من السنةِ الْمُطرِدَةِ من هديِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، والأمرُ في هذا واسعٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

والعملُ على هذا عِندَ أكثرِ أهلِ العلمِ من أصحابِ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغيرِهِم، وهو قولُ الشَّافِعِيِّ وإسحاقَ.

وقالَ بعضُ أهلِ العلمِ: لا يُصَلَّى على القبرِ، وهو قولُ مالكِ بنِ أنسٍ -رَحِمَهُ اللهُ-.

وقالَ ابنُ المباركِ: إذا دُفنَ الْمَيِّتُ ولَمْ يُصَلَّ عليهِ صُلِّيَ على القَبْرِ، ورأى ابنُ المباركِ الصَّلاةَ على القبرِ.

وقال أحمَدُ وإسحاقُ: يُصَلَّى على القبْرِ إلى شهرٍ، وقالا: أكثرُ ما سَمِعْنَا عن ابنِ المسيَّبِ أنَّ النَّبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صلَّى على قَبْرِ أمِّ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ بعدَ شهرٍ.

الشَّرْح:

أمَّا نسبتُهُ للقولِ بالجوازِ إلى مالكٍ: فهو قول أبو حنيفةَ أيضًا، وليسَ في المسألةِ جمهورٌ؛ لأنَّها إذا كانَتْ على مذهبينِ منقسمينِ فإنَّها تكونُ معتدلةً، ولا يُحكَى فيها الجمهورُ.

وهناكَ فرقٌ بين قولِهِ (قولُ أكثرُ أهلِ العلمِ) وبين قولِهِ (الجمهور):

(أكثرُ أهلِ العلمِ) قد تطلقُ على الصدرِ الأولِ من الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بعدَهم، ثُمَّ بعدَ ذلكَ يُفَصَّلُ في المذاهبِ.

وهذا صنيعُ الإمامِ الترمذيِّ في بعضِ المسائلِ أنَّه يقول: **(وَبِهِ قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ)**.

فقد تكونُ الأكثريةُ على عدمِ الجوازِ في مسألةٍ، ثُمَّ تأتي المذاهبُ الأربعةُ: ثلاثةٌ منْهَا على الجوازِ، فحينئذٍ يكونُ الجمهورُ على الجوازِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ من الصدرِ الأولِ على المنعِ.

فهذا من أساليبِ العلماءِ في حكايةِ الخلافِ: (**الأكثرُ، أكثرُ أهلِ العلمِ، وكثيرٌ من أهلِ العلمِ**) حينمَا قالَ: (**أكثرُ الصحابةِ، أكثرُ أهلِ العلمِ من الصحابةِ**)؛ لأنَّ الَّذِين قالوا بالجوازِ كعَلَيٍّ وعائشةَ وابنِ مسعودٍ وقبيصةَ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ- أكثرُ.

والَّذِين قالُوا بالمنعِ، وهوَ مذهبُ ابْنِ عُمَرَ.

ولذلك تكونُ الأكثريةُ في قولِ مَنْ قَالَ بالجوازِ **بالنسبةِ للصحابةِ ومَنْ بعدَهم**.

وأمَّا بالنسبةِ للمذاهبِ الأربعةِ: فالمسألةُ معتدلةٌ أنَّها بين مذهبينِ، مذهبين، فلا يُقالُ بالجمهورِ إذا كانَتْ منقسمةً إلى مذهبينِ إلا في حالةٍ واحدةٍ: وهي أنْ يكونَ هناكَ خلافٌ بينَ الإمامِ وأتباعِهِ، بِمَعنى أنْ يكونَ قولُ الإمامِ بالجوازِ، ويكونَ المذهبُ والفتوى على عدمِ الجوازِ، فيكونُ أصحابُهُ قدْ رَجَعُوا إلى النصِّ، أو رَجَعُوا إلى أصلٍ، كقولِ الإمامِ الشافعيِّ: (إِذَا صَحَّ الْحَدِيْثُ فَهُوَ مَذْهَبِي)، فيأتي أئمةُ الشافعيةِ الْمُبَرَّزِيْنَ، كالإمامِ النوويِّ، وكذلك الْمَاوَرْدِيِّ، ويُحَرِّرُوا أنَّ المسألةَ تَبَيَّنَ فيها النصُّ، ويشتهرُ هذا القولُ في مذهبِ الشافعيةِ، فتكونُ المسألةُ أشبهَ بالجمهورِ بالنسبةِ إلى أنَّ أحدَ الْمُخَالِفَيْنِ قالَ بالقولِ الآخرِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فنسبةُ القولِ للجمهورِ لا تكونُ إلا في الثلاثةِ المذاهبِ، فهناكَ فرقٌ بينَ الجمهورِ وبينَ الأكثرِ.

ونسبتُهُ -رَحِمَهُ اللهُ- إلى الإمامِ عبدِاللهِ بنِ المباركِ أنَّه يقولُ بجوازِ الصلاةِ على الْمَيِّتِ إذا لَمْ يُصَلَّ عليهِ أو بعدَ دفنِهِ، فهذا يقولُ بِهِ كثيرٌ من أهلِ العلمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، أَنَّ الْمَيِّتَ إذا دفُنَ وَلَمْ يُصَلَّ عليهِ أنَّه يُشْرَعُ إِذَا كانَ حَدِيْثَ الْعَهْدِ بالدَّفْنِ:

منهم من خَصَّ بالثلاثةِ الأيامِ، كالإمامِ أبي حنيفةَ، وقالَ: إنَّهَا الْحَدُّ في نبشِهِ.

ومنهم مَنْ قَالَ: مَا لَمْ يَبْلَ، أو يُمْتَهَنْ، أو يُؤذَى إذا نُبِشَ، حِفَاظًا على الْحَقِّ؛ لأنَّه إذا تَعَارَضَتْ مفسدتانِ رُوْعِيَ أعظمُهَمَا بارتكابِ أخفِّهَمَا.

وعلى كُلِّ حالٍ ليسَ هذا قولاً للإمامِ عبدِاللهِ بنِ المباركِ وَحْدَهُ، بَلْ هوَ قولٌ مشهورٌ عندَ الحنفيةِ والمالكيةِ والشافعيةِ والحنابلةِ أنَّه يُشْرَعُ نَبْشُ الْمَيِّتِ.

وهذهِ من المسائلِ التي يُشرَعُ فيهَا نَبْشُ القَبْرِ؛ لأنَّ الْقَبْرَ لا يجوزُ نبشُهُ مادَامَ الْمَيِّتْ فيهِ، أو يغلُبُ على الظَّنِّ بقاءُ جثتِهِ فيهِ، فيحرمُ التعرُّضُ لقبورِ المسلمينَ بالنبشِ، ولا يجوزُ فتحُ القبورِ، ولا نبشُهَا إلا عندَ الضرورةِ ووجودِ الحاجةِ الداعيةِ إلى ذلكَ، **مِثْلُ**: أنْ يكونَ مُغْتَصِبًا لِحَقٍّ مِنْ مَالٍ أو نَحوِ ذلكَ في مسائلَ تفصيليةٍ مَحَلُّهَا فُرُوعُ الفقهِ.

أمَّا من حيثُ الأصلِ فإنَّه لا يجوزُ فتحُ القبورِ ونبشُهَا بعدَ الدَّفنِ، هذا مُحَرَّمٌ، ومُجْمَعٌ عليهِ بينَ أهلِ العلمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وهوَ مِنْ حُرْمَةِ أمواتِ المسلمينَ، ولذلكَ مَنْ نَبَشَ الْقَبْرَ مِنْ دُوْنِ حاجةٍ فإنَّه يُشرَعُ للقاضي أنْ يُعَزِّرَهُ ويؤدِّبَهُ بِمَا يليقُ بحرمةِ الْمَيِّتِ الْمَنبوشِ، وبقَدْرِ جرمِهِ الذي انتهَكَ فيهِ حرمةَ أخيهِ المسلمِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فما نَسَبَهُ إلى الإمامِ عبدِاللهِ بنِ المباركِ ليسَ خاصًّا بِهِ -رَحِمَهُ اللهُ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: حدثنا محمدُ بنُ بشارٍ أخبرنا يحيى بنُ سعيدٍ عن أبي سعيد بنِ عروبةَ عن قتادةَ عن سعيدِ بنِ المسيبِ: (أنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ، وَالنَّبِيُّ غَائِبٌ، فَلَمَّا قَدِمَ صَلَّى عَلَيْهَا، وَقَدْ مَضَى لِذَلِكَ شَهْرٌ).

الشَّرْح:

هذا الحديث فيه ضَعْفٌ، **وبعضُ العلماءِ** يُحَسِّنُ إسنادَهُ، لكنَّهُ من حيثُ الأصلِ اعتَبَرَهُ بعضُ العلماءِ دليلاً على أنَّ أقصى ما يُصَلَّى فيهِ على الْمَيِّتِ بعد دفنِهِ شَهْرٌ؛ لأنَّهُم اتَّفَقُوا على أنَّه إذا طَالَتِ الْمُدةُ أنَّه لا يُصَلَّى عليهِ، **فمثلاً**: لو قُبِرَ ومَضَى على دفنِهِ ثلاثُ سنواتٍ، وجاء رجلٌ وقالَ: أريدُ أنْ أَصَلِّيَ عليهِ؛ لأنَّه لو فُتِحَ هذا البابُ كانَ كُلُّ شخصٍ يأتي على أيِّ قَبْرٍ من أمواتِ المسلمينَ الأوائلِ، يأتي ويقومُ عليه ويُصَلِّي عليهِ، فهناكَ حَدٌّ للقولِ بمشروعيةِ الصلاةِ؛ لأنَّه إذا كانَ الأصلُ أنَّه لا يُصَلَّى، واستثنى بعضُ العلماءِ فقالَ: يجوزُ أنْ يُصَلَّى، فإنَّنَا ننظرُ المدةَ التي حَدُّوها، فإذا حَدُّوا بشهرٍ، وكانَ الشهرُ أكثرَ ما يُحَدُّ بِهِ، فإنَّ الزائدَ على الشهرِ يكونُ مَحَلَّ إجماعٍ أنَّه لا يُصَلَّى على الْمَيِّتِ إذا مَضَى هذا القَدْرُ من الزمانِ.

وعلى كُلِّ حالٍ، هذا الحديثُ كما قال بعضِ أئمةِ السَّلفِ هو أقصى ما وَرَدَ.

ومنهم مَنْ زَادَ على هذهِ المدةِ.

ومنهم من قالَ: ما لَمْ يغلُبْ على الظَّنِّ أنَّ الْمَيِّتَ يَبْلَى، أي يَبْلَى جسدُهُ، وهذا يختلفُ بحسبِ اختلافِ الأمكنةِ والتربةِ؛ لأنَّ بعضَ التربةِ يُسرِعُ فيها بَلْيُ الْمَيِّتِ وذهابُهُ وتَحَلُّلُهُ، وبعضُ التربةِ يتأخَّرُ، وهذا يَرْجِعُ إلى أهلِ الخِبْرَةِ الذين ينبشون القبورَ؛ لأنَّ كُلَّ مَقْبَرَةٍ فيها أهلُهَا، وهُم أعلمُ بِمَنْ فيهَا، فتجدُهم إذا نبشُوا القبورَ يجدون أنَّها بعدَ سنةٍ أو سنةٍ ونصفٍ أو سنتين على حسبِ حالِ التربةِ، يقولون: إنَّه يَبْلَى ولا يَبْقَى منه شيءٌ.

ومن حيثُ الأصلِ، هو لا شَكَّ أنَّه يَبْقَى الْمَيِّتُ إذا قُبِرَ في قَبْرِهِ، فهو قَبْرُهُ إلى أنْ يبعَثَهُ اللهُ، كما في الحديثِ الصحيحِ عن الْبَرَاءِ بنِ عازبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ لَمَّا ذَكَرَ في قصةِ حالِ المؤمنِ وحالِ الكافرِ في قبضِ روحِهِ ودفنِهِ وإقعادِ الْمَلَكَيْنِ لهُ، قالَ بعدَ ذلكَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يقولُ الْمَلَكَيْنِ: ((**هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ**))، ولذلكَ يكونُ في نفسِ الْمَنْزِلِ، حتَّى ولوْ أنَّه نُقِلَ الترابُ، حتَّى ولو تَغَيَّرَ، حتَّى لو جَاءَ شيءٌ يعني يُؤَثِّرُ فيهِ منْ عوارضَ، فإنَّه لا يُمكنُ أنْ يُغَيِّرَ الْحَالَ، فهو قَبْرُهُ إلى أنْ يبعثَهُ اللهُ.

صحيحٌ أنَّه يَبْلَى إلا عَجَبَ الذَّنَبِ، عَجَبُ الذَّنَبِ لا يَبْلَى وهُوَ آخِرُ فَقَرَاتِ الظَّهْرِ، وقدْ أشارَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إلى ذلكَ كمَا في الصحيحِ: ((**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إلا عَجَبَ الذَّنَبِ**)) فهذا يَبْقَى من الْمَيِّتِ.

وأيًّا مَا كانَ فالقَبْرُ قَبْرُ الْمَيِّتِ ولو قُبِرَ فيهِ مئاتُ الألوفِ من الأشخاصِ، فهوَ قَبْرُهُ ومَنْزِلُهُ، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، قادرٌ على أنْ يُقْبَرَ في المكانِ الواحدِ مئاتُ الألوفِ من الأشخاصِ، فيكونُ القَبْرُ للواحدِ منهم مفسوحًا مَدَّ البصرِ، ويكونُ الْقَبْرُ للآخَرِ جحيمًا ونارًا لا يَعْلَمُ ما هوَ فيهِ مِنَ العذابِ والنكالِ إلا اللهُ، وهذا كُلُّهُ منْ عظمةِ اللهِ وقدرةِ اللهِ: **{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}**، **{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**، فما بَقِي من الْمَيِّتِ مادَامَ أنَّه قُبِرَ في هذا الموضعِ فإنَّه يقولون: إذا غَلَبَ على الظَّنِّ أنَّه بَلِيَ وذَهَبَ فإنَّه لا يُنْبَشُ

وأمَّا إذا كانَتْ بَقِيَتْ جثتُهُ، والعهدُ قريبٌ، كاليومِ واليومينِ والثلاثةِ، ويمكنُ استخراجُهُ فإنَّه يُستخرَجُ، وهذا -كما ذكرْنَا- رعايةً لِحَقِّ المسلمِ؛ لأنَّه حَقٌّ من حقوقِهِ، والصلاةُ على الْمَيِّتِ حَقٌّ للهِ؛ لأنَّ فيها عبادةً، ولذلك يَجتمِعُ فيها حَقُّ المخلوقِ، وَحَقُّ الخالقِ، فإذا ضَيَّعَ الناسُ هذا الْحَقَّ شُرِعَ نَبْشُ الْقَبْرِ وإخراجُهُ.

ونبشُ القَبْرِ محفوظٌ حتى عن الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-.

واستدلَّ العلماءُ والأئمةُ على ذلكِ: بنبشِ جابرِ بنِ عبدِاللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- لقَبْرِ أبيهِ، وأنَّه أفرَدَهُ بِقَبْرٍ على حِدَةٍ، وهذا بعدَ أربعينَ سنةً، وأنَّه استخرجَه من قَبْرِهِ، وكان قد طُعِنَ طعنةً في صدرِهِ قد وَضَعَ عليها كَفَّهُ، فلمَّا حَرَّك الكفَّ، قال: وَجَدُّتُه كَيَوْمِ دَفَنْتُهُ، وأنَّه لَمَّا حَرَّكَ الكفَّ خرجَ الدمُ كأنَّه طُعِنَ من ساعتِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وهوَ عبدُ اللهِ بنُ حَرَامٍ والدُ جَابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ-.

وكذلك في القصةِ المشهورةِ: حينمَا كَتَبَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ إلى أميْرِهِ على المدينةِ مروانَ بنِ الحكمِ أنْ يُجْرِيَ الْعَيْنَ بِالغَابَةِ، فقال: إنَّه لا يُمكنُ أَنْ تَجْرِيَ هَذِه الْعَيْنُ إلا إذا رُفِعَتْ أطرافُ قبورِ الشهداءِ، فقال: أَجْرِهَا، وهذا راجعٌ إلى فقهِ معاويةَ أنَّه غَلَّبَ حرمةَ الجماعةِ على حرمةِ الفردِ، فنُبِشَتْ قبورُهُم.

وهذا أصلٌ عندَ العلماءِ أنَّه يجوزُ النبشُ، واستنبطُوا منهُ مسألتَنَا أنَّه يجوزُ النبشُ عندَ وجودِ الحاجةِ فالحاجةُ تكونْ شرعيةً، وتكونُ خاصةً، وتكونُ عامةً، هذا كُلُّهُ من المسائلِ التي استثناهَا العلماءُ في نبشِ القبورِ، منها مسألةُ نبشِهِ مَنْ أجلِ القيامِ بِحَقِّهِ بالصلاةِ عليهِ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي صَلاةِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **عَلَى النَّجَاشِيِّ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أبو سلمةَ بنُ يحيى بنِ خلفٍ وحميدُ بنُ مسعدةَ قالا: حَدَّثنا بشرُ ابنُ المفضَّلِ حَدَّثنا يونسُ بنُ عُبَيدٍ عن مُحَمَّدِ بنِ سيرينَ عن أبي المهلَّبِ عن عمرانَ بنِ حصينٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال لنا رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِنَّ أَخَاكُمُ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَاتْ، فَقُوْمُوْا فَصَلُّوْا عَلَيْهِ**)) قالَ: فَقُمْنَا، فَصَفَفْنَا كَمَا يُصَفُّ عَلَى الْمَيِّتِ، وَصَلَّيْنَا عَلَيهِ كَمَا يُصَلَّى عَلَى الْمَيِّتِ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أبي هُريرَةَ، وجابرِ بنِ عبدِاللهِ، وأبي سعيدٍ، وحذيفةَ بنِ أسيدٍ، وجريرِ بنِ عبدِاللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جَمِيعًا-.

قال الإمام أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غريبٌ من هذا الوجهِ. وقد رواهُ أبو قِلابةَ عن عمِّهِ أبي المهلَّبِ عن عمرانَ بنِ حصينٍ، وأبو المهلَّبِ اسمهُ عبدُ الرَّحمَنِ بنُ عمرو، ويقالُ لهُ: معاويةَ بن عمرٍو.

الشَّرْح:

ترجمَ الإمامُ الحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذه الترجمةِ: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلاةِ عَلَى النَّجَاشِيِّ]**، النجاشيُّ: هو لقبُ الملكِ عندَ أهلِ الحبشةِ، كَكِسْرَى عندَ أهلِ فَارِس، وقَيْصَر عندَ أهلِ الرُّومِ، فيسمون الملكَ بـ(النَّجَاشِيِّ).

وأصل اسمه: أَصْحَمَةُ بنُ أَبْجَر، وقيل غَيْرُ ذلك، **قيل**: أَصْحَمَة، **وقيل**: صَحْمَة، **وقيل**: صَمْحَة، أقوالٌ في اسمِهِ -رَحِمَهُ اللهُ-.

وهذا الإمامُ والملكُ العظيمُ كانَ له بلاءٌ على المسلمينَ، وكانَ لهُ أثرٌ عظيمٌ في الوقوفِ معَ المسلمينَ في حالِ ضَعْفِهم، وتكالبِ أعدائِهم عليهِم، فقد هَاجَرَ أصحابُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إليهِ بأمرِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حينمَا قالَ: ((**إِنَّ بِالْحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ**)) لِمَا عُرِفَ عنهُ من الصلاحِ والاستقامةِ والعدلِ، فهاجرَ إليهِ مَنْ هَاجَرِ من الصحابةِ، وبَقَوا عندَهُ حتى وَشَتْ قريشٌ في أصحابِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عندَهُ، وكادُوا لأصحابِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فبعثُوا عَمْرًا من أجلِ أنْ يتوصلَ إلى النجاشيِّ، وكان يحبُهُ، فقالَ لهُ فيهم مقالَةً، وحرَّضَهُ عليهم بعدَ أنْ

تَوَسَّلَ إليهِ بالهدايا، فغَضِبَ -رَحِمَهُ اللهُ- وتَأَثَّرَ، فلمَّا رأى عَمْرُو ذلكَ، قال: **"إنَّهم يقولون في عيسى وأمِّه قولاً لا يعجبُكَ فَادْعُهُم"**، فدعاهم، فقرأ جعفرُ حينمَا سألَه النجاشيُّ: ما تقولون في عيسى؟ فقرأ عليه سورةَ مريمَ، فلمَّا قرأَها قالَ النجاشي -رَحِمَهُ اللهُ-: **"إنَّ هذا والذي جاءَ بِهِ عيسى ليخرُجُ من مشكاةٍ واحدةٍ"**، وأقسمَ أنَّه ما زَادَ عيسى بنُ مريمَ وأمُّه على ما ذَكَرَ القرآنُ شيئًا، فنَخَرَتْ القساوسةُ، فقالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **"وَإِنْ نَخَرْتُمْ"**.

فكان له بلاءٌ عظيمٌ، ووَقَفَ معَ المسلمينَ موقفًا عظيمًا، ولذلكَ خصَّهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِهذه الفضائلِ والنوائلِ، وما مِنْ عَبْدٍ عظيمٍ أو صغيرٍ يقيمُ للهِ حقَّهُ ويصدُقُ معَ اللهِ في وَلايتِهِ، وينصرُ أولياءَ اللهِ إلا مَكَّنَ اللهُ لهُ وأعزَّهُ، ولذلكَ لَمَّا تكالبَ أعداءُ النجاشيِّ عليهِ مكَّنَهُ اللهُ منهم، وأصبَحَتِ الغلبةُ لأنَّهم خرجُوا عليه فقاتَلَهم، وخرجَ الصحابةُ ينظرون إلى ذلكَ في القصةِ المشهورةِ في السِّيَرِ، حتَّى مَكَّنَ اللهُ لهُ، فكُلُّ من اعتَزَّ بدينِ اللهِ، وأعزَّ أولياءَ اللهِ، مكَّنَ اللهُ لهُ، وأَرَاهُ حسنَ العاقبةِ، ولذلك كُلُّ ما حُفِظَ من هديِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الصلاةِ على هذا العبدِ الصالحِ، واختصاصِهِ بِهذهِ الْمَنْزِلَةِ العظيمةِ من تزكيةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لهُ بأنَّه أَخٌ لهُ في الإسلامِ، وأنَّه عبدٌ صالحٌ، وصفَهُ بالإخوةِ ووَصَفَهُ بأنَّه عبدٌ صالحٌ:

وصفَهُ بأنَّه عبدٌ صالحٌ: كمَا في روايةِ مسلمٍ في صحيحِهِ، وقالَ: ((**اِسْتَغْفِرُوا لأَخِيْكُمْ**)) ووصفَهُ بالإخوةِ: كما في حديثِنَا وحديثِ البخاريِّ في صحيحِهِ.

وهذا كما نصَّ العلماءُ يدلُّ على إسلامِهِ، ولذلكَ أطبَقَ أهلُ السِّيَرِ على أنَّه كانَ من المسلمينَ؛ لأنَّه لا يُصَلِّي -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- إلا على مسلمٍ، وهذا الحديثُ دليلٌ على إسلامِهِ، وأنَّه صَدَّقَ بِمَا جاء بِهِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وذهبَ طائفةٌ من أئمةِ التفسيرِ إلى أنَّ قولَهُ تعالى في آخرِ سورةِ آل عمران: **{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ}** أنَّها نَزَلَتْ في النجاشيِّ عندَما صَلَّى عليه النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فهَزِئَ المنافقون، وقالُوا: يُصَلِّي على عِلْجٍ -قاتَلَهُم اللهُ- فأَنْزَلَ اللهُ هذه الآيةَ، وفيها الأثرُ الْمُسْنَدُ، **وهو قولُ بعضِ أئمةِ التفسيرِ**.

وإنْ كانَ مذهبُ بعضِ العلماءِ أنَّها نزلَتْ في عبدِاللهِ بنِ سلامٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- وأصحابِهِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فهذا الملكُ كانَ له أثرٌ عظيمٌ على المسلمينَ، ونَصَرَ اللهُ بِهِ المسلمينَ.

وكانَتْ وفاتُهُ في شَهْرِ رَجَب من سنةِ تِسْعٍ من الهجرةِ، **وهوَ قولُ كثيرٍ من أئمةِ السِّيَرِ**.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّه تُوُفِّيَ ووَقَعَتْ هذه الحادثةُ من الصلاةِ عليهِ قبلَ فتحِ مكةَ.
ولكنَّ المشهورَ كما رجَّحَهُ غَيْرُ واحدٍ من مُحَقِّقِي أئمةِ السِّيَرِ أنَّه تُوُفِّيَ في رَجَب من السنةِ التاسعةِ من الهجرةِ، وهذا من أواخرِ التشريعِ المدنيِّ، أنَّه وَقَعَ في أواخرِ حياةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.
وأفردَ أئمةُ الحديثِ بابًا في الصلاةِ على النجاشيِّ في كتابِ الجنازةِ، ومنهُ صنيعُ المصنفِ هنا؛ **لِمَا فيه من المعاني العظيمةِ**:
أولاً: أنَّه خُصَّ بحالٍ دونَ غَيْرِه، حيثُ صَلَّى عليهِ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صلاةَ الغائبِ، ولذلكَ بعضُ العلماءِ يترجِمُ: (بابُ الصلاةِ على الغائبِ)، ومنهُم من صرَّحَ كالإمامِ الترمذيِّ بـ(بَابُ الصلاةِ على النَّجَاشِيِّ).
ولَمَّا كانَتِ الصلاةُ على النجاشيِّ تنتظمُ جملةً من الأحكامِ والمسائلِ المتعلقةِ بالجنائزِ أفردَهُ المصنفُ بِهذا البابِ.
وفيه أيضًا حينمَا يُذكَرُ اسمُ النجاشيِّ، هذا من فقهِ الإمامِ الترمذيِّ، وتعتبَرُ هذهِ ميزةً من مُميزاتِ الإمامِ الترمذيِّ وما أكثرها -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ وَجَزَاهُ عَنِ السُّنَّةِ وَعَنْ أَئِمَّةِ الإِسْلامِ خَيْرَ الْجَزَاءِ-، أنَّه لَمَّا يترجُمُ بِهذِه الترجمةِ فهي أدقُّ وأعمقُ؛ لأنَّها تدلُّ على فضلِ هذا الملكِ الصالحِ، وعلى جملةٍ من الأحكامِ؛ لأنَّه إذا قالَ: (بابُ الصلاةِ على الغائبِ) خَصَّ المسألةَ بالصلاةِ على الغائبِ، معَ أنَّ الحديثَ فيه أحكامٌ كثيرةٌ، منها ما يتعلقُ بالتكبيرِ على الْمَيِّتِ، ولذلكَ بعضُ العلماءِ يذكُرُ في (بابِ عددِ التكبيرِ على الْمَيِّتِ) حديثَ النجاشيِّ؛ لأنَّ فيه عددَ التكبيراتِ؛ لأنَّه كَبَّرَ عليهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أربعَ تكبيراتٍ، ويعتبَرُ حديثُ النجاشيِّ من أحاديثِ الأصولِ في عددِ التكبيرِ على الْمَيِّتِ.
ووَرَدَ عن عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مُسنَدًا أنَّه استشارَ الصحابةَ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- فاستقَرُّوا على أربعِ تكبيراتٍ، وقد تقدَّمَتْ معنا هذه المسألةُ، وذكَرْنَا فيها خلافَ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-.
فحديثُ النجاشيِّ ترجَمَ لهُ الإمامُ المصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذه الترجمةِ التي هي أعمُّ من بابِ الجنائزِ، ولكنَّه جاءَ بطريقةٍ دقيقةٍ، حيثُ قالَ: (بَابُ الصلاةِ على النجاشيِّ)، وكانَ بالإمكانِ أنْ يقولَ: (بَابُ الصلاةِ على الغائبِ)، لكن جَمَعَ بينَ الإشارةِ إلى فضلِ النجاشيِّ بذكرِ اسمِهِ صراحةً، والإشارةِ إلى أنَّ البابَ متعلقٌ بالجنائزِ بقولِهِ: (باب الصلاة على النجاشي).

وهذا كُلُّهُ من فقهِهِ -رَحِمَهُ اللهُ-، وكثيرٌ من تراجمِ الإمامِ الترمذيِّ، خاصةً في المعاملاتِ وكذلكَ في العباداتِ، لكنَّها في المعاملاتِ تدلُّ على عُمْقِ فَهْمِ هذا الإمامِ الجليلِ -رَحِمَهُ اللهُ- وحُسنِ تبويبِهِ، جَزَاهُ اللهُ عَنِ الإسلامِ والمسلمينَ وعَنْ سنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خَيْرَ الجزاءِ.

يقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ الصلاةُ على النجاشيَّ]**، أي في هذا الموضعِ سأذكرُ لكَ ما وَرَدَ عن النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في صلاتِهِ على النجاشيَّ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: ((**عن عِمرانَ بنِ حصينٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **قالَ: قالَ لنا رسولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **إِنَّ أَخَاكُمُ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَاتْ، فَقُوْمُوْا فَصَلُّوْا عَلَيْهِ**)).

((**قَالَ لَنَا رَسُوْلُ اللهِ**)): هذا من معجزاتِهِ، فما بينَ الحجازِ والحبشةِ مفاوزُ عظيمةٌ، ومسافاتٌ طويلةٌ، ولكنَّ اللهَ سبحانه أَوْحَى إلى نبيِّهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وجاءَ جِبْرِيْلُ إلى رسولِ اللهِ يُخْبِرُهُ بوفاةِ النجاشيِّ، وهذه معجزةٌ من معجزاتِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما وَقَعَ في استشهادِ جعفرَ وإخوتِهِ في غزوةِ مؤتةَ، ونحوِهَا من الحوادثِ التي أَخْبَرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيهَا بِمَا وَقَعَ معَ بُعْدِ المسافةِ، ولذلكَ اعتُبِرَ من معجزاتِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

فقالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِنَّ أَخَاكُمْ**))، قولُهُ: ((**إِنَّ أَخَاكُمْ**)) فيهِ دليلٌ كما ذكرْنَا على إسلامِ النجاشيِّ، ووَصَفَهُ بالإخوةِ؛ لأنَّ المسلمَ أخو المسلمِ كمَا بيَّن النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ولا يجوزُ أنْ يقولَ المسلمُ للكافرِ: إنَّه أَخٌ لهُ، إلا إذا قصدَ بالبشرية، ولكنْ لا ينبغي التساهلُ في هذا؛ لأنَّ الأخوةَ هي إخوةُ الإيمانِ، وهي إخوةُ الإسلامِ، وهي الإخوةُ الإيمانيةُ التي جَمَعَ اللهُ بِهَا بينَ المسلمينَ على اختلافِ أحساهِم وأنسابِهِم.

ولذلكَ عَبَّرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بِهَذا التعبيرِ الذي يدلُّ على إسلامِ النجاشيِّ كما ذكرْنَا ((**إِنَّ أَخَاكُمْ**)) والتعبيْرُ بالإخوةِ فيه شَحْذٌ للهمةِ، أنَّ المسلمَ ينصحُ، حينما يُقالُ: هذا أخوكَ فافعلْ له كذا، فإنَّه ينصحُ، إذا ذُكِّرْتَ بالإخوةِ فإنَّكَ تبذُلُ ما تستطيعُ نصحًا له، وقيامًا بَحَقِّهِ.

فقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِنَّ**)) بأسلوبِ التوكيد، وجَرَتْ عادةُ العربِ أنَّ الأمرَ الذي يدخلُهُ الشكُّ، أو يكونُ أمرًا فيه لَبْسٌ على المخاطبِ أنَّه يؤَكَّدُ، فإذا كَثُرَ شكُّهُ وكَثُر ارتيابُهُ يؤكِّدُ بِمُؤَكِّدَيْنِ، فإذا كَثُرَ فإنَّه يؤكِّدُ بأكثرَ من ذلكَ، تقولُ: (إنَّ محمدًا في الدَّارِ، إنَّ محمدًا لفي الدَّارِ، واللهِ إنَّ محمدًا لَفِي الدَّارِ)، على حسبِ درجاتِ الشكِّ والنفي إذا تَرَدَّدَ المخاطبُ، فتعطيه من المؤكداتِ بحسبِهَا. فمن فصاحتِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وهذا أصلٌ معروفٌ في الكتابِ والسنةِ أنَّه جاءَ بأعلى مراتبِ

الفصاحةِ، ولذلك لَمَّا يقولُ: (أَخُوكُم النَّجَاشِيُّ تُوُفِّيَ)، هذا شيءٌ، لكن لَمَّا كانَ الأمرُ أمرًا غيبيًّا، وأمرًا فيه معجزةٌ، قالَ: ((**إِنَّ**)) بأسلوبِ التوكيدِ، وهذا من فصاحتِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-؛ لأنَّ الْمُخَاطِبَ والْمُتَكَلِّمَ إذا رَاعَى حالَ الْمُخَاطَبِ وحالَ ما يخاطبُهُ بِهِ، وجاءَهُ خطابُهُ منسجمًا ومتفقًا مع الشيءِ الذي يذكرُهُ، دَلَّ على علمِهِ وبصيرتِهِ وعلوِّ مكانِهِ، وهذا ما امتَازَ بِهِ كتابُ اللهِ، وسنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فقدْ جاءَ بأعلى درجاتِ الفصاحةِ: ((**إِنَّ أَخَاكُمْ**)).

((**إِنَّ أَخَاكُمْ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَاتَ**)) وفاءٌ، وهذا هوَ حالُ المؤمنِ أنَّه يَفِي ولا يضيّعُ الْحَقَّ.

قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**حِفْظُ الْعَهْدِ مِنَ الإِيْمَانِ**)).

هذا الملكُ الصالحُ قامَ بِمَا قامَ بِهِ مِنْ نُصرةِ المسلمينَ، وبَقِيَ على الحبِّ والوفاءِ، والصلةِ بالنبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وبأصحابِهِ حتى تُوُفِّيَ، ولَمَّا تُوُفِّيَ لَمْ تنقطعْ هذه الوشيجةُ الإيمانيةُ، وهذا من نِعَمِ اللهِ على عبادِهِ المؤمنينَ أنَّ إخوتَهُم لا تنقطعُ بانقطاعِ المصالحِ وذهابِها، فقدْ زالَ ملكُ الرَّجُلِ، ولكنْ بقيتْ آثارُهُ، والعبدُ الصالحُ الموفقُ لا يَنسَى الذِّمةَ والعهدَ، كما قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**حِفْظُ الْعَهْدِ مِنَ الإِيْمَانِ**)).

قالَ الإمامُ الشافعيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: الْحُرُّ مَنْ حَفِظَ وِدَادَ لَحْظَةٍ، وَتَعْلِيْمَ لَفْظَةٍ.

قدْ كانَ بالإمكانِ إذا ماتَ النجاشيُّ أنْ يقالَ: (مَاتَ وذَهَبَ)، ولكنْ أنْ يُنَبَّهَ المسلمينَ، وأَنْ يخرُجَ إمامُهم -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وأنْ يَخرُجَ خاتمُ الأنبياءِ والمرسلينَ يدعو الصحابةَ جماعةً وفُرادَى، قالَتْ عائشةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- كمَا في الصحيحِ: ((**نَعَى النَّبِيُّ النَّجَاشِيَّ يَوْمَ مَاتَ**)) هذا وفاءٌ، ولذلك لا يَظهرُ الوفاءُ إلا عندَ الموتِ وذهابِ مصالحِ الدنيا، إذا ذَهَبَتْ وانقطعَتْ من الإنسانِ تَكَشَّفَتْ له حقائقُ الناسِ، وعَرَفَ من هو الصادقُ في ودِّهِ ومَنْ هُوَ الكاذبُ فيهِ، وعَرَفَ عندَهَا الصلةُ الصادقةُ من الصادقينَ، والْحُبُّ الصادقُ من الصادقينَ، ولاشكَّ أنَّ المؤمنَ يفرَحُ بِهَذا، ولذلكَ ذَكَرَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّ اللهَ أعزَّ إخوةَ الإسلامِ، وجعلَهَا باقيةً خالدةً تالدةً، حَتَّى إنَّها تنفعُ المسلمَ، فهو إذا عاشَ مع أخيهِ المسلمِ عاشَ وفيًّا لا يَنسَى فضلَهُ، ولا يَنسَى إحسانَهُ، فهذا النجاشيُّ له فضلٌ على المسلمينَ لَمْ يُنْسَ عندَ المسلمينَ.

وانظرْ -رَحِمَكَ اللهُ- كيفَ يترحَّمُ عليهِ وتذكَرُ فضائلُهُ حتَّى بعدَ موتِهِ وانقطاعِ الزمانِ وطولِ الزمانِ بينَنَا وبينَه، ومعَ ذُلكَ لا يذكَرُ إلا بالجميلِ -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ وَجَزَاهُ عَنِ الإِسْلامِ وِالْمُسْلِمِيْنَ خَيْرَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَاهُ وَأَعْظَمَهُ وَأَسْنَاهُ-.

وهوَ قِيْلَ: إنَّه صحابِيٌّ؛ بناءً على أنَّه آمَنَ بالنبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في حياتِهِ.
وقِيْلَ: إنَّه يعتبَرُ في حكمِ التابعين، فيترُحَّمُ عليهِ؛ لأنَّه لَمْ يرَ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.
ولذلك شرطُ الصحبةِ: الرُّؤيةِ، ولا يكفي مجردُ الإسلامِ.
وعلى كُلِّ حَالٍ فهذا من فضائلِ إخوةِ الإسلامِ أنَّها باقيةٌ، فإذا تُوُفِّيَ المسلمُ وَجَدْتَ أخاهُ المسلمَ يغسِّلُهُ ويكفنُهُ ويُصَلِّي عليهِ ويشهَدُ جنازتَهُ.
وانظرْ إلى أمواتِ المسلمينَ كيف يُصَلِّي عليهَا مَنْ يعرفُهَا ومَنْ لا يعرفُهَا، وكيفَ يَتَرَحَّمُ عليهَا مَنْ يعرفُهَا ومَنْ لا يعرفُهَا، وكيفَ يشهَدُ هذِهِ الجنازَةَ إذا خَرَجَتْ إلى المقابرِ مَنْ يعرفُها ومَنْ لا يعرفُهَا ولكنَّهَا إخوةُ الإسلامِ، فإذا تُوُفِّيَ المسلمونَ وقُبِرُوا قامُوا إخوانُهم بالسَّلامِ عليهِم، سواءً زَارُوا المقابرَ، أو ذَكَرُوهم، كُلُّ هذا من بقايا إخوةِ الإسلامِ.
فهذا الملكُ لَمَّا ذَهَبَتْ مصالِحُهُ لَمْ تذهبْ فضائِلُهُ، وهذا مِنْ نِعَمِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَكَرَمِ اللهِ على هذِهِ الأئمةِ أنَّهَا أُمَةُ وفاءٍ، وليسَتْ أُمَّةُ غَدْرٍ، ولا أُمَّةُ مصالحَ، ولذلكَ إذا رَأَيْتَ محاسنَ الإسلامِ ومآثرَ الإسلامِ، رَأَيْتَ مآثرَ الكرامِ، وَإذا قَارَنْتَ هذا بأهلِ المصالحِ، ونَظَرْتَ إلى النظرياتِ الماديةِ كيفَ يتقاتَلُ أهلُهَا على الدنيا، وكيفَ يجتمعونَ على الدنيا، فهي التي تجمعُهُم، وهي التي تفرقُهُم، فما إنْ يموتَ الإنسانُ حَتَّى ينقطعَ كُلُّ شيءٍ، لا يعرفونَهُ، ولا يصلونَهُ، ولا يترحَّمُونَ عليهِ، وهذا كُلُّهُ يدلُّ على فضلِ هذا الدِّينِ وعلوِّهِ، ونسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ أنْ يجعلَنَا من الأوفياءِ.
فَوَفَّى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وهذا طبعُهُ ودَأْبُهُ، فَخَرَجَ بنفسِهِ، وأخرجَهُم إلى الْمُصَلَّى، وقدْ كانَ بالإمكانِ أنْ يُصَلِّيَ في المسجدِ، ولذلك أخرجَهُم إلى المصلى.

وللعلماءِ في المصلى قولانِ:

قِيْلَ: المصلى ببطحانَ، والمصلى الذي ببطحانَ هو ما يُعرَفُ اليومَ بـ(مسجد الغَمَامَة)، وهو الذي كانَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يصلِّي فيه صلاةَ العيدينِ وصلاةَ الاستسقاءِ، يخرُجُ إلى المصلى -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وهو هذا المصلى، مُصَلاهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- مطلاً عَلَى ضفةِ بطحانَ الشرقيةِ، وبطحانُ هو من أكبرِ أوديةِ المدينةِ، وهو الذي عَنَتْهُ عائشةُ كما في الصحيحِ، قالَتْ: ((**أَتَيْنَا الْمَدِيْنَةَ وَكَانَ بُطْحَانُ نَجِلاً**))، وهو من أنْهارِ الجنةِ، وَرَدَ في الأَثَرِ أنَّه من أنَهارِ الجنةِ، هو يُطِلُّ على بطحان، هناكَ مسافةٌ ما بينَ المسجدِ وبينَ المصلى.

فإخراجُهُم إلى المصلى يُشعِرُ بأَنَّ هناكَ أمرًا كما أخرَجَهُم لصلاةِ العيدينِ، وأخرَجَهُم إلى صلاةِ الاستسقاءِ، أخرَجَهُم من أجلِ أنْ يُصَلِّيَ عليهِ.

واستدلَّ بِهِ بعضُ العلماءِ على أنَّه لا يُصَلَّى على الجنائزِ في المسجدِ، وقد تقدَّمَتْ معنَا هذهِ المسألةُ فإنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كانَ بالإمكانِ أنْ يُصَلِّيَ عليه بالمسجدِ، ومعَ ذلكَ تَكَلَّفَ بخروجِهِ إلى المصلى فدلَّ على أنَّ الأصلَ أنَّ الجنائزَ لا تَدْخُلُ إلى المسجدِ، وقد تقدَّمَ معنَا بيانُ هذهِ المسألةِ، وأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- صلَّى على سَهْلِ بْنِ بَيْضَاءَ في المسجدِ، وهو مذهبُ طائفةٍ من الصحابةِ، كأُمِّ المؤمنينَ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- حينما أَمَرَتْ بإدخالِ عبدِالرحمن بنِ عوفٍ إلى المسجدِ والصلاةِ عليهِ، وقد تقدَّمَ معنَا بيانُ هذهِ المسألةِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فهذا من وفائِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وبِرِّهِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ سيْرَةَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الوفاءِ وَجَدَهُ يَفِي للناسِ: صغارًا وكبارًا، شبابًا وشيبًا وأطفالاً، ونساءً ورجالاً، وَفَّى للأمواتِ وللأحياءِ، تَجِدُ سنةَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- السيرةَ العطرةَ الجميلةَ مليئةً بالوفاءِ وبالصفحاتِ المشرقةِ من وفائِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، فهذا من وفائِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- للنجاشيِّ، خَرَجَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

((**فَقُوْمُوْا فَصَلُّوْا عَلَيْهِ**))، ((**فَقُوْمُوْا**)): دلَّ على أنَّه يجبُ القيامُ في صلاةِ الجنازةِ، وأنَّه لا يصحُّ أنْ تُصَلَّى الجنازةُ من الجالسِ إذا كانَ قادرًا على القيامِ.

وهذا هو الأصلُ أنَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- رَاعَى القيامَ في الصلاةِ على الجنازةِ إلا إذا وُجِدَ عُذْرٌ وأمَّا على القولِ بأنَّها نافلةٌ فإنَّه يجوزُ أنْ يصلِّيَها قَاعِدًا معَ القدرةِ على القيامِ.

ويجيبُونَ عن هذا الحديثِ في قوله: ((**فَقُوْمُوْا**)) أنَّه كقولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الصحيحين من حديثِ أنسٍ حينمَا دَعَتْ جدَّتُهُ مُلَيْكَةُ رسولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إلى طعامٍ صنعَتْهُ، قالَ: فقالَ لنَا: ((**قُوْمُوْا فَلأُصَلِّيَ لَكُمْ**))، فقولُهُ: ((**قُوْمُوْا فَلأُصَلِّيَ لَكُمْ**)) يدلُّ على أنَّ الأمرَ بالقيامِ ليسَ بالفرضِ.

وأُجِيْبَ عن ذلكَ: بأنَّ قوله: ((**قُوْمُوْا فَلأُصَلِّيَ لَكُمْ**)) وهذا راجعٌ إلى أنَّ الأمرَ بالقيامِ من أجلِ الصلاةِ وهي نافلةٌ، فدلَّ على صَرْفِ الأمرِ عن ظاهرِهِ، وأمَّا حديثُنَا فليسَ فيه صَارِفٌ عن ظاهرِهِ.

((**فَصَلُّوا**)): أَمْرٌ، والأمرُ يدلُّ على الوجوبِ، فيه دليلٌ على مشروعيةِ الصلاةِ على الْمَيِّتِ، وفيه دليلٌ على وجوبِ الصلاةِ على الْمَيِّتِ؛ لأنَّه قالَ: ((**صَلُّوْا عَلَيْهِ**)) فدلَّ على أنَّه يجبُ أنْ يُصَلَّى على أمواتِ المسلمينَ.

وقولُهُ: ((**قُوْمُوْا فَصَلُّوْا عَلَيْهِ**)) قالَ بعضُ العلماءِ: أَمَرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالصلاةِ على النجاشيِّ، وصلَّى عليهِ، وأَلْزَمَ الصحابةَ؛ لأنَّ النجاشيَّ تُوُفِّيَ بأرضٍ ليستْ بأرضِ إسلامٍ، ولذلكَ إذا تُوُفِّيَ المسلمُ في أرضٍ لا يُصَلَّى عليهِ، وليسَ فيهَا مسلمونَ، شُرِعَ أَنْ يُصَلِّيَ عليهِ المسلمونَ ولو كان صلاةَ الغائبِ، ولذلكَ أَمَرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالصلاةِ عليهِ من هذا الوجهِ.

وهذا مسلكُ مَنْ يقولُ: إنَّ الصلاةَ على الْمَيِّتِ الغائبِ خاصَّةٌ بوجودِ الْمُوْجِبِ.

((**فَقُمْنَا فَصَفَفْنَا**)): استجابةٌ لأمرِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكانَ الصحابةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- أسرعَ ما يكونونَ استجابةً لله ورسولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

((**فَصَفَفْنَا**)): فيهِ دليلٌ على أنَّ الصلاةَ على الغائبِ يُرَاعَى فيهَا ما يُرَاعَى في الصلاةِ على الحاضرِ أي أنَّها تُصَفُّ الصفوفَ، يُرَاعَى فيها صفُّ الصفوفِ والتكبيرِ، وأنَّها لا تختلِفُ عن الصلاةِ المعهودةِ على الحاضرِ، وغايةُ ما فيهَا أنَّ الأولَ شاهدٌ، والثاني غائبٌ.

وقولُهُ: ((**فَصَفَفْنَا**)) فيهِ مشروعيةُ الصَّفِّ، وفيهِ مشروعيةُ -كمَا يقولُ بعضُ العلماءِ- أنَّ الصلاةَ على الجنائزِ يُرَاعَى فيهَا تسويةُ الصُّفوفِ؛ لأنَّها صلاةٌ، والنبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَمَرَ باعتِدَالِ الصُّفوفِ في الصلاةِ، ولذلك يُشرَعُ فيها تسويةُ الصُّفوفِ.

وقولُهُ: ((**فَصَفَفْنَا**)) فيهِ دليلٌ على أنَّه يُرَاعَى فيهَا في الصَّفِّ ما يُرَاعَى في الصلاةِ المفروضةِ، ولذلك تتقارَبُ الصفوفُ إلا مِنْ وجودِ ضرورةٍ أو حاجةٍ، بمعنى أنَّه لا يلتصِقُ المؤخَّرُ بالمقدَّمِ كمَا يفعلُهُ البعضُ، وإنَّما تُصَفُّ الصفوفُ منفصلةً، كالحالِ في الصلاةِ المعهودةِ؛ لأنَّه قالَ: ((**فَصَفَفْنَا**))، ولذلك يُرَاعَى الانفصالُ، وأنْ تكونَ الصفوفُ متميزةً، كما هو الأصلُ في الصلاةِ.

وأمَّا ما يفعلُهُ البعضُ: من التساهلِ في تسويةِ الصفوفِ في الصلاةِ على الجنازةِ، وكذلكَ وُجُوْدِ فُرَجٍ، فيُصَلِّي في الصفِ الثاني مع وجودِ الفرجةِ في الصفِّ الأول، ونحوِ ذلكَ، هذا لا ينبغي مخالفٌ للأصلِ. لكنْ لو أنَّها جَزَّأَهَم ثلاثةَ صفوفٍ، معَ إمكانِ أنْ يُصَلِّيَ الجميعُ صفًّا واحدًا، هذا لهُ أصلٌ من السنةِ، وهو مراعاةُ الشفاعةِ، حيثُ وَرَدَ عنهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ما يدلُّ على هذا الأصلِ، لكنَّ الفُرَجَ

بينَ الصفوفِ هذه مخالفةٌ للسنةِ في الصلاةِ عمومًا، وفي الصلاةِ على الجنازةِ خُصُوصًا فهذا يدلُّ على أنَّه يُشرَعُ في الصفوفِ في الصلاةِ على الجنازة ما يشرَعُ في الصلاةِ عامةً.

((**وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ كَمَا يُصَلَّى عَلَى الْمَيِّتِ**)): فيه دليلٌ على مشروعيةِ الصلاةِ على الغائبِ، وقد تقدَّمَتْ معنا هذه المسألةُ، وبيَّنَّا مذهبَ مَنْ يقولُ: إنَّ هذا عندَ وجودِ الحاجةِ، ولذلكَ لَمْ يُصَلِّ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على غائبٍ إلا على النجاشيِّ، فلو كانَ مشروعًا لَصَلَّى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- على مَنْ مَاتَ من أمواتِ المسلمينَ من الغائبينَ، ولذلكَ إذا مَاتَ بأرضٍ لَمْ يُصَلَّ عليهِ، أو كانَ له عظيمُ بلاءٍ، كالإمامِ العادلِ، والملكِ الصالحِ، ومَنْ يُعْرَفُ بنصرةِ المسلمينَ، وعظيمِ بلائِهِ على الإسلامِ والمسلمينَ، كُلُّ هذه المعاني مستنبطةٌ من حديثِ النجاشيِّ، وهو ما يُعرَفُ عند العلماءِ بـ(**الوصفِ المناسبِ لشرعيةِ الحكمِ**).

النجاشيُّ فيه صفةٌ: أنَّه نَصَرَ المسلمينَ، ولذلكَ قالُوا: مَنْ كانَ لَهُ بلاءٌ على المسلميَن شُرِعَ أنْ يُصَلَّى عليهِ؛ لأنَّه إذا صُلِّيَ عليهِ في الأقطارِ تساءَلَ الناسُ عنهُ، وعَرَفُوا فضلَهُ، فإذا عَرَفُوا فضلَهُ دَعَاهُم إلى أنْ يقتدُوا بِهِ، وأنْ يَأتَسُوا به، و أنْ يصنَعُوا صنيعَهُ، ودَعَاهم إلى تعظيمِ شعائرِ اللهِ، أنَّ نُصرةَ الإسلامِ عظيمةٌ، وأنَّ مَنْ يَنْصُرُ الإسلامِ يكونُ لهُ الشأنُ، ويكونُ له الْحَقُّ، فهذا معنًى صحيحٌ، وأصلٌ صحيحٌ.

وكذلكَ أيضًا مَنْ تُوُفِّيَ بأرضٍ لَمْ يُصَلَّ عليهِ، أَو بأرضٍ غَيْرِ مسلمينَ شُرِعَ أَنْ يُصَلَّيَ عليهِ المسلمونَ بأرضِهم؛ لأنَّ النجاشيَّ تُوُفِّيَ بأرضٍ غَيْرِ أرضِ الإسلامِ، فهذا الوصفُ موجودٌ في الحديثِ، فيصلحُ أنْ يكونَ عِلَّةً للحكمِ، ومن هنَا قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّه إذا وُجِدَ الموجبُ للصلاةِ على الْمَيِّتِ فإنَّه يُصَلَّى عليهِ.

كذلكَ أيضًا في قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**فَقُوْمُوْا**)) هذا أَمْرٌ، قالُوا: فَإِذَا دَعَا إمامُ المسلمينَ إلى الصلاةِ على مَيِّتٍ شُرِعَ أَنْ يُصَلَّى عليهِ؛ لأنَّ الحديثَ فيهِ أمرٌ من ولي الأمرِ، وهو النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فقالُوا: تُشرَعُ الصلاةُ على الْمَيِّتِ الغائبِ إذا أَمَرَ بِهَا الإمامُ وَمَنْ في حُكمِهِ؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَمَرَ بذلكَ.

فهذه كُلُّهَا مَعَانٍ مستنبطةٌ من حديثِ النجاشيِّ، ولذلكَ قالُوا: إذا وُجِدَتْ هذه الأوصافُ شُرِعَتْ هذهِ الصلاةُ كما وَرَدَتِ السنةُ.

رقم الدَّرس ٤٢٦

الأربعاء ١٦-٨-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الْحافظُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أبو كريبٍ حَدَّثنا عبدةُ بنُ سليمانَ عن مُحَمَّدِ بنِ عمرٍو حَدَّثنا أبو سلمةَ عن أبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قالَ رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَلَهُ قِيْرَاطٌ، وَمَنْ تَبِعَهَا حَتَّى يُقْضَى دَفْنُهَا فَلَهُ قِيْرَاطَانِ أَحَدُهُمَا أَوْ أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ**))، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لابْنِ عُمَرَ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَتْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: صَدَقَ أَبُو هُرَيْرَةَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَقَدْ فَرَّطْنَا فِي قَرَارِيْطَ كَثِيْرَةٍ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن البَرَاءِ، وعبدِاللهِ بنِ مغفَّلٍ، وعبدِاللهِ بنِ مسعودٍ، وأبي سعيدٍ، وأُبيّ بنِ كعبٍ، وابنِ عمرَ، وثوبانَ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمَيْعِ-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ أبي هُريرَةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، قد روى عنهُ من غَيْرِ وجهٍ.

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الْحمدُ للهِ ربِّ العالَمِيْنَ، والصلاةُ والسلامُ الأَتَمَّانِ الأكملانِ على خَيْرِ خلقِ اللهِ أجْمَعِيْنَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ سار على سبيله ونَهجه واستن بسنته إلى يوم الدِّين، أمَّا بعدُ:

فَقَدْ تَرْجَمَ الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ والتي تتعلقُ بفضلِ الصَّلاةِ على الْجنازةِ.

ومناسبةُ هذا البابِ: واضحةٌ ظاهرةٌ، حيثُ إنَّ من سُنَنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كَمَا تَقَدَّمَ معنَا في الأحاديثِ الصحيحةِ: الصلاةَ على الْجنازةِ، ولَمَّا كانَتْ هذه السنةُ قدْ أَمَرَ بِها النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وحثَّ الأمةَ عليهَا؛ وفاءً وقيامًا بِحَقِّ الْمسلمِ على أخيهِ الْمسلمِ، نَاسَبَ أنْ يَذْكُرَ ما وَرَدَ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في بيانِ فضلِهَا، وعظيمِ ما أَعَدَّ اللهُ من الثوابِ لِمَنْ قامَ بِهَا، وأدَّاها على وجهِهَا.

[فَضْلُ الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ]: أي في هذا الموضعِ سأذكُرُ لكَ ما وَرَدَ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الفضلِ.

وأصلُ الفضلِ: الزيادةُ، و"فَضُلَ الشيءُ على الشيءِ": إذا زَادَ عليهِ.

وهذِهِ الصَّلواتُ: منهَا مَا هُوَ فريضةٌ، **ومنهَا** مَا هُوَ نافلةٌ.

ثُمَّ إنَّ النوافلَ والفرائضَ يَفْضُلُ بعضُهَا على بعضٍ بتفضيلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فهذِهِ الصَّلاةُ جَعَلَ اللهُ فيهَا هذا الأجرَ العظيمَ، والثَّوابَ الكريمَ: أنَّ مَنْ أدَّاها يبتغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ فَلَهُ قِيْرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيْرَاطَانِ.

وهذا الْحديثُ الواردُ عنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **هُوَ** -في الحقيقةِ- **مُتعلِّقٌ بالأمرينِ**: بالصَّلاةِ على الْجَنَازَةِ، وبشُهُودِ الدَّفْنِ.

فمِنَ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- مَنْ جعلَهُ تَحتَ: (**بابِ فضلِ الصَّلاةِ على الْجنازةِ**)، كما هو صنيعُ كثيْرٍ مِنَ العلماءِ والأئمةِ، ومنهُم الْمصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ-.

والسُّؤالُ: أنَّ الْحديثَ يشتملُ على الأمرينِ، **فلمَاذَا خَصُّوهُ بالصَّلاةِ؟**

لأنَّ الصلاةَ هي أولُ ما يقعُ؛ ولأنَّه في الغالبِ لا يشهَدُ الدَّفْنَ إلا مَنْ صَلَّى على الْجنازةِ، ولذلِكَ كانَتِ العنايةُ بفضلِ الصَّلاةِ آكَدُ مِنْ هذا الوجهِ.

وفي هذا الْحديثِ بَيَّنَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ مَنْ صَلَّى على الْجنازةِ لهُ قِيْرَاطٌ، وظاهرُ هذا الْحديثِ شاملٌ لِمَنْ أدركَ الصَّلاةَ من أَوَّلِهَا، أو أدركَهَا في آخرِهَا، فمَا دَامَ أنَّهُ قدْ أدركَ الإمامَ قبلَ أنْ يُسَلِّمَ التسليمةَ الأخيْرَةَ التي يَخرُجُ بِهَا مِنَ الصَّلاةِ، فإنَّهُ يَحوزُ هذا الفضلَ؛ لأنَّ النصوصَ دَلَّتْ على أنَّ مَنْ شَهِدَ الصَّلاةَ وخَرَجَ إلى الصَّلاةِ، أنَّ الشُّهُودَ ومُجردَ الْخُروجِ يُوجِبُ الفضلَ، كمَا في الْحديثِ الصحيحِ عنْ أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في صحيحِ مسلمٍ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ: ((**صَلاةُ الرَّجُلِ فِي مَسْجِدِهِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَسُوْقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِيْنَ ضِعْفًا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ، فَأَسْبَغَ الْوُضُوْءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لا يُخْرِجُهُ إِلا الصَّلاةَ لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً أَوْ خُطْوَةً إِلا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيْئَةٌ**...)) الْحديث.

قالُوا: فقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ**)) جُمْلَةٌ تعليليّةٌ تدلُّ على أَنَّ الفضلَ والثَّوابَ متعلِّقٌ بكلفةِ الْخُرُوجِ.

وقدْ أَكَّدَ هذا: النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بقولِهِ: ((**مَنْ عَمِدَ إِلَى مَسْجِدٍ، فَوَجَدَ أَهْلَهُ قَدْ قَضَوا،**

أَوْ صَلُّوا كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِمْ)) فهذا يدلُّ على أنَّ الأمرَ متعلِّقٌ بالشُّهُودِ.

فإذا شَهِدَهَا، وأدركَ الإمامَ قبلَ أنْ يُسَلِّمَ التسليمةَ التي يَخرُجُ بِهَا من صلاةِ الْجنازةِ فقدْ أدركَ الصَّلاةَ، أي أدركَ فضلَهَا.

وأمَّا حُكْمُ الصَّلاةِ: فإنَّهُ لا يُدْرَكُ بالنسبةِ للصَّلواتِ الأُخَرِ، فإنَّه لا يُدرَكُ إلا بإدراكِ الركعةِ الأخيْرةِ مِنَ الصَّلاةِ كمَا تَقَدَّمَ مَعَنَا في (بابِ صلاةِ الْجماعةِ).

إذا ثَبَتَ هذا فإنَّهُ مَنْ أَدْرَكَ هذِهِ الصَّلاةَ فإنَّهُ يَحُوزُ هذا الفضلَ.

وجُمْهُورُ العلمـاءِ والأئمـةِ على أنَّ الصَّـلاةَ على الْجنـازةِ لا تُكَرَّرُ، وهـذا هو الأصـلُ.

وبناءً على ذلكَ فالعبْرةُ بالْجماعةِ الأُمِّ، وهي الْجماعةُ الأولى.

ولأنَّ إحداثَ الْجماعةِ الثانيةِ ليسِ على السَّنَنِ، ولَمْ يكُنِ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يأذنُ لِمَنْ فاتَتْهُ الصَّلاةُ على الْجنازةِ، أو قبلَ أنْ يَدْفِنَ الْجنازةَ يقولُ: مَنْ لَمْ يُصَلِّ فَلْيُصَلِّ عليهَا، وإِنَّمَا كانَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يُبادرُ بعدَ أنْ تُوضَعَ الْجنازةُ عن الأعناقِ بدفنِهَا، وهذا هو الأصلُ.

ولأنَّ إحداثَ الْجماعةِ الثانيةِ يُوجِبُ الكَسَلَ عن الْجماعةِ الأولى، بل إنَّكَ تشاهِدُ في الْمسجدِ الحرامِ رُبَّما صَلُّوا في الْمساجدِ القريبةِ من القبورِ، وتقاعَسُوا عن صلاةٍ مضاعفةٍ، خاصةً على القولِ بأنَّ الْمضاعفةَ في الْمسجدِ، **وهذا هو أفضلُ**، وهو شُهُودُ الإمامِ الأولِ والْجماعةِ الأكثرِ.

ولذلك ظاهرُ هذا -خاصةً على القولِ الذي لا يَرَى تِكْرَارَ الْجماعةِ- أنَّ الْمرادَ بالصَّلاةِ أنْ يُصَلِّيَ عليهَا معَ الْجماعةِ، وهي جَمَاعةُ الإمامِ.

وقولُهُ: ((**فَلَهُ قِيْرَاطٌ**))، وبيَّنَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ أصغرَ القيْرَاطِ مِثْلُ أُحُدٍ.

وأُحُدٌ: جَبَلٌ عظيمٌ، وهو الْجبلُ الْمشهورُ في الْمدينةِ، يَمتدُّ من الشمالِ الْمحضِ إلى الشمالِ الشرقيِّ، وهو أكثرُ من أربعةِ كيلو تقريبًا، وهذا الْجبلُ معَ شُمُوخِهِ وعَرْضِهِ كُلِّهِ يُعادلُ أصغرَ القيْرَاطَيْنِ، وهذا يدلُّ على عظيمِ الفضلِ الذي أَعَدَّهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وجَبَلُ أُحُدٍ: مشهورٌ في المدينةِ، وهو الذي قالَ فيهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**)) كمَا في الْحديثِ في الصحيحِ عن أنسِ بن مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَمَّا قَفَلَ من الغزوةِ، وبَدَا لَهُ أُحُدٌ، قالَ-عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-:((**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**))والذي جعلَ الْمحبةَ في الإنسانِ والْحيوانِ قَادِرٌ على أنَّ يَضَعَهَا في الْجمادِ، وفي كلِّ شيءٍ، فَهُوَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، ولا يعجزُهُ شيءٌ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وكونُهُ يَضْرِبُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- الْمَثَلَ بعظيمِ الأجرِ بأنَّ أصغرَ القيْرَاطِ مِثْلُ أُحُدٍ، **فيهِ دليلٌ على مسألةٍ مشهورةٍ**: وهي أنَّ الأعمالَ تُوْزَنُ، وأنَّها تصيْرُ إلى أَجْرَامٍ تُوْزَنُ في الْميزانِ يومَ القيامةِ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ-: **هلِ الذي يُوزَنُ العاملُ نفسُهُ؟ أمِ الذي يُوزَنُ العملُ من الْحسناتِ والأعمالِ والأقوالِ، وما يكونُ من العبدِ مِنْ صالِحِ القولِ والعملِ والاعتقادِ؟**

قالَ بعضُ العلماء: إنَّ الذي يُوزَنُ هُوَ الأعمالُ؛ لقولِهِ-عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**كَلِمَتَانِ خَفِيْفَتَانِ عَلَى اللِّسَـــانِ، ثَقِيْلَتَانِ فِي الْمِيْزَانِ، حَبِيْبَتَانِ إِلَى الرَّحْمٰنِ**))، فقالَ: ((**ثَقِيْلَتَانِ فِي الْمِيْزَانِ**)).

وقالَ-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ -أَوْ تَمْلأُ- مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**)).

فقولُهُ: ((**تَمْلأُ الْمِيْزَانَ**)) يدلُّ على أنَّ الذي يُوزَنُ هُوَ العملُ.

وهنا بَيَّنَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ الصَّلاةَ بِقِيْرَاطٍ، وأنَّ القِيْرَاطَ مِثْلُ أُحُدٍ، وهذا يدلُّ على أنَّ الْمَوزُونَ هُوَ العملُ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ الذي يُوزَنُ هُوَ العامِلُ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ:{**فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً**}

وفي الْحديثِ الصحيحِ عن النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ كانَ معَ الصحابةِ، وركبَ عبدُ اللهِ بْنُ مسعودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- غُصنَ الشجرةِ، فبَدَتْ سَاقَاهُ ضعيفَتَيْنِ، فضَحِكَ الصحابةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-، فقالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أَتَضْحَكُوْنَ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيْزَانِ مِنْ أُحُدٍ**)) قالُوا: فهذا يدلُّ على أنَّ الذي يُوزَنُ هو العامِلُ.

<u>والَّذِي يَتَرَجَّحُ فِي نَظَرِي</u> -وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ- أنَّ عَرَصَاتِ يومِ القيامةِ أحوالٌ، كمَا ذكرَهَا عبدُ اللهِ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، وأنَّهُ تَارَةً يُوزَنُ العاملُ، وتَارَةً يُوزَنُ عملُهُ؛ لأنَّ الكلَّ قدْ جَاءَ بِهِ النَّصُّ، وليسَ هُنَاكَ تَضَادٌّ؛ لأنَّ هذا مِنِ اختلافِ التَّنُوعِ:

أي أنَّه **تَارَةً** يكونُ الوزنُ للعاملِ،يشرِّفُ اللهُ بهِ عبادَهُ الْمؤمنيْنَ، وكذلكَ أيضًا **تَارَةً** يكونُ الوزنُ للعملِ.

فَوُرُوْدُ الْخَبَرِ بِهَذَا، وَوُرُوْدُهُ بِهَذَا لهُ مَعْنًى على الوجهَيْنِ.

وعلى ذلك، فإنَّ حديثَنَا يدلُّ على أنَّ العملَ يُوزنُ.

وكونُهُ يدلُّ على أنَّ العملَ يُوزنُ، لا ينفِي أنَّ العاملَ يُوزنُ، وعَرَصَاتُ يومِ القيامةِ كمَا قَرَّرَ غَيْرُ واحدٍ، وهُوَ مذهبُ عبدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ حينمَا أَوْرَدَ عليهِ الْخوارجُ، وأَوْرَدَ عليهِ بعضُ أهلِ الأهواءِ اختلافَ النصوصِ في وصفِ الآخرةِ، بَيَّنَ أنَّ القيامةَ أحوالُهَا وأهوالُهَا -نَجَّانَا اللهُ وإيَّاكم منهَا- متعددةٌ مُختلفةٌ.

وفي إرسالِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- إلى أُمِّ الْمؤمنيْنَ عائشةَ **فوائدُ:**

منهَا: فضلُ أُمِّ الْمؤمنيْنَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- وَعُلُوِّ شأنِهَا، حيثُ كانُ أصحابُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يرجِعُون إليهَا، ويسألونَهَا في الْمسائلِ، بلْ كانُوا يَحتكِمُون إليهَا في بعضِ النوازلِ، حَتَّى إنَّهَا -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- حينمَا اختلفَ الصحابةُ **فِي الْمسألةِ الْمشهورةِ:** مَنْ جامعَ أهلَهُ، ولَمْ يُنْزِلْ، هلْ عليهِ الغُسْلُ أو لا؟

وكانَتْ رُخْصَةً في أولِ الإسلامِ، فحَفِظَ بعضُ الصحابةِ الْمنسوخَ، ولَمْ يَحفَظُوا النَّاسخَ، ثُمَّ لَمَّا كانَ عَهْدُ عُمَرَ أَرسلَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إلى أُمِّ الْمؤمنيْنَ عائشةَ يستفتِيْهَا، فأخبرَتْهُ بِحديثِ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما في الصحيحين: ((**إِذَا الْتَقَى الْخِتَانَانِ، فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ، أَنْزَلَ، أَوْ لَمْ يُنْزِلْ**))، قالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بعدَ أنْ بلغَتْهُ مقالةُ أُمِّ الْمؤمنيْنَ عائشةَ وحديثُهَا: (مَنْ خَالَفَ بَعْدَ الْيَوْمِ جَعَلْتُهُ نَكَالاً لِلعَالَمِيْنَ)، وهذا يدلُّ على فضلِ أُمِّ الْمؤمنيْنَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-، وعُلُوِّ شأنِهَا، ومَا كانَتْ عليهِ من العلمِ والْمعرفةِ بسنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وفيهِ دليلٌ على فضلِ الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-، وتَحرِّيهِم في هدي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وأنَّهُ ينبغِي للعالِمِ، وينبغِي لطالبِ العلمِ، وينبغي لِكُلِّ مَنْ يَنْشُدُ الْحَقَّ أنْ يُعَزِّزَ، وأنْ يستوضِحَ؛ حتَّى يكونَ الأمرُ عندَهُ على بينةٍ واضحةٍ، كمَا قالَ اللهُ تعالى: **{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي}**، فمَنْ جَمَعَ الْحديثيْنِ ليسَ كمَنْ جَمَعَ الْحديثَ الواحدَ، ومَنْ جَمَعَ النصوصَ ليسَ كمَنْ جَمَعَ النصَّ والنصيْنِ، فكُلَّمَا ازدَادَتْ معرفةُ الإنسانِ بالنصوصِ، وأَورَدَهَا، عَظُمَ أجرُهُ عندَ اللهِ، وازدَادَ قلبُهُ طمأنينةً، وثقةً بالْحَقِّ، فاستوثقَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- بالإرسالِ إلى أُمِّ الْمؤمنيْنَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-.

وفيهِ دليلٌ على فضلِ الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-، وأنَّهُ لَمْ يَكُنْ بينَهُم ارتفاعُ درجةِ بعضِهِمْ في العلمِ موجبًا للحسدِ، ولا للتنابزِ، ولا للتنافرِ، وإنَّما كانَتْ صلةُ العلمِ بينَهُم قويةً، وكانُوا يتواصلُون ويتساءَلُون، ويرجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ، ولَمْ يكنِ الْخِلافُ بيْنَ صحابيٍّ وآخرَ حينمَا يُرْسَلُ إلى الصحابيِّ الثالثِ موجبًا للتحاملِ والعصبيةِ، بلْ كانْ موجبًا للمحبةِ والإلفةِ، وتَحرِّي الْحَقِّ والصوابِ.

وما اجتهدَ عَبْدٌ في طلبِ الْحَقِّ إلا فَتَحَ اللهُ في وجهِهِ أبوابَ الْخَيْرِ، ويَسَّرَهُ لهُ وأعانَهُ عليهِ، ووَضَعَ لهُ القَبُولَ في الأمةِ، حيثُ ينشرحُ الصدرُ بقولِهِ، ويطمئنُ بفتواهُ كُلُّ مَنْ كانَ حريصًا على تَحَرِّي الْحَقِّ، واتِّباعِ الْحَقِّ.

لذلكَ وَضَعَ اللهُ للصحابةِ من القَبُولِ مَا لَمْ يَضَعْهُ لغيْرِهِم؛ لِمَا كانُوا عليهِ من هذِهِ النفوسِ الطيبةِ الطاهرةِ، فالعلمُ قدَّسَهُ اللهُ وطهَّرَهُ اللهُ من الضغائنِ والشحناءِ والسوءِ والبغضاءِ، ليسَ مَحَلاً لِدَخَلِ الشيطانِ الذي يفسدُ القلوبَ، ويفسدُ الأرواحَ والأنفسَ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- بِجعلِهِ لِحطامِ الدنيا، وإنَّما هُوَ أسْمَى وأسْنَى وأعلى من ذلِكَ كُلِّهِ،فهُوَ نورُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- الذي ينبغِي أنْ يُصَانَ عن الفِتَنِ،والضغناءِ، والشحناءِ، والبغضاءِ، ونَحوِهَا من أمراضِ القلوبِ.

فكانَ الصحابةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- في أعلى الْمراتبِ وأسناهَا وأشرفِهَا وأعلاهَا.

وفيهِ دليلٌ على التواصلِ في العلمِ والسؤالِ.

وفيهِ دليلٌ على حُجِّيَّةِ خَبَرِ الواحدِ، حيثُ إنَّهُ أَرْسَلَ لَهَا شَخْصًا واحدًا، واستوثقَ بِهَذا الْخَبَرِ.

وفيهِ دليلٌ على العملِ بِهذا الْخَبَرِ، وهذا أصلٌ قرَّرَتْهُ النصوصُ في الكتابِ والسنةِ.

وهذِهِ الْمسألةُ مشهورةٌ، وقولُ جُمهُورِ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّ خَبَرَ الواحدِ يُعمَلُ بهِ، وأنَّهُ حُجَّةٌ في الأحكامِ سواءً كانَ فيمَا تَعُمُّ بهِ البلوى، وهذا مِمَّا تَعُمُّ بهِ البلوى، ومعَ ذلِكَ عَمِلَ عبدُ اللهِ بنْ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- بِهذا الْخَبَرِ، واحتكمَ إلى أُمِّ الْمؤمنيْنَ، وعَمِلَ بقولِهَا وفتواهَا.

((**فقالَ ابنُ عُمَرَ: لَقَدْ فَرَّطْنَا فِي قَرَارِيْطَ كَثِيْرَةٍ**)): **فيهِ دليلٌ** على مَحبةِ الصحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- للخيْرِ وتألُّمِهِمْ على فواتِهِ.

والعبدُ الصالِحُ يظهرُ صلاحُهُ بإصلاحِ نفسِهِ، وإصلاحُ النفسِ موقوفٌ على العلمِ بِمَا يُرضِي اللهَ والعملُ بذلِكَ العلمِ.

أولاً: أَنْ تَعْلَمَ ما الذي يُرضِي اللهَ، **وثانيًا**: أَنْ تَعْمَلَ بِمَا عَلِمْتَ.

فكانَ الصحابةُ تَتَفَطَّرُ قلوبُهم حَزَنًا وأَلَمًا، مَا بكوا على تِجارةٍ كَسَدَتْ، ولا على أموالٍ ذَهَبَتْ، وإنَّما بكوا على رأسِ الْمالِ والتجارةِ الرابِحةِ الرائحةِ، وهي التجارةُ معَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وكانَتْ بيدِهِ الْحَصَى فَرَمَاهَا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاه-؛ إظهارًا بالقولِ والعملِ على شدةِ التألُّمِ.

(**لَقَدْ**): باللامِ الْمفيدةِ للتحقيقِ، اللامُ وقَدْ، وهذانِ حرفانِ من حروفِ التوكيدِ.

لَمْ يَقُلْ: (فَرَّطْنَا فِي قَرَارِيْطَ كَثِيْرَةٍ)، ولَمْ يَقُلْ: (قَدْ فَرَّطْنَا)، وإنَّما قالَ: (**لَقَدْ فَرَّطْنَا**)، كأنَّهُ يقولُ: (واللهِ لَقَدْ فَرَّطْنَا فِي قَرَارِيْطَ كَثِيْرَةٍ)، وهذا يدلُّ على أنَّهُ ينبغي للمسلمِ أنْ يعظِّمَ الْخَيْرَ، بالتألُّمِ على فواتِهِ، والتحسرِ، وهذه الْحسرةُ توجبُ للإنسانِ إذا لَمْ تكنْ تسخطًا على القضاءِ والقدرِ، توجبُ لهُ ثبوتَ الأجرِ، فإنَّ الإنسانَ إذا فاتَهُ الْخَيْرُ وتألَّمَ لفواتِهِ، ونَدِمَ، كَتَبَ اللهُ لهُ أجرَ مَنْ عَمِلَ.

ومِنْ هُنا قالَ مُطَرِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ-: (**لأَنْ أَبِيْتَ نَائِمًا، وَأُصْبِحَ نَادِمًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَبِيْتَ قَائِمًا، وَأُصْبِحَ مُعْجَبًا**)،فالتألُّمُ لفواتِ الْخَيْرِ،والْحُزنُ لفواتِ الْخَيْرِ، لا يزالُ العبدُ يتألَّمُ ويتحسَّرُ حَتَّى ترفعَ درجتُهُ، وهذا من أعمالِ القلوبِ، فإذا تألَّمَ وحَزِنَ، هذا من عملِ القلبِ، وفيهِ دليلٌ على صلاحِ القلبِ، فإنَّ النفوسَ إذا صَلُحَتْ واستقَامَتْ على دِيْنِ اللهِ، والتزمَتْ بشرعِ اللهِ، أصبحَتْ أشجانُهَا وأحزانُهَا كُلُّها في طاعةِ اللهِ ومَحبةِ اللهِ ومرضاةِ اللهِ، تَحزنُ لفراقِهَا وتفرحُ لإصابتِهَا، وإنَّكَ لتجدُ الرَّجُلَ كمَا كانَ السلفُ الصالِحُ تَجدُهُ مرَّقَعَ الثيابِ، حافِيَ القدمَيْنِ، ولكنَّهُ غَنِيٌّ باللهِ وطاعةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ مَدْفُوْعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهَ لأَبَرَّهُ**)).

فالعزُّ كلُّ العزِّ أنْ يعتزَّ الإنسانُ بطاعةِ اللهِ، فإذا أمسى وأصبحَ، وقدْ عَمِلَ الْخَيْرَ، ووُفِّقَ للخَيْرِ، أمسى وأصبحَ قائمًا بِحَقِّ اللهِ، عفيفًا عن حُدُودِ اللهِ، مُجتنِبًا لِمحارمِ اللهِ، سالِمًا من أعراضِ الْمسلميْنَ، مسلمًا قدْ سَلِمَ الْمسلمُونَ من يدِهِ ولسانِهِ، فإنَّه لا يُمسِي إلا ولسانُهُ يلهَجُ بِحمدِ اللهِ والثناءِ عليهِ، أنَّهُ رَبِحَتْ تِجَارَتُهُ في ذلكِ اليومِ.

وهكذا كانَ الصحابةُ، فانظرْ إلى هذا الصحابيِّ الجليلِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-كيفَ يتحسَّرُ ويتألَّمُ لفواتِ هذا الْخَيْرِ؛ لأنَّ الإنسانَ مَنْزِلَتُهُ عندَ اللهِ بقدرِ الصلاحِ والفلاحِ.

نسألُ اللهَ بعزَّتِهِ وجلالِهِ أنْ يَجبُرَ كسرَنَا، وأنْ يرحَمَ ضعْفَنَا.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابٌ آخَرُ]**

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ أخبرنا روحٌ بنُ عبادةَ حَدَّثنا عبَّادُ بنُ منصورٍ قال: سمعتُ أبا الْمهزَّمِ قال: صَحِبْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَشْرَ سِنِيْنَ، فسمعتهُ يقولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقولُ: ((**مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً وَحَمَلَهَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهَا**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حدِيثٌ غَريبٌ، ورواهُ بعضهُم بِهذا الإسنادِ ولَمْ يرفعهُ، وأبو الْمهزَّمِ اسْمُهُ يزيدُ بنُ سفيانَ، وضعَّفهُ شعبةُ.

الشَّرْح:

هذا الْحديثُ ضعيفٌ.

وفِي قولِهِ: ((**صَحِبْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَشْرَ سِنِيْنَ**)) هذا فيهِ دليلٌ على أنَّه يَجوزُ للإنسانِ أنْ يثنِي على نفسِهِ بالْخَيْرِ؛ ليثقِ الناسُ بقولِهِ وعلمِهِ.

وهذا لهُ أصلٌ كما في قولِهِ تعالى: **{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}**.

يَجوزُ أنْ يزكِّيَ الإنسانُ نفسَهُ، فيقولُ: (صَحِبْتُ الشيخَ فلانًا، ولَزِمْتُهُ سنتيْنِ أو ثلاثَ أو عشرَ أو عشريْنَ سنةً)، مِنْ بابِ التَّحدُثِ بنِعَمِ اللهِ، ومِنْ بابِ التنبيهِ على أنَّه لا يَدَّعِي العلمَ، وأنَّهُ قدْ أَخَذَ العلمَ عن أهلِهِ.

وفِي الصحيحِ عن أبي العبَّاسِ سهلِ بنِ سعدٍ الساعديِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه قالَ -كما في صحيحِ البخاريِّ-: ((**أَنَا أَعْلَمُ بِمِنْبَرِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-))، وفِي بعضِ ألفاظِهِ: ((**لَيْسَ هُنَاكَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِمِنْبَرِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **مِنِّي، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَقُوْلُ لامْرَأَةٍ مِنَّا: انْظُرِي غُلامَكِ النَّجَارَ فَلْيَصْنَعْ لِي أَعْوَادًا أُكَلِّمُ عَلَيْهَا النَّاسَ....**)) الْحديث، فأثنَى على نفسِهِ أنَّهُ هو الذي يعلمُ خَبَرَ منبرِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وأنَّهُ ليسَ هناكَ أحدٌ أعلمُ بِخَبَرِ هذا الْمِنبرِ منهُ، فهذا كُلُّهُ من الثناءِ على النفسِ بالعلمِ من أجلِ أن يستعِيْنَ بذلِكَ على تبليغِ الْحَقِّ وبيانِهِ، وحَتَّى تَحصُلَ عندَ الناسِ طمأنينةٌ بِهِ.

وذَكَرَ بعضُ الفقهاءِ والأئمةِ: أنَّ الإنسانَ إذا كانَ ضابطًا لعلمِ الفقهِ، مُلِّمًا بالقضاءِ، وغَلَبَ على ظنِّهِ أنَّهُ إذا تَوَلَّى القضاءَ أنصفَ الناسَ في مظالِمِهِم، ورَدَّ الْحُقوقَ إلى أهلِهَا وأصحابِهَا، وأنَّهُ يُجيدُ ذلِكَ ويُحسنُهُ، **قالُوا:** يَجوزُ لهُ أنْ يذهبَ إلى الوالي، وأنْ يثنِيَ على نفسِهِ بالعلمِ، وأنْ يُبَيِّنَ مَا عندَهُ من العلمِ والْمعرفةِ، **وهذا كُلُّهُ منضبطٌ بالضوابطِ الشرعيةِ:**

أنْ يكونَ مقصودُهُ إعلاءُ الْحَقِّ، وبيانُ الْحَقِّ، وإيصالُ الْحُقوقِ إلى أهلِهَا، فلا يقصدُ من ذلِكَ الرياءَ، ولا السمعةَ، ولا التفاخرَ، ونَحوَ ذلِكَ مِمَّا هُوَ مَحْظُورٌ شرعًا.

وقولُهُ: (**صَحِبْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَشْرَ سِنِيْنَ**) فيهِ دليلٌ على أنَّ صحبَةَ الأخيارِ والعلماءِ والفضلاءِ شرفٌ للإنسانِ يَشْرُفُ بهِ، فإنَّ الإنسانَ إذا أحبَّ أولياءَ اللهِ من العلماءِ العامليْنَ، وأهلِ الصلاحِ من الْمستقيمِيْنَ على طاعةِ اللهِ، الْملتزمِيْنَ بشرعِ اللهِ، فإنَّ هذا الصحبةَ تنفعُهُ في دينِهِ ودنياهُ وآخرتِهِ، إذا لَمْ يَجعلْهَا صُحبةً ظاهريةً، فإنَّ البعضَ يصحبُ الصالحِيْنَ، ويَغْتَرُّ بصحبتِهِم كمَا ذَكَرَ الأئمةُ، وإنَّما يصحبُهُم؛ لكي يقتدِيَ بِهم، ويَحملونَهُ على الْخَيْرِ، ولا يفتنُهم بالغُلُوِّ فيهِم ولا يفتنُهُم بالْمدحِ والإطراءِ، وغَيْرِ ذلِكَ مِمَّا يفسُدُ النفوسُ، ويغضِبُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، وفيهِ ارتكابٌ للمحظورِ شرعًا؛ لقولِهِ: **{فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}**، فيصحبُهُم صحبةً تُرضِي اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- فهؤلاءِ صحبتُهُم شَرَفٌ، وأمانٌ بإذنِ اللهِ من التَّلَفِ، فإنَّ الإنسانَ إذا صَحِبَ مَنْ يُوثَقَ بعلمِهِ وعملِهِ واتَّبَعَهُ، وسَارَ معهُ، فقدْ سارَ على سُنَنِ الأنبياءِ: **{قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}**، فهذا خَيْرٌ عظيمٌ للإنسانِ، وكانَ السلفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- يتفاخرُونَ بذلِكَ، أنَّهم يصحبُون أهلَ العلمِ وأهل الْمعرفةِ وأهل السنةِ، فهؤلاءِ هُمُ الذينَ يعودُون بالإنسانِ على الْخَيْرِ.

وأسعدُ الناسِ في صحبتِهِ لأهلِ العلمِ مَنْ ائتَمَرَ بأمرِ اللهِ، وانتَهَى عَمَّا نَهَى اللهُ عنهُ، وأَخَذَ منهُم خيارَ خصالِهِم، فَأَخَذَ الْمَليحَ، وسَتَرَ الْقَبِيْحَ، فإذا صَحِبَ أقوامًا صَحِبَهُم وشيمتُهُ الوفاءُ:

فَأُحْسِنُ حِيْنَ يُحْسِنُ مُحْسِنُوهُمْ وأَجْتَنِبُ الإساءَةَ إنْ أَساءُوا

وأَنْـــــظُرُ مَا بِعَيْنِهِمُ بعَيْنِي عَـــلَيْها مِن عُيُوبِهِمُ غِطاءُ

فنسألُ اللهَ بعزَّتِهِ وجلالِهِ أنْ يرزقَنَا مَحبةَ أوليائِهِ، وأنْ يرزقَنَا صحبتَهم على الوجهِ الذي يرضيه، وأنْ يَحشرَنَا في زمرتِهِم غَيْرَ خَزَايَا ولا مفتونِيْنَ، ولا مغيّرِينَ، ولا مبدِّلِيْنَ.

في هذا ذَكَرَ أنَّ حَمْلَ الْجنازةِ ثَلاثَ مرَّاتٍ.

الْحديثُ الأولُ: متعلِّقٌ بتشييعِ الْجنازةِ حَتَّى تدفنَ وتشييعِهَا، وشهودِهَا حَتَّى تدفنَ.

قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ القيْرَاطَ لِمَنْ صَلَّى على الْجنازةِ **شرطُهُ**: أنْ يَخْرَجَ معَهَا من البيتِ، ويشهدَهَا فِي الْمسجِدِ، ثُمَّ يصلِّي عليهَا.

وقالَ بعضُ العلماءِ: العِبْرَةُ بالصَّلاةِ، سواءً خَرَجَ من البيتِ، أو صلَّى عليهَا في الْمسجدِ، **وهذا هو الصحيح**.

وأعلى الْمراتبِ، وأعظمُ الناسِ أجرًا في الصَّلاةِ على الْجَنَازَةِ هوَ الذي يَخْرُجُ معَهَا من البيتِ ومن الْمسكنِ، فإنَّ هذا أكثرُ تعبًا ونصبًا، وأعظمُ أجرًا.

ثُمَّ إذا قلنَا بالشُّهُودِ:

فقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ قولَهُ: ((**شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ**))، وهوَ القيْرَاطُ الثاني مبنيٌّ على شُهُودِ الْجنازةِ حَتَّى تدفنَ، فيحضرُ الدَّفْنَ.

فمنْهُم مَنْ يقولُ: إذا وُضِعَتْ في القبْرِ وانصرفَ تَمَّ ذلِكَ.

ومنْهُم مَنْ يقولُ: إذا وُضِعَتْ في القبْرِ وأُهِيْلَ عليهَا التُّرَابُ حتَّى تُسَوَّى بالأرضِ، يُسَوَّى القبْرُ، ويُرْفَعَ شاخصُهُ، **وهذا هُوَ الأقوى**، أنَّه ينتظِرُ حَتَّى يستتِمَّ الدَّفْنُ، وهُوَ السُّنَّةُ عَنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، إذا شهدَهَا حَتَّى تدفنَ أَهَالَ عليهَا التُّرابَ، **والسُّنَّةُ**: أنْ يَحْثِيَ عليهَا ثَلاثَ حَثَيَاتٍ، ثُمَّ بعدَ ذلِكَ إذا أَتَمُّوا دفنَهَا قَامَ على القبْرِ واستغفرَ لصاحبِهِ كمَا صَحَّ عنهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أَنَّهُ كانَ إذا فَرَغَ من دفنِ الْمَيِّتِ يقولُ: ((**اِسْتَغْفِرُوا لأَخَيْكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيْتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**))، فيستغفرُ لهُ، ويسألُ لهُ التثبيتَ ثُمَّ ينصرفُ، هذا أعلى وأعظمُ أجرًا.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّهُ لا ينصرِفُ حَتَّى يستأذنَ أهلَ الْمَيِّتِ.

والصحيح أنَّهُ لا يُشترَطُ استئذانُ أهلِ الْمَيِّتِ.

والأكملُ والأفضلُ أنَّهُ إذا انتهَى منَ الاستغفارِ للميِّتِ أنْ يُعَزِّيَ أهلَ الْمَيِّتِ؛ لأنَّ هذا حَقٌّ من حُقُوقِ الْمسلمِ على أخيهِ الْمسلمِ، مواساتُهُ في الْمُصابِ، وجَبْرُ كَسرِهِ بِمَا يُقالُ من الكلماتِ التي تعينُهُ على التَّسَلِّي والتَّعَزِّي، واحتسابِ الأجرِ عندِ اللهِ.

ومَنْ صَبَّرَ أخاهُ الْمسلمَ فإنَّ أجرَهُ عندَ اللهِ عظيمٌ؛ لأنَّ الْمصائبَ أجرُهَا عظيمٌ عندَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فيهَا الصَّلَوَاتُ، وفيهَا الرَّحْمَةُ، وحسنُ الْخَلَفِ من اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-, فإذا كانَ هذا الثَّوابُ العظيمُ موقوفًا على الصَّبْرِ، فإنَّ من أعظمِ ما يكونُ لَكَ مِنَ الأجرِ أنْ تكونَ مُعينًا على هذا الصَّبْرِ.

وكَمْ منْ كلمةٍ صادقةٍ خرجَتْ من أَخٍ صادقٍ لأخيهِ، ينصحُهُ في بلائِهِ ومصيبتِهِ وكربتِهِ، ورُبَّما بَقِيَتْ في القلبِ فلَمْ تُنْسَ.

وقدْ تأتي إلى مُصَابٍ فتقولُ لهُ كلامًا يَجبُرُ اللهُ بهِ كسرَهُ، على قدرِ إخلاصِكَ وإرادتِكَ لوجهِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فيخرجُ اللهُ منْكَ الكلمةَ الصادقةَ والقولَ البليغَ الذي يبقى في قلبِ الْمُصَابِ، فينتفعُ فيهِ مادَامَتْ روحُهُ في جسدِهِ.

مِنَ النَّاسِ مَنْ لَمْ يسمعْ نصيحةً في مصيبةٍ، ومنْهُم مَنْ لَمْ يُرْزَقْ النَّاصِحِيْنَ، فتجدُهُ غنيًّا ثَرِيًّا بعيدًا عن أهلِ الْخَيْرِ، بعيدًا عَمَّنْ يذكرُهُ باللهِ، فَيُرِيدُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لهُ أنْ يُصابَ بِمصيبةٍ، فيأتيه الْموفقُ الصالِحُ، ويقولُ لهُ كلمةً قدْ تكونُ نِبْرَاسًا لهُ في حياتِهِ كُلِّهَا، يقولُ لهُ كلمةً مِنْ كتابِ اللهِ، وسنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، يقولُ لهُ: أخي الْمسلمَ، تَذَكَّرْ أنَّ اللهَ يُنادِيْكَ مِنْ فوقِ سبعِ سَماواتٍ في هذِهِ الْحالةِ العصيبةِ، وهذا الْموقفِ الْمؤلِمِ الْموجعِ، يناديك ببشارةٍ، يناديكَ أنتَ يا فلانُ ابنُ فلانٍ، ويناديكِ أنتِ يا أَمَةَ اللهِ يا فلانةُ بنتُ فلانٍ، أنْ تصبِري، ويقولُ: **{وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ}**، فما أعظمَ الْمقامَ الذي أنتَ فيهِ، أنتَ الآن تُنَادَى بالبشارةِ من رَبِّ السماواتِ والأرضِ، مَنْ هذا السعيدُ الذي يُناديهِ مَلِكُ الْمُلُوكِ أَنَّهُ مُبَشَّرٌ؟ لكن مَتَى؟ إذا صَبَرَ **{وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}**، فتقولُ لهُ كلماتٍ طيباتٍ طاهراتٍ، كلماتٍ من كتابِ اللهِ وسنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ينفعُهُ اللهُ بِهَا فيصبِرُ، ثُمَّ يكونُ قائمًا على أهلِهِ وعشيْرَتِهِ، كالأبِ والعمِّ والْخالِ، ونَحوِهم مِمَّن لَهُم أَثَرٌ في أهلِهِ، فَيَرْجِعُ إلى أهلِهِ فيقولُ لَهُم نفسَ الكلامِ الذي تقولُ، فأنتَ تدعو إلى هُدًى يكونُ لَكَ أجرُهُ وأجرُ مَنْ عَمِلَ بهِ إلى يومِ القيامةِ.

فهذا الأمرُ عظيمٌ، ولذلك يَصْبِرُ حَتَّى يُعَزِّيَ أهلَ الْمَيِّتِ ويصبِّرَهُم، ثُمَّ بعدَ ذلِكَ ينصرِفُ، فإذا فَعَلَ هذا، فهذا أعظمُ ما يكونُ أجرًا في حضورِ الْجنائزِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الْقِيَامِ لِلْجَنَازَةِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ حَدَّثنا اللَّيثُ عن ابنِ شهابٍ عن سالِمِ بنِ عبدِاللهِ عن أبِيهِ عن عامرِ بنِ ربيعةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ حَدَّثنا اللَّيثُ عن نافعٍ عن ابنِ عمرَ عن عامرِ بنِ ربيعةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن رسولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**إِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ فَقُوْمُوْا لَهَا حَتَّى تُخَلِّفَكُمْ أَوْ تُوْضَعَ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أبي سعيدٍ، وجابرٍ، وسهلِ بنِ حنيفٍ، وقيسِ بنِ سعدٍ وأبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جَمِيعًا-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ عامرِ بنِ ربيعةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

ترجمَ الْمصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ الترجَمةِ التي تتعلَّقُ بالقيامِ للجنازةِ.

ومناسبةُ هذا البابِ لكتابِ الجنازةِ: ظاهرةٌ، حيثُ إِنَّ مِنَ السُّنَنِ التي كانَتْ ووَرَدَتْ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وثبتَتْ بِهَا الأحاديثُ في الصحيحين وغَيْرِهِمَا كحديثِ البابِ: القيامُ عندَ رؤيةِ الْجنازةِ، وإِنْ كانَ هذا الْحكمُ **في أصحِّ قَوْلَي العلماءِ** قدْ نُسِخَ، وسيذكر الْمصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- ذلِكَ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- **في القيامِ لِلجنازةِ:** هَلْ مُحْكَمٌ أَمْ مَنْسُوْخٌ؟ هَلْ كانَ هذا الأمرُ في أولِ الإسلامِ، ثُمَّ إِنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خَالَفَ هذا، فَشُرِعَ للأمةِ عدمُ القيامِ عندَ رؤيةِ الْجنازةِ مُخالفةً لليهودِ، كمَا دَلَّتْ على ذلِكَ الأحاديثُ الصحيحةُ، أَمْ هُوَ مُحْكَمٌ بَاقٍ إلى قيامِ الساعةِ؟

فذهبَ طائفةٌ من أصحابِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **وأئمةِ التابِعِيْنَ ومَنْ بعدَهم** إلى القولِ بأنَّ هذا الْحكمَ مَنْسُوْخٌ.

وهذا القولُ هُوَ قولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وابنِهِ الْحسنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وكذلِكَ قالَ بِهِ عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-، أنَّ هَذا الْحُكْمَ مَنْسُوْخٌ.

وعن عبدِاللهِ بنِ الزبيْرِ أيضًا أنَّه يَرَى أنَّه مَنْسُوْخٌ.

وأُثِرَ عن أُمِّ الْمؤمنيْنَ عائشةَ أَنَّها لَمْ تَرَهُ أصلاً، ولعلَّهَا لَمْ يبلغْهَا الْحديثُ في الأمرِ بالقيامِ، وكانَتْ تَعُدُّ القيامَ للجنائزِ مِنْ فِعْلِ الْجاهليةِ، كمَا رواهُ القاسمُ بنُ محمدِ بنِ أبي بكرٍ الصديقِ -رَحِمَهُ اللهُ- عنها.

وهذا القولُ قالَ بهِ بعضُ أئمةِ التابعِيْنَ، كسعيدِ بنِ الْمسيبِ، وعروةَ بنِ الزبيْرِ، وكذلِكَ قالَ بهِ علقمةُ، والأسودُ، وإبراهيمُ النخعيُّ.

وهوَ مذهبُ الإمامِ أبي حنيفةَ ومالكٍ، والشافعيِّ، وروايةٌ عنِ الإمامِ أَحْمَدَ، وقالَ بهِ بعضُ أئمةِ السلفِ، كالأوزاعيِّ، وغَيْرِهِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

يقولُون: إنَّ هذا الْحكمَ مَنْسُوْخٌ.

وهذا هوَ مذهبُ جُمهُورِ العلماءِ تقريبًا، أنَّ الْحكمَ مَنْسُوْخٌ، وأنَّهُ كانَ في أولِ الإسلامِ يُقَامُ للجنازةِ، ثُمَّ بعدَ ذلِكَ نُسِخَ.

القولُ الثاني: أنَّ هذا الْحكمَ مُحْكَمٌ، وليسَ بِمَنْسُوْخٍ.

وهذا القولُ قالَ بهِ بعضُ أصحابِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وبعضُ أئمةِ التابعِيْنَ، وبعضُ العلماءِ.

وقالَ بهِ أبو هريرةَ، وأبو سعيدٍ الْخُدريُّ، وأبو موسى الأشعريُّ.

وكذلِكَ قالَ بهِ بعضُ أئمةِ السلفِ، كمُحمدِ بنِ سِيْرِينَ.

وهوَ قولُ داودَ الظَّاهريِّ، وأيضًا الإمامِ مُحمدِ بنِ الْحسنِ من أصحابِ الإمامِ أبي حنيفةَ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

وعنِ الإمامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللهُ- التَّخييْرُ بيْنَ أنْ يقومَ أوْ لا يقومُ، وهذا فيهِ نوعٌ من الورعِ منهُ -رَحِمَهُ اللهُ-، حيثُ لَمْ يَجْزِمْ بالنسخِ.

وعلَّل شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ، يُفْهُمُ من كلامِهِ -رَحِمَهُ اللهُ- في تعليلِ ذلِكَ، بأنَّه راجعٌ إلى مسألةٍ أصوليةٍ، حيثُ إنَّ الذينَ رَوُوا القيامَ والأمرَ بالقيامِ عددُهُم كثيْرٌ، والذينَ رَوُوا النسخَ عددُهُم أفرادٌ، ومثلُ هذا يَحكِي فيهِ أنَّ الإمامَ أَحْمَدَ كأنَّهُ تَوَرَّعَ عن الْجزمِ بكونِهِ مَنْسُوْخًا، ولذلِكَ تَوَسَّطَ -رَحِمَهُ اللهُ- بَيْنَ القولَيْنِ.

استدلَّ الذينَ قالُوا بأنَّهُ مَنْسُوْخٌ: بِحديثِ عَليٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ -، وسيذكرُ الْمصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- في البابِ الذي يَلِي الأحاديثَ التي تدلُّ على النسخِ، وأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا قامَ إلى الْجنازةِ، وقالَ حَبْرٌ من أحبارِ اليهودِ: ((**هَكَذَا نَفْعَلُ**))، فقالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**اجْلِسُوا**

خَالِفُوهُمْ))، فأمرَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بالْجلوسِ، والأمرُ بالشيءِ نَهْيٌ عن ضدِّهِ، فنَهَى عن القيامِ، ومِنْ هُنَا جاءَ الأمرُ معارِضًا للحكمِ، فَقَوِيَ الْحكمُ بكونِهِ مَنْسُوْخًا.

وأمَّا الذينَ قالُوا: إنَّهُ مُحْكَمٌ، قالُوا: إنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قامَ للجنازةِ، كمَا في جنازةِ اليهودِ حَتَّى ((**قالُوا لهُ: إنَّهَا جنازةٌ يهوديٍّ، فبيَّنَ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- **أنَّ الْموتَ لَهُ فَزَعٌ**))، كَمَا في الصحيحين عنهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

وكذلِكَ أيضًا حديثُ أبي موسى الأشعريِّ، وكانَ يُفتِي بذلِكَ، وكانَ إذا أَفْتَى بذلِكَ، واطَّلَعَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بَيَّنَ عَلِيٌّ للناسِ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- تَرَكَ ذلِكَ، وأنَّهُ كانَ في أولِ الأمرِ. ويُفهَمُ مِنْ بعضِ الأحاديثِ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إنَّما قامَ مَرَّةً واحدةً، ولَمْ يَقُمْ غَيْرَهَا وهذا يدلُّ على أنَّ الأمرَ لَمْ يستتمَّ كثيْرًا.

<u>والذي يترجَّحُ في نَظري</u> -وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ- هوَ القولُ بأنَّ الأمرَ بالقيامِ مَنْسُوْخٌ.

وهذا هوَ الذي دلَّ عليهِ: حديثُ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فإنَّهُ صريحٌ في الدِّلالةِ على النسخِ، وهوَ حديثٌ ثابتٌ وصحيحٌ.

وبناءً على ذلِكَ كمَا قالَ الإمامُ الشافعيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- وغَيْرُهُ من أئمةِ السلفِ: إنَّ عَلِيًا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حَفِظَ زيادةً على غَيْرِهِ، ولذلك مَنْ يُثبتُ النسخَ أَثْبَتَ أمرًا زائدًا على الذي يقولُ بأنَّهُ مُحْكَمٌ؛ لأنَّ الذي حَكَى الإِحْكَامَ لا يُعارِضُ النسخَ؛ لأنَّ الذي يقولُ: إنَّهُ مَنْسُوْخٌ يُبيِّنُ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَمَرَ بذلِكَ في أولِ الأمرِ، ثُمَّ نَهَى عنْ ذلِكَ.

وبناءً على ذلِكَ، فإنَّ **<u>أرجحَ القولَيْنِ</u>**: أنَّهُ مِنْ مُخالفةِ أهلِ الكتابِ، وأنَّهُ لا يُقامُ عندَ رؤيةِ الْجنازةِ وأنَّ هذا الْحكمَ مَنْسُوْخٌ.

وبناءً على نسخِهِ يعتبِرُهُ العلماءُ صورةً من الصورِ التي أُمِرَ الْمسلمون فيهَا بِمخالفةِ أهلِ الْجحيمِ سواءً من أهلِ الكتابِ أو مِنْ غيْرِهِم، فهذِهِ من أمثلةِ مُخالفةِ الكفارِ، فإنَّ نصوصَ الشريعةِ وأحكامَ الشريعةِ كثيْرًا منهَا خاصةً في العباداتِ، وأيضًا في الْمعاملاتِ جاءَتْ بِمخالفةِ غَيْرِ الْمسلمِيْنَ.

وفي الجنائزِ جاءَتِ الْمخالفةُ بكثيْرٍ من الأمورِ:

منهَا: هذا الأمرُ، ولذلِكَ نُهِيَ عن النِّياحةِ، وكانَتْ من صنيعِ أهلِ الْجاهليةِ، ونُهِي عن لطمِ الْخُدُودِ، وشقِّ الْجُيُوبِ، واتِّبَاعِ الْجنائزِ بالنَّارِ، واتِّباعِ النساءِ للجنائزِ.

كُلُّهَا من أفعالِ الْجاهليةِ، ومِمَّا كانَ عندَ أهلِ الْجاهليةِ، فخَالَفَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وخَالَفَ الشرعُ مَا كانُوا عليهِ، فشُرِّعَتْ هذِهِ الأحكامُ التي يَجبُ على الْمسلمِ أنْ يلتزِمَهَا؛ مُخالفةً للكافرِيْنَ، وصيانةً لِهَذا الدِّيْنِ عن متابعتِهِم.

ولذلك لَمَّا قالَ اليهوديُّ: ((**هَكَذَا نَفْعَلُ**))، قالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**اجْلِسُوا خَالِفُوهُمْ**)) أي كأنَّهُ حينمَا يقولُ: ((**هَكَذَا نَفْعَلُ**)) كانُوا يقولُون: إنَّهُ يُخالفُنَا، ويتَّبِعُ دينَنَا؟! أي كأنَّهُ يأخُذُ مِنْ شريعتِهِم.

وهذا كُلُّهُ مبنيٌّ على الوَلاءِ والبَراءِ، الذي هو أصلٌ مُقَرَّرٌ في الشريعةِ أنَّهُ قُوَامُ الدِّيْنِ؛ لأنَّهُ يقومُ على أعظمِ الأشياءِ خاصةً في أمورِ الاعتقادِ، فلا يُمكنُ للمسلمِ أنْ ينصحَهُ دينَهُ، ويُخلِصَ للهِ-عَزَّ وَجَلَّ- إلا بِمخالفةِ أهلِ الشركِ والأوثانِ وأهلِ الكفرِ، وتَمَحَّضَ خلوصُهُ وإخلاصُهُ وتوحيدُهُ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا نصرُ بنُ عَلِيٍّ الجهضميُّ والحسنُ بنُ عَلِيٍّ الخلال الحلوانيُّ قالا حَدَّثنا وهبُ بنُ جريرٍ حَدَّثنا هشامُ الدَّستوائيُّ عن يحيى بنِ أبي كثيرٍ عن أبي سلمةَ عن أبي سعيدٍ الخدريُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ فَقُوْمُوْا لَهَا، فَمَنْ تَبِعَهَا فَلا يَقْعُدَنَّ حَتَّى تُوْضَعَ**)).

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ أبي سعيدٍ في هذا البابِ حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

هُنا أمرانِ:

الأمرُ الأولُ: القيامُ عندَ مُرُورِ الْجنازةِ.

والأمرُ الثاني: مَنْ صَحِبَ الْجنازةَ إلى القبْرِ فلا يَجلسْ حَتَّى تُوْضَعَ مِنْ عَلَى الأعناقِ.

فهُنا مسألتان، ولذلِكَ ينبغِي التَّفريقُ بينَهُمَا.

أمَّا مسألةُ القيامِ عندَ رؤيةِ الْجنازةِ: فقدْ تَقَدَّمَتْ.

وأمَّا مسألةُ أنْ لا يَجلِسَ حَتَّى تُوضَعَ الْجنازةُ: فالروايتانِ عنْ أبي هريرةَ:

إحدُاهُما: عن الثوريِّ، عنْ أبي صالِحٍ، عنْ أبيهِ، عنْ أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ: ((**حَتَّى تُوْضَعَ عَلَى الأرضِ**)).

وأمَّا رواية أبي معاويةَ الضريرِ ففيهَا: ((**حَتَّى تُوْضَعَ فِي اللَّحْدِ**))، ومن هُنا اختلفَتِ الروايتانِ، **قالَ بعضُهُم:** إذا كُنْتَ في الْجنازةِ وأرادُوا أنْ يضعُوها في القبْرِ تنتظرُ، وأردْتَ القعودَ، لا تقعدْ حَتَّى توضَعَ مِنْ على الأعناقِ؛ لأنَّ السريرَ يُوضَعُ أولاً من على الأعناقِ، ثُمَّ بعدَ ذلِكَ يُدَلَّى الْمَيِّتُ في القبْرِ، وقدْ يأخُذُ وقتًا، خاصةً إذا اُحتِيْجَ إلى إصلاحِ القبْرِ، أو كانَ القبْرُ لَمْ يُحفرْ بعدُ فالأمرُ يطولُ أكثرَ.

فعلى القولِ بأنَّ العبْرَةَ بوضعِهَا من على الأعناقِ: فإنَّهُ بِمجردِ أنْ تُوضَعَ من على الأعناقِ يَجوزُ للإنسانِ أنْ يَجْلِسَ.

وأمَّا على القولِ بأنَّه حَتَّى توضَعَ في اللَّحْدِ، وهيَ روايةُ أبي معاويةَ الضريرِ: فإنَّه ينتظرُ حَتَّى يُدَلَّى الْمَيِّتُ، ويُدخَلَ في القبْرِ ويُوضَعَ.

وأصــحُّ الوجْهَيْن روايةُ الثَّوْرِيِّ، ولذلِكَ أشــارَ الإمامُ أبو داودَ في السُّــنَنِ أنَّ الثوريَّ أحفظُ وأضــبطُ وأوثقُ، قالُوا: يشــيْرُ بِهذا إلى أنَّ ابن أبي معاويةَ الضــرير، وهو غَيْر واحدٍ من الأئمةِ، الْحَافِظُ ابن عبدِ الْبَرِّ وغَيْرُهُم رجّحُوا روايـةَ الثوريِّ، وهـذا معروفٌ؛ لأنَّ الثوريّ من أُمراءِ الْمؤمنِيْنَ في الحـديثِ، كـانَ يَحفظُ أكثرَ من مئةِ ألفِ حديثٍ، ومن الأئمةِ الكبارِ في الْحفظِ، ومكانتُهُ في الرِّوايةِ معروفةٌ، بلْ في الرِّوايةِ والدِّرايةِ.

فالمقصودُ: أنَّ روايتَهُ -رَحِمَهُ اللهُ- واللفظَ الذي جاءَ في طريقِهِ: ((**حَتَّى تُوْضَعَ عَلَى الأَرْضِ**)).

وبناءً على ذلِكَ، إذا وُضِعَتْ على الأرضِ يَجوزُ لِمَنْ كانَ معَ الْجنازةِ أنْ يَجلسَ.

وعن عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه بَقِيَ قائمًا في جنازةِ حِبٍّ من أحبابِهِ، ولَمَّا سُئِلَ عن ذلِكَ قالَ: (إنَّ هذا لا يُســتَكثَرُ في حَقِّهِ)، كأنَّهُ يريدُ الوفاءَ، وهذا يَخرجُ عن الدِّيانةِ، أنَّه ليسَ لهُ علاقةٌ بالدِّيانةِ، أي ليسَ من بابِ السنةِ.

وعنْ ميمونَ بنِ مهرانَ التابعيِّ الْجليلِ -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّه فَعَلَ ذلِكَ معَ آلِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ شَهِدَ جنازةً لرَجُلٍ من أهلِ البيتِ، قالُوا: أَلا تَجلِسُ؟ قالَ: (إنَّهُ من أهلِ البيتِ وإنَّ هذا من حقِّهِم علينَا) .

هذا من بابِ الإكرامِ لآلِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ونَحوِهِم مِنَ العلماءِ وأهلِ الفضلِ، ونَحوِهِم مِمَّنْ لَهُم سابقةٌ في الدِّينِ مِمَّنْ لَهُم شأنٌ؛ من بابِ الوفاءِ والْبِرِّ.

أمَّا شيءٌ مَحفوظٌ مرفوعٌ إلى النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فلا، لكنَّهُ من فِعْلِ السلفِ؛ لأنَّهُ عن عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وعن التابعيِّ ميمونَ بنِ مهرانَ، وكانَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يقولُ: (إنَّ هذا أَحُونَا، ولا يُستَكثَرُ في حقِّهِ ذلِكَ)، وهذا من بابِ الوفاءِ والْبِرِّ منهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

ومِمَّا يدلُ على أنَّ روايةَ: ((**حَتَّى تُوْضَــعَ عَلَى الأَرْضِ**)) أَرْجَحُ: حديثُ الْبَرَاء بن عازبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عندَ أَحْمَدَ في مسندِهِ في قصةِ الرَّجُلِ منَ الأنصارِ، قالَ: ((**خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنصَارِ، قَالَ: فَجَلَسَ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَنْتَظِرُ أَنْ يُحْفَرَ لِلْمَيِّتِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ عُوْدٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا اُحتُضِرَ نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيْضٌ الْوُجُوْهِ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنَ الْجَنَّةِ...**)) الحديث.

الشَّاهدُ: أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- جَلَسَ وَجَلَسَ الصحابةُ حولَهُ، ولَمْ يُحفَرِ القَبْرُ بعدُ، فمعنى ذلِكَ أنَّ الْمَيِّتَ لَمْ يُدَلَّى بَعْدُ، فَلَوْ كانَتْ روايةُ: ((**حَتَّى تُوْضَعَ فِي الْقَبْرِ**)) هيَ الْمعتبَرَةُ، لَقَامَ -عَلَيهِ

الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وانتظَرَ أنْ يُحفَرَ القبْرُ ويُستَتَمَّ، وهذا يرجِّحُ مذهبَ مَنْ يقولُ: إنَّ العبْرَةَ بوضعِهَا مِنْ عَلَى الأعناقِ، فإذا وُضِعَتْ مِنْ على الأعناقِ يَجلسُ.

وأمَّا قبلَ أنْ تُوضَعَ مِنْ على الأعناقِ كمَا فِي حديثِنَا: فإنَّهُ ينتظِرُ، ويبقى قائمًا حَتَّى تُوضَعَ على الأعناقِ. وهذا أمرٌ تعبديٌّ، لا يُبحَثُ، ولا يُتكلَّفُ فيهِ، فأَمْرَ رسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وعلينَا السمعُ والطاعةُ.

البعض يقولُ: إنَّهُ من إكرامِ الْمَيِّتِ.

وهوَ لا شَكَّ أنَّهُ إكرامٌ للميِّتِ، لكنْ مِا هيَ العلّةُ؟ ومَا هُوَ السببُ الدافعُ إلى ذلِكَ؟ هذا أمرٌ لا يعلمُهُ إلا عَلامُ الغُيوبِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وهوَ قولُ أَحْمَدَ وإسحاقَ قالا: مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً فَلا يَقْعُدَنَّ حَتَّى تُوضَعَ عَنْ أعناقِ الرِّجالِ.

الشَّرْح:

الإمامُ أَحَمْدُ خَيَّرَ.

أمَّا إسحاقُ بنُ راهويهَ: فهذا إسحاقُ بنُ إبراهيمَ الْحنظلِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- ليسَ كالإمامِ أحْمَدَ، الإمامُ أَحْمَدُ خَيَّرَ، قَالَ: إنَّهُ إذا قامَ لا يُعْبَهُ، وإذا جلسَ لا يُنْكَرُ عليهِ، يعني الأمرُ عندَهُ على التَّخييرِ.

وعنَهُ روايةٌ، مِثْلُ ما ذَكَرَ الإمامُ الترمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، وهذا الروايةُ اختارَهَا ابنُ عقيلٍ، الرِّوايةُ بأنَّهُ يقومُ، لكنَّهُ على الاستحبابِ، الإمامُ ابنُ عقيلٍ منْ أئمةِ الْمذهبِ الْحنبليِّ اختارَهَا، لكنَّهَا على الاستحبابِ، وحَكَى هذِهِ الروايةَ شيخُ الإسلامِ ابنْ تيميةَ وغَيْرُهُ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد رُوِيَ عن بعضِ أهلِ العلمِ من أصحابِ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وغَيْرِهِم أَنَّهُم كانُوا يتقدَّمُونَ الْجنازَةَ، ويقعُدُونَ قبلَ أنْ تنتهيَ إليهِمُ الْجنازَةُ، وهوَ قولُ الشَّافِعِيِّ.

الشَّرْح:

هذا يُعتذَرُ بأنَّهُ لَم يبلغْهُمُ الْحديثُ.

وأمَّا السُّـنَّةُ فهيَ قويةٌ في الدِّلالةِ من ناحيةِ لفظِ الْحديثِ أنَّهُ لا يقعُدُ حَتَّى توضَـعَ مِنْ عَلى الأعناقِ، أنَّهَا سُنَّةٌ صحيحةٌ ثابتةٌ عنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، حديثُ أبي هريرةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وهوَ في الصحيحِ، ولذلِكَ السُّنَّةُ أنَّهُ لا يَجلِسُ.

والأصلُ: أنَّ الصحابيَّ إذا خَالَفَ الْمرفوعَ إلى النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يُعتَذَرُ بعدةِ اعتذاراتٍ**: قدْ يكونُ هذا الصحابيُّ لَمْ يبلغْهُ الْحديثُ، وقدْ مَرَّ معنَا حديثُ ابنِ عُمَرَ حينمَا قالَ: ((**لَقَدْ فَرَّطْنَا فِي قَرَارِيْطَ كَثِيْرَةٍ**))، فالصحابةُ الأحاديثُ قدْ تبلغُهُم، وقدْ لا تبلغُهُم، فقدْ يشهدُ الصحابيُّ واقعةَ النصِّ، وقدْ لا يشهدُهَا.

الأمرُ الأولُ: يَحتملُ أنَّهُ لَمْ تبلغْهُ السُّنَّةُ.

والأمرُ الثاني: أنَّهُ رُبَّمَا تَأَوَّلَ هذِهِ السُّـنَّةَ، يكونُ عندَهُ تأويلٌ يصـرِفُ هذِهِ السُّـنَّةَ عنْ ظاهرِهَا، فمِثْلُ هؤلاءِ أنَّهُم قدْ يكونُوا مثلاً إذا اطَّلَعُوا على السُّـنَّةِ يظنُونَ أنَّ هذا على سـبيلِ الاسـتحبابِ وليسَ على سبيلِ الوجوبِ، فيأخذُونَ بالرخصةِ ويَجلسُون.

وعلى كُلِّ حالٍ قَرَّرَ العلماءُ وتكلَّمُوا على أسبابِ مُخالفةِ الصحابيِّ للحديثِ، وهذِهِ معروفةٌ ومشهورةٌ، واعتَنَى بِهَا أئمةُ الأصولِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- عندَ بيانِهِم لأسبابِ الْخلافِ، وأشارَ ابنُ السيدِ البطليوسيِّ في كتابِهِ (الإنصـافُ في بيانِ أسـبابِ الاختلافِ) إلى جُمْلَةٍ منهَا، حَتَّى شـيخُ الإسـلامِ لهُ كلامٌ نفيسٌ في مسألةِ اختلافِ الصحابةِ، ولِمَاذا اختلفوا؟

والواجبُ أنَّهُ إذا كانَتِ السُّـنَّةُ مرفوعةً إلى النبيِّ -صَـلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـلَّمَ- وخَالَفَ الصـحابيُّ، ولَمْ تَكُنْ مُخَالفَتُهُ لحجةٍ أظهرُ وأقوى، أنَّ العملَ بالسُّنَّةِ؛ لأنَّنَا مأمورُونَ باتِّباعِ السُّنَّةِ، وهذا هوُ الأصلُ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ الرُّخْصَةِ فِي تَرْكِ الْقِيَامِ لَهَا]**.

الشَّرح:

(**بابٌ الرُّخصةُ، أو بابُ الرُّخصةِ**)، إمَّا على القطعِ، وإمَّا على الإضافةِ، (**بابٌ الرُّخصةُ، أو بابُ الرُّخصةِ**).

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ حَدَّثنا اللَّيثُ بنُ سعدٍ عن يحيى بنِ سعيدٍ عن واقدٍ وهو ابنُ عمرِو بنِ سعدِ بنِ معاذٍ عن نافعِ بنِ جبيرٍ عن مسعودِ بنِ الحكمِ عن عَليّ بنِ أبي طالبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّهُ ذُكِرَ القِيَامُ فِي الْجَنَائِزِ حَتَّى تُوْضَعَ، فَقَالَ عَليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**قَامَ رَسُوْلُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **ثُمَّ قَعَدَ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن الحسنِ بنِ عَليّ، وابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ عَليٍّ حديث حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

في هذا الْحديثِ أشارَ الْمصنفُ -رَحِمَهُ اللهُ- إلى ترجَمةٍ دقيقةٍ: **[الرُّخْصَة]**، وهذا في الْحقيقةِ فيهِ دِقَّةٌ ووَرَعٌ في الْحُكمِ، لَمْ يَقُلْ: (بابُ نَسْخِ ذَلِكَ)، لَم يعتبِرْهُ نَسْخًا، ولَمْ يَنُصَّ على النسخِ، وإنَّما قالَ: **[باب الرُّخصة]**؛ لأنَّ هذا الْحديثَ الَّذِي هُوَ قُعُودُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-:

يَحتملُ أنْ يكونَ صارِفًا للأمرِ مِنَ الوجوبِ إلى الندبِ والاستحبابِ، **ويَحتملُ** أنْ يكونَ نَسْخًا.

فجاءَ بعبارةِ: **[الرُّخصةِ]**.

ولكنْ ينبغِي أنْ يُنْتَبَهَ: إلى أنَّ الْحديثَ لفظُهُ، يقول: ((**عن عَلِيٍّ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: **أَنَّهُ ذُكِرَ القِيَامُ فِي الْجَنَائِزِ حَتَّى تُوْضَعَ، فَقَالَ عَليٌّ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: **قَامَ رَسُوْلُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **ثُمَّ قَعَدَ**))

((**قَامَ رَسُوْلُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **ثُمَّ قَعَدَ**)): الإشكالُ عنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**قَامَ، ثُمَّ قَعَدَ**)) ما فيهِ منطوقُ النصِ الَّذِي يُبَيِّنُ؛ لأنَّهُ في روايةُ : ((**اجْلِسُوا خَالِفُوهُمْ**)) هذِهِ صريْحَةٌ في الدِّلالةِ على النَّسخِ، وهذا يُنَبِّهُ طالبَ العلمِ على دقَّةِ الاستنباطِ منَ النصِّ؛ لأنَّهُ: ((**قَامَ، فَقَعَدَ**))، حكايةٌ مِنْ عَلِيٍّ، لَيْسَتْ كصريحِ أَمْرِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بالقيامِ؛ لأنَّ الصحابيَّ قدْ يُفَسِّرُ الشيءَ بِمَا يظهرُ لهُ هُوَ، فهُوَ إذا أَوْرَدَ في الْحديثِ،مثلاً لو كانَتِ الروايةُ كمَا على شرطِ الترمذيِّ، وعلى روايتِهِ ذَكَرَ الأحاديثَ التي وَرَدَتْ مِنْ قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**خَالِفُوْهُمْ**)) كمَا في قصةِ الْخَبْرِ، هذِهِ صريْحَةٌ في الدِّلالةِ على النَّسخِ، ولذلِكَ تَجِدُ بعضَ الأئمةِ صَرَّحَ بِهَا؛ بناءً على حديثِ الأمرِ؛ لأنَّهُ يُعارِضُ القولُ القولَ، وحينئذٍ يَقْوَى أنَّ تَحْكِيْهِ نَسْخًا، تقولُ: (بابُ نَسْخِ ذَلِكَ)، وتَجِدُ الإمامَ الترمذيَّ أيضًا في مسائلَ تقدَّمَتْ معَنَا نَصَّ على النَّسخِ؛ لأنَّهَا من منطوقِ كلامِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وعبارتِهِ التي تدلُّ على رفعِ الْحكمِ الأولِ.

وهذا ما ينبغِي على طالبِ العلمِ: أنَّهُ يُحسنُ الفهمَ للنصوصِ، وقوةِ دِلالتِها؛ لأنَّ هذا مِنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، حكايةٌ لِمَا كانَ مِنَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

لكنْ نَحنُ نقولُ: إنَّ مذهبَ النسخِ **أَقْوَى**؛ لأنَّ الألفاظَ التي وَرَدَتْ الْمُصرِّحَةَ بِمخالفةِ أهلِ الكتابِ والدَّالةِ على النسخِ أَقْوَى، وحَتَّى عن حديثِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الْمرفوعِ.

وعلى كُلِّ حالٍ، بالنسبةِ للبابِ الَّذِي عَقَدَهُ الْمصنفُ هُنَا يدلُّ على رجحانِ مَا ذَكَرْنَاهُ:

سواءً جاءَ بِحكايةِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

أو نأخُذُ بالأصلِ الواردِ عنهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في قصةِ الْخَبْرِ من أحبارِ اليهودِ لَمَّا أَمَرَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بِمخالفتِهِمْ، والْجلوسِ وعدمِ القيامِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: عن عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّهُ ذُكِرَ القِيَامُ فِي الْجَنَائِزِ حَتَّى تُوْضَعَ فَقَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**قَامَ رَسُوْلُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **ثُمَّ قَعَدَ**)).

الشَّرْح:

((**ثُمَّ**)): هذا النسخُ، يعني هذا مَا يُسمَّى عندَ العلماءِ: (**آخرُ الأَمْرِيْنِ**)، وقدْ كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كمَا في صحيحِ مسلمٍ مِنْ حديثِ **ابْنِ عَبَّاسٍ**: ((**يَأْخُذُوْنَ بِالأَحْدِثِ فَالأَحْدَثِ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)).

((**الأَحْدِث فَالأَحْدَث**)): يعني آخرَ الأمورِ التي يستقرُّ عليهَا، ولذلك قالَ: ((**كَانَ آخِرُ الأَمْرِيْنِ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **تَرْكُ الْوُضُوْءِ مِمَّا مَسَّتِ النَّارُ**))، فهُمْ يأخُذُونَ بالأحدثِ، يعني الْمتأخرَ، ويعبِرُونَ بِـ((**ثُمَّ**)) التي تدلُّ على العطفِ مع التَّرَاخِي، وهذا يدلُّ على أنَّ الْحكمَ الْمتأخرَ نَاسِخٌ للمتقدِّمِ.

وكانَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يُنْكِرُ هذا، حَتَّى إِنَّهُ ذاتَ مَرَّةٍ قَالَ لأهلِ الكوفةِ: (مَنْ أَمَرَكُمْ بِهَذَا، قَالُوا: أَبو مُوسى)، فَذَكَرَ هذا الْحديثَ: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قَامَ، ثُمَّ قَعَدَ**))، وَأمرَ بالقُعُودِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وهذا يدلُّ -كمَا ذكرْنَا- على النَّسْخِ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ عَلِيٍّ حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وفيهِ روايةُ أربعةٍ من التَّابعينَ بعضهُم عن بعضٍ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: والعملُ على هذا عِندَ بعضِ أهلِ العلمِ.

الشَّرْح:

هذا من لطائفِ الإسنادِ، وهذا سنعتنِي -إنْ شاءَ اللهُ- ببيانِهِ؛ لأنَّا أَخَّرْنَا الكلامَ عن الأسانيدِ وما فيهَا من الكلامِ إلى ختمِ الكتابِ، نسألُ اللهَ أنْ يُيَسِّرَ ذلِكَ، وأنْ يُعينَنَا عَليهِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: قالَ الشَّافِعِيُّ: وهذا أصحُّ شيءٍ في هذا البابِ، وهذا الْحديثُ ناسخٌ للحديثِ الأولِ: ((**إِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ فَقُوْمُوا**)) وقالَ أحمَدُ: إنْ شاءَ قامَ، وإنْ شاءَ لَمْ يَقُمْ، واحتجَّ بأنَّ النَّبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قد رُوِيَ عنهُ أنَّهُ قَامَ ثُمَّ قَعَدَ، وَهَكَذَا قَالَ إِسْحَاقُ بنُ إبراهيمَ.

الشَّرْح:

((**واحتجَّ بأنَّ النَّبيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قد رُوِيَ عنهُ أنَّهُ قَامَ ثُمَّ قَعَدَ**)): وهذا يدلُّ على أنَّهُ لا يُمكِنُنَا أنْ نقولَ: إنَّهُ ناسِخٌ؛ لأنَّهُ يَحتمِلُ أنَّه نُسِخَ، لكنَّ الْمنطوقَ الذي ذكرْنَاهُ يدلُّ دِلالةً واضحةً على النَّسْخِ، ولذلِكَ يُقَوِّي مذهبَ مَنْ يَقُوْلُ بالنَّسْخِ.

ثُمَّ إنَّ قيامَهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- لَمْ يَكُنْ خاصًّا بِجنائزِ الْمسلمِيْنَ، **وهذا أمرٌ ينبغِي أنْ يُنْتَبَهَ لهُ؛** لأنَّهُ مِمَّا يُقَوِّي مذهبَ التَّخيِيْرِ: القيامُ، والقعودُ وعدمُ النسخِ، **أنَّهم قالُوا:** إنَّ الأمرَ هُنَا جاءَ لأجلِ روعةِ الْموتِ، والفزعِ من الْموتِ وليسَ إكرامًا للميِّتِ، لو إكرامًا للمَيِّتِ لَمَا قامَ لِجَنازَةِ يهوديٍّ؛ لأنَّهُ في الصحيحِ: ((**لَمَّا مُرَّ بالْجنازةِ قامَ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، **ثُمَّ قالُوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّها جنازةُ يهوديةٍ، فقالَ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **إنَّ لِلْمَوْتِ فَزَعًا**))، فهذا يدلُّ على أنَّهُ قَامَ مِنْ أجلِ رَهْبَةِ الْموتِ؛ حتَّى يستيقظَ الإنسانُ من غفلتِهِ، وأهلُ الإِيْمانِ هُم أَحَقُّ بذلِكَ، وأهلُ الإسلامِ أَحَقُّ أنْ يكونُوا ذاكرِيْنَ للآخرةِ غَيْرَ غافلِيْنَ عنْهَا

صَاحِ شَمِّرْ، لا تَزَلْ ذَاكِرَ الْمَوْتِ فَنِسْيَانُهُ ضَلالٌ مُبِيْنُ

فهلاكُ الإنسانِ إذا نَسِيَ أنَّهُ يَموتُ، أو غَفِلَ عنهُ أنَّهُ يَموتُ، وإذا استدامَ الإنسانُ ذِكْرَ أنَّهُ مَيِّتٌ

عِلْمِي بِأَنِّي أَذُوقُ الْمَوتَ نغَّصَ لي طِيبَ الْحَياةِ فما تَصْفُو الْحَيَاةُ لِيَا

فالإنسانُ لَمَّا يذكرِ الْموتَ فإنَّ هذا يُوجبُ ذهابَ غفلتِهِ عنْ آخرتِهِ، واستعدادِهِ لْمَعادِهِ ولقاءِ ربِّهِ ولذلِكَ مِنْ أَعْقَلِ الناسِ مَنْ بَنَى قَبْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْكَنَهُ، وَتَرَكَ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ تَتْرُكَهُ.

قَالَ: عُدَّ مِنَ العقلاءِ مَنْ بَنَى قَبْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْكَنَهُ، وهذا البناءُ للقبْرِ قبلَ السُّكْنَى يستلزمُ أنْ يكونَ دائمًا ذاكرًا للموتِ، وأنَّهُ سيخرُجُ منْ هذِهِ الدُّنيا، وينتقلُ منْهَا ويرتَحِلُ عنهَا، فأهلُ الإسلامِ هُم أَحَقُّ وأَولَى بذِكْرِ الآخرةِ.

ومَنْ ذِكْرِ الآخرةَ: أنَّهُ لو مُرَّ بالْجنازةِ فلَمْ يَقُمْ لَهَا، ولَمْ يَحْدُثْ تَغَيُّرٌ في حالِهِ دَلَّ على غفلتِهِ، ومِنْ هُنَا إذا قَامَ فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّهُ قدْ رُوِّعَ، وأنَّهُ فَزِعَ، وإذا كانَ الأمرُ كذلِكَ فإنَّهُ يستوي أنْ يكونَ مُسلمًا أو كَافرًا إذا مُرَّ بالْجنازةِ؛ لأنَّ الْموتَ للمسلمِيْنَ والكافرِيْنَ، والرَّوْعَةُ في كِلا الأمرَيْنِ.

وهذا كمَا ذكرْنَا مَسْلَكٌ لِمَنْ يقولُ: إنَّ الأمرَ مُحْكَمٌ، وليسَ بِمنسوخٍ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: معنى قولُ عليٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: (قامَ النَّبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الْجَنَازَةِ ثُمَّ قَعَدَ) يقولُ: كانَ النَّبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقومُ إذا رأى الجنازةَ، ثُمَّ تَرَكَ ذلكَ بَعْدُ، فكانَ لا يقومُ إذا رأى الْجَنَازَةَ.

نسألُ اللهَ أنْ يرزقَنَا العلمَ النافعَ، والعملَ الصالِحَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

رقم الدَّرس ٤٢٧

الأربعاء ٢٣-٨-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الْحافظُ التِّرمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **: الَّلَحْدُ لَنَا، وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا]**

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أبو كريبٍ ونصرُ بنِ عبدِالرحمن الكوفيُّ ويوسفُ بنُ موسى القطَّانُ البغداديُّ قالوا: حَدَّثنا حكَّامُ بنُ سلمٍ عن عَليِّ بنِ عبدِ الأعلى عن أبِيهِ عن سعيدِ بنِ جُبيْرٍ عن ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: قال النَّبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**الَّلَحْد لَنَا، وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن جريرِ بنِ عبدِاللهِ، وعائشةَ، وابنِ عمرَ، وجابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جَمِيعًا-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ ابنِ عبَّاسٍ حدِيثٌ غَريبٌ من هذا الوجهِ.

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الْحمدُ للهِ ربِّ العالَمِيْنَ، والصَّلاة والسَّلامُ الأَتَمَّانِ الأكملانِ على خَيْرِ خلقِ اللهِ أجمعِيْنَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ سارَ على سبيلِهِ ونَهجِهِ واستَنَّ بسنتِهِ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فَقَدْ تَرْجَمَ الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ التَّرْجَمَةِ والتي تتعلقُ بـ(**مسألةِ الَّلَحْدِ والشَّقِّ**)، وَهذِهِ الْمسألةُ تُعتبَرُ مِنْ مسائلِ الدَّفْنِ، حيثُ إنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وَرَدَتْ عنهُ سُنَنٌ في صفةِ دَفْنِ الْمَيِّتِ ولَمَّا كانَتْ هذهِ السُّنَنُ متعلِّقةً ببابِ الْجَنَائِزِ، نَاسَبَ أنْ يعتنِيَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بإيرادِهَا فيهِ ثُمَّ إنَّ الدَّفْنَ يكونُ عَقِيْبَ الصَّلاةِ على الْمَيِّتِ، فبعدَ أنْ بَيَّنَ السُّنَنَ والآثارَ في هَدْيِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسنتِهِ في الصَّلاةِ على الْمَيِّتِ، شَرَعَ في بيانِ ما أُثِرَ وحُفِظَ مِنْ هديِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في كيفيةِ دَفْنِ الْمَيِّت.

وَالَّلَحْدُ والشَّقُّ: صِفتانِ من صِفاتِ الْقَبْرِ.

فَأَمَّا بِالنِّسبَةِ لِلَّحْدِ: فأصلُ الَّلَحْدِ: الْميلُ، ومنْهُ وُصِفَ الْمُلحِدُ وهوَ الْمائلُ عَنْ طاعةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وسُمِّي الَّلَحْدُ لَحْدًا؛ لأنَّهُ يكونُ مائلاً في طَرَفِ الْقَبْرِ.

والأصلُ في ذَلِكَ: أنَّهُ إذا حُفِرَتِ الْحُفرةُ فإنَّهُ يُراعَى في الَّلَحْدِ الْجانبُ الذي يَلِي القبلةِ، فيُحفَرُ فيهِ،

ويكونُ بِهذِهِ الصِّفةِ مائلاً عَنِ الْحُفرةِ الأصليّةِ، فيكونُ في الشِّقِّ الأيسرِ أو الأيْمنِ بِالنِّسبَةِ للحافرِ على حسبِ جهةِ القبلةِ بِالنِّسبَةِ لَهُ.

فيُحفَرُ في جانبِ الْقَبْرِ مِنْ جهةِ القبلةِ، ويُعَمَّقُ على حسبِ حالِ الْمَيِّتِ طُولاً وقِصرًا، ويُراعَى التَّوسعةُ على الْمَيِّتِ، كمَا هوَ سنةُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديِهِ حينمَا جَلَسَ على شَفيْرِ الْقَبْرِ، وأَمَرَ الْحَافِرَ أنْ يُوسِّعَ، فكانَ يقولُ: ((**أَوْسِعْ لَهُ مِنْ قِبَل رَأْسِهِ**))، ثُمَّ يقولُ: ((**أَوْسِعْ لَهُ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ**))، **هذا بِالنِّسبَةِ لِلَّحْدِ**.

فإذَا وُضِعَ الْمَيِّتُ نُصِبَ اللَّبِنُ، واللَّبِنُ يكونُ قافلاً لِهذا الْجانبِ مِنَ الْحُفرةِ، بِحيثُ تصبُحُ الْحفرةُ الأصليَّةُ مستَتِّمَةً بعدَ نَصْبِ اللَّبِنِ على اللَّحْدِ بعدَ وَضْعِ الْمَيِّتِ فيهِ.

وحُفِظَ مِنْ هديِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّهُ نُصِبَ لَهُ بِمَا يُقارِبُ مِنْ تِسْعِ لَبِنَاتٍ، وهيَ التي غُطِّيَ بِهَا قَبْرُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ولَحْدُهُ، **فهذا بِالنِّسبَةِ لِلَّحْدِ**.

واللَّحْدُ: كانَ لأهلِ الْمدينةِ، **والشَّقُّ**: كانَ لأهلِ مكَّةَ.

والشَّقُّ: يكونُ في وَسَطِ الْقَبْرِ، فإذا حُفِرَتِ الْحُفرةُ الأصليّةُ حُفِرَ في وَسَطِهَا بِمَا يَسَعُ لوَضْعِ الْمَيِّتِ، حُفرةً تناسبُهُ على حسبِ حالِهِ في الْجسمِ، ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ يُوضَعُ فيهَا الْمَيِّت، ثُمَّ يُغَطَّى، ثُمَّ يُهَالُ التُّرَابُ عليهِ.

واللَّحْدُ يُعْدَلُ عنْهُ إلى الشَّقِّ: خاصَّةً في الأماكنِ التي لا يَثْبُتُ فيهَا الْقَبْرُ، أو يُخشَى اِنْهِيَارُ اللَّحْدِ كمَا في الأماكنِ الرَّمليّةِ، حيثُ إنَّهُ يصعُبُ حَفْرُ اللَّحْدِ فيهَا، وكُلَّمَا حَفَرْتَ ينهارُ، **وكذَلِكَ** بِالنِّسبَةِ للأرضِ التي ارْتَوَتْ بالْماءِ، وتعذَّرَ حَفْرُ اللَّحْدِ فيهَا.

وكذَلِكَ بِالنِّسبَةِ للأراضي الصَّلبةِ التي تكونُ تضاريسُهَا مِنَ الْجبالِ، فإنَّهُم يعدِلُونَ إلى الشَّقِّ؛ فإنَّهُ أرفَقُ بِهِم.

بَيَّنَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ التَّرجَمَةِ مَا وَرَدَ عِنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مِنْ تفضيلِ اللَّحْدِ على الشَّقِّ، وجَعَلَ التَّرجَمَةَ بلفظِ الْحديثِ، وقدْ قدمْنَا أنَّ هذِهِ الطَّريقةَ يصنعُهَا الْمُصَنِّف -رَحِمَهُ اللهُ- وغيْرُهُ مِنْ أئمةِ الْحديثِ، كالإمامِ البُخَارِيِّ في صحيحِهِ، حيثُ يذكرُ لفظَ الآيةِ الكريْمةِ ولفظِ الْحديثِ عَنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهذا مِنَ العلمِ والفقهِ والأدبِ معَ الوحي.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**اللَّحْدُ لَنَا**)) **قِيلَ**: آثَرُ وأولى، أي أنَّنَا أَحَقُّ وأولى بهِ مِنْ غيْرِنَا، وجاءَ في بعضِ الأحاديثِ أنَّ الْمرادَ ((**لِغَيْرِنَا**)) أهلُ الكتابِ، وأنَّ الْمسلميْنَ الأفضلُ، فيكونُ معنَى الْحديثِ أنَّ الأفضلَ لَهُم إذا كانَ الأمرُ مُمكِنًا أنْ يُلْحِدُوا للمَيِّتِ.

وقولُهُ: ((**الشَّقُّ لِغَيْرِنَا**)) **قِيلَ**: لأهلِ الكتابِ كمَا قدمْنَا.

وأورَدَ الطِّيْبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- **في شرحِهِ**: أنَّهُ يُحتمَلُ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَصَدَ بقولِهِ: ((**اللَّحْدُ لَنَا**)) خاصَّةَ نفسِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وكأنَّهُ يشيْرُ إلى أنَّهُ يُفَضِّلُ أنَّ يُلْحَدَ لَهُ وَلا يُشَقَّ.

قالُ بعضُ العلماءِ: إنَّهُ يكونُ معجزةً؛ لأنَّ الْمرادَ بهِ الْخَبَرُ، وقدِ اختارَ اللهُ لنبيِّهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كمَا ثَبَتَ أنَّهُم لَمَّا أرادُوا أنْ يقبُرُوا رسولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ويدفِنُوهُ، كانَ في الْمدينةِ مَنْ يصنعُ اللَّحْدَ، ومَنْ يصنعُ الشَّقَّ، فاختلفُوا، فأرسلُوا إليهِمَا، وجعلُوا الأمرَ إلى الْخِيَرَةِ مِنَ اللهِ تعالى فأيُّهُمَا سَبَقَ فَهُوَ خِيَرَةُ اللهِ لنبيِّهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، فَسَبَقَ الذي يُلْحِدُ، وجاءَ وتَوَلَّى أَمْرَ قَبْرِ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فدلَّ هذا على فَضْلِ اللَّحْدِ، وأنَّهُ مُقَدَّمٌ على الشَّقِّ.

وهُناكَ أحاديثُ ضعيفةٌ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يُلْحَدْ لَهُ، وإنَّما شُقَّ، ولكنَّهَا لَمْ تَثْبُتْ.

والصَّحيحُ أنَّهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كانَ قَبْرُهُ لَحْدًا، ولَمْ يَكُنْ شَقًّا.

وفي هذا الْحديثِ قالَ بعضُ العلماءِ **-وهوَ وجهٌ ثالثٌ-**: أنَّ الْمرادَ بقولِهِ: ((**اللَّحْدُ لَنَا**)) أي معاشرَ الأنبياءِ، وأنَّهُ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الأنبياءِ، أنَّهُم كانُوا يُدْفَنُونَ في اللَّحْدِ، ولا يُدْفَنُونَ في الشَّقِّ وهذا مَزِيةُ فَضْلٍ، وزيادةُ فَضْلٍ؛ لأنَّهُ سُنُنُ الأنبياءِ، وليسَ بسنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وَحْدَهُ، وإنَّمَا سنتُهُ وسنةُ غَيْرِهِ -بَأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِم أَجْمَعِيْنَ-.

وفي هذا الْحديثِ -كمَا قدمْنَا- دليلٌ على فضيلةِ اللَّحْدِ، وأنَّهُ مُقَدَّمٌ على الشَّقِّ.

وقدِ استفتحَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ-بِهذا الْحديثِ أو بِهذا البابِ بيانَ سُنَنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في صِفةِ الدَّفْنِ.

وقدْ كانَ مِنْ هديِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّهُ يأمُرُ بتوسِيعِ الْقَبْرِ وتعمِيقِهِ كمَا قدمْنَا في الْحديثِ الذي رواهُ أبو داودَ وغَيْرُهُ، وصحَّحَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، أنَّهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- خَرَجَ في جنازةٍ، ثُمَّ جَلَسَ على شفيْرِ الْقَبْرِ، وقَالَ للحافِرِ: ((**أَوْسِعْ لَهُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، أَوْسِعْ لَهُ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ عِذْقٌ فِي الْجَنَّةِ**)).

وثَبَتَ مِنْ هديِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- تعميقُ الْقَبْرِ.

واختَلَفَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- **في الْحَدِّ الذي يُنْزَلُ فيهِ في حَفْرِ القُبُورِ:**

فقالَ بعضُ أئمةِ السَّلَفِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-: إنَّهُ يُحفَرُ الْقَبْرُ بَقَدْرِ الْقَامَةِ، أي بِقَدْرِ قَامِةِ الرَّجُلِ، أي طولِهُ، وهذا القولُ اختارَهُ بعضُ الأئمةِ، ومنْهُمُ الإمامُ الشَّافعِيُّ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّهُ يُعَمَّقُ إلى سُرَّةِ الرَّجُلِ، وهذا القولُ قولُ بعضِ السَّلفِ، ومنْهُم عُمَرُ ابنُ عبدِ العزيزِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-، أنَّهُ لا يُعَمَّقُ بِقَدْرِ الْقَامَةِ، وإنَّمَا أَقَلُّ مِنَ القامةِ إلى الْمُنْتَصَفِ، وهوَ حدُّ السُّرَّةِ.

وقالَ بعضُهُم: إنَّهُ يَحفِرُ الْقَبْرَ إلى الثَّدْيَيْنِ، وهوَ ثلاثةُ أرباعِ القامةِ.

فالقولُ الأوَّلُ: قَامَةٌ، **والثَّاني:** نِصْفُ القامةِ، **والثَّالثُ:** ثلاثةُ أرباعِ القامةِ تقريبًا، وهو قولُ بعضِ الْمُتأخِّرِيْنَ مِنَ الفقهاءِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

وقالَ بعضُهُم: إنَّهُ يُحفَرُ بِقَدْرِ مَا يَحصُلُ بِهِ السَّتْرِ، ويُوَارَى عَنِ السِّبَاعِ، بِحيثُ لا تستطيعُ السِّبَاعُ نَبْشَ الْقَبْرِ، والوصولَ إلى الْجُثَّةِ؛ لأنَّ الْمقصودَ صيانةُ الأجسادِ، وهذا مِنْ تكريْمِ اللهِ لِبَنِي آدَمَ، حيثُ إنَّهُ صانَهُم بعدَ موتِهِم، فلا يُرمَونَ في العَرَاءِ تنتهِشُهُمُ السِّبَاعُ، وتأكلُهُم جوارحُ الطَّيْرِ، ولذَلِكَ قَالَ تعالى: **{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}**، وقَالَ: **{قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي}** فبَعَثَ اللهُ الغُرَابَ إلى قَابِيْلَ؛ ليعلِّمَهُ كيفَ يُوارِيَ سَوْأَةَ أخيهِ.

وهذا هوَ الْمقصودُ، أي مُواراةُ الْجُثَّةِ عَنْ سِبَاعِ الدَّوَابِ وجوارحِ الطَّيْرِ.

وهذا كمَا ذَكَرَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّهُ مِنْ تكريْمِ اللهِ لِبَنِي آدَمَ، وصيانتِهِم عَنِ الامتهانِ، خَاصَّةً إذا كانَ مُسلِمًا.

ولذَلِكَ شُرِعَ أنْ تُوَارَى الْجُثَّةُ حَتَّى جُثَّةُ الكافرِ، حَتَّى ولوْ كانَ كافرًا فإنَّهُ لا يُتْرَكُ في العَرَاءِ، ولذَلِكَ أَمَرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بِجُثَثِ قُتْلَى بَدْرٍ مِنَ الْمشركيْنِ أنْ تُرْمَى في الْقَلِيْبِ.

فهذا كُلُّهُ كمَا ذَكَرْنَا يُبيِّنُ أنَّ الْمقصودَ سَتْرُ الْجُثَّةِ، وحفظُهَا مِنَ السِّبَاعِ، وإذا كانَ هذا هوَ الْمقصودُ، قالُوا: العِبْرَةُ أنْ يَحصُلَ هذا الْمقصودُ، ولَمْ يَحُدُّوا في ذَلِكَ حَدًّا.

واختارَ الإمامُ مالكٌ -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّهُ لا يُحَدُّ في ذَلِكَ حَدٌّ.

والعملُ على أنَّ العِبْرَةَ بِسَتْرِ الْجُثَّةِ، وحفظِهَا مِنْ أنْ تُؤْذَى حَتَّى ولو ينهالُ الْقَبْرُ، ولذَلِكَ القولُ الذي يقولُ: بالتعميقِ **أَقْوَى وأَرْجَحُ**.

وقولُ الإمامِ الشَّافعيِّ: أنَّهَ قَدْرُ قامةِ **أَقْرَبُ إلى السُّنَّةِ**؛ لأنَّ الأئمةَ حَكُوا اتفاقَ أهلِ السِّيَرِ والأخبارِ على أنَّ اللَّبِنَاتِ التي نُصِبَتْ على قَبْرِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كانَتْ تِسْعًا، وهذا يقارِبُ القامةِ، وفَوْقَ السُّرَّةِ، وفَوْقَ الثَّدْي أيضًا، يقارِبُ الثَّدْي، لكنَّهُ قدْ يزيدُ عليهِ قليلاً، وهذا يدلُّ على أنَّ الْحَفْرَ فَوْقَ الثَّدْي؛ لأنَّهُ إذا كانَتِ اللَّبِنَاتُ بِقَدْرِ تِسْعٍ تَصِلُ إلى قُرَابَةِ الثَّدْي، فمَا بَيْنَ اللَّبِنَةِ الأَخيْرةِ ومَا بَيْنَ الأرضِ أيضًا هُناكَ مسافةٌ.

ولذَلِكَ، **يَتَرَجَّحُ قولُ مِنْ قَالَ**: إنَّهُ على قَدْرِ القامةِ، وهوَ الأَقْرَبُ لْمقصودِ الشَّرعِ، وتَحقيقُ هذا الْمقصودِ مطلوبٌ، ولذَلِكَ تُحفَرُ القُبُورُ بِهذا الْقَدْرِ.

السُّنَّةُ عَنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الْحَفْرُ وتعمِيقُ الْقَبْرِ.

وأمَّا كونُ القُبُورِ -كمَا يصنعُهُ البعضُ- تكونُ قريبةً مِنَ الأرضِ، فإنَّ هذا يُؤْذِي الْمَوْتَى.

ولذَلِكَ كثيْرٌ مِنَ القُبُورِ التي تكونُ قريبةً مِنَ الأرضِ تنهالُ على أصحابِهَا، وتُؤْذِي مَنْ يَمُرُّ؛ لأنَّهُ يُفَاجَأُ وإذا الْقَبْرُ قدِ انْهَالَ عليهِ، خاصَّةً إذا كانَ في عَرَاءٍ، أو في منطقةٍ لا يُعرَفُ أنَّ هُنَاكَ قَبْرًا ولذَلِكَ لا بُدَّ مِنَ العنايةِ بِهذِهِ السُّنَّةِ؛ حِفاظًا لأجسادِ الْمَوْتَى، وصيانةً لِهَا مِنَ التَّبَذُّلِ.

وإذا ثَبَتَ هذا، **فإنَّهُ يَرِدُ السُّؤَالُ: إذا حُفِرَ الْقَبْرُ، وانْتُهِيَ مِنْهُ، فمَا هِيَ السُّنَّةُ في إنزالِ الْمَيِّتِ للقبْرِ؟ وقد اختَلَفَ العلماءُ** -رَحِمَهُمُ اللهُ- **في هذِهِ الْمسألةِ على قولَيْنِ:**

فذهبَ جُمهُورِ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- إلى أنَّهُ إذا فُرِغَ مِنَ الْقَبْرِ، وأُرِيْدَ أَنْ يُدْلَى الْمَيِّتُ أنَّ السُّنَّةَ أنْ يُسَلَّ مِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ، فإذا جِيْءَ بالْمَيِّتِ إلى الْقَبْرِ فالسُّنَّةُ أنْ يُوْضَعَ رَأْسُ الْمَيِّتِ عندَ رِجْلِ الْقَبْرِ **ورِجْلُ الْقَبْرِ**: هوَ يكونُ في النَّاحيةِ التي تكونُ فيهَا رِجْلا الْمَيِّتِ إذا دُفِنَ، فهذا مَا يُسَمِّيهِ العلماءُ بِ(**رِجْلِ الْقَبْرِ**)، يُوضعُ رأسُ الْمَيِّتِ عندَ رِجْلِ الْقَبْرِ، ثُمَّ إذا أرادُوا أنْ يُدْلُوهُ سُلِّ برفقٍ.

وهذا القولُ هوَ قولُ عبدِاللهِ بْنِ عُمَرَ، وأنسِ بْنِ مالكٍ، وعبدِاللهِ بْنِ يزيدِ الْخَطْمِيِّ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- و-رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-، وقالَ بِهِ سفيانُ الثَّوريُّ، وإبراهيمُ النَّخَعِيُّ وهوَ مذهبُ الشَّافعيّةِ والْحنابلةِ، وطائفةٍ مِنْ أهلِ الْحديثِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-، أنَّ السُّنَّةَ أنْ يُسَلَّ مِنْ عندِ رأسِهِ، ويكونُ السَّريرُ عندَ رِجْلِ الْقَبْرِ.

القولُ الثَّاني: إنَّ السُّنَّةَ أنْ يُحمَلَ مِنْ جهةِ القبلةِ، ثُمَّ يُوضعُ في قَبْرِهِ.

وهذا القولُ صورتُهُ: أنَّهُ يُؤْتَى بالسَّريرِ، ويُوضَعُ فوقَ اللَّحْدِ مِنْ جهةِ القبلةِ، فإذا أرادُوا إنزالَ الْمَيِّتِ

أنزلُوه كاملاً، فيُمْسَكُ طرفُهُ مِنْ جهةِ اليمينِ وطرفُهُ مِنْ جهةِ اليسارِ أي طَرَفِ الرأسِ وطَرَفِ الرِّجْلَيْنِ، ثُمَّ يُحمَلُ حَتَّى يُنْزَلَ إلى الْقَبْرِ، وليسَ سَلاً كالأوَّلِ.

وهذا القولُ حُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالبٍ، وابنِهِ مُحمدِ بْنِ الْحنفيّةِ، وهو مذهبُ الْحنفيّةِ-رَحِمَهُمُ اللهُ-.

هذا القولُ الذي يقولُ: إنَّهُ يُحمَلُ، ولا يُسَلُّ، حُكِيَ عَنِ الإمامِ مالكٍ، **والصَّحيحُ** أنَّ الإمامَ مالكًا عنْهُ روايتانِ:

الرِّوايةُ الأولى: موافقةٌ للجمهور أنَّهُ يُسَلُّ، ولا يُحمَلُ كاملاً، **والرِّوايةُ الثَّانيةُ:** أنَّ الأَمْرَ بالْخِيارِ.

مَحَلُّ الْخِلافِ بيْنَ القولَيْنِ: في الأفضليةِ، حيثُ يَجوزُ أنْ يَسُلَّ، ويَجوزُ أنْ يُحمَلَ مباشرةً، والْخِلافُ: هَلِ الأفضلُ هذا أو هذا؟

استدلَّ الْجمهورُ: بِما ثَبَتَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**أنَّ النبيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **سُلَّ** -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- **مِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ ودُلِّي إلى قبْرِهِ** -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-)).

فهذا الْحديثُ الصَّحيحُ يدلُّ على أنَّ السُّنَّةَ أنْ يُسَلَّ الْمَيِّتُ مِنْ عندِ رَأْسِهِ.

وأيضًا استدلُّوا: بِحديث السُّنَنِ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فَعَلَ ذَلِكَ مَعَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، حينمَا تُوُفِّيَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

قالُوا: إنَّ هذينِ الْحديثَيْنِ يدلانِ على أنَّ السُّنَّةَ في سَريرِ الْمَيِّتِ أنْ يكونَ عندَ رِجْلِ الْقَبْرِ، وأنَّهُ يُسَلُّ الْمَيِّتُ مِنْ فوقِ السَّريرِ، ويُدْلَى إلى الْقَبْرِ برفقٍ.

أمَّا أصحابُ القولِ الثَّاني فاستدلُّوا: بأحاديثَ عَنِ ابْنِ مسعودٍ، وكذَلِكَ أيضًا عَنْ عبدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ- وأسانيدُهَا ضعيفةٌ، وبَيَّنَ هذِهِ الأسانيدَ وضَعْفَهَا الإمامُ البيهَقِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-، وفيهَا أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- دُلِّيَ مِنَ القبلةِ، أنَّهُ حُمِلَ ثُمَّ وُضِعَ في قَبْرِهِ مِنَ القبلةِ -كمَا يقولُونَ-، ولَمْ يُسَلَّ مِنْ عندِ رِجْلِ الْقَبْرِ.

قالُوا: فهذا يدلُّ على أنَّ الأفضلَ والأكملَ والسّنَّةَ أنَّ الْمَيِّتَ يُوضَعُ سريرُهُ فوقَ اللَّحْدِ، ثُمَّ يُنْزَلُ إلى الْقَبْرِ.

والذي يترجَّحُ في نظري -وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ- أنَّ الأفضلَ والأكملَ أنْ يُسَلَّ الْمَيِّتُ، وأنْ يكونَ السريرُ عندَ رِجْلِ الْقَبْرِ.

وأمَّا ما استدلَّ بهِ أصحابُ القولِ الثَّاني فيُجابُ عنْهُ: بضعفِ الإسنادِ.

وثانيًا: أنَّ هذا القولَ ضعيفٌ، ومَنْ يعرفُ صفةَ قَبْرِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يعلمُ أنَّهُ لا يُمكنُ أنْ يتحققَ ذَلِكَ؛ لأنَّ قَبْرَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَحْدُهُ كانَ تَحتَ جدارِ حجرةِ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، كانَ مِنْ جهةِ الْمواجهةِ الْموجودةِ الآنَ، وبيْنَ الْمواجهةِ وبيْنَ الْجدارِ الأصليِّ مسافةٌ، أي ليسَتِ الْمواجهةُ الْموجودةُ الآنَ التي يُوقَفُ فيهَا هِيَ جدارُ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-،وإنَّما هوَ الْجدارُ الذي أحدَثَهُ عُمَرُ بْنُ عبدِ العزيزِ -رَحِمَهُ اللهُ-.

فالْمقصودُ: أنَّ الْجدارَ الذي مِنْ جهةِ الْقَبْرِ، حُفِرَ قَبْرُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، وكانَ قريبًا مِنْ جدارِ الغُرفةِ؛ لأنَّهُ هوَ أوَّلُ الثَّلاثةِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- وأقربُهُم إلى جدارِ الْحُجرةِ، وحُفِرَ اللَّحْدِ تَحتَ الْجدارِ، فكيفَ يُوضَعُ السَّريرُ؟ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وُضِعَ سريرُهُ مِنْ جهةِ القبلةِ؟ لا يُمكنُ هذا.

ولذَلِكَ رَدَّ الإمامُ الشَّافعيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- على هذا القولِ، وبَيَّنَ أنَّهُ قولٌ ضعيفٌ، واستهجَنَ هذا القولَ، وبَيَّنَ أنَّهُ أدرَكَ العلماءَ والأئمةَ مِنْ علماءِ الْمدينةِ ومكةَ أنَّهُم تَوارَثُوا هذِهِ السُّنَّةَ، وهيَ أنَّهُم كانُوا يَسُلُّونَ الْمَيِّتَ مِنْ عندِ رأسِهِ، وأنَّ ما يُحكَى عَنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ لا يُمكنُ أنْ يكونَ ومَنْ يعرِفُ حقيقةَ الْحجرةِ فإنَّهُ يقولُ: إنَّ هذا الأمرَ لَمْ يقعْ أصلاً.

وبناءً على ذَلِكَ، **يترجَّحُ قولُ الْجمهور** الذينَ يقولُون: إنَّ السُّنَّةَ في الْمَيِّتِ أنَّهُ يُسَلُّ مِنْ عندِ قَبْرِهِ والْخِلافُ في الأفضليةِ -كمَا ذكرْنَا-، فلو أنَّ الْمَيِّتَ حُمِلَ كاملاً، ثُمَّ وُضِعَ، فهذا جائزٌ، ولو أنَّهُ أيضًا حُمِلَ مِنْ الْجهةِ الْمقابلةِ لِلَّحْدِ، فهذا جائزٌ.

ثُمَّ السُّنَّةُ أنَّهُ إذا دُلِّي إلى الْقَبْرِ: أنْ يكونَ هُناكَ مَا لا يَقِلُّ عن رَجُلَيْنِ.

والأصلُ عندَ العلماءِ: أنَّ الدَّفْنَ يتولاهُ الرِّجَالُ، وأنَّهُ لا يَجوزُ للنِّساءِ أنْ يَتَوَلَّيْنَ الدَّفْنَ بِحالٍ، فالأصلُ أنَّ الذي يَلِي دَفْنَ الْموتَى هُمُ الرِّجَالُ، وهذا مَحَلُّ إجْماعٍ بيْنَ أهلِ العلمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- حَتَّى ولو كانَ الذي يُدفَنُ امرأةٌ، فإنَّ الْمرأةَ لا تَلِي الدَّفْنَ **إلا في حالةٍ واحدةٍ**، وهيَ التي يسميهَا العلماءُ **(حالةَ الضَّرورةِ)** ألا يُوجَدَ رَجُلٌ، وتَموتُ امرأةٌ، أو يَمُوتُ رَجُلٌ بَيْنَ نِسوةٍ، وليسَ هناكَ أحدٌ يُدَلِّيهِ، فإنَّ الْمرأةَ حينئذٍ تَلِي دفنَهُ.

وأمَّا في حالِ الاختيارِ: فإنَّ النِّساءَ لا يَتَوَلَّيْنَ الدَّفْنَ، وهذا مِمَّا يُفَرَّقُ فيهِ مَا بيْنَ الغُسْلِ وما بيْنَ الدَّفْنِ.

والأصلُ أنَّ الذي يَلِي دَفْنَ الإنسانِ: وَصِيُّهُ الذي وَصَّى أنْ يَلِي دفْنَهُ، كما في التَّغسيلِ، فإذا قالَ:

(يدفِنُني فلانٌ) أو (أُوْصِي أنَّ فلانًا مِنْ قَرَابَتِي أو فُلانًا مِنْ طلبةِ العلمِ يَلِي دَفْنِي على السُّنَّةِ ونَحوِ ذَلِكَ)، فإنَّ هذا الوَصِيُّ مُقَدَّمٌ على غَيْرِهِ.

ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ عصبتُهُ الْمتعصِّبونَ بأنفسِهم: وهم من جهةِ البُنوة، كابنِهِ وابنِ ابنِهِ وإنْ نَزَلَ، ثُمَّ أبوهُ، وأبوهُ وإنْ علا، الْجَدُّ بِمحضِ الذُّكورِ، ثُمَّ الإخوةُ الأشقاءُ، ثُمَّ الإخوةُ لأبٍ، ثُمَّ أبناءُ الإخوةِ الأشقاءِ، ثُمَّ أبناءُ الإخوةِ لأبٍ؛ لأنَّهُ في بعضِ الأحيانِ يقعُ نزاعٌ ما بيْنَ القَرَابةِ، فيقدَّمُ الإخوةُ الأشقاءُ، ثُمَّ الإخوةُ لأبٍ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: الإخوةُ الأشقاءُ، ثُمَّ بنو الإخوةِ الأشقاءِ، ثُمَّ الإخوةُ لأبٍ، ثُمَّ بنو الإخوةِ لأبٍ، ثُمَّ الأعمامُ الأشقاءُ، ثُمَّ الأعمامُ لأبٍ، ثُمَّ بنو الأعمامِ الأشقاءِ، ثُمَّ بنو الأعمامِ لأبٍ، على الترتيب الذي ذكرناه في التَّغسِيل، وهذِهِ قوةُ العصبةِ.

فَبِالْجِهَةِ التَّقْدِيْمُ، ثُمَّ بِقُرْبِهِ وَبَعْدَهُمَا التَّقْدِيْمُ بِالْقُوَّةِ اجْعَلا

فهذِهِ حقوقٌ؛ لأنَّهم رُبَّما تنافسُوا، ورُبَّما تشاحنُوا، فحينئذٍ يقدَّمُون بِهذا الصِّفةِ.

وأمَّا الْمرأةُ إذا دُفِنَتِ الْمرأةَ فأولى النَّاسِ بدفنِهَا: زوجُهَا، ومَحارمُهَا، ثُمَّ عصبتُهَا، والأجانبُ **فأمَّا بِالنِّسبَةِ لزوجِهَا قالُوا**: لأنَّ الْمرأةَ زوجُهَا أولى بِها، وأولى بدفنِهَا.

وأُعتُذِرَ عَنْ: حديثِ عثمانَ الْمشهورِ في قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أَيُّكُمْ لَمْ يُقَارِفْ أَهْلَهُ اللَّيْلَةَ؟**)) بأنَّهُ خاصٌّ في نزولِ طلحةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في قبْرِ بنتِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وأمَّا مِنْ حيثُ الأصلِ فإنَّ الْمرأةَ **مُنِعَتْ مِنْ تَوَلِّي الدَّفْن لأسبابٍ**:

أَوَّلُهَا: أنَّ الْمرأةَ ضعيفةٌ، ويغلُبُ عليهَا الْجزعُ، ولذَلِكَ لا يُؤمَنُ أنْ يَحصُلَ الْمحظورُ مِنَ الصُّراخِ ونَحوِهِ.

وثانيًا: أنَّ هذا الضَّعْفَ قدْ يُؤدي إلى إضاعةِ حَقِّ الْمَيِّتِ؛ لأنَّهُ مع الانزعاجِ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: **{أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى}**، ولذَلِكَ لَمْ تُقْبَلْ شهادةُ النِّساءِ في الدِّماءِ لأنَّ الْمرأةَ إذا رَأَتِ القتلَ ورأَتِ الْجراحاتِ ضعيفةٌ، فمعَ شدةِ الرُّعبِ تضيّعُ، ولا تستطيعُ أنْ تضبطَ الأمرَ، بِخلافِ الرَّجُلِ؛ فلأجلِ هذِهِ الْمعاني.

وهذا فيهِ رَدٌّ على مَنْ يقولُ: إنَّ الشَّريعةَ تُفَضِّلُ لغيْرِ مَعْنًى، والواقعُ أنَّها بيَّنَتْ هذا التفضيلَ لأسبابٍ مهمةٍ تعودُ إلى خاصيةِ الرَّجُلِ في خِلْقَتِهِ، وخاصيةِ الْمرأةِ في خِلْقَتِهَا، وهذا هو صنيعُ اللهِ ولا أكملُ مِنْ صنعِهِ تَبارَكَ اللهُ أحسنُ الْخالقيْنَ.

فالْمقصودُ مِنْ هذا أنَّها إذا تشتَّتَ فكرُهَا، وعَزَبَ عنهَا لُبُّهَا، ضَيَّعَتِ السُّنَّةَ في الْمَيِّتِ في دفنِهِ، فمعَ

رُعبِ الْحالِ وفزعِهِ تضيّعُ.

وكذَلِكَ أيضًا أنَّها إذا نَزَلَتْ فإنَّ النُّزُولَ والصعودَ لا يُؤمَنُ معَهُ التَّكشُّفُ وانكشافُ العورةِ، ولذَلِكَ غُلِّظَ في حَقِّ النِّساءِ، ومُنِعْنَ مِنْ أنْ يَتَوَلِّيْنَ الدَّفْنَ.

وإذا دُلِّي الْمَيِّتُ إلى الْقَبْرِ **فالسُّنَّةُ أنْ يُجعَلَ على شقِّهِ الأيْمنِ مستقبلَ القبلةِ**، وقدْ قالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الكعبةِ كمَا في الْحديثِ الْحسنِ: ((**قِبْلَتُكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا**)).

فقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ((**قِبْلَتُكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا**)) خَبَرٌ بِمعنَى الإنشاءِ، أي اجعَلُوا موتَاكُم مستقبليْنَ للقبلةِ، وإذا كانَ استقبالُهَا أحياءً في حالِ الصَّلاةِ واجبًا، فكذَلِكَ في الدَّفْنِ هوَ واجبٌ، **وهوَ أحدُ الوجهيْن، وأصحُّهُمَا**: أنَّ الْمَيِّتَ يَجبُ تقبيلُهُ للقبلةِ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّهُ لا يَجبُ، وأنَّهُ مستحبٌّ، **والصَّحيحُ** أنَّهُ واجبٌ.

وفائدةُ الْخِلافِ: أنَّهُ إذا دُفِنَ إلى غيْرِ القبلةِ، ولَمْ يُوَجَّهْ، جَازَ نَبْشُ الْقَبْرِ، ثُمَّ يُوَجَّهُ للقبلةِ، وهذِهِ مِنَ الْمسائلِ التي تُستثنَى ويَجوزُ فيهَا نَبْشُ القُبُورِ، أنْ يكونَ الْمَيِّتُ قدْ وُضِعَ لغيْرِ القبلةِ، أو أَخْطَؤُوا وظَنُّوا أنَّ القبلةَ في جهةٍ، ثُمَّ تبيَّنَ أنَّها ليستْ في الْجهةِ التي قَبَرَوهُ عليهَا، شُرِعَ نَبْشُ الْقَبْرِ، والعنايةُ بأنْ يكونَ الْمَيِّتُ مستقبلاً للقبلةِ.

والسُّنَّةُ عندَ وضعِهِ أنْ يقولَ: (بِسْمِ اللهِ، وبِاللهِ، وعَلَى مِلَّةِ رَسُوْلِ اللهِ)، أو (عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-).

فإذا قالَ: (مِلَّة) قالَ: (رَسُولِ اللهِ) بدون الصَّلاةِ، كمَا هيَ إحدى الرِّوايتَيْنِ عن ابْنِ عُمَرَ.

وإذا قالَ: (عَلَى سُنَّةِ) قالَ: (سُنَّةِ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-) كمَا وَرَدَ بالرِّوايةِ؛ لأنَّ هذا توقيفيٌّ، ويُحفظُ على صفةِ الواردِ عَنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ولَمْ يُحفظْ عَنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أذكارٌ وأدعيةٌ، كمَا يقولُ بعضُ العلماءِ أنَّهُ يقولُ: (اللَّهُمَّ هَذا عَبْدُكَ وابنُ عَبْدِكَ وابنُ أَمَتِكَ)، وغيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأدعيةِ لَمْ يُحفظْ حَسَبَ علمِي شَيْءٌ صحيحٌ عَنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذِهِ الْحالةِ، إنَّما الْمحفوظُ أنَّه يقولُ: (**بسمِ اللهِ، وباللهِ، وعلى ملَّةِ رسولِ اللهِ**)، ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ يتفرغُ لإكمالِ الدَّفْنِ، ثُمَّ يكونُ الدُّعاءُ بعدَ الدَّفْنِ.

ولا مانعَ أنْ يستغفرَ أثناءَ وضعِهِ، لكنَّهُ ليسَ استغفارًا على صفةِ الاتباعِ، فإنَّ الإنسانَ رُبَّما أثناءَ حَمْلِهِ للمَيِّتِ ووضعِهِ يُكثرُ مِنَ الدُّعاءِ لَهُ، فهذا ليسَ بِمحرَّمٍ ولا مَمنوعٍ؛ لأنَّ الْمسلمَ يدعو لأخيهِ الْمسلمِ في

كُلِّ وقتٍ، لكنَّ تَخصيصَ شيءٍ باعتقادِ أنَّهُ في هذا الْموضعِ يُقالُ، هُوَ إلى الْحَدَثِ والبدعةِ منْهُ أقربُ مِنَ السُّنَّةِ.

ثُمَّ قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّهُ يُسْنَدُ قليلاً مِنْ وراءِ ظهرِهِ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: يُوضَعُ رأسُهُ على لَبِنَةٍ، أو يُجمَعُ التُّرابُ ويُوضَعُ رأسُهُ، وهذا ليسَ فيهِ شيءٌ ثابتٌ، بَلْ وَرَدَ عَنْ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه قالَ: **(وأَسْلِمُوا خَدِي إلى التُّرَابِ)**، وهذا يدلُّ على أنَّهُ لا يُوضَعُ تَحتَ رأسِ الْمَيِّتِ شيءٌ، **وهذا هُوَ الأَقْوَى وهُوَ الصَّحيحُ**، وإنَّما يُوضَعُ على الصِّفةِ التي ذكرْنَاهَا.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّهُ يُسْنَدُ بشيءٍ قليلٍ مِنَ التُّرَابِ وراءَ ظهرِهِ؛ حتى لا ينقلِبَ، وهذا ذَكَرَهُ بعضُ العلماءِ، ولكنْ ليسَ فيهِ ما يدلُّ عليهِ، إلا أنَّ بعضَ العلماءِ تَسَامَحَ فيهِ؛ لأنَّ الْمرادَ تَحقيقُ الواجبِ وهوَ استقبالُ القبلةِ.

وفي بعضِ الأحيانِ كُلَّمَا وَضَعَهُ رُبَّمَا ينقلِبُ، وقدْ تَحْدُثُ بعضُ الآياتِ والعِبَرُ يُنَبِّهُ اللهُ بِهَا الغافليْنَ ويوقظُ بِها النَّائميْنَ، وفيهَا تَحذيرٌ للمؤمنيْنَ، مثلُ أنَّ البعضَ يُقَبِّلُ إلى القبلةِ فلا يَتَقَبَّلُ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ-.

وذَكَرَ بعضُ الثِّقاتِ: أنَّ رَجُلاً كانَ يستهزِئُ بالدِّينِ، ويستهزِئُ بالأخيارِ، وكانَ بَيْنَ الْمسلميْنَ ولَمَّا أرادُوا قَبْرَهُ بعدَ أنْ صَلَّوا عليهِ، كُلَّمَا وُضِعَ على القبلةِ انصَرَفَ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، وحاولُوا مَرَّاتٍ وكَرَّاتٍ، وكانَ يستهزِئُ بالعلماءِ وبفتاوِيهم ويسخرُ منْهُم، ولا يَأْلُو جُهْدًا في ذَلِكَ، فمثلُ هذِهِ الأمورِ قدْ تَقَعُ، وتَقَعُ في بعضِ الأحيانِ عندَ غفلةِ النَّاسِ يُحَذِّرُ اللهُ بِهَا عبادَهُ.

وأمَّا مسألةُ أنْ ينقلِبَ عَنِ القبلةِ هذا شيءٌ هَيِّنٌ بِالنِّسبَةِ لِمَا وراءَهُ مِنَ العذابِ، إذا كانَ مستهزِئًا بالدِّينِ، ولكنَّ النَّاسَ قدْ تَرَى هذا شيئًا كبيْرًا؛ لأنَّها إذا تعلَّقَتْ بشيءٍ قد ينبِّهُهَا اللهُ بِما تتعلَّقُ بهِ وإلا فأَمْرُ الدِّينِ عظيمٌ، وشأنُهُ عظيمٌ، ولا يستهزِئُ أَحَدٌ بالدِّينِ فيَأْمَنُ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- وسوءُ العاقبةِ في أَمْرِهِ أولاً وأخرًا، فإذا لَمْ يَتُبْ، ولَمْ يتداركْهُ اللهُ برحْمتِهِ فإنَّهُ على خَطَرٍ، والاستهزاءُ بالدِّينِ ليسَ خاصًّا بالْمنافقيْنَ وبالكفرةِ والفَجَرةِ وبعضِ الْمنتسبيْنَ للإسلامِ، قدْ يكونُ حَتَّى مِنْ بعضِ طلبةِ العلمِ؛ لأنَّ البعضَ يكونُ طالبَ علمٍ، ويَجلسُ معَ إخوانِهِ وزملائِهِ مِنْ طلبةِ العلمِ، فيسخرُ مِنْ ألوانِهِم، أو يستهزِئُ مِنْ طريقتِهِم في الْجلوسِ في مَجالسِ العلماءِ، أو في حكايةِ الفتوى، أو في مراجعةِ العلمِ، كُلُّ هذا يُؤْخَذُ منْهُ الْحَذَرُ، وتُعَظَّمُ شعائرُ اللهِ.

فذكرُوا أنَّهُ حَصَـلَ هذا لبعضِـهِم، **وذَكَرَ بعضُ الثِّقاتِ**: أنَّ رَجُلاً كانَ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- مُبْتَلًى بشُـرْبِ بعضِ الْمحرَّماتِ، وكانَ ينصحُهُ إمامُ الْمسجدِ، ويذكِّرُهُ باللهِ كثيْرًا، فيستهزِئُ ويُعْرِضُ عنْهُ، فلمَّا ماتَ جاءَ أولادُهُ إليهِ، وقالُوا: أبونَا مَاتَ، وأحبَّ أنْ يكرمَهُم في أبيهِم، فلمَّا دُلِّي إلى الْقَبْرِ نَزَلَ إلى الْقَبْرِ ووَضَعَ الْمَيِّتُ، وأَقْسَمَ باللهِ أنَّهُ لَمْ يستطعْ أنْ يَجلسَ في الْقَبْرِ بعدَ أنْ قَبَّلَهُ وقتًا؛ بسببِ نَتَنِ الرَّائحةِ مِنْ نفسِ الشَّرابِ الذي كانَ يشربُهُ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

فهذِهِ كُلُّهَا زواجرُ، وأمورٌ تُخوِّفُ العبادَ، وينذِرُ اللهُ بِهَا عبادَهُ، وإلا ما في الْقَبْرِ أَشَدُّ وأفْظعُ وأشنَعُ مِنْ هذا كُلِّهِ.

ولذَلِكَ قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الْحديثِ الصَّحيحِ: ((**لَوْلا أَنِّي أَخَافُ أَلا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ**))، وهذا يدلُّ على خطرِ وعظمِ شأنِ الْقَبْرِ.

ولذَلِكَ كانَ عثمانُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - إذا جَلَسَ على الْقَبْرِ بَكَى، فقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ والنَّارَ ولا تَبْكِي، وإذا ذُكِرَ الْقَبْرُ، أو جَلَسْتَ على الْقَبْرِ بَكَيْتَ؟ قَالَ: ((**أَخْبَرَنِي خَلِيْلِي رَسُوْلُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ**)).

فالسُّنَّةُ أنْ يُقَبَّلَ الْمَيِّتَ إلى القبلةِ، وأنْ يكونَ على شِقِّهِ الأيْمنِ.

وانتَزَعُوا هذا مِنْ: حديثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لَهُ: ((**إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوْءَكَ لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ**))، والنَّومُ هُوَ الْمَيِّتةُ الصُّغْرَى، فاستَحَبُّوا أنْ يكونَ على شِقِّهِ الأَيْمنِ.

ثُمَّ إذا انتُهِيَ مِنْ ذَلِكَ نُصِبَ اللَّبِنُ على الْقَبْرِ، قالَ سَعْدٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كَمَا في صحيحِ مُسْلِمٍ وغَيْرِهِ: ((**أَلْحِدُوا لِي لَحْدًا، وانصِبُوا عليَّ اللَّبِنَ نَصْبًا كَمَا صُنِعَ بِرَسُوْلِ اللهِ**-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)).

فيُنصَبُ اللَّبِنُ، تُوضَعُ حَبَّاتُ اللَّبِنِ؛ حَتَّى تَقفِلَ هذِهِ الفتحةَ التي في الْحفرةِ، ثُمَّ تُسَدُّ الثَّغراتِ الْموجودةِ فيهَا، فقالَ: ((**انصِبُوا اللَّبِنَ نَصْبًا**))، انصِبُوهُ على الْقَبْرِ؛ لكي تُقفَلَ فتحتُهُ.

فإذا انتُهِيَ مِنْ ذَلِكَ فإنَّهُ يُهَالُ عليهِ التُّرَابُ، كمَا ثَبَتَ عَنْ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ويُوَارَى التُّرَابُ مِنَ الْجهةِ الْمقابلةِ للقبلةِ؛ حَتَّى لا يَنْهَالَ اللَّبِنُ، يبدأُ بالْجهةِ التي تُقابِلُ القبلةِ، كَمَا نَبَّهَ عليهِ بعضُ أهلِ العلمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-؛ لأنَّهُ إذا أُهِيْلَ التَّرَابُ مِنْ جهةِ القبلةِ رُبَّمَا نَزَعَ اللَّبِنَ، ورُبَّمَا سَقَطَ، وهذا يقَعُ خَاصَّةً في بعضِ الأراضي التي تكونُ تربتُهَا ضعيفةً.

فالْمقصودُ: أَنَّهُ إذا أُهِيْلَ عليهِ التُّرَابُ، والسُّنَّةُ لِمَنْ حَضَرَهُ أنْ يُهِيْلَ عليهِ التُّرَابَ، ووَرَدَ عَنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ حَثَا ثَلاثِ حَثَيَاتٍ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

وما يذكرُهُ البعضُ مِنْ أَنَّهُ يقرأُ الآياتِ عندَ حَثْو هذِهِ الْحَثَيَاتِ، كُلُّ حَثْوَةٍ لَهَا آيةٌ، كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَرِدْ عَنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولَمْ يصِحَّ، فلا يفعلُ، إنَّمَا يقتصِرُ على الواردِ عَنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

فإذا استتمَّ دَفْنُ الْمَيِّتِ فالسُّنَّةُ: أنْ يُسَنَّمَ الْقَبْرُ، ولا يُسَطَّحُ، كمَا وَرَدَ في صفةِ قَبْرِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهذا عَقَدَ لَهُ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بابًا سنبينُهُ -إنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ مَا يَقُوْلُ إِذَا أُدْخِلَ الْمَيِّتُ قَبْرَهُ]**

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أبو سعيدٍ الأشجُّ حَدَّثنا خالدٌ الأحمرُ حَدَّثنا الحجَّاجُ عن نافعٍ عن ابنِ عمرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنَّ النَّبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إذا أُدْخِلَ الْمَيِّت الْقَبْر، وقالَ أبو خالدٍ: إذا وُضِعَ الْمَيِّت في لَحْدِهِ قال مرّةً: ((**بسمِ اللهِ، وباللهِ، وعلى وملّةِ رسولِ اللهِ**))، وقالَ مرّةً: ((**بسمِ اللهِ، وباللهِ ، وعلى سنَّةِ رسولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)).

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجهِ.

الشَّرْح:

ترجم الْمُصَنِّف -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ التَّرجَمةِ؛ لأنَّ السُّنَنَ الواردةَ في دَفْنِ الْمَيِّتِ:

مِنْهَا مَا هُوَ قَوْلٌ، **وَمِنْهَا** مَا هُوَ فِعْلٌ.

وهذا البابُ معقودٌ للسُّنَّةِ القوليّةِ، أي مَا كانَ يقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عندَ دفنِهِ للميّتِ.

و((**أُدْخِلَ، أو أَدْخَلَ**)) بالبناءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ، أو التَّصريحُ.

الْمرادُ بِهِ أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إذا أَدْخَلَ الْمَيِّت، أو أُدْخِلَ.

الفرقُ بيْنَ الأمرينِ:

((**أَدْخَلَ**)): إذا تَوَلَّى هوَ الإدخالَ للميّتِ .

((**وإذا أُدْخِلَ**)) فائدتُهَا أنْ يقولَهَا مَنْ حَضَرَ؛ لأنَّ ((**أُدْخِلَ**)) يعني أنَّهُ يقولُ هذا القولَ وهو يَرَاهُم يُدخِلُونَ الْمَيِّتَ.

وبناءً على ذَلِكَ تكونُ السُّنَّةُ الأُوَّلى خاصَّةٌ: ((**إِذَا أَدْخَلَ**)).

والسُّنَّةُ الثَّانية عامَّةٌ: ((**إِذَا أُدْخِلَ**))، فيقولُ مَنْ حَضَرَ: (بسمِ اللهِ، وباللهِ).

((**بسمِ اللهِ**)): ولا أبركُ مِنِ اسمِ اللهِ، قالَ تعالى: **{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ}**، فمَا كانَ في قليلٍ إلا كثَّرَهُ، ولا في يسيْرٍ إلا باركَهُ، وبركةُ اسمِ اللهِ ليسَ لَهَا منتَهَى، واللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-تبارك اسْمُهُ وتقدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ -جَلَّ جَلالُهُ وهُوَ لا إلَهَ غَيْرُهُ-.

وشُرِعَتِ التَّسميةُ؛ لأنَّ فيهَا الْخَيْرَ الكثيْرَ، وفيهَا البركةُ، ولذَلِكَ جعلَهَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- في كثيْرٍ مِنَ الشَّرائعِ والعباداتِ والْمعاملاتِ، فمَا يكونُ اسمُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- في شيءٍ إلا رَأَيْتَ بركتَهُ وخَيْرَهُ وحُسْنَ العاقبةِ لصاحبِهِ.

ومِنْ هُنَا، إذا وَضَعْنَا أَخَانَا الْمسلمَ، أو أختَنَا الْمسلمةَ أنْ نقولَ: **(بسمِ اللهِ)**؛ رجاءَ أنْ يضَعَ اللهُ البركةَ فيمَا هُوَ قادمٌ عليهِ مِنْ آخرتِهِ، ويُحفظُ، اسمُ اللهِ حفظٌ وحِرزٌ، ولذَلِكَ شُرِعَتِ التَّسميةُ في كثيْرٍ مِنَ الأمورِ، يُصَانُ بِهَا العبدُ مِنْ كثيْرٍ مِنَ الشُّرورِ، فإذا ذَكَرَ اللهَ فقالَ: **(بسمِ اللهِ)** انْخَنَسَ الشَّيطانُ، ونَكصَ على عقبِهِ؛ لأنَّهُ لا أثقلَ مِنِ اسمِ اللهِ، ولا أعظمَ مِنِ اسمِ اللهِ، ولذَلِكَ تندحِرُ بِهِ الشُّرورُ، وهوَ الْحِصنُ الْحصيْنُ، والْحِرزُ الْمكيْنُ، مِنْ إلهِ الأَوَّلِيْنَ والآخرينَ.

وجاءَتِ التَّسميةُ بلفظِ الْجلالةِ: ((**بسمِ اللهِ**))، حَتَّى قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ **(اللهَ)** هُوَ اسمُ اللهِ الأعظمُ؛ لأنَّهُ لَمْ يَتَسَمَّ بِهِ أَحَدٌ سواهُ، وهوَ عَلَمٌ على اللهِ وَحْدَهُ لا شريكَ لهُ ولذَلِكَ سُمِّيَ بالرَّحْمَنِ، وتَسَمَّوا بالْمَلِكِ، وتسمَّوا بالأَسْمَاءِ الأُخرى، ولكنَّ **(اللهَ)** هوَ للهِ -جَلَّ جَلالُهُ وتقدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ-.

وقالَ بعضُ الْمفسرينَ في قولِهِ تعالى: **{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}** هوَ اسمُ اللهِ؛ لأنَّهُ قَصَدَ بقولِهِ: **{هَلْ تَعْلَمُ}** أي لا تعلم؛ لأنَّ **(هَلْ)** تأتي بِمعنَى النَّفي، (لا تعلَمُ لَهُ سَمَيًّا).

قِيلَ: مِنْ جهةِ الاسمِ، وهوَ اسمُ اللهِ، أي لَمْ يَتَسَمَّ بِهِ أَحَدٌ، وهوَ عَلَمٌ على اللهِ وَحْدَهُ، بِخلافِ بقيةِ الأَسْمَاءِ.

وقِيلَ: **{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}** أي مثيلاً، فلا يساميهِ أي يشابِهُهُ ويُماثِلُهُ شيءٌ كمَا قالَ سبحانه: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}**.

فالْمقصودُ: أنَّهُ يُقالُ: ((**بسمِ اللهِ، وباللهِ**)) الباءُ: للاستعانةِ، أي مستعِينِيْنَ باللهِ؛ لأنَّ الباءَ مِنْ معانيهَا الاستعانةُ:

تَعَدَّ لُصُوْقًا وَاسْتَعِنْ بِتَسَبُّبٍ وَبَدِّلْ صِحَابًا قَابَلُوْكَ بِالاسْتِعْلا

وَزِدْ بَعْضُهِمْ إن جاوزَ الظَّرف غــايةً يَمِيْنًا تَحُزْ مَعَانِيَهَا كُلَّهَا

هذِهِ مِنْ معانِي الباءِ، **(تَعَدَّ لُصُوْقًا وَاسْتَعِنْ)** أي مِنْ معانيَهَا الاستعانةُ، وقالُوا في قولِهِ تعالى: **{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ}** أنَّ الباءَ للاستعانةِ، وهوَ أحدُ الأوجهِ فيهَا.

قولُهُ: ((**بِسْمِ اللهِ، وَبِاللهِ**)) أي مستعِينِيْنَ بالله .

((**وَعَلَى مِلَّةِ رَسُوْلِ اللهِ، وَعَلَى سُنَّةِ رَسُوْلِ اللهِ**)) الْمِلَّةُ والسُّنَّةُ بِمعنًى واحدٍ، معناهُمَا وَاحِدٌ.

في هذا دليلٌ على أنَّ السُّنَّةَ إذا أُدْلِي الْمَيِّتُ الْقَبْرَ أنْ يُقالَ هذا، ويعتَبَرُ مِنَ السُّنَنِ القوليّةِ التي تُرَاعَى عندَ دَفْنِ الْمَيِّتِ رَجُلاً كانَ أو امرأةً.

وهذا خاصٌّ بأهلِ الإسلامِ، **أمَّا غيْرُ الْمسلميْنَ**: فلا يُقالُ فيهِم ذَلِكَ؛ لأنَّهم ليسُوا على سُنَّةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وليسُوا على هديِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقدْ رُوِيَ هذا الْحديثُ مِنْ غَيْرِ هذا الوجهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ورواهُ أبو الصِّديقِ النَّاجي عَنِ ابنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وقد رُوِيَ عَنْ أَبِي الصِّدِّيقِ الناجي، عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، موقوفاً أيضًا.

الشَّرْح:

لا يَمْتَنِعُ أنْ يكونَ ابْنُ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- يقولُهُ، ثُمَّ يرفعُهُ إلى النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في بعضِ الأحيانِ وبعضُ الأحيانِ يقولُهُ، ولا يرفعُهُ؛ لأنَّهُ يعملُ بالسُّنَّةِ، وكانَ مِنْ أحرصِ النَّاسِ على السُّنَّةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وشأنُهُ في اتباعِ السُّنَّةِ معروفٌ.

فكونُهُ يَرِدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ موقوفًا لا يقدحُ في كونِهِ مرفوعًا إلى النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ولِهذا نظائرُ، حيثُ ذَكَرَ العلماءُ أنَّ الصَّحابِيَّ رُبَّمَا يذكرُ الْحديثَ روايةً، ورُبَّمَا يذكرُهُ فتوى ودِرَايةً، وكونُهُ يُفتِي بهِ، أو يقولُ بهِ لا يَمنعُ أنَّهُ مرفوعٌ إلى رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

فالْحديثُ مرفوعٌ إلى رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وإنْ كانَ قدْ وَرَدَ في بعضِ الطُّرُقِ موقوفًا على عبدِاللهِ بْنِ عُمَرَ.

إنَّما الإشكالُ: إذا وَرَدَ بالطَّريقِ موقوفًا ومرفوعًا على سبيلِ التَّعارضِ: هَلْ هُوَ مرفوعٌ إلى النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أو موقوفًا على الصَّحابِيِّ سواءً ابْنُ عُمَرَ أو غَيْرُهُ؟

وفي هذا الْحديثِ ((**إِذَا أُدْخِلَ**)):

قالَ بعضُ العلماءِ: الإدخالُ يبدأُ بِمجردِ أنْ يُدَلَّى.

وقالَ بعضُهم: إنَّ الإدخالَ لا يكونُ إلا إذا دُفِعَ إلى الْجهةِ التي فيهَا اللَّحْدُ، **وهُوَ أَقْوَى**.

وهكذا لا يكونُ الإدخالُ إلا إذا وُضِعَ في الشَّقِّ، فجاءَ مُحاذي لطرفي الشَّقِّ فابتُدِئَ بإدخالِهِ، يُقالُ هذا.

أمَّا أثناءَ التَّدليةِ والإنزالِ فإنَّهُ لَمْ يُدخَلِ الْقَبْرَ الذي هُوَ مكانُ الدَّفْنِ.

وإذا قُلنَا: إنَّ (**أَلْ**) في (**الْقَبْرِ**) الْمرادُ بِهَا عمومُ الْقَبْرِ، فلا إشكالَ، يكونُ بِمجردِ أنْ يُدْلَى يكونُ قدْ دَخَلَ قَبْرَهُ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ يُلْقَى تَحْتَ الْمَيِّتِ فِي الْقَبْرِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا زيدُ بنُ أخزمَ الطَّائيُّ البصري حَدَّثنا عثمانُ بنُ فرقدٍ، قال: سمعتُ جعفرَ بنَ مُحَمَّدٍ عن أبيهِ قال: ((**الّذِي أَلْحَدَ قَبْرَ رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَبُو طَلْحَةَ، وَالّذِي أَلْقَى الْقَطِيْفَةَ تَحْتَهُ شُقْرَانُ؛ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)).

قالَ جعفرٌ: وأخبرني ابنُ رافعٍ قال: سَمِعْتُ شُقْرَانَ يقولُ: ((**أَنَا وَاللهِ، طَرَحْتُ الْقَطِيْفَةَ تَحْتَ رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **فِي الْقَبْرِ**)).

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ شُقْرَانَ حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وروى عَليُّ بنُ الْمديْنِيِّ عن عثمانَ بنِ فرقدٍ هذا الْحديثَ.

الشَّرْح:

شُقْرَانُ: هوَ مَوْلَى مِنْ مَوَالِي النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **واسْمُهُ**: صالِحٌ، وهوَ مِمَّنْ شَهِدَ بِدْرًا، وذَكَرَ الْحافظُ أنَّهُ يَحتمِلُ أنَّ وفاتَهُ كانَتْ في عهدِ عثمانَ بنِ عفَّانَ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-.

الْمَيِّتُ لا يُوضَعُ تَحتَهُ شيءٌ، لا قطيفةٌ، ولا غَيْرُهَا، وهذا الْحديثُ بَيَّنَ الأئمةُ والْمحقِّقونَ أنَّهُ لَمْ يُتْرَكْ مَا فعَلَهُ شُقْرَانُ، وأنَّهُ نُزِعَتِ القطيفةُ وأُخرِجَتْ، وأنَّهُ لَمْ يُوضَعْ تَحتَ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-

شيءٌ، إنَّما اجتهَدَ هذا الصَّحابيُّ، ورَدَّ عليهِ الصَّحابةُ اجتهادَهُ؛ لأنَّهُ عَزَّ عندَهُ أنْ يستعمِلَ هذِهِ القطيفةَ غَيْرُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

والسَّببُ في مَنْعِ العلماءِ مِنْ هذا: أنَّ هذا نوعٌ مِنَ الإسرافِ، وإضاعةِ الْمالِ؛ لأنَّ القطيفةَ يُستفادُ مِنْهَا في غَيْرِ هذا، ولذَلِكَ لا يُوضَعُ معَ الْمَيِّتِ شيءٌ في قَبْرِهِ.

وهذا هوَ الأصلُ: **{وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}**.

ولو فُتِحَ هذا البابُ لوجدْتَ الأغنياءَ والأثرياءَ وأهلَ المظاهرِ يفعلُون مَا لا يُعقَلُ، وما لا نِهايةَ لهُ، ولذَلِكَ أُمِرُوا بالرُّجُوعِ إلى هذِهِ الْحالةِ التي يكونُ فيهَا الإنسانُ أبلغَ ما يكونُ ذِلَّةً واستسلامًا لربِّهِ، فلا يُمَيَّزُ أَحَدٌ عن أحدٍ، ولا يُوضَعُ في الْقَبْرِ لا قطيفةٌ، ولا فراشٌ، ولا شيءٌ آخرُ.

فهذِهِ هيَ الأرضُ التي منْهَا خُلِقَ، وإليهَا يعُودُ، خُلِقَ منْهَا بقدرةِ اللهِ، ورُدَّ إليهَا بأمرِ اللهِ، خَرَجَ مِنَ الدُّنيا كمَا دَخَلَهَا، دَخَلَهَا وحيدًا فريدًا، وخَرَجَ منهَا وحيدًا فريدًا، لا يَملكُ لنفسِهِ ضَرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

فلا يُوضَعُ معَ الْمَيِّتِ أيُّ شيءٍ، إنَّما هوَ العملُ: إنْ كانَ على صلاحٍ واستقامةٍ وخشيةٍ للهِ ومراقبةٍ للهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وحفظٍ لِحدودِهِ، وتعظيمٍ للحَقِّ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-فقدْ أفلحَ وأنْجحَ، ولو انْهَالَ التُّرَابُ عليهِ.

وإنْ كانَ متمرِّدًا على اللهِ، معتديًا لِحدودِهِ، عاصيًا لهُ، فلو فُرِشَتِ لهُ الأرضُ ذهبًا ما زَادَهُ ذَلِكَ إلا عذابًا وبلاءً.

فهذا مِنْ إضاعةِ الْمالِ أنْ يُوضَعَ معَ الْمَيِّتِ قطيفةٌ، أو قماشٌ، أو يُفرَشُ لهُ الْقَبْرُ، لا يُوضَعُ في الْقَبْرِ شيءٌ، الْقَبْرُ يُسْلَمُ فيهِ الإنسانُ بِمَا خَرَجَ بهِ مِنَ الدُّنيا.

وَانْظُرْ إِلَى مَنْ حَوَى الدُّنْيَا لِيَجْمَعَهَا هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

فيخرجُ منهَا بِهذِهِ الْحالِ، ولا يُمَيَّزُ في قبْرِهِ بأيِّ فراشٍ، أو وِهادٍ، فراشُهُ الأرضُ التي منْهَا خُلِقَ وفيهَا يُعادُ.

قالَ تعالى في الْحديثِ القدسيِّ، كمَا في الْحديثِ الصَّحيحِ عَنِ الْبَراءِ بْنِ عَازِبٍ الذي رواهُ الإمامُ أَحْمَدُ في مسندِهِ في صفةِ حالِ العبادِ إذا قُبِضَتْ أرواحُهُم، فإنَّ الْعَبْدَ السَّعِيْدَ إذا قُبِضَتْ روحُهُ، وذَكَرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أحوالَ الْقَبْرِ: ((**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا احْتُضِرَ، نَزَلَتْ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيْضُ الْوُجُوْهِ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَجْلِسُوْنَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَأْتِيْهِ مَلَكُ**

الْمَوْتِ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَيَقُوْلُ: يَا أَيَّتُهَا الرُّوْحُ الطَّيِّبَةُ اُخْرُجِي إِلَى رَحْمَةٍ مِنَ اللهَ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَسِيْلُ رُوْحُهُ كَمَا تَسِيْلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَا، فَيَضَعُوْهَا، فَلا يَدَعُوْهَا مَعَهُ طَرْفَةَ عِيْنٍ حَتَّى يَضَعُوْهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ فَتَخْرُجُ مِنْهُ كَأَحْسَنِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ))، إلى أَنْ قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**ثُمَّ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَلا يَمُرُّوْنَ بِمَلأٍ مِنَ الْمَلائَكَةِ إِلا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوْحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُوْلُوْنَ: رُوْحُ فُلانِ بْنُ فُلانٍ، إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَنْتَهِيَ، فَيَقُوْلُ اللهُ: رُدُّوا رُوْحَهُ إِلَى الأَرْضِ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُ، وفِيْهَا أُعِيْدُهُ**)).

((**رُدُّوهُ**)) أي أنَّهَا تُرَدُّ إلى قَبْرِهِ، ((**فَإِنِّي مِنْهَا**)): أي مِنَ الأرضِ ((**وفِيْهَا أُعِيْدُهُ**)).

فَتُرَدُّ لَهُ رُوْحُهُ فِي قَبْرِهِ وَيُفْتَنُ، كمَا في الْحديثِ الصَّحيحِ.

فالْمقصودُ: أنَّ هذا هوَ حالُ العبدِ في قبْرِهِ أنَّهُ يُرْهَنُ بقولِهِ وعملِهِ، وأنَّهُ لا يُفْرَشُ لهُ بشيءٍ، ولا يُوضَعُ لهُ لا كساءٌ، ولا قطيفةٌ، ولا غَيْرُهَا.

وما حُفِظَ عَنْ شُقْرَانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّهُ عَزَّ عندَهُ أنَّ هذا الشيءَ يستعملُهُ أحدٌ بعدَ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وَذَكَرَ الْحافظُ ابْنُ عبدِ الْبَرِّ أَنَّهُ لَمْ يُوَافَقْ على ذَلِكَ، وأنَّ القطيفةَ أُخرِجَتْ مِنَ الْقَبْرِ، ولَمْ يُدْفَنْ مَعَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- شيءٌ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ حَدَّثنا يحيى بنُ سعيدٍ عن شعبةَ، عن أبي حمزةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: ((**جُعِلَ فِي قَبْرِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قطيفةٌ حَمْرَاءُ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: قالَ مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ في موضعٍ آخرَ: حَدَّثنا مُحَمَّد بنُ جعفرٍ ويحيى عن شعبةَ عن أبي جمرةَ عن ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- وهذا أصحُّ.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

أُجِيْبَ عنْهُ بأنَّ ابنَ عبَّاسٍ مِنْ صغارِ الصَّحابةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-، وقدْ يُرَى الأمرُ في أَوَّلِهِ، ولا يُرَى في تَالِيْهِ، ولذَلِكَ رواياتُ الأكابرِ مُقَدَّمَةٌ، وأنَّ الصَّحابةَ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- لَمْ يَرتَضُوا أنْ يُدْفَنَ مَعَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- شيءٌ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقد رَوى شعبةُ عن أبي حمزةَ القصَّابِ، واسمهُ عمرانُ ابنُ أبي عطاءٍ. ورويَ عن أبي جمرةَ الضُّبعيِّ، واسمهُ نصْر بنُ عمرانَ، وكلاهُما من أصحابِ ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، وقد رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُلْقَى تَحتَ الْمَيِّتِ فِي الْقَبْرِ شيءٌ، وإلى هذا ذَهَبَ بعضُ أهلِ العلمِ.

الشَّرْح:

وكيفَ يَكْرَهُ وإذا كانَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وُضِعَتْ لهُ القطيفةُ؟! ولذَلِكَ هذا هوَ الذي عليهِ العملُ؛ لأنَّهُ قدْ يَحكي أنَّهُ وُضِعَتْ، ولذَلِكَ بعضُهم يقولُ: إنَّ الرِّوايةَ عنْهُ أضعفُ مِنْ فتواهُ، ولذَلِكَ فتواهُ أقوى، وأنَّهُ كَرِهَ، وهذا الذي عليهِ العملُ عندَ كثيْرٍ مِنَ الصَّحابةِ، أنَّ الْمَيِّتَ لا يُجعَلُ معَهُ في قَبْرِهِ شيءٌ.

ولو فُرِضَ أنَّهُ جُعِلَ مَعَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- شيءٌ، فهذا خاصٌّ بهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ؛ لأنَّ الْمعنَى الذي عَلَّلَ بهِ شُقْرَانُ لا يُوجَدُ في غَيْرِهِ، ولذَلِكَ لا يشاركُهُ غَيْرُهُ، ولذَلِكَ لَمْ يُفْعَلْ بأبي بكرٍ، ولا عُمَرَ،ولا عُثمَانَ،حَتَّى إنَّ أبا بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَمَّا أرادُوا أنْ يكفنُوهُ نَهاهُم أنْ يكفنُوهُ في ثوبٍ جديدٍ، وقالَ: (**إِنَّ الْحَيَّ أَوْلَى بِالثَّوْبِ مِنَ الْمَيِّتِ**).

هذا هوَ الأصلُ، أنَّ هذا مِنَ الإسرافِ، وإضاعةِ الْمالِ أنْ يُوضَعَ مَعَ الْمَيِّتِ قطيفةٌ، ويأتي مَنْ يقولُ: نريدُ أنْ نَضَعَ لهُ فِرَاشٌ،ثُمَّ يأتي بأغلى مَا يكونُ، وكيفَ هذا أبي، وهذا فلانٌ؟! ثُمَّ تَجِدُ النَّاسَ لا يتناهَون في هذِهِ الأمورِ، هذا كُلُّهُ إضاعةٌ للمالِ، لا يستفيدُ الْمَيِّتُ مِنْ هذا بشيءٍ، لا ينفعُهُ إلا عملُهُ، بِمجردِ أنْ يُوضَعَ في قَبْرِهِ، فقدْ ابتدأَ حياةً جديدةً غَيْرَ الْحياةِ التي كانَ فيهَا، **{لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}** لنْ تَجِدَ أعظمَ بصيْرةً مِنَ الْمَيِّتِ إذا قُبِضَتْ رُوحُهُ، واستقبلَ البَرْزَخَ وعالَمَ الآخرةِ، هذا هوَ الوقتُ الذي ينتهي عندَهُ كُلُّ سَرابٍ، وكُلُّ خِدَاعٍ، وكُلُّ مظهرٍ لا معنَى لهُ في الْجوهرِ.

ولذَلِكَ لا يَحتاجُ لا إلى قطيفةٍ، ولا إلى وِسادٍ ولا إلى غَيْرِهِ، ولذَلِكَ مَنْ يقولُ: إنَّ الْمَيِّتَ يُلَقَّنُ بعدَ قَبْرِهِ، مَا يَحتاجُ أحدًا يُلَقِّنُهُ؛ لأنَّهَا هيَ أعمالُ، وقتُ جزاءٍ: إنْ خَيْرًا فخيْرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ رَجُلٌ يَموتُ

على التَّوحيدِ يَحتاجُ أحدًا أنْ يَقِفَ على قَبْرِهِ يقولُ لهُ: اذكرْ؟! لماذا؟ وهل هُوَ يُنْسَى؟! اذكرْ ما كُنْتَ عليهِ مِنْ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ!

حياةُ جِدٍّ مَا فيهَا عَبَثٌ، وتولَّى حسابَهَا أحكمُ الْحاكمِيْنَ الذي يقصُّ الْحقَّ وهو خيْرُ الفاصلِيْنَ، لنْ يضيعَ أهلُ التَّوحيدِ، ولنْ يضيعَ أهلُ الإيْمانِ، ولنْ يُضَيَّعَ أهلُ النفاقِ والْخسرانِ، فالكلُّ يُجزَى بأحسنِ الجزاءِ: إنْ كانُوا صالِحِيْنَ، وبِمَا هُم أهلُهُ، إنْ كانُوا عصاةً مُجرمِيْنَ: **{وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}**.

هذِهِ الْمنازلُ منازلُ الآخرةِ إذا صارَ العبدُ فيهَا إلى مَلِكِ الْملوكِ وجبَّارِ السَّمواتِ والأرضِ ليسَ فيهَا عَبَثٌ، وليسَ فيهَا خِداعٌ، **فيهَا** مَا هوَ أَقَلُّ مِنَ الذَّرةِ يُكشَفُ للعبدِ.

وَذَكَرَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الْحديثِ الصَّحيحِ أنَّ مِمَّا تطيشُ بهِ العقولُ يومَ القيامةِ، أنَّهم يَجدُون مثاقيلَ الذَّرِ مِنْ أقوالِهم وأعمالِهم، أنَّها أُحْصِيَتْ عليهِم أحصاهَا اللهُ -جَلَّ جَلالُهُ-: **{أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ}**، ولذَلِكَ لا يَحتاجُ العبدُ إلى أيِّ شيءٍ مِنْ هذا، لا إلى فِراشٍ، ولا إلى وِهادٍ، ولا إلى غطاءٍ، أبدًا ما يَحتاجُ إلى شيءٍ مِنْ هذا؛ لأنَّهُ أُسْلِمَ إلى عملِهِ.

فالنَّاسُ لو فُتِحَ لَهُم هذا الْمعنَى لوجدْتَ شيئًا لا ينتهي ولا ينقضي.

وَجَدْتُ رَجُلاً يَصُبُّ الْمَاءَ على قَبْرِ والدِهِ، قُلْتُ: ماذَا تفعلُ؟ قالَ: حَتَّى يُبَرِّدَ عليهِ، كيفَ يُبَرِّدَ عليهِ؟! الْماءُ يُصَبُّ على الْقَبْرِ! هذا يُؤذِي الْمَيِّتَ أصلاً، ولذَلِكَ بعضُ السَّلفِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- لَمَّا جَرَى النَّهرُ، ودَخَلَ على قَبْرِهِ أُرِيَ في الْمنامِ ابنُهُ أنَّهُ يقولُ لهُ: أَخرِجْنِي مِنَ الْقَبْرِ، فأُخرِجَ؛ لأنَّهُ انْهَدَمَ الْقَبْرُ، فيؤذى.

فهذا يؤذي الْمَيِّتَ، ويقولُ: إنَّهُ يُبَرِّدُ عليهِ، قُلْتُ لهُ: كيفَ يُبَرِّدُ عليهِ؟! قالَ: الْماءُ؛ لأنَّهُ إذا كانَ في شيءٍ يُبَرِّدُ عليهِ، قُلْتُ: معنَى ذَلِكَ أنَّهُ يُعَذَّبُ، أعوذُ باللهِ، تُسيءُ الظنَّ بأبيكَ وبقريبكَ أمورٌ مِنَ الْخزعبلاتِ، ومِنَ الأمورِ التي يَختلقُهَا النَّاسُ ليسَ لَهَا معنًى، يَحسبونَ أنَّ الآخرةَ مِثلُ الدُّنيا، هذِهِ أمورٌ ليسَ فيهَا مَجالٌ للاجتهادِ، ولا للرأي، ولا للهوى، وإنَّما هيَ مقرونةٌ بالشَّرعِ ومقرونةٌ بِما وَرَدَ عَنِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وبِمَا جاءَ بهِ الصَّادقُ الْمصدوقُ -بِأَبِي وَأُمِّي-.

فهذا الوقتُ بِمجردِ أنْ تقبضَ رُوحُ العبدِ، فإنَّهُ يُسْلِمُ إلى دارٍ غيْرِ الدَّارِ التي كانَ فيهَا.

يُقالُ: إنَّ الدُّنيا دارُ عملٍ، لا علمَ فيهَا، بِمعنَى أنَّ العلمِ فيهَا ليسَ كدارِ الآخرةِ، وأمَّا دارُ الآخرةِ والبَرْزخِ فهيَ دارُ علمٍ، لا عملَ فيهَا، العلمُ الذي فيهَا منتهَى العلمِ.

ولذَلِكَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يقولُ: **{لَقَدْ كُنْتَ}** اللامُ وقدْ التي تفيدُ التَّحقيقَ، و**{كُنْتَ}** التَّعبيْرُ بِ(كَانَ) التي تدلُّ على الدَّوامِ والاستمرارِ، **{لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ}**، وصيغة: **{غَفْلَة}** نكرةٌ وهذا يدلُّ على الاستقرارِ في الغفلةِ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ-، **{لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ}** كشفْنَا عنَكَ غطاءَكَ بِماذا؟ بالْموتِ، ولذَلِكَ بِمجردِ ما يَموتُ الإنسانُ ينكشِفُ عنْهُ الغِطاءُ.

وقدْ قالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: **{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ}**.

وفي بعضِ القراءاتِ: **{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بالْمَوْتِ}**.

فالْحَقُّ يظهرُ ويتبيَّنُ بسكرةِ الْموتِ؛ لأنَّهُ عندَهَا ينتهي العَبَثُ، وينتهي اللَّعِبُ، وتبدأُ حياةُ جِدٍّ لا لعبَ معَهَا، وحياةُ حَقٍّ لا باطلَ معَهَا، أبدًا، ينكشفُ للإنسانِ حقيقةُ ما هوَ فيهِ، لا يَحتاجُ إلى وِسادٍ، ولا يَحتاجُ إلى وِهادٍ، يَموتُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ وهوَ حافِيَ القَدَمِ؛ لكي يُدخَلَ إلى قَبْرٍ مَلِيءٍ بالنَّعيمِ والسُّرورِ الذي ينسى معَهُ كُلَّ بُؤْسٍ مَرَّ بهِ في الدُّنيا.

ويَموتُ العبدُ الفاجرُ الظَّالِمُ الآكلُ لِحقوقِ النَّاسِ وأموالِهم بالباطلِ، وهوَ في عزَّتِهِ في كفنِهِ وثيابِهِ ثُمَّ يُدَلَّى إلى حفرةٍ من حُفَرِ النَّارِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

هذِهِ حقيقةٌ لا لَبْسَ فيهَا، ولا غِشَّ؛ لأنَّها جاءَتْ في النُّصوصِ في كتابِ اللهِ وسنةِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، أنْ يَجعلَ معَهُ قطيفةً، أو يَجعلَ تَحتَهُ فِراشٌ، أو وِهادٌ، كُلُّ هذا لا يغنِي من اللهِ شيئًا.

نسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ وعظمتِهِ وكمالِهِ أنْ يرحمَ ضعْفَنَا، اللهُمَّ ارحمْ ضعْفَنَا، اللهُمَّ ارحمْ ضعْفَنَا، اللهُمَّ ارحمْ ضعْفَنَا، واجبُرْ كسرَنَا، اللهُم إنَّا نسألُكَ بأسْمائِكَ الْحسنَى وصفاتِكَ العُلى أنْ تَجعلَ قبورَنَا روضةً من رياضِ الفردوسِ الأعلى من جنتِكَ، اللهُمَّ لا تَجعلْهَا حُفرةً من حُفرِ النَّارِ، اللهُمَّ لا تَجعلْهَا حُفرةً من حُفرِ النَّارِ، نعوذُ بوجهِ اللهِ العظيمِ أنْ تكونَ قبورُنَا حُفرةً مِنْ حُفرِ النَّارِ، أو قبورُ والدينا، نعوذُ باللهِ العظيمِ وبوجهِ الكريْمِ، اللهُمَّ اجعلْها روضةً من رياضِ الْجَنَّةِ، ولا تَجعلْهَا حُفرةً من حُفرِ النَّارِ، اللهُمَّ إنَّا نسألُكَ حُسْنَ الْختامِ، وبلوغَ دارِ السَّلامِ بسلامٍ، اللهُمَّ اجعلْنَا مِمَّن بَلَغَ الفردوسَ بلا سبقِ عَذابٍ ولا عِتابٍ ولا حِسابٍ ووالدينا يا أرحمَ الراحِمِيْنَ، اللهُمَّ إنَّا نسألُكَ أنْ تبلغَنَا دارَ السَّلامِ بسلامٍ بلا سبقِ عَذابٍ ولا عِتابٍ ولا ارتِهانٍ بِحقٍّ أو مظلمةٍ، إلهَ الأولِيْنَ والآخرينَ، لا إلهَ إلا أنتَ، نستغفرُكَ

ونتوبُ إليكَ، اللهُمَّ إنَّا نسألُكَ أنْ تَجعلَ أسعدَ اللحظاتِ لَحظةَ الوقوفِ بيْنَ يديكَ، اللهُمَّ اجعلْ أسعدَ اللحظاتِ لَحظةَ الوقوفِ بيْنَ يديكَ، اللهُمَّ اجعلْ أسعدَ اللحظاتِ لَحظةَ الوقوفِ بيْن يديكَ، وارحمْ في موقفِ العرضِ عليكَ ذُلَّ مقامِنَا، وَيَمِّنْ كتابَنَا، وَيَسِّرْ حسابَنَا، واجبُرْ كسرَنَا، واغفرْ لَنَا ولآبائِنَا وأمهاتِنَا وإخوانِنَا ومشايخنا ومُحبينَا ومَنْ أوصانَا واستوصانَا ومَنْ حَضَرَ معنَا وغَابَ عنَّا، اللهُمَّ عُمَّنَا برحْمتِكَ، واشْمَلْنَا بعفوِكَ وكرمِكَ، اللهُمَّ لا تَجعلْنَا مُخزِيْنَ، ولا نادميْنَ، ولا تَحيينَا مبدِّلِيْنَ ومغيِّرِينَ، واعصمْنَا مِنْ فِتَنِ الْمفتونيْنِ، ومِنْ ضلالِ الْمضليْنَ، وثبتْنَا على الْحقِّ الذي يرضيكَ عنَّا يا رَبَّ العالْميْنَ، اللهُمَّ ثبتْنَا على الْحَقِّ حَتَّى نلقَاكَ وأنتَ راضٍ عنَّا يا أرحمَ الراحِمِيْنَ اللهُمَّ اغفرْ للمؤمنيْنَ والْمؤمناتِ والْمسلميْنَ والْمسلماتِ الأحياءِ منهُم والأمواتِ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللهَ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

رقم الدَّرس ٤٢٨

الأربعاء ١-٩-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الْحافظُ التِّرمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بابُ مَا جاءَ في تسويةِ الْقُبُورِ]**

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ أخبرنا عبدُالرَّحمَنِ بنُ مهديْ أخبرنا سفيانُ عن حبيبِ بنِ أبي ثابتٍ، عن أبي وائلٍ، أنَّ عليًّا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال لأَبِي الْهَيَّاجِ الأَسَدَيِّ: أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَنْ لا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلاَّ سَوَّيْتَهُ، وَلا تِمْثَالاً إِلاَّ طَمَسْتَهُ**)).

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن جابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ عَليٍّ حديثٌ حسنٌ.

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ، الْحمدُ للهِ ربِّ العالَمِيْنَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأَتَمَّانِ الأكملانِ على خَيْرِ خلقِ اللهِ أجْمَعِيْنَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ سارَ على سبيلِهِ ونَهجِهِ واستَنَّ بسنتِهِ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فَقَدْ تَرْجَمَ الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ التّرجَمَةِ والتي تتعلقُ بِهدي النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في تسوية القُبُورِ، فبعدَ أنْ بَيَّنَ السُّنَنَ الواردةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في كيفيةِ الدَّفْنِ، وما ينبغي أنْ يكونَ عليهِ الْحالُ أثناءَ الدَّفْنِ، وبعدَ الدَّفْنِ، شَرَعَ -رَحِمَهُ اللهُ- في بيانِ هديِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الأمرِ بتسويةِ القُبُورِ، والنَّهيِ عَنِ الْمبالغةِ في تشييدِهَا ورفعِهَا عَنِ الأرضِ.

وهذا البابُ ذَكَرَ فيهِ حديثُ عَليٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- في قصتِهِ مَعَ أَبِي الْهَيَّاجِ الأَسَدَيِّ حينمَا بعثَهُ وبَيَّنَ لَهُ هديَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في تسويةِ الْقَبْرِ.

وكانَ مِنْ عادةِ أهلِ الْجاهليةِ أَنَّهُم يرفعُون القُبُورَ ويشيدُوْنَهَا، وهكذا بالنِّسبةِ لِمَنْ كانَ قبلَنَا مِنَ اليهودِ والنَّصارى كانُوا يبنُونَ على القُبُورِ، كمَا ثَبَتَ في الصَّحَيْحِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَتْ أُمُّ الْمؤمنيْنَ مَا كانَ في الْحبشةِ قَالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ، إِذَا مَاتَ فِيْهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ بَنَوا عَلَى قَبْرِهِ، وَصُوَّرَ فِيْهِ تِلْكَ الصُّوَرُ**)) ، فكانُوا يفعلُونَ هذا بعظمائِهِم وبصالِحِيهِم.

وجاءَ دينُ الإسلامِ، دينُ الْحنيفيَّةِ السَّمحاءِ بِهذا الأصلِ العظيمِ، وهُوَ عدمُ تعظيمِ القُبُورِ، وعدمُ الْمبالغةِ في رفعِهَا وتشييدِهَا، وتزويقِهَا، والبناءِ عليَهَا.

وشدَّدَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذا الأمرِ أَيَّمَا تشديدٍ، وكمْ وَقَعَ للمسلميْنَ مِنَ البلاءِ في هذا الأمرِ حينمَا تركُوا هذِهِ السُّنَّةَ العظيمةَ التِي أمرَ بِها رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-. وكانَ أصحابُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على هديهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، فَلا يرونَ قَبْرًا مُشْرِفًا إلا سَوَّوَهُ، وكانُوا يتواصَونَ بذَلِكَ، وحديثُ عَلِيٍّ الَّذِي معنَا يدلُّ على ذَلِكَ دِلالةً واضحةً.

فعَلِيٌّ أميْرُ الْمؤمنيْنَ لَمَّا بَعَثَ هذا الرَّجُلَ نبَّهَهُ على هذا الأمرِ العظيمِ؛ لأنَّهُ يتعلَّقُ بأعظمِ الأشياءِ وأقدسِهَا، وهُوَ حَقُّ اللهِ -جَلَّ جَلالُهُ- في توحيدِهِ؛ لأنَّ تعظيمَ القُبُورِ يُفضِي إلى ضياعِ حَقِّ اللهِ؛ لأنَّهُ يُبَالَغُ فيهَا، ويُعظَّمُ في شأنِهَا حَتَّى تُعْبَدَ مِنْ دُوْنِ اللهِ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ-.

ومَنْ نَظَرَ إلى حالِ كثيْرٍ من الْجُهَّالِ، بَلْ كثيْرٍ مِنَ الْمعاندينَ في هذا الزَّمانِ، حينمَا ابتعدُوا عَنِ السُّنَّةِ، وبالغُوا في تعظيمِ القُبُورِ، وتشييدِهَا، ومَا حَصَلَ في هذا الأمرِ مِنَ البلاءِ العظيمِ، والشَّرِّ الوخيمِ، الَّذِي أصبحَ النَّاسُ يتباهَونَ فيهِ تعظيمًا للقُبُورِ، فإنْ كانَ الْمَيِّتُ عظيمًا كالأغنياءِ والوُجَهَاءِ اعتنُوا في تزويقِ قَبْرِهِ، والبناءِ عليهِ، ووَضْعِ الشُّموعِ، ووَضْعِ الوُرودِ على تِلكَ القُبُورِ وغَيْرِ ذَلِكَ من الْمُحْدَثَاتِ، والْمُنكراتِ الفظيعةِ.

وإنْ كانَ عَبْدًا صالِحًا فإنَّهُم يُقيمُونَ على قَبْرِهِ، ويبنُونَ عليهِ الْمشاهدَ والأضرحةَ، ثُمَّ يُبالِغُونَ في هذِهِ الْمشاهدِ في تزويقِهَا، وإنارتِهَا، وقدْ لَعَنَ رَسُولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، ومَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فقدْ لَعَنَهُ اللهُ، ومَنْ لَعَنَهُ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا، وَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيْرًا.

وإنَّمَا وَرَدَ اللَّعنُ؛ لأنَّهُ يُفضِي إلى هذا الْخَلَلِ العظيمِ، ولذَلِكَ تَجِدُ الْجُهَّالَ يقصدُونَهَا، والعوامَ يقصدُونَهَا ويتبَرَّكُونَ بِهَا، ويسألُون قضاءَ الْحوائجِ، ودَفْعَ الْمصائبِ والْملمَّاتِ، حَتَّى إنَّكَ إذا وَقَفْتَ بِجوارِ هذا الْقَبْرِ رَأَيْتَهُ يُطَافُ عليهِ، ويُدْعَى صاحبُهُ كأنَّهُ إلَهٌ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- وهذا كُلُّهُ هَدْمٌ لِمعالِمِ الْحنيفيَّةِ، وإشادةٌ لِمعالِمِ الْجاهليةِ والوثنيةِ.

فهذا مِمَّا لَبَّسَهُ الشَّيطانُ على أهلِ الإيْمانِ، فينبغي اجتنابُهُ والبعدُ عَنْهُ، وقَفْلُ جَمِيعِ الوسائلِ الْمفضيةِ إليهِ؛ لأنَّ الشَّرعَ حَذَّرَ مِنْ ذَلِكَ أَيَّمَا تَحذيرٍ، ونَبَّهَ عليهِ أَيَّمَا تنبيهٍ، والنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- اعتنى بِهذا الأمرِ أَيَّمَا عنايةٍ، واعتنى بِهِ أصحابُهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-؛ لأنَّهُ متعلِّقٌ بأعظمِ الْحُقُوقِ وأوجبِهَا، وهُوَ حَقُّ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فَلا يَجوزُ البِنَاءُ على القُبُورِ، ولا تشييدُهَا، ولا تزويقُهَا، ولا رفعُهَا عَنِ الأرضِ رَفْعًا مُبالغًا فيهِ، وإنَّمَا يُرفَعُ الْقَبْرُ بِقَدْرِ مَا يُعْرَفُ أَنَّهُ قَبْرٌ، بِمعنَى أَنَّهُ يُوضَعُ التُّرابُ فَوْقَ الْقَبْرِ حَتَّى يَعلَمَ الْمَارُّ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَلا يَطَأَهُ؛ لأنَّ وَطْءَ القُبُورِ والْجلوسَ عليهَا منهِيٌّ عنْهُ شَرعًا ، ويُؤذِي صاحبَ الْقَبْرِ، ومَنْ جَلَسَ على الْقَبْرِ كمَا وَرَدَتِ السُّنَّةُ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بذَلِكَ.

وقدْ جاءَ هديِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وسطًا بَيْنَ الإفراطِ والتَّفريطِ، فإذا وُضِعَ على الْقَبْرِ مَا يُعرَفُ بِهِ، فهذا هُوَ الوسطُ، حيثُ حَصَلَ الْمقصودُ مِنْ صيانةِ القُبُورِ، ولَمْ يَحصلِ الغُلوُّ مِنْ تعظيمِهَا، وتزويقِهَا، وإشادتِهَا، وهذا هُوَ الأصلُ الَّذِي ينبغي أنْ يُعَوَّلَ عليهِ.

قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّهَا تُرفَعُ بقَدْرٍ، وليسَ في السُّنَّةِ حديثٌ معيَّنٌ يُبَيِّنُ ذَلِكَ القَدْرَ الَّذِي يُرفَعُ فيهِ الْقَبْرُ، ومَا ينبغي أنْ يكونَ عليهِ الرَّفعُ.

وَذَكَرَ بعضُ العلماءِ: أنَّهُ يكونُ مِنْ أربعةِ أصابعٍ إلى شِبْرٍ.

وأيًّا مَا كانَ فقدِ اتَّفقَ الْجميعُ على أنَّهُ لا ينبغي أنْ يُبالَغَ في الرَّفعِ، وهذا هُوَ الْمُعَبَّرُ عنْهُ في حديثِ عَلِيٍّ الَّذِي معنَا بـ(**الإِشْرَافِ**)؛ لأنَّ الشَّيءَ الشَّارِفَ: هُوَ العَالِي، فـ"استَشْرَفَ الشَّيءَ": إذا نَظَرَ إليهِ مِنْ عُلُوٍّ.

تَمامُ هذا الْحديثِ: ((**أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) **فيهِ** دليلٌ على أنَّ مِنَ السُّنَّةِ التَّواصي بالْحَقِّ.

وفيهِ دليلٌ أيضًا على أنَّهُ ينبغي للمسلمِ أنْ ينصحَ لأخيهِ الْمسلمِ، وإذا كانَ في سَفَرٍ زوَّدَهُ بأعظمِ الزَّادِ، وهُوَ زادُ التَّقوى، وأعظمُ مَا تكونُ بِهِ التَّقوى العلمُ النَّافعُ، أنْ يأمرَهُ بِمَا أَمَرَ اللهُ، وينهاهُ عمَّا نَهى اللهُ عنْهُ، ويأمرَهُ أنْ يأمرَ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وأنْ ينهى عمَّا نَهَى اللهُ عنْهُ، فتِلكَ الوصيةُ ونِعْمَ الوصيةُ، وهَيَ زَادُ التَّقوى الَّذِي مَا خَرَجَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنيا بِزَادٍ أعظمَ ولا أحبَّ، ولا أجلَّ مِنْ هذا الزَّادِ، كمَا قالَ اللهُ تعالى: **{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}**.

((**أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)): كانَ أصحابُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أشدَّ مَا يكونُونَ تَمَسُّكًا بالسُّنَّةِ، واتِّباعًا لِهديِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ولُزومًا لَهُ، فإذا بَعَثُوا أَحَدًا نَظَرُوا كيفَ كانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يبعَثُهُم، فبعَثُوهُ على ذَلِكَ البَعْثِ الَّذِي كانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يبعثُهُم عليهِ.

((**أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَلا تَدَعَ تِمْثَالاً إِلا كَسَّرْتَهُ**)): كمَا في الرِّوايةِ التَّامةِ الأُخرى.

((**والتِّمْثَالُ**)): يكونُ بالْجِرْمِ، و((**الصُّوْرَةُ**)): تكونُ بدُوْن جِرْمٍ، وكلاهُمَا مُحَرَّمٌ شَرْعًا.

والأصلُ في ذَلِكَ: أنَّ هذِهِ الصُّورَ تُفضِي إلى **أمرَيْنِ عَظيمَيْنِ**:

أَوَّلُهُمَا: التَّعظيمُ، **وثانيهِمَا**: الشِّرْكُ باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

ولذَلِكَ لَمَّا وَقَعَ الشِّركُ، أولَ ما وَقَعَ في قومِ نُوحٍ، إنَّما وَقَعَ بتصويرِ الصَّالِحِيْنَ، ثُمَّ عبادتُهُم بعدَ ذَلِكَ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، ولذَلِكَ نُهِيَ عَنِ الصُّورِ، وشدَّدَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيهَا، كمَا في الْحديثِ الصَّحيحِ أنَّهُ قَالَ: ((**لَعَنَ اللهُ الْمُصَوِّرِيْنَ**)).

وثَبَتَ في الصَّحيحِ حديثُ الصِّحيحِ عنْهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّهُ قَالَ: ((**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُوْنَ**)).

كُلُّ هذا؛ لأنَّ الصُّورةَ تشتمِلُ على هذا البلاءِ العظيمِ مِنَ الفتنةِ في الدِّينِ.

فقالَ: ((**أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَنْ لا تَدَعَ تِمْثَالاً إِلا كَسَّرْتَهُ**))؛ لأنَّ هذِهِ **التَّماثيلَ إذا نُصِبَتْ وشُيِّدَتْ**:

إِمَّا أنْ يُقصَدَ بِهَا التَّعظيمُ، **وإِمَّا** أنْ تُعْبَدَ.

والتَّعظيمُ يُفضِي إلى العبادةِ، فكلاهُمَا شَرٌّ عظيمٌ، وبلاءٌ وخيمٌ.

((**أَلا تَدَعَ تِمْثَالاً إِلا كَسَّرْتَهُ، وَلا صُوْرَةً إِلا طَمَسْتَهَا**)): والطَّمْسُ: هُوَ الْمَحْوُ.

وقولُهُ: ((**تِمْثَالاً**)) نكرة، ((**وصُوْرَة**)) نكرة، والقاعدةُ: "**أَنَّ النَّكِرَةَ تُفِيْدُ الْعُمُوْمَ** " أيَّ تِمثالٍ، وأيَّ صورةٍ.

وقولُهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: ((**وَلا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلا سَوَّيْتَهُ**)) وهذا هُوَ موضعُ الشَّاهدِ، أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَهَى عَنْ رَفْعِ القُبُورِ عَنِ الأرضِ رفعًا مُبالغًا فيهِ، وهُوَ الَّذِي يصدُقُ عليهِ وَصْفُ الاستشرافِ والعُلُوِّ، فإذا رُفِعَ الْقَبْرُ بطريقةٍ زائدةٍ عَنِ الْمحدودِ والْمعروف والْمعهود فإنَّه يُسَوَّى.

وتسـويةُ الْقَبْرِ: أَنْ يُزَالَ ذَلِكَ العُلُوَّ مِنْ على ظاهرِهِ، ويرجعُ إلى الرَّفعِ الْمعتبَرِ شـرعًا، وكمَا ذكرْنَا أنَّ الأربعةَ الأصابعَ إلى شِبْرٍ أنَّهُ حَدٌّ معقولٌ، فبهذا الْحَدِّ يَحصلُ الْمقصودُ.

واختَلَفَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- **فيمَا دَلَّ عليهِ هذا الْحديثُ**:

قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّهُ يدلُّ على أنَّ السُّنَّةَ في التُّرابِ إذا وُضِعَ على قَبْرِ الْمَيِّتِ أنَّهُ يُسَوَّى ويُسَطَّحُ

وهذا مَا يُعرَفُ بِ(**صُورةِ التَّسطِيحِ فِي الْقَبْرِ**).

وذهبَ طائفةٌ مِنَ العلماءِ: إلى أنَّ السُّنَّةَ فِي الْقَبْرِ أنْ يكونَ مُسَنَّمًا.

والفرقُ بينَهُمَا واضحٌ:

فالتَّسْنِيْمُ: تَفْعِيْلٌ مِنَ السَّنامِ، فيكونُ كالْحَرْفِ الْمُثَلَّثِ.

وأَمَّا التَّسطِيحُ: فإنَّهُ يكونُ مُسْتَوِيًا على ظاهرِهِ، كسطحِ الْمنزلِ وسطحِ البناءِ.

فاختَلَفَ العلماءُ هَلِ السُّنَّةُ إذا وُضِعَ التُّرابُ على الْقَبْرِ أنْ يُسَوَّى ويُسَطَّحَ، أَمْ أَنَّهُ يكونُ مُسَنَّمًا؟

فجمهورُ العلماءِ على أنَّ السُّنَّةَ فِي الْقَبْرِ أَنْ يكونَ مُسَنَّمًا، وأنَّ ذَلِكَ هُوَ الأفضلُ، وهذا هُوَ مذهبُ الْحنفيَّةِ والْمالكيَّةِ والْحنابلةِ وأكثرِ الشَّافعيَّةِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجَمِيعِ-.

وذهبَ طائفةٌ مِنَ العلماء وهُوَ قولُ قُدماءِ الشَّافعيَّةِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- إلى أنَّ التَّسطِيحَ أفضلُ.

<u>ومِمَّا يَدَلُّ على رُجحانِ مذهب الْجمهور</u>: أنَّ قَبْرَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وقَبْرَ صاحِبَيْهِ كانَتْ هذِهِ القُبُورُ مُسَنَّمَةً، **وهذا هُوَ الأفضلُ، وهُوَ الأكملُ**.

والْخِلافُ: خِلافُ فضيلةٍ، فلو أنَّ الْقَبْرَ سُوِّيَ وسُطِّحَ فذَلِكَ جائزٌ، ولو أنَّهُ سُنِّمَ فهُوَ جَائزٌ، والْخِلافُ: أيُّهُمَا أفضل؟

فقولُهُ: ((**إلا سَوَّيْتَهُ**)) يدلُّ على أنَّهُ سيُسَطَّحُ، والواقعُ أنَّ قولَهُ: ((**إلا سَوَّيْتَهُ**)) لا يدلُّ على التَّسطيحِ مِنْ كُلِّ وجهٍ؛ لأنَّ الْمرادَ إزالةُ شخوصِهِ وارتفاعِهِ عَنِ القَدْرِ الْمعتبَرِ، وهذا لا عِلاقةَ لَهُ بصورةِ الْقَبْرِ نفسِهِ.

والعملُ على هذا عِندَ بعضِ أهلِ العلمِ، يكرهونَ أنْ يُرفعَ الْقَبْر فوقَ الأرضِ.
قال الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: أَكرهُ أنْ يُرفعَ الْقَبْر إلاَّ بِقَدْرِ مَا يُعرُفُ أَنَّهُ قَبْرٌ، لِكَيْلا يُوطَأَ ولا يُجلَسَ عليهِ.

الشَّرح:

تُرفع القُبُورُ بقَدْرِ مَا تُعرَفُ حَتَّى لا تُوطَأَ ويُجلسَ عليهَا، كمَا ذَكَرَ -رَحِمَهُ اللهُ-، ولكي تُصـــانَ هذِهِ القُبُورُ، وتُحفَظَ مِنَ العبَثِ، فإنَّ الْموضـــعَ إذا عُلِمَ أنَّ فيهِ قَبْرًا، رُوعِيَتْ حرمتُهُ، وحُرمَةُ الْمؤمِنِ مَيِّتًا كحرمتِهِ حَيًّا.

ولذَلِكَ جاءَتِ السُّنَّةُ بِهذا الأمرِ الوسطِ: أنَّهُ لا يُزالُ عَنِ القُبُورِ التُّرابُ بالكليَّةِ بِحيثُ يُجهلُ الْقَبْرُ وربَّمَا يُنسَى، وربَّمَا يُحفرُ فتُنتَهَكُ حرمةُ الْمَيِّتِ.

ولا أَيضًا يُبالَغُ في الرَّفعِ على ذَلِكَ الْقَبْرِ، فيُبالغُ في رفعِ التُّرابِ، وإنَّمَا يكونُ الوسطُ بقَدْرِ مَا يُعرَفُ أنَّهُ قَبْرٌ، فلَمْ يَحُدَّ الإمامُ الشَّافعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- في ذَلِكَ حَدًّا، وهذا هُوَ الفقهُ أنَّ مَا أَطلَقَهُ الشَّرْعُ يبقى على إطلاقِهِ، وما قَيَّدَهُ يُقَيَّدُ بقيدِهِ؛ لأنَّ الْمسـلمَ لا يَجوزُ لَهُ أنْ يقولَ على اللهِ مَا لا عِلْمَ لَهُ، فإذا لَمْ يَرِدْ في الشَّـرعِ تَحديدٌ مُعيَّنٌ فإنَّهُ يُلْزَمُ بالأصـلِ، بأنَّ ذَلِكَ يرجعُ إلى النَّظَرِ، فإذا رَأَى أنَّهُ مُشْـرِفٌ فإنَّهُ يُزَالُ استشرافُهُ.

وأمَّا مَا وَرَدَ مِنَ الشِّـبْرِ، والأربعةِ الأصـابعِ، فهذا مَا حُكِيَ في بعضِ الرِّواياتِ في قَبْرِ النَّبِيِّ -صَـلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـلَّمَ-: ((**أَنَّهُ كَانَ مَا بَيْنَ الشِّـبْرِ، وَالأَرْبَعَةِ أَصَـابِعَ**)) في ارتفاعِهِ في صـفةِ قَبْرِ النَّبِيِّ -صَـلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـلَّمَ-، حينمَا كُشِـفَ في زمانِ التَّوسـعةِ في عهدِ الوليدُ حينمَا كانَ عُمَرُ بْنُ عبدِ العزيزِ أميرًا لَهُ على الْمدينةِ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ الْمَشْيِ عَلَى القُبُورِ وَالْجُلُوسِ عَلَيْهَا وَالصَّلاةِ إِلَيْهَا]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا هَنَّادٌ أخبَرَنَا عبدُاللهِ بْنُ الْمباركِ عن عبدِالرحمن بنِ يزيدَ بنِ جابرٍ، عن بسرِ بنِ عُبَيدِاللهِ، عن أبي إدريسَ الخولانِيّ، عن واثلةَ بنِ الأسقعِ، عن أبي مرثدٍ الغنويّ قالَ: قالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**لا تَجْلِسُوا عَلَى القُبُورِ، ولا تُصَلُّوا إِلَيْهَا**)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن أبي هُريرَةَ، وعمرِو بنِ حزمٍ، وبشيْرِ بنِ الخصاصيَّةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حدَّثَنَا مُحمدُ بْنُ بَشَّارٍ، حدَّثَنَا عبد الرَّحْمَنِ بْنُ مهديٍّ، عَنْ عبدِاللهِ بْنِ الْمباركِ بِهَذا الإسنادِ نَحْوَهُ.

الشَّرح:

بَيَّنَ الْمصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذِهِ التَّرجَمةِ حُرمةَ القُبُورِ أنَّهُ لا يُجلَسُ عليهَا، ولا يُمشَى عليهَا، ولا يُصلَّى إليهَا.

وهذا كُلُّهُ دَلَّتْ عليهِ الأحاديثُ الصَّحيحةُ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فالْقَبْرُ إذا مُشِيَ عليهِ أُمتُهِنَ، وإذا جُلِسَ عليهِ كذَلِكَ، وإذا صُلِّيَ عليهِ أفضَى ذَلِكَ إلى ضياعِ حَقِّ اللهِ؛ لأَنَّهُ رُبَّمَا عُبِدَ مِنْ دُوْنِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، والأصلُ أنَّهُ ينبغي قَفْلُ الوسائلِ الْمفضيةِ إلى الْمُحرَّماتِ.

وقدْ صَحَّتْ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الأحاديثُ بالنَّهي عَنِ الصَّلاةِ في القُبُورِ، وعلى القُبُورِ.

وهذا كمَا ذَكَرَ العلماءُ أنَّهُ وسيلةٌ لأعظمِ الذُّنوبِ، والوسائلُ في الذُّنوبِ تكونُ متفاوتةً بِحسبِ الذَّنبِ، فمَا كانَ وسيلةً إلى أعظمِ الذُّنوبِ فإنَّهُ شَرٌّ وسيلةٍ، كمَا أنَّ الذَّنبَ نفسَهُ شَرٌّ ذنبٍ، وهُوَ الشِّركُ باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

فلا يَجوزُ أنْ يُمشَى على الْقَبْرِ فيطَأَهُ إذا مَشَى عليهِ، ولذَلِكَ وَرَدَتِ السُّنَّةُ برفْعِ الْقَبْرِ حَتَّى يُنْتَبَهَ، ولا يُوطَأَ على الْقَبْرِ نفسِهِ، وكذَلِكَ أيضًا لا يُجلَسَ على الْقَبْرِ، حَتَّى قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- للرَّجُلِ: ((**لا تُؤْذِ صَاحِبَ الْقَبْرِ، وَلا يُؤْذِيكَ**)).

وبَيَّنَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في حديثِ الوعيدِ: ((**لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ**))، وهذا أَخَذَ العلماءُ منْهُ أنَّ الْجُلُوسَ على الْقَبْرِ كبيْرَةٌ مِنْ كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ ضابطَ الكبيْرَةِ ينطَبِقُ عليهِ.

فالكبيْرَةُ ضابطُهَا: (كُلُّ مَا سَمَّاهُ اللهُ ورَسُولُهُ كبيْرَةً، أَوْ وَرَدَتْ عليهِ العقوبةُ بِحَدٍّ في الدُّنيَا، كالْخَمْرِ يُجلَدُ صاحبُهُ، والزِّنَا يُجلَدُ فاعلُهُ، أَوْ لَعْنَةٍ كَلَعْنِ شَارِبِ الْخَمْرِ، وساقيَهَا، ومسقَاهَا، وحامِلِهَا، والْمحمولةِ إليهِ، ولَعَنَ الرَّاشِي، والرَّائشَ، والْمرتشى، وكذَلِكَ أيضًا أنْ يَرِدَ عليهِ عقوبةٌ في الآخرةِ بعذابٍ، أو نفي إيْمانٍ). فلَمَّا كانَ هُنَا بَيَّنَ أنَّهُ إذا جَلَسَ على الْجَمْرَةِ أهونُ مِنْ أنْ يَجلِسَ على الْقَبْرِ، فهذا وعيدٌ، والوعيدُ ضابطٌ مِنْ ضوابطِ الكبيْرةِ، فقالوا: لَمَّا تَوَعَّدَ بِهذا الوعيدِ دلَّ على أنَّ الْجلوسَ على القُبُورِ يعتبر كبيْرَةٌ مِنْ كبائرِ الذُّنوبِ.

ومِنْ هُنَا، ينبغي صيانةُ القُبُورِ، وحفظُهَا من الامتهانِ، وهذا يدلُّ على وسطيةِ الشَّرْعِ، فأنتَ إذا تَأَمَّلْتَ النَّهيَ عَنِ الْمشي على القُبُورِ، والْجلوسِ على القُبُورِ، **هذا في جانبِ الامتهانِ**.

والصَّلاةِ على القُبُورِ **في جانبِ التَّعظيمِ**.

فجاءَتِ الشَّريعةُ وسطًا مَا بَيْنَ الإفراطِ والتَّفريطِ، فخرجَتْ عَنْ غُلُوِ النَّصارى، وعَنْ جَفاءِ اليهودِ وهُوَ صراطُ اللهِ الْمستقيمِ الَّذِي سَلَّمَ اللهُ فيهِ أهلَ الإيْمانِ مِنْ طريقِ الْمغضوبِ عليهِم، والضَّالِّيْنَ فجعلَ الأمرَ وسطًا مَا بَيْنَ الإفراطِ والتَّفريطِ.

فَلا يُجلَسُ على الْقَبْرِ، ولا يُمشَى على الْقَبْرِ، وإنَّمَا يَجوزُ الْمشي بَيْنَ القُبُورِ.

والْمشي بَيْنَ القُبُورِ مَعَ حِفْظِ حقِّهَا جَائزٌ، إذا وُجِدَتِ الْحاجةُ، **مثلُ**: أنْ يُحتاجَ أنْ يَدخُلَ لِقَبْرٍ مِنْ أجلِ أنْ يَقبُرَ الْمَيِّتَ، فإنَّهُ عَنْدَ قَبْرِ الْمَوتَى يُمشَى بَيْنَ القُبُورِ، وكذَلِكَ أيضًا إذا مَشَى إلى الْقَبْرِ حافظًا حرمةَ أهلِ القُبُورِ مِنْ أجلِ أنْ يقفَ على قَبْرِ قريبٍ فيُسَلِّمَ عليهِ، أو يَتَرَحَّمَ عليهِ، فإنَّ السُّنَّةَ دَالَّةٌ على جوازِ تَخصيصِ قَبْرِ القريبِ بالسَّلامِ، كمَا في صحيحِ البُخاريِّ في قصَّةِ الْمرأةِ التِي مَرَّ عليهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهيَ جالسةٌ عِنْدَ الْقَبْرِ، فلَمْ يَقُلْ لَهَا: سَلِّمِي سَلامًا عَامًا، وإنَّمَا أَذِنَ لَهَا بذَلِكَ، وقالَ لَهَا: ((**يَا أَمَةَ اللهِ، اصْبِرِي**))، فلَمْ يُنكِرْ عليهَا الْجلوسَ، ولَمْ يُنكرْ عليهَا تَخصيصَ قَبْرِ قريبِهَا بالزِّيارةِ.

وهذا أصلٌ ينبغي أنْ يُتَنَبَّهَ عليهِ كمَا نَبَّهَ عليهِ غَيْرُ واحدٍ مِنْ أهلِ العلمِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وبعضُ الْمتأخرينَ يَخلِطُ في هذِهِ الأمورِ خَلْطًا عظيمًا، حَتَّى إنَّهُ يُبَدِّعُ ويُضَلِّلُ ويُؤَثِّمُ دُوْنَ ضوابطَ شرعيةٍ.

فالسُّنَّةُ بَيَّنَتْ أحكامَ الزِّيارةِ، ومنْهَا أنَّهُ يَجوزُ للإنسانِ أنْ يُخصِّصَ مَنْ يعرفُهُ بالزِّيارةِ والسَّلامِ، وفي الْحديثِ الَّذِي صَحَّحَهُ الْحافظُ ابْنُ عَبدِ الْبَرِّ، وأَقَرَّهُ الإمامُ ابْنُ القيمِ وغيْرُهُم، فيهِ: ((**أَنَّهُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُسَلِّمُ عَلَى مُسْلِمٍ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إلا عَرَفَهُ**))، فهذا يدلُّ على مشروعيةِ كمَا ذَكَرَ غَيْرُ واحدٍ مِنَ العلماءِ أنَّهُ يُخَصُّ الْقَبْرَ.

فإذا مَشَى بَيْنَ القُبُورِ مِنْ أجلِ قَبْرٍ لِذِي حَقٍّ كوالدِهِ، ووالدتِهِ، والعالِمِ، ونَحوِ ذَلِكَ مِمَّنْ لَهُ حَقٌّ يريدُ أنْ يُسَلِّمَ عليهِ، ويترحَّمَ عليهِ فلا بأسَ.

وقدْ زَارَتْ أُمُّ الْمؤمنيْنَ عائشةُ كمَا في الأثرِ الصَّحيحِ عنْهَا قَبْرَ أخيهَا عبدِالرحمن، فخَصَّتْهُ بالزِّيارةِ، ووقفَتْ عليهِ.

فالْمقصودُ: أنَّهُ إذا مَشَى بَيْنَ القُبُورِ دُوْنَ امتهانٍ لَهَا، ودُوْنَ أذيةٍ لأهلِهَا، فلا بأسَ ولا حرجَ. إنَّمَا الْمحظورُ أنْ يَطَأَ القُبُورَ، وخاصَّةً إذا وَطِئَهَا بالنَّعْلِ، وقدْ قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كمَا في الْحديثِ الصَّحيحِ: ((**انْزِعْ يَا ذَا السِّبْتِيْتَيْنِ؛ فَقَدْ آذَيْتَ**))، وهذا يدلُّ على أنَّ أهلَ القُبُورِ يَتَأَذَّونَ؛ لأنَّ السُّنَّةَ بَيَّنَتْ ذَلِكَ.

كيفَ يَتَأَذَّونَ، ومَا صُورةُ الأذيةِ؟

أَمْرٌ لا يعلمُهُ إلا عَلامُ الغُيُوبِ، فالوحيُ جَاءَ بِهذا الْخَبَرِ، جَاءَ بِهِ الصَّادقُ الْمصدوقُ، فيُوقَّفُ عِنْدَ مَا وَرَدَ بِهِ النَّصُّ، كيفَ يُؤذِي؟ ومَا هِيَ حقيقةُ الأذيةِ؟ هذا لا يُسأَلُ عنْهُ؛ لأنَّهُ تَكَلُّفٌ لَمْ تَبيِّنْهُ النُّصوصُ، وهُوَ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الغيبِ.

وأدرَكْنَا العلماءَ، ومشايخنا -رَحِمَهُمُ اللهُ- يُشدِّدُوْنَ في هذا، ويُقَرِّعُونَ السَّائلَ عَنْ حقيقةِ هذِهِ الأمورِ؛ لأنَّهُ لا يُبْحَثُ فيهِ، ولا يُتَكَلَّفُ فيهِ.

الْمقصودُ هُوَ صيانةُ الْقَبْرِ، وهذا بِمجردِ أنْ يسمعَ الْمسلمُ هذا الحديثِ ليعملَ بِهِ، ويتَّقِي مَا نَهَى اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عَنْهُ، فصاحبُ الْقَبْرِ يَتَأَذَّى، وبَيَّنَ النَّبِيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُم يَتَأَذَّونَ.

وأَمَّا الْجُلُوسُ: فهُناكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْجُلُوسِ على الْقَبْرِ، والجلوس عنْدَ الْقَبْرِ:

أَمَّا الْجُلُوسُ على الْقَبْرِ: فهُوَ أَنْ يَجلِسَ على الْقَبْرِ مباشرةً، فهذا منهيٌّ عنْهُ، أو يَتَكِئ عليهِ.

فهذا فيهِ خِلافٌ عَنْ بعضِ الصَّحابةِ، كانَ بعضُهُم يُرخِّصُ فيهِ كابْنِ عُمَرَ وغَيْرِهِ.

والصَّحيحُ أنَّهُ لا يَجوزُ الْجُلُوسُ، وهُوَ مذهبُ الْجمهورِ أنَّهُ يُكرَهُ الْجُلُوسُ: **إِمَّا** كَرَاهَةُ تَحريمٍ، **أَوْ** كَرَاهَةُ تَنْزِيْهٍ.

وهذا مذهبُ جَماهيْرِ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّهُ لا يُجلَسُ على الْقَبْرِ.

والأقوى أنَّ الْجُلُوسَ على القُبُورِ مُحَرَّمٌ شَرْعًا؛ لِوُرُودِ الوعيدِ كمَا ذَكَرْنَا، وأنَّ الكراهةَ لَيْسَتْ تَنْزِيهيةً، وإنَّمَا هِيَ تَحريْميةٌ.

وأَمَّا الْجُلُوسُ عِنْدَ الْقَبْرِ: فهُوَ أنْ يَجلِسَ بِجوارِ الْقَبْرِ، فإذا جَلَسَ بِجوارِهِ دُوْنَ أنْ يَجلِسَ على الْقَبْرِ نفسِهِ فلا بأسَ بِهِ ولا حرجَ؛ لأنَّ الْمرأةَ كانَتْ جالسةً عِنْدَ الْقَبْرِ، وحديثُ البُخاريِّ: ((**أَنَّهُ مَرَّ عَلَى امْرَأَةٍ جَالِسَةٍ عِنْدَ الْقَبْرِ تَبْكِي**))، فهذا يدلُّ على جوازِ الْجُلُوسِ عِنْدَ الْقَبْرِ.

وأَمَّا الْجُلُوسُ على الْقَبْرِ: فهُوَ الْمُحَرَّمُ.

وبعضُ أهلِ الْحُسبَةِ يَنْهَى عَنِ الْجُلُوسِ عِنْدَ الْقَبْرِ عُمُومًا، وهذا مُخَالِفٌ لِمَا وَرَدَ في هذِهِ السُّنَّةِ وغَيْرِهَا أنَّهُ يَجوزُ الْجُلُوسُ عِنْدَ الْقَبْرِ، لا على الْقَبْرِ.

وأَمَّا بالنِّسبَةِ للصَّلاةِ: فَلا يَجوزُ الصَّلاةُ على القُبُورِ، ولا أنْ تُجعَلَ القُبُورُ مَحَلاً للعبادةِ، **مثلُ**: أنْ يُبْنَى عليهَا بناءً كالْمساجدِ التِي تبنَى على الأضرحةِ، فهذا أَمْرٌ مُنكَرٌ، ولا يَجوزُ شَرَعًا، وهُوَ مُفضٍ إلى الغُلُوِ بالأضرحةِ وأهلِهَا، وعبادتِهِم مِنْ دُوْنِ اللهِ، كمَا هُوَ مُشاهَدٌ مِنَ الطَّوَافِ بالقُبُورِ والطَّوَافِ بالأضرحةِ، وإذا دَخَلَ الْمسلمُ إلى بعضِ هذِهِ الأضرحةِ فَسَمِعَ صِيَاحَ النَّاسِ، واستغاثَتَهُم كأنَّهُم أمامَ الكعبةِ، يسمعُهُم يسألَونَ مَا لا يُسأَلُ إلا مِنَ اللهِ، ويستَشفِعُونَ، ويستَغِيثُونَ، ويستَجِيْرُونَ، ويَسألُونَ قضاءَ الْحوائجِ، ودَفْعَ الكُرُباتِ، وكُلُّ هذا جاءَ بسببِ الغُلُوِ في الْقَبْرِ، ولو أنَّ هذِهِ القُبُورَ صُنِعَ بِهَا مِثْلُ مَا صُنِعَ بقبورِ أصحابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لانقَطَعَ دَابُرُ الفتنةِ.

ولذَلِكَ أَمَرَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ — أنْ يُدفَنَ بالليلِ، وأَنْ يُغَيَّبَ قَبْرُهُ، ولذَلِكَ لَمْ يُعرَفْ مَكانُ قَبْرِهِ وإنْ كانَ قَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ أنَّهُ كانَ بِدَارِ الإِمَارَةِ، لكنَّهُ أَمَرَ بتغييبِ قَبْرِهِ نصيحةً لأمةِ مُحمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، لَمْ يَخلقْنَا اللهُ لعبادةِ الأشخاصِ، لَمْ يَخلقْنَا اللهُ لعبادةِ غَيْرِهِ، الْمسلمُ الْمؤمنُ يَغارُ على حَقِّ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، إنْ كُنْتَ تَغارُ أنْ يُؤخَذَ مِنْ حَقِّكَ، فكيفَ بِحَقِّ اللهِ -جَلَّ جَلالُهُ- ؟! ومَاذا بَقِيَ في الدُّنْيَا إذا أصبحَ يُعبَدُ غَيْرُ اللهِ وأنتَ تسمعُ، وتَرَى، وتَرضَى لا قَدَّرَ اللهُ؟! فهذا حَقٌّ عظيمٌ لا يُسكَتُ عنْهُ ولا يُستَهَانُ بِهِ.

ولذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ مِنْ أجلِهِ الكُتُبَ، وأرسَلَ اللهُ مِنْ أجلِهِ الرُّسَلَ، لا يَجوزُ لأَحَدٍ أنْ يفتَحَ على الأمةِ بابَ الفتنةِ، ولذَلِكَ شَدَّدَ السَّلَفُ الصَّالِحُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- في أَمْرِ الغُلُوِ، وقَفَلُوا وسائلَهُ. وكُنْتُ أَذْكُرُ الوَالِدَ -رَحِمَهُ اللهُ- حينمَا يذكرُونَ بعضَ القُبُور للصَّحابةِ في البَقِيعِ يقولُ: (يَا بُنَيَّ، كانَ الصَّحابةُ إلى

الْخَفَاءِ أَقْرَبُ مِنْهُم إلى الظُّهُورِ)، وكانَ يستبعدُ نسبةَ كثيْرٍ مِنَ هذِهِ القُبُورِ إلى الصَّحابةِ؛ لأنَّ الصَّحابةَ مَا كانَ عندَهُم هذا الأمرُ، وكانُوا أبعدَ مَا يكونونَ عَنْ الإظهارِ، والتَّعظيمِ، وإبرازِ قبورِهِم للنَّاسِ، وهذا هُوَ الأصلُ الَّذِي فيهِ النَّصيحةُ لعامةِ الْمسلميْنَ.

لا يَجوزُ للمسلمِ أنْ يبنِي على قَبْرٍ سَواءً كانَ قَبْرَ صالِحٍ، أو قَبْرَ قريبٍ، أو قَبْرَ وَلِيٍّ، أو نَحوِ ذَلِكَ، فهذا كُلُّهُ مِمَّا يُفضِي إلى الأمورِ الْمحرَّمةِ، بَلْ يُفضِي إلى أشدِّ الْمحرَّماتِ، وأعظمِ الْمنكراتِ، ولذَلِكَ أُبتُلِيَ الْمسلمونَ بِهذا البلاءِ العظيمِ، والشَّرِّ الوخيمِ، حَتَّى أصبحَ مَنْ يَنهَى عَنْهُ ويَزجُرُ عَنْهُ يُقالُ: إنَّهُ عَدَوٌّ للصَّالِحِيْنَ، وعَدَوٌّ للأولياءِ، وعَدَوٌّ للخيْرِ.

وهذِهِ كُلُّهَا مِنْ شَنْشَنَةِ الشَّيطانِ وحزبِهِ، فإنَّ الْمسلمَ الصَّادقَ في إسلامِهِ وإيْمانِهِ وتوحيدِهِ لربِهِ يَغارُ، فقدْ غَارَ الْهُدْهُدُ على حَقِّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهُوَ حَيَوَانٌ، فكيفَ بِكَ وأنتَ تعقِلُ؟!

ومِنْ هُنَا، يَجبُ على الْمسلمِ أنْ يقفِلَ جَميعَ الوسائلِ الْمفضيةِ إلى هذا الأمرِ، كمَا قَفَلَهَا رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وينبغي أنْ يكونَ هذا القفَلُ منضبطًا بالنُّصوصِ الشَّرعيةِ، وليسَ بالأهواءِ والآراءِ فالبعضُ يُبالغُ حَتَّى إنَّهُ رُبَّمَا يقعُ في البدعةِ وهُوَ ينهَى عَنِ البدعةِ، ولرُبَّمَا تَجِدُ الرَّجَلَ يقِفُ عِنْدَ القُبُورِ ويصِيحُ على النَّاسِ ويلغو ويفعَلُ أمورًا منكرةً أكثرَ مِنَ الْمنكرِ الَّذِي ينهَى عنْهُ، حَتَّى إنَّ بعضَهُم رُبَّمَا يَجعَلُ فَوْقَ الْقَبْرِ كأنَّهُ مَكانُ مسجدٍ لأَخْذِ الْمواعظِ، وإشغالِ النَّاسِ عَنِ السُّنَّةِ، وهِيَ زيارةُ القُبُورِ، والتَّفكُّرُ والتَّدبُّر، فتَجِدُ مِنَ الصِّيَاحِ واللغَطِ.

الأمرُ وسطٌ، وقائمٌ على ضوابطَ شرعيةٍ:

فلا يَجوزُ فتحَ الأبوابِ الْمفضيةِ إلى الشِّركِ.

ولا ينبغي الْمبالغةُ في سَدِّهَا، حَتَّى تصبحَ السُّنَّةُ بدعةً، ويشوَّشَ على الإنسانِ في عبادتِهِ وطاعتِهِ لربِّهِ، إنَّمَا الْمنبغي الوسطُ، وهذا هُوَ العدلُ الَّذِي ينبغي أنْ يكونَ عليهِ الْمسلمُ، ويستقيمَ عليهِ أَمْرُ النَّاسِ بالْخَيْرِ، ونَهيِهِم عَنِ الشَّرِّ، فتجدُ البعضَ أنَّهُ إذا قامَ على الْقَبْرِ يُتَّهِمُ كُلَّ مَنْ يأتي إلى الْقَبْرِ أنَّهُ مشركٌ، وأنَّهُ وَثَنِيٌّ، وهذا لا يَجوزُ، هذا مسلمٌ جاءَ مستجيبًا للسُّنَّةِ، تعلِّمُهُ وتُوجِّهُهُ وتسدِّدُهُ، وتأمرُهُ بالسَّدادِ والْمقاربةِ، وتأخُذُ بِحُجزِهِ عَنِ النَّارِ، أمَّا أنْ تشوِّشَ عليهِ، وتؤذيهِ وتقرِّعُهُ وتُوبِّخُهُ وتَتَّهِمُهُ في دينِهِ دُوْنَ بَيِّنَةٍ، فهذا لا يَجوزُ، ينبغي إنكارُ هذِهِ الأمورِ الْمحرَّمةِ بضوابطَ شرعيةٍ، مَعَ حِفْظِ حَقِّ الْمسلمِ، كمَا دَلَّتِ النُّصوصُ في كتابِ اللهِ وسنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على ذَلِكَ.

الْمقصودُ أنَّهُ لا تَجوزُ الصَّلاةُ على القُبُورِ، ولا تَجوزُ الصَّلاةُ في القُبُورِ:

فإذا كانَتِ الأرضُ مسبَّلةً، ووُضِعَتْ مِنْ أجلِ أنْ يُدفَنَ فيهَا: فإنَّهُ لا يُصَلَّى فيهَا.

أَمَّا لو كانَ في البيتِ، كما يقَعُ في بعضِ البُلدانِ أنَّهُم رُبَّمَا يقبُرُونَ مَوتَاهُم في بيوتِهِم:

إمَّا لضيقِ الأمكنةِ، **أو** صعوبةِ وُجُودِ الْمقابرِ.

فإذا قُبِرَ الْمَيِّتُ في البيتِ فإنَّ هذا لا يعني تَحريمَ الصَّلاةِ داخلَ البيتِ، أَلا تَرَى أُمَّ الْمؤمنيْنَ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قُبِرَ-عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في حجرتِهَا، ولَمْ تَكُنْ تَمتنِعُ مِنَ الصَّلاةِ في داخِلِ الْحجرةِ؛ لأنَّ هذا لَمْ يوضعْ أصلاً للقَبْرِ، ولَمْ يَكُنْ أصلاً موضوعًا للعبادةِ، وإنَّمَا كانَ الْقَبْرُ طارئًا عليهِ، ولَمْ تقصدْ تعظيمَ الْقَبْرِ.

فالْمقصودُ الصَّلاةُ إلى الْقَبْرِ، كمَا يقَعُ تعظيمًا لَهُ، أو يأتي ليصلِّي في مواضعَ اتُّخِذتْ قبورًا، وهِيَ الْمواضعُ التي تُسبَّلُ مِنْ أجلِ أنْ يُدفَنَ فيهَا.

وبناءً على ذَلِكَ، دَلَّ هذا الْحديثُ الَّذِي نَهَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيهِ عَنْ هذِهِ الأمورِ، على حُرمةِ هذِهِ الأمورِ مِنْ وَطْءِ القُبُورِ، والْجُلُوسِ عليهَا، والصَّلاةِ عليهَا، ومِنْ هُنَا أَخَذَ بعضُ العلماءِ دليلاً على عدمِ جوازِ الصَّلاةِ على الْمَوتَى في الْمقابرِ؛ لأنَّهُ منهيٌّ عَنِ الصَّلاةِ، والنَّهيُ عَامٌّ شاملٌ للصَّلاةِ سواءً كانَتْ ذاتَ رُكُوعٍ أو سُجُودٍ، أو لَمْ تَكُنْ ذاتَ رُكُوعٍ وسُجُودٍ، أخَذُوا هذا مِنْ عُمُومِ النَّهيِ، قالُوا: لأنَّهُ إذا صُلِّيَ على الْمَيِّتِ مَرَّةً ثانيةً، ولأنَّهُ لَمْ يُعرَفْ مِنْ حَالِ السَّلَفِ أنَّهُم كانُوا يُدنُونَ الْجنائزَ ويقولُونَ: مَنْ لَمْ يُصَلِّ فَليُصَلِّ، وإنَّمَا كانَتِ الصَّلاةُ وَاحِدَةً، وهِيَ صلاةُ الإمامِ على الْمَيِّتِ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا عَليَّ بنُ حجرٍ وأبو عمَّارٍ قالا: أخبرنا الوليدُ بنُ مسلمٍ عن عبدِالرحمن بنِ يزيدَ بنِ جابرٍ، عن بسرِ بنِ عُبَيدِاللهِ، عن واثلةَ بنِ الأسقعِ، عن أبي مرثدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَحوَهُ، وليسَ فيهِ: (عن أبي إدريسَ)، وهذا هو الصَّحيحُ.

قال الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: قال مُحَمَّد: وحديثُ ابنِ المباركِ خطأٌ، أخطأَ فيهِ ابنُ المباركِ، وزادَ فيهِ: (عن أبي إدريسَ الخولانِيّ)، وإنَّمَا هو بسرُ بنُ عُبَيدِ اللهِ، عن واثلةَ بنِ الأسقعِ، هكذا روى غَيْرُ واحدٍ، عن عبدِالرحمن بنِ يزيد بنِ جابرٍ، وليسَ فيهِ: عن أبي إدريسَ الخولانِيّ، وبسرُ بنُ عُبَيدِ اللهِ قد سَمِعَ من واثلةَ بنِ الأسقعِ.

الشَّرْح:

هذا -إنْ شاءَ اللهُ- الكلامُ في السَّندِ نؤخِّرُهُ إلى (كتابِ الْعِلَلِ) في آخرِ الكتابِ بإذنِ اللهِ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَّةِ تَجْصِيْصِ القُبُورِ وَالكتابةِ عَلَيْهَا]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حدَّثنا عبدالرحْمن بن الأسود أبو عمر البصريُّ قال: حدَّثنا محمد بن ربيعة عن أبي جريج عن أبي الزبيْرِ عن جابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: ((**نَهَى النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَنْ تُجَصَّصَ القُبُورُ وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهَا، وَأَنْ تُوْطَأَ**)).

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وقدْ رُوِي مَنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

الشَّرْح:

تَرجَمَ الْمصنّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ التَّرجَمةِ التِي تتعلَّقُ بعَدَدٍ مِنَ الْمنهيَّاتِ التِي دَلَّتْ على النَّهيِ عنْهَا السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وتَجصيصُ الْقَبْرِ: بناؤُهُ بالْجِصِّ، وهكذا في زمانِنَا مَا يكونُ في حُكمِهِ كالإِسْمَنْتِ، أو تشييدِهِ بالرُّخَامِ، ونَحوِ ذَلِكَ.

والْمرادُ مِنَ هذا النَّهي عَنِ البناءِ على الْقَبْرِ، وكذَلِكَ أيضًا تَجصيصِهِ مِنْ خارجِهِ، كأَنْ يضَعَ الْجِصَّ مِنْ أعلى الْقَبْرِ مِنْ أجلِ أنْ يَطُولَ زمانُهُ ويبقى، أَوْ مِنْ أجلِ الشُّهرةِ والْمبالغةِ، كما يُصنَعُ في بعضِ العظماءِ، ونَحوِ ذَلِكَ مِنَ الْمقاصدِ، فكُلُّ هذا مُحرَّمٌ شَرْعًا، أنَّ الْقَبْرَ لا يَجوزُ بناؤُهُ، ولا يَجوزُ أنْ يُوضَعَ بطريقةٍ.

حَتَّى إنَّ العلماءَ اختلفوا في مسألةٍ، وهِيَ إذا طُيِّنَ الْقَبْرُ:

فرخَّصَ فيهِ بعضُ السَّلَفِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- إذا كانَ بالْماءِ والطِّيْنِ مِنْ أجلِ حِفْظِ الْقَبْرِ أنْ يَنهَارَ وهذا في بعضِ الْمواضعِ إذا وُجِدَتِ الْحاجةُ، وأمَّا الأصلُ فإنَّهُ يَقتضِي عدمَهُ، والْمنعَ منْهُ.

فلا يَجوز أنْ يُوضَعَ الْجِصُّ ولا غَيْرُهُ مِنَ الأمورِ التِي يُبنَى بِهَا الْقَبْرُ، سواءً كانَ في بناءِ اللَّحدِ، أو كانَ فَوْقَ الْقَبْرِ، **مِثْلُ**: مَا يُصنَعُ في القُبُورِ البارزةِ الظاهرةِ، فيُوضَعُ على ظاهرِهَا، فيُوضَعُ الرُّخَامُ وتُبَلَّطُ، ونَحوِ ذَلِكَ مِنَ الأشياءِ الْمُحدَثَةِ.

هذا كُلُّهُ منهيٌّ عنْهُ شرعًا، وهذا كمَا ذكرْنَا أنَّهُ يُفضِي إلى تعظيمِ الْقَبْرِ، وإلى عبادتِهِ، والْمَيِّتُ نازلٌ في هذا الْقَبْرِ سيَبْلَى وسيأكلُهُ الدُّودُ ويفنَى، وهذا البناءُ لا يُسمِنُ ولا يُغنِي مِنْ جُوعٍ، ولا يَرفعُ وضيعًا عِنْدَ اللهِ، ولا يَضَعُ رفيعًا عِنْدَ اللهِ، فهذا التَّزويقُ والْمبالغةُ لا يُغَيِّرُ مِنَ الحقيقةِ شيئًا فمنزلُ الإنسانِ في الآخرةِ

بعملِهِ الصَّالِحِ: إنْ خَيْرًا فخيْرٌ، وإنْ شَرًّا فشرٌّ، فلو كانَ عبدًا فاجرًا كافرًا -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- لو بُنَيَتْ عليهِ جبالُ الدُّنيَا لَمْ تُغْنِ لَهُ مِنَ اللهِ شيئًا، ولَنْ تَحُوْلَ بينَهُ وبَيْنَ عذابِ اللهِ وغضبِ اللهِ، ولو كانَ عبدًا صالِحًا تقيًّا ورعًا، ولَمْ يُبْنَ على قَبْرِهِ شيءٌ، بل ولو أُهْمِلَ قَبْرُهُ، لَمَلأَهُ اللهُ نُورًا، ولأَوسَعَ فيهِ على صاحبِهِ بقَدْرِ مَا يكونُ مِنْ عملِهِ الصَّالِحِ.

فهذِهِ الأمورُ التِي يفعلُهَا بَنُو آدمَ، ويُحدِثُونَهَا في مقابرِ مَوتَاهُم لا تُقدِّمُ ما أَخَّرَ اللهُ، ولا تُؤخِّرُ مَنْ قَدَّمَ اللهُ، ولا ترفَعُ مَنْ وَضَعَهُ اللهُ، ولا تَضَعُ مَنْ رَفَعَهُ اللهُ، وعلى العبادِ أنْ يلتَزِمُوا شَرْعَ رَبِّهِم في أنْ يسكنُوا هذِهِ الأجسادَ الأرضَ على الطَّريقةِ والصِّفةِ التِي أُمِرَ بِهَا، ويُسلِّمُوا الأمرَ للهِ -جَلَّ جَلالُهُ- فعندَهَا ينتهي أمرُهُم.

وأَمَّا البناءُ والتَّشييدُ والتَّزويقُ وكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا حرَّمَهُ اللهُ ورَسُولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

يقولُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: ((**نَهَى النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) هذِهِ الصِّيغةُ للعلماءِ في الأُصُولِ فيهَا **قولانِ**:

قالَ بعضُ العلماءِ: إذا قالَ الصَّحابِيُّ: (**نَهَى**) فإنَّهُ يُحمَلُ على النَّهي الَّذِي أصلُهُ التَّحريْمُ حَتَّى يدلَّ الدَّليلُ على الكراهةِ، فهُوَ بِهذا القولِ وهُوَ قولُ جُمهُورِ العلماءِ يكونُ في حُكمِ الْمرفوعِ إلى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ قولَهُ: (**نَهَى**) لا يُعتبَرُ في حُكمِ الْمرفوعِ؛ لاحتمالِ أنْ يكونَ الصَّحابِيُّ فَهِمَ مَا لَيْسَ نَهْيًا نَهْيٌ، وهذا القولُ للظَّاهريَّةِ، وهُوَ مرجوحٌ.

والصَّحيحُ مَا ذهبَ إليهِ الْجُمهُورُ أنَّ الصَّحابِيَّ إذا قَالَ: (**نَهَى رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-) فهُوَ كنَهْيِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مباشرةً.

والسَّببُ في ترجيحِ مذهبِ الْجُمهورِ: أنَّ الصَّحابةَ أَعرَفُ بلسانِ العربِ، فقدْ كانُوا مِنَ العربِ الأَقْحَاحِ، وكذَلِكَ أيضًا أَعرَفُ بلسانِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي كانَ يُخاطبُهُ، وكانُوا على درجةٍ مِنَ الذَّكاءِ والفَهْمِ مَا يُؤَهِّلُهُم لِمَعرفةِ هَلْ قَصَدَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- النَّهيَ أو لَمْ يقصدْ؟

ولذَلِكَ مذهبُ الْجُمهورِ في هذِهِ الْمسألةِ **أرجحُ**.

((**نَهَى النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَنْ تُجَصَّصَ القُبُورُ**))، ((**أَنْ تُجَصَّصَ القُبُورُ**)) أي تُبنَى بالْجِصِّ، أو يُوضَعُ فيهَا الْجِصَّ، ولذَلِكَ حَتَّى الطُّوبُ الْمعمولُ بالنَّارِ كَرِهَهُ بعضُ السَّلَفِ.

واختُلِفَ في سببِ الكراهةِ والْمنعِ:

قِيْلَ: هذا الْمعنَى الواردُ في نَهيهِ عَنْ تَجصيصِ القُبُور.

وقِيْلَ: إنَّ الْمنعَ؛ لأنَّهُ مشغولٌ بالنَّارِ، فهُوَ مِنْ بابِ الفألِ.

وهذا مأثورٌ عَنْ بعضِ السَّلَفِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

ومِنْ هُنا إذا بُنِيَ اللَّحَدُ لا يُبنَى بالإسْمَنْتِ، ولا يُبْنَى بطوبِ الإسْمَنْتِ، وإنَّمَا يُبنَى بطيْنِ اللَّبِنِ كمَا قَالَ سَعْدٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في الأثرِ الصَّحيحِ: ((**وَانْصِبُوا عَلَيَّ اللَّبِنَ نَصْبًا، كَمَا فُعِلَ بِرَسُولِ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)).

فلا تُوضَعُ الْحجارةُ، ولا يُوضَعُ اللَّبِنَ، ولا يُوضَعُ الطُّوبُ طوبُ الفَخَّارِ الْمعمولِ بالنَّارِ، وهكذا طوبُ الإسْمَنْتِ، ومَا في حُكمِهِ مِمَّا كانَ مُجَصَّصًا، بَلْ يكونُ مِنَ الطِّيْنِ والتُّرَابِ.

((**وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا**)): يُكتبُ عليهَا اسمُ صاحبِ الْقَبْرِ، هذا قَبْرُ فلانٍ، أو تُؤرِّخَ يومَ كَذَا، أو شَهْرَ كَذَا، أو عَامَ كَذا.

هذا للعلماءِ فيهِ وجهَانِ:

مِنْهُم مَنْ قَالَ: إنَّهُ لا تَجوزُ الكتابةُ على القُبُورِ؛ عملاً بنهي النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذا الْحديثِ.

ومِنْهُم مَنْ قَالَ: تَجوزُ الكتابةُ على القُبُورِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حينمَا قَبَرَ عثمانَ بْنَ مَظعُونٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- والْحديثُ الصَّحيحُ أَمَرَهُم أَنْ يَضَعُوا عليهِ حَجَرًا، وَقَالَ: ((**حَتَّى أَعْرِفَهُ، وَأَدْفِنَ إِلَيهِ أَهْلَ بَيْتِهِ أَوْ قَرَابَتِهِ**))، فقالُوا: هذا يدلُّ على مشروعيةِ أنْ يكونَ هُناكَ مَعْلَمٌ يُعرَفُ بِهِ الْقَبْرُ، أنَّهُ مَا وُضِعَ الْحجرُ إلا مَنْ أَجْلِ أَنْ يُعرَفَ الْقَبْرُ، والكتابةُ الْمقصودُ بِهَا معرفةُ الْقَبْرِ.

والواقع أنَّ هذا مِنْ بابِ القِياسِ، والقاعدةُ: "**أَنَّهُ لا اجتِهَادَ مَعَ النَّصِّ**"، فلَمَّا وَرَدَ النَّصُّ بالنَّهيِ عَنِ الكتابةِ لا يَجوزُ قياسُ الكتابةِ على وضعِ الحجرِ والْمعلمِ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، بَلْ نقولُ: إنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- اكتَفَى بوضعِ الْحجرِ، فدلَّ على أنَّهُ هُوَ الْحَدُّ الْمعتبَرُ، وأنَّهُ لا يُزَادُ على ذَلِكَ، **وهذا هُوَ الأقوى** أنَّهُ لا يُكتَبُ على الْقَبْرِ، وإنَّمَا يُوضَعُ الْحَجَرُ عليهِ.

وأَمَّا التَّرقِيْمُ: فلا بأسَ بِهِ لْمعرفةِ موضعِ الْمَيِّتِ؛ لأنَّهُ قريبٌ مِنَ موضعِ الْحَجَرِ.

وأَمَّا الْمنهيُ هُوَ الكتابةُ، أَنْ يَكتُبَ اسمَ الْمَيِّتِ، أو تُكتَبَ العباراتُ، أو أبياتُ الشِّعْرِ، أو غَيْرُ ذَلِكَ، كُلُّ هذا منهِيٌّ عَنْهُ شَرْعًا.

وإنَّمَا يُمكِنُ أنْ يكونَ التَّرقيمُ استنادًا إلى حديثِ الْحَجَرِ، خاصَّةً إذا تشابَهَتِ القُبُورُ فلا بأسَ بذَلِكَ، ولا حرجَ، وخاصَّةً أنَّ التَّرقيمَ تُحفظُ بِهِ حُرمةُ الْمَيِّتِ مِنْ حيثُ معرفةِ السَّابقِ واللاحقِ، فلا يُنبشُ الْقَبْرُ الْحديثُ، فهذا مِمَّا يُعيْنُ ويُحقِّقُ على مقاصدِ الشَّرعِ، فهُوَ أخفُّ.

وأَمَّا الْمنهيُّ الكتابةُ، والتَّرقيمُ ليسَ بكتابةٍ مِنْ كُلِّ وجهٍ؛ لأنَّ التَّرقيمَ شيءٌ، والكتابةُ على الْقَبْرِ شيءٌ آخَرَ.

ومِنْ هُنَا مَا يُفعَلُ مِنْ كتابةِ الآياتِ، وكتابةِ الْحِكَمِ، وكتابةِ العِظَاتِ على الْقَبْرِ، كُلُّ ذَلِكَ منهيٌّ عَنْهُ شَرْعًا، ولا يَجوزُ فعلُهُ؛ لنهيِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَنْهُ.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تعالى: وَقَدْ رَخَّصَ بَعْضُ أَهْلِ العِلمِ مِنْهُمُ الْحَسَنُ البَصْرِيُّ فِي تَطْيِيْنِ القُبُورِ وقَالَ الشَّافعِيُّ: لا بأسَ أنْ يُطَيَّنَ الْقَبْرُ.

الشَّرْح:

((**أنْ يُطيَّنَ الْقَبْرُ**)): تَطيِيْنُ الْقَبْرِ فيهِ أحوالٌ:

مِنْهَا حَالَةُ نَصْبِ اللَّبِنِ: فيُوضَعُ الطِّيْنُ، وتُسدُّ بِهِ الثَّغَرَاتِ مَا بَيْنَ اللَّبِنَاتِ؛ لأنَّهُ لَمَّا جاءَتِ السُّنَّةُ بوضعِ اللَّبِنِ كأنَّهَا تدلُّ على أنَّ الْمقصودَ سَدُّ هذا الْموضعِ.

فهُنَاكَ طريقتانِ للسَّدِ:

إمَّا أنْ يُؤخَذَ الطُّوبُ نفسُهُ ويُضرَبُ ببعضِهِ وتُسدُّ الثَّغراتُ بالقِطَعِ الصَّغيْرةِ مِنَ اللَّبِنِ، **وهذا أحوطُ**

وإمَّا أنْ يُخلَطَ بالطِّيْنِ، ثُمَّ تُسَدُّ هذِهِ الثَّغراتُ.

هاتانِ طريقتانِ، **والأولى أسلمُ**.

وأَمَّا التَّطيِيْنُ الثَّاني: فهُوَ بعدَ أنْ ينتهيَ مِنْ الْقَبْرِ يُرَشُّ الْماءُ، فيختلطُ الْماءُ بالطِّيْنِ أو تُرَابِ الْقَبْرِ ويتماسكُ؛ وهذا خوفًا عَنْ أنَّهُ مَعَ السَّافِي والرِّيحِ خَاصَّةً في بعضِ أنواعِ التُّربةِ يسفيهَا الرِّيحُ فتذهبُ معالمُ الْقَبْرِ، فتُطَيَّنُ حَتَّى يبقى مُدَّةً أكثرَ.

والْمرادُ مِنْ بقائِهِ مُدَّةً أكثرَ أنَّهُ يصُونُ الْمَيِّتَ مِنَ النَّبشِ، ويصُونُهُ مِنَ الامتهانِ، فهذا الْمرادُ فيمَا يَظْهَرُ مِنْ ترخيصِ السَّلَفِ، لا أنَّهُ يُطَيَّنُ بالْمعنَى الَّذِي يُفعَلُ في تَجصيصِ القُبُورِ، إنَّمَا الْمرادُ بِهِ حِفْظُ الْقَبْرِ مِنَ الضَّياعِ كمَا بَيَّنَا.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا يَقُولُ الرَّجُلُ إِذَا دَخَلَ الْمَقَابِرَ]**.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حدثنا أبو كريب قال حدثنا محمد بن السلط عن أبي كدينة عن قابوس ابن أبي ضبيان عن أبيه عن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: مَرَّ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بِقُبُورِ الْمدينةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِم بَوَجْهِهِ فَقَالَ: ((**السَّلامُ عَلَيْكُم يَا أَهْلَ القُبُورِ، يَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُم، أَنْتُمْ سَلَفُنَا، وَنَحْنُ بِالأَثَرِ**)).

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ- تعالى: وفي الباب عن بريدة وعائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ ابْنِ عبَّاسٍ حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وأبو كدينه اسْمُهُ يَحيَى ابنْ الْمهلَّبِ، وأبو ضبيان اسْمُهُ حصيْنُ بْنُ جُندبٍ.

الشَّرْح:

ترجَمَ الْمصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ التَّرجَمةِ التِي تتعلَّقُ ببيانِ هديِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في زيارةِ القُبُورِ والْمقابرِ، وقدْ جاءَ عَنْهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أكثرُ مِنْ حديثٍ في زيارتِهِ للقُبُورِ، ولذَلِكَ أَجْمَعَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- على مشروعيةِ زيارةِ القُبُورِ، وأَنَّهَا آخِرُ الأمرينِ مِنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وخَالَفَ في هذا بعضُ السَّلَفِ، كالشَّعبِيِّ، وإبراهيمَ النَّخعيِّ، ومُحمدِ بْنِ سيْرينَ -رَحِمَهُمُ اللهُ- فقالُوا: إنَّ زيارةَ القُبُورِ مكروهةٌ.

ولعلَّهُم لَمْ يبلغْهُم حديثُ النَّسخِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَهَى عَنْ زيارةِ القُبُورِ أَوَّلاً، ثُمَّ رَخَّصَ في ذَلِكَ بعدُ.

وجاءَ ذَلِكَ صريْحًا في حديثِ أبي سعيدٍ الْخُدريِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في الصَّحيحِ: أَنَّهُ دَخَلَ على أهلِهِ فوَجَدَ عنْدَهُم اللحمَ لَحمَ الأضاحي مُدَّخَرًا، فأَنكَرَ ذَلِكَ، فقالُوا لَهُ: إنَّهُ قدْ حَدَثَ بعدَكَ أَمْرٌ فمَضَى إلى رَسُولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فقالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**إِنِّي كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُم عَنْ ادِّخَارِ لُحُومِ الأَضَاحِي فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ، فادَّخِرُوا مَا بَدَا لَكُم**))، وفي بعضِ الرِّواياتِ: ((**أَنَّهُ إِنَّمَا نَهَيْتُكُم مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ**)) أي أَنَّهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كانَ في أولِ الأمرِ نَهَى الصَّحابةَ أَنْ لا يُمسِكَ الرَّجُلُ لَحمَ الأضحيةِ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ، وإِنَّما يتصدَّقُ بِهِ ويعطيهِ إخوانَهُ؛ لأَنَّهُ كانَ هُناكَ دَافَّةٌ.

والـدَّافَّـةُ: هُمُ القَومُ الَّـذِيْنَ يأتُونَ مِنَ الأعرابِ والبـاديـةِ، يأتُون مِنَ الْمـدينـةِ، ويكونُ عليهُمُ العيشُ شـــديدًا، وينزِلُونَ الْمُدَنَ مِنْ أجلِ أنْ يتقوَّتوا، فأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ -عَلَيهِ الصَّـــلاةُ وَالسَّـــلامُ- بذَلِكَ؛ لكي يُواسُوا إخوانَهُم الْمحتاجيْنَ، ونَهَاهُم عنِ ادِّخَارِ لُحُومِ الأضاحي فَوقَ ثلاثِ ليالٍ.

فقالَ لأبي ســـعيدٍ: ((**كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُم عَنْ ادِّخَارِ لُحُومِ الأَضَـــاحِي فَوْقَ ثَلاثٍ، فادَّخِرُوا مَا بَدَا لَكُم، وَكُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُم عَنْ الانْتِبَاذِ، فانْتَبِذُوا، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**))،((**كُنْتُ نَهَيْتُكُم عَنْ الانْتِبَاذِ**)) أي وَضْـــعَ النَّبِيذِ، **مِثْلُ:** أنْ يأخُذَ التَّمرَ وينبذُهُ؛ لأنَّ الانتباذَ افْتِعَالٌ مِنَ النَّبْذِ، وأصـــلُ النَّبذِ: الطَّرْحُ، فكـانُوا يأخُذُونَ التَّمرَ والعنبَ والزَّبيبَ، ويضـــعونَهُ ويطرحونَهُ في الْمـاءِ؛ حَتَّى يَحْلُو طَعْمُ الْمـاءِ، ثُمَّ يشـربونَهُ، فقالَ -صَـلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـلَّمَ-: ((**كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُم عَنْ الانْتِبَاذِ، فَانْتَبِذُوا، وَكُلُّ مُسْـكِرٍ حَرَامٌ**)) أي انتبذُوا بشرطِ أَلا يصيرَ النَّبيذُ يشتدُّ ويقذفُ بالزَّبدِ، فيصيرُ مُسْكِرًا، فحينئذٍ هُوَ حَرَامٌ.

ثُمَّ قالَ بعد ذَلِكَ: ((**وَكُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُم عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُوْرُوْهَا**)) فهذا يدلُّ على أنَّهُ آخِرُ الأمرينِ مِنْ رَسُـولِ اللهِ -صَـلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـلَّمَ-، ولذَلِكَ مَنْ كَرِهَ زيارةَ القُبُورِ مِنَ السَّـلَفِ كمَا ذَكَرَ بعضُ العلماءِ يَحتمِلُ أنَّهُ اطَّلَعَ على أحاديثِ النَّهي، ولَمْ يَطَّلِعْ على أحاديثِ الْجوازِ والنَّسخِ لذَلِكَ النَّهي.

وقالَ الشَّـــعبِيُّ: (**لولا أنَّ النَّبِيَّ** -صَـــلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـــلَّمَ- **نَهَى عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ لَزِرْتُ بِنْتِي، لَزِرْتُ ابْنَتِي**)، فهذا يدلُّ على أنَّهُ لَمْ يَطَّلِعْ على حديثِ النَّســـخِ، والَّذِي عليهِ العملُ عندَ جَماهيْرِ السَّـــلَفِ والْخَلَفِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعيْنَ جوازُ الزِّيارةِ للقُبُورِ، والسَّلامِ على أهلِهَا، والدُّعاءِ لَهُم، والتَّرحُمِ عليهِم، وأنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلحَيِّ والْمَيِّتِ، فإنَّ مِنْ حَقِّ الْمَيِّتِ على أخيهِ الْمسـلمِ أنْ يذكرَهُ بِخيْرٍ، وأنْ يتسـببَّ بالْخَيْرِ لَهُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ -صَـلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـلَّمَ- كانَ هديهُ على ذَلِكَ، وقدْ أثنَى اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- على الْمؤمنيْنَ فوصـفَهُم بِهذِهِ الصِّـفة، فقالَ سـبحانه: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَـــبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}** فإخوانُنَا الَّذِينَ سـبقونَا بِحاجةٍ إلى الدُّعاءِ، وإلى الاسـتغفارِ، وإلى التَّرحُمِ، وسـؤالِ اللهِ لَهُم العافيةَ فمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أُجِرَ، فكانَ خَيْرًا لَهُ، وكانَ خَيْرًا لِلمَيِّتِ، بانتفاعِهِ بذَلِكَ الدُّعاءِ، ثُمَّ هُناكَ مصلحةٌ شرعيةٌ؛ لأنَّهُ إذا زَارَ القُبُورَ ذَكَّرَتْهُ بالآخرةِ، وسـيأتي في الأبوابِ التَّاليةِ بيانُ مَا يتعلَّقُ بالزِّيارةِ وأحكامِهَا، وخلافِ العلماءِ في مسائلِهَا.

لكنْ هُنَا عَقَدَ الْمصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- هذا البابَ لبيانِ هديِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيمَا يُقالُ عندَ الزِّيارةِ، فقدْ وَرَدَ عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ زَارَ القُبُورَ أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ:

زَارَهَا -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- **ليلاً**: كمَا في حديثِ أُمِّ الْمؤمنيْنَ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**وأَنَّهُ خَرَجَ في جَوفِ الليلِ إلى بقيعِ الْغَرْقَدِ، وأَنَّهُ قامَ قيامًا طويلاً، ورَفَعَ يديهِ**)) فدلَّ على مسائلَ:

الْمسألةُ الأُولى: مشروعيةُ زيارةِ القُبُورِ.

والْمسألةُ الثَّانيةُ: أنَّ مشروعيةَ الزِّيارةِ لا تَختصُّ بوقتٍ، وأنَّهُ يَجوزُ زيارتُهَا بالليلِ كمَا تَجوزُ زيارتُهَا بالنَّهارِ.

والْمسألةُ الثَّالثةُ: أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قامَ قيامًا طويلاً، وهذا يدلُّ على أنَّهُ لا يُنكَرُ على مَنْ وَقَفَ على الْقَبْرِ يَتَرَحَّمُ على صاحبِهِ، ويطيلُ الدُّعاءَ، إنَّمَا يُنكَرُ إذا ارتكَبَ أَمْرًا مَحظُورًا شرعًا، فَطَرْدُ النَّاسِ عِنْدَ القيامِ مِنْ أجلِ الدُّعاءِ والاستغفارِ لِلمَيِّتِ مُخالفٌ للسُّنَةِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَامَ، قالَتْ: ((**قِيَامًا طَوِيلاً**)).

وثَبَتَ عَنْهُ في هذا الْحديثِ: ((**أَنَّهُ رَفَعَ يديهِ**)) فدلَّ على مشروعيةِ رَفْعِ اليدينِ عِنْدَ الزِّيارةِ.

وأَمَّا بعدَ الدَّفْنِ: **ففي النَّفْسِ مِنْهُ شَيْءٌ** بعدَ الدَّفْنِ، فإنَّهُ لَمْ يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ رَفَعَ يديهِ ويُحكَى عَنْ بعضِ الصَّحابةِ كابْنِ عُمَرَ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يستَنِدُ فيهِ إلى الأصلِ العام في الرَّفعِ. فمَنْ رَفَعَ لا يُنْكَرُ عليهِ، وأَنَا لا أَرْفَعُ، ولا أُنْكِرُ على مَنْ رَفَعَ.

لكنْ عِنْدَ الزِّيارةِ إذا زَارَ يَجوزُ لَهُ ويُشرَعُ لَهُ أنْ يَرفَعَ يديهِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- رَفَعَ يديهِ.

وهَلْ يستقبِلُ القبلةَ أو لا؟

حديثُ عائشةَ لَمْ يُبَيِّنْ أنَّهُ استقبلَ القبلةَ، وجاءَ في الْحديثِ الْحسنِ، وهُوَ ثابتٌ، أنَّهُ إذا زَارَ الْمَيِّتَ يأتيهِ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، ويُسلِّمُ عليهِ.

وهذا الْحديثُ أصلٌ عِنْدَ العلماءِ أنَّهُ يأتيهِ مِنْ قِبَلِ وجهِهِ عندَ السَّلامِ، فكونُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- لَمْ ينحرِفْ، ولَمْ يتكلَّفْ في استقبالِ القبلةِ.

قالَ بعضُ العلماءِ وبعضُ شُرَّاحِ الْحديثِ: فيهِ دليلٌ على مشروعيةِ استقبالِ الْقَبْرِ عندَ الدُّعاءِ لصاحبِهِ، وإنَّما يشدَّدُ في بعضِ القُبُورِ أنْ تستقبَلَ أنَّ بعضَ العامةِ يظُنُّ أنَّهُ يُدْعَى صاحبُهَا، فإذا كانَ مِنْ هذا البابِ، نَعَمْ.

أَمَّا أنْ يُعتقَدَ أنَّهُ أَمْرٌ مُحرَّمٌ لا يَجوزُ: فلا؛ لأنَّ لَهُ أصلاً أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في زيارتِهِ للقُبُورِ رَفَعَ يدَهُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- ودَعَا، إنَّمَا الْمحظورُ أنْ يدعوَ صاحبَ الْقَبْرِ.

أَمَّا إذا دَعَا رَبَّهُ ووَحَّدَهُ وعظَّمَهُ وسألَ اللهَ الرَّحمةَ لِمَيِّتِهِ، فمَا الْمحظورُ في هذا؟!

هذا أَمْرٌ لا بأسَ بِهِ، ولا حَرَجَ.

ثُمَّ إنَّهُ مِنْ أشـدِّ الْمواطنِ حاجةً، ورَفْعُ اليدينِ مِنْ مظانِ الإجابةِ، كمَا في الْحديثِ الصَّـحيحِ عَنِ النَّبِيِّ -صَـلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـلَّمَ- أنَّهُ قالَ: ((**إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيْمٌ، يَسْـتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِـفْرًا**))، ومَا أحوجَ الْمَيِّتَ إلى هذا الدعاءِ! فمَنْ زَارَ زيارةً شـرعيةً لا بدعةَ فيهَا، ووقَفَ على الْقَبْرِ واستغفرَ لِمَيِّتِهِ، وسألَ اللهَ أنْ يرحَمَهُ، فمَا الْمحظورُ في هذا؟!

لا حَرجَ في ذَلِكَ، ولا يَجوزُ لأَحَدٍ أنْ يدخُلَ في نِيَّاتِ النَّاسِ، فيقولُ: هذا يدعو صـاحبَ الْقَبْرِ لأنَّهُ ارتكبَ الإفكَ والإثْمَ الشَّـنيعَ؛ لأنَّهُ نَسَـبَهُ إلى الشِّـركِ دُوْنَ بَيِّنَةٍ، ودُوْنَ حُجَّةٍ، فهذا ينبغي أنْ يتورَّعَ الْمسلمُ عنْهُ، وأنْ يَخافَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- ويتقيَهُ.

ونُنَبِّهُ عليهِ في هـذا الزَّمـانِ؛ لعُمُومِ البَلوى بِهِ خاصَّـةً مِنْ بعضِ الَّذينَ ليسَ عندَهُم عِلْمٌ ومعرفةٌ، يتشدَّدُوْن في هذِهِ الأمورِ، ويَخرجُونَ عَنِ السَّنَنَ.

لا حَرَجَ في أيِّ زيارةٍ شرعيةٍ لا يُدعَى فيهَا غَيْرُ اللهِ، ولا يُرتكَبُ فيهَا الْمحظورُ، ولا تُخالفُ فيهَا السُّنَّةُ، فمَنْ وَقَفَ على الْقَبْرِ، فاسترحمَ وسألَ رَبَّهُ أنْ يَرحَمَهُ ويرحمَ الْمَيِّتَ، كمَا سألَ-عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ذَلِكَ في قولِهِ: ((**يَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِيْنَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِيْنَ**)) فسألَ اللهَ لنفسِهِ ولِلمَيِّتِ، فإذا دعَا دعاءً مشروعًا لا حرجَ فيهِ ولا بدعةَ ولا تنطعَ ولا ارتكابَ لِمحرّمٍ، فلا بأسَ بذَلِكَ، ولا حَرَجَ.

يُعَلِّمُ النَّاسَ، ويُوَجِّهُ النَّاسَ، أَمَّا أنْ يُتَّهَمُوا ويُمنَعُوا ويُشَـدَّدَ عليهِم، ويُشـغَلُونَ أثناءَ الزِّيارةِ بالصِّـياحِ واللَّغَطِ، ويُخوَّفُونَ ويُرعبونَ، فهذا كُلُّهُ مُخالفٌ للشَّرعِ، مُصادمٌ للأُصُولِ الشَّرعيةِ؛ لأنَّ زيارةَ القُبُورِ الْمرادُ بِهَا التَّفكُّرُ والتَّدبُّرُ والاتعاظُ، فإذا جاءَ أمثالُ هؤلاءِ مِمَّنْ يصـيحُونَ ويلغطونَ، ولا يتأدَّبُونَ بآدابِ الإسلامِ مَعَ إخوانِهِم الْمسلميْنَ، فإنَّهُم يُؤذُونَهُم، وأذيةُ الْمسلمِ لا تَجوزُ.

فالْمقصودُ مِنْ هذا: أنَّ الزِّيارةَ الشَّرعيةَ لا حَرَجَ فيهَا، والدُّعاءُ للمَيِّتِ، والاستغفارُ لَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ وبَرَكَةٌ.

زَارَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- القُبُورَ، وثَبَتَ عَنْهُ في الْحديثِ الصَّحيحِ أنَّهُ لَمَّا زَارَ البقيعَ، فقالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بعدَ أنْ سَلَّمَ على أهلِهِ: ((**وَدِدتُّ أَنِّي رَأَيْتُ إِخْوَانِي، قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، أَوْ لَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، إِنَّمَا إِخْوَانِي الَّذِيْنَ يَأْتُوْنَ بَعْدُ**)).

وهذا الْحديثُ الصَّحيحُ يدلُّ على أنَّ مِنْ هديِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- الزِّيارةَ، فقَصَدَ البقيعَ وزَارَ أهلَهُ في الليلِ، كما في حديثِ عائشةَ، وفي النَّهَارِ كمَا في حديثِ السُّنَنِ، والَّذِي بَيَّنَ فيهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ وَدَّ وتَمَنَّى أنْ يَرَى إخوانَهُ.

تَأَمَّلْ -رَحِمَكَ اللهُ- قولَهُ: ((**وَدَدِتُّ أَنِّي رَأَيْتُ إِخْوَانِي**))، ((**وَدِدتُّ**)): الوِدُّ هُوَ خالصُ الْحُبِّ، الْحُبُّ شيءٌ، ولكنَّ الوِدَّ شيءٌ، لا يُقالُ: "وَدِدتُّ الشَّيءَ" إلا إذا كانَ مِنْ خالصِ الْمحبَّةِ، ((**وَدِدتُ أَنِّي رَأَيْتُ إِخْوَانِي**)) -صَلَوَاتُ رَبِي وَسَلامُهُ عَلَيْهِ-، ونَحنُ واللهِ نَوَدُّ مَا وَدَّهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ورَضِيْنَا بِحُكمِ اللهِ أَنَّنَا جِئْنَا بعدَ وفاتِهِ وانتقالِهِ إلى الرَّفيقِ الأعلى، ونسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ أنْ يَجمعَنَا بِهِ على أَتَمِّ وأجْملِ مَا يكونُ عليهِ الْجَمْعُ.

قالَ: ((**وَدِدتُ أَنِّي رَأَيْتُ إِخْوَانِي**)) فانظُرْ كيفَ جَمَعَ بَيْنَ الأمواتِ السَّابقيْنَ، والَّذِينَ هُم مِنْ اللاحقيْنَ الآتِيْنَ، فكانَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- خَيْرًا على الأمةِ في سلفِهَا وخلفِهَا -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

سَلَّمَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فقالَ: ((**السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ**))، ((**السَّلامُ**)): هُوَ اسمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، كمَا قالَ تعالى: **{السَّلامُ الْمُؤْمِنُ}**.

وإذا قِيْلَ: (**السَّلامُ عُلَيْكُم**) لِلحَيِّ فهُوَ الدُّعَاءُ لَهُ مِنَ السَّلامةِ مِنَ الآفاتِ والشُّرُورِ، فإذا قُلْتَ: (**السَّلامُ عَلَيْكُم**) أي سلَّمَكُم اللهُ مِنَ الآفاتِ والشُّرُورِ.

وإذَا كانَ السَّلامُ على الْمَيِّتِ فإنَّهُ دعاءٌ لَهُ بالسَّلامةِ مِنَ العذابِ، كمَا ذَكَرَ طائفةٌ مِنَ العلماءِ والأئمةِ في شَرْحِ هذِهِ السُّنَّةِ أَنَّهُ إذا قِيلَ للمَيِّتِ: (**السَّلامُ عَلَيْكُم**) أي سَلَّمَكُم اللهُ مِنَ العذابِ والْمرادُ عذابُ الْقَبْرِ، وعذابُ الآخرةِ، فيدعو لأخيهِ أنَّ اللهَ يُسَلِّمَهُ؛ فإنَّ القُبُورَ مَمْلُؤَةً ظُلْمَةً ومَمْلُؤَةً فِتْنًا وأهوالاً وعذابًا. ولذَلِكَ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ أهلَهَا يُعذَّبُونَ، مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْهُم أنْ يُعذَّبَ، ففي الْحديثِ الصَّحيحِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أنَّ عائشةَ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- **دَخَلَتْ عليهَا يهوديةٌ فاستَطْعَمَتْهَا، فأطعمَتْهَا، فقالَتِ اليهوديةُ لعائشةَ: أَعَاذَكِ اللهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَفَزِعَتْ عائشةُ مِنْ قَوْلِهَا، فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **عليهَا أَخْبَرَتْهُ خَبَرَ اليهوديةِ، فَنزلَ الوحيُ عليهِ، فقالَ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **هَلْ شَعَرْتِ أَنِّي أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُعَذَّبُوْنَ فِي قُبُوْرِكُم**))، وفي بعضِ الرِّواياتِ: ((**تُفْتَنُوْنَ أَوْ تُعَذَّبُوْنَ فِي قُبُوْرِكُمْ كَفِتْنَةِ الدَّجَالِ أَوْ أَشَدَّ**)).

فإذا سَلَّمَ على الْمَيِّتِ سَأَلَ اللهَ أنْ يسلِّمَهُ مِنْ هذا العذابِ، ويسلِّمَهُ مِنْ فِتَنِ الْقَبْرِ، وأنْ يَخرُجَ منهَا سالِمًا، فإذا سَلِمَ مِنَ الْقَبْرِ سَلِمَ مِمَّا وَرَاءَهُ، ولذَلِكَ كانَ عثمانُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يبكي إذا بلغَ الْقَبْرَ ويقولُونَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلا تَبْكِي كَبُكَائِكَ عِنْدَ الْقَبْرِ قَالَ: ((**إِنَّ خَلِيْلِي رَسُولَ اللهِ** -صَلَّى اللهُ

عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَخْبَرَنِي أَنَّهُ أَوَّلُ مَنَازِلُ الآخِرَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ خَيْرًا لِلعَبْدِ فَمَا بَعْدَهُ أَهْوَنُ**))، وهذا يدلُّ على فِتَنِ القُبُورِ وبلائِهَا.

فإذا قالَ: ((**السَّلامُ عَلَيْكُم دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ**)) أي سلَّمَكُم اللهُ مِنْ عذابِ الْقَبْرِ، ومِنْ بلاءِ الْقَبْرِ ومِنْ فتنةِ الْقَبْرِ.

((**السَّلامُ عَلَيْكُم دَارَ**)) **قِيلَ**: الدَّارُ بِمعنَى الأهلِ، أهلِ الدَّارِ، كمَا قالَ تعالى: **{وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ}** أي اسألْ أهلَ القريةِ، فقولُهُ: ((**السَّلامُ عَلَيْكُم دَارَ**)) أي أهلَ الدَّارِ.

((**قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ**)): وهذا يدلُّ على أنَّ السَّلامَ يَخُصُّ بِهِ أمواتَ الْمسلميْنَ.

وأمَّا أمواتَ الكُفَّارِ: فإنَّهُ لا يُشرَعُ الدُّعاءُ لَهُم، ولا الاستغفارُ لَهُم، ولا التَّرحُّمُ عليهِم، ولذَلِكَ نَهَى اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عَنِ الاستغفارِ للمشركيْنَ، كمَا قالَ تعالى: **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}** فيسلِّمُ على الْمؤمنيْنَ.

((**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُوْنَ**))، ((**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ**)) **قِيْلَ**: الْمرادُ بِهِ التَّحقِيقُ، وأنَّ التَّعليقَ بالْمشيئةِ ليسَ على ظاهرِهِ، إنَّمَا الْمرادُ بِهِ أنَّهُ أَمْرٌ مُحَقَّقٌ، كقولِهِ تعالى: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ}** أي تحقيقاً.

وقيل إنَّ قوله: ((**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُوْنَ**)) أي إذا شاء الله بِكُم لاحقُونَ، أو متى شاء الله بكم لاحقون، فلا يعلَمُ أَحَدٌ مَتَى ينتَهِي أجلُهُ، ومَتَى ينقضِي عُمُرُهُ، فيلحقُ بإخوانِهِ الْمسلميْنَ إذا ماتَ على الإسلامِ، جعلَنَا اللهُ وإيَّاكُم ذَلِكَ الرَّجُلَ.

واللاحِقُ: هُوَ الْمُسْتَتْبَعُ لغَيْرِهِ، وأنَّنَا لاحقُونَ بِهِم:

إمَّا أنْ يكونَ الْمرادُ بِهِم إنَّنَا إنْ شَاءَ اللهُ لاحقُونَ بِكُم إذا كانَ الْمرادُ بِهِ أنَّنَا نلحَقُ بِهِم على الإسلامِ وعلى الإيْمانِ وعلى الدِّينِ، فيكونُ الْمشيئةُ بأنَّ ذَلِكَ لا يكونُ إلا بِمشيئةِ اللهِ وقدرتِهِ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فهُوَ الَّذِي يُثَبِّتُ مَنْ شاءَ على طاعتِهِ، ويَخذُلُ مَنْ شاءَ بعدلِهِ، فنسألُ اللهَ أنْ يُثَبِّتَنَا على الْحَقِّ حَتَّى نلقَاهُ وهُوَ رَاضٍ عنَّا.

((**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُوْنَ، يَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِيْنَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِيْنَ**)) كمَا في الرِّوايةِ الأُخرى، وفي صحيحِ مسلمٍ مِنْ حديثِ عائشةَ: ((**أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**)).

((**أَسْأَلُ**)): بِمعنَى أَطلُبُ.

((**أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**))، ((**لَنَا**)): فيهِ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ إذا دعا لغيْرِهِ ولنفسِهِ يبدأُ بالدُّعاءِ لنفسِهِ، وهذِهِ هِيَ السُّنَّةُ، فتقولُ: (رَبِّ اغْفِرْ لِي ولِلمسلميْنَ)، ولا تَقولُ: (رَبِّ اغْفِرْ للمسلميْنَ وَلِي)، كمَا هُوَ هديُ الكتابِ:

قالَ تعالى حكايةً عَنْ إبراهيمَ: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}**، فبدأَ بنفسِهِ.

وقالَ نُوحٌ: **{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}**.

فالْمقصودُ أنَّهُ يبدأُ بالدُّعاءِ لنفسِهِ، ثُمَّ يُثَنِّي بغيْرِهِ، ولا يبدأُ بغيْرِهِ، ثُمَّ يُثَنِّي بنفسِهِ، وقالُوا: إنَّ هذا مِنْ بابِ الزُّهدِ في الْخَيْرِ، ولذَلِكَ شُرِعَ أنْ يبدأَ بنفسِهِ، ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ بغيْرِهِ.

أمَّا لو عَمَّمَ، فقالَ: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا) فلا إشكالَ.

أَمَّا الإشكالُ: إذا أرادَ أنْ يَخُصَّ نفسَهُ، ويذكرَ غيْرَهُ، فإنه يبدأُ بِخصوصِ نفسِهِ قبلَ أنْ يبدأَ بغيْرِهِ **والدَّليلُ على ذَلِكَ**: صريحُ السُّنَّةِ في قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**اِبْدَأْ بِنَفْسِكَ، وَبِمَنْ تَعُوْلُ**)) فالنَّفْسُ حقُّهَا أوجبُ وآكدُ.

((**أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**)): والعافيةُ هِيَ أعظمُ نعمةٍ يُنعِمُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- بِهَا على العبادِ، **وهِيَ تنقَسِمُ إلى: عافيةِ** الدِّيْنِ، والدُّنْيَا، والآخِرَةِ.

ومَنْ أرادَ اللهُ لَهُ تَمَامَ السَّعادةِ رَزَقَهُ اللهُ عافيةَ الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ، فإذا عُوْفِيَ العبدُ في دينِهِ سَلِمَ وإذا عُوْفِي في دُنياه غَنِمَ، وإذا عُوْفِي في دينِهِ ودُنياهُ وآخرتِهِ فازَ فوزًا عظيمًا.

ولذَلِكَ كانَ مِنْ هديهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ومِنْ ذَلِكَ الأحاديثُ التِي وَرَدَتْ في أذكارِ الصَّباحِ والْمساءِ أنَّهُ كانَ يسألُ الله العافيةَ: ((**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ**)) فيسألُ العبدُ ربَّهُ العافيةَ، فسألَ اللهُ لأهلِ القُبُورِ العافيةَ، **العافيةُ** تكونُ مِنَ البلاءِ، يُعافَى الإنسانُ مِنَ البلاءِ الْحِسيِّ والْمعنويِّ.

فإذا سألَ اللهَ العافيةَ، (**أَلْ**) في العافيةِ للاستغراقِ، أي جَمِيعَ العافيةِ.

((**أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**)): وهذا مِنْ جوامعِ كلمِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-؛ لأنَّهُ دعاءٌ جامعٌ شاملٌ، لَمْ يتركْ خَيْرًا إلا وانضَوى عليهِ؛ لأنَّ قولَهُ: ((**أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**)) جَمَعَ العافيةَ بِجميعِ أقسامِهَا.

ثُمَّ فيهِ دليلٌ على شدَّةِ حاجةِ الْمَيِّتِ للسَّلامةِ، ولذَلِكَ كانَ بالإمكانِ يقولُ: (أسألُ اللهُ لَكُمُ الْجَنَّةَ، أسألُ اللهَ لَكُمُ الفردوسَ، أسألُ اللهُ لَكُمُ نعيمَ الْجَنَّةِ) هذا أَمْرٌ لاحِقٌ، لكنَّ الَّذِي يَحتاجُ إليهِ هُنَا هُوَ السَّلامةُ مِنْ هذا الْمَعْبَرِ، وهُوَ البَرْزَخُ الَّذِي قَبْلَ الآخرةِ، كمَا قَالَ تعالى: **{وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ**

يُبْعَثُونَ}، فهذا البَرْزَخُ مليءٌ بالفِتَنِ، مليءٌ بالْمِحَنِ، يُفتَنُ الإنسانُ بسببِ الصَّلاةِ، ويُفتَنُ بِلْ حَتَّى بسببِ وُضُوئِهِ، فيعذَّبُ في الْقَبْرِ، كمَا في الصَّحيحيْنِ مِنْ حديثِ ابْنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في قصَّةِ الْمقبورَيْنِ، ويُفتَنُ في قَبْرِهِ، ويعذَّبُ بِحقوقِ إخوانِهِ الْمسلميْنَ إذا مَشَى بينَهُم في النَّميمةِ، وقطَّعَ أواصرَ الأخوةِ، ومزَّقَ شَمْلَهَا، فنَقَلَ الأحاديثَ، وآذَى بِهَا الْمسلميْنَ (فلانٌ يقولُ، وفلانٌ يفعلُ، فلانٌ لا يُحبُّكَ، وفلانٌ قالَ كذَا، وهُوَ يقصِدُكَ) هذِهِ كُلُّهَا مِمَّا يُوجبُ عذابَ الْقَبْرِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-، فهذِهِ مِنَ الفِتَنِ.

ولذَلِكَ جاءَتِ السُّنَّةُ بِمَا يُناسبُ الْحالَ، قال: ((**أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**))، وهذا من جوامعِ كَلِمِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، والْمَيِّتُ مُحتاجٌ إلى الرَّحْمَةِ، فقالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**يَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِيْنَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِيْنَ**)) فهذا يدلُّ على شدَّةِ الْحاجةِ إلى الرَّحْمَةِ، والرَّحْمَةُ فيهَا سلامةٌ مِنَ العذابِ، ومَنْ رَحِمَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فلَنْ يُعَذَّبَ، إذا كانَتْ الرحمة للعبدِ تامةً كاملةً، سَلِمَ مِنَ العذابِ، والرَّحْمَةُ السَّلامةَ مِنَ العذابِ فيهَا شاملةٌ للحسيِّ والْمعنويِّ، ولذَلِكَ سألَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الرَّحْمَةَ لأمواتِ الْمسلميْنَ، كمَا في الرِّوايةِ الأُخرى.

وهذا يدلُّ على أنَّهُ يُسَنُّ الدُّعاءُ لأمواتِ الْمسلميْنَ، وأنَّهُ يَجوزُ تَخصيصُ بعضِهِم؛ لأنَّهُ خَصَّ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أهلَ بقيعِ الغرقدِ، وأنَّهُ يَجوزُ زيارةُ بعضِ الْقُبُورِ دُوْنَ بعضِهَا، كأَنْ يكونَ في الْمدينةِ أكثرُ مِنْ مقبَرَةٍ، فيزورُ مقبْرَةً دُوْنَ الأُخرى، **والأفضلُ** أنْ يزورَ الْجميعَ ليكسبَ أجْرَهُم، ويترحَّمَ عليهِم، والْحرصُ على سؤالِ الرَّحْمَةِ لأمواتِ الْمسلميْنَ عمومًا والاستغفارِ لَهُم؛ لأنَّهُ هُوَ ظاهرُ القرآنِ، ومَنِ استرحمَ للمسلميْنَ رَحِمَهُ رَبُّهُ، ومَنِ استغفرَ للمسلميْنَ فإنَّ اللهَ يكتُبُ لَهُ أجورَهُم، فإذا استغفرَ لأمواتِ الْمسلميْنَ، واُستُجِيْبَتْ دعوتُهُ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَجْرَ مَنِ صرفَ عَنْ إخوانِهِ الْمسلميْنَ بقَدْرِ مَا صَرَفَ عنَهْمُ بسببِ دعوتِهِ؛ لأنَّ هذا خَيْرٌ أسدَاهُ للمسلميْنَ، فيكونُ أجرُهُ عظيمًا عندَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، ومِنْ هُنَا جاءَتِ السُّنَّةُ بِهذا الهدي الكريْمِ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الدُّعاءِ للمَوتَى، وهذا يتضمَّنُ أنَّهُم بِحاجةٍ لأنْ يُدعَى لَهُم وتسألُ لَهُم الرَّحَمةُ.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ بأسْمائِكَ الْحسنَى وصفاتِكَ العُلى في هذِهِ السَّاعةِ الكريْمةِ، نسألُكَ بأنَّكَ أنتَ اللهُ لا إلهَ إلا أنتَ أنْ ترحمَ أمواتَ الْمسلميْنَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لَهُم وارْحَمْهُم، اللَّهُمَّ اغفِرْ لَهُم وارْحَمْهُم، اللَّهُمَّ اغفِرْ لَهُم وارْحَمْهُم، اللَّهُمَّ لا تُبقِي منْهُم معذَّبًا إلا أَزَلْتَ عنْهُ عذابَهُ، ولا مهمومًا مغمومًا إلا أَذْهَبْتَ هَمَّهُ وغمَّهُ، اللَّهُمَّ أُلْطُفْ بِهِم في دارِ البِلَى والدُّودِ، وانقُلْهُم يَا رَبِّ إلى جنَّاتِ الْخُلُودِ مَعَ الْمقرَّبيْنَ الشُّهُودِ،

يا رحيمُ، يا ودودُ، اللَّهُمَّ ارحَمْ ضعفَهُم، واجبُرْ كسرَهُم، واغفِرْ ذنبَهُم، اللَّهُمَّ ضاعِفْ أجورَهُم، اللَّهُمَّ ضاعِفْ أجورَهُم، اللَّهُمَّ ارفَعْ درجتَهُم في الْمهدِيِّيْنَ، واخلُفْهُم في عَقِبِهِم في الغابرينَ، واغفِرْ لنَا ولَهُم يَا رَبَّ العالَمِيْنَ، وافسَحْ لَهُم في قبورِهِم، ونوِّرْ لَهُم فيهَا، اللَّهُمَّ خُصَّ بذَلِكَ الآباءَ والأمهاتِ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لآبائِنَا وأمهاتِنَا وإخوانِنَا وأخواتِنَا وأَلِّنَا وقَرَاباتِنَا، اللَّهُمَّ اغفِرْ لَهُم، وارحَمْهُم، ونَوِّرْ عليهِم قبورَهُم، وافْسَحْ لَهُم فيهَا، واغفِرْ لعلماءِ الإسلامِ والْمسلميْنَ والدُّعاةِ الْهُداةِ الْمهتدينَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لَهُم واجزِهِم عَنِ الإسلامِ والْمسلميْنَ خَيْرَ مَا جَزَيْتَ عالِمًا عَنْ علمِهِ، اللَّهُمَّ افسَحْ لَهُم في قبورِهِم ونَوِّرْ لَهُم فيهَا، واجزِهِم عَنَّا خَيْرَ الْجزاءِ وأوفاهُ وأعظمَهُ وأَسْمَاهُ يا مَنْ جَلَّ في علاهُ، اللَّهُمَّ اغفِرْ للمعذَّبِيْنَ وأَزِلْ عنْهُم عذابَهُم، اللَّهُمَّ اقبَلْ شفعاتَنَا لإخوانِنَا، اللَّهُمَّ اقبَلْ شفعاتَنَا لإخوانِنَا، ولا تردَّنَا خائبيْنَ اللَّهُمَّ لا تُبقِي ميتًا مِنْ أمواتِ الْمسلميْنَ إلا أَزَلْتَ عنْهُ عذابَهُ، وأبدَلْتَهُ فرحًا وسرورًا، اللَّهُمَّ أَزِلْ عنْهُم العذابَ وألطفْ بِنَا وبِهِم يومَ الْحسابَ يا رَبَّ الأربابِ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لِجميعِ الْمسلميْنِ والْمسلماتِ والْمؤمنيْنَ والْمؤمناتِ، الأحياءِ منْهُم والأمواتِ، اللَّهُمَّ فرِّجْ هَمَّ الْمهمومينْنَ، ونفِّسِ الكربَ عَنِ الْمكروبيْنَ، واشفِ مرضَانَا ومرضَى الْمسلميْنَ، وأرحمْ موتَانَا وموتَاهُم أجْمعيْنَ، اللَّهُمَّ لا تَدَعْ لَنَا في مقامِنَا هذا ذنبًا إلا غفرْتَهُ، اللَّهُمَّ اغفِرْ ذنوبَنَا برحْمتِكَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ ذنوبَنَا برحْمتِكَ، اغفِرْ لَنَا ولِجميعِ الْمسلميْنَ مغفرةً تامةً كاملةً، يا أرحمَ الرَّحِميْنَ، يا أرحمَ الرَّحِميْنَ يا أرحمَ الرَّحِميْنَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ ذنوبَنَا، واستُرْ عيوبَنَا، وفرِّجْ كروبَنَا، ويَمِّنْ كتابَنَا، ويَسِّرْ حسابَنَا، وارحمْ في موقفِ العرضِ عليكَ ذُلَّ مقامِنَا، اللَّهُمَّ ارحَمْ في موقفِ العرضِ عليكَ ذُلَّ مقامِنَا، اللَّهُمَّ ارحَمْ في موقفِ العرضِ عليكَ ذُلَّ مقامِنَا، اللَّهُمَّ ثَبِّتْ جَنَانَا، وسدِّدْ لسانَنَا، وقَوِّ جوارحَنَا وأركانَنَا، اللَّهُمَّ قَوِّ في طاعتِكَ جوارحَنَا وأركانَنَا، اللَّهُمَّ اجعلْنَا هداةً مهتدينَ غَيْرَ ضالِّيْنَ ولا مُضلِّيْنَ، سِلْمًا لأوليائِكَ، حَرْبًا على أعدائِكَ، نُحبُّ بِحبِّكَ مَنْ أحبَّكَ، ونُعادِي بعداوتِكَ مِنْ عادَاكَ، اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ منْهَا ومَا بَطَنَ اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ علمًا نافعًا، وعملاً صالِحًا يقرِّبُنَا إليكَ، اللَّهُمَّ اعصمْنَا بطواعيتِكَ وطواعيةِ رَسُولِكَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، اللَّهُمَّ ارزقْنَا التَّمسكَ بالكتابِ والسُّنَّةِ، وأحينَا على الشَّريعةِ والْملَّةِ، وأمتْنَا على ذَلِكَ غَيْرَ مبدِّلِيْنَ ولا مُغيِّرِينَ، وابعثْنَا على ذَلِكَ يا أرحمَ الرَّحِميْنَ غَيْرَ خَزَايَا ولا مفتونيْنَ، يا أرحمَ الرَّاحِميْنَ، يا أرحمَ الرَّحِميْنَ، اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ منْهَا وما بَطَنَ، اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ مِنْ فِتَنِ الْمفتونيْنَ، وإرجافِ الْمرجفيْنَ، وإبطالِ الْمبطليْنَ، لا تدعْ لنَا عدوًّا إلا دَمَّرْتَهُ، ولا حاسدًا إلا خذلْتَهُ، ولا ذَا شَنَآنٍ إلا قَطَعْتَ عنَّا شَنَآنَهُ ودابرَهُ، يا عظيمُ، يا جليلُ، إلهَ الأوليْنَ والآخرينَ، لا إلهَ إلا أنتَ، اللَّهُمَّ اجْمَعْ شَمْلَنَا، وارحَمْ

ضــعفَنَا، ويسِّــرْ أمرَنَا، وألطُفْ بنَا، واقضِ عنَّا الدَّينَ وأغنِنَا مِنَ الفقرِ، يا عظيمُ يا بَرُّ، نســألُكَ إلهَ الأولِيْنَ والآخرينَ أنْ تَجعلَنَا مِمَّنْ صَامَ الشَّهرَ، واستكمَلَ الأجَرَ، وأدركَ ليلةَ القدْرِ، اللَّهُمَّ مَا قَسَمْتَ فِي هذا الشَّهرِ مَنْ خَيْرٍ وبِرٍّ وطاعةٍ وبركةٍ إلا جعَلْتَ لنَا فيهَا أوفرَ الْحظِّ والنصيبِ، يا أرحمَ الرَّحِمِيْنَ، اللَّهُمَّ لا تَحرمْنَا خَيْرَ مَا عندَكَ بِشَــرِّ مَا عندَنَا، اللَّهُمَّ لا تَحرمْنَا خَيْرَ مَا عندَكَ بِشَــرِّ مَا عندَنَا، اللَّهُمَّ لا تَحرمْنَا خَيْرَ مَا عندَكَ بِشَرِّ مَا عندَنَا، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ كرمَكَ وجودَكَ ورحْمَتَكَ ولطفَكَ وبرَّكَ وإحسانَكَ، إلهَ الأولِيْنَ والآخرينَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ للمؤمنيْنَ والْمؤمناتِ، والْمســلميْنَ والْمســلماتِ، فرّجْ هَمَّ الْمهمومِيْنَ، ونفِّسْ كربَ الْمكروبِيْنَ واشفِ مرضَانَا ومرضَى الْمسلميْنَ، اللَّهُمَّ اشفِ مرضَانَا ومرضَى الْمسلميْنَ، اللَّهُمَّ اشفِ مرضَانَا ومرضَى الْمسلميْنَ، اللَّهُمَّ اشفِ مرضَانَا ومرضَى الْمسلميْنَ، وارحَمْ موتَانَا وموتَاهُم أجْمَعِيْنَ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وسَلامٌ عَلَى المُرسَلِيْنَ، والْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالِمِيْنَ.

رقم الدَّرس ٤٢٩

الأربعاء ٨-٩-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يقولُ الإمامُ الْحافظُ التِّرمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّخْصَةِ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ]**

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ بشَّارٍ ومحمودُ بنُ غيلانَ والْحسنُ بنُ عَليٍّ الْخلالُ قالُوا: حَدَّثَنَا أبو عاصمٍ النَّبِيّلُ حَدَّثَنَا سفيانُ عن علقمةَ بنِ مرثدٍ، عن سليمانَ بنِ بريدةَ، عن أبِيهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَقَدْ أُذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ، فَزُوْرُوْهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي البابِ عن أبي سعيدٍ وابنِ مسعودٍ وأنسٍ وأبي هُريرَةَ وأمِّ سلمةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جَمِيعًا-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ بُريدةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الْحمدُ للهِ ربِّ العالَمِيْنَ، والصلاةُ والسلامُ الأَتَمَّانِ الأكملانِ على خَيْرِ خلقِ اللهِ أجْمَعِيْنَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ سار على سبيلِهِ ونَهجِهِ واستَنَّ بسنتِهِ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فَقَدْ تَرْجَمَ الإِمَامُ الْحَافِظُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ التَّرْجَمَةِ والتي تتعلَّقُ بالرُّخصةِ في زِيَارَةِ الْقُبُور، وكانَ في أوَّلِ الإسلامِ نُهِيَ عَنْ زيارةِ الْقُبُور، كما تقدَّمَ معنَا في الْمجلسِ الْماضي، وذكرْنَا حديثَ أبي سعيدٍ الْخُدريِّ في الصَّحيحِ عنْهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ: ((**كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ**))، فهذا يدلُّ على أنَّ أوَّلَ الأمرِ كانَ مشتملاً عَلى النَّهي عَنْ زيارةِ الْقُبُورِ.

والسَّببُ في ذَلِكَ: أنَّهُم كانُوا حديثِي العهدِ بالْجاهليةِ، وخُشِيَ تعلَّقُ القُلُوبِ بالْقُبُورِ على وجهٍ يَحصُلُ بِهِ الْمحذُورِ.

ثُمَّ إنَّ اللهَ رَخَّصَ لعبادِهِ في زيارةِ الْقُبُورِ.

وزيارةُ الْقُبُورِ الشَّرعيَّةُ: هِيَ التِي تقومُ على اتِّباعِ الواردِ عَنْ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، بالسَّلامِ على الْمَيِّتِ، والسَّلامِ على الْمَوتَى، والدُّعاءِ لَهُم أنْ يسلِّمَهُم اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- مِنَ العذابِ،

وأنْ يرحَمَهُم برحْمتِهِ الواسعةِ.

فهذِهِ هِيَ الزِّيارةُ الشَّرعيَّةُ التِي يستفيدُ منْهَا الزَّائرُ، ويستفيدُ منْهَا الْمَزُورُ، وَهُوَ الْمَيِّتُ.

وهذا الْحديثُ يدلُّ على مشروعيةِ زيارةِ الْقُبُورِ كمَا ذكرْنَا، وَهُوَ آخرُ الأمرينِ مِنْ رسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يأخذونَ بالأَحْدَثِ فَالأَحْدَثِ مِنْ أَمْرِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-.

وقولُهُ: ((قَدْ أَذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ))؛ لأنَّ أُمَّهُ ماتَتْ قبلَ البعثةِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- ولَمْ تَمُتْ على الإيْمانِ والتَّوحيدِ، ولذَلِكَ استأذَنَ رَبَّهُ في زيارتِهَا.

وهذا هُوَ مذهبُ جُمهورِ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-؛ لأنَّهُ ثَبَتَ في الصَّحيحِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((أَنَّهُ استأذَنَ رَبَّهُ أنْ يستغفِرَ لَهَا، فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ))**، فهذا يدلُّ على أنَّهَا لَمْ تَمُتْ على التَّوحيدِ وَهُوَ مذهبُ جُمهورِ العلماءِ والأئمةِ.

وهكذا أَبوهُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- كمَا في الصَّحيحِ عَنْهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أنَّ حُصَيْنَ بْنَ عُبَيْدٍ، سألَهُ عَنْ أبيهِ؟ فقالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((هُوَ فِي النَّارِ))**، فلمَّا تَوَلَّى الرَّجُلُ، وفِي بعضِ الرِّواياتِ: **((أَنَّهُ تَوَلَّى يَبْكِي، فَرَدَّهُ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ))**.

فهذا هُوَ مذهبُ جُمهورِ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وكونُهُ يستأذِنُ بزيارةِ أُمِّهِ يدلُّ على أنَّ الأصلَ الْمنعُ، ولَمَّا كانَتْ زيارةُ قُبُورِ الكفَّارِ يَحصلُ بِهَا الاتعاظُ، ويتأمَّلُ الإنسانُ حالَ الْقَبْرِ والْمقبورِ، وهذا مِمَّا يعينُهُ على تَذَكُّرِ الآخرةِ، شُرِعَ للمسلمِ أنْ يزورَ الْقَبْرَ، وأنْ يتأثَّرَ بِهِ التَّأثُّرَ الشَّرعيَّ الْحاملَ على طاعةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ومرضاتِهِ.

وهذا هُوَ الأصلُ في زيارةِ الْقُبُورِ، والرُّخصةُ في زيارتِهَا؛ لقولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((فَزُوْرُوْهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ))**، وقولُهُ: **((فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ))** جُملةٌ تعليليَّةٌ، أي أَمَرْتُكُم بزيارةِ الْقُبُورِ؛ لأنَّهَا تُذَكِّرُ الآخرةَ.

والْمرادُ بتذَكُّرِ الآخرةِ: أنَّ الإنسانَ يتعظُ، ويدَّكِرُ حينمَا يرى الْمَيِّتَ مقبورًا، لا حِرَاكَ مِنْهُ، ولا يكونُ أيُّ شيءٍ مِنْهُ، بعدَ أنْ كانَ على تُرَابِ هذِهِ الدُّنيا يَصولُ ويَجولُ ويذهبُ ويأتي:

بَيْنَا اِمرُؤٌ بَيْنَ يَدَيْكَ حَيًّا إذ صِرْتَ لا تُبْصِرُ مِنهُ شَيًّا

أمَّا إذا كانَ مِنَ الأحبابِ والأصحابِ، أو كانَ مِنَ الأقرباءِ، أو كانَ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ فوَقْعُ ذَلِكَ على النَّفسِ عظيمٌ، فَهُوَ يُحرِّكُ القُلُوبَ لذكرِ الآخرةِ، وأنَّ هذِهِ الدُّنيا فانيةٌ، وأنَّهُ لا يدُومُ إلا اللهُ -جَلَّ جَلالُهُ- الَّذِي كَتَبَ على كُلِّ نفسٍ أنَّهَا ذائقةٌ الْموتِ.

فالْقُبُورُ تُحرِّكُ سَوَاكِنَ النُّفوسِ وتذكِّرُهَا بالإقبالِ على الْملكِ القُدُّوسِ، وتَكسِرُ الغرورَ في النُّفُوسِ والرُّكونَ إلى هذِهِ الدُّنيَا الفانيةِ.

بَلْ إنَّ الإنسانَ إذا نَظَرَ إلى أهلِ الْقُبُورِ، وكانَتْ قبورًا معروفةً، ويعرِفُ أهلَهَا، خاصَّةً إذا كانُوا مِنَ العُظماءِ، أو الوُجهاءِ، أو الأغنياءِ، إذا رآهُم ورَأَى قبورَهُم متدانيةً متقاربةً مَعَ الضُّعفاءِ والفقراءِ، والبؤساءِ، والْمساكِيْنِ، عَلِمَ حقارةَ هذِهِ الدُّنيَا، وعَلِمَ حقارةَ العبادِ، وعظمةَ رَبِّهِم -جَلَّ جَلالُهُ-، فكُلُّ هذا يُحرِّكُ النُّفُوسَ أنْ تتذَكَّرَ، وأنْ تتبَصَّرَ:

صَاحِ شَمِّرْ لا تَزَلْ ذَاكِرَ الْمَوْتِ فَـــنِسْيَانُهُ ضَلالٌ مُبِيْنُ
هَـــذِي قُبُوْرُنَا تَمْلأُ الرَّحْـبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
خَفِّفِ الْـوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيْمَ ال أَرْضِ إلا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

بَيَّنَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ أُذِنَ بزيارةِ الْقُبُورِ؛ لأنَّهَا تُذَكِّرُ الآخرةَ.

فالْمنبغي للمسلمِ إذا زَارَ الْقَبْرَ أنْ يتعظَ بِهِ وبأهلِهِ، وبِمَا صارُوا إليهِ، وأقبلُوا عليهِ: إنْ خَيْرًا فخيْرٌ وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ، ولذَلِكَ شُرِعَ للمسلمِ إذا مَرَّ بقُبُورِ الْمشركيْنَ والكفَّارِ أنْ يبشِّرَهُم بِمَا عندَ اللهِ مِنَ العقوبةِ، وإذا مَرَّ بقُبُورِ الْمسلميْنَ تَرَحَّمَ عليهِم ودَعَا لَهُم؛ تَأَسِّيًا بالنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

والعملُ على هذا عِندَ أهلِ العلمِ، لا يرونَ بزيارةِ الْقُبُور بأسًا، وَهُوَ قولُ ابنِ الْمباركِ والشَّافِعيِّ وأحْمَدَ وإسحاقَ.

الشَّرْح:

هذا مذهبُ جَماهيْرِ العلماءِ والأئمةِ مِنَ السَّلَفِ والْخلفِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعيْنَ ومَنْ بعدَهُم.

وقولُهُ في اللَّفظِ الآخرِ في الصَّحيحِ: ((**كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ**)) هذا مِمَّا يدلُّ على النَّسخِ.

والنَّاسِخُ والْمنسوخُ: يُعرَفُ تارَةً بصريحِ اللَّفظِ، كقولِهِ: ((**كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ**))، **وقد يُعرَفُ** بتأخُّرِ إسلامِ الصَّحابِي، **أو** يُخبِرُ الصَّحابِيُّ عَنْ كونِهِ نَاسِخًا، كقولِ أُمِّ الْمؤمنيْنَ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في

مسألتِنَا: ((**لكنَّهُ قَالَ بَعْدُ**))، فهذا يدلُّ على النَّسخِ، فهذِهِ مِنَ الدَّلائلِ التِي يُستدَلُّ بِهَا على كونِ الْحديثِ نَاسِخًا.

يقولُ الإمامُ الْحافظُ التِّرمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الزِّيَارَةِ لِلقُبُورِ للنِّسَاءِ]**.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا الْحسينُ بنُ حريثٍ أخبَرنا عيسى بنُ يونسَ عن ابنِ جريجٍ، عن عبدِاللهِ بنِ أبي مُليكةَ قال: تُوُفِّيَ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أبي بكرٍ بِحُبْشِيّ، قال: فحُمِلَ إلى مَكَّةَ، فدُفِنُ فيهَا، فلمَّا قَدِمَتْ عائشةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَتَتْ قَبْرَ عبدِالرحمن بنِ أبي بكرٍ فقالتْ:

وَكُنَّا كَنَدمَانَيْ جَذِيْمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيْلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّيّ وَمَالِكاً لِطُولِ اجتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

ثُمَّ قالت: واللهِ، لو حَضَرْتُكَ مَا دُفِنْتَ إلاَّ حَيْثُ مُتَّ، وَلَوْ شَهِدْتُكَ مَا زُرْتُكَ.

الشَّرْح:

تُوُفِّيَ عبدُالرَّحْمنِ بْنُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وَهُوَ أَخُو أُمِّ الْمؤمنيْنَ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، وابْنُ صـدِّيقِ الأُمَّةِ -رَضِـيَ اللهُ عَنْ الجَمِيْعِ وَأَرْضَـاهُمْ وَجَعَلَ أَعَالِيَ الفُرْدَوْسِ مَسْـكَنَهُمْ وَمَثْوَاهُمْ-، صَحَابِيٌّ، وابْنُ صَحَابِيّ، وجَدُّهُ صَحَابِيٌّ، وأُمُّهُ صَحَابِيَّةٌ، وقَلَّ أنْ يَجتمِعَ هذا لغيْرِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ وَأَرْضَـاهُ-، وكـانَـتْ وفـاتُـهُ في أَوَاخِرِ عـهـدِ معـاويـةَ -رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ-.

وذَكَرَتْ قصَّةً في وقوفِهِ لِمعاويةَ وإبائِهِ في بيعةِ يزيدَ، ثُمَّ إنَّهُ لَمَّا أَبَى عليهِ خَرَجَ إلى مَكَّةَ وتُوُفِّيَ:

إمَّا بالْحُبْشِيّ، وَهُوَ على مشارفِ مَكَّةَ، وهُوَ دَاخِلَ مَكَّةَ:

قِيلَ: داخلَ حُدُودِ الْحَرَمِ، **وقِيلَ**: خارجَهَا على بُعْدِ خَمْسَةَ عَشَرَ مِيلاً، **وقِيلَ**: اثْنَي عَشَرَ مِيلاً، **وقِيلَ**: تُوُفِّيَ على بُعْدِ عَشَرَةِ أميالٍ مِنْ مَكَّةَ.

ولَمَّا تُوُفِّيَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حُمِلَ إلى مَكَّةَ وَدُفِنَ فيهَا، وزَارَتْهُ أُمُّ الْمؤمنيْنَ عائشةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-؛ لأنَّهَا لَمْ تَحْضُرْ وفاتَهُ، وقالَتْ هذا البيتَ، وَهُوَ لتَمِيْمِ بْنِ نُوَيْرَةَ يَرثِي أخاهُ مَالِكَ بْنَ نُويرةَ:

وَكُنَّـا كَنَدمَانَيْ جَذِيْمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيْلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا

فَــلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّيّ وَمَالِكاً لِـطُولِ اجتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

هذا يرثي فيهِ أخاهُ مالكَ بْنَ نُويرةَ الَّذِي قتلَهُ خالدُ بْنُ الوليدِ في خلافةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ.

وقولُهُ: (**كُنَّا كَنَدمَايَيْ جَذِيْمَةَ حِقْبَةً**)، أي مدَّةً مِنَ الدَّهْرِ.

والنَّدَامَى والنَّديْمُ كانَ صاحبًا للمَلِكِ، أو ذو الرِّئاسةِ يُجالسُهُ، أو يسامرُهُ، وكانُوا يَختارُونَ للعظماءِ جُلاسًا وأصحابًا يسامروهَم، ويُحدثونَهُم بالأحاديثِ.

وكانَ هذانِ الرَّجُلانِ عَقِيْلٌ ومَالِكٌ مَعَ جَذِيْمَةَ أربعيْنَ سَنَةً، وضُرِبَ بِهِمُ الْمثلُ في طُولِ الصُّحبةِ، فقالَ الشَّاعرُ هذا يرثي حالَهُ مَعَ أخيهِ مَالِكِ بْنِ نُويرةَ:

وَكُنَّا كَنَدمَايَيْ جَذِيْمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيْلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا

(**وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا**) عِشْنَا بِخيْرٍ، عِشْنَا حياةً جَميلةً وذكرياتٍ طيّبَةً.

(**وَقَبْلَنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا**): وكأنَّهُ يشيْرُ إلى أنَّ الفِراقَ سُنَّةَ الْحياةِ، بَلْ هُوَ سُنَّةَ اللهِ -جَلَّ جَلالُهُ- الَّذِي خَلَقَ الْحياةَ والأحياءَ، كَتَبَ الفِراقَ على الأحياءِ.

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّيّ وَمَالِكاً لِطُولِ اجتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

(**كَأَنِّيّ وَمَالِكـــاً لِطُولِ**) **قِيلَ**: لطولِ اللامُ، بِمعنَى (مَعَ) أي (مَعَ طُولِ) كقولِهِ تعالى: **{أَقِمْ الصَّـلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ}** أي مَعَ دُلُوكِ الشَّمَسِ.

وقِيلَ: لطولِ، أي (بَعْدَ طُولِ)، اللامُ بِمعنَى (بَعْدَ)، وَهُوَ أَحَدُ الأوجهِ في قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- : ((**صُومُوا لِرُؤَيَتِهِ**))، أي (بَعْدَ رؤيتِهِ).

وهذا البيتُ يُستشهَدُ بِهِ على أنَّ الصُّحبةَ لا بُدَّ فيهَا مِنَ فِراقٍ، وأنَّ الصَّاحبَ لا بُدَّ وأنْ يُفارِقَ مَنْ يصاحبُهُ، فمهمَا عَاشَ الإنسانُ مَعَ مَنْ عَاشَ مِنْ قريبٍ أو بعيدٍ، ومِنْ صاحبٍ ومِنْ حبيبٍ فلا بُدَّ أنْ يفارقَهُ.

وهذا مِنَ الشَّاعرِ تَأَلُّمٌ، وكأنَّهُ يُبَيِّنُ أنَّهُ إذا حَصَلَ الفِراقُ كأنَّهُ لَمْ يَعِشْ لَحظةً مَعَ مَنْ صَحِبَهُ، وهذا كُلُّهُ يذكرُهُ العلماءُ، ويذكرُهُ الأدباءُ؛ تَحذيرًا للإنسانِ مِنْ أنْ يَغتَرَّ؛ لأنَّ العُقلاءَ ومَنْ رَزَقَهُمُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- العقلَ والْحكمةَ لا يغترُّونَ بشيءٍ؛ لأنَّ طولَ الاجتماعِ، وطولَ الصُّحبةِ قدْ تُورِثُ الإنسانَ الغرورَ، وقدْ يَظُنُّ أنَّهُ لَنْ تَزولَ هذِهِ الصُّحبةُ، ولَنْ يُفارقَ مَنْ صَحِبَهُ، ولكنْ يَأْبَى اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إلا أنْ تكونَ سنتُهُ بفراقِ الْمصاحبِ، والْحبيبِ، والقريبِ، ولذَلِكَ يعيشُ الإنسانُ مَا عَاشَ، وَيصحبُ مَنْ صَحِبَ،

فَلا بُدَّ للعيشِ مِنَ الْموتِ، ولا بُدَّ للصَّاحبِ مَعْ صاحبِهِ مِنَ الفِراقِ.

وتَمَثَّلَتْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- بِهذا البيتِ على عادةِ العربِ، أَنَّهُم يتمثَّلُونَ بالأبياتِ الْمناسبةِ في الْمقامِ الْمناسبِ، فهِيَ هُنَا تشتكي أَنَّهَا كانَتْ مَعَ أخيهَا، وكانَ عبدُ الرَّحْمَنِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بَارًّا بوالدِهِ أبي بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وكانَ لَهُ مصاحبًا ملازمًا لأبيهِ، وكانَ أبوهُ أبو بكرٍ يعتمدُ عليهِ بعدَ اللهِ في أمورٍ كثيْرةٍ، وكانَتْ أُمُّ الْمؤمنيْنَ عائشةُ مَعَ أخيهَا، فلمَّا تُوُفِّيَ أبو بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كانَ عبدُ الرَّحْمَنِ وفيًّا لأختِهِ أُمِّ الْمؤمنيْنَ، وكانَ ملازمًا لَهَا، وهذا لا شَكَّ أَنَّهُ لَهُ وَقْعٌ كبيْرٌ في النُّفُوسِ، ولذَلِكَ تَأَلَّمَتْ لفراقِهِ، وانصدَعَ قلبُهَا لوداعِهِ، وقالَتْ هذا البيتَ تتمثَّلُ حالَهَا مَعَهُ، وقالَتْهُ بَعْدَ أنْ نُقِلَ إلى مَكَّةَ وعَتِبَتَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنَّهُم نقلُوهُ إلى مَكَّةَ.

وفي هذا مسألةٌ: وهِيَ أنَّ السُّنَّةَ في الْمَيِّتِ إذا ماتَ أنْ يُدفَنَ في الْموضعِ الَّذِي مَاتَ فيهِ.

وهذا هُوَ الْمحفوظُ مِنْ هديِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ولذَلِكَ لَمَّا حُمِلَ شُهَداءُ أُحُدٍ إلى الْمدينةِ، وأرادَ بعضُ الأقرباءِ أنْ يدفِنُوا أقرباءَهُم في الْمدينةِ، نادى منادي النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**رُدُّوا الْقَتْلَى إِلَى مَضَاجِعِهِمْ**))، فهذِهِ هِيَ السُّنَّةُ أنَّ الإنسانَ يُدفَنُ حيثُ ماتَ.

ولكنْ إذا تُوُفِّيَ بِجوارِ أرضٍ صالِحةٍ، كمَكَّةَ والْمدينةِ، فيُشرَعُ لَهُ النَّقْلُ.

والأصلُ في ذَلِكَ: مَا ثَبَتَ في الصَّحيحِ مِنْ حديثِ مُوسى -عَلَيهِ السَّلامُ- أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوفاةُ، كمَا في صحيحِ البُخاريِّ وغيْرِهِ أَنَّهُ: ((**سَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ**))، وكانَتْ وفاتُهُ في سِيْنَاءَ في التِّيْهِ الَّذِي كَتَبَهُ اللهُ على بَنِي إسرائيلَ.

ومِنْ هذا أَخَذَ العلماءُ مشروعيةَ ومَحبةَ الدَّفْنِ في الأرضِ الْمقدَّسةِ، كمَكَّةَ، والْمدينةِ، وبيتِ الْمَقدِسِ.

وليس معنَى هذا أنَّ الأرضَ تُقدِّسُ أهلَهَا، ولكنَّهُ أصلٌ أَنَّهُ إذا خُيِّرَ الإنسانُ بَيْنَ أرضٍ لَهَا فَضْلٍ بِنَصِّ الشَّرْعِ، وأرضٍ لا فَضْلَ لَهَا، قَدَّمَ التي لَهَا فَضْلٌ دُوْنَ اعتقادِ أنَّ هذا ينجيهِ مِنَ النَّارِ، أو يكونَ لَهُ مَزيةٌ، إلا مَا دَلَّ النَّصُّ عليهِ.

وعبدُ الرَّحْمنِ بْنُ أبي بكرٍ حَمَلَهُ النَّاسُ إلى مَكَّةَ، ولَمْ يُنكَرْ هذا، وهذا قدْ يدلُّ على أَنَّهُ جائزٌ، وَهُوَ خِلافُ الأولى؛ لأنَّهُ لَمْ يَحصلْ إنكارٌ، وإلا لو كانَ مُحرَّمًا لَمَا سَكَتَ العلماءُ؛ لأنَّ هذا كانَ في زمانٍ فيهِ الصَّحابةُ، وفيهِ أئمةُ التَّابعيْنَ، ومِثْلُ هذا يَشتَهِرُ؛ لأنَّ عبدَالرَّحْمنِ بْنَ أبي بكرٍ مِنْ وُجَهاءِ قُريشٍ، ومِنْ أعيانِ قُريشٍ، ومِنْ أعيانِ الصَّحابةِ الْمعروفيْنَ، فَلَمْ يُنكِرْ أَحَدٌ نَقْلَهُ إلى داخلِ مَكَّةَ، والَّذِين نَقَلُوهُ نَقَلُوهُ على مَرْأَى ومشهدٍ مِنْ أهلِ مَكَّةَ؛ ولأنَّهُم صَلَّوا عليهِ بِمَكَّةَ.

فالْمقصودُ مِنْ هذا قدْ يدلُّ على أنَّهُ خِلافُ الأَوْلَى.

ومِمَّا يدلُّ على جوازِ النَّقْلِ: أنَّ سعدَ بْنَ أبي وقاصٍ حُمِلَ مِنْ مزرعتِهِ بالعقيقِ إلى البقيعِ، وصُلِّيَ عليهِ بالْمدينةِ، ودُفِنَ بالبقيعِ، معَ أنَّ العقيقَ بعيدٌ عَنْ مساكنِ الْمدينةِ كمَا هُوَ معلومٌ.

ومثلُهُ سعيدُ بْنُ زيدِ بْنُ عمرِو بْنُ نُفَيْلٍ، فإنَّهُ أَمَرَ ابنَهُ أنْ يوصِيَ قومَهُ وبَنِي عمِّهِ أَنْ يَحمِلُوهُ على أعناقِهِم إلى الْمدينةِ، وقصرُهُ معروفٌ بِجوارِ الْجامعةِ الإسلاميَّةِ اليومَ بِحذاءِ القصرِ، موجودٌ حَتَّى آثارُهُ باقيةٌ إلى اليومِ، حُمِلَ مِنْ هذا الْموضعِ وَهُوَ لا يَقِلُّ عَنْ أربعةِ كيلو متراتٍ إلى الْمدينةِ، وحُمِلَ على أعناقِ الرِّجَالِ، وقالَ في وصيتِهِ: (**قُلْ لِبَنِي عَمِّي يَحملُونِي عَلَى أَكْتَافِهِمْ؛ فَإِنَّهُ يسيْرٌ فِيْمَا صَنَعْتُهُ مَعَهُمْ**) أي مِنَ الْجمائلِ التي صنَعَهَا مَعَهُم في حياتِهِ، وأَنَّهُم لا يستكثِرُونَ عليهِ ذَلِكَ، فحُمِلَ على أعناقِ الرِّجَالِ.

ومثلُهُ أُسامَةُ بْنُ زَيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيْهِ-، فإنَّهُ حُمِلَ مِنْ أرضِهِ ومسكنِهِ بالْجُرْفِ؛ لأنَّهُ تُوُفِّيَ بالْجُرْفِ، وبَيْنَ الْجُرْفِ وبَيْنَ الْمدينةِ مسافةٌ.

فهذا أَخَذَ مِنْهُ طائفةٌ مِنَ العلماءِ دليلاً على مشروعيةِ النَّقْلِ.

ويَرِدُ السُّؤَالُ: هَلِ الْعِبْرَةُ بِقِصَرِ الزَّمَانِ؟ لأنَّ النَّقْلَ مِثْلُ هذا لا يَحصُل مَعَهُ للمَيِّتِ تَغَيُّرٌ أو تَعَفُّنٌ، أمَّا إذا حَصَلَ للمَيِّتِ تَغَيُّرٌ، أو تَعَفُّنٌ، أو تَضَرَرَتِ الْجُثَّةُ: فَلا يَجوزُ، فإنَّهُ في هذِهِ الْحالةِ حُرمةُ الْمَيِّتِ معتبَرةٌ، فيُدفَنُ حَيْثُ تُوُفِّيَ، ويُقبَرُ حيثُ مَاتَ.

وأَمَّا إذا كانَ النَّقْلُ يُؤْمَنُ مَعَهُ التَّغَيُّرُ: فإنَّهُ يُنقَلُ الْمَيِّتُ، ولا بأسَ بذَلِكَ، ولا حَرَجَ.

في هذا الْحديثِ قالَتْ: ((**لَوْ شَهِدْتُكَ لَمَا زُرْتُكَ**)) في بعضِ الرِّواياتِ، وفي بعضِهَا أنَّهُ عُتِبَ عليها زيارتُهَا لأخيهَا، وأنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- نَهَى عَنْ زيارةِ الْقَبْرِ، قالَتْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**لَكِنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُوْرُوْهَا**))؛ فدلَّ على أنَّ مذهبَهَا جوازُ زيارةِ النِّسَاءِ للقُبُورِ، وهذا هُوَ مذهبُ جُمهورِ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وستأتي الْمسألةُ في بابِهَا.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَّةِ زِيَارَةِ الْقُبُورِ لِلنِّسَاءِ]**

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا قُتَيبَةُ حَدَّثنا أبو عوانةَ عن عمرَ بنِ أبي سلمةَ، عن أبِيهِ ، عن أبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أنَّ رسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **لَعَنَ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ**)).

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن ابنِ عبَّاسٍ، وحسَّانَ بنِ ثابتٍ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

ترجمَ الإمامُ التِّرمذيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذِهِ التَّرجَمةِ، والتِي تتعلَّقُ بزيارةِ الْقُبُورِ للنِّساءِ.

والكراهيَّةُ هُنَا: -عندَ مَنْ يقولُ بِمَنْعِ زيارةِ الْقُبُورِ للنِّساءِ- كَرَاهَةُ تَحرِيْمٍ.

وأَخَذُوا ذَلِكَ: مِنَ الوعيدِ في نَهيِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- عَنْ زيارةِ النِّساءِ للقُبُورِ في قولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لَعَنَ اللهُ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ**)) وَ ((**زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ**)).

فقالُوا: إنَّ هذا يدلُّ على التَّحريْمِ، **وَهُوَ مذهبُ الْحنابلةِ وطائفةٍ في الْمشهورِ.**

وذهبَ جُمهورُ العلماءِ إلى جوازِ زيارةِ النِّساءِ لِلقُبُورِ.

فأَمَّا ترجَمَةُ البابِ **[في كراهيَّةِ زيارةِ النِّساءِ لِلقُبُورِ]** فهذِهِ الكراهيَّةُ مبنيَّةٌ **على دليلِ النَّقْلِ والعَقْلِ أَمَّا دليلُ النَّقْلِ:** فالْحديثُ الواردُ في نَهيِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ولَعْنِهِ للنِّساءِ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ.

وأَمَّا دليلُ العَقْلِ: فإنَّ الْمرأةَ ضعيفةٌ، وإذا زَارَتِ الْقَبْرَ فإنَّهُ لا يُؤْمَنُ منْهَا الصُّرَاخُ، والعويلُ، وشقُّ الْجيبِ، وحَلْقُ الشَّعْرِ، كمَا كانَ يفعلُهُ أهلُ الْجاهليَّةِ؛ لأنَّهَا لا تَتَمَالَكُ نفسَهَا، وهِيَ ضعيفةٌ، ولذَلِكَ لا يُؤْمَنُ منْهَا حُصُولُ الْمحذورِ، فقُدِّمَ درءُ الْمفاسدِ على مصلحةِ زيارةِ الْقَبْرِ، لأنَّ مصلحةَ زيارة الْقَبْرِ في جَنْبِ هذِهِ الْمفاسدِ إذا وَقَعَتْ فإنَّهَا يسيْرَةٌ، ولذَلِكَ قُدِّمَ درءُ الْمفسدةِ على جَلْبِ الْمصلحةِ.

وأَمَّا الَّذِين قالُوا بِجوازِ الزِّيارةِ، فقالُوا: إنَّ الأحاديثَ صحيحةٌ بِجوازِ زيارةِ الْمرأةِ للقُبُورِ.

وهذا القولُ **هُوَ أَرْجَحُ القولَيْنِ**؛ وذَلِكَ:

أَوَّلاً: لأنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ: ((**كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلا فَزُوْرُوْهَا**))، وهذا عامٌّ شاملٌ للذُّكُورِ والإناثِ، ولَمْ يَقُلْ: (إلا النِّسَاءَ).

وثانيًا: أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَلَّلَ بعلّةٍ، فقالَ: ((**فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**)) أي أَمَرْتُكُم بزيارتِهَا؛ منْ أجلِ أنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ، وهذا يستوي فيهِ الرِّجَالُ والنِّساءُ، بَلِ النِّساءُ أحوجُ لكثرةِ غفلتِهِنَّ بالنِّسبةِ للرِّجَالِ.

وأَمَّا الأمرُ الثَّالث: فإنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ثَبَتَ عَنْهُ في الصَّحيحيْنِ مِنْ حديثِ أَنسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَنَّهُ مَرَّ عَلَى امْرَأَةٍ وهِيَ تبكي عندَ الْقَبْرِ، فقالَ: يَا أَمَةَ اللهِ، اصْبِرِي، فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَلَسْتَ أَنْتَ الْمُصَابُ، فَقِيْلَ لَهَا لَمَّا تَوَلَّى: هَذَا رَسُوْلُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) فَجَاءَتْ إِلَى بِيْتِهِ تَعْتَذِرُ.

وترجمَ لَهُ الإمامُ البُخاريُّ: (**بَابُ زِيَارَةِ الْقُبُورِ**)، وجَعَلَ الْحُكمَ عَامًّا مِمَّا يُستفادُ مِنَ الْحديثِ وكذَلِكَ أيضًا أُمُّ الْمؤمنيْنَ عائشةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- بَيَّنَتْ هَلِ الَّذِي تقدَّمَ النَّهي أو الَّذِي تقدَّمَ الإذنُ والإباحةُ؟ فلمَّا زَارَتْ أخاهَا بعدَ وفاةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وهِيَ مِنْ أقربِ النَّاسِ إلى رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وأعلمُ بسنتِهِ، وقدْ رَوَتْ زيارتَهُ للبقيعِ ولأهلِ البقيعِ، كمَا في حديثِ مسلمٍ وغيْرِهِ، قالَتْ حينمَا ذُكِرَ لَهَا نَهيُهُ لزيارةِ الْقُبُورِ مِنَ النِّساءِ، قالَتْ: ((**لَكِنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُوْرُوْهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**))، فأَثْبَتَتْ أَنَّ نَهيَ النِّساءِ عَنِ الزِّيارةِ إِنَّمَا هُوَ منسوخٌ، وليسَ بِمحكَمٍ، ولذَلِكَ **يترجَّحُ مذهبُ الْجُمهور**.

ولكنْ في هذا الزَّمانِ: الَّذِي كَثُرَ فيهِ الفَسَادِ، حَتَّى قَلَّ أنْ يَسلَمَ النَّاسُ مِنْ فتنةِ النِّساءِ وهُم في الْمساجدِ فضلاً عَنِ الْقُبُورِ، لا شَكَّ أنَّ الْميلَ إلى مَنْعِ ذَلِكَ إلا في حُدُودٍ ضيِّقةٍ **هُوَ الأَقْرَبُ والأَصْلَحُ**؛ لأنَّ النِّساءَ لا يُضْمَنُ مِنْهُنَّ كثيْرٌ مِنَ الفسادِ، وقَلَّ أنْ تُسمَعَ النَّصيحةُ.

وأمَّا مِنْ حيثُ الأصلِ فدليلُ الْجُمهورِ **أَقْوَى وَأَرْجَحُ** مِنَ حيثُ الدَّليلِ، وهو الأقوى.

ثُمَّ أُجِيْبَ عَنْ حدِيْثِنَا وغَيْرِهِ مِنَ الأحاديثِ: بأنَّهُ قَالَ: ((**زَوَّارَاتِ**))، وهِيَ صيغةُ مبالغةٍ تدلُّ على أنَّهُنَّ يُكْثِرْنَ الزِّيارةَ، وحينئذٍ يكونُ النَّهيُ لنوعٍ خَاصٍّ مِنَ النِّساءِ، ويكونُ أَخَصَّ مِنَ الدَّعوى؛ لأنَّ الوعيدَ وَرَدَ لطائفةٍ، وهُنَّ: ((**زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ**)) الَّلاتِي يُكْثِرْنَ الزِّيارةَ، ولا تُكثِرُ الْمرأةُ الزِّيارةَ إلا مِنَ التَّجَزُّعِ والسُّخْطِ، ونَحوِ ذَلِكَ مِمَّا لا يُؤْمَنُ مَعَهُ الْمحذورُ.

ولذَلِكَ أدلةُ القائليْنَ بالْجوازِ **أَقْوَى وَأَرْجَحُ**؛ لِهذِهِ الوُجُوهِ التِي ذَكَرْنَاهَا.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وقدْ رَأَى بعضُ أهلِ العلمِ، أنَّ هذا كانَ قبلَ أنْ يرخِّصَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في زيارةِ الْقُبُورِ، فلمَّا رخَّصَ دَخَلَ في رخصتهِ الرِّجالُ والنِّساءُ.

وقالَ بعضهُم: إنَّمَا كُرِهَ زيارةُ الْقُبُورِ لِلنِّساءِ، لقلّةِ صَبْرِهِنَّ، وكَثْرَةِ جَزعِهِنَّ.

الشَّرْح:

القولُ الأوَّلُ: قولُ الْجُمهورِ، أنَّ هذا كانَ قبلَ نَهيِهِ.

والقولُ الثَّاني: إنَّمَا نُهِيَ، هُوَ قولُ مَنْ يقولُ بالْمنعِ، وَهُوَ قولُ الْحنابلةِ وطائفةٍ؛ لأنَّ العلّةَ كونُهُنَّ يَجْزَعْنَ، ويَحصُلُ مِنْهُنَّ الْمحظورُ حاصلةٌ في كُلِّ زمانٍ وكُلِّ مَكانٍ، والشَّريعةُ تُعَلِّقُ الْحكمَ على الغالبِ، فالغالبُ على النِّساءِ الْجَزَعُ، ولذَلِكَ كونُ بعضِهِنَّ يصبْرُ، أو لا يَحصُلُ مِنْهُنَّ الْمحظورُ هذا قليلٌ، والعِبْرَةُ بالأغلبِ والكثيْرِ، والنَّادرُ لا حُكْمَ لَهُ.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الدَّفْنِ بِاللَّيْلِ]**.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أبو كريبٍ ومُحَمَّدُ بنُ عمرٍو السَّوَّاقُ قالا: حَدَّثنا يَحيَى بنُ اليمانِ عن الْمِنهالِ بنِ خليفةَ، عن الْحَجَّاجِ بنِ أرطأةَ، عن عطاءٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **دَخَلَ قَبْراً لَيْلاً، فَأُسْرِجَ لَهُ سِرَاجٌ، فَأَخَذَهُ مِنْ قِبَلِ الْقِبْلَةِ وَقَالَ: رَحِمَكَ اللهُ! إِنْ كُنْتَ لأَوَّاهًا، تَلاَّءً لِلقُرْآنِ، وَكبَّرَ عَلَيهِ أَرْبَعًا**)).

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن جابرٍ ويزيدَ بنِ ثابتٍ، وَهُوَ أخو زيدِ بنِ ثابتٍ، أكبْرُ مِنْهُ.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ ابنِ عبَّاسٍ حديثٌ حسنٌ.

الشَّرْح:

ترجمَ الإمامُ التِّرمذيُّ بِهذِهِ التَّرجَمةِ، والتِي تتعلَّقُ بِجوازِ الدَّفنِ في الليلِ، **وهذا هُوَ مذهبُ جَماهيْرِ العلماءِ** -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

وكَرِهَ بعضُ السَّلَفِ الدَّفْنَ ليلاً، ويُحكَى عَنْ بعضِ أصحابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-. وجُمهورُ العلماءِ على جوازِ الدَّفنِ ليلاً ونَهَارًا، وأنَّهُ إذا ماتَ بالليلِ فإنَّهُ يُدفَنُ؛ لأنَّ الأصلَ الإسراعُ بالْجنازةِ؛ لقولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ**)).

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا يَحِلُّ لِجِيْفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تَبْقَى بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِهِ**)).

فالأصلُ الْمبادرةُ بالْجنائزِ، فإذا تُوُفِّيَ بالليلِ فإنَّهُ يُدْعَى مَنْ حَضَرَ ويُغَسَّلُ ويُكَفَّنُ، ثُمَّ يُصَلَّى عليهِ ثُمَّ يُدفَنُ، والنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- دَفَنَ بالليلِ، فدلَّ على جوازِ الدَّفْنِ ليلاً، ولو كانَ في الدَّفْنِ بالليلِ مَحظورٌ لامتَنَعَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- مِنْ دَفْنِ هذا الصَّحابِيِّ بالليلِ، ودُفِنَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ليلاً.

فالْمقصودُ: أنَّ الدَّفْنَ بالليلِ جائزٌ.

وقالَ بعضُهُم -مِمَّنْ مَنَعَ الدَّفْنَ بالليلِ-: أنَّ ملائكةَ النَّهارِ أرحمُ مِنْ ملائكةِ الليلِ.

وهذا أَمْرٌ لا يَجوزُ حكايتُهُ، ولا قولُهُ إلا بسندٍ صحيحٍ؛ لأنَّهُ لا يَجوزُ الْخوضُ في الأمورِ الغيبيَّةِ كأُمُورِ البَرْزَخِ وأمورِ الْقُبُورِ إلا بدليلٍ شرعيٍّ، فإذا لَمْ يُوجَدْ دليلٌ شرعيٌّ فإنَّهُ لا يُعَوَّلُ على مِثْلِ هذا، فليسَ

هُنَاكَ دليلٌ يدلُّ على أنَّ الدَّفْنَ بالليلِ ملائكتُهُ أَشَدُّ مِنْ ملائكةِ النَّهارِ، واللهُ عَدْلٌ ووَصَفَ نفسَهُ بالعَدْلِ، وأنَّهُ لا يَظْلِمُ النَّاسِ شيئًا، وأنَّ كُلاً مَجْزِيٌّ بعملِهِ: إنْ خَيْرًا فخيْرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، ولا يَضُرُّهُ إنْ دُفِنَ بالليلِ أو دُفِنَ بالنَّهارِ، فلذَلِكَ لا مُعَوْلَ على هذِهِ الأمورِ.

وهذا الْحديثُ يدلُّ على مشروعيةِ الدَّفْنِ بالليلِ.

وفيهِ دليلٌ على أَخْذِ السُّرُجِ أثناءَ الدَّفْنِ؛ لأنَّهُ لا يُمكِنُ الدَّفْنُ إلا بِسِرَاجٍ.

والنَّهيُ عَنِ اتِّبَاعِ الجْنازةِ بالنَّارِ الْمرادُ بِهِ: ما يُفعَلُ على سبيلِ أهلِ الشَّركِ والوثنيةِ أنَّهُم كانُوا يفعلُونَ ذَلِكَ بِجنائزِهِم.

وأمَّا مَا كانَ لغرضٍ صحيحٍ، مِثْلُ أنْ تكونَ الْقُبُورُ مظلمةً، فيحتاجُ إلى سِرَاجٍ؛ خشيةَ أنْ يَطَأَ الْقَبْرَ، وخشيةَ أنْ يقعَ في حُفرةٍ، وخشيةَ أنْ تُؤذيَهُ هُوَامٌ موجودةٌ في الْقَبْرِ، فيُؤخَذُ السِّرَاجُ مِنْ أجلِ أنْ يُنِيْرَ مكانَ الْقَبْرِ؛ ليُنزَلَ الْمَيِّتُ ويُدفَنَ، كُلُّ هذِهِ مقاصدُ، ومصالِحُ شرعيةٌ يُحتاجُ إليها في ظلامِ الليلِ، فأَخْذُ السِّرَاجِ وإيقادُ السُّرُجِ مِنْ أجلِ هذا لا بأسَ بِهِ.

وأَمَّا إيقادُ السُّرُجِ على الْقُبُورِ وإسراجُ النَّارِ عندَهَا: فإنَّهُ لا يَجوزُ، ولذَلِكَ ((**لَعَنَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِيْنَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**))، فإذا كانَ إسراجُ السِّراجِ، وإيقادُ النَّارِ لغرضٍ صحيحٍ فلا بأسَ بذَلِكَ، ولا حَرَجَ فيهِ.

وكونُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يُثْنِي على الرَّجُلِ أنَّهُ كانَ أَوَّاهًا، تَلاءً لِلقُرْآنِ، **الأَوَّاهُ:**

قِيْلَ: كثيْرُ الضَّـــراعةِ، يُقالُ: "أَوَّاهٌ": إذا أَكْثَرَ التَّضَـــرُّعَ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، **وقِيْلَ:** إذا أَكْثَرَ الدُّعاءَ.

وقِيْلَ: إذا أَكْثَرَ البُكاءَ يُوصَفُ بكونِهِ أَوَّاهًا، قالَ تعالى: **{إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ لأَوَّاهٌ حَلِيْمٌ}**.

فالأَوَّاهُ: هُوَ كثيْرُ البُكاءِ، **أو** كثيْرُ الدُّعاءِ، **أو** كثيْرُ التَّضَرُّعِ للهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وفي هذا دليلٌ على مشروعيةِ التَّزكيةِ، أنَّهُ يُزَكَّي الإنسانُ، إذا عُرِفَ مِنْهُ الْخَيْرَ، وبعدَ موتِهِ، أَذِنَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **بتزكيةِ الْمَيِّتِ في الْحُدودِ الشَّرعيَّةِ:**

فيُزَكَّى لا على سبيلِ الْمجاملةِ لأهلِهِ، **ولا يُزَكَّى** بأكثرَ مِمَّا هُوَ فيهِ، مِثْلُ أنْ يُبالَغَ في تزكيتِهِ، **ولا يُزَكَّى** بِمَا لَيْسَ فيهِ.

فهذا كُلُّهُ مِنَ الضوابطِ الشَّرعيَّةِ.

أَوَّلا: أنْ يُزَكَّى بِمَا فيهِ، **وثانيًا:** أنْ لا يُبالَغَ في التَّزكيةِ، فيتجاوزُ الْحَدَّ الْمعتبَرَ شرعًا، كأَنْ يُقالُ: (هذا

أَعْلَمُ مَنْ في الأرضِ، وأخشى مَنْ على الأرضِ، وهذا بقيَّةُ السَّلَفِ، وهذا كَذَا) مِنَ الْمبالغةِ فِي الثَّناءِ والإطراءِ، (وهذا العَلامَةُ، وهذا كَذَا)، هذا كُلُّهُ مِنَ الْمبالغةِ.

ينبغي أنْ تكونَ التَّزكيةُ مضبوطةً بالضَّوابطِ الشَّرعيَّةِ التِي لا يُتجاوزُ فيهَا، ولا يُبالَغُ فيهَا.

وقَدْ أَقَرَّ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- التَّزكيةَ كمَا في حديثِ عُمَرَ في الصَّحيحِ أنَّهُ قَالَ: ((**هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةَ**)).

والأصل: أنَّهُ لا تَجوزُ التَّزكيةُ إلا مِنْ حاجةٍ، بالنِّسبةِ للحَيِّ لا تَجوزُ تزكيتُهُ إلا مِنْ حاجةٍ، خاصَّةً إذا كانَتِ التَّزكيةُ في الوَجْهِ، فَلا يُثْنَى على الرَّجُلِ في وجهِهِ إلا لغرضٍ شرعيٍّ، **مِثْلُ**:

أنْ يُثْنَى عليهِ على علمِهِ؛ مِنْ أجلِ أنْ يُعمَلَ بذَلِكَ العِلمِ.

وأنْ يُثْنَى على صلاحِهِ؛ مِنْ أجلِ أنْ يكونَ قدوةً للغيْرِ.

وأنْ يُثْنَى على استقامتِهِ؛ مِنْ أجلِ أنْ يَثْبِتَ على هذِهِ الاستقامةِ، هذا لا بأسَ بِهِ، ولا حَرَجَ.

لأنَّ اللهَ تعالى حَكَى عِنْ نَبِيِّهُ يُوسُفَ -عَلَيهِ السَّلامُ- أنَّهُ أَثْنَى على نفسِهِ وزَكَّاهَا، فقالَ: **{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}**، فوَصَفَ نفسَهُ بالأمانةِ، ووَصَفَ نفسَهُ بالعِلمِ.

وَصَفَ نفسَهُ بالأمانةِ: فقالَ: **{إِنِّي حَفِيظٌ}**، ووَصَفَ نفسَهُ بالعِلمِ: فقالَ: **{عَلِيْمٌ}**، وعَلِيْمٌ: صيغةُ مبالغةٍ، ولكنَّهَا لغرضٍ شرعيٍّ.

ولذَلِكَ، **قالَ العلماءُ**: يَجوزُ للعَالِمِ إذا أُحتِيجَ إلى القضاءِ، وكانَ عندَهُ عِلْمُ القضاءِ، وكانَتْ توليتُهُ للقضاءِ يُوصِلُ بِهَا الْحقوقَ إلى أهلِهَا، فَيَرْدَعُ الظَّالِمَ عَنْ ظلمِهِ، ويُوصِلُ الْحَقَّ إلى صاحبِهِ يَجوزُ لَهُ أنْ يأتي إلى الْوَالِي، وأنْ يُثنِيَ على نفسِهِ بأنَّهُ عَالِمٌ، وأنَّهُ على خِبْرَةٍ بالقضاءِ، أو أنَّهُ تلميذٌ للشَّيخِ فلانٍ، أو نَحوِ ذَلِكَ مِمَّا يُوجبُ تنصيبُهُ في هذا الْمنصبِ.

بَلْ قَالَ بعضُ العلماءِ: إنَّهُ يَتَعَيَّنُ عليهِ إذا توقَّفَ وُصُولُ الْحَقِّ على مثلِهِ، "**لأَنَّ مَا لا يَتِمُّ الوَاجِبُ إلا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ**".

وأمَّا إذا كانَ الْمدحُ والثَّناءُ لغيْرِ غرضٍ شرعيٍّ، فالأصلُ تَحريْمُهُ، خاصَّةً إذا كانَ في الوَجْهِ، قَالَ اللهُ تعالى: **{فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى}**، فحرَّمَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- علينَا أنْ يُزَكِّيَ بعضُنَا بعضًا، فَهُوَ أعلمُ بِمَنْ اتَّقَى، وأعلمُ بالسَّرائرِ والضَّمائرِ.

وكَمْ مِنْ أُنَاسٍ سُخِرَ مِنْ ظاهرِهِمْ وباطنُهُمْ على استقامةٍ.

وَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ تَعَجَّبَ النَّاسُ وأَثْنَوا على ظاهرِهِمْ، وهُم على سريرةِ سُوءٍ، كمَا قالَ اللهُ تعالى: **{لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ}**.

فلا تَجوزُ التَّزكيةُ، والأصلُ تَحريمُهَا إلا إذا كانَتْ لسببٍ شرعيٍّ، وغرضٍ شرعيٍّ.

ومِنَ الغرضِ الشرعيّ: تزكيةُ العَالِمِ بعلمِهِ، **مِثْلُ**: أنْ يَجِدَ مَنْ يَستَخِفَّ بعلمِهِ، فيقولُ: (أَنَا تَعَلَّمْتُ كَذَا وكَذَا، وتَعَلَّمْتُ عَلى فُلانٍ، ومَكَثْتُ عِشرينَ سَنَةً، أَوْ بَحَثْتُ هَذِهِ الْمسألةَ عَشْرَ سنواتٍ، أَوْ نَحوِ ذَلِكَ).

وفي صحيحِ البُخاريِّ عَنْ أَبِي العبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سعدٍ السَّاعدِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّهُ قالَ: ((**لَمْ يَعُدْ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِمِنْبَرِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **مِنِّي، إِنَّ رَسُولَ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قَالَ لامْرَأَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ: انظُرِي غَلامَكِ النَّجَّارَ، فَلْيَصْنَعْ لِي أَعْوَادًا أُكَلِّمُ عَلَيْهَا النَّاسَ...**)) الْحديث، فأَثْنَى على نفسِهِ أنَّهُ لَمْ يبقَ أَحَدٌ يعلَمُ قصَّةَ مِنْبَرِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- غَيْرُهُ، وهذا يدلُّ على مشروعيةِ تزكيةِ العَالِمِ لنفسِهِ في الْمسائلِ؛ لِتُؤخَذَ مِنْهُ، وفي الفتاوى؛ لِتُعْتَبَرَ، ذَلِكَ من الأغراضِ الشَّرعيَّةِ.

وأَمَّا إذا كانَ الْمدحُ للإطراءِ، والتَّزكيةُ والْمدحُ، خاصَّةً إذا كانَ في الوَجْهِ فإنَّهُ مُحرَّمٌ شرعًا.

وَهُوَ بلاءٌ على الْمادحِ، وبلاءٌ على مَنْ يرضَاهُ مِنَ الْممدوحيْنَ:

فَأَمَّا الْمادِحُ: فإنَّهُ غالبًا لا يقومُ ويَمدحُ الإنسانَ في وجهِهِ إلا وَهُوَ يُريدُ شيئًا مِنَ الدُّنيَا.

ولذَلِكَ قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**احْثُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِيْنَ التُّرَابَ**)) كمَا في الصَّحيحِ، أَمَرَ بِحَثْيِ التُّرَابِ في وُجُوهِ الْمَدَّاحِيْنَ، الَّذِين يَمدحُونَ في الوجهِ.

وأَمَّا بالنِّسبةِ لِلمَمدُوحِ: فإنَّهُ فتنةٌ لَهُ.

ولذَلِكَ نُوصِي أنفسَنَا وطلابَ العلمِ: بتقوى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، خاصَّةً في هذا الزَّمانِ الَّذِي كَثُرَ فيهِ إطراءُ العلماءِ، وتزكيتُهُم بِمَا هُوَ معهودٌ، وفَوْقَ الْمعهودِ، حَتَّى إنَّ البعضَ يقولُ: (فُلانٌ العلامَةُ) ، ويقولُونَ: (العَالِمُ الرَّبَّانِيُّ)، وقدْ كَتَبَ بعضُ الإخوةِ -أَصْلَحَهُمُ اللهُ- عَنِّي يَصِفُنِي بِأَنِّي عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ)، وأَنَا أَبْرَأُ إلى اللهِ مِنَ هذِهِ الصِّفَةِ، هذِهِ صفةٌ عظيمةٌ، لا يَجوزُ لأَحَدٍ أَنْ يُثنِيَ على أَحَدٍ بأَنَّهُ عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، بِهَذِهِ الصِّفَةِ الْمُمَجِّدَةِ، التِي فيهَا التَّزكيةُ والتَّفضيلُ على الغَيْرِ مِنَ العلماءِ، هذا أَمْرٌ عظيمٌ، ولا آذَنُ بذَلِكَ، ولا أَرْضَاهُ، وأُشْهِدُ اللهَ، وملائكتَهُ، وخلقَهُ على الْبَرَاءةِ مِنَ هذِهِ الأوصافِ: كـ(العَالِمُ الرَّبَّانِيُّ، والعَلامَةُ، والزَّاهِدُ، ونَحْوِ ذَلِكَ).

إنَّمَا قِيْلَتْ لعلماءِ السَّلَفِ بعدَ وفاتِهِم، حينمَا أُمِنَتِ الفتنةُ، وظَهَرَتْ آثارُهُم النَّافعةُ للأمةِ، وأرادُوا أنْ يُغِيْظُوا بذَلِكَ أهلَ البدعِ، فقالُوا: (بقيَّةُ السَّلَفِ، والعَالِمُ الرَّبَّانِيُّ) لأقوامٍ أَفْضُوا إلى رَبِّهِم.

وأمَّا الأحياءُ يُطرَونَ بِهذا الإطراءِ، وبِهذا الثَّناءِ، والْمبالغةِ فِي وَصْفِ العَالِمِ بَ(أنَّهُ الفقيهِ، وأنَّهُ الْبَحْرُ، ونَحوِ ذَلِكَ) فهذِهِ أمورٌ وراءَهَا بلاءٌ عظيمٌ، وشَرٌّ وخيمٌ، فليتقِ اللهَ كُلُّ مَنْ يُزَكِّي، ومَنْ يُرِيدُ أنْ يَمدحَ ليتقِ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، ولْنَعْلَمْ أنَّ الْمدحَ فِي العلمِ هُوَ للهِ، وينبغي أنْ يكونَ للهِ، وأسعدُ النَّاسِ مَنْ حَمَلَ النَّاسَ على تعظيمِ اللهِ، لا على تعظيمِهِ، وخَيْرُ النَّاسِ فِي العلمِ وأعظمُهُم أجرًا، وأعظمُهُم بركةً مَنْ رَبَّى طلابَهُ، ورَبَّى أعوانَهُ وأتباعَهُ على أنْ يَجعلُوا هذا العِلمَ للهِ، تعظيمًا، وتقديسًا، وإجلالاً لَهُ -جَلَّ جَلالُهُ-.

وأَمَّا مَدْحُ الأشخاصِ وإطراؤُهُم، خاصَّةً إذا كانُوا أحياءً، فإنَّهُ لا تُؤْمَنُ عليهِمُ الفتنةَ، فهذا شَرٌّ وبلاءٌ على القائلِ؛ لأنَّهُ سيُسْأَلُ عَنْ شهادتِهِ، واللهُ تعالى يقولُ: **{سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}**.

ووااللهِ ما عرفْنَا أنفسَنَا أنَّنَا علماءُ رَبَّانِيّونَ، ما عرفْنَا أنفسَنَا إلا طُلابَ عِلْمٍ نَدْرُسُ، ونَتَعَلَّمُ على قدرِ استطاعتِنَا، وطاقتِنَا، فَلْيتقِ اللهَ مادحُنَا، ولْيَخَفْ مِنَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-, ولا يكونُ جزاؤُنَا فِي العِلمِ أنْ نُمدَحَ بِهذا الْمدحِ الَّذِي يُفضِي إلى الْمحظورِ.

وعلينَا أنْ نَرْدَعَ أنفسَنَا قَبْلَ أنْ نَرْدَعَ النَّاسَ، وأنْ نكونَ قدوةً للنَّاسِ.

الْمدحُ والثَّناءُ لا خَيْرَ فيهِ، مَا لَمْ يَكُنْ حَامِلاً على طاعةِ اللهِ وعلى مَحَبَّةِ اللهِ.

الْمدْحُ مظنَّةُ الغُرُورِ، ومظنَّةُ الْهَوَى والشُّرُورِ، والنَّفسُ ضعيفةٌ، والإنسانُ ضعيفٌ.

فينبغي على كُلِّ مسلمٍ أنْ يراقِبَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، وأنْ يراقِبَ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فيمَا يقولُهُ، وأنْ يتقيَ اللهَ فِي أُمةِ مُحمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بالنَّصيحةِ لعلمائِهَا وأئمتِهَا ودُعاتِهَا، فلا يغلو؛ لأنَّ اللهَ حذَّرَنَا مِنَ الغُلُوِ، وإنَّمَا يُقالُ القَصْدَ، ويُقالُ السَّنَنَ، ويُظَنُّ بالإنسانِ الْخَيْرَ إذا ظَهَرَ مِنْهُ الْخَيْرُ.

وأمَّا بالنِّسبةِ للتَّزكيةِ فقدْ تَوَلاهَا مَلِكُ الْملوكِ، وعَلامُ الغُيُوبِ، الْمطَّلِعُ على السَّرائرِ، العليمُ بالضَّمائرِ، الَّذِي يبعثرُ الْقُبُورَ، ويعلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ -جَلَّ جَلالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ.

ونسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ وعظمتِهِ وكمالِهِ أنْ يصرِفَ عنَّا فتنةَ الْمدحِ مِنَ النَّاسِ، وأنْ يصرِفَهَا عَنْ قلوبِنَا، وأنْ لا يشغلَنَا بِهَا، وأنْ يَجعلَنَا مِمَّنْ تعلَّقَ بِهِ سبحانه.

أُوصِي طلابَ العِلمِ ونفسِي بتقوى اللهِ، فإنَّ مَا كانَ للهِ عظيمٌ، فاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُمدحُ، وَهُوَ الَّذِي يُثنَى عليهِ، ولذَلِكَ كانَتْ مُهمَةُ الرُّسُلِ الَّذِين وَرِثَ العلماءُ عنْهُم العلمَ، مُهمتُهُم تعظيمُ اللهِ -جَلَّ جَلالُهُ-، وصَرْفُ العبادِ عَنْ تعظيمِ العبادِ إلى تعظيمِ رَبِّ العبادِ، والشَّيطانُ حريصٌ، فإنَّهُ إذا فُتِحَ بابُ الْمدحِ، والثَّناءِ قدْ يُتَوصَّلُ إلى الغُلُو، ومِنَ الغُلُو يُتوصَّلُ إلى مَا لا يُحمَدُ.

فتجِدُ الإنسانَ إذا أَثْنَى على شيخِهِ، أو رَأَى طالبَ علمٍ قدوةً يُثْنِي على شيخٍ بأَنَّهُ الْبَحْرُ، وأَنَّهُ الإمامُ، أصبحَ يعتقِدُ أَنَّهُ لا صَوَابَ إِلا الَّذِي يقولُهُ هذا الشَّيخُ، وهذا مُخالِفٌ للشَّرْعِ وعواقبُهُ وخيمةٌ، ونِهاياتُهُ أليمةٌ.

واللهِ لا خَيْرَ فينَا إنْ كانَتِ النَّاسُ تُهدِي إلينَا التَّزكيةَ، ثُمَّ نَسْكُتُ على ذَلِكَ، فنغُرُّهُم في دينِهِم هذا غِشٌّ لأمةِ مُحمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، علينَا أنْ ننصَحَ للهِ، وأَنْ ننصَحَ لكتابِهِ، ولعامةِ الْمسلميْنَ.

وطلابُ العلمِ هُمُ الْمسؤولُونَ أمامَ اللهِ في مِثْلِ هذا، عليهِم أنْ يكونُوا قدوةً في علمائِهِم ومشايخِهِم، أنْ يُورِثُوا النَّاسَ تعظيمَ اللهِ، لا تعظيمَ عبادِ اللهِ، والعَالِمُ يُثْنَى عليهِ، ويُذكرُ بِخيْرٍ، مَنْ أرادَ أنْ يعظِّمَ العَالِمَ فليَتَّبِعْ مَا قَالَهُ بكتابِ اللهِ، وسنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ومَنْ أَحَبَّ العلماءَ، وأرادَ بِهِمُ الْخَيْرَ فلينشرْ علمَهُم وآدابَهُم، وأخلاقَهُم، وفضائلَهُم في الْحدودِ الشَّرعيَّةِ، هذا هُوَ الْخَيْرُ للقائلِ، ومَنْ قِيْلَ عَنْهُ، وهذا هُوَ الَّذِي تُرفَعُ بِهِ الدَّرجاتُ، وتُضاعَفُ بِهِ الْحَسَناتُ، وَهُوَ سبيلُ الأخيارِ مِنَ الصَّحابةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم- وسَلَفِ الأمةِ.

نسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ وعظمتِهِ وكمالِهِ أنْ يُغنِيَنَا مِنْ واسعِ فضلِهِ، وأَنْ يَجعلَ علمَنَا وعملَنَا خالصًا لوجهِهِ، نَعوذُ باللهِ مِمَّا يقولُهُ النَّاسُ مِنَ فتنةِ الْمَدحِ، والثناءِ لَنَا ولغيْرِنَا، ونسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ أنْ يهدِيَ ضَالَّ الْمسلميْنَ.

وقدْ ذهبَ بعضُ أهلِ العلمِ إلى هذا، وقالُوا: يُدْخَلُ الْمَيِّتُ الْقَبْرَ مِنْ قِبَلِ القِبْلَةِ.
وقالَ بعضُهُم: يُسَلُّ سَلاًّ.
ورخَّصَ أكثرُ أهلِ العلمِ في الدَّفْنِ بِالليلِ.

الشَّرْح:

تقدَّمَتْ هذِهِ الْمسألةُ، وأنَّ السُّنَّةَ أنْ يُسَلَّ الْمَيِّتُ مِنْ رِجْلِ الْقَبْرِ، وذكرْنَا مذاهبَ العلماءِ في هذِهِ الْمسألةِ، والأحاديثَ الصَّحيحةَ التِي وَرَدَتْ في سَلِّ الْمَيِّتِ مِنْ رِجْلِ الْقَبْرِ، **وأَنَّهُ هُوَ الأَقْوَى**.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَى الْمَيِّتِ]**.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أحمَدُ بنُ منيعٍ، حَدَّثنا يزيدُ بنُ هارونَ، أخبَرَنَا حُميدٌ عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قالَ: ((**مُرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **وَجَبَتْ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**)).

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن عمرَ، وكعبِ بن عجرةَ، وأبي هُريرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جَمِيعًا-.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حديثُ أنسٍ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الشَّرْح:

هذا الْحديثُ أصلُهُ في الصَّحيحِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وتَمَامُهُ: ((**أَنَّهُ مُرَّ عَلَيهِ بِجَنَازَةٍ، فَأُثْنِي عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا، فَقَالَ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مُرَّ عَلِيهِ بِجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا شَرًّا، فَقَالَ: وَجَبَتْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولِ اللهِ مُرَّ بِجَنَازَةٍ وأُثْنِي عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِي عَلَى صِاحِبِهَا شَرًّا فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، فَمَا وَجَبَتْ يَا رَسُولِ اللهِ؟ قَالَ: هَذَا الَّذِي أَثْنَيْتُم عَلَيهَ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةَ، وَهَذَا الَّذِي أَثْنَيْتُم عَلَيهَ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**)).

في هذا الْحديثِ دليلٌ لِمَا ترجَّمَ لَهُ الْمصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- مِنْ مشروعيةِ الثَّناءِ على الْمَيِّتِ.

وهذا أصلٌ عندَ العلماءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّ الإنسانَ إذا كانَ على خَيْرٍ وصلاحٍ، فتَبِعَتُهُ الكلماتُ الطيِّبةُ، بِمآثِرِهِ الْحميدةِ، أنَّ ذَلِكَ لا حَرَجَ فيهِ، ولا بَأْسَ بِهِ.

خاصَّةً إذا كانَتِ الشَّهادةُ مبنيَّةً على حَقٍّ وحقيقةٍ، فالْمرأةُ تقولُ: (هذا الَّذِي كانَ يعولُ أيتامِي)، والأيتامُ يقولُونَ: (هذا الَّذِي كانَ يطعمُنَا ويسقينَا بعدَ اللهِ)، وطالبُ العلمِ يقولُ: (هذا الَّذِي عَلَّمَنِي، وفَهَّمَنِي، ودَلَّنِي على الْخَيْرِ بإذنِ اللهِ)، وهكذا:

يَبْكِيْهِ طَالِبُ عِلْمٍ كَانَ عَلَّمَهُ وَتَائِهٌ عَنْ سَبِيْلِ الرُّشْدِ أَرْشَدَهُ

فمَنْ ذُكِرَ بالْخَيْرَاتِ، والباقياتِ الصَّالِحاتِ فعاجلُ خيْرٍ يلحقُهُ في هذِهِ الدُّنيا؛ لأنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جعَلَ الْخَلْقَ شهداءَ على الْخَيْرِ والشَّرِّ، ولذَلِكَ قالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ**

اللهِ فِي الأَرْضِ)) فمَنْ كانَتْ سريرتُهُ خَيْرًا، أظهَرَ اللهُ مِنْ علانيتِهِ الْخَيْرَ، ووَضَعَ لَهُ القبولَ بَيْنَ النَّاسِ، وأشهَدَ النَّاسَ على فضلِهِ، وعلى مَحبتِهِ، وذكرُوهُ بكُلِّ خَيْرٍ.

وأمَّا مَنْ كانَ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- على خِلافِ ذَلِكَ، فإنَّهُ يُذكَرُ بِخِلافِ ذَلِكَ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالعَافِيَةَ-.

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **((وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ))**؛ لأنَّهُ إذا أُثْنِيَ على الإنسانِ بالاستقامةِ مِنَ الإيْمانِ باللهِ، وتوحيدِهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وبِرِّ الوالدينِ، وإقامةِ شعائرِ الإسلامِ وتَتَبُّعِ خصالِ الكرامِ، مِنْ إطعامِ الطَّعامِ، وإفشاءِ السَّلامِ، وصلةِ الأرحامِ، ونَحوِ ذَلِكَ مِنَ الأعمالِ الصَّالِحَةِ، وشُهِدَ لَهُ بذَلِكَ، فهذا لا شَكَّ أنَّهُ دليلٌ على صلاحِهِ، واستقامتِهِ، وفلاحِهِ.

وهكذا -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- إذا كانَ ظالِمًا ظلُومًا، معتديًا لِحدودِ اللهِ، جبَّارًا عنيدًا، قاسِيَ القلبِ، معتديًا لْحدودِ الرَّبِّ، فإنَّ النَّاسَ ستَشهَدُ على أقوالِهِ وأعمالِهِ.

فمَنِ استهزأَ بالدِّينِ، واستهزأَ بالأخيارِ والصَّالِحِيْنَ، وتَهَكَّمَ بشعائرِ اللهِ، يُخطُّ في صحيفتِهِ سوءُ عملِهِ، ويَشهَدُ النَّاسُ على قولِهِ، يتعجَّبُ النَّاسُ إذا سَمِعُوا الْمقالةَ الغريبةَ، فيهَا طَعْنٌ في دينِ اللهِ وفي كتابِ اللهِ، وفي سُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ورُبَّمَا يُنتشَرُ ذَلِكَ، فيتألَّمُ الإنسانُ، ويتمعَّرُ، ويتفطَّرُ قلبُهُ غَيْرَةً على الشَّرعِ وحِمَى الدِّينِ، فيتألَّمُ، ويتأثَّرُ، وَهُوَ لا يعلَمُ أنَّ اللهَ يُشهِدُ العبادَ على مَا تَكسَبُهُ الأيدي، وَهُوَ لا يعلَمُ أنَّ هذا البائسَ الْمسكيْنَ الَّذِي يَستهزِئُ بالدِّينِ، وبالأخيارِ والصَّالِحِيْنَ، إنَّمَا يُشهِدُ النَّاسَ على فجورِهِ، واعتدائِهِ لِحدودِ رَبِّهِ، وأنَّهُم سيَشهدُونَ بَيْنَ يدي اللهِ عليهِ، وأنَّهُ سيَعظُمُ بَلاؤُهُ وشرُّهُ وعناؤُهُ.

ولذَلِكَ لا يَحسبُ الإنسانُ أنَّ هذِهِ الأمورَ التِي تَقَعُ مِنَ النَّاسِ خَيْرًا أو شَرًّا أنَّهَا تَمُرُّ سُدًى، مَا خَلَقَ اللهُ الْخَلَقَ عَبَثًا، ولا أَوْجَدَهُم سُدًى، كُلٌّ مَجزيٌّ بعملِهِ.

ومَنْ كانَ على سريرةِ الْخَيْرِ أظهَرَ اللهُ في النَّاسِ خَيْرَهُ.

مَنْ جَادَ سَادَ، وَأَحْيَا الْعَالَمُوْنَ لَهُ بَدِيْعَ حَمْدٍ بِمَدْحِ الْفِعْلِ مُتَّصِلِ

ولذَلِكَ مَنْ كانَتْ أخلاقُهُ حَميدةً، وخصالُهُ مُحمودةً، فإنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يُورِثُهُ مَحبةَ النَّاسِ، وثناءَ النَّاسِ، وذِكْرَ النَّاسِ لَهُ بالْخَيْرِ، حَتَّى إذا مَاتَ مَاتَ جسدُهُ، ولَمْ تَمُتْ مآثرُهُ، ولَمْ تَمُتْ مكارمُهُ، فتجِدُ النَّاسَ يذكرُونَهُ بالْخَيْرِ، وقدْ مَاتَ مِنْ عشراتِ السِّنِيْنَ، بل قدْ يكونُ مَاتَ مِنْ مِئَاتِ السَّنين وهُم يذكرُونَهُ بِخَيْرٍ؛ لأنَّ الْخَيْرَ لا يَبْلَى، والْمعرُوفُ لا يُنْسَى، واللهُ -جَلَّ وَعَلا- مُطَّلِعٌ على أعمالِ العبادِ: **{إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً}**.

جعلَنَا اللهُ وإيَّاكُم مِنْ أهلِ الاستقامةِ، وأَمَّنَنَا وإيَّاكُم مِنْ سبيلِ الْخِزي والنَّدامةِ، وثَبَّتَنَا على الْحَقِّ إلى يومِ القيامةِ، ونَعوذُ باللهِ أنْ نكونَ مِنْ أهلِ الْخزي والعُتبِ والْملامةِ.

في هذا الْحديثِ دليلٌ على أنَّهُ ينبغي للإنسانِ أنْ يتَّقيَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، وأن يَحرِصَ على الْخَيْرِ؛ حَتَّى يُشهَدَ لَهُ بِهِ.

واستدَلَّ الإمامُ أبو حنيفةَ -رَحِمَهُ اللهُ- وأصحابُهُ بِهذا الْحديثِ، على أنَّ الشَّاهدَ إذا شَهِدَ عندَ القاضي، وكانَ مِنَ الِمسلميْنَ فإنَّهُ يَقبَلُ شهادتَهُ، ولا يُطلُبُ تزكيتَهُ.

وجُمهورُ العلماءِ على أنَّهُ إذا شَهِدَ الشَّاهِدُ بأيِّ حَقٍّ مِنَ الْحُقُوقِ، سواءً كانَتْ بَيْنَ النَّاسِ، ونَحوِهَا، سواءً كانَتْ ماليةً، أو غَيْرَ ماليةً أنَّهُ لا بُدَّ مِنْ تزكيتِهِ، وأنْ يكونَ معروفًا بالضَّبطِ، والعدالةِ والاستقامةِ، وأنَّهُ لا يكفي مطلقُ الإسلامِ، بَلْ لا بُدَّ وأنْ يزيدَ على ذَلِكَ وصفَ العدالةِ. **والإمامُ أبو حنيفةَ يقولُ**: إنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قالَ في هذا الْحديثِ يُخاطِبُ أهلَ الإسلامِ: ((**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**))، فجَعَلَهُم أهلَ الشَّهادةِ، فدلَّ على أنَّنَا نقبلُ شهادةَ كُلِّ مسلمٍ.

والصَّحيحُ مَا ذهبَ إليهِ الْجمهورُ أنَّهُ لا بُدَّ مِنَ التَّزكيةِ؛ وذَلِكَ لقولِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: **{مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ}**، ولذَلِكَ لَمَّا شَهِدَ شاهدٌ عندَ إياسٍ القاضي الْمشهورِ، ورَدَّ شهادتَهُ، قالَ لَهُ بعضُ أصحابِهِ: لِمَ رَدَدْتَ شهادتَهُ وَهُوَ مسلمٌ؟ **قالَ**: (لأنَّ اللهُ تعالى يقولُ: **{مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ}**، وهذا لَسْنَا مِمَّنْ نَرْضَاهُ)؛ فدلَّ هذا على أنَّهُ لا يكفي وصفُ الإسلامِ، بَلْ لا بُدَّ وأنْ يُضافَ إليهِ وصفُ العدالةِ.

وهذا الْحديثُ إنَّمَا هُوَ في مطلقِ الوصفِ، أو في الأمرِ الْخارجِ عَنِ القضاءِ، وبناءً على ذَلِكَ لا يصلُحُ تعميمُهُ؛ لأنَّهُ في دعوى خاصةٍ، ولا يصلُحُ دليلاً على العُمُومِ.

وكذَلِكَ أيضًا الأصلُ يقتضي أنَّ الشَّهادةَ لا تُقبلُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، كمَا أنَّ الشُّهودَ يَختلفُونَ في ضبطِهِم وإتقانِهِم، كذَلِكَ يَختلفُونَ في عدالتِهِم واستقامتِهِم، فإنَّهُ لا يُؤْمَنُ الكذبُ مِنَ الشَّاهدِ. وكذَلِكَ إذا كانَ فاسقًا تُرَدُّ شهادتُهُ؛ لأنَّ الفاسقَ جُرِّبَ منْهُ اعتداءُ حدودِ اللهِ، قالُوا: فلمَّا جُرِّبَ منْهُ اعتداءُ حدودِ اللهِ لَمْ يُؤْمَنْ منْهُ أنْ يكذبَ على أخيهَ الْمسلمِ، وأنْ يُؤذيَهُ.

ومِنْ هُنَا تَرَجَّحَ مذهبُ الْجمهورِ أنَّهُ لا يكفي وصفُ الإسلامِ فقط، بَلْ لا بُدَّ مِنْ إضافةِ وصفِ العدالةِ، وَهُوَ شرطٌ معتَبَرٌ لقبولِ الشَّهادةِ.

وفي هذا دليل على فضلِ العملِ الصَّالِحِ، وأنَّهُ سببُ خَيْرٍ للإنسانِ في دينِهِ ودنياهُ وآخرتِهِ، وأنَّ

الْحسنةَ خيْرُهَا ونعيمُهَا وبركتُهَا لا يكونُ فِي الدُّنيَا فَحَسْبُ، بَلْ فِي الدُّنيَا، وفِي البَرْزَخِ، وفِي الآخِرَةِ: **{يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**.

ليتأمَّلِ الْمسلمُ كيفَ تكونُ حالَ الاستقامةِ، أنَّ العبدَ يعيشُ بِهَا حَميدًا، ويَمُوتُ بِهَا قريرَ العيْنِ سعيدًا، ويُذكَرُ بعدَ موتِهِ ذِكْرًا عظيمًا مَجيدًا، كيفَ يُذكَرُ بِهذِهِ الأوصافِ الطَّيبةِ: (هذا فُلانٌ الَّذِي كانَ يعلِّمُ الْخيْرَ، هذا فُلانٌ الَّذِي كانَ يدعو إلى الْخيْرِ، هذا فُلانٌ الَّذِي كانَ يَصِلُ الرَّحِمَ هذا فُلانٌ الَّذِي كانَ يُصلِحُ ذاتَ البيْنِ، هذا فُلانٌ، وهذا فُلانٌ).

وهذا كُلُّهُ يشحَذُ هِمَّةَ الْمسلمِ، خاصَّةً عندَ فسادِ الزَّمانِ، وتغيُّرِ النَّاسِ، أنْ يَثْبُتَ على الْحَقِّ، وأنْ يكونَ عودُهُ قويًّا في الْحَقِّ، لا يضعُفُ؛ لأنَّهُ إذا تَذَكَّرَ أنَّهُ سيَخرُجُ مِنْ هذِهِ الدُّنيا، قَوِيَ عودُهُ في طاعةِ اللهِ، وشَمَّرَ عِنْ ساعدِ الْجِدِّ في مرضاةِ اللهِ، ولَمْ يضعُفْ، ولَمْ يصبْهُ الْوَنَى، ولا الْخَوَرُ، بَلْ يشمِّرُ عَنْ ساعدِ الْجِدِّ، حَتَّى يفوزَ في هذِهِ العواقبِ الْحميدةِ، مِنْ ثناءِ اللهِ، وثناءِ عبادِ اللهِ عليهِ، ولَمَا ينتَظِرُهُ عندَ اللهِ أَجَلُّ وَأَسْمَى.

اللَّهُمَّ إنَّا نسأَلُكَ الدَّرجاتِ العُلى مِنَ الْجَنَّةِ، ونسألُ اللهَ بعزتِهِ وجلالِهِ وعظمتِهِ وكمالِهِ أنْ يَجعلَ سريرتَنَا خَيْرًا مِنْ علانيتِنَا، وأنْ يَجعلَ علانيتَنَا خَيْرًا.

قالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا يَحيَى بنُ موسى وهارونُ بنُ عبدِاللهِ البزَّازُ قالا: حَدَّثنا أبو داودَ الطَّيالِسيُّ، حَدَّثنا داودُ بنُ أبي الفراتِ، حَدَّثنا عبدُاللهِ بنُ بريدةَ عن أبي الأسودِ الدِّيليِّ، قالَ: قَدِمْتُ الْمَدِيْنَةَ، فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فَمَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: وَجَبَتْ، فَقُلْتُ لِعُمَرَ: وَمَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: أَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- : قال: ((**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ لَهُ ثَلاثَةٌ إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**))، قَالَ قُلْنَا: وَاثْنَانِ؟ قَالَ: ((**وَاثْنَانِ**))، قَالَ: وَلَمْ نَسْأَلْ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الوَاحِدِ.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وأبو الأسودِ الدِّيليُّ اسْمُهُ ظالِمُ بْنُ عمرِو بنِ سفيانَ.

الشَّرْح:

هذا الْحديثُ تقدَّمَتِ الإشارةُ إليهِ، في بعضِ روايتِهِ التَّسلسلُ:

مُسَلْسَلٌ قُلْ مَا عَلَى وَصْفٍ أَتَى مِثْلُ أَمَا وَاللهِ أَنْبَانِي الْفَتِي

كَـــــذَاكَ قَدْ حَدَّثَنِيْهُ قَائِمَا أَوْ بَعْدَ أَنْ حَدَّثَنِي تَبَسَّمَا

فيقعُ التَّسلسلُ في الأقوالِ، **ويقعُ** التَّسلسلُ بالأفعالِ.

مثالُ الْمُسلسلِ بالأقوالِ: هذا الَّذِي معنا.

ومنْهُ: حديثُ معاذٍ لَمَّا قالَ لَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**وَاللهِ يَا مُعَاذُ، إِنِّي لأُحِبُّكَ، فَلا تَدَعَنَّ كَلِمَاتٍ تَقُوْلُنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**))، وقدْ وَقَعَ لِي مُسلسلاً بفضلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

فالْمقصودُ: أنَّ هذا كُلُّهُ يقعُ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مَعَ الصَّحابةِ، ثُمَّ مِنَ الصَّحابةِ مَعَ التَّابعيْنَ.

فسألَ هذا التَّابعيُّ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كمَا سألَ عُمَرُ رسولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

وفي قولِ الفارُوقِ: ((**أَقُولُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) **فيهِ دليلٌ** على فضلِ هذا الصَّحابِيِّ الْجليلِ وتأسيهِ بالنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فيمَا يكونُ منْهُ مِنْ عملٍ وقِيلٍ.

((**أَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) ومَنْ قَالَ كمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ

وَسَلَّمَ- فقدْ قَالَ بِمَا قالَ اللهُ لأنَّهُ لا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنَّما هُوَ وحيٌ يُوحَى، ومَنْ قَالَ بقولِ اللهِ فقدْ صَدَقَ وبَرَّ، ولذَلِكَ أصدقُ النَّاسِ قِيلاً هُمُ العلماءُ، الَّذِين يقولُونَ بقولِ اللهِ، وقولِ رسُولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

((**أَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)) **فيهِ دليلٌ** على أنَّ مَنْ كانَ قُدوةً للنَّاسِ ينبغي عليهِ أنْ يتحرَّى السُّنَّةَ؛ لأنَّ النَّاسَ تَتَّبِعُهُ في أقوالِهِ وأفعالِهِ، فالْمسؤوليةُ عليهِ عظيمةٌ.

ولذَلِكَ لَمَّا تَعَجَّبَ الرَّجُلُ مِنْ قولِهِ، كأَنَّ عُمَرَ يقولُ لَهُ: مَاذَا تُرِيدُنِي؟ أَتُرِيدُنِي أنْ أقولَ هذا القولَ وليسَ عندِي أصلٌ مِنَ الشَّرعِ؟ وهذا يدلُّ على أنَّهُم كانُوا شديدي التَّحفظِ في التَّأسي والاقتداءِ بالنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

فطلابُ العلمِ، وأهلُ العلمِ قدوةٌ للنَّاسِ، فإذا جاءُوا في الْمواطنِ الْخاصةِ التِي فيهَا عبادةٌ، أو ذِكْرٌ، يتقيَّدُونَ بالوَارِدِ، مِثْلُ: بَعْدَ الْجنائزِ، أو أحوالِ الْجنائزِ، أو أحوالِ الصَّلَوَاتِ، ونَحوِهَا مِنَ العباداتِ، يَحرصُونَ على تأسي السُّنَّةِ، واتِّباعِ الأَثَرِ.

((**أَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)): لا أقولُ شيئًا مِنْ عندِي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَجَزَى اللهُ أصحابَ رسولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خَيْرَ مَا جَزَى صحابيًّا عَنْ صحبتِهِ-، فكانُوا أفياءَ بَرَرَةً، صادقيْنَ فيمَا تَحمَّلُوهُ وحَمَّلُوهُ، وكانُوا حريصيْنَ على إظهارِ هديِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قولاً وعملاً.

وفي قولِهِ: ((**ثَلاثَةٌ**)) أي الَّذِين يشهدُونَ يكونُونَ ثلاثةً.

ثُمَّ سُئِلَ عِنَ الاثنيْنِ، فقالَ: ((**واثْنَيْنِ**))، ولَمْ يُسألْ عَنِ الوَاحِدِ، وأَقَلُّ التَّزكيةِ في الشَّهادةِ مِنِ اثْنَيْنِ، وسُكِتَ عِنَ الوَاحِدِ فاللهُ أعلمُ.

لكنْ مِنْ حيثُ الأصلِ أنَّهُ إذا أُثْنِي على الإنسانِ باثنيْنِ فأكثرَ فهذا خَيْرٌ.

وقولُهُ: ((**وَجَبَتْ**)) أي الْجَنَّةُ.

فيهِ دليلٌ على أنَّ الإنســـانَ إذا قُبِضَ: **إِمَّا** أنْ ينتهيَ بِهِ الأمرُ إلى جَنَّةٍ، **وإِمَّا** أنْ ينتهيَ بِهِ إلى النَّارِ. طريقانِ لا ثالثَ لَهُمَا، فريقانِ: **{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّـــعَيْرِ}**، فليسَ هُنَاكَ مصـــيْرٌ غَيْرَ هذا الْمصيْرِ، إمَّا إلى الْجَنَّةِ مُنَعَّمًا بنعيمِ اللهِ، وإمَّا إلى النَّارِ مُعَذَّبًا بعدلِ اللهِ، ولا يظلِمُ اللهُ النَّاسَ شيئًا ولكنَّ النَّاسَ أنفسَهُم يظلمُونَ:

إِنَّا مِنَ الدُّنْيَا عَلَى طَرِيْقِ إِمَّا إِلَى الْغَسَّاقِ أَوْ إِلَى الرَّحِيْقِ

إِمَّا أنْ يُثنَى على الإنسانِ خيْرًا، **وإِمَّا** أنْ يُثنَى عليهِ شَرًّا.

إِمَّا أنْ يُثنَى عليهِ بِما ينتهي بِهِ إلى الْجَنَّةِ، فيكونُ مِنَ السُّعداءِ، **وإما** أَنْ يُثنَى عليهِ بِمَا ينتهي بِهِ إلى النَّارِ، فيكونُ مِنَ الأشقياءِ.

نسألُ اللهُ -جَلَّ وَعَلا- أَنْ يرزُقَنَا حَالَ السُّعداءِ.

ونسألُهُ بعزتِهِ وجلالِهِ وعظمتِهِ وكمالِهِ أنْ يرزقَنَا العلمَ النَّافعَ، وأنْ يَجعلَ ما علَّمْنَاهُ وتعلَّمْنَاهُ خالصًا لوجهِهِ الكرِيْمِ، اللَّهُمَّ اجعلْ علمَنَا شافعًا لَنَا يومَ لا ينفَعُ مَالٌ ولا بنونَ، إلا مِنْ أَتَاكَ بقلبٍ سليمٍ، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ صلاحَ الظَّاهرِ والباطنِ، اللَّهُمَّ اجعلْنَا مِمَّنِ استقامَتْ سريرتُهُ وسِيْرَتُهُ، اللَّهُمَّ اجعلْنَا لَكَ مُخلصيْنَ، إليكَ منيبيْنَ، وارحْمَنَا برحْمتِكَ يَا أَرحمَ الرَّاحِمِيْنَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ للمؤمنيْنَ والْمؤمناتِ، والْمسلميْنَ والْمسلماتِ، الأحياءِ منْهُم والأمواتِ، اللَّهُمَّ فرِّجْ هَمَّ الْمهمومِيْنَ، ونفِّسِ الكربَ عَنِ الْمكروبِيْنَ، واشفِ مرضَانَا ومرضَى الْمسلميْنَ، وارحَمْ موتَانَا وموتَاهُم أجْمعِيْنَ، اللَّهُمَّ نَوِّرْ على أهلِ الْقُبُورِ قبورَهُم، وأفسَحْ لَهُم فيهَا يَا أَرحمَ الرَّاحِمِيْنَ، اللَّهُمَّ أفسَحْ لَهُم فيهَا يَا أَرحمَ الرَّاحِمِيْنَ، اللَّهُمَّ الطُفِ بإخوانِنَا في باكستانَ، اللَّهُمَّ فرِّجْ عنْهُم، اللَّهُمَّ فرِّجْ عنْهُم، اللَّهُمَّ اكشِفْ ضُرَّهُم، اللَّهُمَّ اكشِفْ ضُرَّهُم، اللَّهُمَّ ارحَمْ ضعفَهُم، واجبُرْ كسرَهُم، اللَّهُمَّ ارحَمْ ضعفَهُم، واجبُرْ كسرَهُم يا حَيُّ يا قيومُ، اللَّهُمَّ اجعلْ لَهُم مِنْ كُلِّ هَمٍّ فرجًا، ومِنْ كُلِّ بلاءٍ مَخرجًا، ومِنْ كُلِّ بلاءٍ عافيةً ومَخرجًا، يَا أَرحمَ الرَّاحِمِيْنَ، اللَّهُمَّ ارحَمْ موتَاهُم، وتقبلْ شهداءَهُم، ودَاوِ جرحَاهُم، وأفرِغِ الصَّبْرَ على الْمكلوميْنَ والْمصابيْنَ، وأرحَمِ البائِسيْنَ والْمشردينَ والضُّعفاءِ مِنَ النِّساءِ والأطفالِ يا رَبَّ العالَمِيْنَ، اللَّهُمَّ الطُفْ بإخوانِنَا، اللَّهُمَّ الطُفْ بإخوانِنَا، اللَّهُمَّ اعطفْ القُلُوبَ عليهِم، اللَّهُمَّ إنَّهُم حُفَاةٌ فاحْمِلْهُم، وعُرَاةٌ فاكْسُهُم، وجياعٌ فأطعِمْهُم، ومرضَى فاشفِهِم، اللَّهُمَّ اجعلْ لَهُم مِنْ بلائِهِم فرجًا ومَخرجًا، بارِكْ أرزاقَهُم وبارِكْ أقواتَهُم، وأغنِهِم بفضلِكَ عَنْ خلقِكَ، وعَمَّنْ سِوَاكَ، يَا أَرحمَ الرَّاحِمِيْنَ، اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ مِنْ جَهْدِ البلاءِ ، ودَرَكَ الشَّقاءِ، وسُوءِ القَضَاءِ، ومن شَمَاتَةِ الأعداءِ، وعُضَالِ الدَّاءِ، اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ مِنْ زَوالِ نعمتِكَ، اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ مِنْ زَوالِ نعمتِكَ، اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ مِنْ زَوالِ نعمتِكَ، وتَحَوُّلِ عافيتِكَ، وفُجَاءَةِ نقمتِكَ، ومن جَميعِ سخطِكَ، اللَّهُمَّ الطُفِ بِنَا أحياءً وأمواتًا اللَّهُمَّ الطُفِ بِنَا أحياءً وأمواتًا، واجعلْ أسعدَ اللحظاتِ وأعزَّها وأشرفَهَا لَحظةَ الوقوفِ بَيْنَ يديكَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرحمَ الرَّاحِمِيْنَ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِيْنَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ.

رقم الدَّرس ٤٣٠

الأربعاء ١٥-٩-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي

كتاب الجنائز

الْمُلْقَاة بِجَامعِ الْمَلِك سُعُود -رَحِمَهُ اللهُ- بجدّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيخ الدُّكتور

محمدِ بنِ محمَّدِ الْمُختارِ بنِ مُحمَّدِ بنِ مَزْيَدٍ الجَكْنِيِّ الشَّنقيطيِّ

الْمُدرِّسِ بالْحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ

وعضوِ هيئةِ كبارِ العُلماءِ بالْمَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ

ومُفَوَّضِ الإِفتَاءِ بِمَنطقةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حفظَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَفَع بِعِلمِهِ وغَفَرَ لهُ ولِوَالِدَيهِ ولِجَمِيعِ الْمُسلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّروسُ لم تُرَاجَعْ من فَضِيلَةِ الشَّيخ -حَفِظَهُ اللهُ-.

(بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

يَقُولُ الإِمامُ الْحَافِظُ التِّرْمِذِي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جاءَ فِي ثَوَابِ مِنْ قَدَّمَ وَلَدًا]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا قُتَيبَةُ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وحَدَّثَنَا الأَنْصَارِيُّ حَدَّثَنَا مَعْنٌ حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيْدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرِيرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**لا يَمُوتُ لأَحَدٍ مِنَ الْمسلميْنَ ثَلاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ، إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَم**)).

الشَّرْح:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الْحمدُ للهِ ربِّ العالَمِيْنَ، والصلاةُ والسلامُ الأَتَمَّانِ الأكملانِ على خَيْرِ خلقِ اللهِ أجْمَعِيْنَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ سار على سبيله ونَهجه واستن بسنته إلى يوم الدِّين، أمَّا بعدُ:

فقدْ ترجمَ الإمامُ التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذهِ التَّرجَمةِ والتِي تتعلَّقُ بعظيمِ ما أَعَدَّ اللهُ من الْجزاءِ الْحسنِ لِمَنْ أُبتُلِيَ بِولدِهِ، وفَقْدَ الولدَ، ولَمَّا كَانَ هَذَا البابُ متعلِّقٌ بأحكامِ الْجنائزِ ناسبَ أَنْ يذكرَهُ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- في هذا الكتابِ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: عَنْ أَبِي هُرِيرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**لا يَمُوتُ لأَحَدٍ مِنَ الْمسلميْنَ ثَلاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ، إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَم**))، هذا الحديثُ يدلُّ على فضل الصبر والاحتساب عند فقد الولد، وأنَّ احتسابَ فقدِهم يكونُ حجابًا لهُ من النَّارِ، فلا تَمسُّهُ النارُ إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ، والقَسَمُ الَّذِي أقْسَمَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- في كتابهِ بقولِهِ: **{وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً}**، فهذا هو الَّذِي أَقْسمَ به سبحانه، إِنَّنَا سَنَرِدُ على النارِ، فناجٍ بفضلِ اللهِ، ومُكَرْدَسٌ فِي نارِ جهنَّمَ بعدلِ اللهِ، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا.

فمنِ أُبتُلِيَ بِفَقْدِ ثلاثةٍ من الولدِ، فصبرَ واحتسبَ ورجا عند اللهِ حسنَ الثوابِ وحسنَ العاقبةِ والْمآبِ، فإنَّ اللهَ يَجعلُ جزاءَهُ: ((**أَنَّهُ لا تَمَسُّهُ النَّارُ**)) معنَى أَنَّ هذا البلاءَ يكونُ سترًا لهُ، ووقايةً لهُ من النارِ. وفي هذا دليلٌ على فضلِ الصَّبرِ، خاصةً في البلايا والْمَصائبِ، وأنَّ الصَّبرَ يُحْفَظُ العبدُ به إِذَا احتسبَهُ عند اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- من شُرورِ الدُّنيَا والآخرةِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وفي الباب عن عمر، ومعاذ، وكعب بن مالك، وعتبه بن عبد، وأم سُليم.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وفي البابِ عن عمرٍ ومعاذٍ وكعبِ بنِ مالكٍ وعُتبةَ بنِ عبدٍ وأمِّ سليمٍ وجابرٍ وأنسٍ وأبي ذرٍّ وابنِ مسعودٍ وأبي ثعلبةَ الأشجعيِّ وابنِ عبَّاسٍ وعقبةَ بنِ عامرٍ وأبي سعيدٍ وقرَّةَ بنِ إياسٍ المزنيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَمِيْعًا-.

وأبو ثعلبةَ لهُ عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- حديثٌ واحدٌ، وهو هذا الحديثُ، وليسَ هو الْخُشَنِيِّ.

قالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حديثُ أبي هُريرَةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيُّ، حدثنا إِسْحَاقُ بْنُ يُوسُفَ، حدثنا الْعَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ، عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ عَبْدِاللَّهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَنْ قَدَّمَ ثَلاثَةً لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ كَانُوا لَهُ حِصْنًا حَصِينًا مِنْ النَّارِ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدَّمْتُ اثْنَيْنِ، قَالَ: وَاثْنَيْنِ، فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ سَيِّدُ الْقُرَّاءِ: قَدَّمْتُ وَاحِدًا، قَالَ: وَوَاحِدًا، وَلَكِنْ إِنَّمَا ذَاكَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**)).

الشَّرْح:

((**مَنْ قَدَّمَ ثَلاثَةً لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ**)) أي: صغارًا دون البُلوغِ، وَالْحُلُمُ: هو البُلوغُ.

و((**مَنْ قَدَّمَ**)): أي مات قَبْلَهُ، فهم فَرَطٌ لهُ كما سيأْتي.

والفَرَطُ: هو السَّابقُ، وقدَّمَهُم لا يكونُ مقَدِّمًا للولدِ إلا إذا احتسبَهُ عند اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وهذا يستلزمُ أَنَّهُ بِمُجردِ أَنْ تأتيهُ أو يأتيهُ الْخبرُ بمصيبتِهِ بولدِهِ يصبرُ ويحتسبُ، ويثقُ باللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، لأنَّ الصبر عِندَ الصدمةِ الأُولى، فيقدِّمُهم للقاءِ اللهِ، ويقدِّمهُم مُحتسبًا الأجرَ عند اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

واللهُ -جَلَّ جَلالُهُ- هو الَّذِي يجبرُ الكسرَ، ويعْظِمُ الأجرَ، ويْحسنُ العاقبةَ والذخرَ.

((**ثَلاثَةً لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ**)): هذا قيدٌ لِما تقدَّمَ، يكونُ هذا الْحديثُ قيدٌ لِما تقدَّمَ، إذا قيل بِحملِ الْمُطلقِ على الْمقيَّدِ، وبناءً على ذلك قال بعضُ العلماء: إنَّما اشترطَ أنْ يكونوا صغارًا دون الْحُلمَ ؛ لأنَّهم تتعلَّقُ بِهم النُّفوسُ أَكثرَ، والْمصابُ بالصغيرِ الَّذِي لَمْ يبلغِ الْحلمَ أعظمُ من الْمصابِ بالكبيرِ،

ولكن هذا لا يخلو من نظرٍ:

إذا كان الإطلاقُ على إطلاقهِ، فإنَّهُ يشملُ الكبيرَ والصغيرَ، والْمَعنَى في الصغيرِ كما يَحتملهُ النصُّ أنَّ

الصغيرَ فيه معنَى أكثرَ من غيرِهِ، من جهة أنَّهُ يشفعُ، ذلك بأنَّهُ لَمْ يصبْ ذَنْبًا، ولذلك يُرجَى في شفاعتهِ أكثرَ مِمَّا يُرجَى بالكبيرِ الَّذِي خالطَ الذُّنوبَ، وخالطَ الْمعاصِي، ولكِنَّ الصغيرَ أسلمُ لذلك روايةُ القيدِ **لها وجهٌ** من جهة عظيمِ مُصابِها للعبدِ.

وثانيًا: كونُ صغيرٍ دون الْحلمِ لَمْ يصبْ ذنْبًا، والَّذِي لَمْ يصبْ ذنْبًا أرجَى في الشفاعة، وأرجى في قبولِ شفاعتهِ عند اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وأمَّا بالنسبةِ لرِوايةِ الْمُطلقةِ، فشاملة للكبيرَ والصغيرَ، فإنَّهُ قد يكونُ مُصابُ الإنسانِ بالكبيرِ فاجعاً، خاصةً إذا كان بارًّا بهِ، أو مُحسنًا إليه، فيكونُ الْمصابِ بهِ أبلغُ.

وعلى كلِّ حالٍ حديثانِ: أحدُهُما مُطلقٌ، والآخرُ مقيَّدٌ.

قال أبو ذرٍّ: ((**قَدَّمْتُ اثْنَيْنِ؟ وَقَالَ: اثْنَيْنَ**))، ((**قَالَ: وَاثْنَيْنِ**)) هذا من كرمِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ورحمتهِ، وقد سألتِ المرأةُ رسولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بمثلِ هذا، فإنَّهُ بيَّن: ((**أنه مَا مِنْ امْرَأَةٍ تَفْقِدُ ثَلاثَةً مِنَ الْوَلَدِ، قَالَتْ: واثْنَيْنِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَاثْنَيْنِ**)) فهذا من كرم الله وجوده ورحْمته، ونزولُ الوحي على رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كان مباشرةً بعد أنْ سُئل عن الاثنيْن، أطلعه الله -عَزَّ وَجَلَّ- على أنَّ الشفاعة والْخير الْمتعلق بفقد الولد، وفلذة الكبد شاملٌ للاثنين.

سواء قلنا: ثلاثة، أو اثنين، فإنه شاملٌ للذكور والإناث؛ لأن الولد يشمل الذكر والأنثى.

((**فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ سَيِّدُ الْقُرَّاءِ: قَدَّمْتُ وَاحِدًا، قَالَ: وَوَاحِدًا، وَلَكِنْ إِنَّمَا ذَاكَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**))، ((**فَقَالَ أُبَيُّ**)) وهو الصحابي الجليل، سيد القراء، لأنَّه كان أحفظ الصحابة لكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولذَلِكَ لَما ارتج على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في صلاته، قال: ((**أفي الناسِ أُبيٍّ؟ قال: نعم، قال: ما منعَك أن تفتحَ عليَّ آنفًا**)) ففضله الله وشرفه بحفظ القرآن وضبطه وإتقانه، وكان له قصب السَّبَقِ في ذلك، وعلَّم أصحابَ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مما علمه الله.

قال: ((**قَدَّمْتُ وَاحِدًا**)) فبين النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ الفضل يشمل من قدَّم واحدًا، وهذا من كرم الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وجوده على عباده، ولكنه قَيَّدَ ذَلِكَ بالصبر واحتساب الأجر.

وبين أنَّ الصبر يكون عند أول ما يصاب الإنسان؛ لأنه لا يمكن لأحدٍ أن يكون له ولد يعز عليه ثم يخبر بفقده، فيصبر ويحتسب الأجر عند الصدمة الأولى، إلا بقوة إيمان، وكمال يقين في الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولا تظهر السرائر، ولا تنكشف الضمائر في الفجائع والقوارع إلا إذا بُوغِتَ الإنسانُ بها.

فإذا أُخبِر بِها في أول مصابه فإنَّه يردها بالإيمان واحتساب الأجر، وصدق الإيقان في الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

والصبر عند الصدمة الأولى: أي حين ما يصدم الإنسان بالخبر بأوله، أمَّا إِنْ جَزِعَ في أوله وتسخط عن القضاء والقدر -العياذُ باللهِ- وأساء الظن، فهذا لا يشمله الفضل.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هَذَا حَدِيْثٌ غَرِيْبٌ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِيهِ.

الشَّرْح:

والأقوى أنَّ الاستثناءَ للاثنين فقط كما هي الرواية الصحيحة، وكما تقدَّمَ في الحديث الذي قبله. لكنهم لم يسألوا النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عن الواحد، وكان بعضُهم يقولُ: على الرِّجاء أنه سُئِلَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**الاثنين، قال: الاثنين**))، ولم يسألْ عن الواحد، والله أكرم وهو أعزُّ وأحكمُ

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيُّ وَأَبُو الْخَطَّابِ زِيَادُ بْنُ يَحْيَى الْبَصْرِيُّ قَالا: حَدَّثَنَا عَبْدُ رَبِّهِ بْنُ بَارِقٍ الْحَنَفِيُّ قَال: سَمِعْتُ جَدِّي أَبَا أُمِّي سِمَاكَ بْنَ الْوَلِيدِ الْحَنَفِيَّ يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقول: ((**مَنْ كَانَ لَهُ فَرَطَانِ مِنْ أُمَّتِي أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهِمَا الْجَنَّةَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: وَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ يَا مُوَفَّقَةُ، قَالَتْ: فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: فَأَنَا فَرَطُ أُمَّتِي، لَنْ يُصَابُوا بِمِثْلِي**)).

الشَّرْح:

الفَرَطُ: هو السَّابق، فَرَطُ القومِ هو الذي يسبقهم على الماء؛ لكي يستكشف الماء، هو فَرَطُ الواردين، كأن يكون جماعةٌ في سفر ويريدون أن يردوا الماء، فيسبقهم إلى الماء.

فالفَرَطُ: هو السَّابق، وهو من باب تسمية الاسم بالمصدر، يستوي فيه الذكر والأنثى، والقليل

والكثير، تقول: "فَرَطُ القَومِ".

وقوله: ((**فَرَطَانِ**)) أي سابقان، أنه إذا فقد ولديه فقد سبقاه إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وسبقاه إلى لقاء الله -جَلَّ وَعَلا- فيكونانِ شافعيْنِ له عند الله بإذنه.

فقالت عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**فَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: وَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ يَا مُوَفَّقَةُ**))، في قوله: ((**يَا مُوَفَّقَةُ**)) التوفيق نعمة من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، والعبد الموفق هو الذي يُيَسِرهُ الله لليسرى، فيجعله مسدَّدًا في قوله وعمله، ومن أعظم نعم الله على العبد أن يكون موفقًا في أمر دينه ودنياه وآخرته، ولذلك يسأل العبدُ ربه التوفيق، ويسأله السداد، ويسأله الرَّشد.

فهذا فيه تزكية من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- للصديقة بنت الصديق -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، -وَرَضِيَ اللهُ عَنْ أَبِيهَا-.

قالت: ((**فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: فَأَنَا فَرَطُ أُمَّتِي، لَنْ يُصَابُوا بِمِثْلِي**)) -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، فكل مصاب بعده جَلَلٌ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-:

اِصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيْبَةٍ وَتَجَلَّدِ وَاذْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

فما من مصيبةٍ أعظم من فقده -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، ولذَلِكَ يتعزى المسلم، فإذا ذكر الموت نزل بأبيه وأمه وصاحبته وأخيه وأحبابه وأصحابه، تذكر أنه نزل بخير خلق الله-صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- وأن المصاب به يعزى، يكون سلوةً للمؤمنين بكل مصاب، وهو فرط الأمة وهو سابقهم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وبشرهم أنَّه فرطهم على الحوض، وهذا أشارة إلى نوع من التكريم، وإلا فكرامات الله لهذه الأمة ولنبيها -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- عظيمة جليلة كريمة، كله بفضل الله، فالحمد لله الذي جعلنا من أتباعه:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيْهًا فَكِدْتُ بِأَخْصُمِي أَطَأُ الثُّرَيَا

دُخُولِي فِي نِدَائِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

فالحمدُ لله الذي جعلنا من أتباعه، وجعلنا من السائرين على نهجه، نسأله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يثبتنا على سنته وطريقته حتى نلقاه يوم نلقاه والله راضٍ عنا، غير مبدلين ولا خزايا ولا نادمين، ولا مفتونين، برحمته، وهو أرحمُ الراحمين.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رحمه الله تعالى -: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غريبٌ، لا نعرفهُ إلاَّ منْ حديثِ عبدِ ربّه بنُ بارقٍ، وقد رَوى عنهُ غيرُ واحدٍ من الأئمَّةِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثنا أحمَدُ بنُ سعيدٍ المرابطيُّ، أخبرنا حبَّانُ بنُ هلالٍ، أخبرنا عبدُ ربّهِ بنُ بارقٍ، فذكَرَ بنحوهِ، وسماكُ بنُ الوليدِ الحنفيُّ، هو أبو زُمَيْلٍ الحنفيُّ.

الشَّرْح:

قولُه: ((**على الحوضِ**)) فيه إثبات حوضه -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، وقد تواترت فيه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وأنَّ أمته سَتَرِدُ على الحوض، وأنَّ آنيته عدد النجوم، وأنَّه أصفى من العسل، وأحلى من العسل، وأَنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يشرفه ويشرف أمته بهذا الحوض، وسيأتي مزيد بيانٍ له في (**أبواب القيامة**).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الشُّهَداءِ مَنْ هُمْ]**.

الشَّرْح:

الشهداء: جَمع شهيد، **وسُمِّي الشهيدُ شهيدًا**:

قيل: لأنَّ الملائكة تشهده بمعنى تحضره، وهو قول بعض الأئمة كابن الأنباري وغيره.

وقيل: لأنَّه يشهد بمعنى أنَّه يشاهد منزله من الجنة، وما أعد الله له من الكرامة، فإذا حضره الموت، وأريد قبض روحه رأى منازل الجنة، وما أعد الله له من الكرامة فلا يَحسُّ بألم، ولا يَحسُّ بأذى في سكرة الموت، حتى أنَّها تكون أخف ما تكون عليه كقرصة النحلة، فلا يجد من سكرة الموت ومن شدته بلاءً ولا عناءً.

وقيل: لأنَّه يشهد للأنبياء بالبلاغ على رسولهم؛ لأنَّ الله يشرِّفه ويكرمه بهذه المنزلة.

وقيل: إنه يُشهَد له بالأمان من النار، أي إنَّ الملائكة تشهد له أنَّه مُؤَمَّنٌ من النار.

وقيل: لأنَّه تشهده ملائكة الرحمة خاصة دون عموم المسلمين، أي أنه يخص بهذه الخصيصة.

وقيل: غير ذَلِكَ، قرابة سبعة أقوال في سبب تسمية الشهيد شهيدًا.

والمراد بالشهيد في الأصل: منزله من المنازل العظيمة التي أعدها الله في الجنة، وهي في أعالي الجنة

وهذه المنزلة جعلها الله على مراتب:

أعلاها وأسمها: من قاتل في سبيل الله مقبل غير مدبر، صابرًا قاصدًا وجه الله -عَزَّ وَجَلَّ-، أي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فإذا قاتل على هذا الوجه فهو الشهيد

ثم هؤلاء الشهداء الذين يقتلون في أرض المعركة، ويموتون في أرض المعركة ولا يعشون بعد المعركة

هؤلاء منازلهم متفاوتة:

فمن قتل بشرٍّ قتلةٍ وأعظمِ قتلةٍ كان منزله عند الله أعظم، ومنزلته أرفع -نسألُ اللهَ بعزّته وجلاله أن يكرمَنا بالشَّهادة في سبيله، وأن يبلّغَنا منازلَ الشُّهداء-.

ثم الشُّهداءُ أنواعٌ، ذكر النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث أنهم أكثرُ من نوعٍ، وأنَّ الشَّهادةَ ليست خاصةً بالشَّهادة في سبيل الله **من حيث الأصل العام**.

أمَّا من حيث الفضل وما ورد من خصوص الكرامات والمنازل والدرجات العُلا: فإنَّها خاصة بِمَنْ قُتِلَ في سبيل الله في قتال الكفار، وليس في قتال المسلمين، فيخرج قتال أهل البغي والمعتدين، فهؤلاء لا يسمون شهداء، ولا يأخذون حكم الشهيد، **وإنَّما الشهيد** من قاتل أعداء الله القتالَ الشرعيَّ الْمنضبطَ بضوابطه المعروفة، وسار فيه على تقوى من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ورضوان، وأخلص فيه لوجه الله؛ لقوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**من قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا**))، وليس من وَجَّهَ السلاحَ إلى المسلمين، وقاتل المسلمين وعبث بهم، وآذهم، واستباح دماءَهم -والعياذ بالله-، فهذا أبعد ما يكون عن هذا الفضل العظيم، فحرمة المسلم أجل، وأعلى، وأقدس من أنْ تُمَسَّ، وأنْ تُهَانَ، بل قد عظَّم النبيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ذَلِكَ، وأخبر: ((**أنه أعظمُ عندَ الله من هدمِ الكعبةِ**))، وأعظمُ عند الله من زوال الدنيا.

فالشَّهادةُ في سبيل الله إذا توفرت فيها شروطها حاز صاحبها الفضل، **لكن بشرط**:

أَنْ يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، **وأَنْ** يقاتل مقبل غير مدبر، **وأَنْ** يقتل في أرض المعركة. **فإِنْ** عظم بلاؤُهُ كأن يُجدع، وأَنْ يُمَثَّلَ به، وأَنْ يبقرَ، وأَنْ تقطع أشلاه، وأَنْ تسيل دماؤُهُ، فهذا أعلى منزلة عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فهم على مراتب.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ- حَدَّثَنَا الأَنْصَارِيُّ، حَدَّثَنَا مَعْنٌ، حَدَّثَنَا مالك، ح، وحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ عَنْ مَالِكٍ، عَن سُمَيٍّ عَن أَبِي صَالِحٍ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**)).

الشَّرْح:

((**الشُّهداءُ خَمْسَةٌ**)): إجمالٌ قبل البيان والتفصيل، وهم من حيث الأصل كرامةٌ من الله لهذه الأُمّة، أنَّها لا تَختصُّ الشَّهادةُ بالقتل في سبيل الله، في الجهاد في سبيل الله لقتال الكفار وأعداء الإسلام والمسلمين، فهذا كرامةٌ من الله لهذه الأمة أنَّ الشُّهداءَ أكثرُ من نوع، ولا تَختصُّ الشَّهادةُ بِمَنْ قُتِلَ كما ذكرنا في الجهاد في سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وذكر الحافظُ ابنُ حجرٍ -رَحِمَهُ اللهُ- وغيرُه من الأئمة أنَّ الخصالَ أكثرُ من عشرين خصلةً، وذكر أكثرَها بأسانيدَ جيدةٍ، وأنَّ فيهم لديغ العقرب، وفيهم من وقصته دابّتُه، وفيهم من هَوى مِنْ على شاهقٍ، أو مِنْ على جبلٍ، وهم أنواع كُثُرٌ، واللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- تفضَّلَ على هذه الأُمّة بأَنْ جعل الشَّهادةَ أكثرَ من نوعٍ، **ولكنَّ هؤلاء الشُّهداء كوصفٍ عامٍ**.

أمَّا كوصفٍ خاصٍّ: فإذا أُطلِقَتِ الشهادة المراد بها: الشهادة في سبيل الله، وإذا وردت الفضائل العظيمة والخصائص الكريمة فهي خاصة بالقتل في سبيل الله.

ولذَلِكَ يقول العلماء: الشهداء لَهُم حُكمَانِ:

شهيد الدنيا: الذي يعامل معاملة الشهيد، فلا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ويزمل في ثيابه، كما فَعَلَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بشهداء أُحُدٍ، هؤلاء شهداء المعركة، **ويشترط فيهم**: أن يموتوا في المعركة كما قدمنا، وبينا مسائل الشهيد.

النوع الثاني، وهم شهداء الآخرة: فإنه يجمع جميع الأوصاف وهم شهداء الآخرة في الجنة لهم منازل، وهي منازل الشهداء الذين أكرمهم الله بكرامته، فجعلهم بجوار النبيين والصديقين، فهؤلاء أنواع ومراتب، يشمل من ذكر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث، وما ذكر في غيره، فهم أنواع كثر، وهذا كله من فضله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- على هذه الأمة.

((**المطعونُ**)): المطعون هو الذي يموت بالطاعون.

والطاعونُ: مرض كالخراج يخرج من الجسد، وهو مرض معروف جعله الله رجسًا وعذابًا على مَنْ قَبْلَنَا، فأرسله الله على بني إسرائيل، وأرسله الله -عَزَّ وَجَلَّ- على قوم فرعون، وأرسله الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- على أُمُمٍ مِنْ قَبْلِنَا عذابًا ورجسًا.

وأمَّا على هذه الأمة: فإنَّه رحْمة، كما أخبر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وأنَّ الطاعون شهادة لهذه الأمة، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الصحيح: ((**الطاعونُ شهادةٌ لكلّ مسلمٍ**))، فمن مات من المسلمين بالطاعون فهو شهيد.

وذكر بعضُ المتأخرين أن الطاعونَ يشمل ما يسمى في زماننا بمرض (**الْكُوْلِرَا**)، وهذا يحتاج إلى تحقيقٍ وتحريرٍ، لكنه مرضٌ معروفٌ، وأصاب حتى الصحابة في زمن عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وهو المشهور بـ(**طاعون عَمْوَاس**) سنة ثمانية عشرْ من الهجرة.

فهذا النوع من البلاء قال بعض العلماء: إنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جعل الموت بالأسباب المؤلمة، والأمراض الموجعة نوع من الشهادة، ومنها الطاعون؛ لأنه يعظم بلاؤُهُ، وكان عبادة بن الصامت حين أُبتُلِيَ به -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- يقول: (**اللَّهُمَّ إن جعلت فيه الخير فاجعل لآلِ عبادة منه أوفر الحظ والنصيب**) فطعن -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بطاعون عَمْواس.

((**والمبطونُ**)): والمبطون هو الذي يموت بداء البطن.

قيل: الإسهال، **وقيل**: الاستسقاء، وهذا هو الذي أقرب إلى (**الْكُولِرَا**) في بعض أحوالها، وهو الذي يمكن أن يشمل (**الْكُوْلِرَا**) وغيرها إذا كانت فيه هذه الصفة، أنَّه يموت باستطلاق البطن، فتسهل بطنه، ويصيبه الجفاف فيموت.

وكذَلِكَ الاستسقاء وهو مرض معروف، داء من الأمراض الذي تصيب البطن.

وهل يشمل المبطونُ كلَّ من أُبتُلِيَ بداء البطن، فيشمل الأمراضَ الخبيثةَ إذا أصابت جوفَه كداء السَّرطان ونحوه؟

هذا أمرٌ يحتملُه النظرُ، هل قوله: ((**المبطونُ**)) المراد به: جنس المبطون؟ أم المراد بـ(**أَلْ**) في ((**المبطون**)) العهد، أي المرض المعهود المعروف بداء البطن؟ **وجهان**:

أمَّا الذي ذكره العلماء والأئمة **فهو الوجه الثاني**: أنَّه للمعهود.

وأمَّا لفظ الحديث فإنَّه يشمل جنس المبطون، فإذا أُخِذَ بِهَذا المعنى فإنَّه يشمل كلَّ مَنْ مات بسبب داء البطن، كأن تصيبَه قُرحةٌ تكون سببًا في موته، أو يصيبه نزيفٌ داخليٌّ في بطنه فيكون سببًا في موته، ونحو ذَلِكَ، نسألُ اللهَ أن يرزقَنا السَّلامةَ والعافيةَ وجميعَ المسلمين.

((**والغَرِقُ**)): والغرق: الذي يموت بالغرق، سواء في بحرٍ، أو نَهْرٍ، أو بِبِركةٍ، أو خزان ماءٍ، أو غير ذَلِكَ، فإذا مات غرقًا فإنَّه يكون شهيدًا، وهو نوع شهادة.

والشهادة بالغرق إذا قُتِلَ في سبيل الله وهو غريق فإنَّها تكون زيادة فضل؛ لِمَا ثبت في الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أنَّه أَتَى أُمَّ حرامٍ بنتِ مِلْحَانٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، **ونام عندها، ثم استيقظ، وهو يتبسم، فسألته** -رضي الله عنها وأرضها- **عن سبب ذَلِكَ؟ فقال: رأيْتُ أناسًا من أُمَّتي ملوكاً على الأسرَّة أو كالملوك على الأسرَّة يغزون ثبجَ البحر، فقالت: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أن أكونَ أنا منهم؟ في المرّة الثالثة، فقال: أنتِ منهم**))، فخرجت -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في زمان معاوية حتى نزلوا بِبَيْرُوتَ على الشاطئ بالشام، ثم نزلت، فوقصتها دابتُها، فاندقت عنقها، فماتت -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

هذا نوعٌ من الفضل خصّه النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لغزو البحر، فهذا يدلُّ على أنَّه لو مات شهيدًا في غزو البحر جَمَعَ بين الفضلين إذا كان غريقًا، بأَنْ يضربَ فيغرق، ثم يَجمع الله له بين الموت بالقتل في الشهادة في سبيل الله وبين الغرق، كما ذكر بعضُ العلماء أنَّه يكون حائزًا للشهادة بِمرتبة زائدة، **فيجتمع الوصفان**: الغرق، والشهادة في سبيل الله، فتكون له شهادتان، فالغرق نوع من الشهادة.

((**وَصَاحِبُ الْهَدْمِ**)): أي الذي يسقط عليه بيته، أو يسقط عليه سقف، أو ينهدم عليه البيت كما يقع في الزلازل، ونحوها من الكوارث، فهؤلاء كلهم شهداء إذا كانوا مسلمين، فإنَّ موتَهم على هذه الصفة موت مؤلم، ولذَلِكَ خُصُّوا بِهذه الخصيصة أنَّ الله يَجعلُ موتَهم نوعًا من الشهادة.

((**وَالْهَدْمِ**)): خاص بِهدم البيت، هذا هو المحفوظ عند أهل العلم.

وبعضُ المتأخرين يقيس عليه صدام السيارات، **ولا أعرفُ لهذا أصلاً**.

لكن المعروف الهدم عند العلماء هو سقوط الدار، سقوط السقف، والفرق بينه وبين الموت بالسيارات ظاهر؛ لأنَّ الذي يموت بالسيارة لا يعتبر منهدمًا، ولا في حكم المنهدم؛ لأنَّ الصورة ليست صورة هدم، **الهدمُ الذي ورد في الحديث واضحٌ**: أنَّه يسقط عليه بيته، أو يخر عليه السقف،

أو يقع زلزال فيسقط عليه البيت، ويموت بسبب ذَلِكَ، وفي حكم ذَلِكَ ما لو إذا سقط عليه جدار، وانْهَدَّ عليه الجدار فمات بسبب ذَلِكَ، ونحو ذَلِكَ.

((**وَالشَّهِيْدُ فِي سَبِيْلِ اللهِ**)): أي الذي يقتل في سبيل الله، وهو قتيل المعركة.

((**فِي سَبِيْلِ اللهِ**)): هنا مقيَّدٌ، المراد به المعركة، وهي أنْ يُقتَلَ في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله-عَزَّ وَجَلَّ- مقبلاً غير مدبرٍ، يريد وجه الله، وإعلاء كلمته.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وَفِي الْبَاب عَن أَنَسٍ وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَجَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ، وَخَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ، وَسُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، وَأَبِي، وَعَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيْعِ-.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنِ أَسْبَاطِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقُرَشِيُّ الْكُوفِيُّ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو سِنَانٍ الشَّيْبَانِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ السَّبِيعِيِّ قَالَ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ لِخَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ أَوْ خَالِدٌ لِسُلَيْمَانَ: ((**أَمَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يَقُولُ: مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ لَمْ يُعَذَّبْ فِي قَبْرِهِ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: نَعَمْ**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ فِي هَذَا الْبَابِ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ.

الشَّرْح:

هذا يدلُّ على فضل الموت بداء البطن.

((**مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ**)): والمراد بذَلِكَ داء البطن.

وحملَه بعضُهم حملاً مجازيًّا فقالوا: هو أن يمتنع عن أكل الحرام، فإذا امتنع عن أكل الحرام فإنَّه قَلَّ أن يجد مالاً حلالاً، فيموت بسبب ذَلِكَ، وهذا بعيدٌ.

والصَّحيح أن المراد به داء البطن، إمَّا أَنْ يُحمل على العموم، كما ذكرنا، وهذا اللفظ يقوّي: ((**مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ**)) أي كان مرض البطن سببًا في موته، وإذا أُخِذَ بِهذا المعنى العام فإنَّه يشمل الأمراض التي تفضي بصاحبها إلى الموت، أمراض البطن المهلكة، كما إذا أصابه السرطان في بطنه وفي أمعائه، وهكذا إذا أصابته القرحة فأودت بحياته، ونحو ذَلِكَ، فهذا نوع من الشهادة إذا أُخِذَ بعموم داء البطن.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهَيَّةِ الْفِرَارِ مِنَ الطَّاعُوْنِ]**.

الشَّرْح:

ترجم المصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه الترجمة، والحقيقة محلُّها في أبواب الطّبّ والعلاج، ولكنَّه ذكرها؛ لمناسبة كون الطاعون شهادةً، والسنةُ الثابتةُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنه إذا نزل

الطاعون بأرضٍ أنَّه لا يقدمُ عليها، وأنَّه إذا كان في داخل تلك الأرض، أو البلد التي أصابها الطاعونُ فلا يخرجُ منها؛ لأنَّ عمرَ بنَ الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- استشار الصحابةَ مقدمَه على الشام لما نزل به الطاعونُ، فقال له عبدُالرحمن بنُ عوفٍ: ((**أشهدُ أني سمعْتُ رسولَ الله** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يقولُ: إذا سمعْتُم به بأرضٍ فلا تقدُمُوا عليها، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم فيها فلا تخرجُوا منها**))، وهذا راجعٌ إلى التوحيد والعقيدة؛ لأنَّه إذا دخل الأرض الْمُوْبُوءة، وأصابه البلاء، نَسَبَ الموت إلى البلاء، وجعل موته بسبب القدوم.

وهكذا إذا كان في الأرض، وخرج منها وسلم، يقول: إنَّه نَجَا بسبب خروجه، كما قال الله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ}** فهم يخرجون يظنون أنَّ السبب هو الذي ينجيهم، وهذا قادح في الاعتقاد؛ ولذَلِكَ أمر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّه إذا نزل البلاء في موضع أنَّه لا يخرج منه، وأنَّه إذا نزل بموضع لا يقدم عليه، وهي سنة صحيحة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ثم يتبع ذَلِكَ الأخذ بالأسباب، **شريطةَ**: أن لا يعظم السبب كما ذكرنا، فيظن أنَّه مؤثر من دون الله -عَزَّ وَجَلَّ-، **فائدتُه**: أنَّه إذا منع الناس من الخروج، أمن انتشار البلاء بقدرة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهذا ما يعرف بـ(**علم الوباء**)، فهذا من إعجاز النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مِمَّا ثبتت به السنة.

وقوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا عدوى ولا طيرة**)) إنَّما المراد به أَنْ يظن أنَّ العدوى تضر بنفسها، وهذا هو الأصل، ولذَلِكَ قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**فِرَّ من المجذومِ فرارَك من الأسدِ**))، فأثبت العدوى، **وإنَّما أنكر** ما كانت تعتقده الْجاهلية من أَنَّ العدوى مؤثرة بنفسها، ولذَلِكَ قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**فمن أعدى الأوَّلَ؟!**))، أي أنَّهم كانوا يظنون أَنَّ البلاء سببه العدوى، وأنَّ العدوى هي التي تنقل البلاء، فَكَذَّبَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وكَذَّبَ الشَّرعُ هذا، **بدليلِ**: أَنَّ أول الإبل حينما أصابه الجرب من الذي أعداه، فدل على أنَّ الذي ابتلاه هو الله، وأنَّ العدوى لا تأثير لها، وإنَّما هي سبب بقدرة الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وهذا هو قولُ الْمحقّقين في الْجمع بين النصوص الْمختلفة في ظاهرها، والْمتفقة في مضمونِها ومعانيها.

قَال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ذَكَرَ الطَّاعُونَ فَقَالَ: ((**بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلا تَهْبِطُوا عَلَيْهَا**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وَفِي الْبَاب عَنْ سَعْدٍ وَخُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ وَعَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَجَابِرٍ وَعَائِشَةَ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدِيثُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

((**بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**)): هذه هي الأخبار، وليس هذا من مليون سنة، أو سبع مئة مليون سنة، والأمور التي لا يعلمها إلا علام الغيوب، هذا هو العلم ما مات -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- إلا وقد علم الله هذه الأمة ما يتعلق بدينها ودنياها وآخرتها.

((**بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**)): فهو عذاب لِمَنْ قَبْلَنَا، ورحْمَةٌ بِنَا وهذا يعتبر من تفضيل هذه الأمة على غيرها، أنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مع كون هذا الأمر عذابًا أرسله الله على مَنْ قَبْلَنَا ورجسًا على مَنْ قَبْلَنَا، جعله رحْمَةً لنا.

فهذا يذكره العلماء في الأمور التي فضلت بها هذه الأمة، وخصت بها هذه الأمة على من قبلها، فهذا مما فضل الله به هذه الأمة؛ لأنَّها أمة مرحومة: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}**.

((**فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلا تَهْبِطُوا عَلَيْهَا**)): كما ذكرنا؛ لئلا يظن أنَّ العدوى مؤثرة بنفسها، وهذا موجود عند بعض الناس-نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ- خاصة ضعاف الإيمان فإنَّهم يغلون في الأسباب، ويأخذون بهذه الأسباب وكأنَّها قاطعة، والعدل والوسط أنَّ الإنسانَ لا يلغي السببَ، ولذَلِكَ أمرنا الله بأخذ الأسباب، وأمرنا أن نتداوى، كما في الحديث الصحيح في السنن، عن أسامة بن شريك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**تَدَاوَوا عبادَ اللهِ**))، فأمرنا بالأخذ بالسبب، فنحن وسط، وهذه الأمة وسط بين الإفراط والتفريط.

منهم مَنْ يقول: اتْرُكِ السببَ، ولا تتداوى ولا تتعالَج، **ومنهم مَنْ يقول**: السبب هو كل شيء، وإذا لم يكن هناك طبيب فليس هناك دواء، وإذا لم يكن هناك دواء وعلاج فليس هناك نجاة. **وليس الأمر كذَلِكَ**، بل إنَّنَا نقولُ: اذهبْ إلى الطبيب، وتداوى عبدَ اللهِ، ولكن اعلمْ أنَّ الطَّبيبَ لا يغنِي لك من الله شيئًا، وأنَّ الأمرَ كلَّه لله: **{وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}**، فاللهُ سبحانه مسبّبُ الأسباب، هو الذي يسبّبُ الأسبابَ، ولولا تأثيرُ الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولولا قدرةُ الله -عَزَّ وَجَلَّ- ما أثّر السببُ:

فَكَمْ مِنْ صَحِيْحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِنْ مَرِيْضٍ عَاشَ حِيْنًا مِنَ الدَّهْرِ

فالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بعزته وقدرته يخالف الأشياء، ويجعلها مختلفة؛ لأجل التنبيه على أنَّه هو الواحد القهار وأنَّه قهر عباده وخلقه وكل شيء: **{وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}**، فالداء بأمره، والدواء بأمره، والشفاء بيده، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**اشفِ أنتَ الشَّافي، لا شفاءَ إلا شفاؤُك**))، فالشِّفاءُ من الله، والدواء هو الذي أنزله الله، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**ما أنزلَ اللهُ من داءٍ إلا وأنزلَ له دواءً**))، ولذَلِكَ لما كانت الظواهر التي أوجدها الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنَّ الأطباء يعرفون هذه الأمراض، ويعرفون علاجها، أعجزهم الله في بعض الأمراض، فأوقفهم حيارى، وكَبَّلَ أيديهم لا يستطيع أحدهم أنْ يقدم أمرًا أخره الله، ولا أن يؤخر أمرًا قدمه الله؛ لكي يعلم العبادُ أنَّ اللهَ على كلّ شيءٍ قديرٌ.

وهذا من دلائل التوحيد: (**إيجاد الشيء المختلف**)، فإنَّك تجد الشيء على نسق واحد، ثم يضطرب، فتعلم أنَّه ليس بذاته، فمثلاً تجد الطبيب يداوي عشرات الألوف فيشفون، ثم يؤتى بمرضى يمكن بالألوف فيعجز، فدلَّ على أنَّه ليس بحوله ولا قوته؛ لأنَّه لو كان الأمر بحوله وقوته لشفي الجميع، ولو لم يكن له تأثير لما انتفع الجميع، ولكن الله جعل هذا الاختلاف كما ذكر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّه جعل الاختلاف دليلاً على الوحدانية، ولذَلِكَ جعل الليل والنهار، وجعل من كل شيء زوجين؛ لكي يعلم أنَّ هناك إلَهًا واحدًا، فهو سبحانه المتفرد، القادر، القاهر لكل شيء: **{وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}**، فالأسباب لا تؤثر بنفسها، وإنَّمَا تؤثر بربِّها -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: **[بَابَ مَنْ جَاءَ فِيْمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ]**.

الشَّرْح:

تقدَّمَ معنا أنَّ العبدَ المؤمنَ إذا احتُضِر بشَّرته الملائكةُ بما عند الله من المثوبة، فأحبَّ لقاءَ الله واشتاق إلى لقاء الله، فيحبُّ اللهُ لقاءَه.

وأمَّا العبدُ الفاجرُ الكافر فإنَّه إذا احتُضِرَ نزلت عليه الملائكةُ، فبشَّرته بما عند الله من العقوبة، فكره لقاءَ الله، فكره اللهُ لقاءَهُ.

وهذا البابُ متعلّقٌ بأحكام الجنائز؛ لأنَّه يُبَيِّنُ أحوال الموتى، وأنَّ العبادَ كلَّهم منقسمون على فريقين لا ثالث لهما: **{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}**، وهذا كلُّه يظهرُ إذا دَنَتْ للعبد ساعتُهُ، وحانَتْ قيامتُهُ، فإنَّه عندها يبشّر بما عند الله من المثوبة إن كان صالحًا، وبما عند الله من العقوبة إن كان طالحًا، ما ظلم ربُّك الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، **ترى الفريقين:**

فريق السُّعداء: **{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}**.

وأمَّا الفجرةُ والفسقةُ فقد بيَّن اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أحوالهَم: **{وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}**.

هذا هو حال الناس: إمَّا سعداء، **وإمَّا** أشقياء، فليس هناك فريق ثالث، **{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}**، فعند الموت ينقسمُ الناسُ **إلى هاتين البشارتَيْنِ**، لا ثالث لهما:

إمَّا أَنْ يبشّر العبدُ بما عند الله من المثوبة -جعلنا الله وإياكم ذَلِكَ الرجل-، وأولى الناس بالبشارة وأكملهم بشارةً مَنْ كان مستقيمًا على طاعة الله، ملتزمًا بِها، سائرًا على نهجها، محبًّا لما يحبه الله ويرضاه، فتأتيه البشارة على أكمل الوجوه وأتمها.

ولذَلِكَ ترى أهلَ السَّعادة من الصالحين والأخيار والمتقين والعلماء العاملين تجد أحوالهم عند الموت عجيبة، فتجدهم في سرور، وتجد وجوههم مشرقة، ونفوسهم منشرحة، وكلماتِهم كأنَّها ضياء من النور، كل هذا بفضل الله -عَزَّ وَجَلَّ- وتثبيته -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فيختم اللهُ لهم بخاتمة السعداء.

وأمَّا أهلُ العصيان والتَّمرُّد على الله والكفر والفجور فتجدهم بأسوأ الأحوال وشرّها -نعوذُ بالله من الخزي، نعوذُ باللهِ من سوءِ العاقبةِ في الدُّنيا والآخرة، ونعوذُ باللهِ أن نرد مَرَدًّا مخزيًّا، ونسألُه أن يجيرَنا من سوءِ العاقبةِ وسوءِ المآلِ في الدُّنيا والآخرةِ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مِقْدَامٍ أَبُو الْأَشْعَثِ الْعِجْلِيُّ حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي مُوسَى وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ -رضي الله عنهم-.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدِيثُ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

تقدَّمَ معنا شرحُ هذا الحديث ومعانيه.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ مَسْعَدَةَ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ الْحَارِثِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ قَالَ: وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، وحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنَّهَا ذَكَرَتْ أَنَّ رَسُول اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُول اللَّهِ، كُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ! قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**)).

قَالَ الإمامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

هذا الحديث فيه زيادةُ قول أمّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**أَوَمن كراهيةِ الموتِ؟ فكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ فقالَ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **ليس ذَلِكِ**)) أي ليس الأمر كما ذكرت، فليس الأمرُ محبةَ الموت وكراهيةَ الموت، وإنَّما الأمرُ يتعلَّقُ بما يكون للإنسان من أحوال عند نزع روحه، فإنَّه إذا دنت ساعته، نزلت عليه ملائكة: إنْ كان عبدًا صالِحًا كما ذكرنا، وجلسوا منه، ونزلت إليه ملائكةٌ بكفنٍ من أكفان الجنة، وجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يبشّر.

وهكذا إذا كان كافرًا نزلت عليهم ملائكةٌ معهم كفنٌ من أكفان النار، ويجلسون منه مدَّ البصر ثم يبشَّر بالعقوبة والمثوبة.

وهذا كلُّه ثابتٌ في حديث البراء بن عازب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في تفصيل صفة نزع الروح.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِيْمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ عِيسَى حَدَّثَنَا وَكِيعٌ حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ وَشَرِيكٌ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَنَّ رَجُلاً قَتَلَ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-)).

الشَّرْح:

هذا البابُ نَبَّهَ به الْمصنَّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- على حرمة قتل الإنسان لنفسه فينتحر، فلا يجوزُ الانتحارُ.

والأصلُ فيه: ما ثبت في الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّهُ قال: ((**من تحسَّى سُمًّا فهو في نار جهنَّمَ يتحسَّاه، خالدًا مخلَّدًا فيها، ومن طعن نفسَه بحديدةٍ، فمات، فهو في نار جهنَّمَ يَجأها، خالدًا مخلَّدًا فيها، ومن صعدَ إلى شاهقٍ فتردَّى منه، فمات فهو في نار جهنَّمَ يتردَّى من شاهقٍ، خالدًا مخلَّدًا فيها**))، والحديثُ في الصحيح.

وقد أجمع العلماءُ على حرمة قتل الإنسان لنفسه، فإذا قتل نفسه بالسكين، أو بالحديدة، أو رمى نفسه من شاهق، أو فجر نفسه ولو كان بغرض يظنه صحيحًا، فهذا كله من الانتحار المحرم، الذي فيه الوعيد الشديد، وليس هناك أي دليل يدل على استثناء حالة في الانتحار أبدًا.

وأمَّا ما يسمى الآن بـ(**التَّفْجِيْرِ**) أنَّه ينتحر أنَّ هذا يعتبر من الشهادة في سبيل الله **فليس بصحيحٍ**؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- دلت السنة الصحيحة عنه أنَّه لا يجوز للمسلم أن يقتل نفسه، والله تعالى يقول: **{وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ}** فهي نصوصٌ صريحةٌ في الكتاب والسنة.

وأَمَّا مسألةُ ما يقال: إنَّ البراءَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: ((**احْمِلُونِي عَلَى العدوّ**)) أنَّه فتح الثغرة يوم اليمامة **فهذا من الجهل في التفريق ما بين: القتل** بالمباشرة، **والقتل** بالسببية. فإنَّ البراءَ تعاطى السببَ، ولكنَّه لَمْ يباشرْ قتلَ نفسه، وفرقٌ بين مباشرة قتل النفس وهو الانتحارُ المحرَّمُ بنصوص الكتاب والسنة، وبين تعاطي السَّببية المأذون بها شرعًا، وهي الحملُ على العدو؛ لأنَّ الْحَملَ على العدو سببٌ في القتل.

والسببية تنقسم إلى قسمين: سببية مفضية إلى الزهوق، وهي الحمل على العدو، **وسببية** دون ذَلِكَ. وهذا تفصيلُه تكلَّم عليه العلماءُ في ضابط القتل العمد في الفرق بين قتل المباشرة، وقتل السببية، في إثبات صفة العمديّة في القتل، وليس هناك لا في نصوص العلماء، ولا في نصوص الأئمة من أذن للشخص أن يقتلَ نفسًا ولو كان في الجهاد بدعوى أنَّه يريدُ قتلَ العدوّ، فإنَّ الإنسانَ إذا حَمَلَ على العشرة أو العشرين، قالوا: هذا مثل الذي يفجّرُ نفَسه، **وهذا خطأٌ**؛ لأنَّهُ إذا حمل على العشرة، أو دخل بين العدوّ وهم أكثرُ عددًا، فالذي قتله وباشر القتلَ هو العدوّ، وإنَّما هو تعاطى السبب، ولَمْ يفرِّقُوا بين تعاطي السبب وبين المباشرة، وهناك فرقٌ بين القتل بالمباشرة والقتل بالسببية.

لا يجوزُ لمؤمنٍ يؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يقتلَ نفسَه بأي داعٍ كان، ولو أجاز اللهُ للإنسان قتلَ نفسه لأجاز له أن يقتلَها عند شدة البلاء والمرض والسّقم الذي يؤلمه ويزعجه ويقلقه، ومع ذَلِكَ حرم الله عليه ذَلِكَ، وإذا فعل ذَلِكَ فإنَّه بالوعيد الشديد.

ومن هنا أَجْمَعَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- على تحريم الانتحار، وأنَّه لا يجوزُ، وأنَّ النَّفسَ أمانةٌ لا يجوزُ للإنسان أن يقتلَها بمباشرة منه للقتل.

وأَمَّا إذا تعاطى السببيةَ فيفصَّلُ في أحوالِهَا، وتعاطى كلّ حالةٍ حكم على الأصل الذي قررَّهُ العلماء وبينوه.

فالانتحارُ محرَّمٌ في كتاب الله، وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-:

وقد قال اللهُ تعالى: **{وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً}**.

وقال سبحانه: **{وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**.

وقال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الحديث المتقدم: **((مَن تحسَّى سما فهو في نار جهنَّمَ يتحسَّاه خالدًا مخلَّدًا فيه))**، ومن المعلوم أنَّ تحسّي السُّمّ كان معروفًا في أيام النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وقبل أيام النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كانوا يتحسّون السُّمَ لكراهية الدنيا، ويتحسَّون السُّمَّ خوفًا من العدوّ.

وكان بعضُ الملوك والعظماء إذا خشي من عدوّه يضعُ السُّمَّ في خاتمه، فإذا خشي من أن يظفرَ به العدوُّ ليأخذ أسرارًا، أو غير ذَلِكَ، تحسَّى السُّمَّ حتى لا يصلَ إليه، ومع ذَلِكَ عمَّمَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ

عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحكم، ولَمْ يستثنِ منه شيئًا، فدلَّ على أنَّ التَّحريمَ عامٌّ، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يخصِّصَ بدون مخصِّصٍ.

وأمَّا التأويلاتُ والاجتهاداتُ: فإنَّ الأصلَ عند العلماء أنَّه لا اجتهادَ مع النص، فالنصُّ صريحٌ في تحريم هذا النوع من القتل، وأنَّه لا يجوز للمسلم أن يقتل نفسه مباشرة.

وهذا الذي ينبغي أن ينتبهَ له المسلم، فإذا وقف بين يدي الله، وسأله اللهُ عن تحريم الانتحار بعمومه، قال: (يا رَبِّ أتانا في كتابك وسنة نبيك -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّكَ حرمتَهُ).

وأمَّا إذا أخذ بالتأويل، وأخذ يمنةً ويسرةً: فإنَّه سيلقى اللهَ بتبعات اجتهاده في مقابل نصٍّ، حيث لَمْ يأذن اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، كما هو مقرَّرٌ عند العلماء والأئمة أنَّه لا يجوزُ اتباعُ الرأي في مقابل النص، وهو الرأيُ المذمومُ، وسمّاه علماءُ الأصول في الأقيسة: بـ(**فسادِ الاعتبارِ**)، وهو أحدُ القوادح الأربعة عشر: "أن يجتهدَ الإنسانُ في مقابل النص".

النصُّ صريحٌ، نصٌّ عامٌّ في الكتاب: **{وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ}**، وكذَلِكَ في السُّنة، فهذا هو الذي عليه المعوَّلُ، وينبغي للمسلم أن يلتزمَه.

وفي هذا الحديث وعيدٌ شديدٌ لمن قتل نفسه، فإنَّ مَنْ قتل نفسَه لا يُصلِّي عليه الإمامُ، ولذَلِكَ لَمْ يصلِّ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على قاتل نفسه، ومن قتل نفسَه لا يحكمُ بكفره، إلا إذا استحلَّ على وجهٍ يوجبُ التكفيرَ.

وأَمَّا من حيث الأصل فإنَّ قَاتِلَ نفسِهِ يعتبرُ مرتكبًا لكبيرة من كبائر الذنوب، وهو تَحت مشيئة الله: **إن** عذَّبه الله فبعدله، **وإن** عفا عنه فبفضله.

فقَاتِلُ النفس يُصلِّي عليه عمومُ المسلمين، ويمتنعُ من الصلاة عليه الإمامُ العامُّ.

قال العلماءُ: لَمَّا امتنع النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- من الصلاة عليه يمنعُ أهل الفضل كالصالحين والعلماء ونحوهم من الصلاة عليه، **وهذا مَحلُ نَظَرٍ**؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- امتنع في خاصة نفسه، ولَمْ يمنع بقيةَ الصحابة من الصلاة عليه، وفيهم أفاضلُهم -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-، **فالصَّحيحُ** أنَّه يمتنعُ من الصلاة عليه الإمامُ.

وهذا ما يسمّيه العلماءُ من امتناع الإمام زجرًا للغير؛ لأنَّ امتناعَ الإمام هنا سببُه أن يزجرَ الغيرَ عن فعله، وهذا يشرعُ، ذكر بعضُ العلماء: أنَّه يشرعُ في أحوال، وهي معروفةٌ مبسوطةٌ في كتب فروع الفقه.

قَالَ الإمامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذَا:
فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُصَلَّى عَلَى كُلِّ مَنْ صَلَّى إِلَى الْقِبْلَةِ، وَعَلَى قَاتِلِ النَّفْسِ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَإِسْحَاقَ.
وقَالَ أَحْمَدُ: لا يُصَلِّي الْإِمَامُ عَلَى قَاتِلِ النَّفْسِ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ غَيْرُ الإِمَامِ.

الشَّرْح:

(لا يُصَلِّي الْإِمَامُ عَلَى قَاتِلِ النَّفْسِ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ غَيْرُ الإِمَامِ): وهذا هو العدلُ، الإمامُ أحمدُ تمسَّك بظاهر هذه السنة، أنَّ الإمامَ لا يُصلّي زجرًا لغيره عن فعله، وهذا ما يسمى بـ**(التعزير)**، **التعزير يأتي بصور**: ومنها هذه الصورة، هناك تعزيرٌ بالمال، وهناك تعزيرٌ بالدنيا، وهناك تعزيرٌ بالدِّين، فهذا من التعزير بالدِّين أن لا يُصلّي عليه.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الْمَدْيُونِ]**.
قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ غَيْلانَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَوْهَبٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَاللَّهِ بْنَ أَبِي قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ: ((**أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أُتِيَ بِرَجُلٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ فَإِنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا**)).

الشَّرْح:

ترجم المصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه الترجمة والتي تتعلَّقُ بأحكام الصلاة على الجنائز، ومنهم المديونُ، وهو الذي يموتُ وعليه دينٌ.
وكان في أول الإسلام إذا مات الإنسانُ وعليه دينٌ، سأل النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- هل ترك وفاءً؟ أي هل ترك شيئًا يسدّدُ به الدَّينَ الذي عليه؟ فإن قالوا: نعم، صلَّى عليه، وإن قالوا: لا، قال: ((**صَلُّوا على صاحِبِكم**)).

وهو مثلُ المسألة التي تقدَّمت معنا، كان يمتنعُ زجرًا للناس عن الدَّين، ثم إنَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- نسخ هذا الحكم، فقال: ((**مَن تركَ دَينًا فإليَّ وعليَّ**))، وصار يصلّي -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- على المديون، وغير المديون.

والدَّينُ أمرُه عظيمٌ، فهو همُّ الليل، وذلُّ النهار، وبيّنت السنةُ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ المديونَ مرهونٌ بدينه، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**نفسُ المؤمن معلَّقةٌ بدينه حتى يُقضى عنه**)).

قال بعضُ العلماء: إنه يحبسُ عن النعيم حتى يسدَّد عنه الدَّين.

وقيل: غير ذَلِكَ، وهذا أمرٌ غيبيٌّ الله أعلم به لَمْ يرد تفصيلُه، لكنه ورد أنَّ نفسَه معلَّقةٌ بدينه، ومرهونةٌ بدينه.

والرَّهْنُ: هو الحبسُ، والنفسُ المرهونةُ: أي المحبوسة.

وهذا يدلُّ على أنَّه ينبغي للإنسان أن يحرصَ على سداد الديون.

ثم الواجبُ عليه إذا كان عليه دينٌ أنْ يحتاط في الحقوق التي عليه، فيكتبها في وصيته.

ولا يجوزُ له أن يموتَ وعليه دينٌ، ولم يكتبْ وصيتَه؛ لأنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كما تقدَّم معنا قال في حديث ابن عمر في الصحيح عنه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: ((**ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ يموتُ وله شيءٌ يريدُ أن يوصيَ به، يبيتُ ليلتين إلا ووصيتُه مكتوبةٌ عند رأسه**))، فهذا يدلُّ على أنه لا يجوز التفريط في حقوق الناس.

وقد بيَّن النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**أنَّ من أخذ أموالَ الناس دينًا يريدُ أداءَها أدَّى اللهُ عنه، ومن أخذَ أموالَ الناس دينًا يريدُ إتلافَها أتلفَه اللهُ**))، **فالذي يستدينُ من الناس على قسمين: قسمٌ منهم** يأخذ الدين، وفي نيّته أن يسدّدَ، وبمجرد أن يتيسّر له يسدّد.

فهذا مرحومٌ؛ لقوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في الحديث الصحيح: ((**رحمَ اللهُ امرأً سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى**))، ومن السماحة في القضاء في الدَّيْنِ أنَّهُ إذا وجد المال قبل الأجل يسدد، فهذا تصيبه الرحمةُ من الله -عَزَّ وَجَلَّ- بدعوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **إذا كان خبرًا بِمعنى الإنشاء. وأَمَّا إذا كان خَبَرًا**: ((**رَحِمَ اللهُ**)) أي أنَّ الله سيرحمه، فلا إشكالَ.

وأمَّا من أخذ أموال الناس، وهو النوع الثاني، الذي يأخذُ من هذا وهذا، وليس في نيّته أن يسدّد، فهذا بشرٍّ عظيمٍ، وبلاءٍ وخيمٍ، ويعاقبُ على ذَلِكَ أشدَّ العقوبة؛ لأنَّه تحبسُ نفسُه، ويوم القيامة يؤخَذُ من حسناته على قدر ما ظلم الناسَ في أموالهم.

وأمَّا من أخذها يريدُ سدادَها، واستدان وهو يريدُ أن يسدّد فلا بأس، قالت أمُّ المؤمنين ميمونة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**مَا تَرَكْتُ الدَّينَ منذ أَنْ سَمِعتُ رسولَ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يقولُ: منْ أخذَ أموالَ الناسِ يريدُ أداءَها أدَّى اللهُ عنه**))، قالوا: ((**أدَّى اللهُ عنه**)) أي أنَّ اللهَ يوفّقه للسداد.

وقيل: ((**أدَّى الله عنه**)) يعني يوم القيامة، فلو مات الذي نيته أن يسدد لو مات قبل أن يتيسر له السداد، فإنَّ الله يسدد عنه يوم القيامة.

هذا معنى قوله في أحد الوجهين: ((**مَن أخذها يريدُ أداءَها أدَّى اللهُ عنه**))، أي كانت نيته صالحه أنَّه سيسدد.

وعلى كلّ حالٍ، فالإنسانُ لا يستدينُ، إلا إذا وجدت حاجةٌ إلى الدين، والدينُ ليس بعيبٍ ولا معرّةٍ، ولذَلِكَ: ((**تُوُفِّي رسولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **ودرعُه مرهونةٌ عندَ يهوديٍّ في صاعينِ من شعيرٍ**))، الدَّينُ ليس بمعرَّةٍ إذا كان لسببٍ، وكان لأمرٍ يدعو إليه.

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: هُوَ عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**بِالْوَفَاءِ؟**)) قَالَ: ((**بِالْوَفَاءِ**))، فَصَلَّى عَلَيْهِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وَفِي الْبَاب عَنْ جَابِرٍ وَسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ وَأَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ.

قَالَ الإمامُ أَبُو عِيسَى: حَدِيثُ أَبِي قَتَادَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ:

الثابتُ في الصحيح قال: ((**كم دينُه؟ قال: ديناران، قال: هل تركَ وفاءً؟ قالوا: لا، قال: صَلُّوا على صاحبكم**))، فقال أبو قتادة الحارث بن ربعي بن بَلْدَمَة، أو بَلْدَهَة الأنصاري -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، فارس رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**هُما عليَّ يا رسولَ اللهِ**)).

وفيه دليل على مشروعية الكفالة على الدين للميّت، ومذهب الْجمهور صحة ذَلِكَ.

ومنع منها **الإمام أبو حنيفة** في الْميّت المفلس، أنَّه إذا ثبت تفليسه ثم مات لَمْ يكفل.

والصَّحيحُ أنَّه يكفل، وسيأتي بيان ذَلِكَ في أبواب المعاملات المالية.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا أَبُو الْفَضْلِ مَكْتُومُ بْنُ الْعَبَّاسِ التِّرْمِذِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ عَن ابْنِ شِهَابٍ، حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : ((**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْمُتَوَفَّى عَلَيْهِ الدَّيْنُ فَيَقُولُ: هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ مِنْ قَضَاءٍ؟ فَإِنْ حُدِّثَ أَنَّهُ تَرَكَ وَفَاءً صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِلا قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَ، قَامَ فَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا عَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالاً فَهُوَ لِوَرَثَتِهِ**)).

قَالَ الإمام أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللهُ-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَن اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ نَحْوَ حَدِيثِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ صَالِحٍ.

الشَّرْح:

هذا يدلُّ على أنَّه إذا ترك الميتُ وفاءً ينبغي أن يبادرَ بسداد ديونه، والناسُ في هذا الزمان ضيَّعوا هذا الحقَّ العظيمَ، وتساهل حتى بعض طلبة العلم -أصلَحَهُمُ اللهُ- في الفتوى، لا يجوزُ للورثة أن يأخذوا من مالَ أبيهم، ولا من مورّثهم شيئًا، إلا بعد سداد الديون؛ لأنَّ اللهَ جعل قسمةَ التركة بعد الدَّين والوصية، فقال: **{مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}**، وقال في الآية الأخرى: **{مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ}**، وقال في الثالثة: **{مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ}**.

فليس للورثة حقٌّ في المال إلا بعد سداد ديون الميت، وبعد إنفاذ الوصايا، وما يفعله بعضُ الورثة أنَّهم يأخذون مالَ الميت، وينتفعون به، ويقسمونه قبل سداد دينه، هذا عقوقٌ للوالدين، وظلمٌ للميت، وظلمُ الأب والأُمّ في هذا أعظم من ظلم الغير، ليس للورثة حقٌّ، وإذا كان له عمارةٌ وعليه دينٌ تُباع العمارةُ ويُسدَّدُ دينُه، وأمَّا أن يبقى الورثةُ في عمارته ومزرعته، ويتوسَّعون في أمواله، ونفسُه مرهونةٌ ومعلَّقةٌ بدينه، فهذا من الظلم، وينبغي تنبيهُ الناس في الخطب وبيان ذَلِكَ، والإعذار إلى الله؛ لأنَّ هذا فيه ظلمٌ لأموات المسلمين، وقطيعةٌ للرحم، وعقوقٌ للوالدين، فهذا مما يؤذي به الورثةُ مورّثَهم، فلعنةُ الله على الدنيا إذا كانت موجبةً لغضب الله، لا خيرَ فيها، فهذا من لعناتِها وشؤمها وبلائها أن تتعلَّقَ بِها النفسُ على وجهٍ يوجبُ وقوعَ صاحبه في العقوق، أو القطيعة الموجبة للعنة.

الدنيا أحقرُ أن تحولَ بين العبد وبين الإحسان لوالديه، وهي أحقرُ من أن تحولَ بينه وبين طلب

مرضاة الله في برّ الوالدين لو كان متصدقًا، فكيف إذا كان حقًّا للوالدين، هذا من الأمر الذي ضيَّعه الكثيرُ.

وللأسف أنَّ البعضَ إذا قيل له: (توفي أبونا، وترك لنا عمارةً، وعليه ديونٌ)، يقول لهم: (ابقوا في العمارة، وسدِّدوا دينَ أبيكم)، بأي حقٍّ؟! هذه العمارةُ ملكٌ للميّت، وينبغي أن يُسدَّدَ دينُ الميّت، وينبغي أن يُنبَّهَ الناسُ على هذا حقّ الميّت في ماله، ينبغي أن يبادرَ، وأن يخلص الناس، هذا فيه ظلمٌ للميت، وظلمٌ لأصحاب الديون؛ لأنَّ هذا المالَ مستحقٌّ لأصحاب الدُّيون، فبأيّ حقٍّ يمنعُه الورثةُ أن يصل إلى حقِّه؟! هذا من الظلم، فتكون فيه عقوقٌ، وقطيعةُ رحمٍ من جهة بالنسبة للميّت، ويكون فيه ظلمٌ لأصحاب الحقوق؛ لأنَّهم عُطِّلُوا عن حقوقهم، وليس هذا من الوفاء، بل إنَّ أصحابَ الدُّيون لهم فضلٌ على الميّت، فينبغي أن يُرَدَّ الفضلُ بالفضل، ولا يُرَدُّ بالإساءة، هذا هو الذي ينبغي أن يُنبَّهَ عليه، أنَّ سدادَ دين الميّت مقدَّمٌ على حقّ الورثة.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ]**.

الشَّرْح:

ترجم المصنف -رَحِمَهُ اللهُ- بهذه الترجمة والتي تتعلق بعذاب القبر، وسيأتي -إنْ شاءَ اللهُ- في **(أبواب الفِتَنِ)** الأحاديثُ المتعلّقةُ بأمور الآخرة، ولكن المصنِّفَ عجَّل بشيءٍ له مساسٌ بكتاب الجنائز، وإلا فمسائلُ عذاب القبر من مسائل العقيدة، مباحثُها في كتاب الإيمان والتوحيد. فيجبُ على المؤمن أن يؤمنَ بعذاب القبر، وأنَّ العبدَ إذا توفي وقبضت روحُه، ثم غسّل وكفّن وصلّي عليه، **فإنَّه إذا وُضِع في قبره: إمَّا** أن يكون له روضة من رياض الجنة، **أو** يكون له حفرة من حفر النار.

وقد دلّت الأدلةُ في كتاب الله وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- على إثبات عذاب القبر:

قال تعالى: **{وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}**، **فالبرزخ**: هو الانتقال ما بين الحياة الدنيا وحياة الآخرة بالبعث.

وقال تعالى: **{حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ}**، سَمِع أعرابيٌّ قارئًا يقرأ هذه الآية فقال: (زاروها، إنَّهم عن قريبٍ

يرتحلون منها)، فدلَّ على أنَّ القبر مَعْبَرٌ، وليس بِمَقَرٍّ، ولذَلِكَ من الخطأ قول بعضهم: (إلى الْمصيْر الأخيْر، وإلى الْمثوى الأخيْر)، فهذا ليس بالْمثوى الأخيْر، الْمثوى الأخيْر: هو المستقر، إمَّا إلى جنة، وإمَّا إلى نار، هذا هو الْمثوى الأخيْر.

وأَمَّا القبْرُ: فإنَّه مَعْبَرٌ، وليس بِمَقَرٍّ، ولذَلِكَ ثبتت النصـــوصُ في كتاب الله بإثبات عذاب القبر كما في قوله سبحانه عن آل فرعون: **{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}**، فأثبت الله عذاب القبر، وبين أنَّهم يعذبون ويعرضون على النار غدوًّا وعشيًا، وهو نوع عذاب.

وكذَلِكَ أيضا قال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: **{وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ}**، فجعل بِمجرد قبض أنَّهم يصيرون إلى العذاب بكفرهم بالله -عَزَّ وَجَلَّ- واعتدائهم لحدوده، فهذا يثبت عذاب القبر.

وقال بعضُ العلماء: بل إنَّ هذه الآيةَ هي أقوى الآيات في إثبات عذاب القبر.

وأمَّا بالنّسبة للسُّنّة: فقد تواردت الأحاديثُ والأخبارُ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أنَّ عذابَ القبر ثابتٌ، وهو ليس خاصًّا بِهذه الأُمّة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أُمّ المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**أنَّ يهوديةً دخلَتْ عليها، فاستطعمَتْها، فأطعمَتْها أُمُّ المؤمنين، فقالَتِ اليهوديةُ لعائشةَ: أعاذَكِ اللهُ من عذابِ القبرِ، فانزعجَتْ عائشةُ، فلما دخلَ عليها رسولُ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أخبرتْه، فقال** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **هل شعرْتِ أنَّه أُوحِي إليَّ أنَّكم تُعذَّبون، أو تُفتنون في قبوركم كفتنةِ الدَّجَّالِ، أو أشدَّ، قالَت** -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: **فما رأيْتُ رسولَ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **صلَّى صلاةً إلا تعوَّذَ فيها من عذابِ القبرِ**)).

وكذَلِكَ في الحديث الصحيح: ((**أنَّه أمرَ بالتعوُّذ من أربعٍ: من عذاب الدُّنيا، وعذاب القبر**))، وذكر فيها ((**عذابَ الدُّنيا، وعذابَ القبر**))، وفيه دليلٌ على إثبات عذاب القبر.

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازبٍ عند أحمدَ في مسنده أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**خرجَ في جنازةِ رجلٍ من الأنصارِ فجلسَ، وجلسَ الصَّحابةُ حولَه، وجعلَ ينكتُ بعودٍ الأرضَ، فقالَ** -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: **تعوَّذُوا باللهِ من عذابِ القبرِ، تعوَّذُوا باللهِ من عذابِ القبرِ، تعوَّذُوا باللهِ من عذابِ القبرِ**))، ثم ذكر الحديثَ، فقال: ((**إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا احتُضر نزلت إليه ملائكةٌ**

بيضُ الوجوه من السَّماء، معهم كفنٌ من أكفان الجنة...)) الحديث، فقال: **((تعوَّذُوا باللهِ من عذابِ القبرِ))**.

فعذابُ القبر مذهبُ أهل السنة والجماعة أنَّه ثابتٌ، والنصوصُ دالةٌ عليه.

وهذا العذابُ على الروح، والجسدُ تابعٌ للروح، وليس على الروح فقط كما **يقولُ البعضُ**، ولا على البدن فقط كما **يقولُ البعضُ**، ومذهبُ أهل السنة والجماعة والمحقّقين أنَّه على الروح، والجسدُ تابعٌ.

والدُّورُ ثلاثةٌ:

دارُ الدُّنيا: وهي دارُ الحياة، العبرةُ بالجسد، والرُّوحُ تبعٌ، ولذَلِكَ تَجد كثيرًا ما يتألَّمُ الْجسدُ، والألَمُ على الروح تبعٌ.

وأمَّا دارُ البرزخ والقبر: فالعذابُ والنعيمُ للروح، والجسدُ تبعٌ، فيُنعمُ ويُعذَّبُ الْجسدُ أيضًا بالتبعية.

وأَمَّا دارُ الآخرة: فيكملُ بِها النَّعيمُ والعذابُ حيث يكونُ على الروح والْجسد، كما حَقَّقَهُ السّفارينِيُّ في العقيدة، وكذَلِكَ أيضًا ابن أبي العزِّ في (شرح العقيدة الطحاوية)، وغيرهم من أئمة العلم في تقرير مذهب أهل السنة والجماعة.

فعذابُ القبر ثابتٌ، والنصوصُ دالةٌ عليه.

وترجم المصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِهذه الترجمة؛ لأهَمِيَّة هذه المسألة في (كتاب الجنائز).

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ خَلَفٍ الْبَصْرِيُّ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ عَن عَبْدِالرَّحْمَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ سَعِيْدٍ بْنِ أَبِي سَعِيْدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ، أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالآخَرُ النَّكِيرُ، فَيَقُولانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ؟ فَيَقُولانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لا يُوقِظُهُ إِلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ للأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاعُهُ فَلا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ**)).

الشَّرْح:

((**أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ**)): هذا فيه تَهويلٌ في المنظر وتَخويفٌ، ولذَلِكَ يكون فيه هولُ المطلع بِهَيْبَةِ ما هو قادم عليه وهي فتنةُ القبر.

((**يُقَالُ لأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالآخَرُ النَّكِيرُ**)): وهذا فيه التسميةُ للملكين، واعتمدها كثيرٌ من العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- على ظاهر هذا الحديث الحسن.

وقال بعضُ الفقهاء: إنَّهما منكرٌ ونكيرٌ للكافر، ومبشّرٌ وبشيرٌ للمسلم، وليس في هذا دليلٌ يدلُّ عليه.

الذي ورد هذه التسميةُ، وهي شاملةٌ للمسلم والكافر، والبرّ والفاجر، وسياقُ الحديث يدلُّ على هذا أنَّهما ملكانِ يأتيان للمسلم والكافر.

((**فَيَقُولانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**))، ((**فَيَقُولانِ**)): يُخاطبان من يسمع، وهذا يدلُّ على أنَّه يبعث، وفيه إثباتُ البعث بعد الموت أنَّه يبعثُ بعد ما يموتُ، وهذا البعثُ في القبر أنَّه يَحْيَى في القبر، ويُحْيِيهِ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بقدرته الذي أمره إذا أراد شيئًا أن يقولَ له كُنْ فيكون.

((**فيُجلسانِه**))، في حديث البراء -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**فيقعدانِه**)) أي يُجلسانه؛ لأنَّه يوضع الميت على شقه الأيمن مستقبلاً القبلة كما تقدَّم معنا في صفة قبر الميت.

فيأتيانه ملكان فيقعدانه، وهذا يدلُّ على أنَّه يُجلس ويُقعد، كيف يُجلس ويُقعد وقد تفجَّرَ وتقطعَتْ أشلاؤُهُ؟ وما مصير الذين يُحرقون ويصيرون رمادًا؟ وما مصير كذا وكذا؟ كله لا تأثيرَ له؛ لأنَّ النَّقلَ يُوقف العقلَ، فهذه أمورٌ لا تدركُها العقولُ، ولذَلِكَ أوقفنا النصُّ عند حَدٍّ ينبغي علينا الإيمانُ والتسليمُ به، فالذي خلق وأوجد قادرٌ على كلّ شيءٍ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولا يعجزُه شيءٌ، يُقعدانه في بَحر، يُقعدانه في كهف، يُقعدانه وقد تفجَّرَتْ وتقطعَتْ أشلاؤُهُ وتَمزقَتْ أعضاؤُهُ، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**يقعدانِه**)) يقعدانِه، كيف يكونُ؟ وكيف والقبورُ متدانيةٌ؟ وكيف يفسحُ في القبر والقبورُ بعضُها متجاورٌ؟ كلُّ هذا لا تدركُه العقولُ، فهذا أمرٌ أوقفنا عنده النصُّ، فنقفُ حيث أوقفنا النصُّ، لا نزيدُ على ذَلِكَ، ولا نُنقصُ منه.

((**فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**)): يسألانِه عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ما تقولُ في هذا الرجل؟ وفي حديث البراء أنَّهُ: ((**مَنْ رَبُّكَ؟ يقولُ: رَبِّيَ اللهُ، ويسألانه عن دينه: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام**)).

((**فيقولُ: ما تقولُ في هذا الرَّجل؟ فيقولُ: هو عبدُ الله ورسولُه**)): هذه مسائلُ القبر، ويثبِّتُ اللهُ فيها الذين آمنوا بالقول الثابت، ولذَلِكَ ثبت في الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- : ((**أنه كان إذا فرغَ من دفنِ الميّتِ يقولُ: استغفِرُوا لأخيكم، واسألُوا له التَّثبيتَ؛ فإنَّه الآنَ يُسأَلُ**))، فيحتاجُ المسلمُ في هذا الوقت إلى التثبت، إلى الدُّعاء أن يثبّته اللهُ، فيسأل العبدُ ربَّه لأخيه وأخته المسلمة إذا قُبرت أنَّ اللهَ يثبّتها عند السُّؤال: (اللَّهُمَّ ثبتِّه عند السؤال، اللَّهُمَّ ثبّته بالقول الثابت)، ونحو ذَلِكَ؛ لأنَّه قال: ((**أسألُوا لأخيكم التَّثبيتَ**)) أي كلّ ما يدلُّ على التثبت، ولم يخصَّ ذَلِكَ بلفظٍ معينٍ، فكلُّ ما يسأل به الله -عَزَّ وَجَلَّ- التثبيت فهو داخلٌ في هذا العموم، فيسأل اللهَ الثباتَ للسائل.

((**أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا**)) ((**قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا**)): وهذا يدلُّ على أنَّهما يساقانِ للمؤمن، ويطلعُهم اللهُ على إيمانه، ويساقانِ للكافر والمنافق، ويطلعُهم اللهُ على نفاقه وكفره.

((**قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ**)): أنَّ هؤلاء رسلٌ من الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ومعناه أنَّ اللهَ لا يظلمُك، يعني ما جئنا نَمتحنُك ونحنُ لا ندري أنَّك مؤمنٌ أو كافرٌ، بل إنَّنا على علمٍ بعلم الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهذا كلُّه فيه تشريفٌ، وفيه تخويفٌ، وهكذا أمورُ الآخرة تدورُ ما بين هذين الأمرين: ما بين التَّشريف، والتَّخويف.

((**ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ**)): فيه إثباتُ فسحة القبر، وهذا ما يحتاجُه أمواتُ المسلمين، ولذَلِكَ ثبت في الحديث الصحيح أنَّه لما قُبض أبو سلمة ومات وصاح سمع النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الصَّوتَ من الدَّار، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا تقُولُوا إلا خَيْرًا؛ فإنَّ الْمَلائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ، اللَّهُمَّ اغفر لأبي سلمةَ، وارفعْ درجتَهُ في الْمهدِيِّينَ، واخلُفْهُ في عقبِهِ في الغابرينَ، واغفرْ لنا وله يا ربَّ العالَمِيْنَ، وافسحْ له في قبْرِهِ، ونوِّرْ له فيه**))، فهذه من الأمور التي يحتاجُها الميّتُ، أنَّك تدعو له بفسحة القبر والنور، أمَّا النور؛ فلأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ثبت عنه في الصحيح أنَّه قال: ((**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُؤَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا**))، ولذَلِكَ قال: ((**وَإِنَّ اللهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلاتِي عَلَيْهِم**)).

وكونه يُفسَحُ له سبعون ذراعًا هذا مِمَّا ينبغي الإيمانُ به، أنَّ اللهَ يفسحُها بِهذا القَدْرِ، وقادرٌ على أن يُفسحَ أكثر، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ، وكيف تُفسَحُ القبورُ وهي متدانيةٌ متقاربةٌ؟ وكيف يُفسَحُ في القبر أموات لا يعدون ولا يحصون؟! كلُّ ذَلِكَ علمُه عند الله، ولا يُنبِّئُكَ مثل خَبِيْرٍ، واللهُ على كلّ شيءٍ قديرٌ، لا يعجزُه شيءٌ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

((**ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ؟ فَيَقُولانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لا يُوقِظُهُ إِلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ**))، هذا حالُ السُّعداء: **{يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ}**، **{إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ}**: فائدةُ التوحيد أنَّ اللهَ يُسعدُ به عبدَه في الدُّنيا والآخرة، **{إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ}**، هذا هو حالُ أهل السعادة؛ لأنَّهم يعيشون هذه الدنيا في المهانة والمذلّة، فهي ضرّة الآخرة، وليسوا من أهلها، فيبدأ التكريمُ، وبِمجرد أن تقبضَ روحُ المؤمن أو تدنو ساعتُه فإنَّه يبدأُ التكريمُ.

فلذَلِكَ قالت فاطمةُ كما في الصحيح: ((**وَا كَرْبَ أَبَاهُ**)) لَمَّا رَأَتْ رسولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في سكرات الموت، قال -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**لا كَرْبَ عَلَى أَبِيْكِ بَعْدَ اليومَ**)).

فإذا قُبضت روحُه فهو من أسعد الناس وأشوقهم، حتى إنَّهُ حال نزع روحه بعد أن يرى مقعدَه من الجنة وما أعدَّ اللهُ له من الثواب وحسن العاقبة والمآب لو خُيِّرَ بين أهله وماله وولده وبين ما هو قادمٌ

عليه لاختار على ما عند الله على أهله وماله وولده، ثم إذا نزل في قبره فإنَّه يريدُ أن يرجعَ إلى أهله؛ حتى يخبرَهم ما نال، فكم كان ذليلاً بين أهله، كم أمرهم بالمعروف، وكم نَهاهم عن المنكر، وكم سخروا منه، وكم آذاه قومُهُ، وكم، وكم؛ لأنَّه حالُ السعداء، فيُريد أن يرجعَ؛ حتى يقولَ لَهم، ولذَلِكَ قال: **{يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ}**.

فهؤلاء هم أولياءُ الله، وأهلُ طاعته، وأهلُ محبته، وهذا هو الذي يُسلّي الإنسانَ في نكد الدنيا ونغصها ومهانة أهلها ومذلتها، فإنَّها لا تغني له من الله شيئًا في جنب هذا النعيم المقيم، ثم يُغمسُ يوم القيامة غمسةً من كان أبأس الناس في هذه الحياة وأشدّهم عناءً وعذابًا وبؤسًا، فيُغمسُ في نعيم الجنة غمسةً، يقال: ((**عبدِي، هل مَرَّ بك بؤسٌ قط؟ فيقولُ: لا، وعزتِكَ**)) ينسى أنَّه مَرَّ به بؤسٌ، **{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}**.

فيقول: يريدُ أن يرجعَ إلى أهله، فيقالُ له: ((**نَمْ صالِحًا**))، كما في حديث البراء بن عازب: ((**نَمْ صَالِحًا**))، ((**نَمْ صَالِحًا**)) على أنَّ صالِحًا حَالٌ منه، أنَّهُ عبدٌ صالِحٌ، فينام نومةَ الصالِحِيْن.

وقيل: نام نومًا صالِحًا لا يقلقُك، ولا يزعجُك شيءٌ حتى يبعث اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- الموتى.

((**حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ**)): يبعثُه من مضجعه ذَلِكَ، دلَّ على أنَّه يبعث بعثةً واحدةً للآخرة، **وما يقوله البعض** كما يقول التِّيجَانِيُّ وغَيْرُهُ: (أنَّهُ التقى بالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يقظةً، وأنَّه أعطاه الأذكارَ، وأعطاه)، ما فيه بعد الموت إلا بعثة للآخرة، ولذَلِكَ قال في شهداء أُحد: ((**أَمَا إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ الْعَهْدُ مِنِّي أَنَّ مَنْ مَاتَ لا يَرْجِعُ إِلَيْهَا**))، فلا يبعثُ إلا هذا البعث بعث الآخرة الذي يبعثُ منه إلى حسابه ونشره وديوانه، وغيرها من أمور الآخرة وأهوالها، سلَّمنا اللهُ وإيّاكم منها.

((**وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لا أَدْرِي**)): أمَّا الكافر فيقول: (ها، ها، لا أدري)، والمنافق يقول: (سَمِعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه).

والفرق بين الكافر والمنافق: أنَّ المنافقَ يُظهرُ الإيمانَ، ويُبطنُ الكفرَ، ولذَلِكَ كما خدع المسلمين يخدعُ يوم القيامة، ويضربُ بينهم وبين المؤمنين: **{بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}**، فهؤلاء المنافقون كما خدعوا المسلمين في الدُّنيا يُخدعون في الآخرة، ويكونون مع المؤمنين حتى يُحال بينهم وبين المؤمنين، كما أنَّ ظاهرَهم الْخَيْرُ وباطنهم الشرُّ، أُعطُوا الظاهر أنَّهم مع الْمؤمنيْن، ثُمَّ يأخذُهُم اللهُ أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ بأعمالهم، فهذا حالُ المنافق، ولذَلِكَ

يقول: (**سَمِعْتُ النَّاسَ يقولون شيئًا فقلته**)، فهو يُظهر شيئًا لا يعتقده في باطنه، وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ متعلّقٌ بالجَنَان وباللسان وبالجوارح والأركان، فينبغي للمسلم أن يكونَ مؤمنًا مُحَقِّقًا للإيمان على وُفْقِ مُرَادِ الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فالمنافق يقول: (**سَمِعْتُ النَّاسَ يقولون شيئًا فقلته**).

وفي الرِّواية الأخرى: ((**هَا، هَا، لا أَدْرِي، فَيُقَالُ: لا دَرَيْتُ، وَلا تَلَيْتُ**))، ((: **لا دَرَيْتُ، وَلا تَلَيْتُ**)) وهذا من الإعجاز؛ لأنَّ الإنسان: إمَّا أن يدري، وإمَّا أن يتلو.

العلم: إمَّا أن يأتيَ بالقراءة، وإمَّا أن يأتيَ بالدِّراية.

القراءة: أن يقرأَ على أهل العلم، وأمَّا الدِّراية: فهي العلومُ المستفادةُ بالْخبرة والنَّظر، وليس معنَى ذَلِكَ أنَّ الشرع يُؤخَذُ بالدِّراية، لا، إنَّما يؤخذ بالرواية؛ لأنَّه سنّةٌ متبعةٌ، الشَّرعُ سنّةٌ متبعةٌ.

وأمَّا بالنّسبة للعلوم كلّها: إمَّا رِواية، وإمَّا دِراية، أن يأخذَها روايةً بالتلقي، وإمَّا أن يأخذَها بالخبرة والمعرفة، ولذَلِكَ قال تعالى: **{يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}**، فهذا العلمُ الظاهرُ في الدنيا الذي يُؤخذ بالكسب والدِّراية.

فهو يُقال له: ((**لا دَرَيْتَ، وَلا تَلَيْتَ**)) -نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ-، وهذا يدلُّ على فقره من العلم النافع، أنَّه ليس عنده علم، ثُمَّ يُضرب بالْمرزبة من الْحديد.

((**فَيَقُولانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا**)): كُنّا نعلمُ ما أنت عليه من الإيمان والكفر، ما جاءوا يسألونه لأجل أن يطلعَهم هل هو مؤمنٌ أو كافرٌ، وإنَّما هو امتحانٌ، كما ذكرنا، وهذا وجهُ الفتنة والامتحان.

((**فَيُقَالُ للأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ**)): وفي حديث البْراء: ((**أَنَّه يُضرَبُ بِمرزبةٍ مِنْ حَدِيدٍ**))، وهذه المرزبة يُضرب بِها فيصيح، فيَسمعه جَميعُ مَنْ خلق الله، إلا الْجنَّ والإنسَ، ولو سَمعوها لصُعِقُوا -والعياذُ باللهِ-، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**لولا أَنِّي أَخْشَى أَنْ لا تَدَافَنُوا لَسَأَلْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ**))، ولذَلِكَ عذاب القبر لا يعلمُ به أحدٌ، ولا يُعلَمُ إلا من طريق النص.

وما يشيعُ الآن أنَّ البعضَ يقول: إنَّ هناك شريط، وأنَّهُ سَمِعَ عذابًا، وسُجِّلَ، لا يَجوز لمسلم أن يعتقدَ أنَّ هذا عذاب القبْرِ؛ لأنَّ النص حِيْلَ بين الأمة وبيْن سَماعِها، لكن أن يستفيدَ من هذا وأن يعتقد أنَّ عذاب الله أعظم؛ من أجل أن يعتبَرِ ويتعظ، هذا شيء أخر.

أمَّا أن يعتقدَ صِدْقَ ذَلِكَ فلا؛ لأنَّ هذا أمرٌ موقوفٌ على الوحي، وموقوفٌ على أمر يُثبت لنا أنَّ هذا من أمر البَرْزَخِ، ولذَلِكَ لا يجوزُ أن يعتقدَ شيئًا من أمور الآخرة إلا بنصٍّ ودليل، فما دلَّ عليه الدَّليلُ

يعتقدُ، وما لا يدلُّ عليه الدَّليلُ لا يعتقدُ، لكن لو أنَّه تأثر بسماعه واتعظ، عليه أن يوقنَ أنَّ عذابَ الله أشدُّ من هذا، وأنَّ ما عند الله أعظمُ من هذا: **{إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً}**.

فالعذاب الذي أعدّه اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: **{إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً}** هذا يدلُّ على أنَّ ما وراء العبد من أمور الآخرة فوق ما يَخطر له على بالِهِ، وفوق ما يَخطر على ظنِّهِ، **((وأنَّ ضرسَ الكافرِ مثلُ جبلِ أُحُدٍ، وأنَّ مقعدَه ما بين إِيْلِيَا التي هي بيت المقدس والْحجاز))**، وهذا يدلُّ على عظم أمر الآخرة، وأنَّها فوق ما يتصوّره الإنسانُ.

ولذَلِكَ ينبغي للإنسان أن يتعظَ بِهذه النصوص الواردة والصحيحة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وأن يَجعلها حافزًا له على العمل، وما أَدَّبَ الْمؤمنَ شيءٌ بعد الإيمان بالله وتوحيده وأسْمَائه وصفاته وكتابه ومواعظه، مِثْلُ ذِكْرِ الآخرة، والإنسان الذي يذكر أنَّه ستمر عليه مثل هذه الساعة وهو ضجيع اللحد والبلى، لا ينفعه مال ولا بنون، وأنَّه مرهون بقوله وعمله، فإنَّ هذا من أعظم ما يعينه على كثرة العمل الصالِحِ، والعفة عمَّا حرَّم الله -عَزَّ وَجَلَّ-، الآخرة تُهَذِّبُ أخلاقَ المؤمنين.

((فَيُقَالُ للأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاعُهُ)): هذا من عاجل العذاب أنَّه يُضيَّق عليه في قَبْرُه حتَّى تَختلف فيه أضلاعه كافرًا أو منافقًا، وذُكِرَ الكافرُ، والْمنافقُ أشدُّ.

((فَلا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ)): لا يزال فيها معذبًا عذابًا لا ينقطع وهذا **قيل**: إنَّ العذابَ لا ينقطعُ إلا الفترة التي ما بين عذاب النفخة الأولى والنفخة الثانية، وهي قدرها أربعين، ولذَلِكَ: **{قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}**، **يقال**: إنَّ هذه هي الفترة التي تكون ما بين برزخ القبر وعذاب الآخرة، وإلا فهو في عذابٍ مقيمٍ -نسألُ اللهَ السَّلامةَ العافيةَ-، **{لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وَفِي الْبَاب عَن عَلِيٍّ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ وَأَبِي أَيُّوبَ وَأَنَسٍ وَجَابِرٍ وَعَائِشَةَ وَأَبِي كُلُّهُمْ رَوَوْا عَن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فِي عَذَابِ الْقَبْرِ.

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

الشَّرْح:

هو ترجم بـ(عذاب القَبْرِ) وهذا من باب التَّنبيه بالشيء على نظيره، هو الحقيقة عذابُ القبر ونعيمُ القبر، والحديثُ فيه العذابُ، وفيه النعيمُ، والعلماءُ يذكرون العذابَ من باب التنبيه بالنظير على نظيره، وإلا فالأصلُ فيه نعيمٌ، وفيه عذابٌ، وليس القبرُ وحدَه عذاب، هذا ينبغي التَّنَبُّهُ له من باب ذكر الشيء، والتنبيه على نظيره، من ذكر النظير، والتَّنبيه به على نظيره.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا هَنَّادٌ حَدَّثَنَا عَبْدَةُ عَنْ عُبَيْدِاللَّهِ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)).

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْح:

هذا يدلُّ على نوعٍ من فتن القبر، وامتحان القبر، أنَّهُ يعرض عليه مقعده، فيزداد فرحًا وشوقًا إلى الآخرة إن كان مؤمنًا، ويزداد خوفًا من الآخرة إذا كان كافرًا.

وهذا نوع من النعيم، ونوع من العذاب، نوع من النعيم للسعداء، ونوع من العذاب للأشقياء لأنَّ الكافر يَخاف يقول: ((**رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ**))، كما في حديث البَراء أنَّه إذا رأى مقعده من النار يقول: ((**رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ**))؛ لأنَّ ما بعد القبر أشدُّ، فهو من عذاب إلى أشدّ منه -نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي أَجْرِ مَنْ عَزَّى مُصَابًا]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا يُوسُفُ بْنُ عَيْسى، حَدَّثنا عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ، حَدَّثنا واللهِ! مُحَمَّدُ بنُ سُوْقَةَ عَنْ إِبْرَاهِيْمَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِاللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((**مَنْ عَزَّى مُصَابًا فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ**)).

قَالَ الإمامُ أَبُو عَيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ-: هَذَا حَدِيْثٌ غَرِيْبٌ، لا نَعْرِفُهُ مَرْفُوْعًا إِلاَّ مِنْ حَدِيْثِ عَلِيِّ بْنِ عَاصِمٍ.

وَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ سُوْقَةَ بِهَذَا الإِسْنَادِ، مِثْلَهُ مَوْقُوْفًا، وَلَمْ يَرْفَعْهُ.

وَيُقَالُ: أَكْثَرُ مَا ابتُلِيَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ بِهَذَا الْحَدِيْثِ، نَقَمُوا عَلَيْهِ.

الشَّرْح:

هذا الحديثُ ضعيفٌ، وتعزيةُ المصاب فيها أجرٌ عظيمٌ بأصل الشرع، أنَّ من عزَّى مصابًا كان له أجرٌ من الله -عَزَّ وَجَلَّ- في تلك التعزية.

أَمَّا قَدْرُهُ: بأنَّه يكونُ مناسبًا للمصاب، فالْحديثُ ضعيفٌ، لكنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يَجعل أجرَ التعزية بقدر ما يَجعله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وتتفاوتُ التعزيةُ، فمن حصلت له المشقةُ في التعزية أعظمُ من الذي يأتي من مكانٍ قريبٍ، والذي يعزّي مصابًا، فيؤثر، ويقولُ الكلامَ النافعَ، ويقولُ ما ورد في كتاب الله وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، ويعظُ الموعظةَ المؤثرةَ التي يُثبَّت بِها القلبَ، أجرُه أعظمُ مِمَّنْ يأتي يعزي وينصرف.

ومن يعزي، فيأمرُ بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويبيّنُ السُّنةُ وهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في التعزية، وترك الأمور التي لا أصل لَهَا، وترك البدع والْمُحدَثَاتِ، أجرُه أعظمُ مِمَّنْ يسكت على ذَلِكَ.

فالمقصودُ: أنَّ العبادَ تتفاوتُ درجاتُهم في التعزية، فأعظمُ الناس فيها أجرًا من تَحَرَّى سنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهديه، ونفع الله به إخوانه المسلمين.

والتعزيةُ: تَفْعِلَةٌ مِنَ العَزَاء، أن يقالَ للإنسان ما يعزّيه، أي يسلّيه عن مصابه.

وهذا من أعظم ما يكونُ إذا كان بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولن تَجدَ موعظةً أبلغَ من كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ-، كما قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}**، وكلمةُ الله في

كتابه، وكلماتُ الله في كتابه دواءٌ وبلسمٌ وشفاءٌ لِمَا في الصدور، بِها تَحيا القلوبُ، وبِها تطمئنُ، تَجِدُ الإنسانَ مصابًا بعزيزٍ، فقده فإذا ذَكّرِ بالآية من كتاب الله انشرح صدرُه، وأطمأنَّ قلبُه، وأيقن بِما عند الله من الْمثوبة، فتعزَّى وتسلَّى، وجعل الله له في ذَلِكَ العزاء والإيمان واليقين خَلَفًا من كل فائت، في اللهِ عِوَضٌ مِنْ كُلِّ فَائِتٍ، ومن عرف الله بأسْمائه وصفاته وكرمه وجوده وحلمه ورحمته، علم أنَّ اللهَ لا يُخيبه، وأنَّ الله لا يريدُ بالْمؤمن إلا كُلَّ خَيْرٍ، ولذَلِكَ قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**عَجَبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ خَيْرٌ**))، وهذا من الله؛ لأنَّ اللهَ أمر نبيَّه -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أن يقولَ لنا هذا، فنعتقدُ أنَّ اللهَ لا يريدُ بالمؤمنين إلا خيرًا.

فمن انطلق من هذا المنطلق في تعزيته لإخوانه وتسليته لَهم بِما ورد في الكتاب والسنة، ما أعدَّ الله لَهم، فإنَّ هذا بِخيْرِ الْمنازل عند الله.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِيْمَنْ يَمُوْتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ]**

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَأَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ قَالا حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْن أَبِي هِلالٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ سَيْفٍ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلا وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ**)).

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللهُ-: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

الشَّرْح:

هذا البابُ ترجم به الْمصنّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- لتعلُّقِهِ بكتاب الجنازة، وأعدَّهُ بعضُ العلماء من علامة حسن الخاتِمَة أن يَموتَ الإنسانُ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة.

والْحديثُ برواية الترمذي ضعيفٌ، ولكنَّه حسنٌ بالشواهد، فشواهدُه تدلُّ على أنَّه حسنٌ وثابتٌ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ولذَلِكَ الموتُ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة من علامة حسن الخاتِمة.

وذكر بعضُ العلماء عِلَّلاً، أنَّهُ يوم رَحْمَةٍ، وينبغي الكفُّ في تعليل ذَلِكَ، وَرَدُّ أَمْرِهِ إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، لكنَّهُ من دلائل حسن الخاتِمة أن يَموت الإنسان يوم الْجُمُعة إذا مات على الإيمان والتوحيد، فإذا مات ليلة الجمعة، وتبدأ بِمَغيب شَمس يوم الْخميس، وقبل مغيب شَمس يوم الجمعة فإنَّه قد مات في يوم الجمعة.

وقولُهُ: ((يومَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَتِهِ)) من باب عطف الخاص على العام:

إمَّا أن يكون الْمُرادُ بـ(يَوْمِهِ) العموم، فيكون من عطف الخاص على العام، **أو يكون** (اليوم) بِمعنَى النهار، أي نَهار الجمعة وليلتها.

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: وَهَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِمُتَّصِلٍ رَبِيعَةُ بْنُ سَيْفٍ، إِنَّمَا يَرْوِي عَنْ أَبِي عَبْدِالرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَلا نَعْرِفُ لِرَبِيعَةَ بْنِ سَيْفٍ سَمَاعًا مِنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍو

الشَّرْح:

وله حديثٌ آخرُ عند أحْمَدَ في مسنده، وهو مُحَسَّنٌ بالشواهد.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي تَعْجِيْلِ الْجَنَازَةِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ وَهْبٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ الْجُهَنِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رسولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لَهُ: **((يَا عَلِيُّ ثَلاثٌ لا تُؤَخِّرْهَا: الصَّلاةُ إِذَا آنَتْ، وَالْجَنَازَةُ إِذَا حَضَرَتْ، وَالأَيِّمُ إِذَا وَجَدْتَ لَهَا كُفْئًا))**.

الشَّرْح:

[بَابُ مَا جَاءَ فِي تَعْجِيْلِ الْجَنَازَةِ]: هذا البابُ تقدَّمَ معنا بيانُه وبيانُ مسائله وأحكامه، ومتى يجوزُ تأخيرُ الجنازة، وما يستثنى، وإلا فالأصلُ الذي دلت عليه النصوصُ أنَّهُ ينبغي المبادرةُ بالميت، وأنَّه لا يَجوز تأخيرُ الْجنازة.

وأمَّا بالنّسبة لِهذا الباب فهو متعلِّقٌ بكتاب الجنازة؛ لأنَّه متعلِّقٌ بسنة نبوية، وهي وجوبُ المبادرة بالجنازة، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- في الصحيح: ((**أسرعُوا بالجنازة**))، وقال في حديث شدادٍ: ((**لا يحلُّ لجيفةِ مسلمٍ أن تبقى بين ظهراني أهلِه**))، وبيَّنَّا أحكامَ التأخير عند وجود السبب.

يقول -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**يَا عَلِيُّ، ثَلاثٌ لا تُؤَخِّرْهَا**)) هذا من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كالوصية أنَّهُ يوصي عليًّا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

((**الصَّلاة إذا أَتَتْ**)): وفي بعضها: ((**إذا آنَتْ**)) أي حضرت، والصلاة إذا حضرت لا تؤخر؛ لأنَّ الله توَّعد من أخَّر الصلاة عن وقتها؛ **لأنَّ التأخير نوعان: تأخير** عن الفضيلة، **وتأخير** عن الوقت.

تأخير عن الفضيلة: إذا كانت الصلاة الأفضل فيها أن تؤدَّى في أول الوقت، **مثل:** صلاة الفجر وصلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب.

وأمَّا العشاء: فإنَّ الأفضل فيها التأخير.

أمَّا صلاة الفجر: فلأن النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ((**كان يُصلّيها بغَلَسٍ**))، ((**وكان ينفتلُ منها حين يعرفُ الرجلُ جليسَه**)) كما في حديث أبي برزة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وفي حديث أمّ المؤمنين عائشة: ((**إنْ كانَ النِّساءُ من المؤمنات يشهدْنَ الفجرَ مع رسولِ اللهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، **ثم ينقلبْنَ إلى بيوتِهِنَّ ما يُعرَفْنَ من شدّة الغَلَسِ**))، وقد تقدَّم معنا في (أبواب المواقيت).

وأَمَّا الظهر: فمعلومٌ كما في حديث أنسٍ: ((**أنَّهُ كانَ النبيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **يُصلّي الظهرَ إذا زالت الشَّمسُ**))، وهذا يدلُّ على مبادرته في أول الوقت، إلا في حال اشتداد الحر؛ لقوله: ((**إذا اشتدَّ الْحَرِّ فأبردوا؛ فإنَّ شدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**)).

وأمَّا العصر: فإنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- كان يعجّلُها في أول وقتها، ولذَلِكَ قال في حديث أبي الْمنهال سيَّار بن سلامة، عن أبي برزة الأسلمي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**ويُصلّي العصرَ، ثُمَّ يرجعُ أحدُنا إلى رحلِهِ في أقصى الْمدينةِ والشمسُ حَيَّةٌ**))، فهذا يدلُّ على أنَّه صلاها في أول الوقت.

وهذا كله إلا في صلاة العشاء، فإنَّها تُؤخر؛ لأنَّ الأفضل فيها التأخير.

((**وَالْجَنَازَةُ إِذَا حَضَرَتْ**)): هذا موضع الشَّاهد، ((**الْجَنَازَة**)): **تطلق** بمعنى السرير، **وتطلق** بمعنى الميت. والمراد هنا: الميت، أي أنَّه يُصلَّى على الميت؛ لأنَّه لا يُصَلَّى على السرير، وإنَّمَا يُصَلَّى على الميت، فلا يجوز تأخير الجنازة، وتأخير الصلاة عليها، وهذا هو الأصل.

والْحقيقة أنَّ الناس ضيَّعوا هذه السنة، وحبسُ الْجنائزِ أصبحَ سُنَّةً وعادةً معروفةً، وبئسَ العادةُ؛ لأنَّهَا مُخالِفةٌ للسنة وهدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وخاصةً إذا كانت من العلماء والفضلاء، فينبغي المبادرة بالجنائز، وهو هدي السنة عن رسول -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهدي السلف الصالح.

وأَمَّا مسألةُ: أن يكثر الشُّهود، ويكثر الدُّعاء، فهذا اجتهاد في مقابل النص، فإنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ في اتباع سنة النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، والميت مشتاقٌ ويَحِنُّ، ويتمنى لقاء الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وحبسُهُ على هذا الوجه مُخالفٌ للأصل، وهو أذية للميت، ولذَلِكَ يقول: ((**قَدِّمُونِي، قَدِّمُونِي**)) الجنازة تريد أن يُسرع بِها، وتريد أن يبُادر بِها إذا كانت صالِحةً، فهذا الاجتهاد أنَّه يكثر مَنْ يُصَلَّى عليه، وهكذا إنَّمَا رخَّصَ بالشيء اليسير، أن يَموت قبل الصلاة الْمفروضة بوقتٍ يسيْرٍ، يُمكن أن ينتظر حتى يكون العدد أكثر، هذا يُمكن.

أَمَّا أن يُؤخَّرَ اليوم، واليومين، ويُدعَى خالُه وعمُّه وصديقُه، وفلانٌ، وانتظروا فلانًا، وعلانًا فهذا مِمَّا لا أصل له، وهو مُخالفٌ للسنة، وينبغي المبادرة بالْجنائز، وهذا هو هدي الصحابة -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم-، والتابعين، ومن بعدهم، أنَّهُ لا تُؤَخَّرُ الْجنازة.

((**وَالأَيِّمُ إِذَا وَجَدْتَ لَهَا كُفْؤًا**)): والأيِّمُ الْمرأةُ التي لا زوج لَهَا، سواءً كانت ثيبًا أو بِكْرًا، **{وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ}**، وقد تُطْلَقُ بِمعنى الثيب، ومنه قوله -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((**البِكرُ تُستأذنُ، والأيِّمُ تُستأمرُ**)).

وعلى كل حال الأَيِّمُ الْمرأةُ التي لا زوج لَهَا، إذا حضر لَهَا الزوج والكفءُ في دينها، وحسبها، ونسبها، وغير ذَلِكَ مِمَّا يُشترَطُ في الكفاءةِ، وكان كفؤًا كريْمًا، فلا يَجوز؛ لأنَّهُ ظُلْمٌ. وعَبَّرَ بالكفاءةِ؛ لأنَّه إذا وُجِد الكفءُ فلا معنَى لتأخر الولي، ويكون تأخرُهُ حينئذٍ أذيةً للمرأة وظلماً لَهَا، وسيأتي في (باب النكاح) تفصيل ذَلِكَ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ حَسَنٌ، وَمَا أَرَى إِسْنَادَهُ بِمُتَّصِلٍ.

الشَّرْح:

الْمَتْنُ صحيحٌ، الْمَتْنُ تدلُّ عليه النصوصُ كلُّها، كما ذكرنا في الكتاب والسنة، ولذَلِكَ قال تعالى: **{وَإِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ}**، ونزلت في الرَّجُل من الأنصار حينما منع أختَه، فلا يَجوز للولي أن يعضل موليتَهُ.

وأَمَّا الصَّلاةُ إذا حَضَرَتْ: فالنص فيها واضح: ((**سألتُ النبيَّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: **أَيُّ العملِ أحبُّ إلى اللهِ؟ قَالَ: الصَّلاةُ على وقتِهَا**))، وهو حديث عبدالله في الصحيحين.

وهكذا بالنسبة للجنازة: حديث جابرٍ: ((**أسرِعُوا بالجنازةِ**)) في الصحيح، فهذه كلُّها الْمَتْنُ صحيحٌ.

وأَمَّا بالنّسبة للسَّند ففيه الكلامُ الذي أشار إليه المصنِّفُ، وسنتكلّم عليه في (كتاب العِلل) -إنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بابٌ آخَرُ فِي فَضْلِ التَّعْزِيَةِ]**.

قَال -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ الْمُؤَدِّبُ، حَدَّثنا يُوْنُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حدَّثتنا أَمُّ الأَسْودِ عَنْ مُنْيَةَ ابْنَةِ عُبَيْدِ بْنِ أَبِي بُرْزَةَ، عَنْ جَدِّهَا أَبِي بَرْزَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَنْ عَزَّى ثَكْلَى، كُسِيَ بُرْدًا فِي الْجَنَّةِ**)).

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عِيْسَى -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا حديثٌ غريبٌ، وليسَ إسنادهُ بالقويّ.

الشَّرْح:

هذا الحديثُ متكلَّمٌ في إسناده، **وأبو برزة**: نضلةُ بنُ عبيدٍ **في أصحِّ الأقوال** في اسمه، **قيل**: غير ذَلِكَ، وهو الصَّحابيُّ الجليلُ، صاحبُ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم أَجمَعِينَ- **والثَّكْلَى**: هي التي تَفْقِدُ، سواءً فَقَدَتْ ولدَها أو زوجَها، المرأة الْمكلومة التي فقدت تُعَزَّى

والمصاب بِها؛ لأن المرأة ضعيفة، وقد قال -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيْفَيْنِ** -كما في الصحيح-: **الْمَرْأَةُ، وَالْيَتِيْمُ**))، فوصفُ المرأة بكونِها ضعيفةً، فالْمصيبةُ على النساء أشدُّ من المصيبة على الرجال؛ لضعفهن، ولذَلِكَ تعزيتهن ومواساتُهن لَهَا أَثَرٌ.

ومن الأمور التي إن كان يعتنى بِها تعزيةُ النّساء، كأُمّ الميت، والناسُ اليوم يُقصّرون، كالعالم والشَّيخ ونحوه والْخطيب وإمام الحي يَحرص على تعزية الأُمّ والنّساء؛ لأنَّهُ في بعض الأحيان يُعتَنَى بتعزيةِ الرِّجال على وجهٍ تكونُ الْحاجةُ للمرأة أكثرَ، فقد تكونُ الأُمُّ مكلومةً مفجوعةً بولدها أكثرَ من غيرها، وهذا معروفٌ، فإنَّ حنانَ الأُمّ معروفٌ، ولذَلِكَ مثَّلَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- به في الأمر العظيم في الرحمة وقال: ((**أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قَالُوا: لا، قَالَ: لَلَّهُ أَشَدُّ رَحْمَةً بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**))، فهذا يدلُّ على عظم شفقة الأُمّ ورحْمتها بولدها.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ فِي رَفْعِ الْيَدَيْنِ عَلَى الْجَنَازَةِ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا الْقَاسِمُ بْنُ دِينَارٍ الْكُوفِيُّ، حَدَّثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبَانَ الْوَرَّاقُ عَن بْنِ يَعْلَى عَن أَبِي فَرْوَةَ يَزِيدَ بْنِ سِنَانٍ عَن زَيْدٍ وَهُوَ ابْنُ أَبِي أُنَيْسَةَ عَن الزُّهري عَن سعيدِ بن الْمُسَيِّبِ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **كَبَّرَ عَلَى جَنَازَةٍ فَرَفَعَ يَدَيْهِ فِي أَوَّلِ تَكْبِيرَةٍ، وَوَضَعَ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى**)).

الشَّرْح:

رفعُ اليدين تقدَّمَ معنا في صفة الصلاة على الميّت، **ورفعُ اليدين في الصلاة على الميّت:**

إمَّا أن يكون في التكبيرة الأولى، **أو** بقية التكبيرات.

أَمَّا في التكبيرة الأولى: فمتفقٌ عليه.

وأَمَّا بقيةُ التكبيرات: فذهب الحنفيةُ والمالكيةُ إلى أنَّهُ لا يرفعُ يديه. وذهب الشافعيةُ والحنابلةُ وغيرهم من أهل الحديث إلى أنَّهُ يرفعُ يديه، وصحَّ عن عبدالله بن عمر أنَّه كان يرفعُ يديه في بقية التكبيرات.

فمنهم مَنْ يقولُ: موقوفٌ، ولا يفعلُه ابنُ عمر إلا وقد رأى النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ومنهم مَنْ يقولُ: إن هذا الأمرَ لا يُحتجُّ فيه بفعل الصحابة، وإنَّمَا يُحتجُّ فيه بالْمرفوع.
فمن رفع له وجهُهُ، ومن ترك فله وجهُهُ، والذي لا يرفعُ **أقوى** من حيثُ الوارد، أنَّهُ لَمْ يَرِدْ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الرفعُ في التكبيرات.
والرفعُ في تكبيرة الإحرام وهي الأولى لا إشكالَ فيه، كلُّهم متفقون عليه.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إلا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذَا: فَرَأَى أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَرْفَعَ الرَّجُلُ يَدَيْهِ فِي كُلِّ تَكْبِيرَةٍ عَلَى الْجَنَازَةِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ.
وقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: لا يَرْفَعُ يَدَيْهِ إلا فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوري وَأَهْلِ الْكُوفَةِ، وَذُكِرَ عَن ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ قَالَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ: لا يَقْبِضُ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ.
وَرَأَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَقْبِضَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ، كَمَا يَفْعَلُ فِي الصَّلاةِ.
قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: يَقْبِضُ أَحَبُّ إِلَيَّ.

الشَّرْح:

أَمَّا بالنِّسبةِ قوله: (**أكثرُ أهلِ العلمِ**) هذا ليس المراد به الْجمهور؛ ولذَلِكَ لَمْ يذكرْ مذهبَ مالكٍ، ولعلَّهُ لَمْ يطَّلِعْ عليه.
ومالكٌ لا يرى الرفعَ إلا في تكبيرة الإحرام كالإمام أبي حنيفة؛ لأنَّه لَمْ يأتِ حديثٌ صحيحٌ مرفوعٌ بالرفع في بقية التكبيرات.
وأمَّا بالنّسبة للقبض، ووضع اليمين على الشِّمال: فقد تقدَّمَ معنا في (**كتاب الصلاة**) ذكر الأحاديث الدالة على أنَّ السُّنةَ وضعُ اليمين على الشِّمال في الصلاة، وهذه هي السُّنَّةُ، وقد سَمَّى النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الصلاةَ على الجنازة صلاةً، فيُشرعُ فيها ما يُشرعُ في الصلاة، فقال: ((**أُمِرْنَا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أَنْ نَأْخُذَ بِأَيْمَانِنَا عَلَى شَمَائِلِنَا فِي الصَّلاةُ**))، وهذا شاملٌ لصلاة الجنازة، فيُشرع أن يأخذَ بيمينه على شماله إذا صلَّى على الجنازة، **خلافًا لِمَنْ قال**: إنَّهُ لا يضع يَمينه على شِماله وبَيَّنَا هذه المسألة، وبَيَّنَا الأحاديثَ الواردةَ فيها، وهي سنّةٌ.

وأَمَّا القبضُ: فهو زائدٌ على وضع اليمين على الشِّمال.

القبضُ: يكون بالارتفاق بأخذ الشِّمال باليمين، وهو معنى قوله: ((**أُمِرْنَا أَنْ نَأْخُذَ**))، وهذا هو القبضُ، وهو نوعُ اعتمادٍ، ولذَلِكَ هناك فرقٌ بين وضع اليمين، وبين القبض، فأنت إذا وضعْتَ اليمينَ تَجدُ مشقةً، لكن إذا قبضْتَ ارتَحْتَ، وهذا معنَى كون الإمام مالك يقولُ: (**لا أعرفُه**) أي لا أعرفُ القبضَ (**ولا بأسَ به في النَّفل، وأكرهُهُ في الفرضِ**)، فرخَّص فيه في النافلة، ولَمْ يرخِّصْ فيه في الفرض؛ لأنَّهُ نوعُ اعتمادٍ، وليس معناه أنَّ الإمامَ مالكًا يقول بالسَّدْلِ، كما فهم بعضُ أصحابه، هذا من دِقَّةِ الإمام مالك.

أَمَّا وضع اليمين على الشِّمال فيقولُ به الإمامُ مالكٍ، وترجَّم له في كتابه الْموطأ: **[بَابُ وَضْعِ الْيَمِيْنِ عَلَى الشِّمَالِ فِي الصَّلاةِ]**، فكيف يقول: (**لا أعرفُهُ**)؟ فهو ليس مراده بـ(**لا أعرفُهُ**) الذي ورد في (**الْمُدَوَّنَة**)، والذي يَحتجُّ به بعضُ المالكية، مرادُه به: القبضُ، وهو الأخذُ، فقال: (**لا أعرفُهُ**)؛ لأنَّهُ لَمْ ترد السُّنَّةُ الواردةُ بالأخذ، فقال بوضع اليمين على الشِّمال، وهذا حَدٌّ، وأَمَّا الأخذُ وهو الزيادةُ، الذي ورد في الحديث الذي ذكرناه، وهو حديثٌ صحيحٌ، فقال: (**لا أعرفُهُ، ولا بأسَ به في النَّفل**)؛ لأنَّ النَّفلَ يَجوزُ فيه الاعتمادُ، وأَمَّا الفرضُ فإنَّه لا يَجوزُ فيه الاعتمادُ.

وهذا من فقهِهِ -رَحِمَهُ اللهُ-، وهذه العبارة في (**الْمُدَوَّنَةِ**) التي شوَّش بِهَا البعضُ، وقال: إنَّ الإمامَ مالكًا لا يرى وضعَ اليمين على الشِّمال، **وهذا ليس بصحيحٍ**، فالإمامُ مالكٌ يرى السُّنَّةَ وهو وضعُ اليمين على الشِّمال، ولكنَّه توَّقفَ في مسألة القبض، ورخَّصَ به في النافلة، وكرهه في الفرض، ولذَلِكَ قال عبدالرحمن بن قاسم: سألْتُ مالكًا عن القبض ،فقال: (**لا أعرفُهُ، ولا بأسَ به في النفل، وأكرهُهُ في الفرض**)، وضع اليمين على الشِّمال فيه ما لا يقلُّ عن عشرين حديثًا، ما بين صحيحٍ وحسنٍ وضعيفٍ قابلٍ للانْجِبَار.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **[بَابُ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَنَّهُ قال: نَفْسَ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ]**.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ غَيْلانَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيْمَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: ((**نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ**)).

الشَّرْح:

تقدَّمَ معنا هذا الحديثُ، وبيَّنَّا أنَّ معناه التغليظُ والتَّشديدُ في مسألة ديون الْموتى، وأنَّهُ ينبغي المبادرةُ في سداد ديونِهم -نسألُ اللهَ أن يسدِّدَ عنَّا دينَ الدُّنيا والآخرة، وأن يتحمَّلَ عنَّا حقوقَهُ وحقوقَ خلقِهِ بِمَنِّهِ وكرمِهِ ورحْمتِهِ، وهو أرحمُ الرَّاحِمِيْنَ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ، حَدَّثنا عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثنا إبراهيمَ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيْهِ، عَنْ عُمْرَ بْنِ سَلَمةَ، عَنْ أَبِيْهِ، عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((**نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ**)).

الشَّرْح:

ترجم الْمصنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِمضمون هذا الحديث.

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عِيْسى -رَحِمَهُ اللهُ-: هَذَا حَدِيْثٌ حَسَنٌ، وَهُوَ أَصَحُّ مِنَ الأَوَّلِ.

(آخِرُ كِتَابِ الْجَنَائِزِ).

نسألُ اللهَ العظيمَ ربَّ العرش الكريم أن يرزقَنا العلمَ النَّافعَ، والعملَ الصَّالحَ.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك علمًا نافعًا، وعملاً صالِحًا، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك الْهُدى والتُّقى والعفافَ والغِنَى، اللَّهُمَّ أصلحْ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلحْ لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلحْ لنا آخرتنا التي إليها معادنا، اللَّهُمَّ أصلحْ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلحْ لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلحْ لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعلِ الْحياةَ زيادةً لنا في كل خير، والموتَ راحةً لنا من كل شرٍّ، برحمتك يا أرحم الراحمين، اللَّهُمَّ اهدِنا ولا تضلَّنا، وارحَمْنا ولا تعذِّبْنا، وسامِحْنا ولا تُؤَاخِذْنا، وسامِحْنا ولا تُؤَاخِذْنا، وسامِحْنا ولا تُؤَاخِذْنا، وزِدْنَا ولا تنقصْنا، وأعطِنَا ولا تَحرمْنا وأكرمْنا ولا تُهِنَّا، وآثِرْنا ولا تؤثِرْ علينا، وأرضِنا، ورضِّنَا، وارْضَ عنَّا، اللَّهُمَّ يَمِّنْ كتابَنا، وحسِّنْ ختامَنا، وبيِّضْ في لقائِكَ وجوهَنا، وثقِّلْ موازينَنا، اللَّهُمَّ ارحمْ في موقفِ العَرضِ عليك ذُلَّ مقامِنا، اللَّهُمَّ ارحمْ في موقفِ العَرضِ عليك ذُلَّ مقامِنا، اللَّهُمَّ لا تفضحْنا يومَ العَرضِ عليك اللَّهُمَّ لا تفضحْنا يومَ العَرضِ عليك، اللَّهُمَّ لا تفضحْنا يومَ العَرضِ عليك، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك الْهُدى والتُّقى والعفافَ والغِنَى، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك هدايةً لا نضلُّ بعدها أبدًا، وسعادةً لا نشقى بعدها أبدًا، ورحْمةً لا نعذبُنا بعدها أبدًا، يا أرحم الراحمين، اللَّهُمَّ اجعلْ علمَنا شافعًا نافعًا يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ، إلا من أتاك بقلبٍ سليمٍ، سدِّدْ به لسانَنا، وصوِّبْ به آراءَنا، وثبِّتْ به جنانَنا، اللَّهُمَّ ثبِّتْنَا على الْحَقِّ حتى نلقاكَ وأنت راضٍ عنَّا، غَيْر خزايا، ولا مفتونين، ولا مغيِّرين ولا مبدِّلين، برحمتك يا أرحم الراحمين، اللَّهُمَّ اغفرْ للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، اللَّهُمَّ فرِّجْ هَمَّ المهمومين، ونفِّسِ الكربَ عن المكروبين، واشفِ مرضانا ومرضى المسلمين، وارحم موتانا وموتاهم أجمعين، اللَّهُمَّ اغفرْ لأموات المسلمين، اغفرْ لَهُم، وارحْمهم، وعافِهم، واعفُ عنهم، وأكرِمْ نُزُلَهم، وأوسِعْ مدخَلَهم، واغسلْهم بالماء والثلج والبَرَدِ، ونقِّهِم من الذنوب والخطايا، كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدنس، برحمتك يا أرحم الرحمين، اللَّهُمَّ أنت الله لا إله إلا أنت، نسألُك في هذا اليوم، وفي هذا الْمجلس المبارك ونحن صائمون لوجهك، مبتغين لفضلك، أن ترحمَ أمواتَ المسلمين رحْمةً عامةً تامةً، اللَّهُمَّ ارحمِ المعذبين، اللَّهُمَّ ارحمِ المعذبين، اللَّهُمَّ ارحمِ المعذبين، واكشفْ عنهم عذابَهم، وألطفْ بنا وبِهم، يا ارحم الرحمين، اللَّهُمَّ اغفرْ للأحياء، ويَيَسِّرْ أمورَهم، واشرحْ صدورَهم، واجعلْ للمسلمين من كلِّ همًا فرجًا، ومن كلِّ ضيقٍ مَخرجًا، ومِنْ كلِّ بلاءٍ عافيةً، اللَّهُمَّ ثبِّتْ أقدامَهم وسدِّدْ آراءَهم، وسدِّدْ سهامَهم، وصوِّبْ آراءَهم، اللَّهُمَّ اغثْ إخوانَنا في مشارق الأرض ومغاربِها بغوثٍ من عندك، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك أن ترحمَ موتاهم، وأن تشفيَ مرضاهم، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك أن تطعمَ جائعَهم، وأن تكسوَ عاريَهم، وأن تفكَّ أسراهم، يا حيُّ يا قيومُ، يا إلهَ الأولين والآخرين، اقبلْ شفاعتَنا لإخواننا،

اللَّهُمَّ انصرْ دينَك وكتابَك وسنةَ نبيك وعبادَك الصالحين، وأظهرِ الْهُدَى ودينَ الْحَقِّ الذي ارتضيتَهُ لنفسك على الدِّينِ كلِّه بعزتِك، يا رب العالمين، بعزتِك إلهَ الأولين والآخرين، اللَّهُمَّ وفِّقْ ولاة أمورِنا لِمَا تُحب وترضى، وخُذْ بنواصيهم لكلِّ بَرٍّ وتقوى اللَّهُمَّ انصرْ بِهم دينَك، وأعلِ بِهم كلمتَك، وانشرْ بِهم رحْمتك، اللَّهُمَّ آمِّنَّا في أوطاننا، وأصلحْ أئمتَنا وولاةَ أمورِنا، واجعلْهم هداةً مهتدين، يقولون بالْحَقِّ، وبه يعدلون، اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بك من فِتَنِ المفتونين، ومن إرجافِ المرجفين، وإبطال المبطلين، اصرفْ عنَّا الفِتَنَ ما ظهر منها وما بطن، برحمتك يا أرحمَ الرحمين، اللَّهُمَّ اغفرْ لآبائنا، وأمهاتنا، وإخواننا، وأخواتنا، وأزواجنا، ومشايخنا، ومُحبِّينا، ومن أحبَّنا فيك، ومن حضرَ مَجلسنا، ومن غابَ عنَّا، وأحبَّنا فيك، اللَّهُمَّ اغفرْ لنا أجْمعين، وهبِ الْمسيئين منَّا للمحسنيْن، برحْمتِك يا أرحمَ الرحمين.

سُبْحَانَ رِبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِيْنَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالِمِيْنَ.